

قَارِئُ الأُسْتَاذِ الإِمَامِ

السَّيِّدِ مُحَمَّدِ عَبْدِ اللهِ

(١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م)

الجزء الثاني

يحتوي على أهم مقالات الإصلاحية التي نشرت في الجرائد ولوائحه في إصلاح
التربية والتعليم الديني، ومدافعة عن الدين، ورحلته إلى صقلية وعلى كتبه
ورسائله إلى العلماء والفضلاء في الموضوعات المختلفة وعلى بعض حكمه المنشورة

جامعة

السيد محمد رشيد رضا

مشرقي مجلة المنار

(١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ = ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م)

الطبعة الثانية لدار الفضيلة

١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

﴿ فهرس الجزء الثاني من تاريخ الاستاذ الامام ﴾

(وهو جل منشآتة الاصلاحية والاجتماعية والادبية)

باب المقالات

الفصل الاول

ما كتبه في عهد طلبه للعلم بمصر وفيه مقالتان

صفحة	
١	المقالة الاولى في (فلسفة التربية) وهي ملخصة من درس السيد جمال الدين الافغاني
٧	» الثانية في (فلسفة الصناعة)

الفصل الثاني

(مقالاته في السنة الاولى من الاهرام)

١٥	المقالة الاولى - تقر يظ الاهرام
١٧	» الثانية - الكتابة والقلم
٢٣	» الثالثة - المدبر الالساني ، والمدبر العقلي الروحاني
٣٧	» ٤ العلوم الكلامية ، والدعوة إلى العلوم العصرية
٤٥	» ٥ الصحفة الادبية

الفصل الثالث

(مقالاته الاصلاحية ، في جريدة الوقائع المصرية الرسمية)

٤٩	المقالة الاولى - حكومتنا والجمعيات الخيرية
٥٢	» ٢ احترام قوانين الحكومة وأوامرها من سعادة الامة
٥٦	» ٣ حب الفقر أو سفه الفلاح
٥٩	» ٤ »
٦٣	» ٥ »
٦٩	» ٦ المعارف (انتقاد على وزارتها تمهيداً لاصلاحها)
٧٣	» ٧ »
٧٨	» ٨ أيضا
٨٠	» ٩ التربية في المدارس والمكاتب الميرية
٨٤	» ١٠ وخامة الرشوة
٨٧	» ١١ العفة ولوازمها

	صفحة
المقالة ١٢ - القوة والقانون	٩٢
» ١٣ ما أكثر القول وما أقل العمل	٩٨
» ١٤ متدياناتنا العمومية وأحاديتها	١٠٣
» ١٥ حاجة الانسان الى الزواج	١٠٩
» ١٦ حكم الشريعة في تعدد الزوجات	١١٣
» ١٧ خطأ العقلاء	١١٩
» » كلام في »	١٢٣
» » » » أيضا	١٢٧
» ٢٠ إبطال البدع من نظارة الاوقاف العمومية	١٣٣
» ٢١ بطلان الدوسة	١٣٦
» ٢٢ الدوسة	١٣٩
» ٢٣ ماهو الفقر الحقيقي	١٤٢
» ٢٤ وضع الشيء في غير موضعه	١٥٠
» ٢٥ الكتب العلمية وغيرها	١٥٣
» ٢٦ اختلاف القوانين باختلاف الأمم	١٥٧
» ٢٧ تأثير التعليم في الدين والمقيدة	١٦٤
» » » » بقايا »	١٦٩
» ٢٩ نيل المعالي بالفضيلة	١٧٢
» ٣٠ العلم وتأثيره في الارادة والاختيار	١٧٦
» ٣١ الملكات والعادات	١٨١
» ٣٢ الحياة السياسية	١٩٤
» ٣٣ الشورى	١٩٧
» ٣٤ والفانون	٢٠٠
» ٣٥ التمرن والاعتياد	٢٠٥
» ٣٦ التمدين	٢١٠

الفصل الثالث

(مقالات العروة الوثقى الاصلاحية)

المقالة الاولى - فاتحة مجلة العروة الوثقى	٢١٥
» ٢ الجنسية والديانة الاسلامية	٢٢٣

ج فهرس الجزء الثاني من تاريخ الاستاذ الامام

	صفحة
المقالة الثالثة - ماضي الامة وحاضرها وعلاج عليها	٢٢٧
٤ » النصرانية والاسلام (مقابلة بينهما)	٢٣٧
٥ » انحطاط المسلمين وسكونهم وسبب ذلك	٢٤٤
٦ » التمصّب	٢٤٩
٧ » القضاء والقدر	٢٥٩
٨ » الفضائل والذائل وأثرها	٢٦٨
٩ » الوحدة الاسلامية	٢٧٦
١٠ » والسيادة - أو الوفاق والغلب	٢٨٢
١١ » استوانة الفاتحين على الامم بامرائها ورؤسائها	٢٨٨
الامل وطلب المجد	٢٩٣
١٢ » رجال الدولة وبطانة الملك	٢٩٧
١٣ » كم حكمة لله في حب المحمّدة الحقة	٣٠٢
١٤ » الشرف	٣٠٧
١٥ » دعوى القرس الى الاتحاد مع الافغان	٣١٢
١٦ » امتحان الله للمؤمنين	٣١٧
١٧ » أسباب حفظ الملك	٣٢٠
١٨ » سنن الله في الأمم	٣٢٥
١٩ » الجبن	٣٣١
٢٠ » الامة وسلطة الحاكم المستبد	٣٣٥
٢١ » الروم	٣٣٧
استدراك على الفصل الاول	٣٣٨
٣ » الدولة العثمانية والحديوية المصرية	٣٣٩

الفصل الرابع

(ما نشر له بعد النبي من المقالات في الصحف السورية والمصرية)

المقالة الاولى - مصر وجريدة الجنة	٣٤٢
٢ » كتب المغازي وأحاديث الأقباصيص	٣٤٦
٣ » مرآلات	٣٥١
٤ » رسالة صموئيل باكر في السودان ومصر وانكلترا	٣٥٥
٥ » مصر - المحاكم الاهلية	٣٦١

	صفحة
المقالة السادسة - اللغة الرسمية في الحاكم الاهلية بمصر	٣٦٥
» ٧ الانتقاد	٣٦٩
» ٨ المسألة الهندية	٣٧٤
» ٩ بسمارك والدين	٣٨٠
» ١٠ آثار محمد علي في مصر	٣٨٢
» ١١ انما ينهض بالشرق مستبد عادل	٣٩٠
» ١٢ القضاء والقدر	٣٩١
» ١٣ الرجل الكبير في الشرق	٣٩٤
» ١٤ الحث على اعانة منكوبي حريق ميت غمر	٣٩٧

الفصل الخامس

(بعض ماكتبه في المناظرات الدينية وغيرها)

الرد على هانوتو	٤٠٠
ترجمة مقال هانوتو	٤٠١
رد الاستاذ الامام عليه	٤١٥
المقالة الثالثة في الرد على هانوتو	٤٢٥
الاسلام أيضا	٤٣٣
حديث مع المسيو هانوتو	٤٤٠
المقالة الرابعة - هانوتو والاسلام	٤٤٩
» » » » »	٤٥٣
» ٦ في الرد على هانوتو	٤٦٣
التربية التي يكون بها الانسان انسانا والجماعة الكبيرة أمة	٤٦٨

(باب الرحلات العلمية التاريخية)

بلرم - صقاية	٤٧٣
كنيسة موربالي وتساها العرب وأين هم العرب؟	٤٧٧
دير الكوشين ومدرستهم ومقبرتهم في بلرم	٤٧٩
المكتبة العمومية ودار المحفوظات	٤٨٣
حاجة السائح إلى معرفة اللغات وأياها أنفع	٤٨٥
مسينا ومقبرتها	٤٨٩
صخب الصقليين ونسولهم وكسالمهم	٤٩٢

رثائهم ووساختهم ومقاتلهم بالمصريين	٤٩٣
دور الآثار و بساتين النبات	٤٩٧
الصور والتمائيل وفوائدها وحكمها	٤٩٨
أمير وأميرة من الأسرة الخديوية	٥٠٢

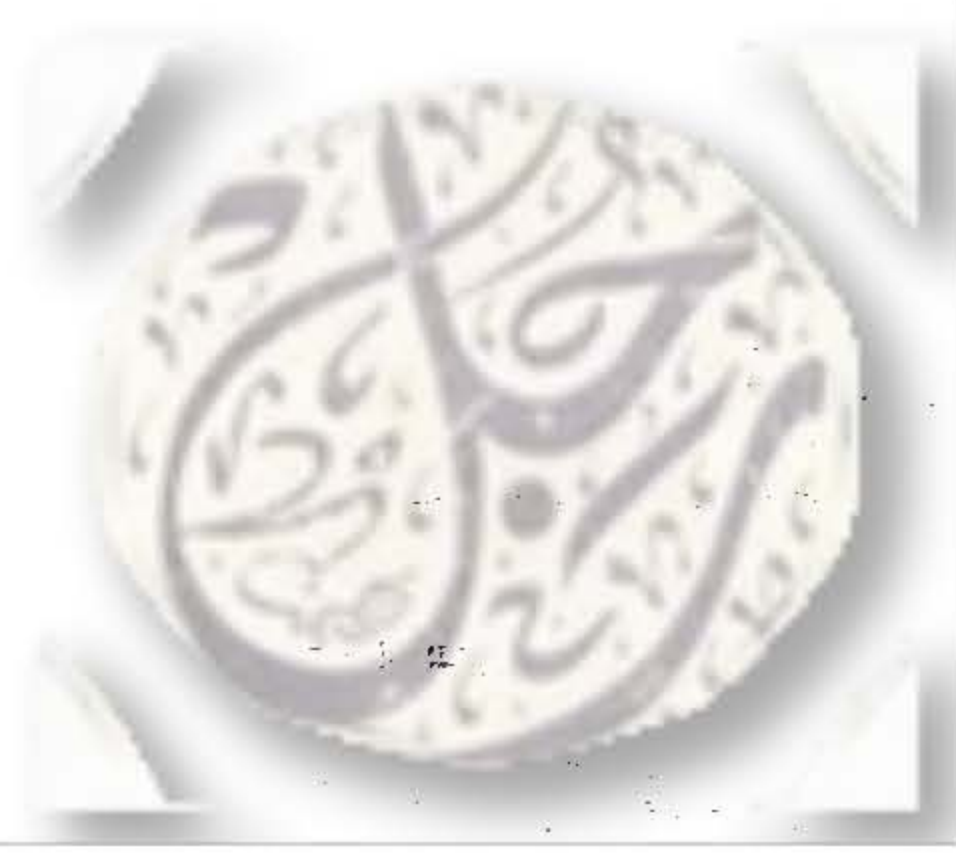
الباب الرابع

﴿ لوائح الاصلاح والتعليم الديني ﴾

اللائحة الاولى	٥٠٥
التعليم الديني الابتدائي لطبقة العامة المسلمين	٥١٢
» » الوسط للطبقة المرشحة للوظائف	٥١٣
» » العالي لطبقة المعلمين والمرشدين	٥١٥
كلام في الدعاة والمرشدين	٥١٩
اللائحة الثانية - في اصلاح القطر السوري	٥٢٢
حالة أمالي جبل لبنان	٥٢٤
» » ولايتي بيروت وسورية	٥٢٦
اللائحة الثالثة لاصلاح التعليم في مصر	٥٣٣
المدارس الاميرية	٥٣٩
» الاجنبية	٥٤٠
الجامع الازهر	٥٤١
الكتاتيب الاهلية	٥٤٣
المكاتب الرسمية الابتدائية	٥٤٤
المدارس التجهيزية والمدارس العالية	٥٤٦
المعلمون والمدرسون ومدرسة دار العلوم	٥٤٧

الباب الخامس

الفصل الاول - كتبه ورسائله الاصلاحية السياسية والدينية	٥٥٣
» الثاني - طائفة من كتبه ورسائله الودادية	٥٩٢
نموذج من كتبه في التعازي	٦٣٣
كلمة له في المنار	٦٤١
خاتمة في بعض كلمه المنشورة وحكمه الماثورة	٦٤٢



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إنا نحن نحي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم، وكل شيء أحصيناه
في إمام عيسى * (سورة يس)

مات الاستاذ الامام (الشيخ محمد عبده) ولم يمت بل هو حي
بآثاره، التي هي مقبس أنواره، مات المراتة الطبيعية، ورحي الحياة العقلية
الروحية فهو لا يزال كما كان، قبل أن يغيب عن العيان، تنقل أقواله،
وتذكر أعماله، وتكتب معارفه، وتشكر عوارفه، ولا غرو فان للعلماء
والحكماء في هذه الدنيا حياتين - حياة جسمية محدودة بتبديء يوم
الولادة وتنتهي بيوم الوفاة، وهي الحياة الحيوانية التي يشاركون فيها سائر
الناس بل سائر الحيوان - وحياة عقلية روحانية غير محدودة وهي تبديء
بظهور ثمرات عقولهم النافعة لامتهم أو لكل من يجنيها من الناس
وتدوم مادام الزمان، وبقي من المناظرين في آثارهم إنسان، وقد كان
الاستاذ الامام من خير هؤلاء العلماء، وأفضل أصحاب هذه الحياة من
الحكماء، تشهد له بذلك آثاره المرقومة في وجوه الصحائف، وما آثره
المرسومة في ألواح القلوب،

تلك آثارنا تدل علينا فانظروا بمدنا الى الآثار

يسفر لك هذا السفر من تاريخ هذه الحياة عن هذا النابغة المبقرى وهو

لا يزال تلميذا يقتبس أنوار الحكمة من أستاذه السيد جمال الدين، ويفيض منها على عقول المستمدين : بما يكتب من المقالات ، في فلسفة التربية والصناعات ، وآونة بحر الفصول الانشائية ، وبجلي الماعاني المصرية في أبواب الاسجاع الحريرية ، ويزفها بالخرايد ، على منصات الجرائد ، داعيا الى استقلال الفكر ، وتبادل علوم العصر ، حاثا على ترقية الامة ، حاضا على تجديد مجد الملة ، آمرآ بالاتحاد على ترقية الاوطان ، ناهيا عن التعصب القديم بين المختلفين في الاديان ، فهذا مثال طور الطاب والتحصيل من حياة الرجل العقلية ، يتبدى في الكتاب بمقالاته التي كتبها وهو في عهد طلبه للعلم بالازهر الشريف وينتهي بحكمه المأثورة ، ودرره المنشورة ثم يمثله لك في طور آخر . وهو تارة بين أرباب الرياسة ، يرشدهم الى طرق الادارة والسياسة ، ويهديهم سبيل الرشاد ، لترقية الرعية وعمران البلاد ، وتارة يشرف على الامة بالوعظ والتعليم ، ويسلك بها صراط الحياة المستقيم ، ببيان غوائل السرف وفوائد الاقتصاد ، وتقويم النفوس بمقائل الفضائل وأحاسن الآداب ، بمد تطهيرها من لوث الخرافات ، ومساوي التقاليد والمعادن ، يهبط على الفلاح في حرثه فيخطبه بما يفهم ، ويرجع بطالب الحكمة الى أفقه فيعلمه ما لم يكن يعلم ، — وهذا هو المشال الاول بطور العمل ، من الحياة الممنوية لرجل ، تجليه لك مقالاته في جريدة الحكومة الرسمية ، وجل عمله فيها خاص باصلاح حال البلاد المصرية ،

ثم تجليه لك مع أستاذه في الديار الاوربية ، مستحدين على إرشاد جميع الشعوب الاسلامية ، السيد الحكيم يفتح ويدبر ، والاستاذ الامام

يكتب ويجرد ، يدعو الى العروة الوثقى التي لا انفصام لها ، ويجمعان
القلوب على الوحدة وكانا أحق بها وأهلها ، هنالك تتجلى لك روح
القرآن ، هابطة من سماء الحكمة والعرفان ، مؤيدة بالعزة والسلطان ،
تطوف بتلك العروة البلاد ، وتصافح قلوب أهل الاستعداد ، فتحيبها
حياة جديدة ، وتجذبها الى عيشة سعيدة ، هنالك ترى الالهام الالهي ،
يمد بتأثيره العلم الكسبي ، فيصيبان موافق الاقتناع من العقل ، ويبلغان
مواضع التأثير من النفس ، فلا يقرأ القاريء ما في العروة من بيان حال
المسلمين ، وأسباب ما أصيبوا به من البلاء المبين ، وما تطب لدائمهم وتصرف
من دوائهم ، الا ويتننى أسير البرهان ، مملوك الوجدان بالاذعان ، مندفعاً
الى العمل بذلك البيان ، بالجنان واللسان والاركان ، وذلك طور ومستوى
القوة ، وكمال الفترة ، ومنتهى علو الهمة ، ويبيع النفس والوقت للملة والامة
ثم يظهره لك رابضاً في الديار السورية ، يعمل لاصلاح الاسلام
باصلاح الدولة العثمانية ، أو مقيماً في الديار المصرية ، يبين لاولي الامر
طريق الاصلاح بالتربية الدينية ، وهو في القطرين يتكلم عن فهم ثاقب ،
ويرمي عن فكر صائب ، يبين طبائع البلاد والساكين ، ويجمع بين
مصالحة الحاكمين والمحكومين ، ويهديهم الى الطريق السليم ، في نظام
التربية والتعليم ، معرضاً باستعداده لتنفيذ العلم بالعمل ، محصراً بضمان
تحقيق الامل ، وفي ذلك ما فيه من اعتماد على الله ، وثقته بالقوى والمواهب
التي آتاه ، يلوح لك ذلك في لوائح الاصلاح وما فيها من اشراع منهاج الفلاح
ثم يبرز لك في طور المبارزين ، للطاعنين على الدين المبين ، فيترأى لك أن
قاله أمضى من الحسام ، وكله أنفذ من السهام ، فهو بهما يكر ويصول ،

ويجندل من المجادلين الفحول، ولا يثنى الا والحق غالب على أمره، والباطل منلوب يأرز الى جحره، وحسبك من ذلك رده على مسيو هانوتوفى قوله فى طيعة الديانتين الاسلامية والمسيحية، ثم رده عليه فى مسألة الجامعة الاسلامية ثم يريكه يجوب الاقطار، ويقطع أجواز البحار، للنظر فى آثار الاولين؛ واستخراج العبر منها للآخرين، فتراه فى صقلية مرة يتصفح الصحف والاسفار، ويستنطق العاديات والآثار، ويقرأ ما نقش على الجدران بالربمية، لتحقيق المسائل التاريخية، ومرة يبحث عن الاخلاق والعبادات، وينقب من المنشآت والمستحدثات، يتردد بين الاديار والكنائس، والمقابر والمدارس، ثم يزف ما استفاد الى أمته، فيما كتب عن رحلته ثم يكشف لك عنه الحجاب، وهو يرسل العلماء والكبراء والكتاب، فتارة يتلو عنك من كتبه الى حزب المصلحين، وأهل البصيرة من علماء المسلمين، ما تحشع له القلوب، وتنحدر من وقعه الشؤدون، فكانك منه وقد عاد بك الاسلام، الى عصر النبي عليه الصلاة والسلام، فرأيت قلبك تترفق غيرة على الدين، وتفيض حزنا على ما حل بالمؤمنين، فلم يبق لها م الا أن تكون كلمة الحق هي العليا، وكلمة الباطل هي السفلى، أو كأنك سمعته فى عصر الراشدين، وكأنه معك أمير المؤمنين، يصول على الارواح بمواعظه الصادقة، ويختاب الالباب ببلاغته الرائعة،

ومرة يشنف مسامعك باللؤلؤ والمرجان، من رسائل الودادالى الاصدقاء والخلان فيمثل لك الادب الباهر، والالطف الساحر، وبصور لك الوفاء فى أجل صورده، والاخلاص فى أجل مظاهره، والصدق والحب على البعد والقرب، ويريك من ذلك الرجل الحزين على أمته، المستغرق فى عمل

الاصلاح للمنة ، أديبا ظريفا ، وندىما لطيفا . حسن الاماليح مليح الافاكيه
حلوا الفكاهة مرالجد قد زجت بشدة البأس منه رقة النزل
وأونه يقرئك مما كتب الى المؤلفين بالعربية ، أو المترجمين للكتب
الاجنبية ، ما يرفع من اقدارهم ، ويشب من نارهم ، وما يشهد غرارهمتك ،
ويزجي ركاب عزيمتك الى أن تكوذن من زميرتهم ، وتساهمهم في مثل خدمتهم
وأحيانا يسمك من تمازيه للاحزين ، وهـ راعظه للمرزوين
بالاقربين ، ما يحلو به مرير الصبر ، ويرغب فيما عند الله من المثوبة
والاجر ، ويترك القلوب مفثومة اثائرة ، قد سكت قدرها الفائرة ،
وأنشأت تشيع الاحزان ، وتقبل السلوان ،

ثم يختم لك ذكرى هذه الحياة الروحية ، والآثار العقلية بشذرات
من الحكم المنشورة ، والايات الماثورة ، فترى اجمالا ينبي عن تفصيل ،
وقليلا لا يقال له قليل ، كانه صورة مصغرة لتلك الروح الكبيرة ، أو
عناوين لتلك الكتب المسطورة ، على أن الكتاب كله نتف من أقواله ،
وعموزج من أعماله ، وإن آثاره في النفوس لاعظم من آثاره في الطروس
فهوكسي في الاخرة بما قدم من عمل ، حي في الدنيا بما ترك من أثر ، يمثل
حياته هذا الكتاب الناطق وينشر خبرها الى جميع مريدة الصادق

محمد رشيد رضا

منشيء المنار

(تنبيه) تزيد هذه الطبعة على الاولى عدة مقالات ورسائل وحكم منشورة ،
وحذفنا منها رسائل الواردات لقلة من يفهمها ولرجوع الاستاذ عن كثرتها وقد
بلغت الزيادة مع هذا ٩١ صفحة

باب المقالات

يدخل ما كتبه من المقالات ونشر في الجرائد في ثلاثة فصول
(أولها) ما كتبه في عهد طلبه للعلم بالازهر ولدى السيد جمال الدين الافغاني
(ثانيها) ما نشره بعد دخوله في طور العمل وتصديه لاصلاح الحكومة والامة
بمصر وهو ما نشره في جريدة (الوقائع المصرية) الرسمية (ثالثها) ما كتبه بعد
خروجه من مصر وتصديه مع أستاذه وصديقه السيد جمال الدين الافغاني لاصلاح
الاسلامي العام وهو ما نشره في جريدة (العروة الوثقى) التي انشئت في
(باريس) (رابعها) ما نشر بعد ذلك في الصحف المصرية والسورية

الفصل الاول

ما كتبه في عهد طلبه للعلم بمصر وهو أول عهده بالانشاء الذي عرف به في عالم
الصحف : وعندنا منه ما نشر في أعداد متفرقة السنة الاولى لجريدة الاهرام
الاسبوعية من العدد الخامس الذي صدر في ١٤ شعبان سنة ١٢٩٣ هـ الى العدد
« ٤١ » وهي السنة التي نال فيها بيليه « أي سنة ١٢٩٤ » شهادة العالمية من الازهر ،
وبعض ما نشر في جريدة مصر التي كانت لسان السيد جمال الدين ومريديه
وتلاميذه وهو مقالتان تجمعهما فاتحة المقالات وهما في الحقيقة للسيد وليس
لشيخ منهما الا العبارة :

المقالة الأولى

فلسفة التربية

في ليلة الاحد الماضي (١) انعقد درس الاستاذ جمال الدين الأفغاني، وانتظم في سلكه جم غفير من نهباء طلبة العلم وفضلائهم، وكثير من الافندية مستخدمى الدواوين. بمحضر هؤلاء وأولئك، شنف المسامع بمقال جليل في شأن تربية الامة وما يلزم أن يسلك من سبلها، ولما فيه من عظم الفائدة رغبت في نشره في الجرائد الوطنية (٢) همياً للفوائد، وبيانا لما انطوى عليه من حسن المقاصد، قال ما معناه:

إذا وجه العقل نظر الاعتبار الى الاجسام الحية بالحياة النباتية أو الحيوانية أو الانسانية علم أن قوام حياتها بتفاعل العناصر الداخلة في قوامها، تفاعلا متناسبا بحيث لا يتميز أحد تلك العناصر بالعلبة على باقيها، غلبة تقتضي بظهور خواصه وتسلطها على خصائص البقية، فبذلك التناسب يتم للبدن الحي ما يسمى بالمزاج المعتدل الحاصل لروح الحياة، فان غلب أحد العناصر على سائرهما، واضمحلت خواص بقيتها فيه، انحرف المزاج وخرج عن حد الاعتدال، واستولى المرض على الجسم، وكما يكون الاختلال وفساد البنية بتغلب بعض العناصر على ما سواه منها. كذلك يكون بمغالبة المزاج للحوادث الخارجية وغلبتها عليه، كالبرد الشديد المذهب لروح الحرارة الغريزية، والحر الشديد الموجب للاحتراق، وتحلل الرطوبة الضرورية المنتهي اليه اليبس نذير الموت والفتناء ومن ثم وضعوا علوم النباتات والحيوانات والطب البشري والبيطري، ليبحث في تلك العلوم عما به يحفظ التوازن بين البسائط التي يتركب منها الجسم

(١) كان ذلك في ١١ جمادى الآخرة سنة ١٢٩٦ أول يونيو «حزيران» سنة ١٨٧٩م

(٢) نشرها في جريدة مصر التي كانت تطبع في الاسكندرية وكانت مظهر افكار

السيد ومجلى حكمته وميدان اقلام مر يديه

ية ومحترز من تسلط الحوادث الخارجية عليه ، ويعاد به المزاج الى حالة الاعتدال
 ان خرج عنها لتم حكمة الله تعالى في بقاء الانواع الى آجالها المحددة بحكم الحكمة
 الازلية . فالنباتيون يعيتون الاراضي القابلة للزراعة والغراسة لكل نبات ،
 ويحددون الفصول الملائم هواؤها لنموه ، ويوضحون مواد التسميد ، وغير ذلك
 مما لا بد منه في تربية النباتات — وكذلك اطباء يبشون عن مواد الاغذية
 وما اذا يجب أن يتخذ منها لكل مزاج ، ومضار الاهوية ومنافعها ؟ ويقفون
 بتجاربههم الصادقة على الادوية النافعة لرد البدن الى حالة الصحة وآلات العلاج
 المفيدة حتى تحفظ بذلك على البدن صحته ، ويرجع اليها إن انحرف عنها .
 ولن يكون الطيب طبيباً يترتب عليه غايته حتى يكون على علم بالتاريخ الطبي
 وعلوم النباتات ليعلم خواصها ، ويميز نافعها من ضارها . وعلى بصيرة من اختلاف
 الامزجة ومقتضياتها ، وما يلائم كل واحد على حسبه ، وخبيراً بعلم الامراض
 واسبابها وكيفياتها من شدة وضعف ، وتاريخها من قدم وحدث ، حتى يعالج
 كلاهما يليق به . فان جهل من ذلك شيئاً كان فقهه خيراً من وجوده . فان
 الطيب الجاهل رسول ملك الموت ، إذ يجبهه يستعمل من الادوية ما عساه يهيج
 المرض ، ويعين من الاغذية ما يساعده على قسوته ، فيفضي ذلك الى هلاك
 المريض . وقد كان بدونه محتمل الشفاء بمقاومة الطبيعة لولا مساعدة الجاهل
 وعونه ، وكما يلزم للطيب أن يكون عالماً بجميع ما قدمنا يجب أن يكون شقيقاً
 رحيماً صادقاً أميناً ، لا يكون قصارى عمله ما يناله من جعل المعالجة . فانه إن كان
 قسياً عديم الرأفة أو كان خائناً فلربما ضار آله في أيدي أعداء المريض يستعملونه
 لهلاكه بالقائه السم في الادوية مثلاً ، أو إهماله في العلاج بما يقدمونه اليه من
 العرض الفاني . وكذلك إن قصر همه على ما ينال من الدينار والدرهم ، فانه
 إن كان على تلك الصفة لم يكثر بحال المريض مادام يوفى أجر عمله ، فان هلك
 فقد نال ما يزيد عن مكافأته ، وإن امتد المرض زاد الايراد بتوارد الاوقات ،
 فقدمه أيضاً خير من وجوده .

وكما أن روح الحياة البدني انما يستقر حيث تجتمع أصول متضاربة ينشأ من

تغالبها مزاج معتدل كامل، وبغلبة أحدها يفسد التركيب ويذهب الروح الحيوي من حيث آتى . كذلك روح الكمال الانساني إنما يكون حيث تجتمع أخلاق متضادة وملكات متخالفة ، يقوم من تضادها وتخالفها حقيقة الفضيلة المعتدلة التي هي ركن لبيت سعادة الانسان ، وعليها مدار حياته الفاضلة ، فان تغلب أحد الخلقين على الآخر ، فسد نظام الفضيلة ، واستحكمت الرذيلة ، وبات شقياً سيء الحال ، وسقط في مهوأة التعب والغاء ، المفضيين الى المين والهلاك .

ألا ترى أن النفس الانسانية لا بد لها من خلق الجرأة وخلق الخفاة ، وهما متضادان ، ومن مقاومتها على وجه معتدل بحيث يستعمل كلا فيما يليق به من المواقع ، تتحقق الشجاعة التي لو فقدت بتغلب الخفاة لكان فاقدها عرضة لتعدي جميع الحيوانات عليه ، ولم يستطع عن نفسه دفاعاً ، وكانت حياته تحت خطر يهدده في جميع أوقانه . ولو أن الجرأة تغلبت على الخفاة حتى ذهب أثرها كانت تهوراً وعدم اكتراث بالمهالك لحق ولغير حق ، بدون تبصر ولا مراعاة حكمة ، فيلقي بروحه في مهاوي الملكة بلا طائل يعود على نفسه أو وطنه وكذلك لا بد من خلق الامساك والبذل ، وهما متخالفان متعارضان ، يقوم من تغالبها في النفس فضيلة السخاء ، وهي البذل في موضع الاستحقاق إذا اعتدلا . ولو أن الامساك تغلب على ضده حتى اضمحل فيه لا مسك عن قضاء لوازمه الضرورية ، فلا يأتي باللائق من الاغذية والالبسة مثلاً ، فيضر بيده ، ولم يوف بحق مشاركيه في المعيشة كزوجته وولده ، أو في التعامل كجيرانه وأهل بلده ، فيقع الشقاق بينهم ، ويتأدى به الى شقاء دائم ، وغير ذلك من مفاصد البخل التي لا تنحصر . ولو تغلب البذل لأنفق جميع ما بيده في المفيد وغير المفيد حتى يصبح فقيراً فلا يجد ما ينمقه في أزم لوازمه فيهلك

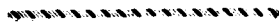
وهكذا جميع الملكات الفاضلة الانسانية إنما هي واسطة لطرفين متضادين لا بد من ظهور أثر كل منهما على نسبة معتدلة ، وبغلبة أحدهما على الآخر يختل نظام الفضيلة ، ولا محالة ينهدم بيت السعادة دنيوية كانت أو أخروية ، ولا يسعنا المقام لتفصيل ذلك . وكما يقع العناد بتغلب أحد الضدين على الآخر في النفس

يقع أيضاً بتغلب أمر خارج عن مزاج الفضيلة كغلبة التربية الفاسدة المغذية للعنصر الفاسد بمخالطة ذوي الملكات الرذيلة والغرائز الناقصة ، وانفعال النفس بحركاتهم وسكناتهم وتقليدها لأعمالهم ، وتقلدها بعباداتهم ، أو باستماع إغواء ذوي الاهواء ، وتمويهات أرباب الاغراض الفاسدة الدنيئة ، المذميين للافكار الرديئة ، المؤيدين للعقائد الباطلة ، التي ينبعث منها سوء الاخلاق المؤدي الى فساد المعيشة . فللنفوس علل وأمراض كما للابدان ذلك

ومن ثم قد وضعت علوم التربية والتهديب لتحفظ على النفس فضائلها وتردها عليها ان اعتلت وانحرقت عنها الى جانب النقص والاعوجاج ، كما وضع الطب ولوازمه لحفظ صحة البدن كما بينا — فالحكماء العمليون القائمون بأمر التربية والارشاد ، وبيان مفاسد الاخلاق ومنافعها ، وتحويل النفوس من حالة النقص الى حالة الكمال ، بمنزلة الاطباء ، وكما لزم للطبيب أن يكون عالماً بالتاريخ الطبيعي والنباتات والحيوانات وعلل الامراض وأسبابها ودرجاتها من شدة وضعف ، كذلك يلزم للحكيم الروحاني طيب النفوس والارواح إذا رقي منبر الارشاد لئلا يكون عالماً بتاريخ الامة التي قام بارشاد أبنائها وتاريخ غيرها من الامة أيضاً وأن يكون مطلعاً على درجات ترقبها ودرجات تدنيها في جميع الازمان ، وأن يسير أخلاقها بمسار الحكمة ليعلم أسباب أمراضها النفسية ، ويقف على درجات الداء وتمكنه فيهم وأنه حديث أو قديم ، قوي في النفوس أو ضعيف ، وما هو العلاج اللائق بكل صنف ، وكما أنه يجب على الطبيب البدني أن يكون على علم تام بمنافع الاعضاء وغاياتها كذلك على الطبيب الروحاني ان يكون عالماً بمنافع الاخلاق ومضارها على طبق ما في نفس الامر الواقع ، وكما يلزم أن يكون الطبيب شقيقاً رحيماً صادقاً أميناً ، لا ينظر الى الدنيا ، ولا ينحط الى المقاصد السافلة ، كذلك على النصحاء والمرشدين أن يكونوا من ذوي الاستقامة والفضيلة مرتقي الهمم ، أولي مقاصد عالية ، لا يبيعون الفضيلة بحطام الدنيا ، ولا بالتقرب والترلف الى الامراء والكبراء

أولئك هم المرشدون الحقيقيون فان رزقت الامة بمثلهم فبشرها بالسعادة .

وإن رزئت بمطيين لا أطباء، بأن سعد على منابر النصح فيها الجهلة والاغبياء، والسفلة والادنياء، فأندرهما بالعناء والشقاء، فإن المرشد الضال والنصح الجاهل يودع النفوس رذائل الاخلاق باسم أنها فضائل، ويفرس فيها جرائم الشر باسم أنها أصول الخير، ولربما كان مقصده حسناً ولا يريد الا خيراً، ولكن جهله يعنيه عن سلوك طريقه، ويبعده عن اتخاذ وسائله، فتقع الارواح في الجهل المركب، وهو شر من الجهل البسيط، فان ذا الثاني على باب الفضيلة لا يلبث ان فتح له أن يلجسه، وصاحب الاول قد بعد عن المقصد بمراحل، واستتر تحت قمع الرذيلة، واعتقد ذلك ظلالاً ظليلاً، فلا يمكن العدول عما وقع فيه الا بعد مكابدة شديدة وعناء طويل، فلا ريب كان عدم هؤلاء المرشدين خيراً من وجودهم، وكذلك إن كان خائناً أو دنيئاً ينحط الى سفاسف الامور أو عدم الشفقة والانسانية، فانه يتخذ النصيحة سلباً للوصول الى أغراضه الفاسدة ومطالبه الذاتية، فلا يبالي أوقع الافراد في خير أو شر، صفت النفوس أو تكدرت، ارتفعت الآداب أو انحطت، سحت الارواح أو اعتلت، فيكون آلة بيد الاشرار وأولي الاهواء، يستعملونه في فساد الامة والعشيرة لقضاء أوطارهم ألا وأن القائمين بأمر الارشاد يحصرون في قبيلين، قبيل الخطباء والوعاظ، وقبيل الكتبة والمصنفين، ومنهم أرباب الجرائد، فان كانوا على نحو الاوصاف الكاملة اللازمة لمقامهم هذا كما تقدم، فقد استحقوا التعظيم والاحترام والتبجيل والاجلال، واستوجبوا الشكر والثناء من كل قلب مخلص، وقاموا بخدمة أوطانهم وأبناء بلدتهم، وإلا استحقوا الرفض والطرده والابعاد، ووجب على من يهمهم أمر الاصلاح أن يقدفوا بهم من البلاد كي لا يفسدوها بمرضهم الوبائي الذي لا يقتصر ضره على المتبلي به، بل يتعداه بالسرابة الى كل ماسواه



المقالة الثانية

فلسفة الصناعة

قد عاد حضرة الاستاذ الفاضل ، والفيلسوف الكامل ، السيد جمال الدين الأفغاني الى التدريس بعد فترة تزيد مدتها عن سنة . فابتدأ حفظه الله يقرأ شرح إشارات الرئيس ابن سينا في الحكمة العقلية ، وهو كتاب جليل يحتوي من هذا العلم أصولاً جليلاً ، غرست أصولها في بلاد المشرق من مدة تقرب من ألف سنة ، إلا أنها نبتت فروعها في المغرب ، واجتثت ثمارها لغير غارسها ، ولم تزل في بلادنا على كليتها وإجمالها لم تخرج نتائجها العقلية من حد (١) القوة الى الفعل — إلا أن هذا السيد الفاضل قد جمع في تدريسه بين تدقيق الشرقيين ، وبسط الغربيين ، يجمع الى الاصول فروعها ، وإلى المقدمات نتائجها ، وإلى المجملات تفاصيلها ، بانياً جميع أقواله على البراهين الثابتة والحجج القويمة . ولما كانت دروسه العالية عظيمة الفوائد ، جمة الثمرات للعموم . رأيت من الواجب قياماً بالخدمة الانسانية أن أودع بعضها قوالب العبارات اللاتقة بها ، وأنشر طيب فدها في صحف (الجرنالات) لتعم الفائدة، والله يتولى التوفيق

بين حفظه الله وأثبت أن الانسان نوع من أنواع الحيوانات الارضية (لا كما يزعمه أرباب الأوهام كالصينيين وقدماء الفرس من أنهم من أبناء السماء فليترك من له فطنة) وأنه قد أتى عليه حين من الدهر وهو على مقربة منها ، ينشأ نشأتها ، ويسير في عيشه سيرتها ، يتفياً ظللال الاشجار ، ويستكن في الجحرة والاوكر ، ليس له شعار ولا دثار (ولكن خفيف أشعار) يقتات بنباتات وثمرات تحضرها له القدرة الالهية ، على يد القوى الطبيعية ، لا تمسها يد صناعية ، ولا تربية أجنبية ، ليس له من المنكر والتحليل إلا مالا يداني فيه (١) لعل الكلمة حيز بتشدد الياء فانها هي المستعملة في هذا المعنى ولفظ الحد صحيح فيه

الثعلب ، ولا من العلم والتدبير إلا ما يعثه على الغدو لطلب قوته من الاعشاب
 وثمار الاشجار، والرواح للاستكنان في كن يواريه عن أعين الحيوانات العادية ،
 والفرار من المكاره الحسية ، كما تفر الشاة من الذئب ، والارنب من الثعلب .
 ولم يكن له من رفعة القدر ما يجلسه على كرسي سلطنة الوجود ، و يقيمه متحكماً في
 كل موجود ، ويدعوه للحكم بأنه خلاصة العالم ومنتهى سير الحقائق وعماد عالم
 الكون ، وأن جميع البسائط والمركبات إنما خلقت لأجله ، والكواكب
 السيارات إنما تتحرك لخدمته ، بل كان ضعيفاً عاجزاً جاهلاً حافياً عارياً يزعمه
 كل حادث ، وتستفزه كل نبأة ، ويتيبب من كل شكل وهيئة ، والشاهد على
 ذلك ما تحكيه لنا أحوال الامم التي كأنها قريبة عهد بالانسانية في جنوب أفريقيا
 والقبائل المستمرة (١) في قم الجبال والاجم والغابات البعيدة عن العمران البشري
 المعروف ، الذين لم تضطرم الحاجات ولم تسقهم الضرورات الى الانتقال من
 مكان الى مكان ، فانهم لم يزالوا على سذاجة الحيوانية وبساطة الفطرة ، لا يفهمون
 خطاباً ، ولا يحسنون جواباً ، إلا ما كان متعلقاً بضرورة الحياة ، كجلب قوت
 بسيط ، ومدافعة عاد من الحيوانات ، وجميع ما يعده الانسان المتمدن كالا
 وإنسانية فهم يعيدون منه ، عارون عنه ، مع بعد تاريخهم وامتداد زمن وجودهم
 على سطح الارض

الا أن مبدع الكون جلت قدرته لما اختص هذا النوع من بين الأنواع
 الحيوانية بمخافة العجز والفقر والحاجة ، حيث جعل جميع لوازم حياته خارجة عنه ،
 لا تحصل الا بالتحصيل ، وليس تحصيلها الا بعد الكد والعناء : وهبه قوة عاقلة
 كلية التصرف ، عامة القبول ، و وكل تربية هذه القوة الى تعليم مدرسة الوجود
 السكلي ، فكان لكل نبات وحيوان ، بل لكل موجود مشهود حق الاستاذية
 وسابق الفضل على نوع الانسان ، فاسترشد بأعمالها ، واهتدى بآثارها ، والتقط
 درر الحكم من فعلها وانفعالها ، وتدرج في ذلك شيئاً فشيئاً ، تارة بخطيء وتارة

«١» استمر الرجل : جاز وذهب واطرد ومضى على طريقة او حالة واحدة

وهو المراد هنا

يصيب ، وطوراً ينجلي له الحق وآخر عنه يغيب ، مرة تعوقه العوائق القدرية والارادية عن إدراك الحقائق والوصول اليها ، وأخرى تجذبه الجواذب اضطراراً للوقوف عليها ، حتى وصل الى ماآراه من أحواله الغريبة وآثاره العجيبة ثم بين حفظه الله كيف كان يتقلب الانسان في سيره هذا ويقطع عقبات المصاعب ، ويخترق حجب الجهالات ، متقاداً في جميع ذلك لقائد الحاجة والضرورة يأتمر أمره ويتبع سيره ، تارة يتدرج الى الكمال فيقعد مقعد رئاسة الكون وسلطنة الوجود بما يرشده اليه من التنفن في الفنون واختراع الصنائع ، وأخرى ينحط به الى قعر جحيم الاوهام ، ويقذف به في جب الخرافات ، ويكبله بقيود الاعتقادات السخيفة . ويفعل يديه بسلاسل العادات والافكار الرديئة ، على أن جميع اعتقاداته الفاسدة الباطلة إنما نشأت له من قياس حوادث الكون وظواهره على ما يصدر عن ذاته (الشريفة) حيث جعل لها غايات تحاكي غاياته على تفصيل طويل في ذلك ، مستشهداً في تبيانه بشواهد أحواله الآنية المشهودة ، مستدلاً بجميع أعماله المنقولة المعهودة

وأنه في جميع مراتبه لم يكن ليقم ظهره بين الموجودات الا بدعائم الصنائع التي هدته الى اختراعها تلك القوة العاقلة الكافية ، لتكون له عوضاً عما سلبه من اللوازم الضرورية والحاجية والكفالية التي منحت لغيره من الحيوانات بأصل الفطرة . وليس ذلك بخاف على ذي شعور ، فان صنعة الحياكة مثلاً قائمة مقام القوة السامكة للجلود الغليظة المفرزة للأشعار والاورار الواقية لما أحاطته من صولة البرد والحر بل القائمة مقام ترس يحفظ جوهر بدنه من تمزيق عادية غيره . وصناعة الحديد والاسلحة منزلة منزلة القوة المولدة للمخالب والبرائن والانياب للسباع والضباع وعوادي الطيور . وهكذا بقية الصنائع ، وما لم يقم منها مقام ضروري أو حاجي قام مقام كلي على ما يتضح لك بعد

وإذا كانت الصنائع هي قوام هذا النوع وعليها مدار بقائه في أي مرتبة كانت رأينا من الواجب أن نعرف الصناعة ونقسمها الى أقسامها الاولية على

ما قرره الحكماء الاقدمون ، وأوضحه الفلاسفة المتأخرون ، ليتبين شرف كل صناعة على وجه الاجمال فنقول :

الصناعة قوة فاعلة راسخة في موضوع مع فكر صحيح نحو غرض محدود الذات . فالقوة منشأ الاثر مطلقاً ، فعلا كان أو انفعالا . فالمعلم مثلا ذو قوة الفعل ، والمتعلم ذو قوة الانفعال ، إلا أن قوة التأثير والقبول لاتعد صناعة ، ومن أجل ذلك قيدت بالفاعلة ، وليست كل قوة فاعلة صناعية مالم تكن تلك القوة راسخة في موضوعها تصدر عنها أعمال مستمرة على وجه منتظم . فالقوة الحالمية التي تعرض آناً وآناً ثم تزول ليست منها في شيء ، وما لم يكن فعلها تحت سلطان الفكر فلا تدخل في مفهوم الصناعة كالأفعال الطبيعية من إحراق النار وتمديد الحرارة وتجميد البرودة وما شاكل ذلك . فان لم يكن الفكر صحيحاً كفكر السوفسطائي المنسكربديهيات العلوم ، أو كان نحو غرض غير محدود الذات كأعمال الجدلبي الذي أخذ على نفسه أن لا يقر قولاً لقائل أيا كان ، حقاً أو باطلاً ، فليس له حد يقف عنده ، بل قوته متوجهة الى معارضة مقابله . فان كان نافعياً ، كان هو مثبتاً ، وإن كان مثبتاً كان هو سالباً ، فليس بصناعة

ثم إن من نظر في عالم الوجود الكلبي علم علم اليقين إنه وأن وقع كثير من صورته وكلاته تحت قوى طبيعية كقوى النمو والجذب والدفع ، أو قوى إحساسية كقوى طلب الغذاء مثلاً في الحيوانات ، أو الهرب مما يؤلم الجثمان ، إلا أن عامة أفعاله واقعة على ترتيب عقلي محكم . ونعني بالترتيب العقلي ما يكون مبنياً على مراعاة الغايات والحكم وفوائد السكالك التي تعود على نظام السكالك وتبقى ببقائه فان العقل على خلاف الحس إنما ينظر الى السكالك الباقي أولاً ثم يتدرج منه الى الجزئي لا العكس

وإن واضع هذا النظام العام قد خول الانسان من قوة العقل مالم يخوله غيره ، وجعلها محور صلاحه وفلاحه ، إن وجهها صوب وجهتها الحقيقية ، فان استعملها لغايات طبيعية أو حسية أي قاصرة على موضوعها المودعة فيه لا لتقيد سواه ، كأن يطلب بها تنمية بدنه أو جلب ما يلائم ذائقته أو نهامته وما يشبه

ذلك ، فقد أضع تلك القوة العالية الشريفة ، وسلمخ عنها ثمرتها ، وانحط الى درجات الحيوانات ، بل النباتات التي لم تمنح تلك المنحة الجليلة ، وأما من حفظ نفسه من السقوط وأمسك عليها حق تلك الخاصة أعني العقل ، فهو الذي ينظر الى كلية العالم الكبير ، فيعلم أن نوع الانسان وسائر الانواع من لوازم كماله أو تمماته، فيتوجه نحو حفظ ذلك الكمال، وبوقن أن نوع الانسان لا يحفظ بقاؤه في عالم الوجود الا بحفظ أشخاصه على التعاقب ، كما نبأنا اللطيف الخبير بما أودعنا من القوى المولدة والمصورة ، ويتحقق أن حفظ أشخاصه وأفراده إنما يكون بالاجتماع والالتئام لما لكل فرد من كثرة الحاجات التي يضيق نطاق وسعه عن أن يأتي عليها في الازمنة المتطاولة مع اضطراره الى جميعها في الآن الواحد ، كما تراه في مواد الاغذية التي لا تحصل الا بزراعة وحصاد ودرس ثم طحن ثم عجن وخبز وطبخ وهلم جرا . وجميعها أيضاً يتوقف على صناعات كثيرة من حدادة ونجارة ونحوهما ولوازم الاكتساء من العرى ، وضروريات المدافعة والمكافحة مع ضواري الحيوانات ، كل ذلك لا يكون الا بأعمال تستفرغ أجل الشخص الواحد في تعلمها فضلاً عن تحصيل غايتها منها ، فكيف به أن يستقل وهو محتاج الى ثمرات جميعها يوماً بيوم ، بل ساعة بساعة ، فلا بد من التعاون في الاعمال فيعتاض كل عن ثمن عمله بشرة عمل الآخر . فيكون المجموع الانساني كبدن ذي أعضاء ، يعمل كل عضوه للبدن لتكون عاقبته لنفسه . إذ لو طلب الاختصاص — مع أنه لا بقاء له الا في ضمن المجموع — فقد طلب فقد نفسه من حيث لا يشعر ، فاذا علم جميع ذلك وضع نفسه عضواً حقيقياً وركناً ثابتاً يقوم بأداء عمل يعود على كلية الافراد أولاً من طريق كليتهم ، ويعود الى شخصيته ثانياً .

ومبدأ هذا العمل فيه هو الذي نسميه بالصناعة، فمن لم يكن ذا عمل حقيقي يفيد المجتمع الانساني، ويعين على انتظام الهيئته الكافية، فهو كالعنصر الاصل لفائدة منه على البدن الا تكلف حمل ثقله مع عدم التألم من إزالته . فالاولى اياته وقطعه ، بل إن كان لا يعمل ويسمى الى بقية الافراد في عدم العمل كلاباحية الذين يعتقدون أنه لا ملكية لأحد في مال ولا عرض ، حينما جاعوا أكلوا ، أو شبقوا

واقعوا ، ويثون أفكارهم بين أفراد النوع ليقندوا بأعمالهم ، ويسيروا بمثل سيرهم ، فيتركون الاعمال اتكالا على ما يبد الغير حيث إنه مباح لهم ، فان تغلبت أفكارهم بطلت الصنائع وذهب ما يبد الغير وما بأيديهم ، فيحتاجون الى الضروي من الاقوات وغيرها ، ولا يجدون فيهلكون (١)

فأولئك كالأمرض السارية مثل الجذام والزهري لا بد من قطع العضو المؤسف « المصاب » بها وإلقائه في النار لئلا يتعدى ضرر مرضه الى سائر البدن ومن هذا القبيل الفساق والفجار وان لم يكونوا اباحيين فان أعمالهم قد تكون قدوة لغيرهم فيأتي من ضررهم ما أتى من أولئك فينبغي أن يعاقبوا ويؤدبوا ويحال بينهم وبين أعمالهم هذه بكل ما يمكن وان كان بالتعذيب حتى يستقيموا أو لا يقيموا ومن الناس من مثله مثل الأمراض الغير السارية والاعضاء الزائدة كمن أصيبوا بالآفات المانعة لهم من تعاطي الاشغال كالكسحاء والبله والمعاتيه فلا بد أن يتحمل ثقلهم ان لم يمكن استشفائهم فرار آمن ألم القلب عند اختزالهم واقتطاعهم ، لما لهم من العذر القائم ، اذ أن مدبر الكون قد حرّمهم عطاء العقل أو عطل فيهم آلات خدمته فهو غير مطالب لهم بأداء فروضه أو قضاء حقوقه ، الا أن الحق الأعلى قد بث في النفوس وأودع في القلوب النفرة السكّية من هؤلاء وأولئك الذين لم يقوموا بالواجبات التي تقتضيها منهم صورة الانسانية فهم مبعوضون في النفوس ، مطردون من زوايا القلوب ، ساقطون عن نظر الاعتبار ، بل هم ملعونون من أنفسهم أيضاً اذ يجد كل واحد منهم من نفسه عند ما يخلو بها أنه خسيس منحط الدرجة ردي العاقبة ، وان كان شقاؤه يغلب عليه فيما بعد ، فانظر الى حكمة ربك كيف تنبه الغافل ، وتؤيد العاقل ، ولكن أكثرهم لا يعقلون

وأما ذور البطالات ومن رفضوا الأسباب ووكأوا أنفسهم الى التوكل الكاذب

(١) قد ظهر بعد الحكيمين الافغاني والمصري صنف من غلاة الاشتراكية الشيوعية بسمون البلاشفة ويسمى مذهبهم الياشفني أو الياشفنية تغايروا على قيصرية الروسية فخر بها وعمرانها وأفسدوا أديانها وقضوا على ارواح الملايين من أهلها ، ثم شرعوا يثون دعايتهم في العالم كله وهم أولى بما قاله الحكيم في الاباحية

اذ لم يتحققوا معنى التوكل وظنوا أنه عبارة عن معارضة سنة الله التي قدخلت في عباده ودعوا ذلك تبثلا وانقطاعا عن عالم الظاهر، مع أخذهم لكشكول التكفف، وخلعهم لجلباب التعفف، فهم بمنزلة شعر الابط لا ينشأ عن تكاثفه سوى عناء الحك واستجلاب بعض العفونات ان لم يتعهد بالتطهير، ويستحب ازالتهم وتنقية الهيئة الاجتماعية من درنهم، فان بلغ من أمرهم أن يتخذوا ذلك أمراً يدعى اليه وذهبوا في الناس يحولون وجوههم عن الاعمال، ويقلدون أعناقهم سحج المسكر والحيلة، ويسربلونهم بسر ايل التمويه والتزوير، ويُغروهم بتأبط هراوة الشر واقتناء قدح الطمع، يودعون نفوسهم أخلاق الشيطان من حب الرئاسة الكاذبة وطلب الدنيء من الدنيا من كل وجه والحق والحسد والعداوات وغير ذلك ويحجبون ذلك بأستار من التليس (غير المنتظم) ثم يوصونهم أن أخرجوا أيديكم من تحت تلك الاستار طالين انتهاب أموال الناس والاستئثار بشمرات اكتسابهم باسم أنهم وأنهم وأنهم (كما ترى) وجب إلحاقهم بالاباحيين وتحتم على كل ذي شعور من بني النوع أن يسعى لقطع دابرهم واستئصال شأفتهم، كيلا يفسدوا أفكار العامة وأعمالهم، ويعود ويل ذلك كله على العامة والخاصة معاً، وبالجملة حيث تبين أن لاقوام للانسان الا بالصنعة، فن أخل بوظائفها أورامها بالتقد. فقد عمد الى هدم بديان الانسانية، فعابها أن تطرده من أبوابها، وتمحو اسمه من كتابها

أقسام الصنعة وشرفها

ثم ان الصنعة على التعريف المتقدم تنقسم الى أقسام، إما نافعة ضرورية أو غير ضرورية، واما أن تكون كثيرة النفع أو قليلة أو متممة لفعل الطبيعة أو مزينة له، فالقسم الاول كالحداثة لأنها مما يحتاج اليه جميع الصناعات العملية. والثاني كقصر الثياب مثلاً. والثالث هو ما يكون الغاية منه نفع الانسان لا غير كالحكمة التي هي مقننة القوانين وموضحة السبل، وواضحة جميع المنظمات، ومعينة جميع الحدود، وشارحة حدود الفضائل والردائل، وبالجملة فهي قوام

الكالات العقلية والخلقية ، ومن هذا القسم الحكومة العادلة ، والرابع (أي الذي هو خير بالواسطة) كالزراعة والكتابة ، فان لها غايات سوى نفس الانسان لكنها تؤول اليه . والخامس (وهو الكثير النفع) كالنجارة والتجارة مثلا . والسادس كصناعة الصيد وما شاكلها . والسابع كعلم الطب المتمم لأفعال القوى الحيوانية المساعد لها على أمام وظائفها . والثامن كالصبغة والنقش والتلوين وغير ذلك

ثم إن شرف كل صناعة وكل فن بعموم موضوعه وشمول غايته ، وأن أعم الاقسام موضوعا هو صناعة الحكمة لما بينا من أنها الباشئة عن كل ما يلزم للانسان اتخاذه في أعماله وأفكاره وأخلاقه ، فهي أشرف الصناعات والحدادة ، وإن كانت عامة لكنها من الحكمة بمنزلة الخادم المتقاد من السيد الحاكم الأمر اه



الفصل الثاني

ما كتبه في جريدة الاهرام أيام كان مجاوراً في الازهر وهو أول كتابته
الانشائية في الجرائد ومن قرأ هذه المقالات وما يأتي بعدها يتجلى له كيف كانت
بداية الاستاذ الامام وكيف ترقى الى تلك النهاية الحسنة الخاتمة. وعندنا منها . ولدنا
منها خمس مقالات

المقالة الاولى

تعريف الاهرام

جاء في العدد الخامس للسنة الاولى من جريدة الاهرام الاسبوعية
الصادر في ١٢ ايلول (سبتمبر) سنة ١٨٧٦ الموافق ١٤ شعبان سنة ١٢٩٣ ما يأتي:
وردت الينا هذه الرسالة من قلم العالم العلامة والاديب الفهامة الشيخ
محمد عبده احد المجاورين بالازهر فأدرجناها بحروفها :

الى حضرة الهام الكامل سليم أفندي محرر جريدة الاهرام
انه لما نظر لدى كل قاص ودان ، واشتهر بين بني نوع الانسان ، أن
مملكة مصر كانت في سالف الزمان مملكة من أشهر الممالك ، وكعبة يؤمها كل
سالك وناسك ، اذ كانت قد اختلفت بتربية العلوم ، وبث المعارف المتعلقة
بالخصوص والعموم ، وانفردت بالبراعة في الصنائع ، والابتكار في أنواع البدائع ،
فكان أبناء العالم اذ ذاك ينتدون نداها ، ويستجدون جداها ، يستمطرون من
الغيث قطراً ، ويستمدون من المحيط نهراً ، فكان التمدن فيها كهلاً ، حين كان
عند غيرها طفلاً ، ولا زالت كذلك حتى زها فيها التمدن وأعجب ، اذ رأى
الطالين تنسل اليه من كل حدب ، وأن ملوك الارض خدام عتبه ، وتيجان

الكيانين تحت قبضته ، فاستكبر واعتلا ، ولكؤوس الراحة اجتلا ، فاقصته الى ممالك الغرب ، ليدوق مرارة الشغب أو اللغب ، ويتربى بذلك ويتأدب ، فبدا بتلك الممالك غريباً ، ونادى معلماً فوجد محببياً ، وتناوشته أيدي المجاحدين ، ولفحته أقوال المنكرين ، ولا زال يحتمل أنواع المتاعب ، ويقاسي مستعصيات المصاعب ، الى أن بلغ بها أشده ، ومملك رشده ، وسار فيها شرقاً وغرباً ، وخامر ألباب القوم حباً ، فعم انتشاره ، وبت آثاره ، وتلاؤلات أنواره ، واذ تحلى بحل الجلال ، وتتوج بتاج الكمال ، وقضى مدة السباحة ، وباء بغاية الراحة ، استدار الزمان كهيئته ، ورجع الامر الى بدايته ، وقفل العمدن الى مسقط رأسه ومقر تربيته ، فورد ديار مصر وروود الاهلي ، وتمكن بها تمكن الاصيلي ، فاستقبلته الدير بغاية المسرة ، وأكرمت مشواه وأعظمت أمره ، واستردت ما كانت فقدت ، وأدنت ما كانت انأت ، وأحلته محل القرب ، وأزلته سواد اللب ، فقام يؤدي حق خدمتها ، ويوفي شكر كرامتها ، فنظر الى ما كان أعباه في تلك الازمان ، من شواهد البنيان ، التي كم بلغت الاسباب ، وحيرت الالباب ، وانأت بما فيها عن براعة بانها ، ونظقت بفيها ، ان آيات الكمال فيها ، فلما أعجب بالمثل ، حداه حادي الكمال ، لأن ينسج على هذا المنوال ، فانشأ لنا جريدة الاهرام المؤسسة على أحكم قواعد الاحكام ، الكافلة بارشاد المسترشدين ، وتنبيه الغافلين بما فيها من المباني الرقيقة ، والمعاني الدقيقة ، والافكار العالية ، المؤيدة بالبراهين الشافية ، القائمة بنشر العلوم ، بين العموم ، فيالها من جريدة أسست قواعدها في القلوب ، وامتدت مبانيها لكشف الغيوب ، تنادي بمقالها وحالها: حي على الفلاح ، وهلموا الى موارد النجاح ، لاتقفوا عند صورة المبنى ، ولكن تجاوزوا عنه الى المعنى ، تلك أهرام أشباح ، وهذه غذاء أرواح ، تلك ظواهر صور ، وهذه دقائق عبر ، تلك مساكن أموات ، وهذه لسان سر السماوات ، نعم أين ذلك الزمان ، من هذا الآن ، الذي قد سطعت فيه شمس العرفان ، ونشأ فيه بنو الانسان نشأة أخرى ، وتقلب في فنون الحقائق بطنا وظهراً ، فحقيق أن تكون أيامنا غير أيامهم ، وأهرامنا غير أهرامهم ، وأين الذي تفنيه الرياح

والامطار ، من الذي لا يوهنه توالي المدد والاعصار ، فان مقره العقول العاليات ، والنفوس الزكيات ، التي لا يتناولها الفناء ، ولا يتنذلها العناء ، فيخرج بمنشئها ، وطوبى لقاريها ، فمن الواجب على ذوي الالباب أن يجتنبوا جناها ، وأن يستطيعوا بسر معناها ، فيبوؤا بأنوار الحكمة ، وينقلبوا بفضل من الله ونعمة . فانه ليس شيء لدى العاقل أبهى من حقيقة يكشفها ، ولا ألد من حكمة يصادفها ، هذا

يجاز في مزاياها ، بسم الله مجراها ومرساها ، اه

(يقول جامع الكتاب) هذه بداية ، تشير الى ما عرفنا من الغاية ، فالتصور يدل على استعداد الخيال ، وناهيك بمجاور أزهرى للعلوم العصرية ميل ، لا ينكر منه المنتهي من انشائه الآن ، الاتحري السجع الذي كان منتهى البراعة في ذلك الزمان

المقالة الثانية

السكناية والقلم

وجاء في اهرام السنة الاولى ايضا مانصه وقد نشر في عدة اعداد اولها الثامن

وردت الينا هذه الرسالة من قلم العالم العلامة الاديب الشيخ محمد عبده أحد المجاورين بالازهر وموضوعها في أن فن القلم والسكناية من الوازم للضرورة ليس للعالم عنها مندوحة في تمييزهم الحقيقي :

إن مما انبسطت به أيدي الضرورات ، وأنتجت مقتضيات الحاجات ، انشاء لسان القلم ، نائباً عن المتكلم فيما يتكلم ، وذلك أنه لما اقتضى النظام الآلهي أن يخلق الانسان محتاجاً في أن يقوم بدنة مدمعة مدمعة من الراحة ، الى أن يتخذ مما خلق الله له في الارض مالم يكن حاصله ، وأن يكون منه مالم يكن كائناً ، بحسب الحلقة الاصلية ، ركب فيهم القوة النطقية ، واللطيفة الفكرية ، التي بها يكون ترتيب ما يحتاجون الى اتخاذه من المطعم والمشرب والملبس والمسكن . فقادتهم الفكرة الى اتخاذ الصنائع والآلات ، على حسب استدعاء الحاجات ومقتضياتها ، واضطرم ذلك الى الاجتماع بتفصيل لسنا الآن بصدد ، وانه وان صح أن يقوم كل شخص

بعمل من الاعمال والبراعة فيه بالآلات البدنية ، فليس في قوة كل أحد أن يكون مخترعا مبتكراً لما يحتاج اليه أرباب الاعمال في أعمالهم من اللوازم الضرورية ، أو الادوات التيسيلية ، أو لما به يكون صلاح ذات بينهم في المعاملات ، وفصل الامر بينهم عند الخصومات ، على ما يقتضيه انتظامه الاجتماعي الانساني بتفصيل لسنا الآن بصدهه أيضاً ، بل ذلك انما يقوم به أرباب الفكرة الوقادة ، والفطنة للقادة ومن البين أن مجرد صفاء الجوهر لا يكفي في ترتيب الأثر عليه ، بل لا بد في ذلك من أعماله وتربيته وإعداده لذلك الامر العظيم وتخليته عن جميع الأشغال سواء ، فان القوة الواحدة لا تكفي على البراعة لامور متعددة فاحتيج اذن الى اتخاذ أرباب التعاليم ليقوموا لهم بالعلم والارشاد الى طريق العمل ، ويقوم أرباب الاعمال باخراج ذلك من القوة الى الفعل ، فقام كل بواجبه ، واعتاض كل من صاحبه ، وكان نسبة أرباب التعاليم الى أولياء الاعمال نسبة الاب الشفيق ، والحنفي الرقيق ، ليس لهم فكر الا في ترفيتهم ، ولا نظر الا فيما يكون سببا لاسعادهم وأساساً لراحتهم ، واذ رأوا ذلك منهم تحققوا ما لهم من الفضيلة ، وانتضوا للقيام بشكرهم بكل حيلة ، فاشتغلت اذ ذلك أفكارهم ، وارتفعت أنظارهم ، واتسعت دائرة المعرفة ، وغدت آيات الحقائق منكشفة ، ففسر عليهم حفظ ما أسسوه وعظم عليهم أن يؤدوه كما أبدوه ، لكثرة المقدمات ، وتشتت الجزئيات ، وصعوبة ما يحتاج اليه القواعد ، مما لا يقوم بحفظ الكثير فضلا عن الواحد ، فاحتاجوا أيضاً الى اتخاذ ما به تحفظ أفكارهم بحيث يرجعون اليه عند النسيان ، ويذكرهم لدى البيان ، فطفقوا يتخذون صوراً من الاحجار ، وأخشاب الاشجار ، تحكي بالمناسبة عما يريدون ، وتنطبق على ما يقولون ، لتكون اشارة للعارفين ، وحجاباً على أعين الجاهلين ، وكان ذلك كافياً لنقطة من الزمان

ثم لما شيدت مباني العرفان ، وانتشرت المعارف بين بني الانسان ، وغصت الارض بالعلوم ، وسيرت فيها سير النجوم ، صعب عليهم الحفظ بالتصوير ، والتبس الامر على السميع البصير ، فأجئوا بالاضطرار الى حفظ ذلك بالارقام العلمية ، الحماكية عن الحروف اللفظية ، القابلة في الرسم للتأليفات الغير المتناهية

يكون أدنى التباس بين أشكالها، كما لا يحصل الالتباس بين الالفاظ عند تأديتها، فكان القلم لساناً آخر للمتكلم، الا أن ما نطق به اللسان الحقيقي عرض سيال، وما نطق به القلم جوهر لا يزال، فلصاحبه عند الذهول أن يرجع اليه، ولغيره من أهل لسانه أن يعول عليه فسهل عليهم بذلك حفظ آثارهم وبث أفكارهم، وفرغوا من شغل عظيم، ووضع عنهم وزر جسيم، كان يعوقهم عن كثير من التعاليم، وكان من ذلك أن حفظ قول القائلين من جيل الى جيل، على نحو ما نال من اجمال وتفصيل، فكان بذلك أفكار الازمنة المتتالية مجتمعة في نقطة واحدة، وكذلك أفكار أهل زمان واحد، على ما فيها من الشوارد، بدون اشتباه في ذلك، فحصل لذلك التعاون في الافكار، وايقاد سرج الاستبصار، فان أفكاراً كثيرة تقدمت أو تأخرت، بمنزلة لجنة قد انعقدت، للارتقاء في حقيقة أمر خفيت، والناظر الناقد بمنزلة رئيس الجمعية يرجح بين الاقوال، ويرى بنور بصيرته ما اليه أمر كل آل

فكم من وهم فاسد عنه اندفع، وكم من محال جاز وجائز امتنع، وكم من نور له بين تلك الآراء لمع، فكان له مكنة أن يمشي في ضوء مصباحه، وأن يضرب بسلاحه لطلب صلاحه، فوضع القواعد، وأقام الشواهد، ورمى بالقذى في عين الجاحد، فارقت العلوم الى ذراها، وارتبطت أولها بأخرها، وركضت العالم في ضوءها، واستقوا من هاغل نوءها، وعاد مثل الاول والآخر، في هذا العمل الفاخر، مثل جماعة تألبوا على إقامة بيت بالاشتراك، وكافوا كلاً على حسب حاله من المسكنة والادراك، أن يأتي بماله بال في إقامته، أو دخل في استدامته، أو ما يكون موجياً لحسن الترتيب، أو اتقان التركيب. فمنهم من ميز زواياه، ومنهم من فصل جوهره عن خباياه، ومنهم من أسس قواعد، ومنهم من أقام شواهد. وهكذا كل يسعى لتشيدته، وإقامة حدوده، واحكام قوائمه، واظهار علائمه، الى أن يتم بيت المعارف، الذي هو أمان لكل خائف، وهو حرم الله الذي من دخله كان آمناً، وعرشه الذي من استوى عليه كان بالعزة قنناً، وكل ذلك بسر سير القلم الذي به علم الانسان ما لم يعلم، وجمع الكل

في صعيد واحد ، ونادى فلباه كل قاصد . فهذا ايجاز في شأنه ، ويسير من بيانه ، في تسيير العلوم وارتقائها ، وتسهيل اقتباسها وابدائها
ثم لمسا عظم أمر المعاملات التجأوا الى التعامل بالنسيئة ، واحتاجوا الى حفظ وجه التعامل خوفا من النفوس الجريئة ، وكثرت وجوه الاعتداء من الأحزاب والشعوب ، والتجؤوا الى الاصلاح كيلا يبيدهم اللغوب ، وكان ذلك لا يستقيم الا بحفظ معاهدات ، تعتقد بينهم لمنع الاقترحات ، ولا يتم ذلك الا بأن يحفظ ما وقع اتفاق عليه ، على الوجه المرضي بينهم ليمكن الرجوع عند الاحتياج اليه ، فلم يوجد لذلك مستودع أمين ، ولا حصن مكين ، لا يداع هذه المعاني ، الا ما يشيده القلم من المباني ، فكان القلم هو الشاهد العدل ، والمحكم الذي عليه المعول ، ولولاه لم تحفظ حدود ، ولم يوثق بعهود ، ولم ينل المحق حقه ، بل يتسع المجال للبيطل وتبعد الشقة

ولما انتشر نوع الانسان في أقطار الارض ، وبعد ما بينهم في الطول والعرض ، مع ما بينهم من المعاملات ، ومواثيق المعاهدات ، احتاجوا الى التخاطب في شؤونهم ، مع تنائي أمكنتهم وتباعد أوطانهم ، فكان لسان المرسل اذ ذاك لسان البريد ، وما يدريك هل حفظ ما يبدىء المرسل وما يعيد ؟ وان حفظ هل يقدر على تأدية ما يريد ؟ بدون أن ينقص أو يزيد ، أو يبعد القريب أو يقرب البعيد ، فكلم من رسول أعقبه سيف مسلول ، أو عنق مغلول ، أو حرب تخمد الانفاس ، وتعمر الأرماس ، ومع ذلك كان خلاف المرام ، ورمية من غير رام ، ولم يكن في كلام المرسل ما يثقله بهذه الاوزار ، ولا من نفسه ما يشعل شرر هذه النار ، فوقعت الندامة ، وضرب الويل خيامه ، فالتجؤوا الى استعمال رقم القلم ، ووكلوا الامر اليه فيما به يتكلم ، فكان مبالغاً أوعى من سامع ، وهاجعا أسرى من لامع ، وقنوعا أغلب من طامع ، وصامتاً أنطق من ممانع ، فأدى القول كما سمع ، وحكى الصنيع كما صنع ، وآتى على المراد ، من فاسد أو سداد ، بل ربما كان أوعى للمقالة من القائل ، وأحفظ للأمانة من المالك الحامل ، فهو حينئذ حقيقة اللسان ، وغيرها مجاز عنه في البيان . فكلم من معاتب

تفر النفوس من عتابه ، ان هو أعتب في خطابه ، ولكن إن رقم آتى بالرقيق ،
ونادى نداء الشفيق ، فاستبدل الشقيق بالمشاق ، ورفع العنا ووضع الوفاق ،
فهو ان تكلم كلم ، وان رقم شفى الالم ، وكم من مؤدب فيه ، لا يستطيع
تحريك فيه بما يخفيه ، لا يفيد المستفيد ، ولا يوافي مرام المستعيد ، ولكنه ان
أجرى القلم ، نطق بالحكم ، وحج وأخم ، وحل وأبرم ، وأسس وأحكم ، فهو
وان لم ينطق بلسانه ، قد نطق ببراءه وبنانه ، فلم تعده فضيلة البيان ، وان
عضلته عصبه الاسان . وكم من خطيب نجيب ، وريب حسيب ، ان تكلم أقلق ،
وأطبق وأغلق ، وان كتب أعجب ، ورغب وأرهب ، وقرب وأبعد ، وجمع
وأفرد ، وأوقد نيران الالفة ، وعقد روابط الالفة ، وآتى برقيق التشبيه ، ودقيق التنبيه
ومن أجل آثار القلم ، اذ يعد من أعظم النعم ، ومن اللوازم أزم ، الجراند
(والجرنالات) التي هي أمل عظيم لترقي الملل ، وانتظام أمور الدول .

أما الاول فلائها توقف الملل على خصائصها ، الموجبة لنفائصها ، وتوضح لهم
أسباب الترقى ، وما به يكون التوقي ، وتنشر بينهم أخبار غيرهم من سلفهم وجيرانهم ،
وما به كانت عزة ملة وذلة أخرى ، وأي الامور لهم بالتمسك أخرى ، وتشوه لهم وجه
القييح ان ارتكبه ، وتعظم لهم أمر الجليل ان تركوه ، فنشرح مفاسد العادات
التي هم عليها كالجباله ، والتكاسل عن الصناعة ، والرضا بالفقر ، مع التردى
برداء الكبر ، والتمسك بالخرافات ، وفاسد الاعتقادات ، وجمع كلمة النفاق ،
وشق عصا الوفاق ، وغير ذلك من قبائح الافعال وذرائل الاخلاق ، وتقدم
لذئهم مصالح الفضائل كاتساع دائرة الافكار ، والتنقيب على ماني العالم من
دقائق الاسرار ، والمث على الاشتغال بالصنائع ، والاهتمام في ترقى البدائع ،
وطلب العيشة الراضية ، مع اليد العليا والهمة العالية ، والنظر في آراء الاوائل نظر
الناقد ، والتمسك بما قطع به البرهان في باب العقائد ، كيلا يفوت كثير من
الكالات ، ويفقد عظيم من اللذات ، وتبث بينهم أفكاراً تكون سبباً لتنوير
البصيرة ، وتطهير السريرة ، وتحرك فيهم حية الغيرة ، فينتبهون بذلك من
غفلاتهم ، ويستيقظون من سباتهم ، ويلتفتون الى مصالحهم ، ويقبلون عن

قبائحهم ، فيطلبون الخير ، ويجتنبون الضير ، ويرتفع من بينهم الجور ويوضع العدل ، وتطلع فيهم شمس المعارف ، وينسلخ عنهم ليل الجهل ، وينالون من الراحة والرفاهية مالا يحصر ، ويستولون من عظام الامور على مالا يصح أن يذكر ، وان أدركه أرباب النظر

وأما الثاني فلائها لسان سر السياسة فتنبئ عن نتائجها في الآن بل في الآت ، وتوازن بين الدول وقواها ، وتحقق النسب بين أضعفها وأقواها ، وتبين ما في نظامهم من الاختلاف ، وما في أفعالهم من الاعتلال ، ونتائج ما أبدوه من أسباب النجاح ، ومواد الاصلاح ، وحفظ الارواح ، وارتياح الاشباح ، وما اثنت عليه صدور السلاطين ، من عدل يزين وظلم يشين ، وترشدهم الى ما يجب أن يسلك فيما استولوا عليه ، وما يؤول أمرهم ان سلكوا غيره اليه ، وتعري وتحذر ، وتبشر وتندر ، فاذ ذلك ينتبه الغافلون ، ويحترس المستيقظون ، ويقوم الضعف المتلافي ، ويطلبون الحق بالملاصق والتجاني ، ويهرع المحتلون لسد خللهم ، وبراء عليهم ، وتخفيف أقالهم ، ويرتدع الظالمون ، ويعتبط المقسطون . وذلك كله مع تنائي الاقطار ، وتباعد الاسفار . فالقول الواحد يبلغ الجميع في قليل زمان ، وكأنما القائل والسامع في مكان ، فيعتضد البعض بالبعض في الخروج من الذلة ، وشفاء الغلة . وإنما مثل صاحب (الجرنال) مثل خطيب قام على منبر العالم وأمسك بيده صور اسرافيل ، ونادى بالحقير والجميل ، فنفخة تحيي ونفخة تميمت ، وعظة تصيب وأخرى تفتت . فمن الواجب على كل ذي دراية ، أن يكون له بمطالعة هذه الصحائف غاية ، ليكون على بصيرة في أمره ، ومصيباً في سيره ، نائلاً للخيره ، حذراً من شره ، متحرراً نحو المعالي ، طالباً ما نهتز اليه العوالي ، ويقف على خفيات الحقائق ، وورقات الدقائق ، ويخرج الى فضاء المعرفة ، ويطلق من غل الجهالة والسفه ، إن هذا الا بامداد مداد القلم ، وجريانه في ميدان تربية الامم ، والا فأن اللقيانت ، من بلاد تبت . وأين فارس ، من بلاد هند وفارس ، إذ يقوم عليهم رقيقاً ، وفيهم خطيباً ، يعظهم بالموعظة الحسنه ، ويحذرهم غرة السنة . ولقد ينبئنا ما انجر اليه علم أمر العالم في سيره ،

وليس له مكنة أن يعدل عنه الى غيره ، بأن صار القلم محتاجاً اليه في أدنى المعامات ، وأهون اللغات ، وخصما في جميع المنازعات ، وحكماً لدى المحاكمات ، حتى لم يبق للسان الا محاورات قليلة ، وموارد أخطارها غير جليلة ، فقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم

المقالة الثالثة

المدير الانساني والمدير العقلي الروحاني

وجاء في العدد ١١ منها الصادر في ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٧٦ — ١٤ ذي الحجة سنة ١٢٩٣ ما يأتي وتنته في ٢٣ ع

﴿ وردت الينا هذه الرسالة من قلم جناب العالم العلامة ﴾

﴿ الشيخ محمد عبده أحد أهل العلم بالجامع الازهر ﴾

إن النظر في الآثار الانسانية على اختلافها بحسب الخصائص الشخصية، واثلافها في الغايات النوعية ، ينبئنا بأن الحقيقية الانسانية تشمل على مديرين عظيمين (أحدهما) المدير الحيواني مع ما يستتبعه من جميع الاحساسات الظاهرة والباطنة (والآخر) هو المدير العقلي الروحاني السكلي . ولكل واحد منهما — اذا لوحظ وحده بقطع النظر عن صاحبه — غاية يطلبها ، وحدود في سيره لا يجاوزها . فالمدير الحيواني ليس له من غاية سوى حفظ تركيب الحيوان الى حد معلوم ، والى زمن مخصوص ، فهو منوط باللوازم الكافلة لهذا الغرض من جلب ما تقوم به البنية ، ودفع ما فيه مضرة أولها عنه غنية ، على قدر الامكان ، حتى يقوم هذا المزاج سالما مدة ما من الزمان ، وذلك أيضاً هو حال سائر الحيوانات العجم . يرشدك الى ذلك التأمل في آلاتها البدنية ، وآثارها الحياتية . فان حيواناً من الحيوانات لم يكن لتتوجه ارادته ، الى سوى ما يقوم بدنه ، أو دفع ما يبتري عليه مما يوهنه ، فان رجليه لم تكن تسمى الا لطلب المرعى أو للهرب

من قاصد ايلام ، أو للاستقاء من حر أوام ، أو ليقوع سفاذاً ، ليتخذ لمن نوعه أولاداً ، بل لاشعور له بهذا الاخير ، وانما هو ليدفع عن بدنه ما كان يناله بالتأخير ، ولا سكنت الا للاستراحة من تعب ، أو لياوى حيث أعياء الطلب ، ولا تحرك منه خيال ، لغير ما ذكرنا على أي حال . فهذا مطمح نظره ، وقصارى أمره في سيره . وليس له في هذا السير سوى خدمة الطبيعة ، ومساعدتها بأتمام تركيب العالم العنصري ، واستبقاء أنواعه ، واستكمال آثاره البسيطة . فقد علمت أن الانسان في هذا مشارك لغيره من الحيوانات ، وليس يمتاز فيه عنها بشيء من جهة من الجهات

وأما المدير العقلي فهو من حيث هو ليس له من غاية سوى كشف المعنى ، وان بعد المرمى ، على وجه لا يلحظه فيه الريب ، ولا يتطرق اليه أدنى عيب ، والتحلي بالملكات الفاضلة ، والتنزه عن الصفات غير الكاملة ، وذلك بأن يأخذ بالقسط ، ويقف على الحد الاوسط ، فيما يجب أن يقع من تصرفاته ، مع اغياره أو في حد ذاته ، وأن يفيض على الغير مما استفاد ، أو أن يضع النجاح ويرفع الفساد ، ويقرر قواعد الوفاق ، ويقلع أساس التفرق والشقاق ، وكل ذلك على مقدار قوته ، وما يملكه من مكنته . فهو السابح في ييذاء الوجود ، ليميز الواقع من المفقود ، ويقف على أصول الكون ، وما نشأ عنها لونا بعد لون ، ويكشف عن وجوه الاسرار بزاقع الآثار . فلا يدع مدينة الا قرع بابها ، وطعم طعمها واستقى شرابها ، ولا حسناء الا كشف نقابها ، ورشف رضابها ، ولا عميقاً الا وقف على قراره ، ولا مرتفعاً الا أتى عليه بمعياره ، وعلى هذا المنوال حتى يصبح وقد استغنى عن العالم بصدرة ، واكتفى عن مخبريه بمخبره ، وأضحى خلقاً جديداً ، وعلى كل شيء بذاته شهيداً ، وانطوت في وحدته الكائنات ، واتحدت في ذاته المختلفات

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد ، فحينئذ يضع موازينه ، ليحكم قوانينه ، فقد عرف النافق من الكاسد ، وميز الصحيح من الفاسد ، فيأخذ بما استطاب ، ويدع ما منه استراب ، فلا يدع

شاردة من الفضائل الا اقتنصها ، ولا ناشزاً من المكرم الا قص قصصها ، ولا دفيناً من المحاسن الا أبرزه ، ولا خليطاً الا أماط عنه ما يشوبه وأفرزه ، ولا نقیصة الا أولأها النفاًر ، وولأها الادبار ، فلا يدينه ميله من السفاسف ، ولا يقصيه عزوه عن المعالي وان دونها القواصف ، فلا يكاف ثقل العار ، ولا يستنكف الأخذ بالثار ، واذا دعت اليه داعية الحق ، وان جل الخطب واتسع الخرق ، وحينئذ يستميح مسامع أمثاله ، ليمدهم من نواله ، ويفرم فيهم أشجار النجاح ، ليحتوا منها ثمار الفلاح ، ويجنبهم رية الاختلال ، ويضع لهم ما يعبرون عليه في لجج الاشكال ، وهذه هي الآثار التي قد امتاز بها الانسان عن سائر الحيوانات ، فلا ريب كان المدير العقلي هو الانسان بالحقيقة

هذا ما لكل من المدبرين على حدته ، الا أن سير الوجود قد اقتضى أن يكون مجموعها طبيعة واحدة ، وهي الحقيقة الانسانية ، وان يقع الوسط بينهما على وجه محكم ، حتى أن الاتحاد بينهما ربما يتوهم ، وأن يكون كل منهما محتاجاً الى الآخر في ابداء عماله وبلوغ كماله ، وهاك الشاهد: فانا قد بينا أن المقصد الاعلى للعقل ، انما هو استكشاف أسرار الوجود ، وابرار ما استتر في عالم الشهود ، وذلك مقام لا يعاوه كعبه ، ولا يأتي عليه عناؤه وتعبه ، عند استبداده بذاته ، وصرف الوجهة عن آلاته ، بل الطريقة المثلى في ذلك ، والمسلك الوحيد من بين المسالك ، هو استعمال هذه الآلات الجسدانية ، ليتوصل منها الى ما يتطلبه من الدقائق الخفية . فانها تقدم اليه من صور الكائنات ما لم يكن يحضره ، ولم يكن يبلغه خبره ، فانا لو فرضنا أن العقل قد فطر على أحسن الفطر ، ونشأ على غاية من صفاء الجوهر ، ولكنه لم يستعمل حس البصر ، فهل كان يتمكن من استقبال وفد الضياء ، أو استطلاع سكان الفضاء ، حتى يحدد دائرة أورانوس ، ويهاجم العقرب بالقوس ، ويجمم بين الاسد والثور ، على الجوار بلا تعد ولا جور ، ويعين ما لبدرنا من المنازل ، وأين حوت ليالي وصله وهجره نازل ، ويعين سير الكاتب ، ويستكشف ما نال المشتري من العجائب ، وينبي عن ذي الحلقتين ، ويحقق ما بين السماكين ، ويقف على ما لشمسنا من التدبير ،

(٤ — تاريخ الاستاذ الامام — الجزء الثاني)

في هذا العالم الكبير ، وكيف أن كل هذا العالم اليها فقير ، ومن مركزها الحقيقي يستمد التيسير في المسير ، ويقدر ما بينها من الابعاد ، وما تشمله كل كوكب من الامتداد ، ومن أين كانت تأتيه هذه الصور ، حتى تحدته بما لديها من العبر ، وهل كان يقف على حقيقة الالوان ؟ وما للضياء من الاختراق والسريا ، وكيفية وصوله من النيرات الى الارض ، وانتشاره في الطول والعرض . وهل كان يدرك سير الأنواء ، وحوادث الهواء ، من برق يخطف الابصار ؟ ومدارات البان على بنات القفار ، حتى يقف بذلك على أسرار كبيرة ، ويقتني فوائد غزيرة ، وهل كان محضره تراكيب الحيوانات على اختلافها ، وتناسب أعضائها واثلافها ، وارتباط الأعصاب والعضلات ، وجذب طلبات الشرايين مادة الغذاء الى جميع الجهات ، وغير ذلك مما تحاربه الافكار ، وتعشى فيه الابصار ، حتى يقف على شيء من سر الخلفة ، وينال من الواقع حتمه . وهل كان يستطيع إحكام آلات التحليل ، حتى يستيقن الاصيل في عالم التركيب من النزيل ؟ ألا إن فضائل البصر لدى العقل لا تنكر ، وفوائده المجلوبة منه اليه لا تحصر

ولو أنه لم يصرف وجهه الالتفات الى ما يأتي بالسمع من الاصوات لكان أول ما يفقده من الفضائل ، الفضيحة التي ليس لها من معادل ، وهي تقطيع الصوت بالحروف ، على وجه معروف ، لتكون علائم حاكية عما تكنه الصدور ، وما هو وراء حجب الظواهر مستور ، فيقف كل من بني النوع على أفكار الآخر ، التي قد كابد عليها وثابر ، فتكون ميداناً تجول فيه فكرته ، ومحجة تمتطيا حجته ، فتكثر بذلك العلوم ، ويتسع مجال الفهوم . فان الأمر على ما بيناه في مقالة قلمية أبديناها سابقاً وهو أن مثل أفكار كثيرة تقدمت أو تأخرت ، مثل لجنة قد انعدت ، للارتقاء في حقيقة أمر خفيت ، والمستبصر الناقد كرئيس لتلك الجمعية يرجح بين الاقوال ، ويحقق بعين بصيرته ما اليه أمر كل ما آكل ، فتدفع عنه وساوسه وتتجلى اليه عرائسه ، ويشرق له في نفسه شمس من البرهان ، ويأخذ بالالباب من آياته سحر من البيان ، فكان له مكنة أن يسير في ضوء مصباحه ،

وأن يضرب بسلاحه لطلب صلاحه . فوضع الشواهد ، وأقام القواعد ، ورمى بالهذى من عين الجاحد ، وفوائد السمع سوى هذه كثيرة

وكذلك حاسة الشم قد قدمت اليه أنواع المشومات ، وحاسة الذوق أنواع المطعومات . وحاسة اللمس أرشدته الى مبدأ الصلابة واللين . فأرشدته كل ذلك للبحث في أسرار هذه الاختلافات وأسبابها ، وعللها الفعالة وعلاقتها بها . وذلك باب من العلم عظيم ، وخطبه جسيم . ولو أن المدرك العقلي فينا وقف على نقطة واحدة ، واتخذ له متبوءاً أعلى حدة ، هلا كان يفوته كثير من المعلومات ، ويعوزه الاطلاع على جم من الكائنات ، بلى فلا بد من الانتقال من أين الى أين ، والايغال في البون واليين ، والاستبصار فيما يراه كيلا يعود بخفي حنين ، فتحتم عليه لنيل كمال الأرب ، تحريك كثير من الآلات البدنية نحو الطلب ، والا فليس يدرك الانزراً ، ولا يحمل الا وزراً . شعر

إن العلى حدثني وهي صادقة فيما تحدث أن العز في النقل

لو كان في شرف المأوى بلوغ مني لم تبرح الشمس يوماً دارة الحمل

فقد تنورت من هذا أن ليس للعقل عن شيء من هذه الآلات غنى ، ولا

لا شجاره دون سقيها جنى

هذا هو الاضطراب العقلي الى الحيوان في كلالته الادراكية ، وجدير بأن يكون كذلك في كلالته العملية ، كالاقدام والاحجام ، لربط وثام ، أو تقرير نظام ، أو دفع عار ، أو تأنيس نفار ، أو وضع عدالة ، أو إقناذ من ويل جهالة ، أو إغانة ملهوف ، أو مواصلة مشغوف ، وغير ذلك مما يجب أن يكون العالم عليه ، ولا راحة للكون الا بأن يصار اليه . وكذلك الحيواني في الانسان ، مضطر الى العقلي في بقائه مدة ما من الزمان . فان الانسان لما شغفته عرائس الاكوان حبا ، ودعته لوصلها: هلم قربا ، تنكب عن مقامه ، وأسرع في إقدامه ، فبرز اليها قبل أن تسج له أيدي القدر لباساً يقيه ، أو تصنع له فعلا يحتذيه ، بها ترفده من حدة الناب ، وقوة الخلاب ، مابه يتخلص من مهاجمه ، وينتصف من مقاسمه ، ولم تهبه من القوة الطبيعية ، ما يتعشش معه بمطلق النباتية ، فكان

بأدي البشرية ، حافي القدم ، مجرداً عن آلات الذب والدفاع ، معرضاً لصنع
 البلايا ، وهدفاً لسهام المنايا ، يوهنه الحر ، ويودي به القر ، ويلجئه الاضطرار ،
 لتناول ثمار الاشجار ، فهو عاجز فقير ، قد أعوزته القدرة والتقدير ، وليس
 في حسه الحيواني ، ما يفي بتعديسه الآتي ، فاذا عرض على العقل حاله ، وقدم
 اليه ماناله ، فلم يجد العقل بدأ من أن يقيم هذا العرش على كواهل الصنائع ،
 يستديم حفظه بأنواع البدائع ، فأقبل نحو أمهات الاسباب يستبرها ألبان
 الارزاق ، فسكبت اليها ضروعها من جميع الآفاق ، ومحضها بأيدي الآلات ،
 فاستخلص منها ما للبدن من الغايات ، فالنباتات أضحت حاملة لمادة غذائه ،
 وملتحفة بما يكره من درعه ودوائه ، والمعادن والاشجار والاحجار ، استقبلته
 بوجه لم تنله نائلة النصار ، قائمها نحن (اولاء) لك فآخذ ما تريد ، من جلبه لانهم أو
 دفع بأس شديد ، فاستخدم البعض ، وانبسط سلطانه في الطول والعرض ، فآخذ
 منها آلات لجميع الاعمال ، جاعلاً زائد الاحتياج قائداً له الى جميع الآمال ،
 فلبس لباس العزة ، بعد ما كادت مشاركته في الوجود أن تستفزه ، واستوى
 على عرش الراحة ، وأطلق من قيد العناء سراحه ، كل ذلك بتدبير العقل الرشيد
 وتصرفه الوحيد ، فقد كان البدن محتاجاً في قيامه ، الى ما يقتضيه العقل من
 أحكامه . فحينئذ كان كل من الحيواني والعقلي مفتقراً في نيل غايته الى الآخر ،
 ومن ثم يرتبك الناظر في حالهما

فمن جهة يرى أن العقل قد أفرغ جهده ، وبذل غاية ما عنده ، في استيفاء
 لوازم البدن ، واقتناء لذائذه مآظير منها وما بطن ، ويرتكب في ذلك المصاعب ،
 ويحتمل أنواع المتاعب ، ويرتب مقدمات الحيل ، للوصول الى ما قل منها وجل ،
 فيظن أن ليس وراء عبادان قرية ، وليس سوى هذه اللذائذ من بغيه ، ويذهب
 الى أن الانسان يعيش لان يأكل ويشرب ، ويلهو ويلعب ، وهذا نظر أدنى
 ومن جهة يرى أن كثيراً ممن لا يحصى عددهم ، ولا تحصر أفرادهم ، يتجرعون
 كؤوس الشدائد ، ويتكفون مخالفة العوائد ، تتجافى جنوبهم عن المضاجع ،
 وان لذ العيش وعز المضاجع يكتحلون السهاد ، ويتمنطقون بطي الابعاد ،

ويكتسبون ثياب النحول ، ويعترضون حد السيف المسلول ، يجوبون القفار ،
راكبن متون الاسفار ، ، يتوسدون مالا يتوسد ، ويأكلون ويشربون مايزهد ،
وذلك كله ليستكشف الواحد منهم ارتفاع جبل من الجبال ، أو ليستبين أن
سلسلة جبال قد أخذت في امتدادها كم من الاميال ، أو ليعلم أن مقاطعة على كم
تحتوي من أفراد الانسان ، أو أنهم يتدينون بأي دين من الاديان ، فهو لا قد
هجروا أوطانهم ، وأهبعوا أبدانهم ، لتحقيق أمر جزئي خطره في ذاته يسير ،
وان كان ما يترتب عليه من الآثار في جملة العالم كثير ، ويبصر أن كثيراً من
الناس قد امتلك خزائن من الاموال ، وتحصن بقلاع من فرسان الرجال ، بحيث
يكون له مكنة من الراحة التامة البدنية ، واقتناء جميع اللذائذ الحيوانية ، ومع
ذلك ينتحل نحلة الفكرة ، وينتفح لحية نفسه كرة بعد كرة ، يتمثل اليه الحور
والولدان ، فيغض عنهم ساحبا ذيل النسيان ، وربما غفل الزمن الطويل عن غذائه
الذي به دوام قوته واستحكام بنائه ، وانكب علي النظر فيما بين أوراق الدفاتر ،
ليقت على أفكار الاوائل والاواخر ، وبضع قسط الميزان بين الآراء ، كأنما
يحاكم بين الاسكندر ودارا ، حتى اذا أخذته الحيرة يرى ولها حيرانا ، وملاسكرا نانا
قد اكتفى بسلاف الشراب ، واستغنى بمحادثة العقول عن مسامرة الاحباب ،
ويجرع أقذاح الكلام ، من قرع جامات المدام ، واذا قذفت به أمواج بحر الوله
الى ساحل المعرفة ، وانقشعت عنه ظلمات الاوهام وأسفر له صبح الحق ، انتبه الى رمقه ،
والغذاء حرقه ، وحسبك مارووه عن نيوتن الفيلسوف المشهور ، وذلك حيث استغرقته
الشكرة ، مع أن الجوع كان قد بلغ معه قدره ، طلب الطعام فلم يجد فأمر أن
يصنع له البيض فانه أسرع الى النضج من غيره فأتي له بقدر فيه ماء ، وأوقدوا
أسفله النار وأتى له بالبيض ثم قالت الخادمة له اذا غلا القدر فألق البيض فيه
فأخذ بيضة ينتظر بها غليان القدر وكانت الساعة بيده ليعلم مقدار الزمن الباقي
لنرسه ، فلما غلا القدر ألقى الساعة في القدر ظاناً انها البيضة ، ثم أخذ ينظر الى
البيضة ليعلم مقدار الزمن من حركة زلالها ، ويكتشف الواقع من صفاتها ، فانت
للخادمة وهي تظن أن الفيلسوف قد قضى عمله ، وبلغ من الغذاء أمله ، فوجدت

الساعة في القدر دائرة بين المهبوط والصعود ، والرکوع والسجود ، كسكران
أطربته ألحان القانون والعود، أو ناسك حر كته أهوال ذلك اليوم المشهود، وأحوال
غيره من أمثاله مشهورة ، وفي الكتب مسطورة ، وبالجملة فان كون البحث في
دقائق العلوم وكشف معميات الامور ، مما يشغل الانسان عن نفسه فضلا عن
حسه ، أمر محقق قد قر في نفوس العموم حتى لا يصح أن ينكر اذا لم يجده كل
شخص من نفسه

ويرى ويسمع أن من الناس من يقوم بنشر فضيلة من الفضائل ، أو تبیان
حق في مسألة من المسائل ، ينتضل سيف لسانه ، ويستسيل عقول الغافلين
بسحر بيانه ، فيتعودون من سحره بتائم الانصراف ، ويفعدون غضب لسانه
في اغماد الاجحاف ، قائلين (شعر)

من ذا الذي من غينا يخرجنا نحو العلى والحق من يرشدنا
ويجزعونه في ذلك كؤوس الاحن ، ويطلبون الراحة من عنائه بالاجلاء
على الوطن ، وهو مع ذلك لا ينثني عنائه ، ولا يسكن في طلب اسعادهم هيجانه ،
وليس يهيمه في ذلك قرع الصفاح والسنان ، ولا استفزازه من مكان الى مكان ،
ولكن أن يقبل المستعدون سجال بيضه ، وأن يرى أزهار غرسه في صالح
أرضه ، ومن أولئك رجال لا يحمى عددهم ، ولم ينقطع الى الآن مددهم ، ويرى
ويعلم أن كثيراً من الناس يريق دم جميع الذائذ ، دون حماية لائذ ، ولا يحتمل
ثقل العار ، وإن دونه جبال النار ، وحسبك ما تراه من لاعبي نحو الشطرنج والترد
اذ يصرّف أحدهم فكرته ويبدل همته في أن يحوز قصب السبق في ميدان الغلبة
بمحيث لو أتى اليه محبوب كان دائم الماطلة ، وقد دعته داعية الرافة للمواصلة ،
لا يلتفت اليه ، ولا يعطف ميله عليه ، وكل ذلك حذراً من أن يلحقه عار
المغلوبة ، مع أنها غلبة وهمية ، لا تكترث بها النفوس الاية فضلا عن الدنية ،
فما ظنك بعار يلحق صاحبه الشناعة ، ويذهب بيبائه ويكشف قناعه ، خصوصاً
إن أودع بطون الدفاتر ، ليكون عبرة من الاول للآخر ، فهناك يخضع لباس حب
الحياة عن نفسه ، ويضع خوذة شرف الانسانية على رأسه ، حتى يتخلص مما

خفه ، أو يلحق بمن سبقه ، وهو في ذلك يتلذذ بطعناات السنان ، كأنها غمزات حور وغلمان ، ومن هؤلاء كثيرون ، وأنتم بهم عالمون ، فمن هذه الجهة يظن بل يرقن أن ليس المقصد الاعلى ، وانغاية القصى ، من هذه النشأة الانسانية ، سوى التحلي بهذه الفضائل المعنوية ، واقتناء تلك اللذائذ الروحانية ، ولا محالة يذهب الى أن الانسان يأكل لان يعيش ، ويعيش لان يرى ، ويرى لان يعقل ، ويعقل لان يكمل ، وهذا هو النظر الادق ، والقول الاحق

فان قال قائل : أن جميع ما ذكرته ثابت لا ينكر ولكن جميع ما يرتكبه أولئك الذين عدتهم من ترك اللذائذ البدنية ، وميلهم نحو مازعت من الخصائص العقلية ، ليس لاستكمال اللذة الثانية لذاتها . بل لتكامل لهم الاولى بجميع جهاتها ، فان أرباب العلوم . قد علموا أن لاتنال الرفاهية والراحة . ولا يستوفى جميع ما يتقوم به البدن سالما عن جميع الآفات الال بالعلوم والمعارف وكثرة التجارب ، فيشقون في تحصيلها ، ليسعدوا بنيل عاقبة أمرها . وان الذين قد استتبوا راحتهم في نشر أفكارهم وبث فضائلهم لم تكن داعيتهم الى ذلك سوى حب الرياسة ، ليستعبدوا غيرهم ويتخلصوا مما كانوا ينالونه من الذل والتعاسة . وإن أرباب الهمم العالية لم يجيروا المستجير . ولم يحفظوا دمار العشير . الا خوفا من أن يمتد اليهم عند التساهل في حواشيهم يد المتغلبين فيتمكنون من نواصيهم فيمنعونهم من لذاتهم الجسمانية . ومقتضيات حياتهم البدنية . وبالجملة ما نشرته فهو إما لنيل لقمة ، أو دفع لكمة .

فأقول مجيباً : دقق النظر يا هذا في أحوال الذين بذلوا أرواحهم في طلب الكمالات العقلية مع ايقانهم إما بفوت هذه اللذائذ الحسية . أو قطع عرق الحياة بالكلية . الذين لم يكن مسعاهم سوى نيل المكارم والفضائل . وكل ما دون ذلك فهو له من الوسائل . فانه لو كان لهم غاية سوى تلك الكمالات لماؤا دونها ولم يتجاوزوها الى أضدادها ، بل في أحوال غيرهم . فانك قلما تجد انسانا لا يفدي بلذة بدنية لنيل روحية . والتي أن عدت لك أصنافهم الدانية التي لاتنحط درجة أفرادها عن ذلك على اختلافها يطول المقال ويتسع المجال .

نعم اننا لانذكر أن كثيراً من الافراد يتخذ المقاصد ومبادي. ولم ينالوا من الانسانية سوى المشابهة في الارجل والايادي . اشربوا في قلوبهم عجل الشهوات ، ووسموا جميع الآثار الانسانية بالمقدمات . وتكالبوا تكالب الذئب على الفريسة ، وأن مثلهم في نيلها بما ذكر مثل المحتلس ، يتزيا بزى أرباب الامانة كيلا ينفر منه الأمين ولا يحترس . فان بني نوعهم لو يقفون على مقاصدهم الدينية ، لم يرفدوهم شيئاً مما تهواه تلك الهمم الارضية . الا من هم على مشربهم ، وارتضعوا من ثدي أمهم .

ومنهم من رسب في أرض حيوانية بالمرّة . ولم يوجه طرفه نحو سماء الانسانية بنظرة . فمثلته كمثل الحمار يركبه كل راكب ، ليمده بعلف دائم . وهذا مع ما قبله سواء في المقصد . وشركاء في المصدر والمورد . لامتهى لركلتهم سوى ما رب حيوانية بل نباتية . فلا يصح لأحد منهم أن يرى نفسه أرقى من ثعلب يروغ من المحارب . ويحتال في التوثب على ضعيف الدجاج والارانب . ومع كل ذلك لا تقبل نفسي أنهم مجردون من اللذائذ الروحانية ، وإن غلبتهم على ذلك دناءتهم ، وانحطت بهم طبيعتهم . ولا أمل أنهم يحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا ، وتستشيط نفوسهم والآلام غضباً أن أندادهم في أعراضهم جهلوا . بدون أن يلحظوا في ذلك تلك اللذات ، أو يكون لهم اليها التفات .

ثم إني أنشدك الله أيها الحكيم . الا ما تقلدت الانصاف في التحكيم . وانباتني على من ترتبت الآثار التي توقن أنها من خصائص الانسان ، كتمهيد دلائل العرفان ، التي قد استخدم بها ما في العالم من جماد وحيوان ، واستنقذ بها أبناء عالمه من ربة التكليف ، الى فضاء ليس فيه مزعج ولا مخيف ، وفي ظل من أنت ترفل في ثياب الفخار ، تحكم ما تريد وتفعل مما تشاء . وتختار ؟ لا شك في أنك تحكمان تلك آثار أولئك الذين قد بذلوا حياتهم في نيل الفضائل والمعارف ، وأجهدوا أنفسهم في بثها مع ماصادمهم من أنواع المخاوف ، وجعلوا تلك الغايات نصب أعينهم حيناً ذهبوا ، ومنتهى سيرهم رغبوا أو أرغبوا . قائل كل واحد منهم (شعر)

ولست بنظر الى جانب الغنى اذا كانت العلياء في جانب الفقر
وهل سمعت أن مائة قد ارتقت الى صلاح حال ، أو تنعم بال ، الا بعد
أن خضب ثراها بدماء أولئك الفضلاء ، واختطف عقاب جورها نفوس هؤلاء
النبلاء ، ثم بعد يرتعون في مروج حنينهم ، ويختالون في ثياب عز غيرتهم ، فهل
كان ذلك يحصل الا بايثار لذة واحدة ، على لذائذ متعددة ، بل غير متناهية ،
وهي لذة الفضيلة ، والصفات الجليلة ، فهي خاصة الانسان التي عنها ينشأ آثاره
فاذن لاجرم ينقسم الانسان الى قسمين قسم أخذ الى أرض الحيوانية
فقايتة غاياتها يقوم بدنه مدة ثم ينفلت من الحياة لا يبقى له أثر ، ولا يسمع له
خبر ، وقسم قد ارتقى الى ذروة الانسانية فتهيج المنهج العقلي الذي قدمنا بيانه ،
وأيدنا برهانه ، فكلما قوي في فطرة الشخص جانب الانسانية ، كان ميله نحو
التصرفات العقلية ، ، يأنف الظلم ، ولا يجازف في الحكم ، ولا ينتحي نحو الغدر ،
ولا يحتمل صدمات القهر لغير الحق ، بل تركض خيله في أرض العدالة ، لرفع
آثار الجهالة ، ودفع معرة الندالة ، يأخذ بالبرهان ، ولا ينكص اذا استحکم البيان ،
وذلك لا الى حد مخصوص ولا في مكان مخصوص ولا في زمان مخصوص ، نعم
الاقرب الى البحر اولى بمائه ، والسوى انما ينال من فضل استغناؤه ، ومن ثم ترى
أن أهل قارة أوروبا لما ارتقت لديهم المعارف الى ذراها ، وبلغت فيهم الكالات
قصاراها ، وألقت الرياسة اليهم زمامها ، وفوضت السياسة اليهم أحكامها ، وأصبح
نور العقل في أحيائهم يتلالا ، وسنا الفضل في أقطارهم يتعالى ، تسابقت همهم
الى بث مقتضيات الانسانية ، في نواحي الكرة الارضية ، واستنصل مادة
التوحش ، وتطهير الارض من خصال التبرير ، وما استعصى عليهم في ذلك من
عويصات الموانع ، أنفذوا اليه قامعا من كتابهم أي قامع
الا أن منهم من يتخذ هذه الفضائل اسما ، ويتقلدها رسما ، لتكون آلة لاعمالهم ،
وسلما لسوء آمالهم ، خصوصا الملك الكبير ذا الارض الواسعة ، والاقطار الشاسعة ،
الذي قد منح أهل مملكته تمام الحرية ، حتى إنه لا يبيح لهم أن تدرس العلوم
الفلسفية ، في مدارسهم الرسمية ، بل الاهلية ، بل إن أراد أحدهم أن يتبصر ،
(٥ - تاريخ الاستاذ الامام - الجزء الثاني)

اتخذ له كينا وتستر ، وأولى أهل ملته من مقتضيات الخو والشفقة ، ماتنظر منه قلوب أهل الرأفة والرقه ، خصوصاً أهل دينه الكاثوليك الذين مزقهم كل ممزق ، ونفى كثيراً منهم الى حيث لا يخاف ولا يفرق ، وما ترك وسيلة الى الاسترقاق الا أقامها ، ولا ذريعة الى استعباد غيره الا قص قصصها ، كيف لا وقد تقلد رتبة البطركية ، التي هي مقدمة رتب الالهوية ، فقام بمأموريته المقدسة ، ليؤدي بعض مأسسه ، وكتبه على نفسه من القيام بحقوق الانسانية والتهافت على تقويم الحق ، على الوجه الاحق الاليق ، فأوقد نيران الفتنة في بيوت أهل دينه الفقراء المحتاجين الى رعاية دولتهم ليجردهم من ذل الشوكة والقوة ، ويلبسهم عز الضعف والمهنة ، وينقذهم من ربة الحرية التي قد نالوها حيث هم على حفظ عهودهم عاكفون ، وعلى اصلاح أحوالهم الداخلية متألبون ، يتدلون على دولتهم تدل المعشوق على العاشق وينالون منها ما ينال الولد من والده أو الحبيب من محبه الصادق ، وليستخلصهم من كل ذلك الى فضاء عدله الذي قد بسط غطاءه على أنفاس أهل مملكته ، وبمجموعة الحرية التي قد استعبد بها أبناء ملته ، وقد صادقه على ذلك جل الممالك القاسطة ، لما لكل واحد منهم من ساقطة ، ينتظر بها الالتقاط ، وبذلك الملك المقدس في نيلها يكون الارتباط ، وهم في ذلك يتادون بالانسانية ، وباللحقوق المدنية ، وترنم منهم الخطباء على منابر الظلم والاجحاف ، بتلاوة آيات الاقلاع عن الاحاد واقتناء شرف الانصاف ،

وإني لست الآن معهم في ميدان المحاكمة حتى أنبئهم أنه قد فعل ذلك بأبناء دينهم بل أبناء أوطانهم ، وهم بمرأى من ذلك ومسمع ، مالا يصح في مثل هذه الايام أن يسمع ، وقد سودت بذلك وجوه الصحف ، ومع ذلك لم يتحرك فيهم عرق الحماسة ، ولا فتحوا في ذلك سجلات السياسة ، وان أمثال أولئك الكمال لا يليق بهم مع هذه الدعوى التي بها منعوا بيع الرقيق قضاء لحق المساواة أن يجعلوا تلك الرأفة والرقه خاصة ببعض المقاطعات ، أو منحصرة في جهة من الجهات ، بل كان من الواجب أن ينظروا من وراء حجاب الى خيوه وخوقند ، كما نظروا جهاراً الى الضرب والجبل الاسود ، فأني لو تكلمت في هذا يطول أو يجيبني

محيب بأنهم الى الآن لم يبلغوا حد الكمال ، حتى يفعلوا أفعال الرجال ، ولا
يتحرشون تحرش المغتال ، وللانسان كمال سوي مام فيه ، وتلك التي تتوسم
فيها العظم مباديه ،

ولكن أعجب لجعل المسئلة شرقية وغربية ، فان العاقل يتفرد في ذلك
أسراراً خفية ، تدبنا عنها التواريخ القديمة والحديثة ، ومحكي ما كانت تفعله
القياصرة بالاكسرة ، والاكسرة بالقياصرة ، حيث كل من الشرقيين والغربيين
مع سعة أوطانه ينتهز الفرصة للوثوب على الآخر . فهذا حقد بالميراث ، جدير
بلاكرات ، الا أنه لما جمعت الشوكة أسبابها وتوجهت نحو المغرب وتركت
الشرقيين بحمي يثرب ، قويت من الغربيين المهاجمة ، وبطلت من الشرقيين آثار
للقاومة ، فبات عدو بلا معادي ، ومبارز لا تصده الدواعي والعوادي ، فخي
الامر على غير بصير ، وذهب على غير خبير ، وما أوصل الشرقيين الى هذا
الحد سوى تفرق الآراء ، واختلاف الالهواء ، حتى إن بعض الناس من لا يبالي
بهم ، يهملون بسوء أحوالهم ، ويتهجون اذا بشروا بتسلط أعدائهم ، وما ذاك
الا من تداني المم ، وتراكم الظلم ، والوقوع في حفرة الحيوانية ، والانحطاط عن
درجة الانسانية ، حيث فقدت منهم الغيرة والحمية ، وذلك بدل أن يبنذوا في
مثل هذه الاوقات جميع التعصبات الدينية ، والاختلافات المذهبية ، لحماية أوطانهم
ووقايتها من وطأة أعدائهم ، الذين لا يرومون من الاستيلاء علينا بمعاشر الشرقيين
الا توسعة ممالكهم ، والتمكن من استعبادنا بالدخول تحت حوزتهم ، لنكون لهم
خزينة عند الافتقار ، وترسا يقون به أوطانهم ورجالهم مما عسى يبرزه الاستقبال
وبعد ذلك يكون عاراً علينا أي عار ، يذهب بهاؤكم ، ينشئ منكم عدوكم وينهدم
بناؤكم ، وينقطع من العزة رجاؤكم ، أنتم بامعشر الشرقيين أبناء وطن واحد ،
مشاركون في المنافع والمضار وسائر المقاعد ، لا يمس أحدكم خير الا نال الآخر
منه مثل مانال صاحبه ، ولا توجه اليه خير الا وهو الى الآخر يتعاقبه ، فما
لهمكم تضاءلت ، وخطباؤكم تمثلت

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قرء عيناً بالاياب المسافر

ولم تخاطبوا عدوكم من صميم فؤادكم
 محاسن أسرار البلاغة وانتحي اليك ليوث الغاب من كل جانب
 واذكروا إذ تسطر أحوالكم في صحف الرجال ، ويستقبل بها ما يأتي من
 الاجيال ، فان أنتم أبرزتم حميتكم ، ورعينم حق وطنكم ، الذي منه ابتدتم وفيه
 سكنتم ، ودافعتم عنه يبذل الارواح فضلا عن حسن المقال ، وبالجملة سلكتم مسالك
 الرجال لاتهموس الأطفال ، ، فذلك ما أثر انسانية ، تتالون بها مجدكم وفخاركم ،
 وتمتلكون سعدكم ، وحرلية بختال فيها من تعقبونه بعدكم ، والإفالعار والشارلاحق
 بكم ، وليس إلا أن يحنى تراب الذل في وجوه أعقابكم ، وانظروا الى أحوال سلفكم ،
 لتكون مرآة لأحوالكم . فان قال قائل

ان الديانات ألفت بيننا إحنا وأودعتنا أفانين العداوات

فكل واحد منا يتوقد من صاحبه ، لمخالفته له في مذهبه ، ومناوآته إياه في
 مشربه ، فكيف تميل تلك القلوب لرفع الشقاق ، وجمع كلمة الاتفاق ، والتخلص
 من خسة النفاق ؟ فنجيبه : إن مثلنا في ذلك مثل أخوين تولدا من بطن واحد
 وأصل واحد قد يقع بينهما بعض المنازعات المنزلية ، والمناوشات المعاشية ،
 فيأخذ كلا منهم ماشاء من الغيرة والحمية ، ويكاد أن يفتك كل بالآخر ومع كل
 ذلك انهما عند اقتراح أجنبي على أحدهما يقوم الآخر بتصرته ، ولا يحجم
 عن رد تبعته ، فذلك العداوات الجزئية ، لا يصح لدى العاقل أن تضرب بمصالحنا
 الكلية ، وعلى فرض أن لو عدت تلك المزاحمات شيئا يذكر ، وأمرأ يصح اليه
 النظر ، فما أشنع حال من ينتقم بيد الغير ، ويلحق نفسه وعقبه عار السفاهة والضير ،
 أين أنتم من تيمستكليس اليوناني الذي بعد ماصنع المسكايد مع دارا وهزمه ،
 وجاهد ماجاهد في حماية وطنه ، أقصاء اليونانيون وطردوه ، وأجمعوا أمرهم على
 أن يقتلوه ، فالتجأ الى دارا يستجده مما اعتراه فاعظم منزلته وأكرم مثواه ، ثم
 إن دارا طلب منه أن يحشد جيشاً على اليونانيين فقال وجهني الى أي مكان ،
 قاص أو دان ، سوى بلاد اليونان ، فانها وطني ومقر تربيتي ، لا ترضى همتي ،
 بان أقدمها لغير أمتي ، وإنه وإن كان أهل اليونان طردوني ولكن تراب اليونان

ملصع معي قبيحاً . فلما أغلظ عليه دارا في الطلب ، نادته هواتف الانسانية إن ذلك من الموت أصعب ، فاختر الموت على الحياة ، وتناول السم ومات ، ألا فاتبها من سنة الغفلة ، واتخذوا لكم من الانسانية ظلة ، ومن الفضائل خلة واحذروا ، وبالحمية الوطنية اتقوا واعتصموا اه

(جامع الكتاب) : ليأمل القراء آراء هذا الرجل التي كتبها منذ ستين سنة وهو مجاور في الأزهر بمجدها عين ما انتهى اليه بحث المحققين من عقلاء الشرقيين بعد مكابدة الاحداث واختبار أوربة بعد كتابة ذلك المجاور الأزهرى لما قبلهم بنصف قرن . أه من تعليقات الطبقة الثانية

المقالة الرابعة

العلوم الكلامية والدعوة الى العلوم العصرية

نشرت في العدد ٣٦ وأعداد بعده من جريدة الاهرام قالت:

﴿ وردت الينا هذه الرسالة من قلم جناب العلامة الاديب الفاضل ﴾

﴿ الاريب الشيخ محمد عبده أحد أهل العلم بالجامع الأزهر ﴾

كلما تناسينا عهد جاهلية العرب ، وما كان من مقتضيات الجهالة في تلك للقب ، ومنينا أنفسنا باننا صرنا في نشأة أخرى ، وتقدمنا الى الأمام بعد أن كنا الى القهقري ، واستصبحنا بمصباح الآمال ، في ليل الضلالة والاختلال ، وهمت أفكارنا ، بتحصيل ما سبقنا اليه غيرنا ، تذكرنا حوادث الايام باننا لازلنا في أول نقطة من ذلك الزمن الاول ، بل كان ذلك على تنزل منه الى أسفل ، وتشتي آمالنا ، عن تقدم أهالي أوطاننا . فمن أعجب ما رأينا في هذه الايام ، أن بعض طلبة العلم الكرام ، الذين قد بذلوا جهودهم في التحصيل ، وخلصوا ثياب أوزار البطالة والتعطيل ، وافندوا براحتهم ، لتوفير بصيرتهم ، قد تحركت الى العالي همته ، ودعته الى التفنن غيرته ، فأخذ في دراسة بعض الكتب المنطقية

والكلامية ، التي كان قد صنفها بعض أفاضل الملة الاسلامية . لما أنه قد علم كما هو الواقع أن العلوم المنطقية إنما وضعت لتقوم البراهين ، وتميز الافكار غشها من السمين ، وتبين كيف تتركب المقدمات لانتاج المطلوب بعد البيان ، وأي مقدمة يصح أن تؤخذ في البيان وأيها يجب أن يقذف وي طرح . فهذا علم حقيق بان يتخذ سلماً لجميع العلوم ، ولا يعدل عن طلبه الا جهول ظلم ، والعلوم الكلامية ، إنما هي احكام لتأييد القواعد الدينية ، بالادلة العقلية القطعية ، حتى يحق لممارس تلك العلوم أن يقتبس نور تلك المطالب من تلك البراهين ، ويقنع بذلك الطالبين ويردع المنكرين ، على وجه لا يكون فيه إثبات الشيء بنفسه ، ولا تنزيل العقل عن درجته في إدراكه وحسه . فلما سمع بذلك بعض أجبائه ، وأصفيائه وأقربائه ، الذين يؤثرون خيره ، ولا يرتضون ضرره ، اهتز لذلك واضطرب ، وأعجب كل العجب ، وأخذ من الحزن على ذلك الطالب ماشاء الله أن يأخذه ، وأوسع لذلك الطالب النصيحة ، وبألها من فضيحة أي فضيحة ، قائلاً كيف تدرس علوم الضلالات ، حتى تقع في الشبهات ، الا فارتدع ، وبجالتك اقتنع ، وكن كما كان الاب والجد ، وجد قياً كالأعلى فمجد وجد ، فأجاب الطالب المسكين سؤاله ، وطوى سجل علمه ونشر جهله ، ومع ذلك لم تدعه السنة حساده ، المتألمين على عناده ، ولم يزوا مصرين على سفه الكلام ورمي سهام الملام ، يقولون الى الان : إنه في ضلاله القديم ، لم يميز بين المنتج والعقيم ، والمخدوش والسليم . حتى إن بعض ذوي (الجهل) من أهل بلاده ، المحلصين في وداده ، الساعين في إسعاده ، وشوا بهذا الطالب الى والده ، وأفصحوا له القول بشأن ولده ، قائلين ان (الرجل) منا اذا سمع ان ولدك يشتغل بالعلوم ، تتناول له أيدي الهموم (يقوم) ولا ينهأ له طعام ولا شراب ، ويبيت ليله في اضطراب ، ويظل نهاره في اكتئاب ، أسفاً على هذا المسكين كيف ترك جهالتنا ، ولم يعمل على مثالنا ، ألم تعلم ان الانسان كلما قوي في العلم اجتهاده ، وبدا له رشاده ، يترزل اعتقاده ، فكيف بك وهو ثمرة فؤادك ، وأرشد أولادك ، فتحرك في والده عرق الحمية ، وأسرع ذاهباً الى مصر المحمية ، ليرى هل صح الخبر ، أو كذب الناقل ونجر ، فوصل الى ولده في الساعة الثالثة من

الليل ، ومن آن وصوله أخذ ينذر ولده بالثبور والويل ، ان كان لتلك الاقوال
صححة ، فأجاب الطالب ان ذلك من كذب الناقلين ، وبني الماسدين ، واتي
من يوم سميت في منعي ، وقطع نفعي ، لم تقر عيني بنظرة في رياض تلك العلوم ،
ولم أشف قلبي بأخذ منطوق منها ولا مفهوم ، فلم يصدقته حتى تمسك بالجلب المتين ،
وأحلفه بالله رب العالمين ، ان الناقل كذاب ، وانه في أمره غير مرتاب ، خلف
وهو الصادق في حلفه ، وكيف لا وقد حفته المكاره من بين يديه ومن خلفه ،
فلما أيقن أوهه بكذب ما نقل اليه ، حمد الله وأثنى عليه ، وأصبح من غده ، متوجها
الى بلده ، فانظر الى هذا الرجل مع كثرة انشغاله ، واحتياجه لساعة ينظر فيها الى
أحواله ، كيف ترك الأهم ، وصرف الدرهم ، وتقض اقتضاض السهم ، وأقدم
إقدام الشهم وماذاك الاحداث ألقه ، وشناعة عظيمة خاف أن تلحقه ، وداهية
دهياء قد استغزته من أرضه ، وبأس شديد طلب التخلص من حلوله بركضه ، فان
سألت ماهذا الامر الفظيع ، والحادث البسع البشيع ، قال ان ولدي يتعلم المنطق
والكلام ، ويتخلص من قيد جبل قد أخذ بالنواصي والاقدام ، وانظر الى هذه
الحماسة والغيرة التي قد دعتهم الى التعاضد والتناصر ، والنخوة التي قد حركتهم على
التكاثر ، للتخلص من هذا الحادث الملم ، وانتشاع هذا الليل المدمم ، بغاية الحرارة
الناشئة غن صدق طوية ، وخلوص نية ، فتباً لهذه العقول ، وبئست عواقبها
وما اليه أمرها يؤول

ان دام هذا ولم تحدث له غير لم ييك ميت ولم يفرح بمولود
واتي لا تعجب من هؤلاء الاخوان في الوطن ، وأرباب البصائر والنفطن
كيف مالت بهم الحرارة الى الهبوط ، حتى آل أمرهم الى السقوط ، وباعجابا اذا لم
نصرف الفكر في تقويم البراهين وتسديدها ، وكيفية الوقوف على الحقائق وتمحيدها ،
ففي أي شيء نصرفه ، فانه ان ضل عنار شادنا ، وغاب سدادنا ، فهل بشي سوى
الدليل نعرفه

ألا وإن هذا أمر غني عن البيان ، ويكل عن الانصاح به اللسان ، مع أن
هذه العلوم ليست الا ما يقرأ في سائر جوامع المسلمين في مشارق الارض ومغاربها

حتى الآن في نفس الاستانة يقرأ في مساجدها كثير من كتبها . وقد قال
الاكابر من المحققين كالامام الغزالي و فخر الدين الرازي وغيرهم : إن تعلم هذه
العلوم من فروض الاعيان (١) وأطبق جميع العلماء على أنها من فروض الكفاية
خصوصا في مثل هذه الازمان ، التي قد وقع فيه اختلاط الناس من سائر الاديان ،
فانه من البين أن ما يؤخذ عن الآباء ، وبلغناه أسنة الاقرباء ، ان لم يؤيد
بالبراهين ، نالته أقوال الملحدين ، وأدحضته شبه الجاحدين ، فيصبح وقدوهى
بنيانه ، وانحط شأنه . أو لم تطلع هؤلاء المساكين على ما كتبه شيخ الاسلام
في استانبول الى الرجل الجرمانى الشهير الذي قد أسلم في هذه الايام إذ يقول له:
نحن لا نتجنب وزن عقائدنا بالميزان المسمى بالمنطق ، ولا تقبل اعتقاداً يناقض
العلوم المتعارفة (كالمبرهنة) في فني الحساب والهندسة ، من أن الكل أعظم
من الجزء ، وأن الشيء لا يكون غير نفسه ، وأن الشيء الواحد لا يكون واقعا
وغير واقع في آن واحد . وأمثالها من العلوم المتعارفة ، وهي البديهيات الاولية
أو الاولوية على ما في الباب الرابع من معيار سداد (النظر) حتى لو كان حديث
أو آية كذلك أي تغاير العلوم المتعارفة لأولنا . اه

وليت شعري اذا كان هذا حالنا بالنسبة الى علوم قد أرضعت ثدي
الاسلام وغذيت بلبانه ، وتربت في حجره ، وتقلدت في ايوانه ، من زمن يزيد
عن ألف سنة ، وتناولتها أيدي الخالص منا ، وتناقلتها عنهم الألسنة ، فما حالنا
بالنسبة الى علوم جديدة مفيدة ، هي من لوازم حياتنا في هذه الازمان ، وكافة
عنا أيدي العدوان والهوان ، وأساس لسعادتنا ، ومعيار لثروتنا وقوتنا ، لا بد
لنا من اكتسابها ، وبذل الجهود في طلبها . فبالاولى نضع أصابعنا في
آذاننا إن ذكرت ، ونهاجر من كرة الارض اذا سماؤها انشقت . وأن مثل

(١) لعل الغزالي قال ذلك في بعض كتبه المنطقية أو الكلامية التي ألفها في
بدايته ثم جزم بأنها من فرض كفاية . وقد صرح اخيرا بان من آمن بظواهر
القرآن وما كان عليه السلف ومات ولم يعرف شيئا من مصطلحات علم الكلام
ودلائله لا ياله الله عنها ولا ينقص من دينه شيء يجعلها الخ وكتبه جامع الكتاب
للطبعة الثانية

هذه النفرة لو كانت في عهد المتوكل العباسي ، عند ما كانت الامة بغرور وسواسي ، وقوة متوهمة ، محصنها من تعدي الاعم المتقدمة ، أو في زمن الممالك والكولمان ، وغيرهم ممن تملك هذه الاوطان ، حين كانوا في ذروة التوحش ، لا يهتدون الى مابه يدبرون أمورهم في العيش ، وكانوا حائرين في تيه الخيالات والاهوام ، وقد اخذ بجميع إحساساتهم جور الحكم ، ولم يكن بينهم وبين غيرهم من الاعم اختلاط ، إذ كانوا في حضرة الانحطاط ، لكان (١) لا يأخذنا العجب بل نضيف ذلك الى السبب ، ونلتمس لهم العذر في ذلك ، إذ قد عمت عنهم جميع المسالك ،

وكنا نؤمل أن المينج يفيق بشم روح النوشادر ، وأن هؤلاء يهتدون اذا ارتفعت الموانع وأقبلت البشائر ، ويقومون من غفلتهم اذا قام من يوقظهم ، ويخرجون عما هم فيه اذا نادى بهم من يعظمهم ، ولكن ذلك الامر منهم في زمان جرى فيه سيل العلوم ، حتى عم أنحاء الكرة على العموم ، وهم فيه غرقى من حيث لا يشعرون ، ووقع فيه الارتباط بيننا وبين الاعم المتمدنة ، ورأينا ما هم عليه من الاحوال الحسنة ، وظهر لنا التوازن بينها وبين أحوالنا المهجنة (٢) كزوتهم وفاقتنا ، وعزتهم وذلتنا ، وقوتهم وضعفنا ، وقدرتهم وعجزنا ، ووصولهم وانهمزمانا ، وغير ذلك من المزايا والرزايا التي لا تعد ، وبها يعتد ، بل في زمان خرج فيه العلم من الاذهان الى الاعيان ، وتنزل من مرتبته الروحانية ، وتحلي في الصور الجسدانية ، وفتح لنا رياضه ، وهياً للغرس غياضه ، وأصبح يجول بيننا في علاه ، وينادي بأرفع صوت وأعلاه : ألا من سائل فأعطيه ، ألا من قسير فأغنيه ، ألا من طالب سلطان فينال ، ألا من محارب عدوان فنحدد نصاله ، ألا من حيران في غسق الضلال ، يمن على نفسه بنظرة لسنانا المتعال . ونحن بمسمع من نداءه ، ومرأى من سنانه ، لكن صمت الآذان وعميت الابصار (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم *)

(١) هذا جواب قوله : لو كانوا في عهد المتوكل الخ (٢) لعلمنا المهجنة من هجته بالتشديد اي عابه .

ولو علم الله فيهم خيراً لآسمعهم ولو أسمعمهم لتولوا وهم معرضون) وهل يليق بقوم أن تكون هذه الجهالات أفكارهم ، وتلك المستهجنات آثارهم ، مع كل ما قد رأوه من صنيع مليكهم ، وحامي ذمارهم ، جناب الخديوي الاعظم ، لازال قضاؤه في الكائنات يبرم ، حيث قد بذل المهمة في اجتلاب المعارف ، وتوسيع دائرة الآداب والعارف ، إذ فتح المدارس والمكاتب ، (وعني) بالاسانذة من الاقارب والاجانب ، واجتذب التلامذة من كل جانب ، حتى أضحت غايات الارتقاء سهلة الاكتساب ، وخزائن الخيرات مفتحة الابواب ، وترعرع روض المعارف وأزهر زهره ، وبدأصلاحه وأينع ثمره ، - ولكن لم يكن له مقتطف ولا مجتنب ، ولا عان ولا مهتن ، - وأطلق المارية أيده الله في اقتناء هذه الخيرات ، واجتناء هذه الثمرات ، واقترش بساط العدل ، ودعاهم بذلك الى دار الكرامة والفضل ، فهلا اتمهزوا الفرصة قبل انقضاء آجالهم ، وانتكاس آمالهم . ولعمري أن ما فعل الخديوي في هذه البلاد ، من موجبات الاسعاد ، لو كان عند أمة أخرى لكانت بلغت غاية الكمال ، ووقفت على حد الاعتدال ، وأصبحت مفيدة لاستفادة ، وتقلدت سيوف العز بدل القرعة والجريدة . فاننا لم نسمع أن ملكاً من ملوك أوربا الذين قد خلدت أسماؤهم في الصحف الذين هم كانوا قد قاموا بنشر التمدن في أقطارهم قد بذل المهمة في ذلك معشار ما بذله جناب الخديوي فيه ، فيالله سعيه إذ قد أتى بكل ما يمكن أن يؤتى به في سعادة أمته ، ولكن ماذا تصنع في همتا الكسالى * ياخيبة المسعى اذا لم تسعف * لكن

على المرء أن يسعى الى الخير جهده وليس عليه أن تم المطالب
 فهلا ساعدوا هذا الملك في إسعاد أنفسهم ، وتخلصهم من يؤسهم (إن هذا
 لشيء عجيب) لا العواصف تحركهم ، ولا العواطف تجتذبهم ، ولعل ذلك المرض
 فيهم قد خفي دواؤه ، وأعيى الطيب شفاؤه ، نسأل الله العافية
 ولعل قائلاً يقول : إن هذه الحادثة تنفي الامل ، ولا تنذر بخيبة العمل ،
 فانها جزئية من الجزئيات ، لا يحكم بها على الكليات ، فانه في كل زمان وفي كل

ممكن يوجد الحمقى والأغبياء ، وأرباب الجهالات والاشقياء . وذلك لا ينافي حكم الغالب ، فأجيبه بأن هذه ليست أول قارورة كسرت ، ولا أبداع واقعة وقعت ، ولكن ذلك أكثر من الكثير ، وأمره فاش بيننا شهير ، خصوصا من الطائفة الشريفة التي تعد بمنزلة روح لهذه الامة ، فانهم الى الآن لم ينظروا الى أنفسهم ولا الينا بعين الرحمة ، ولم يروا لهذه العلوم فائدة ، تعود عليهم أو على أبنائنا ملتهم (بعائدة) ولكن اشتغلوا بما ربما كان أليق بزمان قد أفلت كواكبه ، وطويت صحفه وولت ركائبه ، غير ملتفتين الى أننا أصبحنا في خلق جديد ، قد طرحتنا الايام بديننا وشرفنا في بادية ، قد غصت بأساد ضارية ، كل منا يطلب لقمة ، ويطلب شن الغارة . فان كنا من آحاد تلك الآساد فقد وقينا أنفسنا وديننا ، والافان أن نطرح ديننا وننجو بأنفسنا ، وإما أن نبيد عن آخرنا ، بسوء الحظ وضلال الطريق ، مع أن ملاك الامر بأيدينا ، فعلينا أن ننظر الى أحوال حجيرانا من الملل والدول ، وما الذي تقلهم عن حالهم الاول ، وأدى بهم الى أن صاروا أغبياء اقوياء ، حتى كادوا أن يتسلطوا علينا بأموالهم ورجالهم إن لم نعمل قد تسلطوا بالفعل . فاذا حققنا السبب وجب علينا أن نسارع اليه حتى نتدارك مافات ، ونستعد لخيرنا فيما هو آت . وهما نحن بعد النظر لا نجد سببا لتفريقهم في الثروة والقوة الا ارتقاء المعارف والعلوم فيما بينهم حتى قادتهم الى إرشادهم ، فتوروا خيراتهم فاكنتسبوها ، ومضراتهم فنكبوا عنها وتركوها ، فاذا أول واجب علينا هو السعي بكل جد واجتهاد في نشر هذه العلوم في أوطاننا ليس من اليبين أنه لا دين الا بدولة ، ولا دولة الا بصولة ، ولا صولة الا بقوة ، ولا قوة الا بثروة . وليس للدولة تجارة وصناعة ، وانما ثروتها بثروة أهاليها ، ولا تمكن ثروة الأهالي الا بنشر العلوم فيما بينهم حتى يتبينوا طرق الاكتساب . فان ذلك أمر قد خفي على ذوي الالباب فضلا عن غيرهم ، كيف لا وقد ولت أزمئة كان التحارب فيها بالاشباب والنبال ، والسهام وخزف الجبال ، وما أشبه ذلك مما كان يمكن استحصاله بزهد التقيم . وحضرنا زمان نضطر فيه الى المراكب المدرعة ومدافع المتراليوز والكروب ، وبنادق الابرة ، وغير ذلك

من الاسلحة التي تجددت وتستجدد فيما بعد ، فان الشر الذي هو محط عناصر الانسان لا يزال يرشده ويقوده نحو اختراع أمثال هذه الآلات المملكة لهذا النوع ، فانهم حتى الآن قد جعلوا العالم بيت نار وهم قائمون على عبادتها وخدمتها بكل جسد وإخلاص . وكيف تتمكن من حفظ ملتنا ودولتنا وديننا من شرر هذه النيران بدون أن يكون عندنا ما يماثلها إن لم تقل ما يزيد عنها ؟ وهل يمكن استحصالها بالخزف والحزف أو بداني الحرف ؟ كلابل لا بدمن أن تؤتى البيوت من أبوابها ، وتطلب المسببات من أسبابها ، فلا بد من البحث عن وجوه الاكتساب ، من وجه الصواب ، والاستضاء بنور المعرفة ، والتبري عن مرافقة السفه ، وليس من يرشدنا الى ذلك الأبناء هذه الطائفة فانهم أرواحنا وقائدو أشباحنا ، حينما أوجوهنا وأوجهنا ، وفي أي وقت على أي شيء عرجوا عرجنا ، وان من حقهم ان يقوموا لث الجمهور على اقتناص تلك العلوم وبيان فوائدها ، وما يترتب عليها من المنافع وعلى عدمها من المضار ، ووجه احتياجنا اليها ، ولعمرك الله قد كان ذلك خير الاعمال وأحبها عند الله لان اعلاء كلمة الحق وحفظ بيضة الاسلام مقدم على جميع الشعائر ، فانه بعد زوال الرأس ، لا يبقى لسائر البدن الا الرمس ، كما هو بين عندهم ، وغير خاف عليهم .

ولا تظنن أي أقول : أن توانيهم عن مثل هذا المسعى على علم منهم بلزومه ، لركة في دينهم ، حاشا لله . بل إنهم لم يلتفتوا الى لزومه ، وأنه أهم ما يهمهم ، وأوجب ما يجب . ولو أنهم التفتوا اليه ، وحقه والامر على ما هو عليه لقاموا بارشاد الناس اليه على قدم وساق ، وضائق المساجد بخطباتهم ووعاظهم . وحث الاهالي وتحريرهم على استحصال ما هو أساس لحفظ دينهم ، على ما هو المعبود منهم من الهمة فيما يكون مقويا لشوكة ديننا وصولته ومحافظتهم على بقاء عزته وقوته . ومن لي بأن ينتهبوا الى هذه النكته ، وأنه لا بد لهم من الالتفات الى هذه اللوازم البتة ، كي يمنوا علينا بحسن النظر ، ويعينوا لنا حد الخير والشر ، فاننا لا نسمع الا مقالهم ، ولا نرهم الا أحوالهم ، بل لا نسمع إلا بأذانهم ، ولا نبصر إلا بأبصارهم ، ولا نذوق إلا بذائقهم ،

ولا تكلم الا بالسنتهم ، كنف لا وهم الارواح ، ونحن الاشباح . وهم السمات ونحن الارواح . حينما مالوا ملنا . وما مالوا ملنا . نعم اننا نحتاج زيادة على هذه المدارس الى مدرسة عمومية تتكفل ببيان هذه المسئلة وهي ان العلم نافع والجهل ضار ، وافصح الفرق بين غسق الليل ورابعة النهار ، بل هي ألزم من جميع اللوازم فانه ما لم تتوفر الرغبة في شيء لا يتحقق الاقدام عليه بل يكون مبتذلا عند النفوس ، مرموقا بعين اليؤس ، تشمز منه الطباع ، وتفر منه الاسماع ، وان هذه المسئلة أي ان العلم نافع لنا ، والجهل مهلك لأرواحنا وأبداننا ، مسألة صارت عندنا من أدق النظريات ، محتاج في بيانها الى كثير من المقدمات ، والحجج والبيانات ، مع ما ينضم الى ذلك من الاعبارات كالترغيب . والترهيب . والتمثيل والتقريب . والاجمال والتفصيل والابحاز والتطويل . على حسب اختلاف مراتبنا في القبول . وعلى الله تمام المسئول

المقالة الخامسة

وجاء في العدد ٤١ من هذه السنة مانصه:

التحفة الالابية

انه حينما كانت هم أرباب الفطن النقادة ، والفكر الوقادة ، (من أهل) العربية في أوج كالمها ، وأفلاك سعادتها في منازل اقبالها ، كانت الامة تباهي سائر الامم برجالها العتلاء السياسيين ، وفلاسفتها المستبصرين ، وتختال بينها عجباً بما لها من الثروة والقوة ، والعز والفتوة ، وسطوع شمس المعارف في أفق ديارهم ، وانجلاء غيوم الجهالات عن وسط سماءهم ، حيث كانوا قد استنوا على منصات السكمان في التعقل والتبصر على حسب ما كانت عليه درجة العلم في ذلك الوقت . وبينما اللغة العربية تباهي سائر اللغات باتساعها وإحاطتها بدقائق (المعاني) التي كان يديها العرفاء من المتكلمين بها ، وكانت متحلية . تزينة بجملة الاصطلاحات العلمية كاصطلاحات الطبيعيات والالهيات والرياضيات والطب وغير ذلك من

سائر الفنون ، وكانت قريرة العين بتلك الخلية والزينة وازديادها وانتظامها على حسب مرور الأزمان (إذ) فترت تلك الهمم وتنزلت الى حضيض الأخطاط لموانع قد اعترضت سيرهم وصدتهم عن التقدم في مدارج السعادة والكمال وأوقفهم (عند حد) لم يتجاوزوه ، بل أرجعهم الى مقام كانوا قد تقدسوا عنه وتركوه تلك الامة (كان) ما كان لها من الشان ، وبدأ أمرها بعد النقصان ، وسلبت تلك اللغة الشريفة ما كان لها من الخلي والزينة ، وأمسّت للصغار والابتدال رهينة ، وتقدم سائر الامم في اكتساب المزايا التي كانت لتلك الامة وحسنت هيئاتهم الاجتماعية ، ونالوا من الثروة والرفاهية ، ونحلت أسنتهم بالعلوم والمعارف ، وديارهم بالبدائع وبهي الزخارف ، وتطاولت أسنتهم بالفخار على لساننا ، وباهت رجالهم في السياسات والافكار رجالنا ، فلما قرع آذان أبناء الامة العربية سهام الملام ، قام فيهم قائم الغيرة والحمية وآلوا على أنفسهم أن لا يألوا جهداً في استرجاع ما فقدوه رغمًا لتلك الموانع ، وقسراً لمركات هاتيك القواطع ، فنشأ فيهم من بذل المهمة في استحصال العلوم واللغات وبرعوا في ذلك وترجموا الى لغتهم العربية الكتب من جميع الفنون كالطبيعة والكيمياء والطب والجيولوجيا وغير ذلك من الفنون المفيدة فتجلت لغتنا في حليتها ، وبدت ترفل في ثياب زينتها الا انه لم يوجد فيهم من يعنى بعلم السياسة وتاريخ سير التمدن حتى يمن على اللغة العربية بأن يودعها دقائق معانيه ، ويقلدها لآلي مآبانيه ، حتى قام بهذا الامر العظيم جناب الفاضل الاديب ، واللاوذعي الاريب ، الذي يغنيك رؤية أثره ، عن عطر ذكره ، الخواجا حنين نعمة الله خوري فتبرع لأبناء العرب ولغتهم بترجمة كتاب جليل في هذا الموضوع لم يسبق سابق بمثاله ، ولم ينسج ناسج على منواله ، وهو ما ألفه الوزير الشهير كبرو فانه كتاب قد جمع فيه من نتائج السياسيات ، ما تحارفيه ألباب أرباب الرياضات ، حقيق بأن يسمى سبيل النجاة ، ومادة الحياة ، وهو الكتاب المسمى بالتحفة الادبية . واتني لا أستطيع أن أذكر من مزايا هذا الكتاب فوق ما أفاده حضرة الاستاذ الاكرم ، والفيلسوف الاعظم ، الذي تشرف بذكر اسمه مسامع القاصي والداني ، جناب السيد جمال الدين الأفغاني ، وهالك ما قال :

« لا يريب ان كل انسان طالب للسعادة بطبعه ، وهارب من الشقاء بوسعه ، فجميع حركاته وسكناته انما هي لاستحصال تلك الغاية وان سعادة الانسان انما تقوم بسعادة ملته وأهالي وطنه ، فان عضواً من أعضاء الملة ، ولا شك في أن العضو يشقى بشقاء سائر الأعضاء ، ويتألم بالآلامها الا أن يكون أشل عديم الاحساس ، فأعظم سعادة تطلب انما هو سعادة الامة والملة التي نشأ الانسان فيها الا أن للوصول الى هذه السعادة المطلوبة طرقاً وعرة السلوك وربما ضل فيها الطالب فوقع في تقيض المقصود وتردى في حفرة الشقاء ، فكان من الواجب على كل انسان أن يأخذ الأهبة ويمتحن جميع السبل ويتخذ أعظم الوسائل لنيل هذا المطلب الجليل ومن المعلوم ان المستبد برأيه كثيراً ما يعرض له الخطأ بل قلما تقع منه الاصابة فأحسن الطرق وأولاهها بالسلوك هو الطريق الذي قد امتحنته أيدي التجربة وترتبت عليه تلك النتائج في عالم الاعيان ، وهانحن (أولاء) لا نشك في أنه قد حصل لأهل أوربا تقدم ووصول الى الغاية المطلوبة في هذا العالم وكان ذلك نتائج مقدمات ترتبت قيساً صحيح النتيجة حتى أوصلتهم الى هذا المطلوب ، فلا بد لكل انسان ان يبحث عن تلك المقدمات التي انتجت سعادة أولئك الامم حتى يستعملها في إيصال أهالي ملته ووطنه الى مثل ماناله غيرهم ، حتى يسعد بسعادة تراه الذي نشأ فيه ، والوزير كيزو قد جمع في كتابه هذا جميع الشروط والاسباب والوسائل والآلات التي كان لها المدخل في سعادة الاورباويين والعناصر التي تكون منها ذلك المزاج اللطيف ، بحيث ما أبقى شاردة إلا اقتنصها ، ولا خفية إلا إلى اعيان أبرزها ، وأحكم بيانها ، فعلى عالم الانسانية أن يشكر له هذا الصنع الدقيق وعلى أبناء العرب خاصة ان يقوموا بشكر مترجمه الفاضل ، فانه قد بالغ في تهذيب العبارات ، وتحقيق الاشارات ، حتى أتى على المرغوب من إيضاح معاني ذلك الكتاب بألفاظ رقيقة عذبة المذاق ، متسقة المساق ، تتسابق معانيها إلى الاذهان ، وتبرز دقائقها في عالم العيان ، فكان حقيقاً بأن يجعل قلادة في عنق كل واحد من أبناء هذه الامة العربية . على أبناء أوطاننا وأهالي لغتنا العربية أن يعرفوا لهذا الجليل الجليل ، ويبدلوا الهمة بحطالة هذا الكتاب العظيم الشأن ودراسته ، والاخذ بسيرته والسير على طريقته ،

حتى تستير عقولهم ، وتندفع إلى المعالي همهم ، ويعضدوا بذلك مقصد هذا
 الفاضل ، فانه لم يكن له بغي في هذا العمل سوى ترقية هذا الفن في أبناء هذا الوطن ،
 فليؤيدوه بالهمة والنشاط في ذلك ، وليقتدوا به في النهوض إلى مثل هذا الصنيع المفيد ،
 فان بيت السعادة محتاج إلى أركان كثيرة ومما يرشدك إلى أنه لم يرم شيئا سوى نفع أبناء
 الوطن وانه محب صادق لخيراتهم أنه لما رأى ان بعض أهل العلم من الازهر قد نشر
 بعض مقالات على الطرز الجديد بدت منه ثلاثم السرور والابتهاج ، وسارع إلى
 مدحهم والثناء عليهم ، وشكر ذلك اليهم ، فجازاه الله عنا وعن أهالي أوطاننا خيرا ،
 وخلد له أحسن الذكرى »
 محمد عبده

﴿ يقول جامع الكتاب ﴾ سقطت كلمات من هذه المقالة تعرف بالبداهة
 فوضعناها بين أقواس ، وسبق مثل ذلك في غيرها ، وهذا آخر ما رأينا للاستاذ الامام
 من المقالات في السنة الاولى من جريدة الاهرام وكان لا يزال مجاورا في الازهر لم يصر
 مدرسا رسميا وهي تدل على انه أوتي من كمال العقل وسداد الرأي في بدايته مالا
 يزال كبار علمائنا وعظماء رجالنا قاصرين عن إدراكه ، ولو عمل أهل هذه البلاد
 بإرشاده منذ تصدى للإصلاح ونشر آرائه في الصحف لكانت مصر الآن من أعظم
 الأمم علما وحضارة واستقلالاً وقوة ، ولكن استعداد الأمة كان ناقصاً ، وما نراه
 الآن من التنبه والتوجه إلى العلم والعمل للامة فله ولأستاذة السيد جمال الدين الفضل
 الاول فيه ، وقد صرح هو بأنه لا يرجو ان يعيش إلى ان يرى ثمرة عمله ، وأنه ليس
 إلا معبداً ومهدداً لمصلح يأتي بعده .

الفصل الثالث

مقالات الوقائع المصرية (الرسمية)

لما تولى الاستاذ رحمه الله ادارة المطبوعات في وزارة الداخلية ورياسة تحرير جريدة الحكومة الرسمية ، أنشأ فيها قسماً أدبياً لأرشاد الأمة لما تصلح به أخلاقها وآدابها ولتنميتها ، فنذكر في هذا الجزء أهم ما كتبه في هذا القسم

المقالة الاولى
حكومتنا والجمعيات الخيرية *

ان مما تثلج به الصدور ، وترتاح له النفوس ، ويعتدنا على الثقة بحسن مستقبلنا ، ما نراه من إقدام أبناء قطرنا على الاعمال الخيرية ، وجدهم ونشاطهم في تأليف الكلمة ، وضم الشمل ، واتحاد المقصد لنجاح البلاد وتقدمها ، وأخذهم بالوسائل الحقيقية التي تؤدي إلى ذلك وان سبقنا إليها سكان الممالك المتمدنة وبلغوا بها آمالهم من الثروة والقوة وكال السطوة . وهي إنشاء الجمعيات الخيرية المتعددة تختلف أشكالها ، وتجد مقاصدها ، وتتعدد أماكنها ، وطرق سيرها ، وتتفق غاياتها وفوائدها ، فتكون على تنوع وظائفها بمنزلة بدن واحد ذي أعضاء مختلفة يقوم كل عضو منه بما يعود على البدن كله بالصحة والقوة ، ويزيدنا أملاً وثقة ما نشاهده من تأييد الحكومة السنية لتلك الجمعيات ، وشد عضدها بما تبديه من المساعدات لها في كل ما يوجب ثباتها وتقدمها وتشديد أركانها وتقوية دعائمها ، بما تصدره من الاوامر السامية في شأن تقريرها واعترافها بها ، حتى يظهر لجلي النظر ودقيقه ان الحكومة بأقوالها وأعمالها كخطيب فصيح العبارة ، لطيف الاشارة ، يث الغيرة في القلوب ويجذب الهمم من خطة الخطة ، ويدعو أفراد الرعايا إلى الهدى والرشد ، ويعلمهم الواجب عليهم لأنفسهم ، وهو المحبة الوطنية ، والالفة الانسية ، والتعاون على جلب المنافع العامة

* نشرت في العدد ١٤٢٩ من جريدة الوقائع المصرية الذي صدر في ١٤ ذي القعدة

سنة ١٢٩٧ ١٩٥٠ اكتوبر سنة ١٨٨٠ م

(٧ - تاريخ الاستاذ الامام - الجزء الثاني)

التي يشترك فيها كل واحد منهم ، ودفع بلايا الفقر والفاقة والذلة الناشئة من الشقاق والتباغض المتولدين من الجهل بحقيقة الحياة الانسانية. وصدور مثل ذلك من حكومة مصرية وان كان غريباً عجيباً إذا رجعنا إلى صفحات التاريخ في الازمان الماضية إلا أنه ليس بمكان الغرابة في عصرنا هذا ، فان الجناب الخديو المعظم قد عرف من عهد شبوبته بالميل إلى المعارف ، وشدة الحب لها ، والسعي في تربية الاهالي وتهذيب عقولهم ، وعلى ذلك وزراؤه الكرام أيد الله شأنهم ، ومن ذلك لانعجب اذا رأينا هذه الحكومة الجليلة مساعدة لأهل الخير ، مهيمة لهم طرق الوصول الى خير ما يقصدون ، بعد ما ذلت لهم المصاعب الكافية التي أدركهم اليأس من تذييلها في سنين طويلة - بعناية خديوها الجليلة وهمة دولتو رئيس النظار (١) وإن من أقوى البراهين على ما نقول إقبال الجناب الخديوي ودولتو رياض باشا ناظر الداخلية الجليلة على من قدموا اليه من رجال الجمعيتين الخيريتين ، الجمعية الخيرية الاسلامية بالاسكندرية ، وجمعية المقاصد الخيرية بمصر . فقد قابلهم الجناب المعظم بصدر رحيب ، ووجه باش ، وأجاب التماس كل بأن يصير سعادة ولي العهد رئيساً عاما للجمعية المبعوث من طرفها ، وعند ماعرض قانون كل من الجمعيتين على دولتو ناظر الداخلية الجليلة أقره واستحسنه ، وبعث الى نظارة المعارف باعترافه وقبوله ، وأصدر الأمر بتقرير كل من الجمعيتين ، وشكر صنيع كل من رجالهما ، وحث على مساعدتهما في كل مابه تقدمها ، غير انه لم يفض الطرف عن ما يلزم لعموم نفعهما وهو مراعاة وحدة التعليم ، وأن تكون موضوعات التعليم فيها متحدة مع باقي المدارس الميرية ليتأتى قبول تلامذتهما في المدارس العالية ليتمتعوا بتتبع دروسهم فيها ، ونيل الشهادات الحقيقية على ما اكتسبوه من الفنون ، وخص جمعية الاسكندرية باعانة نقدية يبلغ مقدارها ٢٥٠ جنبها من جانب الحكومة في كل سنة ، حيث إنها قرنت بين العزم والفعل

١٦٥ كان رئيس النظار وناظر الداخلية لذلك العهد رياض باشا الشهير ، وكان قائما بضروب من الاصلاح جليلة وكانت الجريدة الرسمية هي الحادي والسائق لكل ضرب منها

وشهد لها أثر في العيان . إلا انه حث مندوبيها على مراعاة الفقراء والايتام والاكثر منهم بالمدرسة قائلاً : إن للأغنياء طرقاً كثيرة في تعليم أبنائهم ، أما الفقراء فليس لهم سبيل اليه ، وإنما لو رأينا زيادة عنايتكم بالفقراء لزدناكم في الاعانة والتقدير ، ثم أكد وصيته بأن يكون التعليم حقيقياً راسخاً في القلوب ، ثابتاً في العقول ، لا أن يكون ظاهرياً على سطوح الخيالات والاهام . فهذا الصنيع ، الجميل من هذا الوزير الجليل ، يستدعي انطلاق الالسنه بالثناء عليه ، وميل الافئدة بكليتها اليه ، وما كل ذلك إلا بعناية الخديوي وحسن مقاصده ، خلد الله دولته ، ومكن في الآفاق سطوته ، وسنرى من آثار هاتين الجهتين ما يحمد آثره ، ويخذ ذكره ، وهذا محصل ما كتب من نظارة الداخلية الى نظارة المعارف في شأن الجمعية الخيرية بالاسكندرية بتاريخ ١٢ القعدة سنة ١٧٠٧

« ليس بخاف مانهض اليه الموقفون من أهل البر والاحسان من ذوات ووجوه الثغر السكندري في تأليف وإنشاء جمعية خيرية لتعليم العلوم واللغات المفيدة والصنائع النافعة . وقد قارنوا العزم بالفعل إذ أنشأوا المكاتب التعليمية ابتغاء مرضاة الله تعالى ، وحباً فيما يعود على الوطن بالخير . والآن قدموا لنا قانون الجمعية الدال على حسن مقاصدهم بما قرروه من إنشاء مستشفى للرضى ، ومكتبة لطالعة الكتب واستنساخها ، ثم دار ضيافة لمن يقدم على الجمعية . وأن يكون من شؤونها مواساة الارامل وتربية الايتام من أبناء أعضائها بعد موتهم وغيرهم ، ومساعدة من يصابون في أنفسهم وأموالهم بما يقوم بدوائهم ، وتكون رياستها العمومية في عهدة سعادة ولي العهد الاكرم . وحيث كان هذا المشروع من محاسن الاعمال العائدة بالمرزايا على الوطن وأهله الدالة على جمال المقصد ، وهي مطابقة من كل وجه لأفكار الحضرة الخديوية ، وعند تلاوة مفضلات القانون المحكي عنه وجد مقبول الوضع ، ملائماً موافقاً للطبع ، فبناء على ذلك وجب قبول هذه الجمعية وتقريرها على حدتها ومعرفتها بالاسم الذي عنونت به ، ولزم تحرير مساعدتكم اخطاراً بذلك لتقوموا بما ينبغي من المساعدة لها فيما يمكن به

تقدمها وحسن سيرها ، ومن طيه نسخة القانون للعلم بما اشتملت عليه ، وحفظها أساساً لذلك بالمعارف

« وحيث اشتملت هذه الجمعية على تعليم وتدرّيس العلوم ونشرها بالصفة التي أوضحت بقانونها ، وهذا مما يجعلها تحت سلطة المعارف وملاحظتها ، فعليكم بإعطاء جميع التعليمات والأوامر التي تلزم لذلك »

المقالة الثانية

احترام قوانين الحكومة وأوامرها

من سعادة العلامة *

إنما تسعد البلاد ويستقيم حالها إذا ارتفع فيها شأن القانون ، وعلا قدره واحترمه الحاكمون قبل المحكومين ، واستعملوا غاية الدقة في فهم فصوله وحدوده والوقوف على حقائق مغزاه ، وسهروا لتطبيق أعمالهم جزئية وكلية على منطوقه الحقيقي ومفهومه ، عند ذلك تحيا البلاد حياة حقيقية ، ويسري فيها روح السعادة وتهطل عليها سحائب الرحمة ، فتخصب بها أرض الثروة لكون جميع الأعمال على اختلافها حينئذ متجهة إلى غاية واحدة هي النفع العمومي المنقسم على كل فرد من أفراد الرعية على التساوي كل بمقدار عمله ، وصاحب الحظ الوافر من السعادة هم العمال والمأمورون وأركان الدولة ، لأنهم مصدر الأعمال الكلية التي عليها يدور نظام البلاد ، فينالون من الثمرة على مقدار ما لهم من الفضل

وليس يكفي في راحة العباد وانتظام المملكة أن توضع القوانين حاوية لكليات الأمور وجزئياتها ، ثم تهمل من النظر ، وتطرح عن الفكر ، ويستمر كل ذي عمل في عمله ، يتبع فيه رأي نفسه إن خطأ وإن صواباً . فإن هذه الحالة يستوي معها وضع القانون وعدم وضعه ، ولا فائدة في إبراز فصوله وأبوابه

* نشرت في العدد ٩٥٢ من جريدة الوقائع المنسربة الصادر في ٢٦ القعدة سنة

١٢٩٧-٣١ أكتوبر سنة ١٨٨٠

من عالم الفكر إلى عالم اللفظ والكتابة ، بل يكون هو والعدم سواء ، وتتساوى بلاد ارتقى فيها الفكر الشرعي إلى أعلى درجة ، مع بلاد بلغت أقصى غاية من الهمجية والتوحش ، فان نهاية أمر الجهتين هو الاختلال والشقاء . وطالما اقتضت حكومة مصر في الزمن السابق باصدار اللوائح ووضع القوانين ، وتجديد النظمات ، وتنقيح الاصول الاساسية ، وسجلت ذلك في الدفاتر ، وخلدته في بطون الاوراق ، حتى كان الناظر في ذلك يظن أن بلاداً هذا نظامها ، وذلك قانونها ، لبي غاية من السعادة والراحة ، لكنها كانت تمحو أعناقها خجلاً عند ما كان يظهر من أعمالها وأعمال عمالها ما يضاد القانون الذي وضعته ، ويؤدي إلى شقاء البلاد التي حكمتها ، ولا تؤاخذ على ذلك . وهذه خصلة لا يرضاها العاقل لنفسه أعني أن يعمل على خلاف ما يرسم ويحدد

أما حكومتنا اليوم فلم تسمح بوضوح اللوائح تحت المساند ، ولا في مستودعات الدفاتر ، ولا تحت تراب الاهمال والاعغال ، بل لاتزال همه رجالها متوجهة إلى جعل القانون عنوان العمل ، فلا تصدر حركة من أمر أو مأمور إلا على طبق وما رسمته في أوامرها العالية ، فان بقي من تلك العادة السيئة (أعني إهمال الاوامر) شيء في نفوس البعض من ذوي المناصب ، وبلغ ذلك مسامع رئيسه الأعلى وجه اليه اللوم والعتاب ، وأنذره إنذار من يؤاخذ بالذنب ويعاقب على الجرم ، وأخذته الغيرة على قانونه الذي سنه خوفاً عليه من الضياع ، وعلى ثمرته من فقدان . فان تكررت منه المخالفة أنزله عن منصبه بعد إحالة النظر في مخالفته على المجالس القضائية ، وذلك كله لحسن مقاصد الحضرة الخديوية وعنايتها بإصلاح بلادها ، وبهمة دولتلو رياض باشا رئيس النظار ، وغيرته على الحق ، وتيقظه ، وسهره على تنفيذ لوائح الحكومة ومنشوراتها ، علماً منه أن أسعد البلاد ما تقف فيها حكم القانون ، خصوصاً إن كان ذلك القانون عادلاً ، يوافق مصلحة البلاد ، وانه لافائدة في إجهاد النفس لوضع اللوائح ، وتأسيس المنشورات إذا لم يحجر عليها العمل ، ولم تكن نصب أعين العمال في جميع إجرآتهم ينظرون إليها ، ويسيرونها في كل أحوالهم عليها

فرغب هذا الرئيس الجليل رغبة حتمية في تأييد حرية العمل في هذه البلاد ، ورفع سوط النسوة الغير القانونية ، وإبطال عمله بالكلية . إذ لم يجعل لأحد من المأمورين سلطة على أحد من الاهالي ، إلا فيما يعود على البلاد بالمنفعة العامة ، كما هو شأن العدالة وحقائق النظام ، وأعلن ذلك بالصرحة في منشورات الداخلية الجليلة مراراً ، ليعلمه الماكون والمحكومون معا . فيعرف الأهالي حقوقهم ممتازة ظاهرة ، فلا يسمحون بجدشها . ويعتبر بذلك المديرون ، وصغار المأمورين . فلا يسخرون أحداً في عمل من الاعمال بغير حق ، وإلا فلا يأمنون عاقبة ذلك وسوء مغيبه . نعم لهم الحق في أن يسوقوا المتقاعدين عن الاعمال التي تطلبها مصلحة البلاد بسوط العدل ، الذي لا يرفع عن المهملين — وهذه صورة منشور جليل صدر من نظارة الداخلية في هذا الشأن منبئاً بغيره دولتو ناظرها الأتخم ، وشدة محافظته على رعاية القانون

أول منشور من وزارة لداخلية تمخير الناس في اعمال الحكومة

« قد علمنا مما كتب لنظارة الداخلية من مديرية الشرقية بالتلغراف : أنه أخذ جملة أنفار من أهالي مديريته ، وتوجه بهم إلى جهة شالوفة ، لاصلاح ما حدث من الخلل ، وترميم ما وقع من التهدم بجسر سكة الحديد ، في المسافة الواقعة بين هذه الجهة والسويس . ولما سئل عن إقدامه على هذا الاجراء بأمر من هو ؟ أجاب : بأنه أقدم على ذلك بناء على تلغراف ورد اليه من عموم إدارة السكة الحديد . ولما رآه من المصلحة العامة في ذلك ، مع تعهد إدارة السكة الحديد بدفع أجر الانفار . ولا يخفى أن هذا الاجراء لا ينطبق على القواعد الأساسية المتبعة ، ولا يوافق نصوص الاوامر السامية المصرحة بأنه لا يجوز تكليف الاهالي بعمل من الاعمال إلا إذا كان عائداً عليهم بالمنفعة العمومية ، كزري مزروعاتهم ، وحفظ أراضيهم وبلادهم من غوائل العرق فقط . نعم أن منفعة السكة الحديد تعد منفعة عامة ، لكن لما دائرة خصوصية ترجع اليها ايراداتها ومصاريفها . فعليها أن تتدارك جميع أعمالها من طرفها لاستعمال مأموريها

أنفسهم فيما يلزم لها ، وليس لها أمر ولا نهى على المديرين من أعمال الادارة ، ولا غيرهم فيما يمتثل هذا الامر ، ولو صدر عنها ذلك فلا يصح لمدير أو من دونه أن يجيبها أو غيرها إلى ما تطلب بعد ما علم هذا الاساس المتين ، خصوصاً إن أوامر الحكومة الصادرة إلى المديرين ، ناطقة بأوضح عبارة بأن كل مأمور مكاف بامثال أوامر النظارة التابع هو لها . فالمديرون ليسوا بتبعة لمصلحة السكة الحديد ، ولا غيرها من المصالح ، ولكنهم تابعون لنظارة الداخلية ، ولا يسوغ لهم إجراء عمل ما يشبه ذلك إلا بأمر يصدر لهم منها . فعلى المديرين والاهالي عموماً أن ينتبهوا لمثل هذه القوانين الثابتة ، ويراعوها حق المراعاة ، ويعلموا أنه لاسلطة للمدير أو غيره على أحد من أهالي البلاد في عمل من الاعمال ، إلا فيما يعود اليهم بالمنافع العامة فقط ، وهو ما يقرر بالجداول في كل سنة من أعمال التطهير ، وتقوية الجسور لحفظ البلاد عند فيضان النيل ، وكل من يبدو منه أدنى مخالفة لهذه الاوامر بأن يكلف الاهالي بأداء أعمال لا تجب عليهم ، ولا هي في منفعتهم العامة المقررة في جداول العمليات ، فقد أوقع نفسه تحت خطر المحاكمة ونفوذ أحكام العدالة فيه ، ومجازاته بما يقضي به القانون . وبهذا لزم الاخطار لعموم الجهات ، ومن الجملة لسعادتك تحذيراً من الوقوع في المخالفة

المقالة الثالثة

حب الفقر أو سفه الفلاح *

كان أهالي بلادنا محملين من الاثقال النقدية مالا يطيقون من ضرائب على الاراضي متنوعة متكررة تنجدد على الدوام ، بتجدد الاشهر والاعوام ، وحرائم تفرض على الانفس وتوابعها من غير نظام ، لا تنتهي إلى غاية ، ولا تقف عند حد ، حتى بلغت بهم نهاية لا يستطيعون معها الأداء لشيء مما فرض عليهم . ثم لم يكن لاقتضاء هذه الفرائض الثقيلة منهم وقت معين ، ولا قاعدة معروفة ، بل ذلك كان على حسب اشتهاؤ الحاكم ، وإرادته الغير مرتبة . فتارة يجبرون على أداء جميع أموال السنة بأنواعها ، في أول شهر منها . وتارة يطالبون بأموال السنة القابلة في منتصف السنة الحاضرة ، ولا يحيص لهم عن الأداء ، فان من تأخر عنه عومل بالضرب المهلك ، والحبس المؤبد ، أو انتزع منه جميع ما بيده قهراً ، وما شاكل ذلك من المعاملات الخسنة

ولا يجد للخلاص من جميع ذلك سبيلا سوى الالتجاء إلى التجار وأرباب البنوك الذين هم كانوا أعظم أعوان الظلم في ذلك الوقت ، وأشد أنصاره . فاذا رأوا حاجة الاهالي اليهم تدلوا وتمنعوا العلمهم أن الكرباج وراءهم ، فلا قدرة لهم على الصبر ، ولا سبيل إلى التخلص من ألم العذاب ، ولو مؤقتاً ، إلا بالرضاء بكل ما يرسمون عليهم من الفائدة ، فكان التاجر لا يؤدي تقوده سلباً ، ولو قبل الحصاد بعشرين يوماً إلا ستين فيما يساوي مائة وقت الحصاد ، فتكون الفائدة

*) نشرت في العدد ٩٦٩ الصادر في ٢٢ الحجة سنة ١٢٩٧ - ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٨٠ تحت هذا العنوان ما يأتي :

أربعين أو أزيد في الشهر الواحد ، وصاحب البنك لا يعطي إلا بفائدة عشرة في المائة ، بل أزيد في كل شهر ، ومن الناس من كان يأخذ المائة بمائتين في أربعة أشهر ، وجميع هؤلاء حاضرون أحياء نعلمهم وهم يشهدون . فكانت تلك الايام ويلا ووبالا على الحكومة والاهالي جميعاً ، وكانت سعداً وريباً للتجار وارباب البنوك الغرباء الدخلاء الذين انتشروا بين أبناء البلاد انتشار الذئاب بين الاغنام . فأثقلت كواهل الفلاحين وغيرهم من الوطنيين بالديون الهائلة ، واضطرم العجز لبيع أملاكهم ، ورهن عقاراتهم وأراضيهم ، أو الانسلاخ منها بالكفاية ، فأحاط بهم الفقر ، وصاروا في أسوأ حال

والحمد لله أصبحوا في هذه الايام ، وقد خففت عنهم الاثقال ، وأنني كثير من الضرائب غير القانونية ، ووقفت المطالبات عند حد معروف ، وضربت لتأديتها مواقيت محددة على حسب فصول السنة وما يكون فيها من حاصلات الزراعة . فتوفرت على الاهالي ثمرات أتعابهم ، وصاروا الآن لاجابة لهم إلى بيع شيء بأقل من قيمته ، ولا بفلس واحد . فان أوقات الأداء هي أوقات اجتناء ثمرات الزراعة . ومع ذلك فالمطلوب مقسط بأقساط خفيفة سهلة الأداء لا تلجى ، صاحبها إلى ارتكاب شيء مما كان يرتكب أولاً ، فنمت الثروة نمواً لم يكن يخطر بالبال ، وأيقنا ان الاهالي سيثبتون على املاكهم ، ويعتبرون بسوابق احوالهم ، فيحرصون على تقدمهم في الثروة والغنى ، حتى يستردوا ما سلب من ايديهم قهراً ، ولو بأعلى قيمة واغلى ثمن ، وتأخذم الفيرة على املاكهم واملاك إخوانهم التي اصبحت في ايدي غيرهم ، يتشع بخيراتهما ، ويتلذذ بشهي ثمراتها . فيطلبون رجوعها اليهم بدفع اضعاف قيمتها الاصلية ، كما هو شأن الاحرار ذوي الشرف والهمة ، وذلك لا يكون إلا باتباع قانون الاقتصاد والاكتفاء من اللوازم بقدر الحاجة او دونها ، حرصاً على نيل الشرف الحقيقي ، وهو تخليص املاكهم ، او حفظها من تطرق يد الغير اليها إلا إننا نأسف كل الاسف إذ لم نظفر بهذه الأمنية ، فان الحكومة لما

(٨ — تاريخ الاستاذ الامام — الجزء الثاني)

ارتفعت عن كواهلهم أثقال المظالم، وخفت عنهم أحمال المفارم، فتحوا على أنفسهم بابا آخر من الفقر يلجونه باختيارهم وإرادتهم بدون قاسر ولا قاهر، وهو باب السرف والتبذير والاكتثار من لوازم الرفاهية والزينة، وما يكسب الظهور الكاذب بلا طائل، فرأيانهم يتفاخرون في إعداد الولايم وإتقان أشكال الزينة، ويتنافسون في تشييد الابنية، ويتكاثرون في الملابس وأنواع الملاذ، لا يقفون فيها عند حد، ولا ينتهون الى غاية (كما كانت الضرائب في الزمن السابق) وليتهم مع ذلك يتقنون في اجتلاب هذه الاشياء قيمتها الحقيقية، ولكنهم من الجهل يشترزون مايساوي عشرة بعشرين إن لم تقل بمائة، فان ضاق إيراد أحدهم عن هذا المصرف الواسع أسرع الى البنوكة يرهن فيه أرضه وعقاره بفائدة ليست بقليلة، يلزم نفسه بأدائها أعواما كثيرة، ويظنها سهلة الاداء مع أنها تحت شروط شديدة عليه لطيفة على صاحب البنك، غير متدبر عاقبة الأمر، ولا متبصر في نتائج هذه الغفلة

بلغني أن بعض الاعيان في بلادنا رهن أرضه الزراعية الحصبة على خمسة وعشرين ألف جنيه يدفعها في خمسين سنة مائة ألف جنيه وكسور. أليس هو الاحق بهذه الفائدة التي هي ثلاثة أضعاف ماأخذ، وهي ثمرة كسبه، ونتيجة تعب، وما عليه اذا اقتصر في مصرفه ليحفظ على نفسه ذلك المبلغ بل أكثر منه، ولعمر الحق أنه لو أنفق على قدر إرادته أو نصفه لقلنا إنه من المسرفين. ولكن أبي حاكم الشهوات الا أن يكلف هؤلاء الضعفاء النفوس المنحطي الافكار بما لا يطيقون، كأنهم يرهنون بأعمالهم هذه وتهورم في الاسراف والانفاق على أنهم ليسوا أهلا للثروة، ولا مستحقين للثروة، ولا يتحملون ثقل الخير على أنفسهم، بل يحبون أن يكونوا على الدوام فقراء مترين لا يملكون شيأ، وإن كانوا في صورة أغنياء مترين، ويرغبون أن يكونوا نحت ذل الدين وأقاله إذ رسموا على ذواتهم أن تكون في قبضة ارباب الدين يتصرفون فيها وقت مايشاؤون، ولا يعلمون أن نكبات الدهر كثيرة الورود شديدة البطش، وربما اجتاحت زرع أحدهم جائحة سماوية (كالمعروف عندنا بالندوة أو الهيفة) أو أصيب بموت ماشيته،

أو نزلت به حادثة غرق ، أو شرق ، أو ماشاكل ذلك من المصائب التي لامندوحة عنها ، فيعجز عن الاداء فتباع أملاكه ويصبح من الخاسرين ، ولا يبقى له سوى الحسرة في قلبه على ما فرط في شأن نفسه . وكان من الواجب على هؤلاء المساكين (الاغنياء والمتوسطين) أن ينتهزوا فرصة الراحة ليعدوا فيما يماينفهم زمن الشدة ، ويوفروا على أنفسهم شيئاً من ثروتهم لتكون بفضل الله فرجة لهم يوم الكربة ، وإلا فقد دلت التجارب على أن عاقبة الاسراف حسرة تملأ القلب ، وحيرة تدهش اللب ، وسنعود الى هذا الموضوع مراراً إن شاء الله

المقالة الرابعة *

(عدنا والعود احمد الى موضوع حب القتر أو سفه الفلاح)

(٢)

الاقتصاد هو فضيلة من فضائل الانسانية الجميلة ، بل هو من أهمها مدحته جميع الشرائع وبينت فوائده ، وهو كغيره من الفضائل مركب من أمرين بذل وإمساك ، أعني أن الاقتصاد هو التوسط في الانفاق بحيث لا يبسط صاحب المال يده كل البسط حتى لا يبقى فيها شيئاً ، ولا يقبضها كل القبض حتى لا يخرج منها شيئاً ، بل ينفق من ماله على حسب حاله ، يقدم الأهم فالهم ، فيدفع الضرورة وقيم البنية على قدر ما يناسب درجة غناه وقفره ، مع حفظ بقية من كسبه يعدها للحوادث غير المنتظرة التي قلما ينجو الانسان من ورودها عليه بفترة من حيث لا يشعر . فاذا جمع الشخص بين الامساك عما لا يلزمه ، والبذل فيما هو أحوج اليه ، فقد حاز فضيلة الاقتصاد التي قال فيها نبينا صلى الله عليه وسلم « الاقتصاد نصف المعيشة » والمعنى أن المعيشة تقوم بأمرين الكسب والاقتصاد في انفاق ثمرته ، فمن كسب مالا فقد حاز أحد الأمرين فان لم يحز الآخر وهو حسن

* نشرت في الممدد ٨٨٩ الصادر في ١٦ المحرم سنة ١٢٩٨ - ١٨ ديسمبر

التدبير ، فقد فقد نصف معيشته ، أي فقد انهدم أحد ركني المعيشة . فان حاز الامر والثاني هو الاقتصاد ، فقد تمت له المعيشة .

وتوضيح الحقيقة في هذا الباب ان من اجهد نفسه في الاكتساب وتحصيل الاموال ، ولم ينفق منها شيئاً على نفسه في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه وغير ذلك من لوازم معيشته أو انفق منها قليلاً جداً بحيث لا يفي بلوازمه ، ولا يقضي واجباته ، فهو وإن كثر ماله وغزرت مادة ثروته ، لكنه في الحقيقة ناتق المعيشة فقير جداً . وهذا الكاسب ليس إلا بمنزلة خادم حقير مكلف بالجمع والتحصيل والحفظ ، فهو خفيّر فقير بيده مفاتيح الخزائن ، ولكن كأنها مملوكة لغيره لا ينال منها شيئاً ولم ينل الا التعب والشقاء لاغير . وكذلك إن تجاوز في النفقة حد الواجب بأن حدد لنفسه من الامور ما ليس بلازم وصرف جميع ما اكتسب أولاً فأولاً ، فانه يكون في غاية من الفقر وإن كثر الابراد جداً لانه في كل آن لا يملك من ثمرة كسبه شيئاً ، فهو بمنزلة من يصب ماء في حوض فتح في قاعه بالوعة كبيرة لا تبقي شيئاً مما يصب في الحوض ، فالماء دائم السيلان لكن الحوض فارغ ، فهو في الحقيقة فقير جداً ان ألمت به مصيبة أصبح مترباً في غاية الاحتياج والاضطرار يرشد الى هذا كله قوله تعالى (ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتعدهم لوما محسوراً) وهذه القاعدة الجليلة مع ظهور فائدتها في انتظام احوال الانسان بحيث لا يعارض فيها عاقل ولا جاهل ، وترغيب الشريعة الطاهرة في اتباعها والعمل بها على ما نطقت به الآيات والآحاديث — نرى كثيراً من الناس في ديارنا منحرفين عنها كل الانحراف بعضهم يميل الى جانب الامساك بالمرّة ، والبعض الآخر يميل الى جانب الاسراف بالكلية ، اما الاولون فانهم يصرفون جميع اوقانهم في الكد والتعب والاخذ بأنواع الميل لتحصيل الدينار والدرهم . ثم يودعون جميع ما يحصلون بطن الأرض ، وترتعد يد الواحد منهم عند ما يقرب من الصرة أو الوعاء المحتوي على النقود . فان وجب في ذمته لله أو للناس حق صعب عليه أداؤه فيكتسب الوزر والجرم ، وينال من الناس الاهانة والتعزير في طلب حقوقهم ، ونحيط به الضرورات بأنواعها ، ولا يدفع شيئاً منها بشيء من

ماله ، بل إن ماله المكنوز ربما كان يمكن استزادته وتنميته ، ولكنه لا يرضى بذلك ، وبحب أن يدوم كما أودعه لا يزيد إلا بما يضمه اليه من خارج ويقتر على نفسه في كافة لوازمه ، فلا يحافظ على صحة بدنه ، ولا يبذل شيئاً في تربية أبنائه وتهذيبهم ، وإن كان على علم بأن ذلك واجب خشية من نقص عدد النقود ، وإن كان ذا عائلة أضربها من عدم الانفاق وأهل واجباتها وتركهم يتنون تحت آلام الاحتياج . فمثل هذا السفية أنس حالاً من الفقير ربما يمنعه عن قضاء حاجاته العوز والاعدام ولكن هذا يمنعه عنها حب الفقر والاضطرار والتلذذ الوهمي بأن له نقوداً في بيته فإذا مات تركها لا يعلم بها أحد لانه اكتنزهافي اخفى الامكنة وأشدّها بعداً عن الاعين فيصبح أبنائه ومن كان في نفقته فقراء معوزين لا يملكون شيئاً . فهذا الصنف من الناس خلق لان يتحرك في الهواء حركات الذرات غير الشاعرة لا يدري لاي شيء يفلو ويروح وهو عاشق للافتقار والاضطرار وطلعتي في نهاية سيره مع إخوانه في الرذيلة المسرفين

وأما قسم المسرفين من أهالي بلادنا فأولئك شأنهم غريب : إذا خفت عنهم للعلم ، وأقالتهم الحكومة من المظالم ، وتوفر لدي البعض منهم شيء من النقود ولتفتت أسعار المحصولات أو جاد موسمها ، ورأى بعضاً من النقود يرن في يديه ، قصد إلى سوق البضائع الافرنجية (التي يعدد ائتتاؤها تمدنا) يشتري أحسبها وأدناها بأعلى القيمة وأرفعها حلية لزوجته ، وزينة لابنته وابنه ، وبهجة لنفسه ، يظهرها يظنها رونقا يكسبه حلية واعتباراً ، حتى يمدود قد صرف جميع ما توفر لديه ، وربما كان مع ذلك بيته مهدماً يحتاج إلى البناء ، ومضجعه خالياً من الفراش لا يستر سوى الحصير البسيط ، وزوجته التي يحلبها هي المنغمسة في الاقدار ، المكافئة بأداء جميع الاعمال الخسيسة ، وليس عندها من الاوقات ماتتجمل فيه بتلك الزينة ، اللهم إلا يوم المأتم والفرح ، وأبنائه الذين حبابهم بتلك الزخرفة فاقد التربة ، متروكين في زوايا الاهمال يسره ان يراهم يلعبون ويتواثبون في مساحة بيته المفترشة بطبقات من الاتربة ، ثم إذا ازداد إيراد مرة أخرى رأته يتفنن في الولاثم وإقامة الافراح لابنائه وأقاربه تحت مصاريف متي فتحها على نفسه ، أخرجته عن طاقته ، وأنفق

فيها المثين والالوف بجلب الاشياء التالفة التي لا قيمة لها سوى العدم ، ويسره في كل ذلك انه فرح بابنه أو أخيه أو ابنته الذين لم يكتسبوا شيئاً من الفضائل وكان الإليق بهذا المسكين أن يتخذ له من فضل الكسب معيناً له في أعماله يخفف عنه بعضها ، فان ما ينفق على المساعدين يأتي بالرجح ويفرغ صاحب الكسب لأعمال أخرى لم يكن يقدر على تعاطيها ، أو يأتي لأهل بيته بمعين على أعمالهم حتى ينالوا شيئاً من الراحة ، أو يؤدب أولاده ، ويهدبهم ، على شرط أن يكون ذلك غير مستغرق كافة الكسب ، بل لا بد أن يبقى منه ذخيرة ينفقها عند حدوث الحوادث ، وينظر للعواقب نظر الحكيم ، ويكفيه من الافراح ان ابنه ختن أو تزوج في حياته بدون احتياج إلى ما هو أزيد من ذلك ، فقد رأينا كثيراً من هؤلاء المساكين تأتيهم أراضيم بالمحصولات الجيدة ، والارزاق الوافرة ، ثم ينفقونها عند ورودها في أمثال هذه الزخارف الباطلة ، حتى إذا مضت مدة السكر التي آتى بها الإبراد ، وطرقته نائبة من موت مواشيه ، أو فساد زرعه بمجانحة سماوية ، أو خسران تجارته ، أو كساد صناعته ، أو حدوث امراض أوقفتها عن الاعمال ، وكيسه فارغ وبيته خال (إلا من الزخارف التي لا أساس لها) عمد إلى بيع مصوغات زوجته وأثاث بيته ورهن أملاكه أو بيعها حتى يصبح فقيراً معدماً ، وقلما مكنه الزمان من الرجوع إلى مثل حالته الأولى أو ما يوازيها ، فيأخذ في الانزواء قهر أعنه ، ويخلع ثياب الفخفة والزينة ، ويلبس رداء الخول والفقر ، وترميه العقلاء بل وأمثاله من السفهاء - الذين ذاقوا مثل مذاق او ينتظرون عاقبة - كما قبته بالسفه وضعف الرأي وقلة العقل ، ويمسي ذليلاً محتاجاً بعد ان كان يظن نفسه غنياً عزيزاً ، فما أصعبها على النفس من حالة ، ويا ليت النعمة كانت خاصة بشخصه ، ولكنها تأتي على عائلة جسيمة ينالهم من شرها أكثر مما ناله . وهذه الحالة نراها في الكثير من أوساط البلاد وأغنيائها ، وهذا كما يضر بهم وبمواشيتهم يضر أيضاً بثروة البلاد نفسها . إذ تحصر الثروة في دوائر مخصوصة عند أشخاص قليلين ، لو ازمهم ليست بالكثيرة ، فتكسد أسواق الصناعة والتجارة لقلة الراغبين في الصنائع والبضائع ، أي لقلة القادرين على اقتنائها ، وتقل الرغبة في الأعمال الزراعية ، إذ يكون الجميع كأجراء لا يهتمون اهتمام الملاك

وإن أغنى البلاد وأسعدها هي البلاد التي توزعت ثروتها على غالب أهلها ،
 ويزداد الضرر إذا وقعت الاملاك والمبيعات في أيدي الغرباء والاجانب ،
 الذين لايسرنا أن نراهم واضعي أيديهم على غالب الاملاك العظيمة والاراضي
 الواسعة التي كانت في أيدي أبناء البلاد ، بل هذا أمر يحزن كل ذي عقل
 وإدراك ، ولا يغفل عنه إلا غبي ذني ، محب للفقر والفاقة . وإنا لنخجل
 من حكاية هذه الاحوال عن أهالي بلادنا ، خوفاً من وقوع بصر الاجنبي
 عليها ، فيعرفون منا ما لانحب أن يعرف ، لكننا نظن أنهم على خبرة
 من أمورنا بحيث لايفيدنا السكوت ، ولكننا ندعو النبهاء ، بل والعلماء أن
 يجتهدوا في بث هذه الافكار بين عموم الناس لعلها تنجح فيهم ، ولا أراها
 إلا ناجحة . ونرغب إلى بعض ذوي الكلمة في بلاد الفلاحين ، بل وفي المدن
 أن يلاحظوا ذلك ، وينصحوا المتوغلين في الاسراف على غير قاعدة راشدة
 بأن يكفوا عنه ، وأن يعتدلوا في أحوالهم فذلك ، خير لهم من ضياع أموالهم

المقالة الخامسة *

﴿ حب الفقر أو سفه الفلاح ﴾

(٣)

﴿ نعود اليه من وجه آخر غير الذي بدأنا به ﴾

خلق الانسان ولوعا بالمنفعة ، حريصاً على إحراز الفوائد ، نفوراً من
 حالات الاضطراب ، يطلب لاجتلاب رزقه قريب الوسائل وبهيدها ، ويجهد
 النفس في توفير ثمرات الكسب ، توقياً من عوارض الاحتياج ، وطوارىء
 الافتقار ، وهذه فطرة ألهم الله إياها لتكون له مخلصاً من تعاسة المعيشة التي
 تنتشأ عن الاضطراب في حفظ الحياة ، فهو يتعب الجسم ، ويشغل الفكر ،

* نشرت في العدد ١٠٢٤ الصادر في ٢٨ صفر سنة ١٢٢٨ - ٢٩ يناير سنة ١٨٨١

ويواصل العمل ، وإن كان في ذلك ما فيه من الآلام والشقاء ، ليعتاض من تعبها هذا راحة كان يعسر نيلها لولا هذه الاتعاب ، وهي الاطمئنان على النفس والوثوق بصونها من التهلكة . فترى العامل يشتغل بأشق الاعمال يياض نهاره ، ويتألم ويتضجر من صعوبة العمل ، كأنما قهره عليه قاهر ، وفي الحقيقة لا قاهر له سوى علمه بأنه لو لم يشتغل لفقد اجر الاشتغال ، وهو مادة قوته ، وقوام معيشته في مسكنه وملبسه ، وكافة ما يقي حياته من الزوال ، فيستسهل هذه الاعمال البدنية ، في جنب ما تأتي به من الفائدة السكاية ، وهي حفظ الوجود ورفع ألم الاضطراب الطبيعي ، وهو الجوع والعري ، وتسلمت القرى الطبيعية من الحر والبرد على بدنه . ومصداق ذلك ما نراه من السنن المقررة في أهالي المعمورة عموماً على اختلاف أصنافهم ، ومواقع أوطانهم ، يشقى كل واحد شقاء جزئياً وقتياً لينال سعادة كاية ثابتة على زعمه ، ويترك فوائد جزئية لا ثبات لها ، كاذة الراحة والبطالة ، لتحصيل فوائد أعلى وأثبت . ولو سألتنا حال الصبيان في سن الرضاع لنطق بحقيقة ما قلنا ، فهل يرتاب في ذلك أحد ؟

اكتنا من العجب نرى هذا الالهام الالهي (إلهام الدأب في السمي وارتكاب بعض المشقات لنيل الراحة الثابتة) قد غشيه في بلادنا سحب من الجهل ، فاستتر عن النفوس ، فعاد الناس لا ينظرون إلا للغايات الوقتية ، بل الآنية التي ربما لا يكون لها امتداد أزيد من آن حصولها . وذلك بعد أن نذكره عاماً في غالب طبقات الناس ، كما يشهد به العيان من ميل جميع الطبقات إلى البطالة والسكل عن تعالي الاعمال التي يناط بها كل واحد منهم ، استلذاذاً للراحة الوقتية ، وركونهم إلى قضاء واجبات أغراضهم وشهواتهم على أي وجه كان ، لا يحكم الواحد منهم قانوناً ، ولا يستفتى شريعة ، طلباً لمنفعة آنية ربما أعقبها نكد يمتد مع الحياة ، نذكره كذلك خاصاً في طبقة الزارعين من إخواننا الفلاحين ، فإن لهم في ذلك شؤوناً غريبة ، وأطواراً عجبية ، اقتصر منها هنا على وجه واحد من وجوه انحرافهم عن الجادة المستقيمة في تحصيل أرزاقهم وحفظ حقوقهم يعلم كل زارع علم اليقين أن الزرع لا ينبت ، والنبات لا يشمر ، والثمر لا يوجد ،

إلا إذا أصاب الزرع من المياه حظه القانوني ، ويوقن أن بلادنا ليست أقطاراً
يكثُر فيها نزول الامطار ، فتعم المزارع بدون عمل منا ، فننال حظنا منها ونحن
رقود ، وليس لنا من الأمر شيء سوى انتظار ماء السماء ، فان يبس الجومات
النبت ونزل القحط والعياذ بالله

بل يعلم حقا أن الله منح أراضيها ماء النيل روحا لنبتها وحيوانها ، وهو
ميسر يأتي في مواقيت الاحتياج على سبيل الاضطرار ، حاملا من المواد المغذية
لنبات ماشاء الله أن يحمل ، غير أنه يحتاج إلى أعمال اليد في توزيعه على المزارع
وحفظها من الزيادة المفسدة لها . فتحتم لذلك شق الترع والجداول وتطهيرها ،
وإقامة الجسور والقناطر ، وما شا كل ذلك مما هو معلوم عند الفلاحين أيضاً .
ويتحقق كل فلاح أن هذه الاعمال لو أهملت وكانت الجسور ضعيفة أو قيعان
الترع غير عميقة إلى الحد الكافي لطلب المياه بسرعة ، أو سدت مسالك المياه
من أي وجه من الوجوه الطبيعية لفسد الزرع ، إما بالفرق العام أو اليبس الكلي
المعبر عنه (بالشرق) فتعطل مادة الرزق ، ويسوء حال المزارعين على العموم
جميع هذا الذي قلناه يعلمونه حق العلم ثم نراهم مع ذلك يفرون من الاعمال
العمومية التي دعت اليها ضرورة حياتهم على ما قدمنا فرار الفريسة من المقترس .
وما هذا الفرار إلا ملاحظة للأتعاب الجزئية التي تنالهم من البعد عن بلادهم
قليلا ، وترك بعض أعمال خصوصية في البيت ، أو أرض الزراعة ، وصعوبة العمل
نوعاً . على هذه الأتعاب لاتعد شيئاً بالنسبة إلى ما ينشأ عنها من الفوائد ، وعن
تركها من المضرات الكلية ، المؤدية إلى فقد الحياة وعموم القحط . فلو أن لهم
بصيرة واعية لتسموها على أنفسهم بالتراخي ، كبيرهم يستوي مع صغيرهم في
كيفية أدائها بطيب القلب وصفاء الخاطر ، استجلابا لمادة رزقه بدون أن
يحتاجوا في ذلك إلى سائق يسوقهم ، أو قائد يقودهم ، خصوصاً في هذه الاوقات
التي توفرت فيها الأفراد توفراً تاماً بسبب ارتفاع أنواع السخرة الخصوصية
التي كانت عامة البلوى في أنحاء القطر ، فكان عدد البلد الواحد الذي لا يزيد
عدد القادرين على العمل فيه عن مائة ، يؤخذ منه عشرون للعمل في (الجفتلك)

الفلاحي المتعلق بالسفاهة الفلانية ، وعشرون آخرون للأوسية الفلانية التابعة للباشا الفلاني ، وعشرة لأبغادية أخرى وهكذا ، فربما أتى يوم من الأيام لتجدد في البلاد إلا الشباب والعجائز والصبيان . أما الآن وقد علموا أن معدل المطلوب يبلغ ثمن التعداد بالتقريب ، والباقيون يشتغلون بالأعمال الزراعية في الأراضي ، فلا يليق بهم التقاعد عنها ، بل من الواجب على كل واحد المسارعة والمبادرة إليها بكل ما في قوته وإمكانه ، تعاضداً وتعاوناً وانفاقاً تاماً على جلب هذا الخير العظيم لأنفسهم عموماً . وأي سفه أعظم من أن يعلم الشخص طريق منفعة التي لا طريق له سواها ثم يتقاعد عنها ، ويحتاج إلى من يجذبها إليها بالقوة القاهرة فان تعلموا بأنهم لا يفرون من العمل نفسه ، ولكنهم يفرون من الأعمال التي كانت تصدر من الحكم وتابعيهم من الضرب المؤلم والارهاق المزعج وأعمال سوط السطوة فيمن يذهب إلى مواقع الأعمال العمومية ، وتكليف العامل بما لا يطاق من العمل والظلم البين وتوزيع مقاديره على حسب ميل المأمورين والمهندسين إذ ذاك إلى بعض الجهات لغرض ما ، وانحرافهم عنها فيخفون عن بعض البلاد ما يثقون به كأهل البعض الآخر ، حتى ينال من هذه أيضاً مثل ما نال من تلك فيقع التوازن والتعادل بين البلاد ، لكن يقع معه الاختلال في العمل المطلوب إذ يخف العمل عن الجميع بواسطة مادفعوا من النقود ، فيقيمون الزمن المحدد ثم يتصرفون إلى بلادهم بدون طائل . فهذا هو الذي يوجب النفرة والفرار من الأعمال العمومية كراهة في الذين كانوا يتولون أمرها .

فأقول لهم في الجواب عن ذلك (أولاً) إن تلك الأيام قد مضت وانقضت ، وهي الأيام التي كان قدر الفلاح فيها مجبولاً ، وكان يستعمل في الأعمال كما تستعمل الدواب والماشية لا يعلم لأي شيء ، يشتغل ولا لأي شخص يعمل هل لنفسه أو لغيره حتى صار يعد جميع الأعمال لغيره لأنفسه ، أما الآن فقد عرفت الحكومة قدر رعاياها ، وتقدمت إليهم بجميع الوسائل النافعة لهم ، وسارت أوامرها الشديدة في أنحاء البلاد سيراً حثيثاً ، ناطقة بأن لاسلطة لاحد من الحكام على أحد من الناس إلا فيما ينفعهم ويعود عليهم بثمرات الثروة والوقاية من موجبات الضرر وقد شاهدنا رأي العين

أن كل من ينحرف في سيره رمة عين الحكومة التي لا تغفل حتى تتحقق سوء فعله، فتأخذه بجرمه أو تضعه تحت المحاکمة كأننا من كان، وقد نشرت الجرائد كثيراً من مثل هذا. أفيلق بالزراعيين بعد مارأوا صدق عزيمة الحكومة في تعميم المنافع بينهم، وأنها تجد كل البد في تيسيرها بأي الوسائل أن يتقاعدوا عن ماعلوه منفعة لانفسهم استحضاراً للصور الماضية، وإن كانت هائلة تنزعج منها النفوس (وثانياً) إن الذي دعا أرباب السلطة في الزمن السابق الى التطاول عليهم إنما هو تبالؤهم عن منافعهم بفرق الكلمة في طلب المنفعة العائدة على الجميع، فلو أنهم صدقوا جميعاً في تميم مايجب عليهم من الاعمال وكل واحد يشتغل وهو يعلم أن هذا العمل عائد اليه بالنفع كعمله في مزرعته بلا تفاوت، فهل كان يمكن لأحد أن يثقل عليه أو يخفف عنه؟ كلا إنهم كانوا جميعاً يقدرون على ردع الظالم وتبديده لو اتفقوا على منفعتهم برفع أمره الى من فوقه وإظهار حاله الرديئة فلا يستمر قدمه بينهم. ولكن ظنهم أن العمل أجني للحكومة لا لهم، هو الذي بث في نفوسهم حب التخلص منه بأي الوسائل، فيتدخل كل منهم في صرفه عن نفسه بكل مايمكنه، فيقع الظلم على البعض بل الاغلب من جهة ويختل نظام الاعمال من جهة أخرى لوقوع التهاون من البعض الذي أرضى الحاكم السافل. وهذا جهل بين. فان الحكومة لاشأن لها في هذه الاعمال الا إيصال الخير الى رعاياها فهم الغاية المتصودة بشرة العمل، فليس من العتل بعد ماتحققوا هذا المقصد في عهد حكومتنا الماضرة وأن سلطة الباشوات (والستات) والمأمورين قد ارتفعت ولم يبق الا سلطة الحق والمساواة أن يتقاعد مكلف بعمل ما عن عمله اللهم الا أن يكون سفياً يستحق الجحيم عليه

على اننا ننظر في أحوال الفلاحين أمراً أغرب من هذا الذي قدمنا، وهو الاعراض عن الاعمال الخصوصية المتعلقة بيد واحد كتطهير ترعة مخصوصة بأراضيه أو المحافظة على النقطة المقابلة له، فيعلم أهل البلد علم اليقين ان ترعتهم الخصوصية لو لم تطهر لتأخرت عنهم المياه، وتعطلت زراعتهم إما بتلفها كلية أو بالنقص في ثمراتها، وأن المحافظة على قنطرتها أيام النيل مثلاً أمر لا بد منه والا

اندفعت المياه على أراضيهم فافسدتها ، ثم أن عملية التطهير ربما لا تحتاج الى أكثر من أربعة ايام او خمسة ، ومع ذلك ترى كثيراً من البلدان يهملون المساقى الخصوصية التي لا طريق لري المزروعات سواها . فاذا جاء أوان فيضان النيل ارتوت الاراضي عن يمينهم وعن شمالهم وهم يتلهفون على نقطة من الماء فلا يجدونها وكلما دعاهم داع في أيام التطهير الى العمل ، يحتج كل واحد منهم بحجة أن له شغلا خصوصياً في بيته او غيطه يمنعه من ذلك حتى تمضي الايام ويأتي وقت الندم حين لا ينفع . فان لم يكن في البلاد عمدة يهيمه أمر زراعته لانها أكثر من زراعة الباقين ، فيلجئهم الى العمل قهراً لتعمهم الفائدة - وإن لم يبعثه الا المنفعة الخصوصية ، لكنها أوصلت الى العمومية - فهذا حالهم . فانظر الى هذه الحالة الرديئة التي نشأت من تفرق القلوب ، وانقطاع التواصل بين النفوس ، فلا يهتم واحد بعمل يشترك في منفعه مع آخر ، وإن كان يتحقق الضرر لنفسه بتركه كان اشترك الغير في المنفعة صيرها مضره ينبغي اجتنابها ، وكان من الواجب ان الاشتراك يدعو الى التعاون والقوة بدل التهاون والانحطاط ، فكانهم سلبوا الخواص الطبيعية التي لانسان الجبال والغابات ، وقد علمت الحكومة ذلك فأرسلت الى المديرينات بالتأكيدات الشديدة لتتعمم العمليات الخصوصية ، ومع ذلك لم تنزل نسمع بأن بعض البلاد لم تعمل شيئاً في لوازمها الخصوصية . فكان المأمورين يعاملون الفلاحين بما في نيتهم ، لكن ليس هذا غرض الحكومة فالواجب على كل مأمور في جهة أن يهتم بتنفيذ أعمالها الخصوصية . فقد أذف وقت العمليات العمومية ، ولا يمكن فيه قضاء عمل خصوصي والافكل مأمور سيسئل عن جهات مأموريته ، وإن عاقبة السؤال غير مجهولة . نسأل الله أن يصلح أحوالهم ويمتعهم بنور البصيرة فيرشدون الى حسن المال ويوفقون لحيز الاعمال . (يقول جامع الكتاب) لله در الاستاذ كاتب هذه المقالات فقد احاط في بدايته بما لم يحط به غيره الى الآن ، فان هذه المناسد الاقتصادية لا تزال راسخة في البلاد ، ولو أنها عملت بارشاده فيها لبقيت ثروتها في أيديها ، ولما تمكن نفوذ الأجانب فيها ، ولا تزال محتاجة الى أمثال هذه النصائح ، وأين الناصحون ؟

المقالة السادسة

المعارف *

(١)

كثرت تحدث الناس في شأنها في هذه الاوقات ، وكانهم لما فرغوا من الافكار المتعلقة بالامور المالية والادارية ، وما كان فيها من الاضطراب وتنوع الاحوال ، وتقلب الاشكال ، إذ كفتهم الحكومة أمر ذلك كله بثباتها وتبصر رجالها المعتلاء ، أخذوا يلتفتون الى مابها حياتهم الحقيقية ، ونموهيتهم الاجتماعية ، وظهور شأنهم بين الناس ، وحسبانهم في عداد أهل العالم ، وهو العلم النافع الذي رأينا جيراننا من الممالك نالوا به السيادة على غيرهم ، وطفقوا يتذكرون فيما به يكون قدمه والوسائل الموصلة الى انتشاره في أقطاره ، موجبين آمالهم الى نظارة المعارف العمومية لانها ذات الشأن فيه . فقالوا كلاما كثيراً اذكره كما قيل (١)

قالوا إن المدارس ينبوع هذا الخير الجليل (العلم) وليس له من وسيلة سواها ، ولكن تحت شروط لا بد من استيفائها - ولسنا الآن بصدد بيانها - وقد افتتحت المدارس في ديارنا من عهد المرحوم محمد علي باشا ، لكن كان اسمها غريباً على الآذان ، وحشياً عن القلوب ، يساق الناس اليها (كأنما يساقون الى الموت) إذ كانوا يظنون أن الدخول في المدارس هو الانتظام في العسكرية

* نشرت في العدد ٩٩٠ منها الصادر في ١٨ المحرم سنة ١٢٩٧ - ٢٠ : بسمبر سنة ١٨٨٠
 (١) ان الآراء الآتية كلها للاستاذ رحمه الله تعالى وانما ذكرها باللوب الحكاية عن الناس لثلاث تقول نظارة المعارف ان رجال الحكومة يعيرونها ويشهرون بها في جريدتها على ان وزير المعارف متبرم من هذه المقالات وشكا الاستاذ الى رئيس الظار رياض باشا وطلب منه ان يامر بمنعها فقال بل لا بد من اصلاح الخلل .. وكان ذلك سبب تأليف مجلس المعارف الاعلى للاصلاح وكان للاستاذ ما كان من العمل فيه كما بيناه في الجزء الاول من هذا التاريخ

والدخول في العسكرية هو الشقاء الدائم ، والبلاء المحتم ، وبعض الناس بعد التذبه كانوا لا يرون خطة أرفع من خطة الكتابة في ديوان أو مصلحة لما يرون للكتاب من المكانة عند الحكام ، والتصرف في الخقوق ، فكتبوا بإرسال أبنائهم الى الكتبة يعلمونهم ، حتى اذا كبروا انتظموا في سلكهم . وكانت لهم المنزلة المطلوبة بدون حاجة الى مدرسة ولا مكتب منتظم ، وبعض الناس ربما كان يعلم فائدة المدارس ، ولكن كانت توجد له أسباب تمنعه من تربية أبنائه فيها ولكننا لا نبديها ، وأما في أيامنا هذه ، فقد تبييت العقول ووقفوا على فوائد العلم وثمراته حق الوقوف ، غير أن ذلك يقضي على الآباء بتربية أبنائهم من الآن فصاعداً على الطريقة المنتظمة ، أما الشبان الذين فاتهم زمن التعليم في تلك الحالة السابقة واشتغلوا بتحصيل مادة المعاش ، إما بالتوظف في الخدمات الميرية أو طلب الكسب من وجوه آخر ، ولهم شوق تام الى كسب فضيلة العلم ، فلا تساعدهم أحوالهم بالضرورة على الرجوع الى التعلم في مكاتب الاطفال ، وتعطيل أسباب معاشهم ، فيود الكثير منهم أن تكون في البلاد مدارس ليلية يتداركون فيها بعض مافاتهم في الازمنة السابقة أزمنة جهل آباؤهم اعلمهم بذلك ينفعون أنفسهم وبلادهم بأكثر مما يقدرون عليه الآن . حتى اهتم بعض من الشبان من مدة نحو سنتين بتأليف جمعية لفتح مدرسة ليلية ، ثم عارضتهم بعض الموانع ، فلم تساعدهم المقادير على النجاح ، وكانوا في انتظار توفيق إلهي يسرق اليهم ذلك الخير حتى سمعوا بان نظارة المعارف تروم افتتاح مدرسة ليلية ، ففرحوا واستبشروا وقالوا نعمة من الله سيمت الينا نؤدي له مزيد الشكر عليها ، ثم اتقبضت نفوسهم عند ماسعوا من شروط تلك المدرسة أن تكون دروسها باللغة الفرنسية خاصة ولا يقل فيها إلا من كانت عنده مبادئ الرياضيات والطبيعيات وله تقدم في اللغة الفرنسية وقالوا ياسبحان الله إن المدارس الليلية في البلاد المتقدمة تقرأ فيها العلوم الابتدائية باللغة العامية مع التزام التسهيل في التعبير والتجاشي عن ذكر الالفاظ الاصطلاحية الغريبة أو العسرة التهنيم ، وذلك لفائدتين (الأولى) أن كل من يعرف القراءة والكتابة يمكنه أن يفهم مبادئ العلوم بهذه الطريقة ، فلا تقتر

همة الذين لم ينالوا حظ التعليم في صغرهم ، وينتشر العلم حقيقة إذ لا يكون في فهمه صعوبة ، ولا يمنع الشخص عن أشغاله النهارية (والثانية) أنه اذا كن التعليم على هذا النمط تكون المسائل العلمية لقربها الى الفهم كحدوثات تتسلى بها النفس ، بل ألد من ذلك إذ لا يدخل الرجل محفل العلم الا ويخرج بنور جديد ، فتجذب نفوس الناس الى مستملحات العلم ، فبدل صرف أوقات ليلهم الطويل في مضاجعهم يتقلبون من جانب الى جانب ، أو في بيوتهم بمحادثات لا طائل تحتها ، أو في أماكن أخرى تتحاشى عن ذكرها ، يهرعون الى معهد العلم ليغذوا عقولهم ويروحوا قلوبهم ، ولم نسمع أن أمة متمدنة افتتحت مدرسة عالية وجعاتها ليلية ، فلم عدل عن هذه الطريقة الجليية في بلادنا واخترعت طريقة جديدة ، وهو جعل التدريس في المدرسة الليلية بلسان أجنبي عن لسان البلد بالكلية لا يفهمه المتقن منهم ، ولا العامي ، والعلوم التي يقرأ بها عالية لا ابتدائية ، حتى يحرم الناس الذين هم أحوج الى التعليم وأولى به ، وهم الخدمة وأرباب الكسب المحبون لنيل فضيلة العلم ولا يستطيعون ، ويتلهفون على ذلك ولا يجدون ، وهو مما يوجب الاسف خصوصاً وقد تواتر على الألسنة أن غالب من قبلوا فيها أجنب (وإن كان ذلك غير صحيح ، فعندي علم اليقين بأن الاكثر وطنيون ، لكن من الذين تعلموا في مدارس الفرير ونحوها) فهل يقال بأننا تقدمنا عن تلك الممالك فترقينا حتى صارت مدارسنا الليلية أعلى من مدارسهم ، أو أيقنا بأن العامة منا والكتاب لا يستفيدون من ذلك شيئاً ، أو لاحظت نظارة المعارف أنها بذلك تستحصل في زمن قريب على أساتذة تجعلهم معلمين في مدارسها ومكاتبها . فان كان هذا الوجه الاخير قلنا أنها ستجعل (مدرسة الخوجات) نهراً فلها أن تزيد في عدد تلامذتها ماشاء لهذا الغرض على أنه لو سلك في المدرسة الليلية مسلك البلاد المتمدنة لتأتى لنا الوصول الى بعض هذا المقصد ، فكثير من أهل العلم كان يود أن ينتظم في تلك المدرسة ليتعلم العلوم التي فاته تحصيلها ، لكن منعه كون التدريس بلغة أجنبية وكون الدروس فوق البدايات ، وإن كان الثاني قلنا إن الاستعداد والشوق موجودان في كثير من الناس ولهم رغبة تامة في التعليم ، فكيف يصح إساءة الظن بجميع شباننا الى

هذا الحد ، وإن كان الاول قلنا الاول أن لا تتكلم
 وإنما هو الحق في حاجة كلية إلى أن يكون التعليم الليلي عندنا مستديماً أخذاً من
 البداية تسهل الوسائل ليسر الأسباب بلغة بلادنا عامة أو خاصة حتى تنقطع حجة الجاهل
 ويبطل برهان الكاسل ، وتنبعث الغيرة في الكل إذا قبل البعض على التعليم ، ويقع
 التنافس في الفضائل ، ويجتهد الشبان الذين استرسلوا مع هوى الشباب شغلا ،
 وتوبخهم الذمة ، وتلغهم ضمائرهم إذا تركوه ، إذ لا يجدون لهم علة يتعللون بها
 إذ ، ذلك أنه لا بد أن يكون هذا التعليم الليلي اجبارياً عاماً لكل مستخدم وقارىء ،
 لم يتعلم تمام ما يجب عليه في وظائفه إلا الضرورة تمنعه من مرض ونحوه خصوصاً
 بعد ما أعلنت الحكومة أن جميع المستخدمين في الإيرادات أو التحصيلات لا بد
 أن يكونوا من الدراية بحيث يقدرّون على تحقيق القضايا وحل المشكلات
 بأنفسهم في مواد البنائيات والحقوق والحسابات ونحو ذلك . وهذا لا يرب يستدعي
 أن يكون جميعهم على بصيرة تامة ، وذوي عقل وافر ، وهذا لا يمكن إلا بعد
 تحلية العقل بالعلوم الابتدائية التي لا بد منها لكل من يريد الاستقلال في سيره
 هذا حاصل أقوال الناس في شأن المدرسة الليلية التي افتتحها نظارة المعارف
 قريبا ، وربما كانت تلك الأقوال صحيحة ، لكن إن صح ما قالوا فعليهم بتقديم
 آرائهم لسعادة ناظر المعارف ليتروى فيها ، ثم يجيبهم إلى مطلوبهم إن رآه
 موافقا وخاليا من الموانع والمحظورات ، والا أقنعهم بأن تعميم النفع غير ممكن
 فحينئذ يعلمون الحق ، ويريجون أنفسهم من الجدال ، ولهم أقوال في مواضع شتى
 يمنعنا من ذكرها في هذا العدد ضيق المقام ، وربما نذكرها غداً إن شاء الله

المقالة السابعة

المعارف *

(٢)

مقالات الناس فيها وأفكارهم العمومية متنوعة ذكرنا بعضها في عدد سابق وتذكر بعضا منها في هذا العدد حفظا لمتفرقات الاقوال لعل شيئا منها يقارن صحة فيصافد قبولاً ، وليكون ذلك دليلا على تنبيه الافكار والتفات اذهان الناس الى النافع الحقيقي قالوا

نشرت نظارة المعارف الى جميع فروعها منشوراً مبسوط العبارة مشحونا بالمعاني الرفيعة ، قاضياً على نظار المدارس والمكاتب ومعلميها بوجوب التفاهم لوظائفهم وقيامهم بواجباتهم ، مبيناً لهم أن الامتحانات في العام الماضي على الطريقة الجديدة ، قد أظهرت أن في بعض المدارس قصوراً في التعليم وفي بعضها كلالاً وزيادة . فاستوجب موظفو الاولى التوبيخ والانذار ، وموظفو الثانية الشكر والثناء ، فعلى الجميع من الآن فصاعداً بذل الجهد في ارتقاء درجة التعليم بحيث تكون الاستفادة تعقلاً وتبصراً ، لاحتفاظاً وقلقة ، وبين في هذا المنشور كيفية التعليم وطرق التفهيم ، وأندر من لم يحد حذوها بوقوعه تحت مسؤولية الديوان

فانشرحت صدور العامة والخاصة بهذه التنبيهات الاكيدة ، والتعليمات المفيدة ، وقالوا لو عمل بهذا المنشور لاطمأنت نفوس الكفاة الى تربية أبنائهم في مدارسنا التي يصرف بها آلاف الجنيهات من خزينة الحكومة ليتربي بها على توالي الازمنة رجال يكونون فخر البلاد وحماة زمارها ، فقد كانت النفوس تفي ريب من نجاح التعليم فيها قبل اليوم ، ولذلك كانت مدارس الفرير والانكليز من الامريكان والبروسيان وغيرها عامرة بأبناء الاهالي مسلمين ومسيحيين ، مؤمداً رينا ليس فيها منهم العدد اللائق بشأنها ، ولم يكن ذلك الا لما أظهرته

نشرت في العدد ٩٩٣ الصادر في ٢١ المحرم سنة ١٢٩٨ - ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٨٠

(١٠ - تاريخ الاستاذ الامام - الجزء الثاني)

التجربة من نجاح التعليم في تلك وقصوره في هذه مع مراعاة الآداب التي يفرح بها الولدان والاقارب في المدارس الاجنبية ، وإغفالها في مدارسنا لكن (الحمد لله) تلك أيام قد خلت . فان التفات سعادة ناظر المعارف الى كيفية التعليم وتشديده في أن تكون على وجهها الحقيقي مما يفيد الآمال ويقويها

ألا أنهم يتساءلون فيما بينهم بسؤالات كثيرة منها قولهم : هل حصلت المكافأة الحقيقية لمن أظهر الامتحان اجتهادهم من النظار والمدرسين ، وهي مكافأة الدينار والدرهم . فان مكافأة الشكر والثناء ، وإن كانت واجبة وهي من أجل المكافأة وأجلها ، ولما تأثير في جلب الرغبات وتقوية العزائم ، لكنها لا تلتصق بالقلب التصاق النقود والمساعدة المعاشية . فان من ضاق عليه العيش وكانت حاجاته أكثر من إيراده لا تنفك عنه الوسارس ، ولا يبارح ذهنه الاضطراب ، وتغلب منقصات الحاجة وآلامها على الفرح الذي أنعشه عند ما سمع كلمة الثناء عليه . ثم ذلك يتقص من اجتهاده ، ويحط من همته ، بل ربما أورث خلافا في كيفية تأديته لوظائفه ، خصوصا إذا رأى غير المجتهد مماثلا له في الرزق ، وأوفر راتباً منه . ولقد صدق القائل : النقص من الرواتب تقص من الاعمال ، لكن المنشور لم يذكر فيه حصول تلك المكافأة ، مع أن الموضع أن ميزانية المدارس كانت قابلة لذلك ، ونظارة المالية تسمح باستغراقها ، بل تود لو يزداد فيها

وقولهم : هل جميع من نشر عليهم هذا المنشور الجليل يدركون الغرض منه حتى الادراك ، وإذا أدركوه فهل يوجد عندهم من القوة العملية والتدريب على الطرق الجديدة ما يؤهلهم لاجرائه والسير بمقتضاه ؟ بحيث تحصل العناية منه بمجرد نشره ، أو أن الكثير منهم محتاج لأن يتعلم تلك الطرق ويتمرن عليها ، والبعض ربما لا يمكنه ذلك ، حتى ولا التعليم . وهل امتحن المعلمون والنظار كما امتحنت اتلامذة ؟ وعلم المستعد منهم وغير المستعد بوجه الدقة والضبط ، حتى إذا وجد منهم من لا يليق لوظيفة أنزل عنها ورزقه على الله ، ومن يليق لأعلى منها رفع إلى ما يستحق لتوجد الرغبة الحقيقية أولا ، ونحشى عواقب الجهل والاهمال ، ويتوفر على المعارف زمان تجرب فيه المعلمين مرة أخرى ، ويكون

كله خسارة على التلامذة المساكين . ولا تقصد بالامتحان إلا السؤال في الفن الذي بعده ، فاذا تبين أنه يمكنه الاحاطة بمسائله ، ولو بمراجعة الكتب على وجه السهولة عد عارفاً ، ثم طلب الالتقاء والتدريس وكيفية التفهيم ، فرب عالم لا يستطيع البيان

يقول الناس : إنه يوجد بين المعلمين أشخاص فضلاء نجباء ، عارفون بفنونهم ، قادرين على تأديتها بالوجه اللائق ، لكن يوجد بينهم آخرون ألفوا بعض الطرق العتيقة ، وتعزودوا عليها ، فلا يستطيعون بعد طول الزمن التحول عنها ، وإن كانوا علماء ، بفنونهم ، والبعض منهم يستطيع تأدية القواعد علماً ، ويعجز على تمرين المتعلم عليها عملاً ، والبعض يوجد خالياً من الأمرين ، يهزأ به التلامذة ، ولا يقررون أستاذيته ، كل ذلك يزعمون مشاهدته بالعيان ،

ويوجد بين المعلمين صنف من الزهباء لا يجب أن يجهد نفسه في التعليم ، ويكتفي في درسه بحكاية بعض ما وقع له في يومه أو ليلته ثم ينصرف ، فهل تعينت هذه الاوصاف في أربابها ، واعترف للفاضل بفضله ، وعرف الناقص بمتدار نفسه ، وأنزل كل منزلته ؟ هل اختارت نظارة المعارف لاجراء هذا المنشور أشخاصا من العرفاء كل في فن مخصوص ليظوفوا على المكاتب الابتدائية والمدارس الخصوصية . ولا يكون لهم عمل سوى هذا ليقفوا على أحوال تلامذة جميع المدارس في كل أسبوع أو خمسة عشر يوماً مثلاً ، ويقدموا جميع ما يرونه من الملاحظات على توجه الدقة التامة ، فان رأوا نقصاً عرفوا سببه ، ومن أي الجهات منبعه . فان كان اعوجاجا في طريق التعليم أرشدوا المعلم بأنفسهم ، وينذروا له الطريق مرة بعد أخرى ، فان اعتدل والا اعتزل ، ويكون أولئك الاشخاص تحت مسؤولية شديدة اذا ظهر فيما بعد نقص ، ولم يكونوا نهوا عليه ، فان ذلك يعث الغيرة وينشط الاجتهاد في المعلمين وغيرهم ، وتكون حركة المدارس في خط مستقيم فيوصل الى المقصود بأقرب الطرق المؤدية اليه ، ويسهل تدارك الخلل اذا ظهر . وازالة النقص اذا طرأ

هل دقت نظارة المعارف في معرفة أخلاق النظائر والاساتذة الذين

وضع الاطفال في كفالتهم ؟ يدبرون أمورهم، ويرشدونهم الى كمالهم ، وفصلت بين صاحب الاخلاق الفاضلة ، والافكار المستقيمة ، والعفة والنزاهة ، والغيرة على نفع من وكل أمرهم اليه ، وأداء ماوجب في ذمته ، حتى يكون حاله وكاله درساً آخر ، يعطى للتلامذة في كل يوم ، فتنطبع هذه الكلمات في نفوسهم بأشد من انطباع صور المعلومات في عقولهم ، وهو المعنى المقصود من التربية ، وبين من لاخلاق له ، بأن يكون أحمق أو دنيئاً أو عديم الغيرة والذمة ، أو رديء الافكار، ونحو ذلك من الذين تكون معاشرته التلامذة لهم موجبة لتلوئهم بالذائل ، وتكون كلماته في الدرس ممزوجة بسم الفساد ، فتميت أذهانهم ، وتكون عاقبة أمرهم ، إما جهلاً وقد ضاع الزمان وولى الشباب، وإما علماءً صناعياً مصحوباً بشرور تعود على صاحبها بالشقاء ، وباليتهام تكون قاصرة عليه ، ولكن تتعدى الى غيره بحكم العادة المستمرة ، وعند الفصل بين الغريتين بارشاد الرقيب الزهراء ، ذوي الفراسة والخبرة بأحوال العالم وأخلاقهم ، والامانة في الخبر ، والصدق فيه ، يميز الخبيث من الطيب ، ويبحث عن المستقيمين على قدر الطاقة في أنحاء البلاد ، لتفوض اليهم تربية الاطفال والشبان، ليكونوا رجالاً ينفعون أنفسهم وحكومتهم التي تصرف عابهم المصاريف الكبيرة ، أملاً بمحصولها على رجال تقيمهم في وظائفها الكثيرة ، يؤدون واجباتها بالضبط والامانة

يقولون : إنه لاشك في كون الكتب الموجودة في العلوم العربية مثلاً ليست أساليبها سهلة المأخذ على التلامذة ، ولا موافقة لطريقة التعليم في المدارس من اشتغال التلميذ بفنون كثيرة في زمان واحد ، وإنه يلزم إيجاد طريقة جديدة في التأليف ، وازالة كثير من الصعوبات التي عاقت كثيراً من الناس عن التعليم . فهل حصلت العناية بتصنيف تلك الكتب ؟ وان حصلت فبمن نيط تصنيفها ، وهلا شكل مجلس للنظر في مثل تلك التسهيلات ، ودعي اليه أعضاء ممن لهم سعة في الفكر والاطلاع على الطرق القديمة والجديدة ، ويكون لهذا المجلس حق في

قعين الكتاب التي ينبغي تدريسها في أي فنون ، حتى يتأتى إجراء ذلك المنشور السابق على وجه الكمال

من المحقق أن سعادة عبد الله باشا فكري وكيل عموم المدارس في سفره الى الجهات البحرية قد رأى أموراً كثيرة تستحق الالتفات ، وطلب من نظارة المعارف أشياء مهمة لا بد من تقريرها ، والاسعاف بها ، فهل أوجب طلبه؟ وحصلت المذكرة في تلك الآراء القويمة التي أبداهها ، حتى يفرغ من تنفيذ مقتضاها الى البحث في غيرها من الجهات القبلية

هذه جملة من سؤالاتهم سردناها للاحاطة بها ، وانا نجيب عن ذلك بأن نظارة المعارف هي أعلم بما يجب عليها من جميع ذلك ، وأنها لا تغفل شيئاً مما قلعه نافعاً ومفيداً . ومن اليقين أنها لا تشرع في شيء ثم تتركه يتم بنفسه بدون مراقبة . فالبتة قد أعدت لمقاصدها وسائل . إذ تعلم أن زماننا هذا لا يرى فيه الا الأثر الظاهر ، ولا يؤثر عن رجاله الا الاعمال الحقيقية . وأما صدور الاوامر والنطق بالالفاظ العالية بدون ترتب فائدة عليها . فقد مضى وقته ، وأن الآمال متعلقة برجال تلك النظارة العرفاء الاجلاء ، كسعادة ناظرها الاكرم المريض على تقدم العلم ، والغيور الرفيع المهمة سعادة وكيلها عبد الله باشا فكري ، والبصير الحاذق وكيل المكاتب الاهلية حضرة علي بك فهبي ، وسنرى من أعمالهم ما يرفع جميع هذه الالهام ، ويفتح للمعارف في عصرنا هذا تاريخاً جديداً ، فهذه هي الفرصة التي نرى فيها الحكومة العالية مساعدة على نشر المعارف وتأييدها ، فعلياً أن لانضيعها

المقالة الثامنة

المعارف (١)

(٣)

من المحقق ان نظارة المعارف قد اهتمت وعزمت على فتح مدرسة ليلية تقرأ فيها العلوم الابتدائية لتكون عاملاً لنفع شاملة الفوائد ، يذهب اليها الرجال الذين شغلهم الكسب والضرورات المعاشية نهراً عن التعاليم مع رغبتهم فيه ، وميلهم اليه ، ولهم من أوقات الليل الطويل فرصة لا يضيعونها إذا افتتح مثل هذه المدرسة إلا في تعلم ما يفهمهم ويزيدهم نوراً وبصيرة ، وسيكون التدريس فيها باللغة العربية التي هي لغة بلادنا ، ويقرأ فيها درس باللغة الفرنسية يكون قاصراً على تعليم اللغة لا غير ، يتبدأ فيه من الهجاء الفرنسي إلى نهاية ما يلزم ان يتعلم في تلك اللغة . أما دروس اللغة العربية فمنها ما هو خاص بتعليم قواعد اللغة ، ومنها ما يكون في بعض علوم أخر نافعة من آداب وتاريخ أحوال الأمم ، وتاريخ طبيعي ، وبعض مبادي الرياضه (فيا سمعت) بحيث لا تنقص عن تلك المدرسة التي سبق منا الكلام عليها المسماة بمدرسة الخوجات الليلية في جوهر ما يقرأ بها وان كانت تختلف عنها بأن هذه تكون لغة التعليم فيها وطنية وتلك اجنبية ، وهذه آخذة من البدايات وتلك آتية من النهايات ، وهذه يكون معظم نفعها بل كله للوطنيين ، وتلك لا تنقسم فيها ذلك إلا يبرهان ، وهذه الاختلافات وان كانت عظيمة ولكنها لا تضر في المقصود ومما ينبغي ذكره انه ثبت في أذهان بعض الناس ان مجرد تعلم اللغات الاجنبية يعد فضيلة يسعى اليها ، ويهتم بشأنها ، مع أن اللغة في ذاتها الافضيلة فيها ، ولا يصح أن تجعل غاية تقصد ، وإنما هي وسيلة لما احتوت عليه تلك اللغة من العلوم والآداب والافكار التي ربما لا تكون مبسوطه في اللغة الوطنية كما هي واضحة في اللغة الاجنبية ، فطالب تعلم اللغة الفرنسية مثلاً إذ لم تكن عنده مبادي علوم

* نشرت في العدد ٩٩٧ الصادر في ٢٦ المحرم سنة ١٢٩٨ - ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٨٠

وملكة إدراك في بعض الفنون التي يطلب المتفنن فيها لا يعد مصيباً في طلبه إلا إذا طلب معها تعلم تلك المبادي، حتى أنه عند بلوغه إلى حد الاقتدار على فهم اللغة يتيسر له الوصول إلى الفائدة المقصودة فلا يصح بناء على ذلك أن يكون التعلم والتعليم الليلين قاصرين على اللغات فقط، بل يلزم أن يكون معها بعض مبادي العلوم كما عرّضت عليه نظارة المعارف الجليلة التي لا تزال ترى مساءها في قدم أبناء البلاد وبث روح العلم فيهم تأتي من النجاح بما يخلد لسعادة ناظرها ووكيلها طيب الذكر وانشاء

وبانتتاح هذه المدرسة يفحم المجادلون، وتبطل حجة اللاتمين، الذين أنصبوا إلى البحث في المدرسة الليلية وفوائدها، وما يعود على البلاد منها، ونشرنا وجوه أنظارهم فيها في بعض أعدادنا السابقة، فكان هذا العمل من نظارة المعارف برهاناً قهلياً لا جديلاً يفتن الناظرين، ويفتح الحماصين، ويذهب بتعللات المتتالين، ومطالباً لأصحاب تلك الأفكار بالبرهان الفعلي أيضاً وهو توجه المهم إلى التعلم، وإفراغ الجهد في تحصيل ثمرات العلم، حتى تظهر فوائده هذه الأثر، وأنا على يقين من أن المستخدمين وغيرهم من ذوي الكسب الذين يعرفون قدر المعارف ويقدرونها بحق تقدرها بيمينون نظارة المعارف إلى طلبها كما أجابتهم إلى طلبهم، ويكون لجريدة الوقائع المصرية شرف الإخبار بخير الاخبار، وأجر التنبيه، على الأمر وما فيه

المقالة التاسعة

التربية في المدارس والمكاتب الميرية (*)

من المعلوم البين ان الغرض الحقيقي من تأسيس المدارس والمكاتب والعناية بشأن التعليم فيها إنما هو تربية العقول والنفوس وإيصالها إلى حد يمكن التربوي من نيل كمال السعادة أو معظمها مادام حياً وبعد موته ، ومرادنا من تربية العقول إخراجها من حيز البساطة الصرفة والحلوم المعلومات ، وإبعادها من التصورات والاعتقادات الرديئة ، إلى أن تتحلى بتصورات ومعلومات صحيحة ، تحدث لها ملكة التمييز بين الخير والشر والضار والنافع ، ويكون النظر بذلك سحياً لما ، أي يكون النور العقل نفوذ تام يفصل بين طبيبات الأشياء وخبائثها ، وهذا هو الركن الأول في المدارس والمكاتب ، ومرادنا من تربية النفوس إيجاد الملكات والصفات الفاضلة في النفس وترويضها عاينها ، وإبعادها عن الصفات الرذيلة ، حتى يكون المتحلي بها ناشئاً على ما يوافق قواعد الاجتماع البشري ولوازمه ومتعوداً عليه ، وهذا هو الركن الثاني ، وإذا فقد أحد الركنين بطلت الفائدة المطلوبة ، أو قلت جداً ، ولنترك البرهان على ذلك إلى علم كل إنسان به ، فإذا اجتمع للشخص هذان الأمران كان إنساناً له أن يطلب ما ينفعه ، ويبعد عما يضره ، فيدخل في أي أبواب الكسب في الدنيا والآخرة إذا رآه موافقاً لاستعداده وفي قوته النهوض به ، فيختار من العلوم والصنائع ما يشاء ، ويرع فيه بكل رغبة غير حتى يصل إلى ما تمكنه القوة منه ، ولا يتأتى منه الإهمال فيه لوجود الباعث من ذاته ، وهو غيرته وتصوره للعناية الذي لا يفارقه

وأما إن كان الشخص ضعيف الإدراك ، أو فاسد الأخلاق ، وإن كان عالماً بجميع علوم الدنيا ، فلا ريب أن يكون شقيماً في نفسه ، وسبباً في الشقاء لغيره ، ولا تقني عنه المعلومات شيئاً بل ذهب بعض الحكماء ، إلى أنه لا ينال العلم من أي نوع كان حقيقة

(*) نشرت في العدد ٩٥٧ من الوقائع الصادر في ٣ ذي الحجة سنة ١٢٩٧ - ٢٩

نوفمبر سنة ١٨٨٠

الابعد تحلي النفس بالصفات الجميلة التي منها بل أعظمها حب الكمال الذي هو الداعي الحقيقي الى طلب العلم والبراعة فيه وان أول مبدأ يجب أن يكون أساساً لتحلية العقول بالمعلومات اللطيفة ، والنفوس بالصفات الكريمة ، هو التعامل الدينية الصحيحة أعني ترغيب القلوب بما يرضي الخالق وإرهاها بما يفضبه ، ثم يؤتى بالرغبة التي يراد حث النفس عليها على حقيقتها المقصودة للشارع بحيث لا تخرج عن مكارم الاخلاق التي حصر الشارع علة بعثتها فيها كما قال عليه الصلاة والسلام « إنما بعثت لأتم مكارم الاخلاق » . ويؤتى بالأمر المنفور منه كذلك على وجهه ، ثم يقال ان ذلك يرضي الله وهذا يفضبه ، وذلك لا يتأتى نجاحه إلا بعد أن تكون القلوب الساذجة قد ملئت خشية من الله وتعظيماً للجلاله ، وتبجيلاً لتمام ألوهيته السامي ، بحيث لو ذكر اسم الله عند شيء ، خفق قلبه السامع ، وأضربت جوارحه خشيةً: نه ورهبةً: فيكون ذلك سبباً لاقدامه على ما يرضيه من الفضائل ، ونفرة عما يفضبه من الرذائل ، فهذا هو أسهل الطرق وأقربها للتربية والتهديب ، فان الطفل في صغره ، بل والشاب في أول بلوغه ، يعسر عليه لقلة التجربة ان يفهم مضار الاشياء ومنافعها من حيث هي بطريق العقل الصرف خصوصاً مما يتعلق بالصفات النفسانية التي يكثر فيها التضارب يستحسن منها عند شخص ما يستقبح عند آخر وبالعكس ، وايداع مثل ذلك في القلوب إنما يكون بتعويد الأبدان العبادة ، وتذكر جلال الله بالركوع والسجود ومعرفة العقائد الدينية السليمة ، فهي الاساس لكل ذلك ، وطالما تشوقت النفوس لان تكون التربية في المدارس على هذا النمط المفيد الذي عول عليه جميع الامم المتقدمة في مبادئ. تعاليمهم فان من تتبع قوانين التعليم في الممالك الاورباوية وآها بأسرها موجبة للابتداء بالتعاليم الدينية والاستمرار عليها إلى ما يزيد عن ست سنوات تقريباً ، ولكن لم تسمح الحوادث السابقة بنيل هذا الغرض لأسباب نضرب عن ذكرها صفحاً والآن رأينا نظارة المعارف العمومية وجهت عنايتها إلى ذلك ، وطلبت تجويده والاهتمام بشأنهم المعلمين والنظار ، وان لا يهملوا فيه كما أهملوا في سابق الامر ، وشدت عليهم في ذلك كل التشديد ، حتى أوجبت على الاساتذة ان يقوموا برسوم العبادة حق القيام أمام التلامذة ، ويدعوهم لذلك ان كانوا مسلمين (١١ - تاريخ الاستاذ الاملم - الجزء الثاني)

وأما المسيحيون وغيرهم من ذوي الأديان الأخر فلا يكفون بذلك أصلاً ، بل هم على حريتهم ، فلها الشكر على هذا المتصد المسن ، غير أنه يلزم ان لا تكون هذه العبادات والتعليمات الدينية صوراً يابسة لا روح فيها كعبادة الجاهلين ، بل يجب ان تكون معنوية حقيقية تحرق حجاب الغفلة ، وتمكن في باطن الادراك ، وتبعث في الاشخاص روحاً من الحياة يشهد آثره الناس أجمعون ، وعلى نظارة المعارف ان تلاحظ التعليمات الدينية التي يلقيها المعلمون حتى لا تكون محشوة بأنواع من التحريف المضاد لحقيقة الدين كما جرت به عادة كثير من المعلمين الذين يظهرون بصورة العلماء ، وان كانوا في الحقيقة من أرداء الجهلاء فان ذلك يخل بالمقصود من التربية ، ويضر بتقدم التلميذ في كثير من الفنون التي يلزمه تحصيلها (وسنعود إلى هذا الموضوع مرة أخرى عند الاقتضاء) وهذه هي صورة منشور المعارف إلى جميع نظار المدارس والمكاتب

مفسر - نظارة المعارف

« قد علم من جداول الامتحان العمومي المقدمة الى ديوان المعارف وما معها من النتائج والملاحظات المعروضة من طرف حضرات رؤساء الامتحان وأعضائه ان بعض المكاتب لم يحصل فيها الاعتناء بتعليم قواعد الاسلام المندرجة في المسامرة الخامسة والعشرين من كتاب التمرين حسب المقرر في الصحيفة الثالثة من ترتيب دروس المكاتب الأهلية والمدارس الملكية الابتدائية ، مع ان معرفة قواعد الاسلام بالنسبة لأطفال المسلمين من أهم ما يلزم الاعتناء به ، ولا يجوز اغفاله في حال من الأحوال مطلقاً ، فيلزم تدريسها للتلامذة بمعرفة (خوجات) القرآن مع حسن تفهيمها وتعليمها لهم بحيث يحفظونها عن ظهر القلب ، ويفهمون معناها فيها جيداً ، ويعرفون كيفية أدائها على أكمل وجه في الفرقة المقرر عليها قراءتها في الترتيب المذكور ، وهي الفرقة الثالثة من كل مكتب ، ومذاكرتها لهم كل سنة في كل فرقة يترقون اليها حتى لا ينسوها ، واذا كانت تلامذة فرقة من الفرق المتقدمة على الفرقة الثالثة لم يسبق لها قراءتها في تلك الفرقة يجدد لهم تدريسها وتعليمها كما ذكر في الفرقة

التي هم بها بمعرفة (خوجة) النحو ، إذ من بعد الآن لا يرخص بتلقي التلامذة من فرقة الى أعلا منها من ابتداء الفرقة الثالثة الى أعلا فرقة الابداء التحقيق بالامتحان من معرفتهم للقواعد المذكورة حفظا وفهما وعملا ، ويكون من أخل بشيء من ذلك من الخوجات المنوطين به تحت المسؤولية الشديدة ، ويشترك معه في هذه المسؤولية ناظر المكتب أو المدرسة اذ يتحم عليه رعاية اقيام بما ذكر ، ويجعل ذلك (خانة) مخصوصة في جداول الامتحان العمومي والامتحانات التي تحصل في أثناء السنة ويعطى فيها (نمرة) كسائر الدروس ، وكل هذا بالنسبة لأطفال المسلمين ولا خاصة ، وعلى خوجات القرآن الشريف والنحو حث التلامذة على الصلاة من السن الذين يؤمرون بها فيه شرعاً مع دوام وعظهم في ذلك وترغيبهم فيه ، وتحريضهم عليه ونهيبهم وزجرهم عن تركها والتكاسل فيها ، وعلى ناظر المكتب رعاية ذلك وترتيب أوقات الدروس على وجه يوجد فيه وقت لأداء الصلاة مع المثل منه للتلامذة عليها وحملهم على أدائها جماعة مأمومين بأحد خوجات القرآن الشريف أو النحو في المحل المعد للصلاة بالمكتب أو المدرسة ان كان موجوداً ، فان لم يكن موجوداً ففي مسجد قريب ، فان لم يكن بالمكتب أو المدرسة محل للصلاة ولم يوجد مسجد قريب فعلى الناظر المبادرة بالعرض الى الديوان عن تحديد محل للصلاة مع ارسال رسمه ومقاييسه وتكاليفه ، ومع أداء الصلاة في موضع يستحسن لذلك ولو في حوش المكتب أو المدرسة موقتاً الى أن يتم إنشاء المحل المطلوب . واذا لزم تدارك حصيرة للصلاة أو أكثر على حسب عدد التلامذة وسعة المحل يبادر كذلك بالعرض للديوان عن اللازم مع بيان اقياس المطلوب ، وقد كتب بما ذكر الى النظار عموماً ، وهذا لحضرتكم للاجراء على الوجه المشروح بناية الاهتمام والحذر من التهاون فيه بعد الآن وما

المقالة العاشرة

وخامة الرشوة *

ورد من مديرية الجيزة في ١٩ الحجة سنة ٩٧

«قبض على أشخاص من ناحية كومبره معهم أربع زكايب ملح براني بها ٥٠٧ أقة و ٢٤٠ درهما بواسطة مندوبي المديرية بإرشاد متعهد المصلح بناحية بلاق الدكرور ، فدفعوا للمتعهد والمندوبين ٣٠٠ قرشاً وكسوراً على وجه الرشوة ، فورد المبلغ للخزينة ، وهاهو اللازم جار لا تمام التحقيق ومحامكة الاشخاص ومبيع الحير التي كانت حاملة للملح لتورد أتمامها للميري حسب المنشورات في هذا الشأن » اه

قد تقرر في عقول جهلة العوام أن الرشوة هي السبب الوحيد للخلاص من أية جريمة يرتكبونها ، فيقدم الواحد منهم على ما يخالف الاصول المتبعة ، أو يخل بالامن والسكينة ، أو يهتك حرمت ا-قوق ، أو تنكلا على ما يضره في نفسه من أن الرشوة كافية للنجاة عن العقاب ، أو الحصول على غرضه بأي وجه كان ، وقد غلب على عقول العامة أن كل صاحب وظيفة ميرية أو غير ميرية لا يصح أن يقضي أمراً في مصلحته لاحد إلا بالرشوة ، ولذلك يرون أنه من الوجوب على من التمس إنجاز أى عمل يتعلق بمصلحته أن يقدم الى صاحب الوظيفة رشوة تبعته على مباشرة ذلك العمل غير ملتفت لما تطالبه به واجبات المصلحة التي انطبقت بذمته على أجر يتقاضاه في رأس كل شهر ، ولذلك صار أمر الرشوة بينهم من قبيل العوائد التي لا تشمئز منها طباعهم ، ولا يستنكرها أحد منهم ، بل كادت أن تكون من الوسائل المحمودة لنجاح المقاصد ودفع الغوائل ، ومن الناس من تكون حقوقه بيذة جلية الثبوت خالية عن عناد خصم أو تدليس محتمل

(* نشر في العدد ٩٨٤ في يوم الاثنين ١١ المحرم سنة ١٢٩٨ - ١٣ ديسمبر سنة ١٨٨٠

ولا يكتفي بذلك في اقتضاها ، فيسارع الى الرشوة يدفعها لمن يرجع اليه تخلص حقه غنيمة باردة ، وقد ينهره الحاكم العفيف ولا يرضى بقبولها وهو من سفهه يتوسل ويتضرع اليه في قبولها منه لظنه أن لانجاح بدونها ، وليس ذلك الا لرسوخ تلك العادة الشنيعة المضرة بالدنيا والدين في طباع أدنياء المغمم تهر بالدوي المناصب ، وتذللوا خبيثاً لا يجوز الشرع ولا قانون البلاد ، وتنفر منه نفس كل ذي إحساس انساني ، مع أن حفظ الاموال من الضياع فيما لا ينبغي ، وصرفها في وجوهها الضرورية كالمطالب الميرية والنققات اللازمة ، أليق بفعل العقلاء ، وأصون لحرمان القانون ، وأبعد في طريق السلامة من الوقوع تحت أعباء المعاقبة والتهلكة ، وأحسن طريقة لردع أرباب الشره والخسة ، إذ لو كنت كل ذي حق عن أداء الرشوة واعتصم بالطريق الاقوم ، وخضع الاحكام الحقبة لتحصل على حتمه بدون أن يرى من خصمه أدنى محاولة أو مراوغة الا بالحق ، وبدون أن يقع في عناد من بيده زمام الحكم وتثبطه طمعاً في ما يأخذه منه .

على ان أي متوظف كان وإن بلغ ما بلغ من الزهد والعفة ، فلا أظنه يمتنع عن تناول ما يقدمه الغير اليه بالرغبة والرجاء خصوصاً اذا أكثر التردد مع ظهور الحق له . فاذا مديده اليها تعود شيئاً فشيئاً حتى يرتشي في الحق والباطل ، وبالرغبة بدل الرغبة ، فالعلة الأولى في فساد أخلاق بعض المتوظفين هو رغبة ذوي اليسار في ارشائهم بدون تأمل ، فيعودونهم على ذلك وحينئذ فما يلحق الراشي من اللوم أشد مما يلحق المرثشي ، وإن كان كل منهما مجرماً لأن الاول يضع ماله واسترسل مع الجبن وضعيف الوهم في مقام يستوي فيه احكام والمحكوم عليه أمام القانون ، وأمال المرثشي لأخذ الرشوة ، وقوى طعمه ، ودله على الشره ، وكلف نفسه بما لم يكلف به

ومن غوائل الرشوة مارأينا في الزمان السابق يحصل كثيراً بين الخصماء بحيث يبذل الواحد منهم ما يدخل تحت طاقته من الاموال رشوة بالغة ما بلغت في سبيل إعانت خصمه والحصول على غرضه . وإن زادت النققات عن الحق الواقع فيه الخصام أضعافاً مضاعفة ، ومثل ذلك كثير لا يمكن الشرح أن يأتي على

بعضه ، وهذه الحادثة المتقدمة تشهد بالتقريب لما قلناه . فان مادفعه الاشخاص المقبوض عليهم من الرشوة يقرب من ثمن المملح الذي كان معهم ، فلو أنهم اشتروه على الطريقة المألوفة لما وقعوا في الخسائر الجمة وأثقال المحاكمة ، ولكن ذلك أقرب الى وفرة الكسب ، وأسلم للمال والنفس ، ولكنهم ظنوا أن الزمن الحاضر هو السالف ، والحكومة هي هي . فسهل عليهم أن يتعدوا الحدود وظانمهم أن الرشوة تقيهم من عواقب أعمالهم ، وقد خاب ظنهم بتيقظ المتعهد والمندوبين وأمانتهم ومن العجب بل مما يتأسف عليه غاية الأسف أن الاهالي مع علمهم بأن الحكومة تنادي بمدشوراتها وأوامرها واجرا آتها الفعلية بأن لا يستقر في وظائفها سوى ذوي الاستقامة والعفاف ، وأنها تبادر الى عقاب المرتكبين ولو بالظننة ، نرى البعض منهم بل الكثير لا يزال يطلب حقوقه بتلك الطريقة الفظيعة السلوك التي سكنت في أفئدة الناس بطريق السريان من الازمنة السالفة (وصعب على الانسان ما لم يعود) أليس كان من الواجب على الاهالي أن ينتهزوا هذه الفرصة (فرصة العدل وحفظ القانون) ويقوموا في طلب حقوقهم بمقتضى القوانين والمنشورات التي سهر في انشائها وتنفيذها أولو الامر طالبا للعدل ورغبة في الانصاف ، ويتفق أهالي كل جهة على أن لا يدفعوا الذي وظيفة شيأ من الاشياء ، بل يسلمون أمورهم الى القوانين تحكم فيهم بما انطوت عليه . فان الحاكم اذا لم يكن له ميل الى أحد الجانبين لغرض كهذا الغرض الخبيث ، فلا يرى سبيلا ولا يجد من نفسه داعية إلا الى الحكم بالقانون . فان أخطأ ، فقد جعلت المجالس القضائية درجات ثلاثا يستأنف في كل منها النظر في التضايا من أي نوع لانشك في أن سلوك طريق الاستقامة أهدي وأقوم وأفيد للعموم والخصوص وأحكم ، وأما تلك الطرق العتيقة فهي قريبة العطب شديدة الخطر لانرى لمرتكبها نجاة خصوصا في هذه الاوقات التي أصبح بصر الحكومة فيها حديداً ومن تواري تحت التستر وقتنا ظهر بهار الفضيحة في آخر نسأل الله الهداية والتوفيق لأرشد طريق

المقالة الحادية عشر

العفة ولوازمها *

سبق أننا أدرجنا في جريدتنا فصلاً بعنواناً بالرشوة ووخامتها بيننا فيه أن هذا الداء المميت لروح العدل ، المفسد لمزاج النظام ، أزم من في طباع الاهالي من زمن بعيد ، حتى ظنوه صحة ، وحسبوه حالاً لازمة لهم ، وصاروا يعدونه من نوع المعاملات السائرة بينهم ، ويجازفون فيه بأموالهم مع عدم التبصر والتدبر ، وانتفاء الموجب والمقتضي ، ولا يقتضرون في أداء تقودهم وعروضهم لأرباب الوظائف (إن قبلوا منهم) على حالة الضرورة ، وربما يؤديون على طريق الرشوة ما يساوي الحق المطلوب أو يزيد عليه ، وهذا يعد من سفه الرأي وقلة العقل ودناءة الطبع . وكان من الواجب على أرباب الحقوق أن يعلموا أن الوظائف ليست للموظفين مجاناً ، بل كل متوظف فله مرتب على حسب أهمية عمله في وظيفته ، يصرف له ذلك المرتب من خزينة الحكومة ، التي هي خزينة الأهالي حقيقة . فلا حق لموظف أياً كان أن يأخذ (بارة) من أحد من الناس في مقابلة عمل من الاعمال ، بل كل ماأخذه فهو سحت . وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم « كل جسم نبت من السحت فالنار أولى به » أو كما قال . وقد أجمعت الشرائع الالهية على لعن الراشي والمرثي ، وأطبقت القوانين السياسية والقضائية على وجوب العقاب والطرده ، والحزبي واللعنة على كليهما أيضاً

غير أن كلامنا في ذلك الفصل لم يكن موضوعه أن الموظفين يتعاطون هذا الامر على العموم ، بل صرحنا فيه بأن من الحكام العفيف الذي ينهر راشيه ويبعده . وكيف يصح التعميم مع علمنا عين اليقين أن في رجال الحكومة وموظفيها الاعفاء المنزهين ؟ ولولاهم لما استقامت الاعمال ، وانتظمت الاحوال ، وم معروفون بين الناس ، تشهد لهم أعمالهم ، وتشرح صدورهم ، وتثني عليهم

* نشرت في العدد ٩٩٥ الصادر في ٢٤ المحرم سنة ١٢٩٨ - ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨٠

سرايرهم عند ما يحسون من أنفسهم الاستقامة ، وسلامة الذمة ، حتى كآني بالرجل العفيف منهم عند ما يخلو بنفسه ، ويدخل الى مخدعه ، يحدنه ضميره وخواطره بأنه الرجل المستقيم ، الذي عرض عليه حطام الدنيا والنفيس من الذهب والفضة - وربما كان محتاجا اليه ، ومع ذلك كف يده عن أخذه ، وترفع عن مد كف يد الخيانة لاستلامه ، حفظا لشرفه ، وصونا لقدره عن الانحطاط والسقوط من أعين العقلاء بل والسفهاء إذا ذكر عنه أنه ارتشى ، ومراقبة للأحكام الالهية ، والعهود الانسانية . فعند ما يرى لنفسه هذه المزية الشريفة يظهر فرحا وهو وحده ، وتكون صداقته سميراً ومحدئاً له ، ينسر بموافقتها وملازمتها ، ويتحكم في نفسه سلطان الافتخار ، الحق الذي لا يعارضه فيه أحد فأمثال هؤلاء (الاعزاء الوجود) هم عماد الملك ، وقوام النظام . وإن دوائر حكومتنا متشرقة بهم ، بخلاف أولئك الساقطي الهمة ، الفاسدي الأخلاق ، الذين يقبلون ما يقدم اليهم من أرباب الحاجات ، قليلا كان أو كبيراً ، أو يطلبون ذلك منهم بصريح أقوالهم ، أو بتعطيل أشغالهم ، إذ يقول الواحد منهم لصاحب الحاجة : إن شاء الله يكون قضاها . فاذا جاءه مرة ثانية قال : اذهب إلى غد ، فان جاء في الغد عبس في وجهه وقال : إن عندي أشغالا أهم من شغلك ، ونحو ذلك من الماطلات ، وصاحب الحاجة مضطرب الفؤاد ، حريص على نيل مقصوده . فان كانت فيه غفلة عن المعنى المقصود أخذ المتوظف يكني ويلوح ويعرض ، حتى ينتبه الطالب الى الغرض ، فيسذل ما يقصر به على نفسه مدة الطلب ، ولولا جهله ما فعل . فهؤلاء الأشرار ، وإن استروا تحت ذيل الحيل والخداع يوماً ، فلا بد أن تنشر في الجور وأثمهم الكريهة ، وربما غضت عنهم الأبصار زمناً ، لكن لا بد من نفوذ أشعتها اليهم في آخر اليوم فاذا أدركتهم كانت يد السطوة ضاربة على أبدانهم وأموالهم ضربة الحق اتني لا تفلت ، ولعلمهم بقبح سيرتهم ، ومخالفتهم لمقتضى الطبيعة ، وشدة حرصهم على إخفاء هذا الأمر الشنيع ، تراهم إذا خلوا بأنفسهم يتذكرون ماضعوا من الحيل لآتهام الأموال ، وأنها طرق غير منضبطة تحت قاعدة ، فرب صاحب حاجة ذكي نبيه ، يشكو

أمره لمن فوقه ، ورب رقيب من طرف الحاكم اليقظ يطلع على وجوه حيله ، ورب ناقد بصير رأى صاحب الحاجة سائراً الى بيته ، ورب حرّ غيور يبصر الهدية وهي طارقة باب منزله ثم يأخذ يعال نفسه بأن تلك الاشارة كانت غامضة على الحاضرين والناظرين ، وذلك كان خفياً على المراقبين ، وهكذا تستولى عليه الأفكار السيئة ، والأوهام الخبيثة ، فيبيت مضطرباً خائفاً مرعوباً ، لكن شقاءه يحتم عليه الرجوع الى قبيح صنعه ، فخبث السريرة يكون بمنزلة منكر ونكير ، يماسبه ويعاقبه على ما فرط منه ، خصوصاً وان قلبه وعقله في كل وقت يحدثانه بأن هذا مضاد للانسانية ، منائر للطبيعة ، إذ لولا ذلك لما حانظ على إخفائه كالسرقة والنصب ، بل يحرص على كتمانه أكثر من ذلك ، فان عاره أشد ، وجرمه أعظم ، وكفى بهذا عقاباً وعذاباً لو كان له عقل وبصيرة ، طهر الله من أمثال هؤلاء دوائرنا ، وقطع من الكون دابرهم

وإنه ليسرني ويملاً قلبي ابتهاجاً ما سمعته من أن كثيراً من المتوظفين تكذبوا من قولنا في ذلك الفصل ، على أي لاأظن أن المتوظف وإن بلغ ما بلغ من الزهد والصلاح يمتنع عن أخذ ما يقدم اليه بطريق الرجاء ، خصوصاً مع ظهور الحق لصاحب التقدم الخ ، خوفاً على أنفسهم من الدخول تحت هذه الكلية ، فيمسهم ولو بطريق الوهم شيء من عار هذا الوصف الشنيع أعني أخذ الرشوة على أي وجه كان ، فان تكدرهم هذا برهان على نزاهتهم وعقمتهم ، وحبهم أن لاينتظموا في سلك المتصفين به ولو في مفهومات الألفاظ على وجه بعيد ، وهذا غاية في المحافظة على الشرف والنفرة من هذا النقص الذي موت الانسان خير من أن يتصف به ، لكنني أقول : لو دققوا النظر لما تكذبوا من هذه الجملة لوجهين (الأول) الاستثناء المتقدم في صدر العبارة والمفهوم من السياق (والثاني) أن منطوق جملتنا صادق فيمن يقدم اليه ، ويسكت حتى يحصل الرجاء ، وإنتي أعلم أن العفيف لا يتجاسر أحد على أن يقدم اليه شيئاً متى اشتتر عنه ذلك ، ولو اتفق أن أحداً بذل له رشوة ولم يقبلها ، فلا يصح له السكوت عليها ، بل عليه أن يخبّر في الحال جبهة الاختصاص به حتى يعانف الراشي ، وتضاف الرشوة (١٢ - تاريخ الامام - الجزء الثاني)

الى جانب الديوان ، فيكون بذلك قد برهن على استقامته بأجلى الأدلة وأوضحها . وأما إن سكت على ذلك ، واكتفى بالمنع من جهته ، فاني أراه موضعاً تقولنا في الجملة السابقة : فان كثرة الرجاء تلين الحديد اذا كانت في أمر يتكلف الشخص فيه مشقة . فما ظنك اذا كانت في اتصال منفعه الى المرجو ، وإنه ليعجبني جدا ما ذكر في قانون العقوبات من قوانين المحاكم ، الجاري عليها العمل في بلادنا في باب الرشوة منه بيند ١٠٧ حيث قال فيه : المتوظف أو المأمور الذي قدمت له أو أعطيت له عطية أو دعه بشيء ما لأجل التوصل الى الغرض السابق ذكره (أداء عمل من أعمال وظيفته ، ولو كان العمل حقا أو لامتناعه عن عمل من الاعمال المذكورة ولو كان يظهر له أنه غير حق) ولم يخبر بذلك فوراً جهة الاقتضاء يجوز أن يحكم عليه بالعقوبات المقررة في حق الرشوة اه على أن هذا الانذار لو لم يكن مثبتاً في القانون لوجب أن تثبته الذمة والغيرة فان من عرض عليه شيء على سبيل الرشوة اذا كان غيوراً وجبت عليه المبادرة بطلب مجازاة من عرض عليه لوجهين (الوجه الاول خصوصي) وهو الانتقام من الشخص الذي ظن السوء في هذا المتوظف ، بل جزم بنقصه وعدم شرفه حتى أقدم على إرشائه ، فهو حقيق بأن ينتقم منه (واثاني عمومي) وهو أنه اذا عوقب الراشي لسبب إخبار المتوظف ، وشاع ذلك بين الناس ، يقع الرعب في قلوبهم ويخافون من أن يقدموا شيئاً لمتوظف خشية أن يخبر كما أخبر ذلك ، فيقع الراشي تحت العقاب ، فيكف أرباب الحاجات عن البذل خوفاً ، حتى لو مد المتوظف يده طالباً الرشوة لظن صاحب الحاجة أنها حيلة لايقاعه في الخطر ، هذا من جهة ذومي الحاجات . وأما من جهة أرباب الوظائف فانهم متى سمعوا أن فلانا أخبر براشيه ، وظهر اسمه ، واتشر ذكره ، خصوصاً إذا ترتب على ذلك رفعة قدره ، اقتدوا به لينالوا مثل مانال في ظهور الشرف والفخار ، فيمتنعوا عن قبول الرشوة ، بل يتسببون في إضاعة أموال جملة الى بيت المال ، ويقع التناثر والتسابق في فضيلة العفة والاستقامة . وقد بلغنا أن بعضاً من الموظفين أخبر الجهة المتوظف من طرفها بما وقع من مثل ذلك ، لكن بمبالغ زهيدة ، ربما

يسمح بها الخاطر لاطهار العفة ، فينال شرفها بقيمة زهيدة ، ولم نسمع بأن موظفاً أخبر جهة عمومه بمبلغ وافر من تلك المبالغ التي كنا نسمعها ، وهي التي يعد التعفف عنها تعففاً حقيقياً ، ومع ذلك فانا نشكر المنزه عن القليل والكثير وربما يتوهم بعض ذوي الاستقامة أن في الأخبار ضرراً بالراشي وفضيحة له . فالستر عليه أولى ، فهذا الوهم خطأ صرف ، لأن الله تعالى جعل في العقاب حكمة بالغة ، وهو ردع النفوس الشريرة عن الشر ، حتى يقل الشر أو ينقطع قال الله تعالى (ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب) والمعنى أن قتل القاتل وإن كان فيه إعدام لنفس واحدة لكن يردع بسببه أشخاص كثيرين ، ربما كانوا يقدمون على قتل كثير من الناس ، إذا لم يعلموا أن جزاءهم القتل ، قرتب على قتل القاتل حفظ نفوس كثيرة ، فكان في القصاص الذي هو موت حياة ، وأن الشققة والرافة على من استحق العقاب غير جائزة ، بل مخالفة لأمر الله . فقد قال في سياق حد الزاني والزانية (ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) وهكذا الذمة والالهام الالهي المودع في طبيعة النوع البشري يرشدنا إلى ذلك أي أن الواجبات الانسانية تطالبنا بأن من اقترف سيئة تخل بنظام العدالة ، وتؤدي الى مفسدة عامة كالرشوة ، وجبت علينا المبادرة لطلب عقابه ، فان فيه صلاحاً له بعدم عوده ، وردعا لغيره . وبالجملة فانا نؤمل من ذوي الاستقامة أن يكونوا قدوة للناس ، ودعاة الى مثل أخلاقهم ، وذلك لا يكون الا بظهور آثارها وإجراء ما يوجب التنافس فيها ، والمسابقة في ميدانها ، وان داء الرشوة وإن كان لا يرب يظهر أثره على المتبلى به ، فيكون ممتوتا ، وإن اجتهد في إخفائه باظهار عوارض أخرى يظنها تحجب ما انطوى عليه أو أخذ العمود والمواثيق على من يقدم اليه هذا السحت ، لكن لا يظهر رسماً على وجه مطرد حتى تظهر المجازاة عليه ، وتعرف عند العامة والخاصة ، فتعود الأنفس تصور عاقبه الا بطريقة اخبار المتوظف بمن يرشيه ، فانها تظهر لنا شطر المقصود ، والمراقبة والتيقظ يظهران الشطر الثاني (عند عدم الاستقامة) وإنا نسأل الله تعالى أن يكثر في بلادنا عدد هؤلاء المستقيمين النزهاء ، ويمحق أولئك المجرمين الأشقياء .

المقالة الثانية عشرة

القوة والنازعة (*)

قبل الكلام على خصائص هذين الركين لهيئة الوجود الانساني نريد أن نبين حقيقة كل منهما ليكون القارىء على علم بما يلحقه به بعد ، فلا يخطئ الغرض ، ولا يجاوز المرعى ، ولا تلتحقه شبهة توقعه في ظلام الحيرة وغيب التردد أما القوة فلا نعني بها الا ما يستعمل لجلب الملائم وودفع المكروه ، سواء كان من شخص واحد ، أو جماعة متألفة ، أو شعب من الشعوب ، أو أمة من الأمم ، وسواء كانت آلة تحصيل الملائم وودفع المماند هي القوة البدنية مجردة عن سواها ، كما تراه في السباع الضارية ، والحيوانات الكاسرة ، أو هي منظمة الى السيوف القاطعة ، والآلات المحرقة ، وغير ذلك مما يستعمله الانسان في مواطن الغلبة والصيال

أما القانون فهو الناموس الحق الذي ترجع اليه الامم في تعاملاتها العمومية وأحوالها الخصوصية ، وهيئتها النفسية أعم من أن يكون متعلقاً بروابط الممالك وعلاقتها ، أو منوطاً بالسياسة الداخلية ، كالأدارة المدنية ، والتدابير المنزلية ، أو باحثاً عن الأخلاق الفاضلة ، وما ينبغي ان يتحلى به الانسان منها ؛ وما يجب أن يتعد عنه من أضرارها ، وسواء كان في أمة واحدة أو أمم متعددة

وهاتان الحقيقتان هما موضوع كلامنا الآن . أما القوة فكانت شرعة الامم الغابرة ، والشعوب السالفة ، وتمت ان كان الانسان جبلي التابع ، لا يمتاز عن غيره من أنواع الحيوانات إلا بالفصل المميز ، أعني قابلية النطق المجرى عن نور المعارف ، وشعار تمدن ، فكانت له الحاكم الفيصل ، يرجع اليها في تحصيل غرضه ونيل مطلوبه ، وباختلافها وتفاوتها اشتداداً وضعفاً ، وتقدماً وتقهقراً ،

* نشرت في العدد ١٠٣١ الصادر في ٨ ربيع الاول سنة ١٢٩٨ - ٧ فبراير سنة ١٨٨١

كانت يختلف الأمم وقد تمد في الشرف والضعمة والسطوة والفقير والغنى من غير نظر الى شيء من وسائل تلك الوجوه مها كانت طرائقها ، فكان الرجل يمتاز بين قومه بصفة الاقدام والجرأة ، وكثرة السلب والنهب ، والبتك والفتك ، وكانت القبيلة التي هي أشهر القبائل في هذه الصفات تعرف بالمجد الأثيل ، والشرف الباذخ ، والمكانة العالية ، فيدين لها مجاوروها ، وتخضع لسلطتها كل أمة قرع أسماها ما هي عليه من علو المنزلة ، وشدة الأثفة ، وقوة الشمس ، وتساوق اليها الهدايا من تخوم الأقطار وشامع البلدان ، وتأتيها الغنائم وأفواجا ، يقتادها رجالها الأبطال ، من ساحات الصدام والنزال ، ولم تنزل الأزمان الغابرة محكومة بسلطان القوة ، تقلب الأمم على جسر الخوف والاضطراب ، وتضرب بصواباتها جرائم القلوب الضعيفة ، تلتقي بها في مهاوي المثل والهوان ، حتى خضعت لها الأمم ، ودانت لها الشعوب ، وصارت هي الدين المسيطر على كل شيء ، فإذا تمت لقوم تبعها السلطة التامة ، والحكم المطلق ، فيتسلطون بقدر مكنتهم على ما شاء الله من الشعوب والقبائل ، ويتخيرون واحداً منهم سلطاناً أو ملكاً قد امتاز بالتهور والجرأة ، وجلالة المنظر والبصيرة ، يعلكونه زمام الحكم والسلطة . ثم ينتخبون من عشائرم رجالا يعدونهم حفاظ الملك وأرباب النجدة ، والنصرة على العدو ، والعدة لفتح الممالك والأبصار ، ويتسلطون بهؤلاء على بقية من هم تحت سلطانهم بالرهبة والقمسارة ، لئلا يتمازوا من ربقته ، فيذعنون للمكهم قهراً لا طوعاً ، وينظرونه مقتاً لا حباً ، ويحملون إليه الخراج وهم صاغرون ، وذلك دون مراعاة طرق عادلة ، أو أحكام مؤسسة على أصول المساواة ، واستعمال الشفقة والرحمة ، بل بحسب ما تقتضيه القوة التي سفكت الدماء ، وذلت الشعوب ، وانتهكت حرمت الأمم ، وسجنت حرية الانسان في مطورة الرق والاستعباد

هذا ما ولدته القوة في تلك الأعصار الخالية ، التي كانت مشحونة بظلمات الجهالة ، مسرابة بجلايب الغباوة ، وغمورة في بحار الوحشية . وما أظن لك الشريعة المشار إليها كانت خاصة بأمة من الأمم ، أو صنف من أصناف البشر ،

بل كانت عامة بين أبناء الانسان على اختلاف أجناسه ، وتباين مواطنه ، فكنت ترى عامة القبائل وكافة الشعوب مقسمة الى ممالك متعددة ، وإمارات متباينة ، تجول فيها بد القوة ، ويحكمها مجرد الرهبة ، ويطويها الخوف ، وينشرها الفرع ، ويشملها الاضطراب والاختلال ، وتبادلها أيدي السلب ، يبيت ضعفاؤها غير آمنين على أنفسهم ، ويصبح أقرباؤها غير مطمئنين على حياتهم ، فانبعثت في قلوب هؤلاء الأوزاع الذين ضربتهم يد السطوة بعضا القوة علة الضعف ، ودبت فيها سخائم الحقد ، فاختلقت الأغراض ، وتباينت المشارب ، وتفرقت القلوب ، وتنوعت وحدة الانسان الحقيقية الى أنواع ، لا يجمعها سوى جامعة الحيوان الناطق ، وتبدلت فطرته السليمة الى أخلاق لا مناسبة بينها وبين جوهره المقدس الشريف

ولقد تمكنت سطوة القوة في قلوب أولئك الشعوب ، وارتسمت صورها في مخيلاتهم ، وانسجت معانيها الى ذاكراتهم ، وصارت محفوظة في خزانة حافظاتهم ، قائمة نصب أعينهم ، حتى توهموها مقلب القلوب والأحوال ، حافظ القوي والأكوان ، اليها مرجع الحوادث ، وعليها تدبير النوازل والكوارث ، فاحتسبها المدبر في المكونات بأجمعها ، وصوروا تماثيل على صور مختلفة وأنواع متباينة ، تشير ظواهرها الى القوة ، وتؤدي هيأتها معاني العظمة والسطوة ، ووضعوها في أماكن عباداتهم ، ليؤدوا لها فرائض السجود والركوع ، ويقربوا اليها القرابين من نوع الانسان وأنواع الحيوان ، وهذه أصنام العرب والصين والعجم ، وآثار قدماء المصريين ، وآلهة اليونانيين ، المصنوعة على أشكال الحيوانات العادية ، والملوك العانية يشرح التاريخ أحوالها من الاداعي الى الاسباب في تفاصيل شؤونها ، ومن تتبع تواريخ هذا الانسان الوحشي باعمان وتبصر ظهر له أن القوة هي التي دوخت قوى الانسان السلية وبددتها وأحدثت بهن القبايح ما أحدثت ، ولولا أن القانون كسر سورتها ، وذلل صعوبتها ولما أشرق نور الحق على صفحات الوجود ، ولا تمتع الانسان في الأزمان الأخيرة بلذة الراحة والسعادة ، فالحق للقانون لا للقوة

وبينا الانسان تائه في أغوار الاستعباد في هانك الازمنة أزمنة القوة والاسْتَبْداد ، والجور والعبث والفساد ، ليس له حق يمان ، ولا عرض الا لله وبهتك وبهان ، اذ أشرقت عليه قرايح الذين جادت بهم من احم الفضل ، وعرفوا بمناهج الخير ، فأبصر من طلائع أفكارهم ما يهديه الى سبيل الرشاد ، وبوظف فكرته الى التماس الصواب من أبواب السداد ، فعلم أن القوة هي منحة جلييلة ، وفضة كبيرة ، يستعين بها على حاجاته الضرورية ، ولوازم معيشته المرضية ، قد عززها الله تعالى بالاتحاد والائتلاف ، حتى اذا عجز الفرد الواحد عن ملاطقة له من نفائس المطالب ، وجلائل الرغائب ، استعان بعشيرته ، ثم بقبيلته ، ثم بجأتمته التي يجمعها دين أو ملك ، ثم بجميع أفراد نوعه ، وأن القوة إن لم تكن على قاتون لاتعدا ، وخط لاتخطأ ، بان استعملت على أي وجه وفي أي زمان أو مكان لا يبان ثمرتها المحبوبة وغايتها المطلوبة ، فأسف على ما كان ، ونزع من رقدة الغفلة يحارل لها هذا النظام المعبر عنه بالقانون ، فكان نوراً يهتدي به ، وقائداً رشيداً يسلك بالانسان الى ما أهله له من الكرامة والنعيم ، فاتبع سبيله المهتدون وما ان عن سنته الضالون

أما الانسان الذي ساعده التوفيق بالاتقياد لأحكام القانون فانه حفظه من باطننا وظاهرنا ، وتمسك به غائبا وحاضرا ، حتى صار ركنا من لوازم حياته ، ووعده لمقاعد وغاياته ، وملهج لسانه في بكرة وعشيانه ، الى أن عرف به واجباته الحقوقية ، وفرائض معيشته العمومية والخصوصية ، وأمن به من مصائب الظلم ونوازله ، والجور وغوائله ، واطمان به على نفسه وعرضه وماله ، فسكن قلبه بعد الملاضراب ، وقرت عينه برياض الامن والامان ، وتولد فيه أمل حملي على ايمان بالعمل ، فأعمل فكرته الخائدة ، وأجرى حركته الراكدة ، ولازال يرتاد مواطن العلم ومعاهده ، ويشتمن بجباة الاستكشاف كل فائدة ، ويستعمل قواه في حل المسائل ، ويستطلع ببصيرته ما خفي من مجهول الكائنات ، الى أن حده العلم الى معترض الاختراع والابداع ، فطار على جناح البخار بدل الشراع ، واستخدم النار لقضاء الاوطار ، واستعمل البرق على بعد الديار رسول الأخبار ، وجعل

المدافع والقنابل ليبيد بها مضاديه ومعانديه ، وانغمس في النعيم مطعماً ومشرباً وملبساً ومسكناً ، إلى غير ذلك مما أتيح له من محاسن الحضارة ، ولطائف الرفاهة والنضارة ، ولا زال يضرب في تحوم البلاد ، ويدلل بقوة عزمه أخلاق العباد ، إلى أن أصبحت البسيطة في قبضة زمامه . ولا غرو فإن فائده الاتحاد والائتلاف ، وباعثه الوفاق لا الاختلاف ، وهو الآن كما بدأ يماظ على القانون بانسان مقلته ، ويصرف في حراسته ما يدخل تحت قوته ، فإنه ملاك سعده ، وأساس مجده ، ومنتهى جده

أما الذي ضرب عن القانون صفعاً ، وطوى عنه كشحاً ، فهو هو على رذالة أخلاقه ، وبساطة أفكاره ، يصبح مضغعة تحت أضرار الظلم ، ويمسي كرة لصوبان النبي ، فليحيي صاحب القانون على بساط النعمة الهني فيأيها الذين ينحرفون عن القوانين ، ويعدلون عن طرق النظمات لغرور وقي ، ارققوا بانفسكم واعتبروا بمن يماثلكم في الصورة الانسانية ، وانظروا اليهم كيف عظموا القوانين ، ورفعوا شأن الحقوق ، فاصبحوا في غاية من القوة والعزة فانهمضوا لمجاراتهم في الصدق إن كنتم تعملون ، وإياكم والتعادي فيما تسوله النفوس من الاغترار بظاهر من السلطة ، فللايام تغلب وتقلب ، لكن صراط الحق واحد وسالكه لا يضل ، إن عثر يوماً استقام أعواماً . وأما طرق الاعوجاج فهي وعرة خطيرة كثيرة لغوائل ، سالكها معارض لمدير العالم سبحانه وتعالى في أحكامه ، فإنه عز شأنه قد أقام الكون بنظام الحكمة ، ورتب لكل شيء حدوداً هي سور بقائه ، وسياج دوامه ، فان خرج عنه انحدر إلى مهاوي العدم والفتن ، ومن تأمل الكون الأعلى وما فيه من الكواكب والشموس والاقمار ، ثم نظر إلى العالم الأسفل وما احتوى عليه من نبات وحيوان ، يشهد في الجميع لكل نوع منها قانوناً خاصاً في سير وجرده ، تقوم البراهين القاطعة على أنه لو انحرف عنه لحكم عليه سلطان القهر الآلهي بالعدم والاتقلاب ، وأنه يباهر حكمته قد جعل للهيئة الانسانية حدوداً عامة هي الشرائع وقوانين الآداب التي تمدد سير الانسان في معيشته لحاجة نفسه ، أو معاملته مع غيره ، وقد أودعها العلماء والحكماء بطون

كتب التهذيب والتربية البشرية بعد أن نطقت بها الشرائع الالهية ، وقد شهدت التجارب بالاخبار المتواترة عن الأمم الماضية ، والمشاهدة الحالية في الاوقات الماضية ، أن من تحطى حدود هذه الحقائق رماه القهر الالهي بسهام لا يخطئ مرماها ، فالقانون هو سر الحياة وعماد سعادة الأمم . وأن القوة لا تأتي بثمرتها الحقيقية إلا اذا عضدت باتباع الشرع والقانون العام الذي أقر العقلاء بوجوب اتباعه فكيف يصح لذي شوكة أو صاحب سلطة أن يفتر بعد رؤيته هذه البراهين الباهرة بقوته ، أو يعجب بصولته ، ويدع الأمور لأرادته ومشيته ، ويزدري ماللقانون من حفظ القوة ونمو الثروة في من هم تحت إمرته ، فيفعل ماتسول له نفسه ، ويأتي كل ما يسوقه اليه حسه ، فيسري الالهال في طبقات رجاله ، ويجارون حاكمهم في عوائده وأخلاقه ، وتصير الأموال لديهم مباحة ، والحقوق مبتذلة ، والاعراض منتهكة ، ووسائل الربط والضبط معطلة ، وعقد الموائيق والعهود محللة ، فيكثر فيما يليه غوائل الخسران ، وتنمو به جوائح البهتان ، حتى تصير أفراد المحكومين أخلاطاً راعاً لافرق بين كبيرهم وحقيرهم الا بوفرة الشهوات ، والتمكن من وسائل اللذات ، مع توافق في الفطرة ، وتشابه في الغريزة ، ولا يطول عليهم ذلك العهد حتى يصبح الحاكم محاطاً بجم غفير من الغرماء ، يتجاذبون به بايد طالما تقدمته من خزائنها مآظنه نزرأ يسيراً في جانب أسرافه وتبذيره ، وهو على كاهل الالهالي حمل ثقيل العبء لا تقدر أن تقله ، وتسمي عمارية البلاد تنمي محاسن صحتها أربابها طوامس المعالم مظلمة الأطراف ، ليس فيها سوى نعاب اليوم وهمس الهوام ، وحينئذ لاتسل عن العاقبة ، فانها أسرونها وبئس المآل ذلك ما يولده الغرور بالقوة والاعجاب ، بالسطوة وترك القانون الذي عليه سعادة العباد وخصب البلاد . فاذا أرادت تلك الامة انني تصرف ذوو البني والغرور فيها على خلاف القانون أن تعيد لها مجدها الاثيل وعزها الاول ، فلا بد لها من إعادة شأن القانون فتشيد منه ما هدمته يد الغرور ، وبدنه سطوة الفجور ، وتأخذ الوسائل النافعة لاستمالة قومها الى التمسك بعراه ، وتتابعه ترشده

(١٣ - تاريخ الاستاذ الامام - الجزء الثاني)

وهدهاء ، ولا تبارح الحيل والتدابير لهذا الغرض ، وما كان أغناها عن الاصلاح بعد الافساد ، والتعمير بعد التخريب ، ولكنها باعت القانون بشحن بخس ، فكان جزاؤها أن تشتريه بنفسها العزيزة ، ودماؤها الشريفة، حيث عرفت ماهي القوة وهو القانون . ولنا في هذا الموضوع كلام يأتي بعد إن شاء الله تعالى .

(يقول جامع هذه المنشآت) ان إنشاء هذه المقالة أعلى من كل ما قبلها ، وان السجع فيها غير متكاف ولا ملائم ، فارتقاء أسلوب الاستاذ كذا سريعاً ولكن قد سبقه ارتقاء معارفه وأفكاره كما يرى القاري، من أول مقالته

المقالة الثالثة عشرة

ما أكثر القول وما أقل العمل *

إن من أحسن الأوصاف وأدناها أن يقول الانسان مالا يفعل ، وأن يدل غيره على ماضل هو عنه ، وأن يعيب على الناس مالا يعيبه هو على نفسه، وذلك أن من كانت هذه صفته فهو جاهل من وجه ومعترف بنقصه من وجه آخر . وخييت المقصد دني، الهمة من الوجه الثالث .

أما جهله فلا نه اذا ادعى بما ليس فيه من علم أو فضل مع كون الناس لا يرون أثراً ظاهراً لعلمه أو فضله بمعنى أنه لم يؤلف تأليفاً نفيساً مثلاً ينتفع به عموم الناس، ويعترف بنفاسه ما فيه العقلاء والمبصرون من أي أمة، ولم يكشف حقيقة، ولم يحل مشكاة، واعتقد أن سامعيه يصدقونه فيما يدعيه ، فقد جهل أن النفوس مجبولة على تطبيق السموعات على المشاهدات وواقع الأمر ، فان لم تجدها مطابقة رمت بها في وجه قائلها ، فتقلب دعواه مقتا عليه ، ويسقط من قلوب الناس أجمعين ، إذ لم يرواله أثراً

* ونشرت في العدد ١٠١٢ الصادر في ١٤ صفر سنة ١٢٠٨ - ١٥ يناير سنة ١٨٨١

يُقدم سوى أنه يجبر عن نفسه بأوصاف لاحتمية لها ، وكذلك إذا أرشد الى غاية هو متوجه صوب ضدها . ويظن أن الناس يسترشدون بإرشاده ، فهو لاجمالة مطبق العسفة ، مركب الجهل ، إذ لا يعلم أن الافعال تؤثر في النفوس أضعاف ما تؤثر الافعال . فان القول عند النفس يحتمل التصديق والتكذيب ، فتتردد في مفهومه ، فلا يقودها الى العمل إلا بعد تكرار وتذكر . أما الفعل فهو أمر مشهور يتطبع في النفس أشد انطباع ، فتندفع اليه خصوصاً إن كانت فيه لذة معجزة ، وإن عاب على غيره وصفاً هو موجود فيه ، فقد جهل أن ذكره لعب غير ينه الأذهان للنقص القائم بنفسه . فان المتكبر مثلاً اذا ذم الكبر في غيره ، فقد ذم نفسه من حيث لا يشعر ، فهو جاهل بنفسه ، وبما يعود عليها وهو ظاهر .

وأما اعترافه بنقصه وعجزه فلأنه لم يصدر منه ذلك أي الدعوى بما ليس فيه ، وترغيب الناس في ما لا يرغبه لنفسه ، أي فيما ليس بمتصف به ، بل هو منحرف عنه وما ذكره لمثالب الغير وهي فيه إلا لأجل أن يبين للسامعين كماله وفضله ، يظهر لهم وصوله لما يهديهم اليه ، وخلوه من النقص الذي يلوم عليه الغير حتى يعظموه ويقوموا له بقضاء بعض حاجاته ، حيث علم أن الكمال الذي يدعيه هو مناط التعظيم وجلب المنافع ، وكأنه بذلك ينادي على نفسه بأنه لم يبلغ من ذلك شيئاً ، لأنه لو بلغ الكمال الذي يدعيه لكانت نتائج ذلك الكمال ناطقة برفعة قدره ، شاهدة بعلو مقامه ، سواء ادعى ذلك عن نفسه أو لم يدع ، وسواء نقص غيره أو كل ، ولم يكن هناك داعٍ لدحه لنفسه أو ذمه لغيره ، بل تكون آثار فضله فاعلة في النفوس جاذبة لها اليه بذاتها ، فمن تكلف الاطراء على نفسه بوصف من الأوصاف الفاضلة أو رام اظهار كماله بالباطل من قدر غيره فذلك معترف بأنه خال من الفضيلة حيث لم تشهد له الحقيقة ، فاضطر الى النداء بالكذب ليقنع السامعين بأنه كذلك .

وأما خبث مقصده ودناءة همة ، فلأن من هذه صفته لا يريد أن يكون ذاتفضيلة قط . ولا ينتهي الوصول الى كمال ، والكنة يطلب عيشاً حينما اتفق . فلذا جلس الى بعض البسطاء ، أو غيرهم طلب التلبس على عقولهم ليقرروا في نفوسهم

أنه بالصفة التي يذكرها عن نفسه أو يرشد إليها ، وأنه خال من العيب الذي يسب به غيره ، ليوقروه فيكتسب منهم مساعدة على بعض أغراضه الخسيسة أو يستفيد منهم خطأ ما يسد به بابا من أبواب نهمة وشرهه . فهو في ذلك بمنزلة المشعذين أو المحتلسين أو السارقين ونحو ذلك من كل ذي حيلة خسيسة لمالب الأموال . ولا يختلف عن هؤلاء إلا بالاسم فقط حيث يقال إنه غش اناس بحكاية الكذب عن نفسه وهو المسمى في عرفنا (بالفشر ويقال لصاحبه فشار)

فأقول الذي لا يعضده الفعل بحسب من اردوا الأوصاف وأقبحها لأنه يشعر بوجود أوصاف تشهد البدهاة بقبحها . ومن الأسف أن هذا الوصف يوجد في كثير من أهالي بلادنا ، بل في الغالب منهم ، بل لا يوجد القائل الفاعل إلا قليلا جداً (وإنما نخجل من تسجيل مثل ذلك في الجرائد . ولكن أي فائدة في إخفاء عيب فينا عرفه الغير منا ؛ فحق علينا أن نذكر به لعلها تنفع الذكرى)

إننا إن طرقتنا المجالس الخصوصية في بواطن البيوت والاندية العمومية في الأماكن العامة لا نعدم قائلًا عن نفسه أنه قرأ من العلوم معقولها ومنقولها واطالع الكتب العالية ، ووقف على المباحث الجليلة ، وكشف بواطن الدقائق الخفية ، واستطلع الاسرار . وكان مع ذلك مشهوراً في زمن الاشتغال بالفطنة والذكاء ، وتوقد الفكر وقوة المحافظة ، ونحو ذلك ، وآخر يقول إنه بلغ من الاقتدار على الاقناع في الجدل ، والالهام عند المحاصمة ، وتفهم الطالب عند الاستفادة ، حد لا يصل العالمون الى غباره ، وإن له من طرق الاقناع والافهام مالا يتيسر لغيره معرفتها ، وإنه يجي بكلامه الاذهان الميتة ، ويحشر اليها صور المعلومات ، ويودع فيها أسرار الكائنات ، ولو سألت كل واحد من الذين يظن فيهم وصف العلم والتعليم لرأيتهم يحدث عن ذاته بكل الذي قلناه ، ويقول لو كان الناس يسلكون هذا المسلك الذي أسلكه لا تنتشر العلوم وعمت المعرفة

لكننا إذا رجعنا الى الواقع ونفس الامر رأينا أن التأليف والتصانيف مقتودة وإن وجد منها شيء كان ناقصاً إما من جهة المعنى وإما من جهة اللفظ بحيث لا تدل عبارته على ما قصد منه فيكون كعدمه . والطالبون للعلوم على

اختلافهم قاصرون عن إدراك مآضاعوا عمرهم فيه . ودليلنا على ذلك احتياجهم دائماً الى غيرهم وعدم قدرتهم على الاستقلال بعمل يعملونه في نفس العلم أو الصناعة التي تعلموها ، فتارة يحتاجون الى الاجانب وأخرى الى بعض من الوطنيين (وربما نبين هذه الجملة في وقت آخر)

ومن الناس من اذا ذآكرته في المنافع العامة والمصالح الكلية أخذ يشرح غوامضها ويبين الواجب فيها ، والطرق الموصلة الى جلب النافع ورفع الضرر ، والوسائل المؤدية الى تقويم حال الأمم وارتفاع شأنها من رفع منار العدالة ، وبث روح العلم وتقرير المساواة وما شاكل ذلك ، ثم اذا فوض اليه أمر من تلك المصالح رأته أبعد الناس عن الخير وأقربهم الى الشر ، واستنكف عن المساواة ، واستهجن معنى العدالة ، وإن كان يعبر عن نفسه بلفظها ، وسار مع أغراضه وشهوته ، وجعلها قانوناً يتبع ، ويعد كل ذلك حقاً ، وهو في درجة وعظه الاولى لم ينجل ولم يتلعم له لسان في النصح ودعوى معرفة الحق ، ولو أن أحداً عارضه بحق في أي جزئية عقب ترغيبه في قبول النصح والمساواة لرأيته يتذمر ويتضجر ، ويود أن يفتك بمن يناقضه في بعض آرائه ، ويهدي اليه نصحاً في بعض أعماله

ومنهم من يقول ان كل مصيبة ألمت بالنوع الانساني لم يكن منشؤها الا التباغض والتحاسد ، وتفرق الكلمة والميل الى المنافع الشخصية ، وعدم الاكتراث بمنافع العامة ، ونحو ذلك من الاقوال الصحيحة المسلمة . ولو أنك لاقيت كل يوم ألف شخص لرأيته يقر بذلك ويعترف به مدعيًا أنه يميل في كل الميل الى الاتحاد والاتلاف . وانما تأتي النفرة من غيره ، ثم لو أتى اليه مطالب بحق في وقت المذاكرة لرأيته يعد هذه المطالبة أمراً كبيراً ، وإن كانت بغاية من اللطف والانسانية ، والتوى من الغيظ التواء الثعبان . ولو دعي الى اغائة ملهوف أو لالة مكروه عن بعض اخوانه أو الداخلين تحت أمرته رأيته يتعال ويتعذر . أو يتعنع ويستكبر ويقول : ليس هذا من خصائصي : ولو طلب الى تأسيس أمر تميم يقيد الزراعة أو الصناعة ، أو يساعد على التربية الحققة ، وجدته يستصغر ذلك

ويسفه آراء الطالبين ويقول : ماذا يعود على شخصي من ذلك ومالي وللعامّة؟ دعهم في شأنهم يرزقهم الله من غيري. كأن جنابه يظن أن المحبة والاجتماع والالفة التي يدعيها ويميل إليها يجب أن تكون له من الغير لافي مقابلة منفعة ، ولاجزاء لدفع مضرة ، بل لا بد أن ينفعه الناس وهو لا ينفعهم ، وما أجبل أمثال هؤلاء السفهاء وأضل رأيهم (ومن العجيب أنهم كثير جداً)

ومنهم من يرشد الى العدل ويدعو الى الانصاف . ولكن اذا عرض له حق في طريق منفعة خاصة له داس الحق برجاه طلبا للوصول الى غايته . وكأنه يعد ذلك من طريق الانصاف الذي بدعيه ، أو أضرب عن النصح والارشاد الى وقت آخر

ومنهم من ينتقد على الظلمة ومرتكبي الجرائم ، وفاسدي الادارة ، وسيء التدبير ، ثم ترام واقعين فيما ينتقدونه على الغير ، كأن محل الانتقاد أن يكون الفعل صادراً عن سواهم ، وأما اذا كان صادراً عنهم ، فقد اكتسب الحسن من ذواتهم المقدسة . فأمثال هؤلاء الذين ذكرتهم لا يعرفون في العالم قبيحاً ولا حسناً ، ولا صحيحاً ولا فاسداً ، وإنما هي ألفاظ ورثوها نطقاً ولم يفهموها حق الفهم ، وألفوا استعمالها في مواقع مخصوصة ، فهم يستعملونها كما سمعوها بدون أن يعلموا لها حقيقة ، أو يتفوا لها على مرعى وحقيقة أمرهم أنهم جهلاء أذال عديم الشرف الانساني حقيقة ، ووجودهم في الهيئة الاجتماعية شؤون عليها ، وهم في رتبة الحيوانية الاولى لا يعترفون بالحقائق الثابتة ، بل لا يرون حسناً الا ما يصل الى احساساتهم الظاهرة من اللذائذ الوقتية . فاذا مضى وقتها ذهلت أذهانهم عنها ، ولا ينتبهون لحسنها الا اذا وردت عليهم مرة أخرى وهكذا . ولا يرون قبيحاً الا ما يصل الى ادراكهم من المؤلمات الوقتية كذلك ، فاذا زال ألمها غفلوا عنها كأنها لم تمسهم . فان رأوها لاحقة بغيرهم لم يعدوها مؤااة ، ولم ينظروا إليها نظر الاسف المستنكر ، فيختلف عندهم حسن الشيء وقبحه بالاضافة الى أنفسهم تارة والى غيرهم تارة أخرى . وليس عندهم صورة ثابتة للماهية الحسن وماهية القبيح ، ولا حقيقة النافع أو حقيقة الضار ، وإنما هي أهواؤهم يعبرون عنها بالالفاظ المطبنة

كالمصلحة العامة والمنفعة العمومية ، والخرق الوطني ، وما شاكل ذلك من المحفوظات الخالية عن المعاني يلو كونها بالسنتهم ، ومع ذلك فهم لا يسلون من شر ما يقولون وما يفعلون ، فجهلهم لامحاة يعود عليهم بعاقبة بنس العاقبة ولكننا لانحب ذلك ، ونود أن يكون الفعل أكثر من القول ، وأن يكون كل شخص من أبناء بلادنا صغيراً كان أو كبيراً مجدداً في نيل الفضيلة الثابتة ، التي يلهم بتحسينها وإجراء مقتضاها ، حتى تكون بذاتها شاهداً عدلاً على أهلية صاحبها لما يقول : وتنتشر الأعمال الصالحة المنطبقة على الشرائع والقوانين ، فتسير المصالح على صراط مستقيم ، وينال كل شخص حظه الحقيقي من ثمرات أفعاله الآتية على وجه منتظم ، فيعود النفع على العامة والخاصة . وأما الفخفة وكثرة اللغو فانها من شدة العجز لاتعيد ولا تبدي . وسنعود الى هذا الموضوع مرة أخرى عند الفرصة إن شاء الله

المقالة الرابعة عشرة

مشرىاتنا العمرمية وأماريشها*)

وعدنا فيما سلف بنشر ما ألفناه من الأحاديث وما عكفنا عليه من الأقاويل في مجامعنا الاعتيادية ، ومحافلنا المتتابة ، مما هو عقبات في طريق تقدمنا ، وظلمات متكاثفة في وجه انتظام هيئتنا الاجتماعية ، وحواجز دون الوصول الى محجة الرشاد ، وانتهاج خطة السداد ، وإن خاله الكثير منا تمدنا ، وزعمه السواد الأعظم من شعار الأدب ، وعلام الذوق والترف . وقد أردنا الآن أن نتكلم على هذا الموضوع ، وفاء بما وعدنا فنقول :

إن أحاديث الأمم تدور على محور أفكارها ، إذ اللسان هو المترجم عما يختلج بالضمير من الصور المحفوظة والمعاني المتخيلة على اختلاف أشكالها ،

(*) نشرت في العدد ١٠٣٣ الصادر في ١٠ ربيع الاول سنة ١٢٩٨ - ٩ فبراير سنة ١٨٨١

وتنوع فنونها . فباختلاف صنوف البشر في المعارف والأمزجة ، تتباين
مفاوضاتها وأحاديثها ، وتتشعب مجادلاتها ومحاوراتها ، وان تواريخ الأمم
الغابرة ، وحوادث الملل الحاضرة ، لترشدنا الى ذلك بأجلى بيان . فهذه الامة
العربية في صدر الاسلام وقبيله ، لما مال عنصرها الى التحجب في خلق الجرأة ،
وحملتها شهامة النفس على الجولان في ميادين الغزو والفتوح ، قصرت أحاديث
رجالها على ما يتعلق بحرب ماضية ، ومعركة آتية ، تعقد مجالسها على ذكر جياذ
الحيل ومحاسنها ، شارحة معايب الأقواس وأوتارها ، منتقلة الى الكلام عن
اشتهر من رجالها بالاقدام والظفر واليسالة والانتصار ، وقصائد هم الشعرية مشحونة
بأوصاف الحماس ، وخطبهم النثرية موقوفة على مدح النزال والبراز ، وبقيت
هكذا أحاديثهم، الى أن ضعفت تلك الماواس ، واستعيض عنها بالميل الى الراحة
والانغماس في النعيم ، فتولد فيهم من ذلك المحبة والعشق ، ولهجت شعراؤهم
بأوصاف الغزل بعد الحماس ، ونبعت الحاجبين والخصر ، بعد الاسهب في
وصفي القوس والوتر

وهذه أمة اليونان لما كانت ديارها مهد الحكمة ، ومطلع شمس العرفان ،
دارت أحاديث قومها في المجامع على تحديد العلوم ، وتبيين مهاي الأجناس
والفصول ، يطلب الواحد منهم منزل صديقه ليتحاور معه في كيفية انتاج الأقيسة
المنطقية مع تغاير أشكالها ، فيطول بينهما الحديث ، وهما بين مثبت وسالب ،
ومعترض ومجيب . وهذا في حال كون المجالس الاخرى خاصة بجهاهير النبلاء
فئة تقوص في البحث عن أمزجة المواد وعناصرها ، وأخرى تطلق عنان اللسان
لاستكناه حركات الأفلاك ومراكزها . فاذا عقدوا عزائمهم على المزايلة
والانصراف ، ودعتهم أوقات أحاديثهم ، شاكرة لهم على ما أودعوا فيها من
تقرير المسائل ، وإماطة الحجاب عن كثير من المشكلات والمعضلات ، واستقبلتهم
الأيام بوجه باش وتمر باسم ، فرحة بما سيكون لها في بطون التواريخ ، مرسوما
بمداد التناء على صفحات الأعصار والدهور ، لما سبزه فيها أفكار هؤلاء القوم
الى عالم الوجود من المطالب العالية المؤيدة بالبراهين الصحيحة والحجج السديدة،

وهذا مع محافظتهم وقت المحاوره والجدال على رعاية الآداب ، وحرمة قوانين المباحثه وهذه أم أوربا تشعبت مجالسها ، وتنوعت مواضعها ، تحمل ألبنا الجرائد من أخبارها ما لا نكاد نصدقه ، لولا علمنا بوفرة معلوماتهم ، وكثرة مخترعاتهم . فيوماً نسمع بأن ذوي الشركات التجارية اجتمعوا للمداوله فيما يلزم اتخاذه لإنشاء بنك مالي ، يكون مركزه في احدى الممالك الاسيويه مثلاً ، فتطول بينهم المخابره في ذلك ، ويعلو صوت الخلاف بين أعضائها ، فمنهم من يرجح إنشائه في الأملاك الفلانيه من تلك القاره ، محتجاً بأن فلاحى تلك الديار يقترضون النقود بفوائد باهظة لاحتياجهم وشده فقرهم ، فتكون الثمره أجزل ، والربح أوفر ، مما لو أنشئ هذا البنك في احدى الديار الافريقيه التي أصبحت لخصب تربتها ، ووفرة حاصلاتها ، وأخذ الأموال الأميريه منها بتقسيط عادل لا محتاج الى استقراض من مالنا ، بل ربما اذا دامت لها هذه الحال يتوفر لها كثير من إيراداتها التي تقدر بها على انجاز مشروعات عموميه ، حتى تصير بذلك معادله لأعظم ممالك أوربا في الثروه واليسار ، فيجاوبه الآخر قائلاً : إن الأجدد بنا أيها الشريك أن نعدل عن انشائه في أي مركز من مراكز آسيا مطلقاً الى اتخاذه بديار مصر . وأما ما قيل من أن تخفيف الضرائب عنها مع حسن تربتها وكثرة إيراداتها يجعلها غنيه عن الاستقراض ، فذلك إنما يكون لو رجع فلاحها عن سرفه وسفهه ، والا فما دام على هذه الحال فانه يكون أبداً متقللاً بديوننا ، يقرع أبوابنا آناً الليل وأطراف النهار ، ولو آمرت أرضه ذهباً ، وعوفي من جميع الضرائب سرمداً . فانه على ما يقال رهن عند أحد البيوت فيها ما يجاوز العشرين في المائة من أطيائها ، تأميناً على ما أخذ منه من النقود في مدة لا تزيد عن العام كثيراً . فيستحسن الحضور بيانه ، وتحمم الجلسة بالعزم على الشروع فيما قصدوا ، ليدركوا من الربح مثل من سلفوا

وبيناهم كذلك ترى فئه أخرى تروى في مدسكك حديدية في احدى الايلات المشرقيه : وإنشاء أسلاك برقيه فوق البحار وتحتها تسهيلاً للمواصلات التجاريه ، وإحكاماً للعلاقات الدوليه . وأخرى مجتمعة لتسخير من بينها نبيلاً

يكون رسولا من قبلها عند رجال إحدى البلاد ، فيعقد معها شروط التزام
مصالح عديدة ، وأراضى فسيحة ، ومياه عذبة ، ما كانت أهل تلك الديار في
حاجة الى التزامه .

وترى على مقربة من هذه الثمات جماهير متألبة ، وجماعات متضافرة ، يحسنون
صنع الخطابة ، ولا يجهلون تاريخ الحلقة ، يقبلون العالم بين أصابعهم ، ويقطعون
وجه البسيطة في أقل من لمح البصر وهم جلوس يتحادثون ، يعينون أوقات
الفرص الملائمة للاستيلاء على تلك الجزيرة أو هذه الامارة ، أو ذلك الأقليم ،
يستطلعون الرسائل المتوالية الورد من أبناء جلدتهم المنبئين في أنحاء المعمورة
لاستكشاف خبايا القبائل والشعوب التي هم بين ظهرانيهم يذلون المصائب ،
ويمهدون طرق الاستيلاء والفتوح . ونحن عن كل ذلك غافلون ، نواصل
الليل بالنهار في اللهو واللعب ، بلغت منا الخرافات والهديانات مبلغاً جسيماً
حتى استحوذت علينا فأنستنا ذكر الحقائق النافعة والمصالح المهمة .
وصارت تلك الأخطا الفاسدة كملكات للنفس يتعسر زوالها الا بذهاب
الأرواح والأشباح ، تعقد عندنا المجالس ولكن على ذكر أنواع الخمر والمسكرات ،
يطرب المجتمعون فيها بذكر أوصاف الغيد الحسان . ويصرفون ثلثي الليل على
قهاويهن (كذا اصطلاح . والا فهي مواضع رجس وذنس) يشربون فيها من
المواد المزوجة بالعقاقير المسمة قدرأ لا تسوغه طباع الوحوش الضارية ولا الاسود
الكاسرة . وفي خلال ذلك يتشاقون ويتخاصمون حيث إن كلا منهم يفضل
مألوفاً من ذلك على مألوفاً أصحابه ، ويعدد أوصافه ، ويذكر محاسنه . ويشرح
مزاياه: من حور عيون ، ورقة خصور ، وعذوبة منطوق ، وما شاكل ذلك . ويحتج
عليه بأن فلانا لا يبيت في ذلك الخدع . ولا يظاً ذلك الموضع حتى يدفع عشرين
أو ثلاثين جنيهاً وما شابه ذلك . والآخر يناقضه وينافسه وبروم اقناعه في مقام
الجدل . ولا يروق لهم الحديث الا اذا انتقلوا الى القذف في شرف من بينه
وبينهم جامعة ديوانية ، أو علاقة مجاورة منزلية . أو لا هذه ولا تلك . وإنما
هدتهم شهرة ذكره الى معرفته . فيرمونه بالجبن وعدم الذوق لكونه نزيه النفس

يأنف من سلوكهم، ويرمونه بفظ الطبع والتشفي ويسمونه (نظاماً) وهم في خلال ذلك يهزؤون ويسخرون ويضحكون بصوت جهوري (ولا يبكون وهم سامدون) يتبارون في ميادين البذاء، واستحضار كل ماقبح وخبث من الألفاظ، وهو المسمى عندهم (تنكيتاً) فقسّموا الألفاظ العرفية أبواباً وفصولاً ليستعملوها في هزلياتهم السخيفة، حتى كثرت الفصول وتنوعت المواضيع، وإذا تبارى اثنان منهم في باب منها استداما ساعة أو أكثر، وهما مع الحضور في خلال ذلك يرفعون أصواتهم بالضحك المزعج، فمن عجز منها قبل صاحبه أو سعوه تويغناً وصفقوا المنتصر اعلاناً بظفره، وأجلسوه مكاناً عليّاً، ويسمونه المعلم الماهر، وهذه فئة غير قليلة في المدن، وأكثرها من أبناء الأغنياء عديمي التربية

وأما مجالس ذوي الكمالات من أهل المدن، فأنها ان اتفق وتجردت عن الحديث في منكر، فهي لاتخلو عن حشو، فانه على الأقل لابد أن يتشرف المجلس ولو زماناً قليلاً بحلول الغيبة أو النيمة المرافقتين لنا، مرافقة الشخص لظاه الا اذا سمحت الصدقة، وكان زمن المجلس قليلاً جداً لا يسع سوى التحية دون زدها، وأنهم لن يستطيعوا أن يبرهنوا على خلاف ذلك، فاني قائل: اذا لم يجلسوا مستديمين الصمت، ومنصرفين كذلك، فباذا ينطقون؟ هل ينطقون بعلم شرعي وقد جهلوه أو تجاهلوه؟ أم بعلم صناعي وقد عادوه، أم فن طبي وقد تناسوه، أم حديث عن منفعة عمرمية وقد أغفلوها، أم استفسار عن حوادث سياسية وقد زعموا الاشتغال بها عبثاً. فاذاً لا سبيل الا الاشتغال بالاعابهم المعتادة كالشطرنج والترد (الطاولة) وغيرها من اصناف الملاعب، وإنها دون ريب لتجملهم الى أسوأ مما فروا منه كما هو مشاهد. نعم يوجد بيننا بعض الأذكياء الذين يتحدثون عن المعارف والسياسة، ولكن فضلاً عن كونهم نزرأ يسيراً، فان أعمالهم غير منطبقة على ما يقولون، لكونها جملاً حفظوها من غير أن يعقلوا لها معنى، أو لكونها أورااً اجمالية ضيقة المجال لم يبحثوا في تفاصيلها هذه هي المجالس المنزلية

وأما المجالس التي تعقد على قهاوى الشعراء أو الحشاشين المحرفين فلا

نستطيع تفاصيل ما فيها من العجائب والأحاديث الجنونية لكثرتها ، وتشعب
مسالكها ، سيما حديثهم فيما يتعلق بالجن والشياطين ، وأخرافات المعاتيه والمجانين ،
كما اننا نكتفي في الكلام على متديات الأرياف بأنها وإن قيل فيها ما يتعلق
بالزراعة ومصالحها . ولكن لا تخلو من كلمات تدل على تمكن الحسد والحقد في
أفئدتهم ، وأن العداوة والبغضاء راسختان في ضمائرهم ، بحيث يعسر زوالهما ،
وهذا مع مساواة غالبهم لأهل المدن في البني والفجور ، وأن بعض عمد البلاد
أسوأ حالا وأقبح عملا من أهل المدن كما هو معروف

فهذه أحاديثنا في مجالسنا ، وتلك أقاويل غيرنا في مجامعهم ، سردناه لذوي
النقد والبصيرة ، معرضين عن كثير مما تنفوه به وقت اجتماعنا ، ولعلنا نذكره
وقتا ما ، اذ رأينا لهذه البزرة أوراقا يانعة ، وثمرا طيبة . فيقوى فينا ضعيف
الأمل ، ويحيي ميت الرجاء ، ونشمر عن ساعد الاجتهاد ، ونطلق لسان العظة
داعين الى طرق النجاح . وإنا لنخشى أن تقابل هذه الجملة بمثل ما قوبلت به
أخواتها من قبل ، كأن يقول زيد : ما كتبت هذه الجملة الا للتنديد على أقوالي ،
ويظن مثله عمرو ، فيصرفونها عما وضعت لأجله من خالص النصح ومحض
الأرشاد من غير أن تناط بشخص مخصوص أو فئة معينة . فالملحوظ فيها
كسابقاتها الخلق من حيث تعلقه بالأفراد أيا كانت كما هو الشأن في جميع المواضع
والنصائح العمومية ، لا المرء المحصوص المتصف بتلك الأخلاق حتى تكون تنديداً
وطعناً . فعسى أن لانسمع بعد بمثل تلك التصورات من أحد من الناس .
ويعلموا أن ما كتب وسيكتب صادر عن نفوس تسعى في تهذيب الأخلاق
ما استطاعت ، ويسرها أن ترى أبناء الديار رافلة في حلق من الككلات ،
متحلية بالعزة والفخار ، حقق الله آمالنا ، وختم لنا بحسن ما لنا

المقالة الخامسة عشرة

مهام الانسائه الى الزواج *

وعدنا في أحد أعدادنا الماضية أن تتكلم في المصائب التي عرضت من تزوج النساء المتعددات عند مخالفة حكم الشرع في أمرهن . فالآن نوفي بما وعدنا ، بادئين بتمهيد تتبعه بالمقصود فنقول :

لما كان من لوازم حفظ النوع الانساني المعرض للفناء والزوال التناسل والتوالد ، أودع الحق سبحانه في طبيعة الانسان قوة شهوية تدعوه الى الاقتران ، وتحمله على طلب الازدواج كسائر أنواع الحيوانات

غير أن الانسان يمتاز عن سائر الحيوانات بقوة مذكرة ، يستحضر بها ما شهدته في الماضي ، فيطلبه إن كان لذيداً ، استحصالاً للمجرد اللذة ، وله حرص بالطبع على المدافعة عن كل ما يروم جلبه لنفسه من أن تمسه يد الغير ، ويدافع عنه ما استطاع كل من حاول مشاركته فيه . ثم إن هذا التمييز العقلي دعاه لأن يطلب من الأزواج ماهو أبهى في المنظر ، وأنعم في اللمس ، وأسلم من الآفات والمشوهات ونحو ذلك ، فلا يسمح لأحد بمقتضى الحرص الذي نسميه غيره أن يشاركه فيه ، ويدفع ذلك بكل ما يمكنه ، حتى القتل والجرح ، وهذا بخلاف باقي الحيوانات ، فانها وإن كان يغار ذكرها على أئناها وقت طلبه لها ، لكنها لحيزات وتنقضي ، فاذا سافدها انقضت الغيرة باتقضاء الشهوة . والانسان

لفكره ليس كذلك ، بل يلزم الحرص في جميع أحواله خوفاً على المستقبل ومن المعلوم ان تلك القوة وهذه الخواص منتشرات في جميع الأفراد البشرية فكل واحد منهم يطلب صرف شهوته مع من اتصف بالجمال وسلم من الآفات ، حالة كون كل واحد منهم يطلب الاستئثار به ، ويدافع الغير عنه لما

قدمناه من الأسباب ، وزد على ذلك ان الانسان في حاجة إلى التعاون بالضرورة وهو في فطرته لا ينظر إلى التعاون بجميع أفراد الانسان فلا بد له من تعلق خاص يوجب عقد التعاون الخاص ، فلو ترك الانسان مسترسلا مع شهوته من غير ان تقيد طرق استعمالها بتانون يحفظ ثمرتها ، ويكفل سلامة نتيجتها ، لاختل عقد نظام الانسان ، وفسدت أركان سعادته ، ولم يصن وجوده عن غائلة الزوال وعاديات الفناء ، وذلك من وجوه :

(الأول) ان النسوة اذا أبيضت لكل ذكر من الرجال ، وأبيض لكل أنثى ان تقترن بكل زوج في أي وقت لاشتعلت نار الغيرة في أفئدة كل واحد من البشر ، وسارع كل إلى مدافعة من بروم الاشتراك معه ولو أدى ذلك الى سفك دماء الطالبين والطالبات

(الثاني) ان المرأة عاجزة بالطبع عن القدرة على جلب لوازم معيشتها ودرء المسكروحات عن ذاتها ، خصوصا في أزمنة الحمل وعقب الولادة وسني الرضاع ، وما لم يعلم الرجل اختصاصه بها لا يسعى في القيام بحاجاتها ، والمدافعة عن حقوقها فتضيع ذريتها

(الثالث) وهو أعم من هذا : أن الرجل لا يخاطر بنفسه في تحمل الأتعاب واقتحام الشدائد ، طلباً للحصول على وسائل المعيشة ، إلا اذا رأى صبية وغيلا هم عالة عليه في أمور معيشتهم ونوال ما ربهم ، يؤدي اليهم ما استطاع من الرزق وقت قدرته ، مؤملا فيهم أنه اذا وهنت قواه بعد غيابه تبريتهم اذا كبروا ، يعوضون عليه أتعابه السالفة ، وتسوءهم مصيبتهم ، ويفرحون بثروته وسعادته ، بل لو لم تكن له زوجة وذرية تختص به ، وتعد نسبته اليها كنسبة الجسد للروح ، لما أمكنه الادخار لنفسه من قوته . فان ادخار العيش الذي هو من لوازم الانسان موقوف على عناية الزوجات والأبناء ، وتوجه القلوب منهم الى مساعدة هذا الكاسب العاني ، فهو يجتهد للابحاد ، وهم يهتدون بحفظ الموجود ، وكل ذلك مفقود اذا اختلطت الأنساب ، وجهلت الأصول ، بل لو اختلط النسب لم تتوجه همه رجل للسمي في تربية ولد ، فيستأصل الموت أفراد النوع في أوائل أعمارهم

فظهر من ذلك أن سعادة الانسان في معيشته بل صيانة وجوده في هذه الدار موقوفة على تقييد تلك الشهوة بقانون يضبط استعمالها، ويضرب لها حدوداً يقف كل شخص عندها، وتوجب الاختصاص بين الزوج والزوجة فيمتنع التعدي، ثم يظهر منه التعلق الخصوصي بين كل شخص وزوجته، وكل زوجة وبعلها، فيسعي كل خير من اختص به حيث إن سعيه لكل البشر غير ممكن، بل هو بعيد عن الافكار البسيطة الغالبة على أفراد النوع البشري، وقد أتت الشرائع المنزلة بما يكفل هذا الأمر. وإن اختلفت مظاهره بالنسبة الى اختلاف طبائع الأمم لما طرأ عليها من تقلبات الاجيال والاعصار، ولم تبح للرجل أية امرأة يريدونها الا اذا كانت خالية عن الازواج وتيقن فراغها من الحمل وخلوها عن سبب الموانع التي تحل بهذا الاختصاص وطاب العقد عليها والاجابة منها، أو وليها بالقبول بمحضر جماعة من اناس تدبج هذا الأمر لتكف الناس عن ارادتها لئلا علموا أنها خصت برجل يقوم بمحاجاتها ويدرأ عنها أي مكروه، وأمرت الطرفين بمحسن المعاشرة، ونهت عن ارتكاب أي أمر يخل بنظام الاجتماع المنزلي الذي لا تتم سعادة العائلة الا برعاية حرمة والمحافظة على حقوقه، كالقيام بواجبات وحاجات كل واحد من أفرادها، وحسن الاقتصاد في المعيشة، وأن ينظر كل واحد الى مصلحة العائلة نظره الى مصلحته الخصوصية، وبعبارة أظهر ليس عنده ثم يعد مصلحة الا اذا كان يوجب لعائلته الثروة والتقدم، وينقلها من خلة الشقاء الى درجات السعادة والهناء.

فتبين من ذلك أن الشهوة الحيوية المغروسة في الانسان لم تكن مقصودة لذاتها بل هي آلة لنيل الانسان ما ربه التي لا يستطيع المقام بدونها، كبقائه في عالم الوجود يتعاون على جانب المنافع ودفع المكروه بزوجته وأولاده وأخيه وعمه ونحو ذلك ممن ارتبط معه بالرابط المعروف بصلة النسب والتقرب التي يعد من اقوى الروابط الانسانية التي لولاها لاختل نظام الوجود الانساني بالمره كما هو ظاهر، ولما كان التعاون على المصالح المعاشية والاتحاد والتآلف وجمع الكامة من ثمرات الزواج لم يبح بالاجماع أن يقترن الرجل باخته أو عمته أو ابنته لأنه يضيق تلك

الفوائد ويقلل من الثمرات فضلا عن كونه في نظر الاطباء يجب العقم واقطاع النسل . فلذلك أوجبت الشريعة أن يكون الزواج من عائلتين ليحصل الارتباط بينهما بعلاقة المصاهرة بل لا بد أن يقع الاقتران من بيتين (١) ليجتمع العائلتان على مصلحة واحدة وتصيران بالمصاهرة كجسم تعددت أعضاؤه فيقوم كل عضو بما فيه مصلحة الكل وتتجاذب صلوات المصاهرة ورابطة النسب مصالح القبائل المتفرقة وتجعلها متجهة الى كهبة الاتحاد والاتلاف ، فيستريح الناس من ألم الشقاق، ووخامة البغض والعناء . وأما العائلة الواحدة فيكفي في ارتباطها العلاقة النسبية هذا ما أنت به الشرائع ونطقت به علماء الدين وأوضحته العقلاء في حكمة الزواج والاقتران بقطم النظر عن كونه باحدة أو متعددة اقتصرنا عليه الآن وسنشفعه في صحيفة غد ببيان ماجاءت به شريعتنا من إباحة الزواج بأربع من النسوة وجواز مفارقتهم بالطلاق مع بيان ما كان عليه السلف الصالح في معاشرة زوجاتهم وما نحن عليه الآن من سوء معاشرتهم وعدم العدل بينهم وحصول ضد المقصود إذ يكون الزواج موجبا للعداوات وتفریق الشمل بدلا عن المحبة وجمع الكلمة كما أوجبه الشريعة . وليس لنا غرض من ذلك سوى تبين الحق وتوضيح الصراط المستقيم .

(١) لا ندري أكان الاستاذ (رح) يفرق بين كلمتي البيت والعائلة في هذا المقام أم يعدها مترادفين ولا حد كل منهما وحكم الشريعة في الزواج من غير الحلال من الاقارب الاستحباب عنى الاكثر بل ماروي في الاعتراب في النكاح والنهي عن القرية لا يصح مرفوعا بل هو أثر عن عمر (رض)

المقالة السادسة عشرة

حكم الشريعة في تعدد الزوجات (*)

قد أبحاث الشريعة المحمدية للرجل الاقتران بأربع من النسوة إن علم من نفسه القدرة على العدل بينهما ، وإلا فلا يجوز الاقتران بغير واحدة قال تعالي (فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة) فان الرجل اذا لم يستطع إعطاء كل منهن حقا اختل نظام المنزل وساءت معيشة العائلة إذ العماد القويم لتدبير المنزل هو بقاء الاتحاد واتما لف بين أفراد العائلة ، والرجل اذا خص واحدة منهن دون الباقيات ولو بشيء زهيد كأن يستقضيها حاجة في يوم الاخرى امتعضت تلك الاخرى وسئمت الرجل لتعديه على حقها بزلفه الى من لاحق لها وتبدل الاتحاد بالنفرة والمحبة بالبغض ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم وجماعة الصحابة رضوان الله عليهم والخلفاء الراشدون والعلماء والصالحون من كل قرن الى هذا العهد يجمعون بين النسوة مع المحافظة على حدود الله في العدل بينهما . فكان صلى الله عليه وسلم وأصحابه والصالحون من أمته لا يأتون حجرة إحدى الزوجات في نوبة الاخرى إلا باذنها

من ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يظاف به وهو في حالة المرض على بيوت زوجاته محمولا على الاكتاف حفظا للعدل ، ولم يرض بالاقامة في بيت إحداهن خاصة ، فلما كان عند إحدى نساته سأل في أي بيت أكون غداً ، فعلم نساؤه أنه يسأل عن نوبة عائشة ، فأذن له في المقام عندها مدة المرض فقال « هل رضيتن » فقلن نعم ، فلم يبق في بيت عائشة حتى علم رضاهن . وهذا الواجب الذي حافظ عليه النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي ينطبق على نصائحه ووصاياه فقد روي في الصحيح أن آخر ما أوصى به صلى الله عليه وسلم ثلاث كان يتكلم بهن حتى تلجلج لسانه وخفي كلامه « الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم

(*) نشرت في العدد ١٠٥٦ الصادر في ٨ ربيع الآخر سنة ١٢٩٨

(١٥) — تاريخ الاستاذ الامام — الجزء الثاني

لا تكلفوهم مالا يطيقون . الله الله في النساء فانهن عوان في أيديكم — أي أسراء — أخذتموهن بأمانة الله واستحلتم فروجهن بكلمة الله » وقال « من كان له امرأتان فقال الى احدهما دون الاخرى — وفي رواية ولم يعدل بينهما — جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل » وكان صلى الله عليه وسلم يعتذر عن ميله القلبي بقوله « اللهم هذا (أي العدل في البيات والعتاء) جهدي فيما أملك ولا طاقه لي فيما تملك ولا أملك » (يعني الميل القلبي) وكان يقرع بينهما اذا أراد سفراً

وقد قال الفقهاء يجب على الزوج المساواة في القسم في البيوتة باجماع الأئمة وفيها وفي العطاء أعني النفقة عند غالبهم حتى قالوا يجب على ولي المجنون أن يطوفه على نسائه . وقالوا لا يجوز للزوج الدخول عند إحدى زوجاته في نوبة الأخرى إلا للضرورة مبيحة غايته يجوز له أن يسلم عليهما من خارج الباب والسؤال عن حالها بدون دخول . وصرحت كتب الفقه بأن الزوج اذا أراد الدخول عند صاحبة النوبة فأغلقت الباب دونه وجب عليه أن يبيت بمجرتها ولا يذهب إلى ضرتها إلا للمانع برد ونحوه . وقال علماء الحنفية ان ظاهر آية (فان خفتن أن لاتعدلوا فواحدة) ان العدل فرض في البيوتة وفي الملبوس والمأكول والصحبة لا في الجامعة لافرق في ذلك بين فحل وعثنين ومحبوب ومرضى وصحيح . وقالوا ان العدل من حقوق الزوجية ، فهو واجب على الزوج كسائر الحقوق الواجبة شرعاً إذ لاتفاوت بينها ، وقالوا إذا لم يعدل ورفع إلى القاضي وجب نهيها وزجره ، فان عاذر بالضرب لابلبس وما ذلك الا محافظة على المقصد الأصلي من الزواج وهو التعارن في المعيشة : وحسن السلوك فيها

أبعد الوعيد الشرعي ، وذلك الالزام الدقيق الحتمي ، الذي لا يحتمل تأويلاً ولا تحويلاً ، بجورز الجمع بين الزوجات عند توهم عدم القدرة على العدل بين النسوة فضلاً عن تحققه ؟ فكيف يسوغ لنا الجمع بين نسوة لا يحملنا على جمعهن الا قضاء شهوة فانية ، واستحصالة لذة وقتية ، غير مبالين بما ينشأ عن ذلك من المفساد وبخالفه للشرع الشريف ، فاننا نرى أنه ان بدت لاحدها من فرصة للشواية عند الزوج في حق الأخرى صرفت جهدها ما استطاعت في تنميتها واتقانها وتحلف بالله انها

لصادقة فيما اقترت (وما هي الا من الكاذبات) فيعتقد الرجل انها اخلصت له النصيح لفرط مياه اليها ، ويوسع الأخرى ضرباً مبرحاً وسباً فظيماً ، ويسومهن طرداً ونهراً من غير أن يتبين فيما ألقى اليه ، اذ لهداية عنده ترشده الى تمييز صحيح القول من فاسده ، ولأنور بصيرة يوقفه على الحقيقة ، فتضطرم نيران الغيظ في أفئدة هاتيك النسوة وتسي كل واحدة منهن في الانتقام من الزوج والمرأة الواشية ويكثر العراك والمشاجرة بينهن بياض النهار وسواد الليل ، وفضلاً عن اشتغالهن بالشقاق عما يجب عليهن من أعمال المنزل يكثرن من خيانة الرجل في ماله وأمنته لعدم الثقة بالمقام عنده فانهن دائماً يتوقعن منه الطلاق إما من خبث أخلاقهن أو من رداءة أفكار الزوج . وأياً ما كان فكلاهما لا يهدأ له بال ولا يروق له عيش

ومن شدة تمكن الغيرة والمقد في أفئدتهم تزرع كل واحدة في ضمير ولدها بما يجعله من ألد الأعداء لأخوته أولاد النسوة الأخرى فانها دائماً تمتصهم وتذكرهم بالسوء عنده وهو يسمع وتبين له امتيازهم عنه عند والدهم وتعدد له وجوه الامتياز . فكل ذلك وما شابهه ان ألقى الى الولد حال الطفولية يفعل في نفسه فعلاً لا يقوى على ازالته بعد تعلمه فيبقى نفوراً من أخيه عدواً له (لانصيراً وظهيراً له على اجتناء الفوائد ودفع المكروه كاهوشاً أن الأخ)

وان تطاول واحد من ولد تلك على آخر من ولد هذه وان لم يعقل ما لمفظ لمن كان خيراً أو شراً لكونه صغيراً تنصب سوق العراك بين والديها وأوسعت كل واحدة الأخرى بما في وسعها من ألفاظ الفحش ومستهجنات السب (وان كن من المخدرات في بيوت المعتبرين) كهاهو مشاهد في كثير من الجهات خصوصاً العراقية واذا دخل الزوج عليهن في هذه المائة تعسر عليه اطفاء الثورة من بينهن يحسن القول ولين الجانب اذ لا يسمع له أمراً ولا يرهبن منه وعيد لكثرة ما وقع بينه وبينهن من المنازعات والمشاجرات لمثل هذه الأسباب أو غيرها التي أنقضت الى سقوط اعتباره وانتهاك واجباته عندهن أو لكونه ضعيف الرأي أحق الطبع فتقوده تلك الأسباب الى فض هذه المشاجرة بطلاقهن جميعاً أو طلاق من هي عنده أقل منزلة في الحب ولو كانت أم أكثر أولاده فتخرج من المنزل

سائلة البمع حزينه الحاطر حامله من الأطفال عديداً فتأوى بهم إلى منزل أبيها ان كان . ثم لا يمضي عليها بضعة أشهر عنده إلا وتراه ستمها فلا تجد بداً من رد الأ ولاد إلى أبيهم ، وان علمت ان زوجته الحالمية تعاملهم بأسوا مما عوملوا به من عشيرة أبيها ، ولا تسل عن أم الأ ولاد إذا طلقت وليس لها من تأوي اليه ، فان شرح ماتعانيه من أم الفاقة وذل النفس ليس يحزن القلب بأقل من الحزن عند العلم بما تسام به صبيتها من الطرد والتفريع يثنون من الجوع ويكون من ألم المعاملة ولا يقال إن ذلك غير واقع فان الشريعة الغراء كلفت الزوج بالنفقة على مطلقة وأولاده منها حتى تحسن تربيتهم وعلى من يقوم مقامها في الحضانه إن خرجت من عدتها وتزوجت - فان الزوج وإن كلفته الشريعة بذلك ، لكن لا يرضخ لأحكامها في مثل هذا الأمر الذي يكافه نفقات كبيرة الا مكرهاً مجبوراً . والمرأة لا تستطيع أن تطالبه بحقتها عند الحاكم الشرعي إما بعد مركزه فلا تقدر على الذهاب اليه وتترك بنيتها لا يملكون شيئاً مدة أسبوع أو أسبوعين حتى يستحضر القاضي الزوج ، وربما آبت اليهم حامله صكاً بالتزامه بالدفع لها كل شهر ما أوجهه القاضي عليه من النفقة من غير أن تقبض منه ما يسد الرمق ، أو يذهب بالعوز ، ويرجع الزوج مصرأ على عدم الوفاء بما وعد لكونه متحققاً من أن المرأة لا تقدر أن تخاطر بنفسها الى العوده للشكايه لو هن قواها واشتغالها بما يذهب الحاجه الوقتية ، أو حياء من شكايه الزوج . فان كثيراً من أهل الارياف يعدون مطالبه المرأة بنفقتها عيباً فظيماً ، فهي تفضل البقاء على تحمل الاتعاب الشاقه طلباً لما تقيم به بنيتها هي وبنيتها على الشكايه التي توجب لها العار ، وربما لم تأت بالثمره المقصوده . وغير خفي أن ارتكاب المرأة الأيم لهذه الاعمال الشاقه ومعاناة البلايا المتنوعه التي أقلها ابتذال ماء الوجه تؤثر في أخلاقها فساداً وفي طباعها قبحاً مما يذهب بكالمها ، ويؤدي الى تحقيرها عند الراغبين في الزواج ولربما أدت بها هذه الأمور الى أن تبقى أياماً مدة شبابها تتجرع غصص الفاقة والذل ، وإن خطبها رجل بعد زمن طويل من يوم الطلاق ، فلا يكون في الغالب إلا أقل منزلة وأصغر قدرأ من بعلمها السابق ، أو كهلا قلت رغبة النساء فيه ،

ويمكث زمناً طويلاً يقدم رجلاً ويؤخر أخرى خشية على نفسه من عائلة زوجها السالف . فانها تبغض أي شخص يريد زواج امرأته وتضمر له السوء إن فعل ذلك ، كأن مطلقها يريد أن تبقى أيما الى المات رغبة في نكاحها وإساءتها ان طلقها كارهاً لها . وأما اذا كان طلاقها ناشئاً عن حماقة الرجل لا كثاره من الحلف به عند أذى الاسباب ، وأضعف المقضيات كما هو كثير الوقوع الآن اشتد حقه وغيره عليها ، وتمنى لو استطاع سيلاً الى قتلها أو قتل من يريد الاقتران بها

وكأنني بمن يقولون إن هذه المعاملة وتلك المعاشرة لا تصدر الا من سفلة الناس وأدنيائهم . وأما ذوو المقامات وأهل اليسار فلا نشاهد منهم شيئاً من ذلك فانهم ينفقون مالا لبدأ على مطلقاتهم وأولادهم منها ، وعلى نسوتهم العديداً حتى ييوتهم ، فلا ضير عليهم في الاكثار من الزواج الى الحد الجائز والطلاق اذا ازدادوا ، بل هو الأجل والأليق بهم اتباعاً لما ورد عنه صلى الله عليه وسلم « تناكحوا تناسلوا فاني مباء بكم الأمم يوم القيامة » وأما ما يقع من سفلة الناس فلا يصح أن يجعل قاعدة للنهي عما كان عليه عمل النبي والسلف الصالح من الأمة خصوصاً وآية (فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) فلم تنسخ بالاجماع . فاذا يلزم العمل بمدلولها مادام الكتاب

تقول في الجواب عن هذا : كيف يصح هذا المقال وقد رأينا الكثير من الأغنياء وذوي اليسار يطردون نساءهم مع أولادهم فترجى أولادهم عند أقوام خير عشرتهم لا يعنون بشأنهم ولا يلتفتون اليهم ، وكثير أمارنا الآباء يطردون أبناءهم وهم كبار مرضاه لنسائهم الجديداً ، ويسبون الى النساء بما لا استطاع حتى إنه ربما لا يحمل الرجل منهم على تزوج ثانية الا إرادة الاضرار بالاولى وهذا شائع كثير . وعلى فرض تسليم أن ذوي اليسار قائمون بما يلزم من النفقات لا يمكننا الا أن نقول كما هو الواقع إن انفاقهم على النسوة وتوفية حقوق الزوجية من القسم في الميت ليس على نسبة عادلة كما هو الواجب شرعاً على الرجل لزوجاته . فهذه النفقة تستوي مع عدمها من حيث عدم القيام بحقوق الزوجات الواجبة الرعاية كما أمرنا به (الشرع الشريف) فاذا لا يمايز بينهم وبين الفقراء

في أن كلا قد ارتكب ما حرّمته الشرائع ونهت عنه نهياً شديداً ، خصوصاً وإن مضرات اجتماع الزوجات عند الاغنياء أكثر منها عند الفقراء ، كما هو الغالب . فإن المرأة قد تبقى في بيت الغني سنة أو سنتين ، بل ثلاثاً ، بل خمساً ، بل عشرأ لا يقربها الزوج خشية أن تغضب عليه (من يميل اليها ميلاً شديداً) وهي مع ذلك لا تستطيع أن تطلب منه أن يطلقها خوفاً على نفسها من بأسه ، فتضطر الى فعل ما لا يليق . وبقية المفاسد التي ذكرناها من تربية الابناء على عداوة اخوتهم ، بل وأبيهم أيضاً موجودة عند الاغنياء أكثر منها عند الفقراء ، ولا تصح المكابرة في إنكار هذا الأمر بعد مشاهدة آثاره في غالب الجهات والنواحي ، وتطابى شرره في أكثر البقاع من بلادنا وغيرها من الاقطار الشرقية

فهذه معاملة غالب الناس عندنا من اغنياء وفقراء في حالة التزوج بالتعددات كأنهم لم يفهموا حكمة الله في مشروعيته ، بل اتخذوه طريقاً لصرف الشهوة واستحصال الالذة لا غير ، وغفلوا عن المقصد الحقيقي منه . وهذا لا يجزه الشريعة ولا يقبله العقل . فاللازم عليهم حينئذ إما الاقتصار على واحدة اذا لم يقدرُوا على العدل كما هو مشاهد عملاً بالواجب عليهم بنص قوله تعالى (فان ختمت أن لاتعدلوا فواحدة) وأما آية (فانكحوا ما طاب لكم من النساء) فهي مقيدة بآية فان ختمت (١) وإما أن يتبصروا قبل طلب التعدد في الزوجات فيما يجب عليهم شرعاً من العدل وحفظ الألفة بين الاولاد ، وحفظ النساء من الغوائل التي تؤدي بهن الى الاعمال غير اللائحة . ولا يحملونهن على الاضرار بهن وبأولادهم ، ولا يطلقونهن الا لداع ومقتض شرعي شأن الرجال الذين يخافون الله ويوقرون شريعة العدل ، ويحافظون على حرّامات النساء وحقوقهن ، ويعاشرونهن بالمعروف ويفارقونهن عند الحاجة . فهؤلاء الافاضل الاتقياء لا لوم عليهم في الجمع بين النسوة الى الحد المباح شرعاً . وهم وإن كانوا عدداً قليلا في كل بلد وأقليم ، لكن أعمالهم واضحة الظهور تستوجب لهم الثناء العميم ، والشكر الجزيل وقهرهم من الله العادل العزيز

(١) جملة وأما آية الخ معترضة بين التقسيم والآية واحدة

المقالة السابعة عشرة

خطأ العزمه *

(١)

إن كثيراً من ذوي القرائح الجيدة اذا كثروا من دراسة الفنون الادبية ومطالعة أخبار الأمم وأحوالهم الحاضرة تتولد في عقولهم أفكار جلية ، وتنبعث في نفوسهم همم رفيعة ، تندفع الى قول الحق ، وطلب الغاية التي ينبغي أن يكون العالم عليها ، ولكونهم اكتسبوا هذه الافكار وحصلوا تلك الهمم من الكتب والاعخبار ومعاشرة أرباب المعارف ونحو ذلك تراهم يظنون أن وصول غيرهم الى الحد الذي وصلوا اليه وسير العالم بأسره أو الامة التي هم فيها بتمامها على مقتضى ما علموه — هو أمر سهل مثل سهولة فهم العبارات عليهم ، وقريب الوقوع مثل قرب الكتب من أيديهم ، والالفاظ من أسماعهم ، فيطلبون من الناس طلباً حاثاً أن يكونوا على مشاربهم ، ويرغبون أن يكون نظام الأمة وناموسها العام على طبق أفكارهم . وإن كانت الأمة عدة ملايين وحضرات ، المفكرين أشخاصاً معدودين ، ويظنون أن أفكارهم العالية اذا برزت من عقولهم الى حيز الكتب والدفاتر ، ووضعت أصولاً وقواعد لسير الامة بتمامها ينقلب بها حال الامة من أسفل درك في الشقاء الى أعلى درج في السعادة ، وتتبدل العادات وتتعمول الاخلاق ، وليس بين غاية النقص والكمال إلا أن ينادي على الناس باتباع آرائهم

تلك ظنونهم التي يحدتهم بها معارفهم المكتسبة من الكتب والمطالعات وإنهم وإن كانوا أصابوا طرفاً من الفضل من جهة استقامة الفكر في حد ذاته وارتفاع الهمة ، وانبعثت الغيرة ، لكنهم أخطأوا خطأ عظيماً من حيث إنهم لم

نشرت في العدد ١٠٧٩ الصادر في ٥ جمادى الاولى سنة ١٢٩٨ - ٤ ابريل سنة ١٨٨١

يقارنوا بين ما حصلوه ، وبين طبيعة الامة التي يريدون إرشادها ، ولم يختبروا قابلية الاذهان ، واستعدادات الطباع للاتقياد الى نصائحهم واقتفاء آثارها . ولو أنهم درسوا طبائهم العالم كما درسوا كتب العلم ، ودققوا النظر في سطور أخلاقه وعاداته الحقيقية الواقعية التي انتضتها حالة وجوده ، بل لو قارنوا بين الحوادث المسطرة في الكتب . وتبينوا كيفية انتقال الأمم من بداياتها الى نهائياتها لعلوا أن الأمم في أحوالها العمومية كالاشخاص في أحوالها الخصوصية ، بل ان الاحوال العمومية هي عبارة عن مجموع الاحوال الخصوصية . وليست الامة مثلاً إلا مجموع أفرادها : وليس حال الهيئة المركبة من تلك الافراد إلا مجموع أحوالها هاته الافراد فعلى من يريد كمال أمة بتمامها أن يقيس ذلك بكمال كل فرد منها وبذلك في تكميل العموم عين الطريق التي يسلكها لتكميل الواحد . هل يسهل على صاحب الفكر الرفيع أن يودع في عقل الطفل الرضيع ، أو الصبي قبل رشده ، وقبل أن يتعلم شيئاً من مبادئ العلوم تلك الافكار العالية التي نالها بالجد والاجتهاد وكثرة المطالعات ؟ كلا بل لو أراد أن يجعل شخصاً من الاشخاص على مثل فكره احتاج الى أن يبدأ بتعليمه القراءة والكتابة ، ثم مبادئ الفنون السهلة التحصيل ، ثم يتدرج به شيئاً فشيئاً حتى ينتهي بعد سنين عديدة الى بعض مطلوبه ، ثم هو في خلال ذلك محتاج الى أن يمحصر أعماله ويقيدها بقيود من الترغيب والترهيب ، وأن يراقب حركاته في أعماله خوفاً من اختلاطه بفاسدي الاخلاق والافكار ، أو المائلين الى الكسالة والبطالة ، أو ورود موارد الشهوات ، ونحو ذلك من الملاحظات التي لا بد منها . فان اخلت شيء من الترتيب في التعليم بأن قدم الاصعب على الاسهل مثلاً ، أو أهمل ملاحظة أعماله وأحواله ، اخلت التربية وذهبت الاتعاب سدى ، واستحال صيرورة حال ذلك الشخص مماثلة لحالة مرشده

ولو أنه أراد تحويل أفكار شخص واحد وهو في سن الرجولية هل يمكنه أن يبدلها بغيرها بمجرد إلقاء القول عليه ؟ كلا إن الذي تمكن في العقل أزماناً لا يفارقه إلا في أزمان ، فلا بد لصاحب الفكر أن يجتهد أولاً في إزالة الشبه التي

تمسك بها ذلك الشخص في اعتقاداته ، وذلك لا يكون في آن واحد ، ولا بعبارة واحدة ، ولكن بعبارات مختلفة في التقريب ، بعضها سهل المأخذ قريب المنال ، والبعض أرق منه ، وبعضها خطابي ، والآخر برهاني ، وما شابه ذلك - فان لم يتخذ تلك الوسائل في إرشاده امتنع عليه مقصوده ، بل ربما جرّه نصحه إلى الضرر بنفسه . تلك هي الحالة المشهودة التي لا ينكرها أحد . ثم إن نجاحه في تغيير فكر واحد مع كل هذا الاجتهاد موقوف على أن صاحب ذلك الفكر الفاسد لا يعاشر ولا يخالط في خلال تعلمه إلا مرشده صاحب الفكر السليم . فان كان يخالط غيره ممن يؤيد فكره الأول طال الزمن ، وربما لم ينجح فيه الارشاد . وأظن أن هذا يعترف به كل من مارس الأخلاق والعادات

إن كان هذا حال شخص واحد إذا أردنا إصلاح شأنه في صغره أو كبره مع أنه سهل ضبط أعماله وأحواله ، والوقوف على كنه أوصانه ، ودرجات تقدمه في المقصود وتأخره فيه . فما ظنك بحال أمة من الأمم تختلف عناصرها ، وتباین شعوبها ، فن الخطأ بل من الجهالة أن تكلف الأمة بالسير على ما لا تعرف له حقيقة أو يطلب منها ما هو بعيد من مداركها بالكفاية ، كما أنه لا يليق أن يطلب من الشخص الواحد ما لا يعقله أو ما لا يجد إليه سبيلا

وإنما الحكمة أن تحفظ لها عوائدها الكفاية المقررة في عقول أفرادها ، ثم يطلب بعض محسنات فيها ، لا تبعد منها بالمرّة . فاذا اعتادوها طلب منهم ما هو أرق بالتدرج ، حتى لا يمضي زمن طويل إلا وقد انخلعوا عن عاداتهم وأفكارهم المنحطة إلى ما هو أرق وأعلى من حيث لا يشعرون — أما إذا وضع لهم من الحدود ما لم يصلوا إلى كنهه ، أو كلفوا من العمل ما لم يهدوه ، أو خولوا من السلطة ما لم يهودوه ، رأيتهم يتخبطون في السير لحفا ، المقصود عنهم ، وضلال الرأي فيما لم يكن يمرّ على خواطرم ، فيمكن أن يخرجوا عن حالتهم الأولى ، لكن إلى ما هو أعمس منها بحكم الاستعداد القاضي عليهم بذلك

مثلا اننا نستحسن حالة الحكومة الجمهورية في أمريكا واعتدال أحكامها ، والحرية التامة في الانتخابات العمومية في رؤساء جمهورياتها وأعضاء نوابها

ومجالسها ، وما شا كل ذلك . ونعرف مقدار السعادة التي نالها الاهالي من تلك الحالة ، ونعلم أن هذه السعادة إنما أتت لهم من كون أفراد الأمة هم الحاكمين في مصالحهم بأنفسهم ، لأنهم أرباب الانتخاب ، وإنما رؤساء الجمهوريات ، وأعضاء المجالس نواب عنهم في حفظ تلك المصالح والحقوق التي رأوها لأنفسهم ، وتشوق النفوس الحرة أن تكون على مثل هذه الحالة الجليلة ، لكننا لانستحسن أن تكون تلك الحالة بعينها لأفغانستان مثلاً ، حال كونها على ما نعهد من الخشونة ، فإنه لو فوض أمر المصالح الى رأي الاهالي لرأيت كل شخص وحده له مصلحة خاصة لا يرى سواها ، فلا يمكن الاتفاق على نظام عام ، ولو طلب منهم أن ينتخبوا مائة نائب مثلاً لرأيت كل شخص ينتخب صاحباً له أو نسبياً أو قريباً ، فربما ينتخبون آلافا مؤلفة ، ثم لا ينتهي الانتخاب إلى المرغوب أصلاً ، لوقوف كل واحد عند انتخابه الأول . ولو وكل اليهم انتخاب رئيس للحكومة ، لانتخبت كل قبيلة رئيساً منها ، ثم يقع الهرج بين الرؤساء ، وهكذا حال الأمم التي تعودت على أن يكون زمامها بيد ملك أو أمير أو وزير يدير أعمالها بدون أن يكون لها دخل في رؤية مصالحها لا يمكن أن يطلب منها الدخول في أعمالها العامة ، وإلا فسدت . فاذا أردنا إبلاغ الأفغان مثلاً إلى درجة أمريكيا فلا بد من قرون تبت فيها العلوم ، وتهذب العقول ، وتذلل الشهوات الخصوصية ، وتوسع الأفكار السكائية ، حتى ينشأ في البلاد ما يسمى بالرأي العمومي ، فعند ذلك يحسن لها ما يحسن لأمریکيا

ويأعجباً هل الشخص الذي توارث العوائد عن آبائه وأجداده ، ومرن عليها من مهده إلى كهولته ، وتعود تفويض مصالحته إلى إرادة غيره ، يصح أن يطلب منه في زمان واحد خلع جميع ذلك ، ويلتمى اليه زمام مصالحته ؟ وهو في جميع عمره لم يفكر فيها ؟ إن هذا الخطأ ظاهر

ولكون أرباب الأفكار من ابرومون أن تكون بلادنا — وهي هي — كبلاد أوروبا — وهي هي — لا ينجحون في مقاصدهم ، ويضرون أنفسهم بذهاب أعابهم ، أدراج الرياح ، ويضرون البلاد بجعل المشروعات فيها على غير أساس صحيح ،

فلا يمر زمن قريب الا وقد بطل المشروع ، ورجع الأمر إلى أسوأ مما كان ، فيفوت الزمان وهم على حالهم القديم ، وكان لهم إمكان أن يكونوا على أحسن منه ، فمن يريد خير البلاد فلا يسعى إلا في إتقان التربية ، وبعد ذلك يأتي له جميع ما يطلبه إن كان طالباً حقاً بدون اتعاب فكر ، ولا اجتهاد نفس . وفي الكلام بقية أذكرها فيما بعد هذا العدد

المقالة الثامنة عشرة

كدم في خطأ المقبره

(٢)

تولى أمر هذه البلاد (المصرية) أناس في أزمنة مختلفة ، تظاهر كل منهم بأنه يريد تقدمها ونقلها من حالة الهمجية (على ما يزعم) إلى حالة التمدن التي عليها أبناء الأمم المتعدنة ، وجعلوا الوسيلة إلى ذلك أن تنقل عادات أولئك الأمم المتمدنين وأفكارهم وأطوارهم إلى هذه البلاد ، وظنوا أن تقليدنا لعاداتهم ، وأخذنا الآن بأفكارهم اليومية ، وتشبهنا بهم في الأطوار ، كاف في أن نكون مثلهم ، وأن استلامنا لتلك العادات وتلقينا لتلك الأفكار أمر غير عسير لم ينظروا في الاسباب والوسائل التي توصل بها أولئك الأمم إلى هذه الحال التي هم عليها حتى يعتدوا مثلها أو قريباً منها لترقي هذه البلاد ، بل ظنوا أن هذه الغاية من الممكن أن تكون بداية ، مع أن ما نرى عليه جيراننا من الممالك الغربية لم يصلوا إليه الا بعد معاناة آتاعاب ، ومقاساة مشاق ، وسفك دماء شريفة ، وثل عروش ملك رفيعة ، وكانوا في كل ذلك يقربون من المتصودنارة ، ويبعدون عنه أخرى ، كما يرشدنا إليه تاريخهم ، حتى بدلت الحوادث الدهرية

طبائع الأهالي ، وغيرت أخلاقهم ، ونهبت الضرورات أفكارهم ، وهذبت
المخاطبات الجهادية والتجارية تقو لهم

إن بداية تقدم الأوربي في الحقيقة كان في نفوس الأهالي وأفراد الرعايا ؛
علمتهم الحروب الصليبية سير البر والبحر ، وخالطوا فيها الأمم الشرقية أجيالاً
وطمعت أنظارهم لمغالبتهم ، فدققوا في سبب قوة الشرقيين (التي كانت لهم إذ
ذاك) وبخثوا في أحوالهم فرأوا لهم عادات جميلة ، وفيما بينهم أفكار سامية ،
ورأوا في دوائر أعمالهم اتساعاً ، وأيدي الصناعة والاكتساب مطلقة الحرية .
ولذلك كان الغنى والعز مستوكراً أقطارهم ، فأخذ أهالي أوروبا عند ذلك في
تقليدهم ، لا في البهارج والزخارف ، بل في أسبابها والموصلات إليها ، وهي
توسيع نطاق الصناعة والتجارة ونحرهما من وجوه الكسب ، فكان ذلك أساساً
للعمل ، وقر في النفوس ، وثبت في العقول ، وبنوا عليه ماشاءوا

ولو تأملنا تاريخ سير التقدم الأوربي لرأينا أسباب التقدم بجمعها سبب واحد ،
وهو إحساس نفوس الأهالي بالآلام صعبة الاحتمال من ظلم الأشراف (النبلاء) وغدر
الملوك ، وضيق وجوه الاكتساب ، ونقرة دينية (١) على المسلمين الذين استولوا
على حرمهم المقدس . وهذا الاحساس هو الذي دعا الأتلف الكثر العدد
إلى الخروج من هذه الآلام ، فطلبوا لذلك أسباباً متنوعة ، أتواها التعاضد
والتعاون على ترويح وسائل الكسب ، وافتتاح أبواب الرزق ، فكانت تعقد
لذلك المحالفات والمعاهدات ، وتتألف له الجمعيات ، فكان جرثومة تقدمهم أمراً
منبثاً في غالب الأفراد ، ومحرزاً في أغلب العقول ، وهو نشاط الأهالي في
اجتلاب الثروة ، وطلبهم لحرية العمل لينالوها ، ورفضهم لتلك التقيدات التي
كانت تمنعهم من طلب حقوقهم الطبيعية ، ثم تدرجوا فيه ، ينتقلون من حال إلى

(١) النقرة بالضم من نقر « كضرب » نقرأ « كقعد » نقوراً يتعدى بمن إذا
كان بمعنى الاعراض والانتقاض كسفرت المرأتان زجرها والاسم النقر - وبالي إذا
كان بمعنى النهوض إلى الزحف للقتال . فقوله النقرة على المسلمين إنما اصله من المسلمين
او محرف في الطبع عن النقرة بالعين المهملة وهي بضم النون وبالفتح مالهعجب
والكبرياء في النفس من الشموذ

حال والأصل ثابت لا يتغير - حتى عم التغيير جميع العوائد والمشارب والقوانين . ولم يكن ذلك كله الا من حرص الأهالي أنفسهم على الخروج من الآلام التي كانوا يشعرون بها في كل لحظة من حياتهم ، ويتوارث هذا الشعور وذلك الحرص أبنائهم من بعدهم

أما عقلاؤنا فقد وجهوا نظرهم الى حالة التمدن الحاضرة والاهالي على غير علم منها بأنفسهم ، فاستلقتهم العقلاء اليها لكن لا بتحريك غيرتهم الى العمل اختياراً أو أبنائهم اليه اضطراراً وتسهيل الطرق لهم حتى يسير من جميع عناصر البلاد وطبقاتها أشخاص مختلفون في الافكار والأحوال إلى تلك البلاد المتمدنة ويشهدوا عاداتها وأحوالها ويهتم العقلاء منهم بالبحث عن أسباب السعادة وموجبات الشقاء اهتمام المضطر الذي يطلب خلاص نفسه من هلاك يتوقعه ، بل جلبوا اليهم كثير من أبناء تلك البلاد تظهر عليهم الرفاهية ، وترى عليهم آثار النعمة ، يتكلمون بما لا يفهمهم ، ويتفكرون فيما لا يعقل ، فسادوا بيننا أبنية وزينوها بما لم نكن نعهده من أنواع الزينة ، وجلبوا الينا من مصنوعاتهم ماراتق منظره ، وطاب مخبره ، لكننا لم نشهد مصنعه ، ولم ندر منبعه ، ورأيناهم يزينون بهذه اللطائف التي تذهب الحزن وتشرح الخواطر ، ويتنافسون فيها ، فأعجبنا حالهم هذه وقال لنا العقلاء كونوا مثلهم ، والحقوا بهم في هذه السعادة ، ثم صاروا أئمة لنا في العمل ، فأخذنا ننسبه بهم ، لكن فيما رأينا ، وهو الزينة والبهجة غير باحثين عن كون ذلك هو الذي نلحقنا بهم في الحقيقة أم لا

ومن ذلك ترى أفكار الغالب مناداً بما يجد فرصة الاقتدار موجهة إلى تشييد الأبنية وتجويد وضعها ، وإتقان ترتيبها وتزيين باطنها وظواهرها ، والتوسع في لوازم الماء كل والمشارب وآلاتها وأوانها ، والتفنن فيها ، وجلب ما هو أعلى ثمنا وأدخل في النظر وأجلب للأنس ، والأناق في الملابس ومحاذاة الأوربيين فيها ، ومحاولة ان تكون على النمط الأعلى عندهم ، وعلى هذا النحو تفننا في أنواع المفروشات وتأتقنا في اقتنائها من أنواع مختلفة مما غلا ثمنه ، وارتفعت عن الطاقة قيمه ، وتنافسنا في ذلك كتنافس أسلافنا في افتتاح البلاد

وتملك الحصون ، وبالجملة فقد سلكتنا مسالك المتمدنين في ثمرات تمدنهم التي جعلوها من زواهدهم ، فأسرفنا في الانفاق ، وصار الناظر للملابسنا ومساكننا ، والمذايق لمطاعمنا ومشاربنا ، يشهد بأننا في ذلك بحمد الله متمدون فقد اشتراكنا معهم في ثمرات التمدن ، أي ما ينتهي إليه حال المتمدن من طلبه للتمتع بالذائد وركونه لترويح النفس وتخفيف أتعابها

لكن من تأمل حقيقة الأمر علم ان مثلنا في ذلك كمثل الدجاجة رأت ان الأوزة تبيض بيضا كبيرا فطلبت ان تبيض مثلها فأجهدت نفسها في أن يكون ذلك غير عارفة ان ذلك لا يكون الا باستعداد (أي بأن تكون أوزة) فحسبت نفسها واستعملت قوتها الدافعة حتى انشقت منها ما انشقت ، وتمزقت منها ما تمزقت ، فان افراطنا في تقليد الأوربيين ومجاراتهم في عاداتهم التي نظمتها فوق عاداتنا البسيطة فعل في نفوس غالب الأغنياء منافع لا غريباً صرف نظرهم الى المذايد واستكمال لوازم الترف والنعيم ، وأحدث في نفوسهم غفلة عما يحفظ ذلك عليهم بل يوجب ازدياده لديهم وهو الوقوف على الطريق المستقيم الموصل الى اكتساب المجد الحقيقي والشرف الذاتي الذي يتبعه الغنى والثروة والراحة المستتعبة للذة الحقيقية والنعيم الباقي في الحياة وبعدها ومن هذه الجهة (جهة الغفلة عن روح الثروة وحياتها وهو التمدن الحقيقي أعني الاحساس بوجوده اللذائذ والآلام والتشط في طلب وجوه الكسب المتنوعة وطلب الأمانة على تلك الوجوه ومراعاة الحقوق والواجبات الطبيعية والشرعية) فارقوا الأمم المتمدنة فصح ان يطلق عليهم أنهم في غاية التمدن مع انهم إما في بدايته وإما قبلها بكثير ، وحق لهم ذلك فانهم رأوا أبواب اللذات مفتحة قبل أن يجدوا عقلاً يقدر لهم ما يلزم منها وما لا يلزم

كل ذلك نشأ من جلب تلك العوائد الترفهية إلى بلادنا وطلب التحلي بها بدون ان نحوز ما يوصلنا اليها من أنفسنا وليتنا قبل أن نشيد بيوتنا بالارتفاع الشاهق والترتيب المحكم ، ونزيمها بأنواع النقوش والفرش والاثانات ، أبقيناها على بساطتها ، وشيدنا في عقولنا الهمم الرفيعة والحمية التي لا تمتد اليها الأيدي ، وأحكمتنا طرق سيرنا في حفظ حقوقنا ، ورتبنا في مداركنا جميع الوسائل والمعدات التي تحفظ

علينا ما وجدنا ، وتجدب الينا ما فقدنا ، وزينا نفوسنا بالفضائل الانسانية والشرعية من رحمة بالضعفاء ، ورفق بالمهوفين ، وغيره على البلاد ، وأنفة عن الصغار
 لعمر الله لو قدمنا هذه الزينة الجوهريّة على ذلك الروتق الصوري لكان العالم بأسره ينظر الينا نظر الراهب الخائف ، أو يرمقنا بلحظ المعظم المبجل ، وكانت معيشتنا البسيطة أوقع في نفسه من معيشته الرفيعة ، وكان ذلك سهلا لو ان الزاعمين فينا حب الترقى والتقدم ساروا بنا من البدايات ، وحجبونا عن النهايات ، حتى لانراها إلا من أنفسنا فنطلبها لا لأنها أعجبت النظر ، ولكن لأنها بنت الفكر وتنتيجته ، وكانوا يعلموننا محاذاة المتمدنين في أصول أعمالهم ، لافي زوايدها ، فكنا بذلك نصل الى ما وصلوا اليه في زمن أقل بكثير من الزمن الذي نالوا فيه ما نالوا ، لكن ما فات الوقت ونحن الآن فيه ، فعلينا بالعمل ، غير مقتصرين على مجرد الأمل

المقالة التاسعة عشرة

تقدم في خطأ المفرد *

(٣)

لسنا ننكر ان بلادنا كانت في الأزمان السابقة تحت تصرف أقوام خشين لا يعلمون للخلقة غاية إلا وجودهم الشريف ، وكانوا يعدون أفراد الأهل انعاماً خلقت لهم يستعملونها كيف يريدون (كما كان ذلك شأن سائر الأمم غريسة وشرقية) فارغوا أنف الطبيعة ومحو آثار الالهام الفطري الذي وضعه الله في نفوس عباده لفهم منافعهم ومضارهم حيث وقفوا سداً حصينا بين كل شخص ومنافعه ، فاستأثروا بجميع ثمرات الأعمال ، فلا يعمل العامل وله أمل بأن يجني ثمرة عمله ، فانه عندما تبدو الثمرة يسرع حاكمه الى قطعها ، وكانت حياته معتودة بغضب ذاك الحماكم ورضاء ، فان رضي عنه فهو في أمن عليها ، وان غضب عليه فهو

ان عاش كريض بلغ به المرض غايته ينتظر الموت في كل لحظة ، فيكون في حالة تسليم مطلق (خائف على حياته مستسلم لتضاء حاكمه) وبالجملة لم يكن لأحد من الأهالي حركة اختيارية ناشئة عن فكره الخاص به في تحصيل منفعة أو درء مضرة ، بل كانت أعماله تابعة لارادة سيده الحاكم ، وكان يعتقد أنه وما ملكت يده حل الأمر عليه ، وليس لتصرف ذلك الأمر حدي يجب ان ينتهي اليه ، وهذه حالة يصعبها تاريخ هذه البلاد أجيالا كثيرة إذا استرسلنا في طلب مبدئها قد نصل اليه وقد لانصل ، وبذلك الاسترقاق الظاهري والباطني فنية الارادة ، ومات الاختيار ، وطفئ نور الفكر بالمرّة

وكان من جملة التقييدات العنيفة التي وضعها أولئك المتسلطون الحجر على أهالي المدن وغيرها في الأعمال والأقوال الشخصية ، حتى كانوا من شدة التضييق ، يستعملون طريقة يقال لها الكبسة وهو : أن يهجم رجال الضابطة على بعض الأماكن ليلا ليقبضوا على من يظن بهم الاجتماع على فسق ، كفحش بالنساء ، أو شرب المسكرات وما شا كل هذا ، فان وجدوا شيئا من ذلك ساقوا من بجدونه الى حيث يستوفي عقابا ألما . وكذلك وضعوا في الأقواء بلأمام من الرهبة ، فلا يكاد ينطق النالق بكلمة في مطلب علمي ، أو تجادل في حال شخص الا ويرمي بكفر وزندقة ، أو طعن في حاكم ، وله عند ذلك الويل الذي لا مخلص منه ، كل ذلك سمعنا بعضه بالنقل ورأينا بعضه الآخر بالعيان فذلك كانت حالة تعيسة يجب على عقلائنا أن ينتحلوا كل وسوة لتخليص رقاب العباد منها ، فرزق الله هذه البلاد بأناس خالطوا الأئم المتمدنة ، وطالعوا أحوالها ، ورأوا ما عليه أهلها من إطلاق الارادة وحرية الاختيار ، فطلبوا لبلادنا أن تكون في أحوال أهلها الشخصية على مثال سكان تلك البلاد المتمدنة ، لكنهم أول ما بدأوا به أن أباحوا (ما أقبحها من إباحة) لكل شخص أن يعمل فيما يخص نفسه بإرادته ، ويتكلم فيما هو مقصود على ذاته بمتقضى فكره ، وشرطوا في ذلك شرطا (ما أنفسه من شرط) وهو أن تكون تلك الأعمال والأقوال غير متعلقة بارتباطاته مع حاكمه ، فان كانت كذلك فدونها ضرب

الرقاب ، أو سكن الجبوس ، أو الجلاء عن الأوطان ، وسموا تلك الاباحة حرية ، ونادوا بها على الألسنة الظالمة ، فكان حاصل تلك الحرية أن لاجنح على من ارتكب أي جريمة ، وتطبع بأي خلق ، حسناً كان أو سيئاً ، وذهب الى اي مذهب ، صحيحاً كان أو فاسداً ، وإنما عليه أن يكون تحت أمر الحاكم ليس له حق في أن يمنع عنه مطلوباً ، أو يستقضي منه مسلوباً أياً كان ، فلم يجعلوا للسلطة حداً معيناً ، وهو الذي نسميه بالقانون ، الذي يعرفه كل أحد فيقف عنده ، بل أبقوها على ما كانت عليه ، وجعلوا تلك الحرية غطاءً على هذا الاستعباد ، فهم في الحقيقة لم يقلدوا الامم المتمدنة في إطلاق الارادة من جهة الارتباطات العمومية الثابتة ، فهذا خطأ من وجه إن كان لهم مقصد إصلاح ، وظلم إن كانوا متعمدين هذا التقييد ،

ثم إنهم قلدها في الأحوال الجزئية الشخصية ، مع أنهم لم يهتموا بالبلاذغير معتادة على مثل هذه الحرية فيها ، فلذلك اندفعت الناس الى انتهاب الشهوات ، وهتكوا حرمة الوقار ، وتهالكوا على شرب المسكرات في بلادنا الحارة الى الحد الذي لا يبلغه إلا الأوربيون في بلادهم الباردة ، وكثرت لذلك الخانات ومخازن الشراب المهلك للعقول والأبدان ، ثم تولعوا بما يتبع السكر من الههو واللعب ، وتنافسوا في الحظوة عند النساء الباغيات ، واتسع الأمر في ذلك حتى صارت المداعبة والملاعبة بين النساء والرجال في الطرق والشوارع ، وتعدى ذلك المرض المعدي الى الحرائر فنذهب الكثير منهن الى حيث يبتغين ، واقتضحت بذلك بيوت شريفة ، وكلما طلبت لذلك منعاً ، أو رمت له دفعاً . قال المولع : هذه حرية ، فضاع شأن الآداب ، وانحطت قيمة الشرف والوقار ، حيث أصبح أبناء الاغنياء وذوي المقامات يتسابقون الى التهور في هذه الأحوال الرديئة ، ويدعون اليها من دونهم ومن فوقهم (الا قليلا) ويصرفون فيها مالا يقدر من النقود (وسأجعل لذلك موضوعاً خاصاً) وكاد فساد الأخلاق يسري الى كثير من طبقات الأهالي — هذه نتائج حرية ذلك العمل

وأما نتائج حرية الفكر (التي يزعمونها) فكانت خاصة بالاعتقادات

والمشارب الدينية ، فأخذ كثير من الناس يجهر بين العامة بألفاظ تناقض دينه الذي ولد فيه . فان قيل له : خفض من صوتك ، وأجل في قولك ، فما كل الناس يرضاه ، قال : إننا في زمان الحرية . على أن أفكاره التي يذهب إليها في مخالفة دينه ليست بأفكار مرتبة مبنية على مبادئ ، ربما يقال إنه اتخذها مشرباً ، بل ألفاظ حفظها من معاشره لو سئل عن معناها أو طلب منه أي وهم ساقه إليها لعجز عن التعبير ، والتجأ الى التهوس ، ورمى من يخاطبه بالبهل والحشونة حيث لم يوافق على مشربه الفاسد . ثم يتخذ هذه الخزعبلات الاعتقادية التي يظنها تنوراً وتبصراً ، ذريعة لاستباحة القبائح ، واستحلال المحظورات . ولقد رأيت شخصاً ينكر ألوهية الخالق والعباد بالله ثم يسأل عن حكمة المعراج ! ومنهم من ينكر النبوات ، ويعتقد بالشياطين ! وما أشبه ذلك . فهؤلاء من الجهل بمكان لا يعلمون فيه حيوان فضلاً عن إنسان

فهذه الحرية البتراء التي رمانا بها عقلاؤنا لم تدع لها أثراً يحمد . وإن كان الأورباويون يحرصون عليها ، فان استعداد بلادنا لم يكن ملائماً لمثل هذا الاطلاق، الذي هو في الحقيقة عين الرق والاستعباد . فان الجاهل الذي لم يتعود على تصريف إرادته وأعمال اختياره إذا أطلق له العمل وقع في أشد من الرق وأضر من العبودية . نعم إنه عتق من أسر الضابطة وغل الجزاء (١) ولكن شهوراته الخبيثة تبعه بأبخس الأثمان الى الاسراف والبطالة والكسل ، وجميع أنواع الشرور ، وتودعه سجن الفقر ، وتغله بطوق الذل والمار . وباليتسه بقي تحت سيادة القانون يسوسه حتى في أعماله الشخصية . فالكبسة على ما كان فيها من الخطر على الأنفس والأموال وشناعة الصورة لو أحسن فيها القصد لكانت أولى وأفضل الى زمن تتقدم فيه التربية ، فيكون لكل شخص زاجر من نفسه ، فترتفع الكبسة بذاتها ، ويذهب الناس أحراراً بطبعهم ، وما كان ذلك بعسروا محتاج الى زمن طويل . وما ضرنا الا التقليد على غير تبصر بحال البلاد واستعدادها فتلك الحرية التي سموها إطلاق الفكر قد عتقت صاحبها من قيد العقل

«١» المراد بالضابطة شه طة الحكومة وبالجزء عقوبتها

وأسلمته الى الجهل الأعمى ، فهو يتصرف به كيف ما يقتضي من المضرات ، ولو أنه بقي تحت سيادة العقل ، يسوسه المهذبون ، ويقوده المتبصرون ، حتى يعلم من أين تؤتى الأفكار ، وبأي الوسائل يوفى العقل حظوظه الحقيقية - لكان ذلك خيراً وأبقى ، ولم يكن يحتاج الا لتخفيف يسير في شناعات المتعصين ، وتعيين دائرة منتظمة ، يردد الكلام بين محيطها الى زمن معين حتى تستقيم العقول ، فتضرب لنفسها حداً تقف عنده ، ولكننا طلبنا أن نكون على مثال الأوربيين في عواندهم حتى المضرة بأخلاقنا وأعمالنا وأفكارنا

وباليت العقلاء منا في الزمن السابق اقتدوا بالبلاد المتمدنة في الأزمان السابقة عند إرادتهم تأييد الاستقلال حقيقة ، حيث بدأوا بالمجالس البلدية ، فكان يمكنهم أن يصنعوا لأهل البلاد قانوناً بسيطاً ينطبق على عواندهم وأحوالهم ويقرب فهمه من إدراكهم ، ثم يفوض الى أهل كل بلد أن تنتخب منها عدداً معيناً ليقوم بالفصل بينهم على مقتضى هذا القانون ، ثم يصنعوا مثل ذلك في المدن على حسبها ، ويذهب أشخاص من العارفين الى القرى والمدن ، ليفهموا أحوالكم مواد القانون السهل البسيط ، ويدربوهم على كيفية العمل به ، ثم لا يزالوا على المراقبة أزماناً ، فلا تمضي مدة حتى يكون جميع الأهالي عالمين بما يجب عليهم ولهم ، فتنمو فيهم القوة ، وتحيا فيهم روح الاختيار كما كانت عليه الجمعيات ببلاد ايطاليا وفرنسا وغيرها في مبدأ تمدنها ، ثم يتدرجوا في القوانين الى أرقى مما وضعوا أولاً مع تفهيمه وتعليمه لجمهور الأهالي ليعلموه فيقفوا عند حده وكان في ذلك غنية عن القوانين الضخمة التي لا يفهمها إلا الراسخون في العلم ، وهي محفوظه بين دفات الكتب وصدور بعض من النباه ، لكن الاهالي أنفسهم الذين قد وضعوا هذه القوانين لهم غير عالمين بها ، فكيف يطلب منهم أن يعملوا بمقتضاها ؟ (إن هذا شيء ، محجّب) ! غير أن العقلاء منا يقولون : لا بد أن نكون مماثلين لأوربا في القوانين والعادات رغمًا عن الحق الذي يقضي علينا بأن نكون خاضعين لأحكام بقعتنا ، وما تقتضيه طبيعة موقعنا الذي نشأنا فيه ، ولن يكون ذلك أبداً

وأنا نخشى لو تمادينا في هذا التقليد الأعمى، واستمر بنا الأخذ بالتهابات الزائدة قبل البدايات الضرورية الواجبة أن تموت فينا أخلاقنا وعاداتنا، وأن يكون انتقالنا عنها (لو انتقلنا) على وجه تقليدي أيضاً فلا يفيد، لكن الوقت لم يفت بعد، فعلى من يريد بنا خيراً أن يذهب بنا طريقاً قويمًا، ولا أراه إلا نشر القوانين (وإن كانت طويلة صعبة المنال في وقتنا هذا، وما لا يدرك كله لا يترك كله) (١) إنما لا يكتفي بنشرها على لسان الجرائد، فإن قارئها قليل، ولا يارسال المنشورات الى عمد البلاد، فإن كثيراً منهم قلما يفهم اذا قرأ، ولكن لابد من تشكيل جمعيات في القرى والمدن لتفاهم القوانين واللوائح والمنشورات والاضاعت المحقوق، وكثرت المشاكل، وصعب كبح صغار المأمورين عن الاجراءات المضرة بالحكومة والاهالي معاً. ثم وضع حدود قويمة للأعمال الشخصية والأخلاق والتصرفات، فإن إصلاح الأخلاق والأفكار والأعمال من أهم واجبات البلاد، وبدونه لا يمكن إصلاح شيء من أمورها، وليس بجائز أن يجعل في درجة أقل من درجة قوانين حفظ الضبط والربط ومركز النظر في جميع ذلك نبهاء البلاد وذوو الشأن فيها، فعليهم إن كانوا صادقين في الوطنية أن يبذلوا الجهد في طلب ذلك، والقيام بما يلزم، وإلا فانهم مقلدون فقط والله أعلم

(١) المنقول المحفوظ: ما لا يدرك كله، لا يترك كله.

المقالة العشرون

ابطال البرع منه نظارة الاوقاف العمومية *

عرض الى نظارة الاوقاف العمومية من شيخ خدمة مسجد سيدنا الحسين رضي الله عنه في تاريخ ٣ ذي القعدة ما مفاده: أن مجلس ذكر السعدية الذي يعقد بذلك المسجد في كل يوم ثلاثاء لا يذكر فيه اسم الله الا مصحوبا بضرب الباز (نوع من الطبل ذي الصوت المزعج معروف) ولما في ذلك من تشويش الأسماع ، نبهنا عليه مراراً بابطال هذه العادة وأن يذكروا الله ذكراً مجرداً عن الطبل فلم تثمر التنيهات أدنى ثمرة ، وحيث إن الزائرين لضريح الامام الحسين وطلبة العلم وجها اللوم والاعتراض على هذه العادة يقولون : إنها من المحرمات شرعاً ، ويجب على الحاكم منعها بموجب صدور الأمر بابطاله ، فكتب من نظارة الاوقاف العمومية الى حضرة فضيلتو شيخ الجامع الازهر ومفتي الديار المصرية ما معناه :

قد تبين من إفادة شيخ خدمة مسجد سيدنا الحسين ما ذكر فيها، وحيث إن النظر في ذلك مختص بسيادتكم بعنايتها اليكم لإفادة الحكم الشرعي فيها . فوردت إفادة حضرة الاستاذ شيخ الجامع الازهر ومفتي الديار المصرية الى ديوان الاوقاف ناطقة بأن ضرب طبل الباز (أي ونحوه) في المساجد مما لا يسوغ شرعاً على ديوان الاوقاف أن يتخذ الطرق لمنعه ، ثم زاد حضرة الاستاذ في حاشية وقيمه أن ذلك ليس مختصاً بالباز ، بل هو عام في كل ما أوجب تشويشاً على المصلين حتى صرح أئمة العلماء بأنه يحرم رفع الصوت بذكر الله في المسجد اذا ترتب عليه التشويش . وكذلك كل ما ترتب عليه اجتماع من لا يليق اجتماعه بالمسجد كاختلاط الفتيان بالفتيات ومزاحمتهم ومكاتفهم . معهن في المساجد المحترمة .

فصدر أمر نظارة الاوقاف الى مأموري أوقاف المحروسة بالزام كل مأمور بمنع وقوع مثل ذلك في المساجد التابعة لتسمه ، وأرسلت الى كل منهم صورة الافتاء المحرر من قبل حضرة شيخ الجامع الازهر ونهت عليهم بالاطلاع عليه ، وفهم مأودعه من الحكم الشرعي والسير على مقتضاه ، وأخذت التمهيدات القوية على خدمة المساجد وأم المراقبة والتبليغ لمنع أي لفظ يوجب تشويشاً على المصلين ، أو اخلالاً بجمرة المساجد اتباعاً لنصوص الشريعة الغراء أه

وهذه طلائع خير تبشرنا بحياة الشريعة الحقة والسنة القوية ، وباتتصار جيش نور الهدى على كتائب ظلم البدع والضلالة ، إذ وجه أولوا الامر مناظرهم الى تخفيض شأن البدع وإزالتها . فلنشكر همة سعادتلو ناظر الاوقاف العمومية على عنايته بشأن الشرع الشريف واهتمامه باحترام أماكن العبادة وصيانتها عن وقوع اللهو وسوء الافعال . ونثني كل اثناء على حضرة سيادتلو شيخ الجامع الازهر ومفتي الديار المصرية الذي لاتأخذه في الحق لومة لائم ، ولايبالي في نصرة دين الله بكثرة عدد الجاهلين . فلقد نسمع بعضاً من الجاهلة بل عدداً وافر منهم يقول هذه سنة وجدنا عليها آبائنا ، وأخذ اليهود علينا باتباعها أشياءنا ، وطبعت على حبها قلوبنا ، وتمرت على القيام بها أعضاءنا . فكيف يصح أن يحكم علينا بتركها، إن هذا شيء عجيب : تلك حججهم الواهية كحجج غيرهم من المبتدئين يهدرون دم الشريعة طوعاً لأغراضهم وتنفيذاً لأحكام عاداتهم ولبئس ما كانوا يصنعون، ويأبى الله الا أن يحق الحق على يد نصرائه الذين يفضلون تأييده على مدحة تصدر من جاهل لاتغني من الجاه شيئاً

ولا يتوهمن مطلع على أمر نظارة الاوقاف أن المنع خاص بالباز وطريقة السعدية ، أو بالطبل على العموم ، بل هو صريح في عموم كل فعل يوجب تشويشاً على مصل أو اخلالاً بجمرة مسجد ، فيدخل في المنع طريقة المغاربة المنسوبة للسيد عبد السلام الاسمر (كذباً واقتراء) ومن شعائر أبناء تلك الطريقة اتخاذ طبول متنوعة ، بعضها مستطيل على شكل المدفع يحملونه على أعناقهم وقت الذكر وله صوت أشبه بصوت المدفع أيضاً ، وبعضها مستدير (يعرف بالطار) الا أنه كبير

ينشأ من ضربه صوت عنيف يصم الآذان ، ولا يسمعون للذكر الا وفي مركز دائرتهم موقد نار ليشدوا عليها جلد الطبل لتزداد ضخامة الصوت . فاذا قاموا الى الذكر غصوا شناعة أصوات الطبول الكثيرة بضجرتهم المزججة بجأرون بألفاظ لامدلول لها ، وعند ما يشتد نحر الاوهام في عقولهم يهيمون هيام المعاتيه ، ويتجرد البعض منهم عن ثيابه ، يأخذ جذوات من النار ويدخلها في فيه ويلامس بها بدنه إظهاراً للكرامة وحاشا أن تكون — من الكرامة — كل ذلك مع حركات شديدة واختباط غريب . ومن عاداتهم أن يأتوا بمثل هذا العمل في مسجد سيدنا الحسين بمولده ، فيجتمع عليهم الناس ، ويزدحم المتفرجون ، ويشوشون أذهان الزائرين . وهذا حظهم ولا يعلم أية سنة تبيح أمثال هذه المنكرات التي يجريها الجهلة في بيوت الله العظمة ، ولا يخرجهم من حكم المنع أيضاً ما يفعله من نحو ذلك بأضرحه الاولياء رضي الله عنهم وإن لم تكن مساجد لمنافاتها الأدب الواجب في حقهم . على أن الشريعة المطهرة مانعة من أن يقرن ذكر الله بالآلات لهو على العموم بدون استثناء ، خصوصاً وأنه لا يشك عاقل في أن قصدهم بضرب الطبول وتوقيع الذكر على نغماتها إنما هو اللهو والطرب المنوعان شرعاً يرشد لذلك تضاحكهم وتلاعبهم في نفس محافلهم الموقرة ، ونهاقتهم فيها على مالا يليق بشأن العبادة ، ولو كلف أحدهم أن يهتف بذكر الله مرة ، وهو وحده لم تسمح نفسه بذلك ، ولكن يحركه الى هذا الذي يسميه ذكراً حب الطرب والميل الى اللعب وأقبح شيء في هذا الباب اعتقادهم أن طاعة شهوراتهم هذه طاعة الله نعوذ بالله من الزينغ . ولا ريب أن علمائنا رفع الله قدرهم سيفرحون بمنع هذه البدع فرحاً شديداً ويرجون من عدالة الحكومة إزالة أمثالها مما تنكره نصوص الشرع ، ويعاب على العقول السليمة أن تقره ، ويشمل حكم المنع أيضاً الازدحامات التي تكون بالمساجد الشهيرة في أيام تعرف بالحضرات كيومي الأحد والاربعاء بمسجد السيدة زينب ويومي السبت والثلاثاء ويوم عاشوراء بمسجد سيدنا الحسين ، إذ يختلط فيه النساء والرجال على هيئة ينكرها الشرع والطبع جميعاً ، ويجري فيها من الفعال القبيحة مالا يليق ذكره . ولا يدع الازدحام مكاناً لمصل يصلي فيه ، ولئن وجد المكان

فقلما يستطيع أداء الاركان بدون تشويش فيها . فهذا الأمر الذي أصدرته نظارة الاوقاف متبعة فيه افتاء شيخ الاسلام حفظه الله يعتبر أساساً جليلاً لمنع كثير من البدع ، وقد فتج به باب من الخير لا بد من الوصول الى غايته إن شاء الله وسيسري ذلك من الناهرة الى بلاد الارياف ، فعلى الناهجين لطرق البدعة أن يعدلوا عنها قبل أن تمسهم يد الحق فيجبرون على العدول غير مشكورين (يقول جامع الكتاب) كان الاستاذ رحمه الله يسعى لدى الحكومة بابطال هذه البدع والمنكرات ولطلب الفتاوى التي يعتمد عليها . ثم ينوه بذلك في الجريدة الرسمية ويمدح العاملين

المقالة الحادية والعشرون

نفي رسمي *

بطلان الدوسة

أطلقنا في بعض أعداد جريدتنا السابقة من عهد قريب (١) لسان الشكر والثناء للجناب الخديوي وهيئة الحكومة المصرية الحاضرة وللسيد البكري على عنايتهم بابطال بدع كثيرة ليست من الدين في شيء ، بل هي مناقضة للدين المحمدي على خط مستقيم . ومن أفضح تلك البدع بدعة الدوسة ، وهي أن ينطرح الناس على الارض مصطفين أحدهم لجنب الآخر ، ثم يعلو أحد المشايخ على ظهورهم بمحصان يدوسهم واحداً بعد واحد حتى ينتهي الى آخرهم ، وهم مسلمون من أهل الايمان قد أمر الله بتكريمهم وحرم إهانتهم إلا لحد أو تعزير شرعي ، بل قد نطق الكتاب العزيز بتكريم نبي آدم على سائر الحيوانات مطلقاً . فكيف بالمؤمنين وهم أشرف هذا النوع ، وقد جعلهم الله في الدرجة الثالثة من عزته

* نشرت في العدد ١٠٣٨ الصادر في ١٦ ربيع الآخر سنة ١٢٩٨
 (١) كتب ذلك في عدد ١٠٣٥ الصادر في ١٣ ربيع الاول اذ ذكر أبطال الدوسة من حفلة المولد النبوي وكان قد مهد لمثل ذلك وسعى له سعيه

سبحانه وتعالى يقال : (والله العزة ورسوله وللمؤمنين) فهل يليق بعد هذا أن يطرح المؤمن الشريف مهانا على التراب ليطأه حافر من البهم ، وقد نهت الشريعة الغراء عن إهانة أجساد الاموات فضلا عن الاحياء

وانا لتعلم علم اليقين ان حضرة مولانا (سيادتو) شيخ الجامع الازهر ومفتي الديار المصرية قد وقع لديه هذا الأمر — أعني ابطال الدوسة — موقع الاستحسان لعله أنها كانت من المنكرات الشرعية ، وكان يتمنى التفتت الحكومة الى ابطالها وهو متشكر من الحكومة التي أقرت السيد البكري على إزالتها ، ولما عاد الجنب الخديوي للمذاكرة معه في هذا الشأن بّين حفظه الله ما في هذه البدعة من المحظورات الشرعية كاهانة المؤمنين والتعرض للخطر فانه لا يؤمن أن تفلت رجل الحيوان الضخم كالحصان الذي يركبه الشيخ للدوسة قترض عضواً يابساً أو تبتك عضواً رخواً ويكون فيه تلف المصاب ، وان التعرض للخطر من المحظورات الشرعية المحرمة الارتكاب ، فأمره الجنب الخديوي أن ينبه على بعض المشايخ ليعينوا ذلك للعامة ، حتى يقتنعوا بجرمة هذه البدعة ، وقد نبه سيادته على كثير من الوعاظ والمدرسين ، وأوعز اليهم أن يشرحوا للعامة حقيقة الأمر ، ووقفوهم على ان أمثال هذه البدع مما لا أصل له في الدين (على ان أصل الدوسة فيما تقول العامة كانت كرامة للشيخ يونس بأن يدوس حصانه على آنية من الزجاج ولا تنكسر ، وهي مرة واحدة ، فكيف تبدل الزجاج بالانسان ، وصارت عادة مستمرة؟ نعوذ بالله)

وكذلك سرّ كل السرور بذلك حضرات العلماء الأعلام أيدهم الله ، فانهم متضلعون من الأدلة العقلية والعقلية الناطقة بفضل المؤمنين وتحريم امتهاتهم خصوصاً ، وان الدوسة وأمثالها من البدع لم يرد لها نوع مشابه ولا مماثل في السنة النبوية الغراء حتى يلتبس أحد موافقتها للشرع ولو بطريق التشبيه على بعد . وأما دعوى انها من الكرامات فهي باطلة عند أهل السنة والجماعة ، فانهم نصوا في كتب التوحيد على ان من شروط الكرامة ان لا تصير عادة يتعاطاها من يريد اظهارها على حسب إرادته فان صارت كذلك كأكل النار وضرب السلاح والدوسة

ونحوها التي يتعاطاها كل من (يأخذ عهداً على طريقة الرفاعي أو السعدي) أو (يتولى مشيخة السعدية) أيًا كان فلا تكون من قبيل الكرامة ، بل تعد من الخيل المذمومة ، ومن أجل ذلك قد بادر السيد البكري وساعده أهل الشرع والعقل على ابطال هاته البدع المضرة بالدين والدنيا

فما يتفوه به العامة الجهال الذين لا يعرفون ما الشرع وما الانسانية ، ولا يميزون الحسن والقبیح من ان هذه عادة قديمة ، فكيف يسوغ ابطالها يعد من الهذيان الذي لا طائل تحته ، فان العلماء الشرعيين على العموم شاهدون بأن الدوسة ونحوها من البدع المنكرة فهل يريد الجهال بجهلهم أن يغيروا شرع اللّاه يرومون ان العلماء يتحاشون عن إنكار البدع خوفاً من جهل الجهلاء ؟ أولا يعلم الجاهلون ان مصر بل وغيرها من البلدان قد حدث فيها من البدع المضرة بالدين ما كاد يذهب بهجة الشريعة وأن ذلك كان تبعاً لأهواء الأمراء السالفين ، وان العلماء في الأزمان السابقة كانوا لا يستطيعون إعلان الحقيقة خوفاً من سطوة الظالمين ؛ أما الآن وقد نظر الجناب الخديوي ورجال حكومته إلى الاصول الدينية بعين الاحترام ، فلا يخشى العلماء لومة لائم في إنكار المنكر ، وإقرار المعروف ، فليس على الجاهلين بالأصول الشرعية إلا أن يتعلموا خيراً لهم من ان يصادموا أوامر الدين الحق التي اتفق عليها العلماء ، وغضب اللّاه ورسوله على كل من خالفها ، فان المصائب لم تصب علينا ، ولم تصل أيدي الغدر والفجور البناء ، إلا من يوم نبذ المسلمون أمور دينهم وراءهم ظهرياً ، ولم يلتفتوا إلى حقيقة الشرع ، ولم يقفوا عند حدوده القويمة ، بل زادوا فيه أموراً ظنوها منه ، وهي ليست منه في شيء ، وان بطلان هذه العادة السيئة ليس إلا مفتاحاً لبطلان عادات كثيرة وسنرى البدع الضالالية تبطل شيئاً فشيئاً حتى يرجع الأمر إلى الكتاب والسنة ، ومذاهب الأئمة الراشدين ، هداًنا اللّاه للاقتداء بهم ، وسنعود إلى الكلام في أمثال هاته البدع مراراً أخرى ان شاء اللّاه تعالى

المقالة الثمانية والعشرون

الدوسة (*)

تقدم لنا الكلام على ما يتعلق بهذه العادة المخالفة لأحكام الشريعة ونواميس الطبيعة الانسانية وأظهرنا ما شملنا من الافراح وما عشنا من المسرات عندما توجهت عناية الجناب العالي الخديوي إلى تطهير معالم الدين من دنس البدع ومستقبحات العادات المناهضة لقواعده القويمة الاساس الواضحة البيان واستضاءت بمشكاة نوره عزيمة حضرة الحسيب الاستاذ السيد البكري فاعلن أمره في السنة الاولى من تولية تقابة الأشرف (سنتنا هذه) ببطلان الدوسة وإغايتها كلياً من جميع الموالد والاحتفالات، وقد رأينا بداية اتباع هذا الامر في مولد النبي صلى الله عليه وسلم الذي أقيم في سنتنا الحاضرة في العاصمة وجميع مدن القطر وبنادره. فتيقنا أن جيوش البدع الضالة قد انهزمت طلائعها، وأن أنوار القواعد الشرعية أخذت تسطع في آفاق بلادنا فتطهر مرآة العقل من رجس الخرافات، وتحفظ هيكل الانسان (الذي كرمه الله) من وطئه بمناسم الحيوانات، ورجونا أن يثل عرش كثير من أعمام الجهل وأضلتهم الشهوات

فبينما نحن نستنشق خبراً ينيء بابادة تلك البدعة، او يشعر بزجر أولئك المشعوذين وتأديب المحرفين. إذ سمعنا الآن أن نفرأ من أفواتك العادات استفزتهم مصالحهم الخصوصية، وتحركت حميتهم للمحافظة على عوائدهم البالية، والتمسوا من حضرة الحسيب النسيب السيد البكري أن يبيح لهم إعادة الدوسة في مولد الشيخ يونس المدفون بجهة باب النصر (الذي روي عنه أن الزجاج صرف أمام مناسم حصانه فركبه ومر عليه من غير أن يصاب بكسر أو يعتريه اختلال) محتجين على حضرة السيد المشار اليه في طلبهم هذا بأن الدوسة فضلاً عن أنها

(*) نشرت في العدد ١٠٧٨ الصادر في ٤ جمادى الاولى سنة ١٢٩٨ - ٣ ابريل سنة ١٨٨١

من كرامات أحد الاولياء (الشيخ يونس) فانه عمل بها منذ زمن طويل بمحضر كثير من العلماء الاعلام والسادة الفضلاء ، ولم يبد من واحد من حضراتهم معارضة أو تنديد بها ، ومضت تلك الازمان المديدة عليها ينقلها الخلف عن السلف ، فلا يصح بطلانها الآن اتباعا لسنة الآباء والاجداد ، ومحافضة على العادات والمشارب .

فاسفنا لهذا الخبر ووقفنا نتظر ماسيكون من إجابتهم وترددنا بين أن ندحض مقام بمخيلاتهم من الشبهات التي جسمها لهم حب الصالح الخصوصي ، أو تقتصر على ماثرحنا من ذلك في بعض الاعداد السالفة ، ولكن لعلنا بأن تلك العادة وما شابهها متمكنة في أفكار كثير من العامة وبسطاء الادراك ، فلا بد وأن يكون طلب تلك الفئة ملائماً لمذاق الجاهلين باحكام الشرع منهم ، ترجح عندنا أن نذكر شيئاً مما يتعلق بطلبهم دفعا لاهام بعض العامة الذين ربما يوقرون أولئك البسطاء الملحين على إعادة البدع وإن كنا على يقين من أنهم لا يجابون لما طلبوه فنقول

إذا صح ما عزوه الى الولي الشهير الشيخ يونس من أنه ركب الحصان وداس به على ألواح الزجاج ولم تنكسر ، فذلك كرامة خصه بها المولى عز وجل ، وذلك لا يفيد إباحة الدوسة بمعنى أن تصف الرجال منكين على وجوههم متلاصقي الاكتاف يطأ ظهورها حيوان من العجم لم نشم من سيمته كرامة ، ولم تبيين من حافره منهاج الصالحين ، ويمشي أمامه وخلفه نفر من حاشيته وجم من المتفرجين وكلهم يطؤون بنعالهم أجساماً أعلى قدرها الحق في كتابه العزيز ، ولكن سوت بينها وبين العناصر الصلبة شرذمة الجاهلين ، ولو توسعنا في تلك الرواية غير الموثوق بها ، وقلنا إن ذلك الولي وطأ بمناسم فرسه ظهور الآدميين أيضاً ، ولم يلحظهم من ذلك ضرر ، فهذا إنما كان (لو وقع) إظهاراً لأمر خارق للعادة على يدرجل من المتقين ، ولا يستلزم جواز وطئ أجسام الرجال بجوافر الخيل ونعال العامة من الناس بحيث يكون ذلك عادة يقع في كل زمان ومكان . فانه لا يكون من باب الكرامات في شيء فضلاً عما فيه من انتهاك حرمة الانسان وتعرضه للخطر والمضرات

وأما وقوعها في الازمان السالفة بمحضر العلماء والافاضل بهذه الصفة التي كانت عليها الآن فلا يستدل به على جوازها . وذلك لأن نصوص الشرع الشريف تكلفنا بالنظر في البدع والمستحدثات في الدين من حيث انطباقها وعدمه على المباحات . فان كان وجودها مخالفاً لتلك النصوص (القرآن الشريف والاحاديث الصحيحة وقول الائمة المجتهدين) أو يترتب عليها ما يخالفها كانت من المحرمات ووجب نهى فاعليها مهما طال عليها المدى في أي وقت وأي مكان وسواء نهى عن فعلها العلماء السابقون أو قضت عليهم ظروف أوقاتهم به -مدم إذاعة النهي عنها وإلا فتكون من الملحقات بالمباح

وحيث إن هذه البدعة التي كلامنا الآن فيها (الدوسة) .وجبة لانتهاك حرمة الانسان المنصوص على تكريمه ومظنة للخطر المنهي عن التعرض له شرعاً ولا تنطبق على قواعد الشرع الشريف ، سيما وإن عملها تحت اسم كرامة من كرامات الاولياء مما يؤدي بالعقول الى سوء الظن بالمتقين والصلحاء ، فهي لهذه الاسباب من المحرمات التي يجب التضافر على إزالتها من صنعة الوجوه وإن أتى عليها دور غير قليل من الزمان وهي متسلطة على عقول الجاهلين ، بل التي طال الزمن على وجودها يجب الاهتمام بازالتها بكل ما أمكن من الوسائل خشية أن تعتقدها العامة من المعالم الدينية ، ولا يخفى مافي ذلك من المضرات التي توجب استنباه الحق بالباطل ، والحديث بالطيب

وأما سكوت العلماء عن إزالتها وقت مشاهدتهم لما في تلك الايام الحالية فليس ناشئاً إلا عن تسلط الخرافات والبدع في أنكار معاصريهم من العامة وبأسهم من أن تساعدهم ولادة أمورهم على بطلانها لعدم اهتمامهم بشؤون معالم الدين والحفاظة على سلامته من الاوهام والبدع . فلو طلبوا إذ ذاك إزالتها لم يجدوا سبيلاً لدعوتهم ، ولا ظهيراً يعضد مقاصدهم من أولي الحل والعقد فضلاً عن أن عامة الناس تسلمهم بألسنة الجهالة وترميهم بالخروج عن الدين

أما الآن وقد رزقنا أميراً يهيمه أمر الدين ويسعى ما استطاع في تشييده معالاه وشيئت أركانه ، فلا غرو إذا رأينا الفضلاء من العلماء والاتباء من الصلحاء

يتسابقون في وعظ العامة وزجرهم عن الاقدام على اعتناق البدع والتهافت على الخرافات المفسدة لكمال العقل ، والطامسة لنور البصيرة (وقدر أينا من حضراتهم هذه الفعال المكافين بها شرعاً رأي العين) فان ذلك من قبيل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فهم يثابون عليها إنابتهم على الفروض العينية والواجبات . (وقد نشرنا من مدة ماكان من جناب الاستاذ مفتي الديار المصرية وشيخ الجامع الازهر من التنبيه على الوعاظ والمدرسين ببيان هذه العادة السيئة ومخالفتها للشريعة ، وكفى بهذا إقناعاً للمتعصين)

فلتعلم إذاً أهل البدع والخرافات أن نجوم طلاسهم قد أفلت ، واستعيض عنها بيزوغ شموخ الحق ومصايح الارشاد إلى طرق الدين القويم ، فليريحوا أنفسهم من طلبات لا تعود عليهم إلا بالخيبة والذكال ، وليعودوا نفوسهم على التمسك بعروة الشرع والاستضاءة بنور الحق . فانه عما قليل تنقشع ظلماتهم عن قلوب العامة ، فلا يصغون لكلماتهم المبهمة ، ولا يهتؤون بأعمالهم الشعوذية ، ذلك خير لهم من أن يحاولوا إعادة البدع الضالة التي صار رجوعها متعسراً ، بل متعذراً

ولنا أمل قوي في أن غيرة حضرة السيد البكري وميله إلى تعزيز شأن الشرع والمحافظة على دعائه لا تسمح له باجابة طلب هؤلاء الناس ، بل يحثهم على العدول عن هذا الأمر الذي لا يوافق مذاهب السنة ، ولا ينطبق على قواعد الشريعة (والله بهدي من يشاء إلى صراط مستقيم)

المقالة الثالثة والعشرون

ماهو الفقر الحقيقي في البلاد (*)

(١)

ان أرضنا خصبة طيبة التربة ، ينبت فيها غالب النباتات التي تزرع على وجه
 للسكونة ، وهوؤها ونباتها في غاية الجودة ، يصلحان لتغذية كافة الحيوانات
 للبرية ، وبنوها أصحاب كد ونصب ، وذو صبر على العمل وجلد على التعب ،
 فهي من هذا الوجه عالم برأسه ، غنية مثرية ، لا تقنى كنوزها ولا تفرغ خزائنها ،
 ولأنها بما تأتي من الثمرات لقادرة على حفظ ناموسها وتقوية شوكتها ، بل أن
 تكون سلطتها مبسوطة الى أقطار آخر

ولكن ليس كل هذا الذي ذكرته بكاف وحده في الغنى والثروة والعزة
 والشوكة وان كان من كليات أسبابها ، بل لابد أن ينضم اليه حسن استعمال
 هذه الأسباب الجليلة ، ورشاد الرأي في استخدامها ليوضع كل شيء في موضعه
 الطبيعي ، وتستعمل كل وسيلة لما يناسبها ، فان ضلت الآراء وساء الاستعمال ،
 فهذا هو الفقر المدقع الذي يعسر علاجه ، وماذا تصنع الوسائل المهيثة اذا لم تجد
 من يستعملها فيما هي وسيلة له . وأي شيء تفيد الفرص اذا لم تصادف من ينتهزها
 وهل يقطع السيف الصقيل بلا بطل ؟ كلا فما فقر البلاد الا قلة الراشدين فيها ،
 وما غناها الحقيقي الا كثرة المهتدين

فان سألنا سائل هل في بلادنا كثير من أولئك الذين هم غنى البلاد اذا
 وجدوا ، وهم قمرها اذا فقدوا . قلت : مع الأسف : لا ، إنهم قليل ، نخشى اذا
 اقتضى دورهم أو قضى أجلهم أن لا يوجد بدلهم ، والبرهان على ذلك أن الرجال
 تعرف بالآثار الثابتة في البلاد التي تدوم بدوامها أو على الأقل أجيالا واحتمابا ،
 وأن ذوي الآثار الحقيقية في بلادنا التي أممرت ثمرآ جناه أبناء الأوطان ،

وتمتعوا بذاته مع الثقة بدوامه ، هم قليلون جداً ، بل ينحصرون في أوائل مراتب الأعداد ، وأن النفوس الطيبة تعرفهم ، وهم أيضاً يعرفون أنفسهم الزراعة على حالها القديم لم يوجد منا من يضع طريقة لزيادة الماصلات أو تسهيل العمل وتخفيف المشقة ، بل حصل فيها النقص بفقدان كثير من الأنواع التي كانت تزرع في الأزمان البعيدة كالسكتان والسهم وغيرهما ، والاقصار على بعض أصناف قليلة ، والصناعة قد انحطت درجتها عما كانت عليه من نحو ستين سنة ، وأظن هذا لا يحتاج الى البيان ، وانتجارة لم تتغير حالتها عما كانت عليه يوم صارت مصر مصرأ ، وبيوت التجارة الواسعة من أبنائها قليلة جداً ، إن لم تقل مفقودة بالنسبة لبلاد آخر ، ورجال العلم ومصاييح الفضل لانراهم إلا قليلا ، إذا أردنا أن نعددهم لانتحتاج الى زيادة عن عقد الأصابع ، بل ربما تقف دونها بكثير ، والترشجون لاستلام إدارة المصالح العمومية التي هي أساس العمران ، وأداؤها حق الواجب لها على وجه العدل ، وطريق الحق الذي لا يخامره الباطل ، اللهم الا خطأ نادراً هم أيضاً كسابقيهم ، نعم يوجد عندنا من لهم استعداد للتمرن والتعلم ، وشاهدنا على ذلك الآثار والعيان على أن أولئك الأفاضل من رجال المعارف أو المحنكين في السياسة والادارة إن كانوا في هذا الوقت كثيراً ، فليس في البلاد أساس حقيقي يوجب أن يتأثرهم من بعدهم حتى لا تنقطع سلسلة الصالحين ، بل إن كانوا وجدوا فبالصدقة والاتفاق ، ثم ينثرهم الزمان ، فلا يطول الا وقد آتى عليهم بحكمه القضاء المحتوم ، وهيهات أن يأتي هذا التراب بأمثالهم . فمثل البلاد وهؤلاء الفضلاء ، (إن كانوا) كمثل عاجز نبش في أرض قفر ، فوجد فيها كنزاً يكفي لبقته مدة معينة ، فاذا مضت تلك المدة فقد المال واستسلم المسكين لأحكام الصدق ، والغالب على حاله أن يموت جوعاً ، فيكون فريسة لذئب أو طعمة لكاب والسبب في ذلك عندنا عدم سريان روح التربية الشرعية العقلية التي تجعل إحساس الانسان بمنافع بلاده كاحساسه بمنافع نفسه ، وشعوره باضرار وطنه كشعوره باضرار ذاته ، إن لم نقل تجعل الاحساس الاول أقوى من الثاني ،

وتزيد في إحساس الانسان بمنافعه ومضاره . ولا أتكلم فيها الآن ، فان لي في مقالى هذا مقصدآ سواها . فبلادنا من هذا الوجه فقيرة واأسفا

(تلك آثار السابقين من الذين وسد اليهم أمر البلاد فجعلوها بأهوائهم أعبوة ، وتولوا أمرها فصيروها بسىء تصرفاتهم أعجوبة ، فلا حول ولا قوة إلا بالله) — إن جميع النبهاء في أوطاننا يوافقوننا على هذا الذي قلناه ، ويشاركوننا في الأسف على مثل هذه الحال أعني فقر البلاد من الرجال ، والدليل على ذلك أن غالبهم اذا ذاكرته في مثل هذا الموضوع رأيتهم ينطق بأنه قد بذل كل الجهد في الوصول الى ما انتهى اليه من درجات الفضل ، ويتأسف على أن بقية الناس لم يلاحقوه ، فهذه منهم شهادة على أن الفضل قليل وبنوه مثله

فان سألنا سائل : هل من مانع يحول دون وضع ذلك الأساس أساس المجد والعزة ؟ أعني به أساس التربية الحقة . وهل يوجد عنه صارف سوى الغفلة وانحطاط هم الأفراد من الناس الذين يجب عليهم طلبه والمحافظة عليه قلت : لا إننا كنا في الزمن السابق نتعلل في إغفال مصالحنا وإغماض الجفن عن رؤية نور الهداية بالخوف من ظلم الحكومة ، وكان لنا بعض الحق في ذلك ، فان السلطة في تلك الازمان كانت ضاربة على العقول والأفكار حجبا من الرعب والخشية ، فان غاياتها من التصرف في المحرق بما تشاء ونفوذ الكلمة ، واستيفاء الاغراض ، وقضاء الأوطار الذاتية لا يمكن إلا مع جهل الحكوميين وعمائهم حتى لا يعرفون حقا فيطلبونه ، ولا باطلا فيدفعونه

وهي وإن أدخلت في البلاد أسماء كثيرة كاسم المدارس والمكاتب والمعارف والعلوم والمدن والحرية والقوانين والنظامات والأوامر واللاوائح ، وما شاكل ذلك ، إلا أنها كانت بدون مسميات ، بل تطلق عليها هذه الأسماء مجازاً بعيداً ، وانما كانت تجلب على النظر والسمع صوراً خيالية اذا امتحنها العقل ذهبت أوهامها ، فلم تسكن في تلك الأيام سعة الفاعل خير أن يفعله ، بل لو ظهر أحد في ذلك الوقت من غير حواشي المتسلطين بأن له ثروة يريد أن ينفق منها في سبيل خيرى أصبح لا يجد نفسه ولا ماله ، فهذه كانت أعذارنا في الأزمان

السابقة ، ولو دققنا فيها لرأيناها حجة علينا لا لنا ، فكيف الاعتذار ؟
لكننا في هذه الايام والحمد لله قد أصبحنا في مأمن من هذا . لو تحققت
حكومتنا أن لأحدنا كنوز الارض لم يسعها إلا المحافظة على روحه وماله ،
ولكانت حريصة على ازدياد ثروته ، ولئن طلب الانفاق جهده في الأعمال
الخيرية لجدت هي في مساعدته ، وتسهيل الوسائل الى بلوغ مقصده ، ولو أبصرت
شعاع فكر بدا من أي عقل لسارعت الى تقويته حتى يكون شمساً منيرة ، وإن
تنشط أقوام من رعيته الى الاجتماع والتألف والاتحاد لغاية محمودة كبث علم أو
إذاعة فضل رأيتها تقيم لبيت الألفة أعمدة ، وتوطد له أركاناً ، وتحيط به سوراً
منيعاً ، كما شهدنا ذلك منها رأي العين في شأن الجمعيتين الخيريتين في القاهرة
والاسكندرية ، بل وفي سائر الجمعيات الخيرية الوطنية ، وبالجملة فان الحكومة
قد أطلقت عنان العمل لكل طالب حق ، وقاصد صلاح ، وراغب فلاح ، فليس
من جهة الحكومة هذا المانع ، فبطل ذلك التعلل

فان سأل سائل أليس في البلاد ذوو ثروة وأولوجه تحوم عليهم الأفكار
وتتوجه نحوهم القلوب ، وتنجذب اليهم النفوس ، ولهم من الاستطاعة ما يمكنهم
من الأعمال الجليلة ، التي تكون عنواناً لمجدهم ، وسياجاً حافظاً لناموسهم ،
ورفعة شأنهم ، فتحركهم الغيرة ، وتبعثهم الحمية على انضمام بعضهم إلى بعض ،
وبذل الزائد من فضلات أموالهم في سبيل حفظ الشرف في أبنائهم وأعقابهم
على ما هو شأن العقلاء في سائر أقطار الدنيا

قلت: إني أجيبك عن هذا السؤال غداً إن شاء الله وإن غداً لناظره قريب

الجواب (١)

نعم يوجد كثير من ذوي الثروة واليسار ، وهم المتمتعون بخير البلاد ،
وهم الذين ينبغي لهم أن يطلبوا لها رفعة الشأن ومنعة الجانب ، لأن الأعين
الغادرة مملقة اليهم ، طالبة انتزاع ما بأيديهم ، وأن تسلط الدخلاء (٢) عليها ،
١٠ جاء هذا الجواب بعد عدة أعداد لكثرة المواد الرسمية «٢» يعني الاجانب

وتلاعب الأيدي المتغلبة بأمورها، يضر بأولئك الأغنياء أولاً وبالذات ، ولا يضر غيرهم من الفقراء الا ثانياً وبالعرض ، بل ربما لا يصل الضرر الى الفقراء الذين هم صنف العملة والصناع أصلاً ، فان الأ نظار لا ترمق الا ذوي الاعتبار فهم منتهى الاطماع

فان سأل سائل: ألا يجب أولئك الأغنياء أن يطمئئوا على أنفسهم وأموالهم؟ ألا يبتغون أن تثبت قاعدة العدل فيهم وفي أعقابهم من بعدهم؟ ألا يعلمون أن الزمان قد انقلب وضعه ، وتغير طبعه ، فصارت السلطة الحشنية لا دوام لها ، وأن الطرق البسيطة التي اعتدناها لكسب المال وحفظ الثاموس أصبحت غير كافية لحفظ ما حصلناه ، ولا لتحصيل ما فقدناه . أو لم ينظروا الى الأيدي الغريبة كيف تتلاعب فيما بينهم طلباً لا احتلاس أرواحهم من أبدانهم؟ وأن جحافل المكر والدهاء قد زحفت عليهم ، ولن يدفعها الا حرص الحزم والبصيرة؟ ألا يعتقدون أن التغالب في هذه الاوقات أصبح معظمه ان لم أقل جميعه تغالب الأفكار والآراء؟ فالامة ذات البسطة في الأفكار ، والمهارة في المعارف، هي الأقوى سلطاناً ، والأقوم سياسة ، وهي الغالبة على سواها من الأمم . أفلم ييصروا أنه لا معنى لشدة اليأس في أيامنا هذه؟ ألا تدرع الحكمة وتبطن الدهاء؟ ألم يقفوا على الأسباب التي أعدها غيرنا من جيراننا لئيل أعلى مراقي المجدي أوطانه؟ ثم اندفع الينا لاندرى ماذا يريد أن يصنع بنا؟ فان عقلا جميع ذلك أفلا يفقهون أنهم ان لم يكونوا نصراء لجيش العلم أصبحوا على شفا الخطر؟

قلنا: بلى أن اختلاطنا بالأمم الاوربية سنين عديدة أظنه علنا أسباب الضعف ووسائل القوة ، وعرفنا مقدار المدنية ودرجة الحشونة ، فلا يكاد أحد من أولئك الذين نحدث عنهم الا وقد وقف على الشيء من ذلك . وكثيراً ما نسمعهم يتحدثون به على أطراف ألسنتهم ، ويلوكون أمثال هذه المباحث فيما بين أشدائهم ، كأنهم يعلمونها حق العلم

لكن لا تتحرك نفوسهم مع ذلك الى ابراز الآثار ، وطاب ما علموه صلاحاً بالفعل دون القول ، كل واحد منهم يطلب الخير ، ولكن لا يجب أن يكون

الباديء به ، بل يريد أن يبدأ الغير ، ثم هو يتبعه ، فان كانوا كذلك فلا باديء ولا تابع ، وكأني بهم على احدى حالتين اما أن جميع الحوادث التي مرت على رؤسهم لم تكسبهم معرفة ، ولم تحرك فيهم غيره ، فذلك غاية الجهل نعوذ بالله واننا نزههم عنه ، واما انهم علموا وتفقهوا ولكن استولى اليأس على نفوسهم فذلك ليس من شأن العقلاء ، فان القنوط من رحمة الله كفر

هذه أيامنا نسمع فيها طين الأمانى صادراً من القادرين على بلوغها لكنهم يطلبونها من غير وجهها ، فيعز عليهم منالها . يروم كثير من الناس خصوصاً من ذوي الاقتدار أن يكون ميزان العدل منتصباً لا يميل حبة ولا مثقالاً ، ولكن على شرط أن لا يؤخذ منهم ما يجب عليهم ، وان لا يكافوا بعمل يطلبه العدل ويحكم به القانون ، يودون أن تنشر العلوم في أطراف البلاد حتى يعم نورها كل تقطة من بساطها لكن على شرط أن لا يكون لهم فيها مدخل لا يبذل نقد ولا تجشم عمل ، ويرغبون أن يكون المأمورون وعمال الحكومة من ذوي الاستقامة والجد والاجتهاد ، ومراعاة المصلحة العامة ، لكن بدون أن يقف واحد منهم على باب مدرسة ، ولم يخطر بباله ما هي المصلحة العمومية ، ولم يجد من نفسه احساساً بحلاوة الاستقامة ومرارة الاعوجاج وان ذلك لمن المحال البين ، وبالجملة فطالب الاصلاح منا لا يرضى لنفسه أن يخطو خطوة واحدة في سبيل تحصيله ، بل يجب ان يأتيه الاصلاح ساعياً اليه ويحدق نظره نحو الحكومة يطالب منها ان تخلق خلقاً جديداً ، مع ان سنة من قبلنا ومن معنا في عصرنا ان يسعى أفراد الأمة ونبلاؤها في جمع الكامة وبذل الدينار والدرهم وتعاقد الافكار والاعمال على تحصيل ما يطلبون بأسبابه ووسائله الحقيقية بدون توان في العمل ولا فتور في المهم

فعلى الأغنياء منا الذين يخافون من تغلب الغير عليهم وتناول الأيدي الظالمة اليهم أكثر من الفقراء ان يتأنفوا ويتحدوا ويذلوا من أموالهم في سبيل افتتاح المدارس والكتاب واتساع دوائر التعليم حتى تم التربية وثبتت في البلاد جراثيم العقل والادراك ، وتنمو روح الحق والصلاح ، وتهذب النفوس ويشد الاحساس بالمنافع والمضار ، فيوجد من أبناء البلاد من يضارع بني غيرها من

الأمم فتكون عند ذلك معهم في رتبة المساواة ، لهم مالنا ، وعايهم ماعليتنا ، وعلى الحكومة في جميع ذلك أن تسن قوانين التعليم ، وتلاحظ أحوال المعلمين والتعلمين أفلم يعتبروا بالجمعيات الأوربية التي لم يكن أعضاؤها إلا الزراعين والصانعين والتجار كيف يبلغ ايراد الواحدة منها نحو ثلاثين مليوناً من الجنيهات وبعضها أكثر وبعضها أقل ، وجميع ذلك يصرف في بث المعارف والعلوم واتساع دائرة الصنائع والفنون ، وتقوية روح التربية الحقة التي لا شأن للبلاد إلا إذا تحلى ابناءؤها بحلها

أيظنون انه يمكن لهم نوال شرف أو حفظ ناموس إلا إذا جاهدوا في سبيل الاصلاح بأموالهم وأنفسهم وأنشأوا الآثار الظاهرة التي يحق لهم بعدها الاختيار بأنهم عرفوا مصلحة أنفسهم حقيقة فطلبوها من طريقها المألوف ان شأن الحكومة ليس الا أن تطلق للناس عنان العمل فيعملون لأنفسهم ما يعلمونه خيراً لهم ، فان أية حكومة قيل انها عادلة حرة لم يكن لها إلا انبأ أبحاث للناس أن يدخلوا في أي باب من أبواب المنافع ويطلبوا الخير الحقيقي بكل وسيلة صحيحة ، فاذا لم يكن في الناس خصوصاً الكبراء من يهتمه أمر مصالحتهم ، وبقاء شرفه وناموسه ، فسفه منه أن يطلب من الحكومة ما لا يطلبه هو لنفسه من نفسه

أي بالاختصار أوجه كلامي هذا إلى الاغنياء الذين يتكلمون كثير أفيقولون : لو ياليت : لو ما كان : وما أشبه ذلك من أدوات الشرط والتمني ثم يفتقون الفتات الجارية فيما يسمونه بأنفسهم لهواً وفخاراً كاذباً ، ولا يبذلون درهماً أو ان بذلوا فشيء يسير جداً يقدر عليه أفقر الناس في المطلوب الذي يعدونه عظيماً

وانهم يعلمون ان عدل الجاهل ظلم ، فان صدر منه بطريق الصدقة لا عن مقصد ، فلا بد له من الخبط فيظلم ، وان غناه فقر ، فانه أتى من البخت الاتفاقي ولا بد يوماً ان يختل سيره فيفتقر ، وان كمال الجاهل نقص ، فانه طلاء على حائط خرب عما قليل يكشط ويتناثر منه التراب ثم تهدم

فقر الجهول بلا علم إلى أدب فقر الحمار بلا رأس إلى ذنب
لا نصدقهم فيما يقولون من انهم يحبون العدل ويرغبون الاصلاح ويعرفون خير

أنفسهم وبلادهم ، بل ولا يصدقهم أحد أبداً إلا إذا برزوا إلى ميدان العمل
فحينئذ نعتف لهم بكل ما يدعون ، ونؤدي لهم جزيل الشكر كما يحبون ويشتهون ،
أما الكلام فقد شبت منه الآذان وأفعمت به القلوب والسلام

المقالة الرابعة والعشرون

وضع الشيء في غير محله*

هو تصرف مضر يدعو اليه الجهول بالعواقب أو عدم الاكتراث بما يترتب
عليه من المضار ، وانما نذكر من أمثاله بعض الأوضاع الالهيّة التي ألهمنا الله حكمته ،
وأرشدنا بالفطرة إلى فائدتها ، ثم أقام لنا من الحوادث برهاناً على المضار التي تأتي من
سوء التصرف فيها ، والعدول بها عن وضعها

ان الله تعالى يهب للكثير من عباده أو كلهم قرائح جيدة شديدة النفوذ في
الحقائق وفضلة زائدة سريعة الانتباه الى الدقائق ، ذلك لان تكون هذه المنحة
عدة لصاحبها ، وآلة للوقوف على مخبات الامور ، والوصول من المقدمات الى
النتائج ، ومن المشهودات الى ما وراءها من الخفيات ليحرز من المنافع ما شاء الله أن
يحرز ، ويحذر من المضرات ما ربما يكون خبيثاً له في ضمن ما يتصوره نافعاً فيعيش
بهذا النور سعيداً يعلم الخير فيقتنيه ، ويبصر الشر فيتقيه

لكن من الأسف ان كثيراً من أرباب هذه المنح مع احساسهم من
أنفسهم هذه الصفة الجميلة فيهم (أعني شدة الادراك وجودة الترحمة) ينحرفون بها
عن هذا الوضع الحق فيستعملون تلك الآلة الرفيعة للوصول الى غايات ساقطة حتى
من نظرهم أيضاً ، قترى البعض من أولئك الأذكيا ، يعمل فكره ، ويقلب نظره ،
ليدبر حيلة في استمالة غيذاء ، واستعطاف هيفاء ، أو يمجّد وسيلة للحظوة عند ذات
قد يهزأ بالأسل ، وأعين غنية عن الكحل بالكآل ، ويبدل هذا الجوهر النفيس
في منافسة الأنداد في ذلك ومغالبتهم وإلقاء العداوة والبغضاء بين المحبوب وبين
(نشرت في العدد ١١٠٥ الصادر في ١ جمادى الثاني سنة ١٢٩٨ - ١٠٧٠ هـ)

طالبه ، وما شابه ذلك من الامور الدقيقة التي تحتاج (والحق يقال) الى صرف زمن واعمال فكر ، كما يشهد بذلك المحررون ، غير ان هذه الامور مع دقتها لاداعي اليها ، والاعتاب التي تصرف فيها تفوق بألف ضعف اللذة التي تنال منها ، وهي معلومة يخجل الانسان بعد نيلها من جميع ما كان استعمله لما قبل ذلك وزيادة عن الاعتاب التي هي خسارة محضة لا ربح فيها يفوت صاحب الادراك وقت غالي الثمن عالي القيمة يطالبه باغتنام فوائده وانتهاز فرصه ، وهو في غفلة عنه بهذا اللهو ، بل العناء الذي حتمه على نفسه بنفسه ، فيمضي عليه من جميع المنافع تعرض نفسها على فطنته وذكائه ، فيحول عنها وجهه فتدبر عنه عازمة على أن لا تعود اليه قاطبة . هذا هو الذي يزعج كل فطن ذكي يلتفت إلى ماضيه فيجده خالياً من المنافع الثابتة التي كانت تبقى عدة لمستقبله ، ويعدها العقلاء منفعة أو شرفاً حقيقياً ، ويرى بعض من كان دونه أصبح أرفع وأرق وأملك لناصية الدهر منه ، فيتقلب على جمر الاسف خصوصاً اذا طرقة الزمان بمطرقة المصائب ، فينتبه كأن لم يكن ذا انتباه ، ولكن يصعب عليه بعد ذلك أن يوجد قوة أو هنها في أعمال باطلة الى ما أعدت له من الاعمال الحقيقية . فاذا طلب لنفسه بعد ذلك ما يطلب العقلاء من أسباب السعادة رأى تلك القريحة قد صدأت ، والفكرة طمست بما خيم عليها من تلك الصور الكثيفة ، فيجتهد كل الاجتهاد لا ما لطلبها عنه ليخلص من ظلماتها المكدره . وكأنه لا يستطيع أن يعيدها الى صفاتها الاولى ، ويكون له من لوم السريرة وتوبيخ العقل ما يكفي في تعذيبه وتعنيفه حتى يتدارك ما فاته ويملك زمام الاعمال المستقيمة ، ويرشد مع الراشدين خصوصاً اذا كان من أبناء الذوات أو الاغنياء ، أو موظفي الحكومة ، أو من شابههم من الذين تحكم عليهم مكائدهم بان يكونوا أسرع الناس الى الجسد ، وأقربهم الى الحق ، وأحرصهم على نيل الشرف لحفظ الاسم الاول على رفعة ، والاستزادة من إعلاء صيته وشهرته ، ولما يراه صاحب الشرف من أنه أحق وأولى بعلو الشأن والعظمة في الانفس من غيرهما . فهذا الوجدان منه يبعثه على أن يكون أعلى وأجل من غيره فيما به الرفعة والشأن في كل زمن على اختلاف

الاحوال وتقلب الميآت وهو الكمال الادراكي ، والفضل الذي ينشأ عن صحة الادراك . فهذا هو الأمر الثابت الذي يمكن للانسان أن ينال به جميع مرغوباته سواء صلحت أحوال العالم أو فسدت ، بخلاف من يفوته هذا الكمال . فإن أمره موكول الى اختلال الاحوال وفسادها ، فما دام النظام مختلا ، والعدل ضائعاً ، والحق مستوراً ، فهو يؤمل التقدم وعلو المنزلة ، فان لمع بارق من الحق أو استقام أمر النظام ، وأخذ في التصرف بالعدل ، أصبح هذا الذكي النبيه في زاوية من الاهمال ، وأهدر شأنه وعد في الآحاد الساقلة

هذا كله اذا اقتصر في تصرفه على استعمال قوة القرينة في غير موضوعها ، وبقي حافظاً لجرثومة هذه القوة (القوة والادراك)

فان أضاف الى سوء التصرف سعياً في إطفاء نورها من أصله بأن عكف على معاطاة الارواح المسكرة والجواهر المخدرة من أنواع الخمر والحشيش والافيون والمعاجين والجوارش ونحو ذلك . فقد أضاع هذا النور الالهي الذي أودعه الله فيه ، وانقطع الامل من عودته الى ما كان عليه . فان مزاج عضو الادراك يختل بتعاطي هذه المهلكات ، فلا يعود للقوة مراكز تقوم عليه . فان ظن أنه يدرك في بعض الاحيان سرّاً ، أو يفهم خطاباً أو يرد جواباً ، فليعلم أن ذلك ماهو إلا بقية تهلتي خنيف لتلك القوة الشريفة بيدنه المعتل ، وأنه لو لم يكن يتناول هذه المضرات لكان الباقي عنده أضعاف ما يجده من نفسه بكثير ، وإن الذي منحه الله من هذا السر اللطيف كان عطاء جزيلاً فجعله نزرأ قليلاً

خصوصاً وان الانهمالك في قرع الأكواب والتهالك على الشراب مما يستدعي زيادة للسهر بالليل واتبها فتمور البدن واستيلاء الوخامة بالتهار ، ويقتضي تمادياً في الملاهي والمسدر ، ويفتح على الانسان باب الزهو واللعب ، ويستلزم رفع الحجاب عن السر ، وكشف ستار الحياء ، وعدم المبالاة بما يصدر عن الجوارح من الحركات والسكنات ، ويستوي فيه الضار والنافع ، فيختلط به الأمر ، ويكتسب صاحبه ذكراً سيدناً بما يفعل من الامور الخسيسة التي لا يشعر بها حال ضياع المفكرة واستيلاء السكرة ، ثم يزداد الوصف الاول وهو سوء التصرف الى

حد يهدم الشرف ، ويحط من التقدر ، حتى عند أدنياء الناس وأخسائهم، وذلك أن يفرغ ما بقي من فطنته في انتخاب كلمة تضحك الخاضرين وحرارة تطرب الناظرين ، وبدل أن يستعمل مخيلته في تشخيص الاحوال الواقعية وتقريب الحقائق الى الازهان ، وتنوير الافكار بما يتدعه من حسن التصور يستعملها في ثلم الاعراض الطاهرة بخيل حال عالم أوصفة فاضل ، ثم يبرزها على صورة بشفة وحالة مستنكرة ، فيعجب ذلك جاساءه ، لكنه يغضب ذمته وسريرته ، ولا يرضى به ما بقي من عقله

فان تهادى به هذا الحال أزماناً حتى عرفته العامة ، ووقف عليه الخاصة ونظر اليه بعين الازدراء ، من الفضلاء والعقلاء (وإن بقي مبعجلاً في أعين أصحابه فهذا لا ينفعه بشيء) ثم استمر على ذلك ولم يجد لنفسه رادعا عنه من نفسه . فهذا هو الذي يخشى على الهيئة الاجتماعية من وجوده فسدت طبيعته ، واقلبت فطرته ، وعميت بصيرته ، حتى لا يدرك هذا الذي تقول أيضاً ، فبئس الحال حاله ، فعلى حكومة البلاد أن تقتني أمره ، وتضع لمن يكون على هذه الشاكلة قانوناً صعباً يخيف القلوب وإن لم تكن واعية ، ويزعج الخواطر وإن لم تكن حاضرة ، ويؤثر في العقول وإن لم تكن سليمة ، وإلا فان هذه أمراض خبيثة سريعة الانتشار لاسيما اذا بدأت في الخاصة ، فانها لا تلبث أن تسري فيما بين العامة

المقالة الخامسة والعشرون

الكتب العلمية وغيرها (*)

تنقسم المؤلفات المتداولة في أيدي المصريين الى أقسام متفاوتة بتفاوت آميال المطالعين سواء كانت هذه الاميال غريزية أو مكتسبة من طوارىء التربية وعوارضها . وهذه الاقسام كما اختلفت في الشهرة والحنفاء ، وكثرة التداول بين يدي الكثير من الناس وفي متديات المشتغلين بمطاعتها ، ومحافلهم الخصوصية والعمومية

نشرت في العدد ١١٠٩ الصادر في ١٢ جمادى الثانية سنة ١٢٩٨ - ١١ ما يوسنة ١٨٨١

(٢٠ - تاريخ الاستاذ الامام - الجزء الثاني)

فمنها الكتب النقلية الدينية وهي ما بين فيها مسائل الدين سواء كانت من الاصول كعلم الكلام أو الفروع كالعبادات والمعاملات . ومن هذا القبيل كتب التفسير والحديث ، وكتب الاخلاق المأخوذة من قواعد الدين ككتاب الاحياء لحجة الاسلام الغزالي ، وهذا القسم نرى من المشتغلين به في بلادنا عددًا كبيراً نبع منهم الافاضل والامثال وكثرت فيهم المؤلفات وانتشرت بالنسخ والطبع في غالب الجهات

(ومنها) الكتب العقلية الحكيمة وهي ما يبحث فيها عن الحقائق الوجودية، وأحوالها ولوازمها على قدر الطاقة البشرية . وهذا القسم نادر الوجود في بلادنا والمشتغلون بكتبه أقل من القليل ، بل إنه لم يطبع منه في مطابعنا الا نزر يسير من فروعه كـ بعض كتب في الطبيعة والكيمياء والطب والرياضة غير صحيحة العبارات والكتب الموجودة منه عند البعض من الناس كلها ، إما بالنسخ وإما بالطبع الاجنبي ، ولا تشتري إلا باليمن الجسيم

(ومنها) الكتب الادبية ، وهي ما يبحث فيها عن تنوير الافكار ، وتهذيب الاخلاق . ومن هذا القبيل كتب التاريخ ، وكتب الاخلاق العقلية ، وكتب الرومانيات ، وهي المخترة لمقصد جليل كتعليم الادب وبيان أحوال الأمم ، والحث على الفضائل والتنفير من الرذائل ، ككتاب كيلة ، ودمنة ، وفاكة الخلفا ، والمرزبان ، والتليماك ، والقصة التي تترجم في جريدة الاهرام وغيرها من بقية المؤلفات . وهذا القسم كثير التداول في المدن والثغور ، ويكثر في أبناء وطننا وجود البارعين فيه المشتغلين بدراسته ، العاكفين على مطالعته

(ومنها) كتب الاكاذيب الصرفة وهي ما يذكر فيها تاريخ أقوام على غير الواقع ، وتارة تكون بعبارة سخيفة مخلة بقوانين اللغة . ومن هذا القبيل كتب أبو زيد وغنتر عبس ، وابراهيم بن حسن ، والظاهر بيبرس ، والمشتغلون بهذا القسم أكثر من الكثير ، وقد طبعت كتبه عندنا مئات مرات ونفق سوقها ، ولم يكن بين الطبعة والثانية إلا زمن قليل

ومنها كتب الخرافات وهي تارة تبحث عن نسبة بعض الكائنات الى

الارواح الشريرة المعبر عنها بالعفاريت ، وتارة تتكلم في ارتباط الحوادث الجوية والآثار الكونية ببعض الاسباب التي لامناسبة بينها وبين مازعموه ناشئا عنها ، وتارة تثبت مالا يقبله العقل ولا ينطبق على قواعد الشرع الشريف . ومن هذا القبيل ما يعرف عند الناس بعلم الروحاني وعلم الكيمياء (الكاذبة) وكتب الوفق وكتب الحرف والزائرات وذلك ككتاب أبو معشر ، والكواكب السيارة ، وشمس المعارف الكبرى والصغرى ، وكتاب الحرف المنسوب للحكيم هرمس والبرهنية وشرحها والخلخولية وشرحها ، والجلجلوتية وشرحها ، ودعوة السباب ودعوة القمر بشروحها ، وكتب المنادل واستحضار الخادم والرسائل التي يذكر فيها أمر الكتابة بالمحبة والبغض ، وعقد الرجل عن الجماع وإرسال الهواتف والتسليط بالرجم على البيوت وغير ذلك مما لا يحصيه القلم . وهذا القسم قد اشتغل به في ديارنا كثير من الناس ، ونبغ منهم الدجالون والمحتالون ، وطبع من كتبه عندنا ما يخرج عن حد الحصر بالقلم واللسان ،

وإذا تمهدت هذه المقدمات فنقول :

قد كانت جميع هذه الكتب بأصنافها تطبع في مطابع المحروسة بدون استئذان ولا تقييد ، ثم من عهد قريب (على عهد وزارتنا الحاضرة) صدرت الأوامر بأن لا يطبع كتاب في إحدى المطابع إلا بعد الحصول على رخصة تجيز الطبع ، وحجر في أثناء ذلك علي طبع ما يخجل بالديانة أو السياسة ليس إلا ، وكل من يصرح بطبع غير ذلك من أصناف القسمين الأخيرين (هما كتب الكاذب الصرفة ، وكتب الخرافات) على أنهما ليسا مما يخجل بالدين ، ولا مما يناقض السياسة ، ولذلك كثر طبع الكتب في هذين القسمين حتى انتشرت في سائر جهات القطر ، واشتغل بمطاعتها كثير من الأهلين ، فاذا شب الولد ومالت نفسه الى المطالعة في الكتب لم يجد أمامه الا أصناف هذه الكتب الكاذبة أو الخرافية ، فيجهد نفسه في قراءتها ، فيشيب وهي بين يديه ، ويموت وهو معتقد لما فيها من الأضاليل ، ونجم عن ذلك انقماش الغالب في ظلم الجهالات ، وانحطاطهم عن درجات الكمالات ، وهذا من أضر المؤثرات في تأخر البلاد وبقائها في حفر

الهمجية والاشقيشان . ولهذا قد وجهت الحكومة السنية عنايتها الى تطهير البلاد من هذه الأمراض المعدية السريعة الانتقال ، فصدرت أوامر نظارة الداخلية الجليلة بالحجر على طبع الكتب المضرة بالعقول ، المحلّة بالأدب ، وهي كتب القسامين الأخيرين . فمن الآن فصاعدا لا يرخّص لأية مطبعة أن تطبع من هذه الكتب شيئا ، ومن يتعد ذلك يجاز بأشدّ الجزاء . وستؤخذ الاحتياطات اللازمة لمنع الاختلاس في هذا الشأن ، فعلى الذين يميلون الى مطالعة مثل هذه الكتب لتسلية النفس وترويح خاطر أن يستعضوها بغيرها من الكتب المفيدة الصحيحة . فمن كانت رغبته متجهة الى كتب (أبو زيد) وما معها من الكتب كعنتربس وغيرها أن يستبدلها بكتب التاريخ الصحيحة ، كتاريخ المسعودي وتاريخ (إظهار أنوار الجليل) الحضرة رفاعة بك ، وتاريخ الكامل لابن الأثير ، وتاريخ الدولة العلية ، وكتب القصص الأدبية المترجمة في أعداد الأهرام والقصة التي طبعت في مطبعة العصر الجديد ، وهي المعنونة بالانتقام ، وغيرها من بقية الرومانيات العربية الأصل ككتاب (كليات ودمنة) وما مائلها من الكتب التي جعلت على أسنة الطيور والحيوانات ، وعلى من كانت فيه بقية من حب كتب الخرافات المعبر عنها بالريحاني أو غيرها من كتب الوفاق والتعجيم أن يقلع عنها ، ويشغل نفسه بما يرى منه الفائدة ، وإلا فأبي فائدة عادت الى من صرف تقوده وأباد بصره وأراق ماء وجهه في طلب الكيمياء الكاذبة ، وهو لم ينظر منها ما يجعله عوضا لهذه المصاريف وتلك المشقات . وأي عائدة رجعت على من حفظ العزائم ، وأجهد نفسه في حفظ أسماء الشياطين ، وأتهب عقله وبدنه في الخلوّة لاستخدام العفاريث ؟ إننا لم نر لكل ذلك من فائدة ولا عائدة ، بل رأينا أن المشتغلين بذلك كله يحسبون من الدجالين ، ويعدون مع المحتالين ، وأن العاقل لا يرضى لنفسه أن يشار اليه بأنه من إحدى هاتين الطائفتين اللتين صب عليها المقت ، ولحقها غضب الله والملائكة والناس أجمعين . وحينئذ فمن الواجب على كل عاقل أن يترك كل هذه الكتب الخرافية ، ويتباعد عنها على قدر الامكان وأن يشغل أوقاته بمطالعة الكتب الحقة ، ككتب الديانة المنطهرة ، وكتب

الآداب والفضائل وتهذيب الاخلاق ، وكتب التواريخ الصحيحة وكتب العلوم الحقيقية ، فانها أنفع للنفس ، ويرى المشتغل بها فائدتها في أقرب زمن على أسهل وجه بدون أن يلحقه جزء من مائة من تلك المشتقات ، ولا أن يلتجئ إلى إضاعة الأموال فيما لا يفيد

وفي ظني أن كل هذا مما يقع عند إخواننا الوطنيين موقع القبول والاستحسان ، فان كل واحد منهم يذهب الى ما ذهبنا اليه ، ويرى ما رأيناه . وسنعود إلى هذا الموضوع مرة ثانية إن دعت الحال ، ثم تأتي على ما جرت به عادة الكثير في اعتقاد الخرافات ، ونبين تأثيرها في النفوس ، ودرجتها عند أهل المدن والأرياف ، ونفصل الأصناف المتعارفة منها عند العامة ، وبالجملة نذكر كل ما يتعلق بهذا الموضوع في أعداد صحيفتنا على الاطراد إن شاء الله

المقالة السادسة والعشرون

امتدح القوانين بأمة طرف أمور الالهم *

﴿ عدنا إلى الكلام في القانون حسبنا وعدنا ﴾

إن المبدع الأول جل شأنه أودع في الانسان قوتين عملية ونظرية ليتوصل بهما الى كماله المخصوص به ، وربط إحداهما بالآخرى ، فجعل كمال الاولى متوقفاً على كمال الثانية ، فصار الانسان مفضولاً على طلب النظريات والوقوف على الحقائق قبل أن يباشر عمالماً ، فان العمل لا يقصد إلا اذا كان له من النتائج ما يبعث على مباشرته ، وليس كل عمل ينتج الفائدة المعتد بها ، بل لابد أن يكون على نهج مخصوص — ولا جرم أن تصور النتيجة ، ومعرفة أساليب العمل مما يناط بقوة النظر ، فاذا كملت جاء العمل على أحسن الوجوه ، وكانت الفائدة أعظم ، والغاية أكمل

ومن هذا صار كل إنسان حريصاً على استكمال النظريات أولاً وبالذات

ليهندي بها الى منافع أعماله التي يقارنها للحصول على كمال حياته ، وبمزد النتائج على اختلاف درجاتها في النفع ليضع بأزاء كل واحدة منها عملاً مخصوصاً ، مرتباً على وجه معلوم ، أقرب فائدة ، وأسهل تناولاً ، وأحكم وضعاً

فعلم الانسان هي عبارة عن الحدود التي بها الفوائد النافعة ، ويضبط بها طرق الأعمال الموصلة الى تلك الفوائد ، حتى لا ينجب في سيره ، ولا يختلط عليه النافع والضار ، فيقع في الشقاء وتنتابه أيدي البلاء

وحيث إن أحوال كل أمة تابعة لمعلوماتها على نسبة بينهما كنسبة العلة والمعلول ، فهي إنما تتخذ لأعمالها حدوداً ، وتختار لأوضاعها قوانين بحسب قوتها في النظر وربتها في الفكر ، بحيث لا تخرج وقتاً من الأوقات عما تسنه سجيتها من التقاليد والأخلاق ، الا اذا أتاحت لها الفرص الارتقاء الى درجة أعلى في النظر وأرقى في الفكر

ولما كانت اقوانين مناط ضبط الأعمال لتكون منتجة لجلائل الفوائد ، وهي ثمرة الأعمال النظرية ، وخلاصة الأبحاث الفكرية ، صارت قوانين كل أمة على نسبة درجتها في العرفان ، واختلفت القوانين باختلاف الأمم في الجمالة والعلم فلا يجوز حينئذ وضع قانون طائفة من الناس لطائفة أخرى ، تباينها في درجة العرفان أو تزيد عليها فيه ، لأنه لا يلائم حالة أفكارها ، ولا ينطبق على عوائدها وأخلاقها ، والا لاختل نظامها ، والتبس عليها سبيل الرشد ، وانسد دونها طريق الفهم ، وحسبت الصحيح فاسداً ، والصواب خطأ ، وحرقت الأوضاع ، وبدلت وغيرت ، فيقلب عليها دواء غيرها داء ، وذلك لقصر نظرها ، وعدم درايتها بوجوه تلك القوانين ، وما هي الداعية لها والحاجة اليها ؟ فان الحاجة هي الاستاذ المرشد والمعلم الأول ، متى علمها الانسان حق العلم صار حريصاً عليها ، مقيداً بها ، فلا يخالف مادعت اليه وقضت به . واذا كان وضع القوانين بين قوم داعيته حاجتهم اليها ، فلا تسمح لهم ظروف الأحوال بمخالفتها أما من لم تدعهم الحاجة اليها فلا يرونها من الضروريات ، فلا لوم عليهم اذا نبذوها ، ويكون تكليفهم بها من قبيل التكليف بالجمال ، بل الأجدر بهم أن

يعلموا أولاً ما هي الحاجة ليستروا مع غيرهم في العالمية، ويتحدوا معهم فيما يترتب عليها وقد جرت عادة المشرعين في كل زمان أن يراعوا في وضع القوانين درجة عقول الذين يراد وضعها لهم ، حتى لا تكون مبهمة عليهم ، فلا يتيسر لهم فهمها ولا معرفة الغرض منها ، وأن يلاحظوا العوائد والأخلاق ملاحظة تامة ، فلا يخرجون في تأسيس القوانين عما تقتضيه من الشدة والتخفيف ، فرب طائفة من الناس ينفع فيهم الزجر الخفيف ، ويردعهم الوعيد بالجزاء الهين ، اذا كانت طباعهم سهلة الاتقياد ، ونفوسهم شريفة ، وحواسهم سريعة التأثير ، فهؤلاء لايسن لهم من القوانين الا ما كان منطبقاً على أحوالهم ، فلا يكافون بالقوانين الصارمة لأنها تضر بهم ، شأن من يتجاوز في استعمال الدواء الحد المخصوص مثلاً اذا فرض أن واحداً ممن وصفناهم فعل ما يستوجب العقاب ، وكان السجن بالنسبة اليه أمراً يؤثر في طبيعته ويؤلم نفسه على ما بها من العزة ولطف الحاسة ألماً شديداً ، ويشق على نفوس عشيرته وأهل وطنه أن يقال : فلان سجن لجناية كذا ، بحيث يكون وقوع ذلك لواحد منهم من أكبر الزواجر عن اقرار الذنب الذي وقع منه ، فيكون الحكم على هذا المجرم حينئذ بما هو أعظم من ذلك ، كالنفي والطرود والأعمال الممتنة الشاقة ظلماً بيناً ، لأن ذلك ربما يفضي به الى الموت العاجل ، ويؤثر في نفوس عشيرته وبني جلدته اقباضاً مستمراً ، وحقداً أبدياً ، لعلمهم بخطأ الحكم ، وظلم الحاكم . وليس بعد ذلك الا أن تتقد نيران الفتن ، وتلتهب حمية الغضب بين هؤلاء الناس ، وتكون عاقبتهم شرراً ، أو تحمد النفوس وتذل الطباع ، وتعدم الشهامة من الأفراد ، وبئست العاقبة هذه

ورب أمة فطرت أفرادها على الغلظة ومجافة الرقة ، وكانت بواطنهم منطوية على الحسة والسفالة ، ونفوسهم بعيدة عن خصال الشرف . فهؤلاء لا يردعهم عن غيهم ، ولا يصدّم عن موارد بهتانهم ، الا القوانين الصارمة ، المؤسسة على الجزآت الشديدة ، فمن الخطأ البين أن يعامل مذنبهم بالسجن مثلاً اذا كانت نفسه تستخف ما هو أشد منه عقاباً . فان الغرض من وضع القوانين إنما هو

مجانبة ما يخل النظام ، ويبدد هيئة الاجتماع ، ويضر بالمصالح الشخصية والمنافع العمومية ، فاذا لم تكن مؤدية لهذا الغرض ، فليست الا مجرد تكاليف أقيت على كواهل الناس ، بل لاتعد الا توسيعاً لدائرة المفاسد واكثرأراً للمظالم وانا شاهد على ما ذكرناه حالة بلادنا من قبل ، فقد مرّ على أهلها زمن كانوا فيه همجاً لا يعرفون صالح نفوسهم لتمكن الجهل منها وقتشد ، فكانوا لا يعتدون بالزراعة مع توفر أسبابها ، وصلاحيه الأراضى لها ، وكان الملاك لا يعرفون قيمة ما يمتلكونه منها ، فيودّ الواحد منهم أن لو انتقلت أملاكه لشخص آخر حتى لا يكلف بأداء ما فرضته عليه الحكومة من المطالب ، ولا يقيم في بلده مدة تناله فيها أيدي الحكام ، فكان أهالي البلاد يهاجرون منها الى بلاد أخرى خوفاً على نفوسهم من الزراعة ، والأخذ بوسائل الغنى والثروة ، فاضطرت الحكومة وقتشد أن تلزم الأهالي أملاك الأراضى وزراعتها ، ورتبت على المخالفين قوانين صارمة تشمل على مواد العقاب الشديد ، فاذا جاء الوقت الذي تطالب فيه الحكومة بالمطالب الأميرية امتلأت السجون من بقايا الذين هاجروا من البلاد ، وراج سوق الكرايبج ، فكنت ترى الأهالي كافة ما بين فار من بلده ، ومودع في السجن ، وموجع بالضرب ، وكان لخراب البلاد وعمارها أوقات معينة في السنة لاتتعداها ، واستمرت على هذه الحالة السيئة أمداً طويلاً الى أن توطلت نفوسهم على العمل ، وتمهدت لهم طرق الزراعة ، ودخلت في دور جديد بما أتيح لها من المعدات التي سهلت طرقها ، وثبتت الأهالي في البلاد وأخذوا خطة واحدة في فلاحه أراضيه ، غير مبالين بمطالب الحكومة لكونهم ابتدأوا يعلون أهمية الزراعة ويعظمونها ، ويتنافسون في حاصلاتها ، فتبدلت القوانين التي كانت تتخذها الحكومة لجزر الفلاح عن الفرار ، وإهمال الزراعة ، والتقاعد عن الآداء نوعاً من التبديل ، ثم تبادلهم الأيدي الظالمة أمداً ليس بقصير ، ولكنهم لم يزالوا ثابتين على أملاكهم ، فسثموا سوء المعاملة ، واشتقت نفوسهم الى قانون عادل ينتظم به أمر الأداء ، فسأقت لهم يد العناية الالهية من لدن الحكومة التوفيقية من أسس لها قانوناً عادلاً في هذا الشأن دخلت به مصر

في عصر جديد ، وارتفع من بين أهلها صوت الكرباج ، وبديل جزاء التأخير عن أداء المطالب بما لا يحط من شرف الانسان ، ورتبت المصالح العامة على قوانين لا تخالف مشرب أهل البلاد بوجه يغاير القوانين السالفة ، وذلك مرتب على تغاير الحالتين ، وتباين المشربين أولاً وآخراً ، فلو جعل جزاء التأخير في الزمن السابق هو انتزاع الأرض من يد مالكيها ، لكان احب شيء اليهم هو التأخير ليستريحوا من كتابة اسمهم في دفتر الملاك ، وكان هذا الجزاء ثوابا عندهم في الحقيقة لا عقابا ، لكنه الآن أصبح من أشد العقاب

وقد آن لحكومتنا أن تعطف عنان النظر الى قوانين المجالس القضائية لتجعلها مناسبة للحياة الراهنة ، فتختار منها مالا يصعب فهمه ، ولا تحتتمل عباراته معنيين أو جملة معان ، ولا تكون مواده من قبيل القواعد العمومية التي تنطبق أحكامها على جملة من الجزآت لكثير من الجنايات المتباينة ، حتى لا تكون القوانين نفسها ذريعة لأرباب الأغراض الفاسدة ، فيلعبون بالحقوق كما يشاؤون ، مع أن من بأيديهم أزمة القوانين ليسوا في رتبة المشرعين الذين يستنبطون مما يحتمل خلاف الظاهر أو من القواعد العمومية الحكم المنطبق على حقيقة الأمر والواقع ، على أن أرباب الحرق منا ليسوا منزهين عن الشكوك والظنون الفاسدة ، وربما أساؤا الظن بمن يكون بريئاً عن الخطأ والحياة مع خفاء الحكم من نفس المواد القانونية ، وعدم انكشاف النص منها ، وذلك يؤدي الى حرصهم على استئناف التحقيق أولاً وثانياً فيطول الأمر وتعطل المصالح ، وتزيد النفقات ، وتشتد الضغائن ، وتوسع أبواب الفساد مع كثرة الوقائع والمشاكل ، كما هو حاصل في بلادنا الآن . فيجب حينئذ أن تكون مواد القوانين نصوصها صريحة ظاهرة الاحكام منطبقة على كافة الوقائع مفصلة الابواب سهلة التراكيب

أما القوانين التي كانت متناولة في بلادنا حتى اليوم فانها (مع كونها قاصرة مجملية غير بيضة الاساليب) ليست مضبوطة ولا معروفة عند الناس ، بل بعضها يعرف بالقانون الهمايوني ، وبعضها يسمى باللوائح ، وبعضها يدعى بتعليمات الحفائية والبعض يقال له قرار الخصوصي ، والبعض الآخر منشور الأحكام ، والبعض (٢١ - تاريخ الاستاذ الامام - الجزء الثاني)

الأمر العالي الصادر في تاريخ كذا ، وهكذا مما لا يحصى عدده ، ولا يمكن لأحدا حصره ، فكيف يعقل أن يكون هذا التشديد (لعلها التثنية) قانوناً يقف العالم عند حدوده ، على أنهم لو علموه لما تصوروه ، لكونه غريباً عن أحوالهم ، بعيداً عن مداركهم

فمن الواجب إصلاح هذا الخلل اليبين الذي أضع الحقوق وأضر بالأمن ، ومن اللازم الإسراع به ، وعدم تفويت الوقت وإضاعة الزمن في الأقوال التي لا طائل تحتها ، ويلزم أن تكون القوانين مستوفاة جميع القيود والشروط ، ولا مجال فيها على المنشورات ولا اللوائح ، تسهلاً لضبط الأحكام وتطبيقاً لها على مقتضى الحال ، وأن تكون منطبقة على حالة الأهالي ودرجة إدراكهم ليتمكنهم دركها والعمل بمقتضاها كل على حسبه ، وإلا كانت حبراً على ورق ، فقد تقرر في مدارك العلماء والسياسيين من سابق ولا حق أن المشرعين وواضعي القوانين يضطرون دائماً الى مراعاة العوائد والاخلاق ليتمكنوا من تأسيسها على وجه عادل نافع ، بل ان أحوال الأمم بنفسها هو المشرع الحقيقي ، والمرشد الحكيم النطاسي ، وان القوة الحاكمة تابعة لقوة رعاياها ، فلا تخطو الاولى خطوة إلا اذا كان لها من الثانية سائق الى ماخطت اليه ، نعم لانكر أن اعداد الوسائل والمعدات منوط بالقوة الحاكمة ، فهي تلزم بها رعاياها كرهاً أو اختياراً لكن على قدر طاقة المحكومين ، فاختلفت هيئات الحكومات وتبدل قوانينها تابع لما تقضي به حقوق الوطنية التي هي في الحقيقة حالة الرعية . فان انتقال حكومة فرنسا مثلاً من الملكية المطلقة الى المقيدة ثم الى الجمهورية الحرة لم يكن بارادة أولى الحل والاعتد فقط ، بل المساعدة الاقوى حالة الاهالي وارتفاع أفكارهم وتنبه إحساساتهم لطلب الرقي الى أعلى مما هم عليه فتغلبوا على جميع القوى الغريبة التي كانت تمحول بينهم وبين الوصول الى مطلوبهم من معرفة الواجبات الحقيقية على أنهم لم يصلوا الى هذه الغاية الشريفة إلا بعد قطع العقبات التي هي دون الوصول اليها إذ بدون ذلك لا يمكن أن تنال الغاية ، ولا يدرك المطلوب

وحيث كانت تلك الوسائل وهذه المعدات من مزالق الافهام والعقول كانت

معرفة ، والحصول عليها بذاتها في غاية الصعوبة ، فربما يقع في وهم طائفة من الناس أنهم تهيئوا لأن ينتقلوا الى خطة أرقى في المدنية والوظائف القانونية — وليس الأمر ما توهموه — فيتقنوا الى الوراثة بأن يعدوا الى جعل التشريع حراً والمشاركة في التأسيس مباحة ، وليسوا آتئين من دسائس الاغراض ، ولا متمكنين من الوسائل التي تهيئهم لهذا الأمر ، فيفشلون فيهم ، والاختلاف ويلاحظهم دخل العناد فلا يبتدون إلى الصواب ، ولا يرمون رأياً ، ولا يبتنون حكماً ، ويمضون الزمن في قيل وقال ، قفتهم ثمرة الحزم ، وتضيع مصالحهم ، ويصدق فيهم المثل (من عجل بشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه)

وبالجملة فليست هيئة النظام المدني لأمة من الناس سوى صورة مادة الملكات التي اكتسبتها أفرادها من مآلقاتها وعوائدها التي نشأت عليها سواء كانت ممدوحة أو مذمومة ، وان اختلاف قوانينها في معارج صعودها ومدارك هبوطها لا ينفك عن هذه الملكات مهما تغيرت أصنافها وتبدلت شئونها وهذا ما جعل عقلاء الناس يجتهدون أولاً في تغيير الملكات وتبديل الاخلاق عند ما يريدون أن يضعوا للهيئة الاجتماعية نظاماً محكماً فيقدمون التريية الحقيقية على ما سواها ليتسنى لهم أن يحصلوا على هذه الغاية ، بل يجعلون في نفس القوانين النظامية فصولاً وأبواباً تضبط الاخلاق ، وتحفظ الملكات المناضلة وتكون حداً تقف عنده النفوس في أعمالها ، وتأخره الاشخاص في سيرها حتى تنتقل الاعمال من حالة التكليف الى حالة العادة والملكية فتصبح الاخلاق فاضلة والعادات حسنة ، وتسير الأمة في طريق الاستقامة إلى خير غاية .

المقالة السابعة والعشرون

تأثير التعليم في الربيه والعقيدة *

من المعلوم الذي لا يشبه فيه أن أرباب المذاهب والاديان على العموم ، وإن اختلفت عقائدهم ، وتنوعت مشاربهم ، يخترمون اعتقاداتهم ويحلمونها وينزلونها من العلو أعلى منزلة ، ويدافعون عن حرمتها ببذل الاموال ، وفناء الارواح ، حتى ان صاحب العقيدة الثابتة في دينه لموت بالسييف قطعاً ، وبالنار حرقاً ، وبالبحر رضا ، ولا يتحول عن عقيدته وذلك ظاهر . فان كل دين يرشد متقلديه الى أن الدنيا فانية ، وأن هناك داراً باقية ، نعيمها يفوق كل نعيم ، وشقاؤها جهنم دونه كل شقاء ، وكلاهما أبدي لا ينقطع ، فالرجاء والخوف يدفعانه الى الموت على أي وجه كان دون التحول عن عقيدته التي يرى النعيم جزاءها ، والجهنم عقاب العدول عنها

ثم ان التخالف بين العقائد يحكم على كل صاحب عقيدة برفض تقيضها ودخض كل حجة تخالفها وتقضي عليه بأن يرى جميع مخالفته فيها من الاشقياء الهالكين حيث ان النجاة مربوطة بعقيدته ، والهلاك معقود بمخالفتها ، وذلك يلزمه بمقتضى الطبع أن يسعى جهده في نشر عقيدته وتمكينها في القلوب ، وتثبيتها في النفوس لأحد أمرين

(الاول) سوء الظن بمن يخالفه في العقيدة وخوفه من أن يسعى في ضرره لانتقاص الرابطة الاعتقادية بينهما ، فهو يسعى في ضم جميع الناس الى نفسه في الاعتقاد حتى يكون واسطة في الاتحاد على التعاون والاتفاق الذاتي والأمن من المضار ، وأن صاحب العقيدة لهذا السبب لا يألو جهداً ، ولا يؤخر سعياً ،

ولا يترك وسيلة توصله الى الاكثار من المواقين له في الاعتقاد حتى تتوفر له المنافع ، ويكونوا له عوناً على دفع الأخطار

(الثاني) الشفقة الانسانية ، فان الذي يعلم أن عقيدته تأتي لمعتقدها بسعادة أبدية ، وأن جاحدها لا بد أن يصيبه الشقاء السرمدى ، ويعلم أن بني الانسان كلهم إخوة ، أبناء أب واحد وأم واحدة ، يجب على كل منهم أن يسعى طاقته في نفع الآخر ، كل هذا يحمله على أن يرق وبرحم الذين يخالفونه في الاعتقاد فتأخذه عليهم الشفقة والرحمة ، فيدعوهم الى أن يكونوا على مثل اعتقاده لينجوا في التاجين ، ويستعمل كل حيلة لا تقاذهم من الاعتقادات التي يظنها مضرة بهم مهلكة لأرواحهم بعد مفارقة أبدانهم

ولهذا نرى أرباب المذاهب والأديان منتشرين في كل جهة ، ضارين في كل أرض ، يطلبون انتشار مذاهبهم وبث معتقداتهم بكل ما يمكنهم من الوسائل ، فمنهم من يستعمل الخطابة والوعظ ، ومنهم من يستعمل الكتابة والتصنيف ، ومنهم من ينشئ المدارس والمكاتب للتعليم ، وهذا القسم الأخير هو الأكثر عدداً ، والانجح سعياً . فان العقول في سن الصغر ساذجة ، والأذهان خالية ، وهي مستعدة لقبول ما يرد اليها من الأفكار ، قابلة للتأثر والانفعال ، بما يطرأ عليها من صور الأعمال والآراء والأحوال ، خصوصاً اذا كان جميع ذلك صادراً من شخص تكبره النفس وتعظم قدره مثل الاستاذ والمؤدب والمربي ، فمتى وجد الولد صغيراً في حجر مهدين ومعلمين يربون عقله ويغذون روحه بغذاء علومهم ومعارفهم ، فلا ريب تؤثر فيه أحوالهم وأعمالهم وأقوالهم ، وتنطبع في نفسه صور ما هم عليه ، فأياً كان آباؤه وأسلافه الأولون لا يحفظ عقائدهم ، ولا هيئات أحوالهم ، بل يتشكل عقله ولبه بالأشكال التي يفرضها عليه مهذبوه ومعلموه أياً كانوا ، فان خالفت مذاهبهم مذاهب آباؤه وأسلافه فلا شك في تحول مذهب الولد وانحرافه الى مذهبهم لتأثير أحوالهم عليه خصوصاً وقد بينا فيما سبق أن كل ذي دين يميل بالطبيعة الى بث دينه ، وإعلاء كامة اعتقاده . فأني مكتب أو مدرسة يتولى التعليم فيها رسل ديانة أو

رؤساء مذهب ، بل ذوو عقيدة ثابتة في أي دين كان أو مذهب ، فلا شك أن حالمهم وقالمهم يؤثر في اعتقاد الولد ومذهبه ، ويزداد التأثير بطول المدة وحسن المعاملة والبراعة في طرق التأثير على حسب حال أولئك المعلمين ومشربيهم ، لافرق في جميع ذلك بين دين ودين ومذهب ومذهب ، وجميع هذا لا لوم فيه على صاحب الدين أو المذهب ، فالذي دعاه اليه إما حب المنفعة والأمن من الضرر، وإما الشفقة والرأفة على عباد الله بحسب اعتقاده الذي يراه يقيناً لا ريب فيه ، بل ان هذا التغيير الذي يظهر في اعتقاد التلامذة من تأثير حالة معلمهم ومهذبهم قد يحصل بدون قصد من المعلمين ، بل بحكم السريان والعادة من طول المعاشرة وكثرة الممارسة

وعلى هذا حال المدارس المنتشرة في أقطارنا المصرية التي أسسها وأنشأها رسل الطوائف الدينية لم يكن الغرض منها التعيش والاكتساب ، وإنما الغرض منها نشر العلوم ، وبث أنوار التمدن (على ما يقولون) كمدارس الفرير الامريكان والانكليز وغيرها . فانتا وان فرضنا أنه لاغرض لهم في إنشائها ، وصرف المصاريف الزائدة عليها الا نشر العلوم وتقديم المعارف فقط ، لكن حيث ان رؤساءها ينسب كل واحد منهم الى مذهب من المذاهب المسيحية ، فالرئيس منهم ليس بملزم أن يفرق هيئة التعليم في مدرسته بحيث يجعل لكل قسم من التلامذة كتباً خاصة توافق مذهب التلميذ وديانته ، ولا أن يجعل التعليم في كتب تختص بمذهب غير مذهبه لا يعرفها ، وإن عرفها فربما لا يفهمها ، ولا يرى من الواجب عليه استحضار معلمين عارفين باصطلاحات الكتب الدينية المؤلفة في مذاهب أخر ، فهو على حسب معرفته وميله الطبيعي يعين للتعليم كتباً توافق مشربه ، ولذلك نرى في جميع تلك المدارس كتب القرين والاملاء والمطالعة مما يوافق مذهب رئيس المدرسة ومشربه الديني ، فالبروتستانت يروجون بين التلامذة كتب مذهبهم والكلوايك يترؤنهم ما يوافق مشربهم وهكذا — فالتلامذة على اختلاف مذاهب عائلاتهم يقرؤن كتباً واحدة ، توافق مشرب مؤسس المدرسة خاصة ، فاذا طال بهم زمن التعليم في مدرسة منسوبة للبروتستانت

مثلاً ، فلا شك أن عقائدهم تتحول بالتدرج من المذهب القبطي أو الكاثوليكي أو الدين الاسلامي الى مثل عقائد البروتستانت ، ومثل ذلك يكون في مدارس الكاثوليك ، أو في المكاتب الدينية الاسلامية ، ككاتب الفقهاء مثلاً أو مدرسة الأزهر ، فان المتعلم فيها إن كان صغيراً لا شك تحول عقائده أياً كانت الى الدين الاسلامي بتأثير الكتب فيه ، فضلاً عن تأثير هيئات العبادة وأحوال المعاشرين وأفكارهم التي تؤثر في العقول من حيث لا تشعر ، وكل هذا لا لوم فيه على أرباب المدارس والمكاتب أصلاً ، فانهم لم يعملوا شيئاً الا بحسن النية وصدق القصد ، وليس لهم من غرض سوى إفادة العموم على حسب اعتقادهم

غير أن عزة العقائد على النفس كما بيناه في صدر مقالنا هذا تثبت في الآباء بغيره قهراً على عقائد الأبناء ، فاذا شعر الوالد بأن ولده تحول عن عقيدة عائلته أدنى تحول ، طار عقله وانبعث الى طلب الانتقام ممن تسبب في ذلك بكل حيلة ، وحدث في عائلة الولد من الاضطراب ما عساه يحدث تشويشاً في العموم وقلقاً في الأفكار . ومن ذلك ما حدث من مدة سنوات : أن أحد أولاد مصطفى افندي المنشاوي - واسمه أحمد فهمي - كانت تربيته وتعليمه في مدرسة الامريكان البروتستانتية ، وبعد مضي ثمانى عشرة سنة من عمره أظهر المذهب بالمذهب البروتستنتي ودعا أباه واخوته الى موافقته على عقيدته الجديدة ، وكان لهذه المسئلة قصة هائلة لم نزل يتحدث بها الناس حتى اليوم ، وتداخلت فيها الحكومة وقضاة أميركا ، وانتهى الأمر بفقد الوالد ولده ، حيث سافر الولد الى جهة لا يعلمها والده ، وهو باق في حيرة فراقه ، يتقلب على جمر القلق حتى الآن خصوصاً مع ما يراه في هذا الأمر من العار الذي يلحقه ويلحق عائلته أجيالاً وقد ذكرنا بهذا الموضوع وهذه الحادثة حادثة أخرى تشبهها في النوع ، ووقعت في هذه الأيام ، وهي : أن أحد أولاد حسن افندي الحكيم من رجال الحفانية كان تلميذاً في مدرسة الفرير بالقاهرة مدة طويلة ، ثم انتقل منها الى مدرسة الطب ، غير أن المودة كانت لم نزل بينه وبين رؤساء المدرسة ، وبعد أن أقام في تعلم الطب سنتين تفتيب من مدة أسابيع ، ولم يعلم أين ذهب ، ولم

يهتد والده الى السبب، حتى أخبر أخ له صغير بأن رأى رقيماً من رؤساء المدرسة مبعوثاً الى أخيه المتغيّب ، يعينون له فيه يوم السفر فقط بدون زيادة ، وبعد البحث والتسديق علم أنه في مدرسة الفرير في الاسكندرية ، غير أن المسئلة لم تتضح حتى الآن كحل الموضوع

فهذا أمر أفزع والده وعائلته ، وأوقع بهم من المصائب ما لم يكن في حسابهم ، غير أن اللوم في جميع ذلك على الآباء خاصة ، حيث يرسلون أبناءهم قبل كمال الرشد الى المدارس التي يتولى التعليم والادارة فيها . معلمون على غير مذهبهم أو غير دينهم ، ويقضون بينهم الأزمنة الطويلة ، يتلقون عنهم الأفكار والتعاليم من كل نوع حتى تنطبع أفكار المعلمين وملكاتهم في طباع التلامذة ونفوسهم فمن الواجب على كل شخص يخاف على دينه أو مذهبه ، سواء كان مسلماً أو مسيحياً أو يهودياً ، وسواء كان قبطياً أو أرثوذكسياً أو بروتستانتياً ، أو غير ذلك من المذاهب أن لا يبعث بأولاده وهم صغار ، لا يعقلون ولا يفهمون إلا ما يلقي اليهم من المعلم والمؤدب الى مدارس يتولى التعليم فيها والادارة من ليسوا على مذهبه أو دينه ، ومن تساهل في ذلك ثم تغير اعتقاد أبنائه ، واقلبت مذاهبهم الى مذاهب أخرى فلا يلوم إلا نفسه

وأما من لا ياتزم اعتقاداً خاصاً ، ولا يرى لنفسه مذهباً معيناً ، فله أن يرسل أولاده في أي سن الى أي مدرسة ، إذ لا يبالي بأي تغير يحدث في عقولهم ، ولا تتفاوت عنده أشكال التربية وصورها ، فجميعها لديه سواء

وبالجملة فانا نقول : إن كل صاحب اعتقاد يخاف عليه ويحرص على بقاءه ويحب ذلك لأولاده ونسله - فأول واجب عليه تمكين اعتقاده في عقول أولاده بحفظهم عن مخالطة من يخالفه في العقيدة ، وهم في سن الصغر ، فإذا بلغوا رشدهم ، وعقلوا عقائدهم ، وصاروا في أمن من تأثير أفكار الغير فيهم ، فلا بأس باطلاق سراحهم ، يعاشرون من شاؤا ، ويستفيدون العلم من يريدون ، ومن أهمل في ذلك فهو المهمل في أمر عقيدته ، العديم الخبرة في حفظها . وسنعود الى هذا الموضوع عند ما يرد الينا تفصيل الحادثة الاخيرة ، وما انتهى اليه الامر فيها

المقالة الثامنة والعشرون

بقايا مسألة تأييد التعليم في القفيرة*)

نوهنا في أحد أعداد جريدتنا سابقاً بتغيب ابن حسن أفندي الحكيم بما أغراه بعض رؤساء المدارس الاجنبية واستهواه عن عقيدته ، وفيما يقال إنهم رغبوا السفر به إلى الجهات الخارجة عن القطر المصري حسب ما يوجهونه ، وإن كفر بذلك نعمة الوالد والوالدة ووجد إحسانهما اليه بالتربية البدنية ، وما أنفقا من كسب الايدي عليه لتكامل تربيته النفسية ، وجرح قلوبهما بفراقه وهو عزيز لذيهما ولهما فيه من الآمال ما يسهل نصبهما في تهذيبه وتعليمه

وأشرنا في ذلك الى أن حضرة والده الوله المحزون على ما أصابه توجه الى الاسكندرية مستقصياً خبره فبلغنا بعد ذلك أنه بعد شدة الفحص ودقة البحث لم يعثر عليه ، فرجع إلى المحروسة في حالة اليأس ، فأشير عليه بتقديم تقرير إلى قنصلاتو دولة فرنسا يشكو فيه رؤساء تلك المدارس الذين أغووه وأغروه بفراق والده وارتنكاب العار الشنيع الذي لا يخلصه بل يعم العائلة بتامها كما وقع لسابقه ، فحرر تقريراً بذلك وذهب إلى الاسكندرية لهذا الغرض . فارتقبنا ورود خبر عن هذه الحادثة الى أن ورد الينا من أحد أصحابنا بالاسكندرية رقباً يفيد أن الوالد فاز بوجود ولده قبل اختطافه بأيد طالما طالت الى مثل هذا العمل (التفريق بين الوالد والولد) ولنورد عبارة هذا الرقيم ببعض تلخيص فمنها تتضح حقيقة المسئلة قال صاحبنا بعد الديباجة :

إن نجل حضرة حسن أفندي الحكيم الذي نوهتم بذكوره في أحد أعداد الوقائع في الاسبوع الماضي قد أحضره خاله من الميناء الغربية باسكندرية (محل وجود الواورات البحرية) وعلم من كلامه (كلام الفتى) أنه كان متغيباً جهة الرمل (بالاسكندرية) يدارس مع أحد الاساتذة بعض فصول علمية . وأنه لما

(*) نشرت في العدد ١١٩٧ الصادر في ٢٩ رمضان سنة ١٢٩٨

علم بما ذكره عنه الجريدة الرسمية أخذته الغيرة الدينية والحمية الاسلامية، وحضر قاصداً خاله ، ولم يكن له علم بان والده بالاسكندرية . ولما قيل له انه موجود بهذه المدينة يقاسي من أجله الهموم والغموم سعى اليه وقابله وقبل يديه وأظهر له الخضوع والطاعة ، وأبان له أنه حريص على دينه المحمدي ، وأنه لا يرغب عنه ولم يحملة على التغيب إلا حب العلوم وتشوقه لاتمام علم الطب لشدة شغفه به ، ثم ان والده أخذ يلاطفه ويعدده بما يميل اليه ، وبأنه سيهتم في توجيهه إلى أي جهة يريدونها من الجهات الاوربية حتى آانس منه الامثال ، وقد حملته الغيرة على أن يكتب الى الجريدة الرسمية بنفي مانسب اليه إلا أن والده رغب إلي أن أكتب اليكم بذلك لتذكروه في أحد أعداد الوقائع اه

غير أنني كنت أحب أن يكتب إلي هذا الفتى بنفسه ليكون هو الكاشف عن ضميره بتعبيره ، وأرجو أن يكتب الينا بشيء من الفصول العلمية بأي عبارة كانت لننشرها تحت اسمه ويكون له الفضل ، ونؤدّي له على ذلك الشكر ولنعد إلى أصل الموضوع فنقول : ان عبارة هذا الرقيم في الحقيقة واقية بكشف الواقع ، وأنه لم يخرج عن حد ماوهنا به سابقاً إلا أنا نصرت عن بيان وجوه ذلك صفتاً . فقد ظهر لنا وتحقق أن هذا الفتى النجيب قد حفته العناية الالهية بارضاء والده الخنون الشفوق والابتعاد مما يلحق به وبوالديه وعائلته من ألم العزن والأسف ، إذ يلم بوالديه مالا يقدر من الاحزان على فراقه وبعده ويحيط به نفسه الغم والهم كلما لاحظ في فكره أو خطر بباله حالة أويه ، وما وصل أمرهما اليه، إذ توجّه ذمته ويأهنه ضميره، كلما تذكر الاحسان السابق منهما اليه مع إساءته اليهما وهو قادر على مكافأة الاحسان بالاحسان ، فنحن نشكر له هذا الانتباه ونحمده على تلك الغيرة الدينية ، بل الحمية الانسانية، ونوصيه بمراعاة حرمة الوالدين التي جعلها الله تعالى في الرتبة تالية للارقرار بربوبيته ووحدايته إذ قال تعالى (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً) وقال تعالى (وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين احساناً) وبأن يعظم قدر الاحسان الذي أسدياه اليه صغيراً وهو فاقد القدرة والارادة والياه بالبر، حتى صار رجلاً ذا قدرة على الكسب ، واختيار وإرادة في الخير والشر ، فقد قرن الله شكر الوالدين

بشكره في أمره فقال تعالى (ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن
وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك اليّ المصير)

وعلى هذه الوصايا المقدسة وردت الكتب السماوية بأسرها ولا ريب أن
هذا هو الذي يمجو عنه كل شيء، لحقه من تلك الاشاعة التي ظهر آخر الأمر
على ضدها، ووقفه الله تعالى لحسن الطوية، ووقفه عقله بنور المعرفة، ليسعي في إرضاء
والديه وتسكين خواطرهما قياماً بأمر الله في جميع كتبه، على لسان جميع رسله
والأمل بعد هذا أن لا يتغيب عنهما إلا باذنهما سواء كان لمدرسة العلوم
أو اكتساب أي فضيلة كانت حرصاً على برهما، ثم اننا نعيد انذار الآباء هدايم
الله بأن لا يسلكوا بأولادهم في التربية مسالك توجب لهم قلق الفكر، وتشويش
البال، وأن لا يبعثوا بأبنائهم الى المدارس الاجنبية التي تغير مشاربهم ومذهبهم
حتى يأذن الله تعالى بمنع التعلم الديني في جميع مدارس العالم، فتكون المدارس
قاصرة على العلوم غير الدينية والصنائع، ويكون للدين مواضع مخصوصة لتعليمه
والترية بمقتضاء. وهذا خصوصاً في مثل أقطارنا أبعد من مجيء الالف على رأس
المائة. على أن ماسبق منا نشره في الاعداد الماضية يقتضي بأن نفس المعاشرة
تؤثر في العقيدة فلا يؤمن على الاطفال من تغيير المذاهب الا اذا ارتفع استحسان
الشخص المعتقد، واستوى جميع الاعتقادات عنده، وهذا محال مادام الدين
ديناً، فليتنبه من ينه، ولينته الآباء ان كانوا يعقلون

(يقول جامع الكتاب) ان الاستاذ رحمه الله نبه الغافلين عن مدارس دعاة
التصيرية بالطف العبارات وأبعدها عن إثارة تعصبهم وتعصب أنصارهم وتلاميذهم
واحتجاج ساستهم وجرائد هم في زمن لم تكن الحرية فيدراسة في البلاد، والصواب
أن جميع مدارسهم ومستشفياتهم لم تنشأ الا لأجل نشر دينهم وجذب الناس اليه
والمسلمون لا يزدادون إلا غفلة وعمي عما يكيد لهم الكائدون، ولا يزالون يلقون
بأفلاذ أكبادهم الى مدارس الدعاية والتبشير فان كان من يتنصر منهم نادراً فمن
يخرج ملحداً أو معطلا ليس بنادر، وكلاهما يكون ممزقاً لشملة أمته مقطعاً لروابط
ملكه وبها يكون خادماً لأعدائهما من حيث لا يشعر

المقالة التاسعة والعشرون

نبيل المعالي بالفضيلة

عثرنا في جريدة المقتطف على فصل مفيد يحكى تاريخ الجنرال غارفيلدرئيس جمهورية الولايات المتحدة في أمريكا . فكان هذا التاريخ شاهداً على ما للرجل من وفرة العلم وكثرة التجربة ، وتقلبه في الاعمال النافعة لبلاده، ودليلاً على ما للبلاد أمريكاً من التقدم في المدنية ، حيث ان فضل الرجل عندهم يعرف ويشهد لهم به فلا يحول بينه وبين ما يؤهله له استعداداه وضاعة أصوله ، أو خمول عشيرته ، أو فراغ يده من النقود ، أو حقارة مسكنه ، أو خشونة مأكله ، فجميع هذه الظواهر التي لا تدخل لها في جواهر الرجال ليست معتبرة عندهم ولا هي المدار في ارتقاء مراتب الشرف والسيادة ، وقد استفيد من هذا التاريخ أن هذا الرجل لم يصل الى ما وصل اليه بلزوم أعتاب الكبراء ، ولا الوقوف خلف أبواب الامراء ، ولم يرفعه الى منزلة الرياسة العظمى صفاء لون الوجه ، ولا حسن تركيب الخلق ، ولا توسطه في منافع من هم أرفع منه منزلة ليجذبوه من حضيض حطته إلى أوج رفعتهم . وهكذا يرتفع أبناء الأوساط والآحاد من الناس في البلاد المتمدنة بالصفات الفاضلة ، وسعة المعلومات ، وبذل الجهد فيما يعود على البلاد بالخير والفائدة

وهذا (هو) الذي يبعث كل فرد من أفراد الأمة على الجهد في كسب الفضائل الحقيقية ، واستعمال العقل الانساني فيما خلق لأجله من إصلاح أحوال المعيشة وسعادة الدارين ، وسلوك طرق الرشاد ، واستخدام جميع الوسائل الا أهمية التي أعدها الله تعالى لمنافع خلقه ، ووهب لهم إدراكا يتمكنون به من اجتناء منافعهم منها

فأرباب التروة وذوو المقامات الرفيعة يعلمون أن المناصب وارتفاع الشؤون إنما تنال بالفضائل التي أهدى الله بها عباده وهداهم إليها على لسان من اختصهم بحياها الإدراكات السامية ، ودلم عليها بالحاجات والضرورات بما ساقه إليهم من حوادث الكون التي هي خير أستاذ ماهر للعقول الانسانية ، والنفوس البشرية ، وجعلها قواما لسعادة المعيشة ، وركناً شديداً لبيت الحياة ، وهي الفضائل التي دونت لها كتب العلماء والحكماء ، وأثبتها الصديقون والسياسيون في مؤلفاتهم ، وجمعها طلب النفع الخاص من طريق الفائدة العامة ، أي الوقوف في السعي لكسب المعيشة عند حد ما ينفع الجمعية المعنونة باسم واحد كحصر أو الشام أو أمريكا أو ينفع عموم نوع الانسان ، ولا يجلب ضرراً على أحد من المجتمعين لاني العاجل ولا في الآجل ، إلا أن يتوقف عليه نفع جميعهم ، ويتبع هذه الفضيحة الكلية عدة فضائل هي أصناف وأنواع لها ، وكل واحدة منها أصل لفضائل لا تنحصر إلا بالذوق الظاهر ، والفكر الدقيق ، ويلزم لتليها كلها اتساع دائرة العقل في المعلومات ، ومقارنة الحوادث بعضها ببعض في السير المدني ، ونسبة كل منها الى الآخر في المنفعة والمضرة حتى يتيسر للشخص حسن الطلب على النحو الذي يبناه ، ويتبع هذا الواجب نشاط في العمل المفيد للفرد والمجموع ، وإحمال لكثير من المشاق المتعبة في أوقات ، وإن أعقبها راحة دائمة ، ثم يعقب ذلك تحمل بصفات كثيرة ، وتحمل عن أغراض جملة . تسمى الاولى باسم الفضائل وتعنون الثانية بعنوان الرذائل . فاذا تيقن الأعلون من الناس أن لارفعة ولا تروة إلا بجوز هذه الفضائل دأبوا في تحصيلها ، وبذلوا الجهد في المحافظة عليها ، فيسعدون بما يستفيدون ، ويسعد غيرهم بما يفيدون ، إذ يحرصون على التفنن في العلوم والصنائع التي يحتاجها غيرهم ، فيطلبها منهم بالثمن الذي يرغبون ويجهتدون في منع كل ضرر يخشى وقوعه لهيئتهم الاجتماعية التي هم أعضاؤها الرئيسة فتطلبهم الافراد للسيادة عليهم جزاء لهم بحسن خصالهم ، وجميل فعالهم

وأما الوضعا من الناس وذوو الانساب الحقيرة ومن لا اسم لهم فانهم يعلمون أن هذه الصفات الفاضلة تسوق الى السعادة ، وأن من لا قدر لهم ولا تعلم أسماؤهم

لخول ذكركم ، وحجب ستارة الفقر ، والاعدام شواخصهم عن أعين الناظرين
يعلو ذكركم ، وتتوجه الافكار الى معرفتهم ، والقلوب الى احترامهم ، وتطلبهم
المنازل الرفيعة وهم في مساكنهم الخقيرة ، فيجدون ويجتهدون في اكتساب
ما يؤهلهم ويعدم للحاق بمن سبقهم في الاعمال النافعة والاصناف المفضلة لينالوا
من رفعة الشأن مثل مانال السابقون ، وبذلك تكون الأمة على اختلاف طبقاتها
في حركة صعود دائماً . فان الغنى وذا الجاه لا يريان -افظ غناها وجاهها أو
الاستزادة منها إلا المحافظة على منابع الخير من ذاته ، والبعد عن قواذف الشر
ومطارح الضر ، والفقير وخامل الذكر لا يجد سبيلا الى الغنى ونباهة الاسم الا
المبادرة الى أسبابه الحقيقية ، وهي التشبه بالنبلاء والوجهاء الذين لم ينالوا النبالة
والوجاهة الا بالفضائل الحقيقية في التحلي بتلك الفضائل حتى يصبح نبيلاً وجاهياً
مثلهم ، فتقوى في الأمة دعائم العمران ، وتثبت فيها أصول السعادة التي وضعها
الله تعالى لتحسين حالة الانسان في حياته ، ووقايته من الخطر الذي يتوقع أن
يحل به ، وعند ذلك تكون للأمة الاحوال التي نسميها بالرفاهية والعزة والسطوة
والقوة والشوكة والغنى والثروة والرئاسة والسياسة وغير ذلك من الصفات
التي تمدح بها ويعلو شأنها

وهذا بخلاف ما يوجد في كثير من البلاد التي لاعناية لها بشأن الفضائل
فلا ينظر فيها الى الشخص من حيث حليته الباطنة وزينته العقلية ، ولكن أهاليها
ينظرون الى الرونق الظاهر والحلية الصورية ، ويعدون الاعراض الساقطة في
المنزلة الاولى من الاعتبار ، فلا ينزل الواحد فيها منازل الشرف الا اذا كانت
له من أبيه أو من متبوعه جبة الشرف ، ثم ان صاحب الجاه والشأن الرفيع
لا يسقط من مقامه . فان جاهه هو المانظ له ، وشأنه هو الذي يقدم أبناءه
وحواشيه الى مثل مقامه ، وإن كان فاقداً لكل فضيلة وخالياً من كل صفة
إنسانية ، فتكون الطبقات في مثل هذه البلاد على الدوام ثابتة أفرادها على
حال واحد في أزمنة كثيرة . فالفقراء يبقون على فقرهم ، والأغنياء يدومون
على غناهم ، وقليل أن يصير الفقير غنياً ، ويلزم لذلك تمكن الاستبداد والظلم في

قوس الطبقات العليا وثبوت جرثومة العبودية والذل في قلوب الطبقات السفلى ، وفي مثل هذه البلاد قد ينال بعض المستضعفين ، وآحاد الناس ، ومن لاشأن لهم رفعة شأن أو علو مقام ، ولكن لامن أسبابه الطبيعية التي سنها الله في خلقه بل بوسائل التذلل والمداجاة وإظهار العبودية لمن فوقه، ولزوم أعتابهم، والوقوف على أبوابهم ، أو بأن ينتصب لطلب منافعهم الخاصة . فاذا داوم على ذلك أزماناً وقروا له وأخذوا بيده فدرجوه في مراقبي الشرف سلماً بعد سلم حتى يلحق بهم ويعد في حاشيتهم ، فيشرف بمثل شرفهم ، فبهذه الوسائل تنحرف القلوب وتميل الافكار عن الجادة المستقيمة ، ويدخل الناس في هذه الطرق فتعدم الرغبات في الفضائل ، بل تغفل الاذهان عنها بالكلية فلا تتوجه إلا الى تلك الرذائل

غير أن هذه الوسائل وإن أفادت في بابها وأتت بالغاية المطلوبة منها، لكن لا يمضي زمن قليل حتى تسقط الأمة بتمامها ، وينتهي بها الحال الى الخراب ويمر نشر جميع الافراد

فهنيئاً للبلاد التي تعرف فيها الحقوق لأربابها ، ويدخل لها السعادة (١) من أبوابها ، وإنا ننشر هذا الفصل التاريخي ليستفيد منه المطالعون .

« ١ » لعل الاصل: ويدخل لها السعادة - جمع ساع - اوتدخل لها السعادة - الخ على ان تذكر فعل السعادة جائز هنا

المقالة الثلاثون

العلم وتأثيره في الإرادة والاختيار*)

﴿ لأحد المفكرين المشتغلين بالعلوم العقلية قال : ﴾ (١)

سألني أحد الأفاضل عن سلطة الفكر والتعقل عن الإرادة ، وسلطة الإرادة عليهما ؟ فلم أجدهم بدأ من المذاكرة معه في هذه المسئلة ، وتوضيح ما وصل اليه عقلي تقلا عن العلماء المحققين ، واستنباطاً من كلامهم ، ولظني أن في ذلك نوعاً من الفائدة لقراء جريدة الوقائع رأيت من اللائق نشره على لسانها حكاية لآراء العلماء ، وما أدام اليه التدقيق في هذه المسئلة ، ولا بدّ قبل الكلام في الفكر والتعقل من تقديم مقدمة في العلم ، ولا نتكلم في العلم من جهة ما يقول ويقول المرشدون من أنه نور العالم الانساني ، وشمس وجوده ، وروح حياته ، وأنه وسيلة التقدم في المدنية ، وكال الحقيقة الانسانية ، وهو سيف القوة ، وينبوع الثروة ، وما شابه ذلك من الاوصاف الحقة التي أجمع عليها العقلاء ، بعد أن صدر به النطق الالهي على لسان الرسل والأنبياء ، والصدّيقين والأصفياء . فان هذه الأوصاف إنما تثبت للعلم من جهة أنه مطابق للواقع ، ومثال للحقائق الثابتة ، وحاك عن الأوضاع الالهية في عالمنا الوجودي . أما كلامنا الآن فهو في مطلق الادراك المعبر عنه بالشعور الذهني الذي يشمل جميع التصورات والتصديقات من حيث هي

اختلفت كلمة العلماء في مسمى لفظ العلم ، فمنهم من قال : أنه الصور المنطبعة في النفس آتية من طرقها المعلومة (الحواس الخمس) أو حاصلة من تأليف بعض تلك الصور الآتية مع بعض آخر . ومنهم من قال : انه انفعال النفس بتلك

* نشرت في العدد ١٢٧١ الصادر في ١١ المحرم سنة ١٢٩٩ - ٣ سبتمبر سنة ١٨٨١

(١) المقالة بطولها له رحمه الله ولكنه أراد أن ينظر في هذا البحث المهم لذاته

الصور أي التأثير الذي يحصل فيها ب ورود الصور عليها . ومنهم من قال غير ذلك من كونه نسبة بين العالم والمعلوم ، مجهولة الحقيقة أو اتحاد العالم بالمعلوم ، الى غير ذلك من الأقوال التي لاحاجة بنا الى ذكرها ، لكن القواين الاولين هما الأقرب الى العقل ، والأشهر في التمثل ، ويكاد الخالف بينهما يكون لفظياً ، لاتفاتها على أن النفس المدركة تنطبع فيها الصور ، فهي متأثرة بها ، إلا أن الخلاف في كون العلم هل هو الصورة نفسها ، أو تأثر النفس وانفعالها بها ؟ والأقرب للحقيقة هو الرأي الثاني ، وهو ما يرشد اليه الوجدان الذي يدرك كل متعقل من نفسه

فالعلم بناء عليه انفعال في هذا الجهر المدرك الذي نخفي علينا حقيقته ، لكننا نعرف آثاره ، وهو الروح الحيوي ، والقوة المودعة في المخ والأعصاب من الحيوان ، أو المعبر عنه بالنفس الناطقة في الانسان . فالضياء الذي قال العلماء أنه يحمل الصور الى الباصرة مثلاً ، ليس المراد أنه يتمثل صور المرئيات كما ينقل أحدنا الشيء من المكان الى البصر فيودعها فيه . إذ هذا من المحالات الأولية . فان صورة الشيء الذي نراه لاتفارقه بالضرورة ، بل المراد أن الضياء للطفه عند مروره على الصور والاشكال يتشكل بها ، فيكون أيضاً بنفسه قد حدث فيه شكل يشاكل هيئة مامر ، وانطبق عليه على حسب حالة الانطباع ، ولما فيه من الحركة السريعة المستمرة ، ينعكس الى البصر بشكله ، فيؤثر في الروح اللطيف (أشد لطفاً من الضياء بكثير) المودع بالحكمة الالهية في مركز الادراك يمثل ما تأثر الضياء من المرئي عند انطباعه عليه . وهكذا يقال في تموج الهواء بالنسبة الى المسموعات ، وفي المدوسات والمثومومات والمذوقات يتأثر الروح المنبت في الأعصاب الادراكية من نفس الكيفيات التي تتصل به ، فيحصل فيها مثل هيئتها التي خالطته

فالعلم والادراك أثر في الجوهر الدراك يحدث فيه من المؤثرات الأخر المحيطة به ككسائر الآثار التي تحدث في الأشياء من اتصال بعضها ببعض ، وانفعال كل منها بما في الأخر من الكيفيات والصفات التي يمكن أن يفعل بها (٢٣ - تاريخ الاستاذ الامام - الجزء الثاني)

كالحرارة يكتسبها الماء عند اقترابه منها ، والماء يكتسب شكل الأثناء عند وضعه فيه ، وما شابه ذلك

وهذا الأثر بحكم الوضع الإلهي الذي لا تصل إلى كنهه العقول ثبتت في جوهر المدرك ، مستتباً لجميع لوازمه التي لا تفارقه ، فصورة الإنسان مثلاً يتشكل بها الروح على هيئتها التي تشكل بها الضياء ، وهي في مكانها المخصوص ، ووضعها المعين ، فكما صارت تلك الصورة في الروح يكون فيه أيضاً حيزها ومكانها التي كانت حالة فيه عند الرؤية ، ومقدار البعد بينها وبين الأشياء التي أحاط بها الضياء ، وأتى بها معها ، وبالجملة فإن الشيء يكون في العقل كما هو في الوجود مع كافة لوازمه وتوابعه على حسب ما اتصف به الموصل ، وما قبل الروح المدرك بحكم استعداده الفطري ، حتى ذهب كثير من المحققين إلى أن الحقائق بنفسها موجودة بذاتها في العقل كما هي موجودة في الخارج لما رأوه من الدلائل التام بين صورة العلم والمعلوم ، فكان عالم الإدراك وما يوجد فيه هو بعينه عالم الشهود وما احتوى عليه . وكما أن حركة الموجودات في العالم الخارج عن نفوسنا تدعو إلى اتصال بعضها ببعض ، فيتألف منها أجسام على نمط منتظم أو غير منتظم يكون لها من الخواص والصفات بعد تألفها ما لم يكن لها قبل التألف ، فإن حركة الأجزاء الغذائية مثلاً وانضمامها إلى البدن الإنساني أو الحيواني يكسبها من صفات الحياة ما لم يكن لها قبل اتصالها بالبدن ، كذلك حركة الجوهر المدرك فينا تفضي إلى انضمام بعض الأشكال الإدراكية فيه إلى بعض آخر فيتألف منها شكل ثالث يكون له من الخواص العقلية في ذلك الجوهر ما لم يكن للشكائين الأولين ، ونريد من الأشكال أنواع المركبات الحادثة في جوهر الروح فإن انضمام بعضها إلى بعض يحدث أنواعاً أخرى من الحركة

وكما يرى في عالم الشهود أن بعض أجزاء العالم يجذب بعضاً وبعضها يطرد بعضاً آخر لتمام مناسبة أو تمام منافرة بينهما ، كذلك بعض المعلومات في العقل إذا حصل يوجب انضمام معلوم آخر إليه أو انفصاله عنه ، وفي كلا الحالين أحدث في النفس أثراً جديداً ، ومن ذلك تذكر الشيء بعد الذهول عنه لوجود

ما يلائمه أو يضاده بالكلية ، وقد يكون في الحالين مع سرعة تارة ، ومع بطء تارة أخرى ، كما يحصل ذلك في الموجودات المشهودة بلا فرق ، ومعنى هذا أن تأرجوهر الادراك بحالة قد يوجب تأثره بحالة أخرى لرابطة بين التأثيرين ، سواء كانت تلك الرابطة ناشئة عن المناسبة أو المعاكسة

ومن المعلوم المقرر عند كل عاقل أن هذا الجوهر الروحي هو المتسلط على الأبدان التي صارت باستعدادها الطبيعي مظهرآ لآثاره ، بمعنى أن حركات هذا الروح في أجزاء الأبدان توجب مطاوعة تلك الاجزاء له ، فهذه التأثيرات والانفعالات التي تحدثها فيه حركات الموجودات الواصلة اليه ، توجب في هذا الروح حركة مخصوصة على حسبها ، شأن سائر المؤثرات الطبيعية العادية ، وبحكم حركة هذا الروح تتحرك الأجسام والأبدان بآلاتها المخصوصة على ترتيب ونظام مخصوص يشبه حركة الروح الناشئة عن تأثرها ، وهذا ما نسميه بالحركة الارادية ، وهي التي يندفع بها البدن الى طلب شيء أو الهروب منه عند العلم بعلامته أو منافرته ، أي عند انفعال الذهن بصورته مع لازمها الذي هو الملاءمة أو المنافرة حسب الشكل الذي حدث في الجوهر الروحي المعبر عنه بالذهن - يتحرك في الأجزاء المعدة لحركته فيها ، فتتحرك هي أيضاً بحركته ، إما طلباً وإما هرباً (جذبا أو طرداً)

وقد يتعارض آثران في الجوهر المدرك الذي هو الروح ، وبعبارة أخرى قد تختلف صورتان علميتان في العقل (إحداهما) تقتضي اندفاع الروح ، وحركته نوعاً من الحركة (والأخرى) تطلب نوعاً آخر منها فيقف ، وهي حالة التردد ، فإذا عرض من الآثار الادراكية أو الصور العلية ما يقوي أحد الاثرين تحرك الى ما يوافق ، وإلا فهو في مركز الوقوف ، ويبقى أثر ضعيف في الادراك للصورة المرجوحة عند ما يغلب على الروح أثر الصور الأخرى فالارادة إنما هي تابعة للأثر العلمي في الروح الادراكي أو هي صورة أخرى لذلك الأثر ، بل الفعل الصادر عن الروح في البدن أغني الحركة البدنية نفسها إنما هو ظهور الاثر الادراكي في الروح ، فيكون حاصل القول أن المتصل

بالروح أثر فيها أثر آ وهو العلم أوجب حركتها في أجزاء البدن ، فكان عنها حركة البدن نفسها ، وإن شئت قلت : تشكل الروح ، وهو في الأجزاء بشكل ما اتصل به ، فظهر ذلك الشكل بعينه في الأعضاء بالحركة الفعلية ، وهذا ما يقول العلماء إن الإرادة تنزل العلم ، والفعل تنزل الإرادة . ومعناه أن حقيقة الأثر واحدة ظهرت في الأشياء المتعددة بمظاهر مختلفة

وقد يكون تأثير الإدراك في أعضاء البدن وأجزائه والمواد التي يتركب منها خارجا عن الطور الذي نسميه بالإرادة ، وذلك كفعله في الدم عند ما ينتقش بصورة فعل منافر ، وفي الامكان دفعه ، فيفوق الدم ويغلي ، وينتشر في جميع العروق ، ويدور فيها دورة غير اعتيادية ، فإذا اشتدت الدورة تحرك البدن الى الايقاع بمن صدر عنه الفعل غير الملائم ، وهذه هي الحالة التي نسميها حالة الغضب ، فان تأثير الأمر المفضي في الدم ليس في حد الإرادة والاختيار ، وإن كان التحرك للايقاع واقعا تحت الإرادة ، لكن ربما اذا أمعنا النظر نجد خارجا عنها ، وإنما نعده داخلا تحتها عند ما نلاحظ أن عندنا أثرًا علميًا آخر يدافع طلب الانتقام ، ويرد النفس عنه ، وهو صورة عاقبة الفعل الانتقامي وما يخشى من خطرهما ، فلوجود هذا الأثر عند الغضب نحسب الحركة الغضبية حركة إرادية ، وإلا فالغضبان يحس من نفسه أنه مغلوب لإدراكه

ومثل ذلك تصور العاشق وصل المعشوق ، فانه يفعل في الدم حركة وفي القلب خفتاناً ، خصوصاً إذا كان المعشوق بمرأى منه ، وبمشهد من أعماله ، ويتبع ذلك ارتعاد خفيف في الأعصاب والأربطة البدنية ربما يفضي الى الرعدة ، وليس هذا التأثير داخلا تحت الإرادة ولا هو منها في شيء ، ولكن قد يتبعه فعل إرادي مثل الفعل الذي يتبع الغضب ، وإنما يعتبر الفعل إراديا ما إذا كان ناشئاً عن إدراك آخر ، سواء كانت المنازعة على وجه المدافعة أو المقابلة ، ومرادنا من المقابلة تصور الشيء وضده ، وترجيح غايته على غاية الضد كتفضيل الحياة على الموت عند تصورهما

وقد يفعل الإدراك في الدم وقفة وانقباضاً ، ربما يؤدي الى الجمود وقد

الحياة كما نشهده فيمن نفع بموت ولده أو صديقه ، أو تصور خطراً وخطباً
 جسماً . فان قوة هذا الأثر الادراكي وفعلها في جوهر الادراك قد تتسلط على
 الدم قهرده من العروق بحركة جوهر الروح وشدة انقباضه ، أو توقف دورته ،
 وربما ينشأ عن ذلك موت المفجوع والأيس ، ويتبع ذلك من الأعمال
 الارادية قبل ذهاب الحياة سكون أو تحرك غير منتظم . وقد يؤدي إدراك
 من الادراكات — كتصور أمر مخيف — إلى ذهاب الادراك ، وسلب الشعور
 بالكلية ، وهو ما يعبر عنه بالانغماء والغشى ، وذلك لاستيلاء أثر الصورة المخيفة
 على الجوهر المدرك في البدن ، فلا يسفله سواها ، فتضمحل جميع الانفعالات
 المعبر عنها بالادراكات ، وتفتى في نوع هذا الادراك والانفعال الشديد
 وهذه الأحوال التي نجدها من أنفسنا ترشدنا بلا شبهة إلى أن التأثير
 الادراكي من الانفعالات الطبيعية التي تتأثر بها الجواهر اللطيفة من الضياء
 والكهرباء وغيرهما ، وإن ما ينشأ عن التأثير الادراكي إنما هو كيفيات تتبع الحالة
 التي صار عليها الجوهر المدرك بعد التأثير الذي عرض عليه أي مانسية عقلاً وإدراكاً

المقالة الحادية والثلاثون

الملكات والادراكات

إن هذا الجوهر الروحاني المتعلق بأبداننا الذي يتأثر من كل واصل إليه
 وينفعل أشكالاً من الانفعال لكل متصل به يأخذ بتوارد أنواع التأثيرات
 هيئات مخصوصة تثبت فيه ، مستتبعه لوازمها حتى تصير كأنها من أصل خلقته
 لكثرة ما وردت عليه ، وهي التي نسميها ملكات إدراكية وعلوماً ثابتة في
 النفس لا تزالها ، ويتبعها السجاياء والطبائع والأخلاق النفسانية ، الملائمة لتلك
 الملكات الادراكية ، ويلزمها الأفاعيل البدنية المعبر عنها بالعادات
 فليست الأخلاق والعادات إلا توابع ومستلزمات للعالم والادراك الذي
 هو أثر في جوهر الروح يتبعه الأثر الفعلي ، فان عرض للنفس مؤثر أو وقف

على أبواب الادراك وارد غريب عن ملكاتها السابقة ، وبعيد عن الهيئات الادراكية التي أخذ الجوهر شكها عسر على الذهن إدراكه ، وتعسر على النفس فهمه ، وماعت الأعضاء البدنية أثره ، فهذه الأخلاق والملكات ناشئة عن كثرة توارد الانفعال النفسي الادراكي من نوع واحد ، حتى صارت هيئة للنفس تصدر عنها الانفعال الجزئية الملائمة لها ، كلما عرض عليها أثر جزئي من نوع الهيئة الكافية ، فسجية الكرم مثلا تثبت في نفس الكرم ، لكثرة انفعال عقله وإدراكه بصور الغايات الشريفة التي تتبع الكرم ، والفوائد الجميلة التي يكتسبها باذل المال ، أو باذل المهمة في سد حاجات المحتاجين ، فبتكرار هذه الصور والادراكات على العقل ، وصدور الأثر الارادي عنها ، وطول الزمن على ذلك تمكنت في النفس هيئة مخصوصة إدراكية ، وهي اليقين الذي خالط الروح بأن الكرم جميل مفيد ، ويتبعها انطباق النفس بالذم (كذا) التام لحركة الاعطاء ، وإيصال الخير إلى من يحتاج اليه . فإذا أخطر ببال الكرم وصاحب هذه السجية التي تولدت فيه عن انتقاش نفسه بصورة فائدتها فعل لبخيل مناع للخير ، رأيت عقله يبعد عن إدراك هذا الفعل ويجد من روحه انقباضاً وتعاصياً عن الانفعال به ، بل يجد جوهر عقله يطارد هذا الانفعال الذي تجلبه إحدى الحواس ، أو يذكر به راوي العمل وحاحيه ، فإذا كلف صاحب هذا الخلق بأن يعمل عمل البخلاء ، رأى من نفسه بعد الابانة الادراكية والمصادرة العقلية انحطاطاً بدنياً وارتباطاً في الأعضاء حتى كأنه يجد عاقداً يعقد كل طرف بآخر ، ومانعاً يمنع من نفسه عن تحريك عضلاته ، بل يحس من ذاته كان القوة المحركة إلى هذا العمل الخبيث ، فاقدة (كذا) بالكافية . وهكذا يقال فيمن تعودت نفسه إدراك غوائل الفقر والحاجة ، وتكاثر عايتها الانفعال بصورة العجز والضعف عن الكسب ، وتميماً جوهره الادراكي بصورة الانخدال والانهمزام من صدمات الحوادث ، فهذا الذي أحاط بادراكه جميع المزعجات ، تراه قد رسخ في قوته الروحية أشكال من هذه الانفعالات ، وانطبعت نفسه ، ومبادئ الحركة فيه على الميل إلى ما يلائم إدراكه الثابت ، فهذا الراسخ

هو ملكة العلم بفوائد البخل والامساك عنده ، وهذا المنطبع سجية البخل ،
وعنها تصدر الارادة بالأفَاعيل الناقصة التي هي عنوان هذه الملكة وتلك
السجية ، ولئن ذكر لصاحبها طرف من أحاديث البر والاحسان ، وما ينشأ
عنها من الفوائد لمن تحلى بهما ، رأيتهُ ينفر من ذلك نفور الوحش ، ويطلب سد
أبواب الادراك على نفسه حتى لا يتكدر خاطره ويتألم بهذه الصور الرديئة المستبشعة
من جملة هذه الملكات التي ترتكز في جوهر النفس المدركة ملكات
الصناعة كالكتابة والادارة والرسم والحدادة والتجارة ، وغير ذلك من أنواع
الصنائع التي ترسم في ذهن المدرك صورها الآتية اليه من إحدى الحواس ،
مقترنة بما يلزم تلك الصنائع من الفوائد والثمرات التي يجتنيها العامل فيها ،
ونارة لا تأتي اليه صورة الصناعة من طرق الحاسة ، ولكن يضطره الاحساس
المؤلم العارض له من المؤثرات الجوية الى طلب الخلاص منه ، فيندفع إلى
التأمل في الموجودات المحيطة به لعله يجد منها ملجأ ، فينفلج بصور منها على هيئات
مختلفة انفعالا يلائم الانفعال الأصلي ، أعني طلب الخلاص من الألم ، فيتحرك
للعمل فيها على غير انتظام ، ولا حالة تمام وكمال في مبدأ الأمر ، ثم يلجئه
ركوز الفائدة المقترنة بهذه الهيئة ، ولزوم الحاجة لمداومة الأعمال فيها إلى جبر
الأعضاء والآلات البدنية على حركات واهتزازات خاصة ، إن كانت الصناعة
بدنية حتى تلين تلك الأعضاء ، وتكون في غاية المطاوعة لهيئة الروح المدرك ،
رأعني أنها تكون في حركتها مثالا لما ارتسم في الروح من الهيئة التي رآها أو
لمسها مثلا مع لازمها من الفائدة والغاية الملائمة حيث أثر ارتسامها في الروح
أثراً خاصاً ، وبه سرى في الأعضاء على هيئة وكيفية خاصة ، ويصعب أول الأمر
أن تكون على طبق ما ارتسم من كل وجه ، ولكن باستحكام الأثر ومداومة
العمل تنطبع الهيئة بتامها في الأعضاء كما انطبعت في مركز الادراك ، ومثل
ذلك الهيئة المخترعة التي دعت الضرورة الى ارتسام الذهن بها

فان كان العمل غير بدني كالأدارة والسياسة مثلا من الأعمال الفكرية التي
لا يراد من العامل فيها سوى تأليف صور فكرية معقولة تنطبق على الواقع ، ويمكن

بالسهولة الاجراء على مثالها وهو مانعبر عنه في اصطلاح الحكومة بالتنفيذ، فلذلكها
 إنما تثبت في العقل ، وتنطبع في الروح ، حتى تكون كهيئة فطرية له كافي سائر
 المللکات بتوارد صور كثيرة مختلفة الانواع والأشكال من صور المضار والمنافع
 والمصالح والمفاسد ، ثم يوجد عنده انفعال وتأثير بغاية وداعية تبعته على المقارنة
 بين تلك الصور والحركة في تطلب لوازمها الكامنة فيها . فاذا استحکمت هذه
 الغاية في النفس صيرت الروح كالبحر المائج والاشكال العلية أمواجه، أو كالضياء
 لا ينفك عن الحركة يؤلف بين عدد من الصور ، ثم يفرق بينها ، ثم يجمع بين
 المتفرقات في نقطة ، ولا تسكن له حركة حتى يستقر في ملتقى المنافع ، وهي
 الصورة المنطبقة على غايته الملائمة له ، أي التي تأثر وانفعل بها فانبعث لطاها
 بحكم ذلك الانفعال . وفي مبدأ الأمر لا تأتي هذه الحركات بالمطلوب على وجه
 السرعة ، لكن متى استحکم في الروح الأثر الباعث على هذا العمل الفكري
 استمرت الحركة العقلية مرة تهاذي الغاية ، وأخرى تنحرف عنها ، فتحفظ
 الانحراف آراً يبعدها عنه مرة أخرى حتى يكون الاتجاه الى وجهة الطلب كقطع
 جبلي فيها . وهذا إجمال في القول ربما نأتي على تفاصيله فيما بعد

ومن تأمل حال سير الانسان بل طريق ترقيه وتدنيه في أعماله واختلاف
 عاداته وأخلاقه واعتقاداته وكافة شؤونه ، وأنه قلما يتفق جيلان من الناس بل
 قبيلتان ، بل فخذان على استحسان شيء أو استقباحه ، بل اذا تنزلنا إلى النظر
 في الجزئيات رأينا هذا الاختلاف بين كل شخص وشخص حتى المولودين في
 بيت واحد ، هذا يستحسن شيئاً ، وذلك يستبجه ويستبجه ، ومن يدقق نظره
 في ذلك يوافقنا على أن هذه الاحوال الإدراكية التي تتبعها المللکات والاعمال
 التي نسميها بالاعادات . إنما منشؤها الانفعال من المؤثرات الخارجية التي تختلف
 على الشخص باختلاف موقعه وما يحيط به من مؤثرات الطبيعة ، ومن يكتنفه
 من أبناء جنسه ، وما ينشأ عليه من نوع المأكل والمشرب ، والملبس والمسكن ،
 وما يطرق أذنه من الاصوات ساذجة ولفظية مستعملة ومهملة ، وما يراه من
 الصور والاشكال متعاقبة بعضها أثر بعض ، وما يذهب إليه إدراكه من جميع

ذلك مستقباً ومستقباً لوازمه . فان جميع ذلك يتشكل به الروح المدرك ويكون هيئة فيه ، وما تكرر منه ثبت شكاه فيه ، أي انطبع الروح بطابعه ، أي صار الروح على ذلك الشكل فهو في حركته الطبيعية يكون على ذلك المثال وهو ما نفي من تقرر الملكة وثبوت العادة . وما لم يتكرر يذهب أثره بغلبة بقية الاشكال عليه . ويعرف العلماء الملكة بهيئة راسخة في النفس تصدر عنها الافعال بدون فكر ولا روية ، وليس مرادهم من كونها بدون فكر ولا روية أنها غير لواردية بالمرة ، أو أنها رمي بدون رام ، تارة بخطيء ، وتارة يصيب ، ولكن مرادهم أن الروح ينطبع عليها . فالارادة موجبة الى ما يكون على مثالها بدون احتياج الى جولان بين الصور وترجيح بعضها على بعض ، وبعد تمكن الملكة في النفس وانطباع الفكر أو الاعضاء على محاذاتها في الحركة يكون من الصعب بل ربما كان من المتعذر أن يتحول الانسان عنه إلا بقاهر تشتدوطأته على النفس فيوصل اليها من المؤلمات أو يخيل لها من المخوفات ما يؤثر فيها آثراً قوياً يلويها عن الأثر الأول ويقودها الى الأثر الجديد ، ثم يستمر ذلك أزماناً وإن شئت قلت أجيالاً حتى تضمحل الهيئة الأولى ، وتثبت الهيئة الأخرى . ومن ذلك الحديث الشريف « اذا سمعتم أن جيل كذا انتقل من مكانه فصدقوا واذا سمعتم أن فلانا تحول عن خلقه فلا تصدقوا » (١) يشير بذلك الى صعوبة الانتقال عن الاخلاق والعادات الثابتة من تلقاء النفس بدون أن يضطرها قسراً أو زاجراً ، وهيئات أن ينال المطلوب مع ذلك

ومما يرشد الى أن تكرر الانفعال على النفس يحدث فيها هيئات فكرية وعملية ما حكاها عبد الوهاب (علاه عبد اللطيف) البغدادي من حوادث سنة ٥٩٥

(١) تتمته « فانه يصير الى ما جيل عليه » وهي نص في مراد الاستاذ رحمه الله تعالى ولعله كان نسيها عند الكتابة او وقف عند المداول على الالسنه . والحديث عزاه السيوطي في جامعه الى احمد عن ابي الذرداء وسكت عليه على ان سنده منقطع فهو من رواية الزهري عنه وهو لم يدركه . وانني اراه لا يشبهه كلام النبي « ص » فإن كان معناه صحيحاً

هجرية في مصر أن شدة القحط وقد المطعومات في الديار المصرية بذلك الوقت اضطر بعض الناس لأكل بعض آخر لسد الرمق وإلهاء كلب الجوع ، وفشا ذلك فاستبشمت النفوس ونفرت منه حتى إن بعض الناس أزعج لهيئة أكل الانسان فمات من بشاعة المنظر ، ثم لما عم ذلك غالب الافراد زالت البشاعة شيئاً فشيئاً حتى صار من المألوفات أن يأكل الرجل أحد أقربائه ، والمرأة ابنتها أو أحد أقاربها ، وكانوا يطبخون لحم الأدمي بالتوابل والبهارات كما يطبخون لحم الحيوان . فانظر إلى الانفعال الذي حدث في النفس من غائلة الجوع كيف غلب على الاعتقاد وكان في غاية الاستحكام ، واقلب القبيح حسناً ، إلا أنه بعد زوال العارض عاد الاعتقاد الأول الى مكانه لارتفاع الضرورة لكن لم يعد الى حاله الأولى على وجه السكال إلا بعد أزمان

نظن أنك التفت فيما ألقينا اليك من المقدمات السابقة إلى أن العلم والادراك الذي يستولي على الارادة إنما هو الانفعال بالصور الواردة الى الروح الدراك اذا قارنها الانفعال بصور الغايات اللازمة لها ، ولامنة لذي الروح أو منافرة ، ولا يتحرك بها الروح على هيئتها الثابتة فيه منبثاً في الاعضاء أو ما تجافي مركزه الفكري لينفعل بصور مركبة من الانفعالات البسيطة أو المركبة ، إلا اذا لم يعارضها انفعال يلوي الروح إلى ضد الحركة التي تطلبها تلك الانفعالات ، إذ عند المعارضة لا يكون للهيئة الأولى تمام الثبوت والركوز في النفس ، ومتى قوى ارتسام الصورة الادراكية وتغلب على سائر الادراكات الأخرى ، وكان الارتسام بمطلوب أو مهروب منه اندفع الروح إلى الحركة كما مر بك بيانه . وعن ذلك تكون الاعمال التي باستمرارها تثبت الملكات أو العادات

ويوجد علوم يسميها أرباب الاصطلاح علوماً وأرى لهم في التسمية حقاً لأنها نوع من التأثيرات النفسية الادراكية ، وإن كانت لا أثر لها في باب الادراك يصح اعتباره إلا من وجه أنها أشكال مؤلفة من خواطر النفس لا غير ، وهي مأخوذة التعاليم والالفاظ الموضوعه بازاء معان يمثلها المعلوم للذهن بالتمثيل والتشبيه ويقربونها الى الجوهر الدرك بتذكير بعض المألوفات، فيحدث منها في

المخيلة أنواع من الاشكال بسائط ومركبات ، أي يتشكل الجوهر الدراك
 بهيئات تناسب التقريبات التعليمية تحضر عنده بالتذكر وضم بعض المذكورات
 إلى بعض . وذلك كما يوصف للأعمى هيئة الافلاك والكواكب وحركاتها ،
 ويمثل له ذلك بكرة الصبيان موضوعة في مستديرات (١) كحيط الغربال إلا أنها في
 السعة على نحو كذا وفي التدوير على كيفية كذا الخ الأوصاف
 وكما يقرب للبخيل حقيقة الكرم وكيفية بذل الحق لصاحبه ومنحه استحقه ،
 وصرف ثمرات الكسب فيما يؤثل الحمد ، ويعلي شأن الحسب وأشباه ذلك . فانه
 يتمثل في ذهنه هيئة مركبة من مجموع الأوصاف التي كانت بسائطها ثابتة فيه ، وإنما
 التعريف أحدث هيئة اجتماعها مسماة باسم واحد هو الكرم مثلا الا أنها لا تجاوز
 المركز الادراكي ، فهي ترسم فيه من حيث التمثيل والتعليق . فان تواردت عليها
 الاشباه والمذكرات من وجه التعليم والتذكر بقيت ثابتة ، ويقال لمن هي عنده
 أنه عالم بتلك الصفة وقادر على تعليمها كما أخذها على النحو الذي حضرت به
 عنده . ومن ذلك كل ما يتعلمه الشخص من القواعد العلمية قصد أن يتعلقها أي
 أن توجد في جوهر روحه صور مؤتلفة على نوع خاص من الائتلاف ، وترجع
 الى وجهة واحدة في الجنس كعلم النحو ، وعلم العروض مثلا ، أو فن الاخلاق والسياسة
 وقد يحصل عند الشخص من ذلك شيء يسمى بالملكة ، لكنه ليس من
 نوع الملكات التي بينا كيفية حدوثها عند النفس فيما سبق من الكلام ، وإنما هو
 نوع من رسوخ تلك الصور في المدركة بحيث اذا وجد جزئي من الجزئيات يرد
 على الذهن من الخارج ، فربما ينتبه المدرك الى كون هذا من نوع بعض الصور ،
 وليس من نوع البعض الآخر . ويكون لصاحب هذه الملكة أنه يولد في عقله
 من هذه الانفعالات انفعالات أخرى تحاكيها محاكاة تامة أو غير تامة ، ويطابق
 بين الأصل وما تولد عنه كل ذلك في عقله لايراعي فيه الانطباق على الواقع ،
 أو عدم الانطباق ، فان لاحظ ذلك فهو على شريطة أن لا يباين الأصل الذي
 تلقاه . فهذا إنما هو نوع من حركة الروح على مركز واحد حركات متشابهة أو

متعاكسة . ومن تأمل في المسائل الاختراعية التي استولدها بعض علماء الفنون العقلية ، وذهبت عقولهم خلفها ، فاستحدثوا لها في أذهانهم لوازم لم يقفوا فيها عند حد تين حقيقة ماقلنا ، فمثل هذا النوع من العلوم لا يؤثر في الإرادة شيئاً سوى أنه يحولها الى إجابة الفكر فيه ، فلا يكون له هم الا تأليف الاشكال العقلية وتفريقها ، وهذا نوع من تسلط الإرادة على الادراك بعد تسلطه عليها

مثلا الذي درس علم التهذيب لقصد الوقوف عليه ليس الا بعد أن صار كهلا بين قوم بعيدين عن التهذب ، وتلقفت احساساته من أحوالهم ما انطبع عليه روحه الدراك وسرى به في الدم والعروق ، وجرت به الاعمال العضوية ، ومرنت عليه حتى صارت في النفس ملكة وللبدن عادة ، وحفظ جميع ماحوته الكتب الشهيرة في هذا الفن . فان قواعد الفن وصور أصوله تكون جائمة في مركز الادراك وأشكالها ثابتة فيه ، لكنها حيث لم تقترن بغاية هذا التحصيل وهو العمل ، وانما كان القصد مجرد العلم حتى يمكنه أن يعلمه ويلقيه كما تلقاه — فان العقل والنفس يقفان به عند هذا الحد فقط . فاذا انضم الى ذلك غايته وهي أن يقدر على تأليف جمل منه وفصول يعبر عنها باللسان أو بالكتابة تحرك الروح في لسانه ، وتضامت الاشكال في مخيلته على الترتيب الذي يريد في عقله فيتمكن من ذلك بالتعود حتى يصير هذا النوع من العمل ملكة له ، وتكون الإرادة تابعة للادراك هذا النوع من التبعية

ومثل هذا من يتعرف أعمال العبادة المسيحية وهو مسلم أو بالعكس لا يقصد العمل ، ولكن يقصد أن يتكلم أو يكتب ما يدل على تلك الاعمال وفروعها ، فالإرادة تابعة للانفعال الادراكي بالداعية والباعث الى الحركة . فان كانت الداعية مجرد التصور وقفت عنده أو انضم الترتيب والتأليف في الالفاظ والارقام تجاوزت الى هذه الغاية ، وهي الى هذا الحد لا تفيد في حال الشخص وصفاته الحقيقية التي هو بها جزء من هذا الوجود شيئاً يعتد به ، وأرباب هذه الحالة يعرفون في الاصطلاح باللفظيين تشبيهاً لعلومهم باشكال الهواء والأصوات المقطعة المسماة بالالفاظ لا أثر لها إلا بالعرض

ومن ذلك الذين يتكلمون كثيراً بالحكم العالية والأصول النظامية الجليلة لكنهم في أعمالهم لا يراعون شيئاً مما يقولون ، وما ذلك إلا لكون تصوراتهم إنما هي تأليف أشكال خيلها لهم المثلون والمقربون فوجد لتأثر أذهانهم بها نوع من الارتياح للطف الأشكال المؤلفة منها في حد ذاتها . فانبسطت نفوسهم لاستبائها ، وانضم الى ذلك احساسهم باجلال الناس لمن ينظمها في سلك العبارات أو الأرقام فوجهوا الإرادة إلى ذلك فلم ينالوا سواه . وعلى هذا المثال من يعرف قواعد النحو بالتمثيل والتقريب إلا أنه اذا قرأ لا يتذكر شيئاً منها ، واذا كتب جال قلبه خارجاً عن دائرتها ، وأولئك هم المبتدئون الواقفون على عتبة التعليم . ولا يصح أن يقال لهم بالحقيقة عالمون بشيء مما يقولون ولو علم النحو مثلاً قواعد النحو حق العلم ، أو عرف السياسي أصول السياسة كمال المعرفة وانطبع بها روحه الإدراك على النحو الذي أسلفنا لتبع ذلك الانفعال غايته . فان الغاية من الأصل المدرك التي ما وضع الأصل الا لها من لوازمه لانفارقه ، فعدم تمكنها في النفس دليل عدم تمكن الأصل نفسه فيها ، ومتى تمكنت الغاية انطلق الروح في الآلات العملية لتحصيلها فيعرج في السير ويستقيم حتى ينطبع شكل الأصل وغايته في الروح المنبث في كافة الاعضاء ، فتصدر لذلك الأعمال تابعة للأصل الثابت بدون عسر وهناك تمام العلم وكاله ، أفلا يرى أن مدرس السياسة عند ما يقبض على زمامها لا اجراء العمل بما علم يلتبس عليه الحال الواحد لا يدري يطبقه على أي أصل من الاصول الثابتة عنده ، أليس هذا جهلاً بنفس الأصل حيث لم يقف على نوع جزئياته؟ لكنه بعد التطبيق وظهور العاقبة الحميدة يجد من نفسه أنه فتح له باب جديد من العلم ، وكذلك ان حدث منه أثر رديء فهذا الارتباك الاول والارشاد الثاني شاهدان على تقص الإدراك قبل تمكن الملكة النفسية والاعمال التعويدية وكاله بعد تمكنها . ومن هذا القبيل أحوال كثير من الناس يزعمون أنهم يعتقدون شيئاً ويعلمونه حق العلم ، بل ويدافعون عنه ، ولكنهم يعملون على خلاف ما يقتضيه مع زعمهم التيقن بأن النجاة في اتباعه ، والهلاك في العدول عنه ، وقد تبين أنهم في الحقيقة لا يعلمون

الادراك الراسخ في النفس الذي يكون هيئة ثابتة لها ، وملكة تصدر عنه الافعال بدنية كانت أو فكرية لها أثر واقعي لا مجرد الأثر التصوري هو المعروف في الاصطلاح بالاعتقاد، لأنه بانطباعه في جوهر الروح المدرك كأنه عقد في النفس بحيث يعسر انحلاله وزواله ، والنفس بكثرة مزاولته وتكرار انفعالها به قد اعتقدته وارتبطت به ، وما عدا ذلك هو الخيال والموهوم يحوك في النفس وتظهر صورته فيها عند عروض مذكراته ، وموجبات انفعال النفس به ، فاذا هب الروح لحركته الذاتية بورود الموجب رأيت المعتقد قد احتوى على الروح تتحرك به وتوجه إلى وجهته ، وزال ذلك الموهوم كأن لم يكن ، وانما مثل الموهوم في النفس مع المعتقد كمثل جسم غريب حل في شكل الشعلة المحروطي فأثر في انحرافه عن المحروطة فاذا قويت الشعلة حتى أحرقتة عادت الى تمام الشكل ، ولا يحصل انحراف الشكل إلا عند عروض عارض آخر ، فالصور الاعتقادية في الروح تكون كالاشكال الطبيعية ، وما دونها لا يؤثر فيها أثراً حقيقياً ثابتاً ، وفي ذلك يقول نبينا صلى الله عليه وسلم « لا يزني الزاني وهو مؤمن ولا يسرق السارق وهو مؤمن » (١) ولست أريد تفصيل ذلك

تأمل إلى من جلس أمام منبر الخطابة يستمع الوعظ بكل إنصات ، ويهز رأسه هزة الهام بمجمل ما يسمع ، وتارة يذرف الدمع من عينه لما حاك في نفسه من الانفعالات الروحية التي أحدثتها مذكرات الخطيب ، ويكون ذلك الوعظ في تخفيض شأن الدنيا وتهوين أمر الحياة ، وأن كل طويل فيها قصير ، وكل سرور فيها مشوب بمكدرات وشرور ، وأن لا غنيمة فيها سوى ما يقدمه العاقل بين يديه من طيبات الأعمال ليكسب بها نعيماً . وبدأ ، حتى إذا انفض المجلس وانتشر اقوم لطلب الرزق ، رأيت ذلك الباكي وهو يترب إلى موارد الشهوات ، ويدنو من مساقط الدينيات ، ويستعمل لذلك أنواع الخيل التي طبعها في جوهر إدراكه فواعل الاحتياطات التي آلت به ، أو وردت عليه صورها ملمة بغيره

« ١ » هو جزء من حديث رواه الشيخان في الصحيحين وغيرهما رفيه تقييد النبي بقوله « لا يزني الزاني » حين يزني وكذا حين يسرق وحين يشرب أي الخمر

مع العجز عن افتتاح طرق الكسب من وجه يلائم مقال الواعظ ، ويتفق مع إرشاد المرشد ، فيكون عمله على ضد ما يزعم اعتقاده ، حيث إن هذه الطرق لم تألف إحساناته ، ولم تنتقش في مداركه على النحو الذي يثبت الروح في الأعضاء ، فيحركها على مشاكلة تلك الرسوم الجميلة .

فقد وضح لنا من هذه الآثار التابعة للادراك أن الصور التعليمية التي تحضر الذكرة دائماً أو في بعض الأحيان غير مصحوبة بالغاية العملية لا تعد في الحقيقة معتقدات ، وإنما هي مخيلات تظهر في جوهر النفس عند عروض المذكرات فقط . ثم لا يترتب عليها أثر حقيقي في جوهر الروح يثبت فيه ، ولكن ينشأ عنها أعراض وقتية تبين من هذا الذي أوردناه من التقريبات في باب تأثير الادراك في الارادة أنه يعم جميع الادراكات والارادات ، سواء كانت مطابقة للصواب ، جالبة للسعادة الحقيقية ، مانعة من الشقاء ، أو لم تكن كذلك ، وان ذلك لتابع لما يصل إلى المدرك من المؤثرات الخارجية التي تحدث فيها آثاراً تناسب هيئتها التي وصلت بها اليه ، ولم يخرج في ذلك الانفعال الادراكي عن سائر الانفعالات الطبيعية إلا من حيث الكيفية والنوع المخصوص ، فاختلاف العادات والملكات والاخلاق والاعمال في النوع الانساني ، تشهد لنا بناء على تلك المقدمات السابقة أن منشأها هو اختلاف الآثار الواردة على مراكز الادراك من الأكوان الطبيعية المكتتفة بالمدرك وعوارضها ، وهذا الاختلاف إما أن يكون لتباين الحوادث ، وتحالف الطبائع الخارجة من حيث الحلقة الأصلية والوضع الالهي . وإما أن يكون لاختلاف حالة المدركين أنفسهم في قبول التأثيرات من جهة الاستعداد المجبول عليه جوهر الادراك

أما الوجه الثاني أعني اختلاف الآثار لاختلاف الاستعداد الممنوح بأصل الحلقة لجوهر الادراك ، فهو يأتي من حيث التركيب الجسماني ، والعناصر الداخلة فيه ، والوضع الذي أبدعته يد القدرة الالهية عليه . فعناصر التركيب البدني وجودتها ودرءاتها ووضعها فيه ، وكيفية تأليف الأعضاء ، ونسب الأجزاء بعضها لبعض — مما له دخل في ظهور الجوهر الادراكي بآثاره ، وبعبارة أخرى

في شدة انفعاله بالمؤثرات الواردة عليه وضعفه ، وفي قوة استثبات الصور المنفعل بها ، وضعف تلك القوة ، وغير ذلك من صفات الادراك التي لا تخفى على مدرك . وهذا الدخل مما لا يشك فيه

وأما الوجه الأول أعني اختلاف الآثار بواسطة تباين الحوادث ، وتختلف الطبائع الخارجة عن ذات المدرك ، فهو يظهر من اختلاف العمادات والأخلاق والادراكات باختلاف الأقطار والبقاع ، وتنوعها بتنوع أحوال التربة والجو الذي تنشأ وتنمو فيه ، ويمتاز بعضها عن بعض بتميز حالة التعيش ، وطرق اكتساب الرزق ، ووقاية الوجود من الخطر والاحساس من الألم التي تستدعيها طبيعة الأراضي . فالذي يقتضيه كسب الرزق الضروري لحفظ الحياة من طريق الصيد البري ، وتدعو اليه الحمامة عن النفس بمدافعة الوحوش الكاسرة والسباع الضارية ، أو يبعث اليه التأثير من شدة البرد ، وبيوسة المنشأ ، وجذب المكان ، كل ذلك غير ذلك الذي يقتضيه كسب الرزق من طريق الزراعة ، والفرار من المهدلڪات بالاستكتمان في بعض الأكوخ لسهولة الارض وخلوها من المفترسات ، وبعدها عن المؤثرات الجوية الشديدة ، وتوسطها في البر والبرد ، وما يلائم ذلك من موجبات السهولة في تطالب الارزاق ، فان تأثر الجوهر الدراك بالأخطار الأولى يبلغ من الشدة مبالغاً يحدث فيه سرعة الحركة الروحية التي تتبعها الحركة البدنية على أنحاء توصل إلى المطلوب أعني التخلص من تلك الأخطار ، وتكرارها وكثرة تواردها على النفس تودع فيها ملكة عملية تصدر عنها الأعمال على ذلك النحو المتقدم . مثلاً إذا نشأ الانسان في أرض جبلية كثيرة الغور والنجد ، غزيرة الغابات ، وعرة المسالك ، قليلة الخصب ، تسكنها أنواع الحيوانات المفترسة ، ومع ذلك تكون في جو شديد البرد كثير الضواغق سريع التقلب . فلا ريب أن الانفعالات التي تعرض على إحساساته من هذه الأشياء المكتنفة به ، وكثرة ماتدعوه إلى المقاومة والصادمة ، واحتمال المصائب في دفع المصائب ، وتجشم المشاق ليتخلص بها من المهدلڪات ونحو ذلك — تجعل في الأعضاء قوة على العمل ، ثم ترسخ منها في النفس ملكة الشجاعة والاقدام ،

وتتجه بذلك قوة الادراك إلى البراعة في الكر والفر ، وفنون الدفاع والمهجوم ، وتثبت فيها ملكة الحذر واليقظ ، وملكة النشاط في السعي لطلب المعيشة ، وملكة الثبات في العزائم ، وملكة حب التألف والاجتماع للتعاون على دفع المضار وجلب المنافع المشتركة . وملكة القسوة والتهاون بالدماء ، وعدم الاكتراث باتلاف النفوس وإزهاق الأرواح . وملكة الغضب الشديد الذي يحمل صاحبه على شدة الانتقام . وملكة الغدر التي تتولد دائماً من الاضطراب وعدم الاطمئنان للحوادث . ويتبع هذه الملكات ملكات أخرى . ويتبع الجميع عادات وأفعال تناسبها

وهذا بخلاف ما إذا نشأ في سهولة العيش ، وخصب الأرض ، وهشاشة التربة ، وخلوها من الغابات ، واستواء سطوحها . واعتدال هوائها . وصفاء جوها . وخلوها من الحوادث الخفية . فان ذلك لا يحدث في النفس إلا صوراً لطيفة تتبعها ملكة اللين والمساهلة والكرم وحسن الطاعة وسلامة النية والتزاهة عن الضغائن . والبعد عن الطمع . والرضا بالقليل . وما يتبع ذلك من الصفات التي لا تتخلف عن مناشئها الواقعية إلا بالطوارئ العرضية التي نذكرها فيما بعد فانظرها ﴿ يقول جامع الكتاب ﴾ : إن الاستاذ وعدنا بأتمام هذه المقالات الفلسفية التي نشرت في خمسة أعداد . وقد تصفحنا سائر أعداد الوقائع المصرية التي صدرت بتوقيعه فلم نجد فيها هذه التهمة . ولعله شغل عن أمثال هذه المباحث الدقيقة في الفلسفة بحوادث الثورة العراقية التي نجمت في تلك الأيام ، واضطر لمقاومتها كما علم من بعض ماسبق ، ويعلم من المقالات الآتية في الشورى وغيرها

المقالة الثانية والثلاثون

الحياة السياسية

تقرر فيما سلف أن لا بد لذوي الحياة السياسية من وحدة يرجعون إليها ،
ويجتمعون عليها اجتماع دقائق الرمل حجراً صلباً ، وأن خير أوجه الوحدة الوطن
لامتناع الخلاف والنزاع فيه ، ونحن الآن مبنون بعون الله ماهية هذا الوطن
وبعض ما يجب على ذويه

الوطن في اللغة محل الانسان مطلقاً ، فهو والسكن بمعنى : استوطن القوم هذه
الأرض وتوطنوها أي اتخذوها سكناً ، وهو عند أهل السياسة مكانك الذي
تنسب إليه ، ويحفظ حقتك فيه ، ويعلم حقه عليك ، وتأمين فيه على نفسك وآلك
ومالك . ومن أقوالهم فيه : لا وطن إلا مع الحرية . وقال لا بروير الحكيم
الفرنساوي : لاوطن في حالة الاستبداد ، ولكن هناك مصالح خصوصية ومفاخر
ذاتية ، ومناصب سمية . وكان حد الوطن عند قدماء الرومانيين : المكان الذي
فيه للمرء حقوق وواجبات سياسية

وهذا الحد الروماني الأخير لا ينقض قولهم : لاوطن إلا مع الحرية ، بل
هما سيان . فان الحرية إنما هي حق القيام بالواجب المعلوم ، فان لم توجد فلا
وطن لعدم الحقوق . والواجبات السياسية وإن وجدت فلا بد معها من الواجب
والحق ، وهما شعار الأوطان ، التي تفتدى بالأموال والأبدان ، وتقدم على
الأهل والحلان ، ويبلغ حبها في النفوس الزكية مقام الوجد والهجان

أما السكن الذي لا حق فيه للسكان ، ولا هو آمن (فيه) على المال والروح ، فغاية
القول في تعريفه انه مأوى العاجز ، ومستقر من لا يجد إلى غيره سبيلاً ، فان
عظم فلا يسر ، وإن صغر فلا يسوء . قال لا بروير السابق الذكر : ما الفائدة

من أن يكون وطني عظيماً كبيراً ، إن كنت فيه حزيناً حقيراً ، أعيش في الذل والشقاء خائفاً أسيراً

على أن النسبة للوطن تصل بينه وبين الساكن صلة منوطة بأهداب الشرف الذاتي ، فهو يغار عليه ويزود عنه كما يزود عن والده الذي ينتمي اليه ، وإن كان سيئ الخلق شديداً عليه . ولذلك قيل في مثل هذا المقام : إن ياء النسبة في قولنا مصري وانكايزي وفرنسوي ، هي من موجبات غيرة المصري على مصر ، والفرنساوي على فرنسا ، والانكايزي على انكلترا ، فأنكر ذلك بعض الناس ، وكان في الأمر لاشك سوء فهم أو سوء أفهام

وجملة القول ان في الوطن من موجبات الحب والحرص والغيرة ثلاثة تشبه أن تكون حدوداً (الأول) أنه السكن الذي فيه الغذاء والوقاء والأهل والولد (والثاني) أنه مكان الحقوق والواجبات التي هي مدار الحياة السياسية ، وهما حسين ظاهرين (الثالث) أنه موضع النسبة التي يعلو بها الانسان ويعز ، أو يسفل ويذل ، وهو معنوي محضاً

فاذا تقرر ذلك مما قلناه وجب على المصري حب الوطن من كل هذه الوجوه ، فهو سكنه الذي يأكل فيه هنيئاً ، ويشرب مريئاً ، ويبيت في الأهل أميناً ، وهو مقامه الذي ينسب اليه ، ولا يجد في النسبة عاراً ولا يخاف تعبيراً ، وهو الآن موضع حقوقه وواجباته التي حصلت له بما أوضاعنا من دخوله في دور الحياة السياسية

والحب على أهله شروط محفوظة عند الأذكياء ، مجبولة عند المدعين الأغنياء ، فما تنفع فيه الشكوى ، ولا تقدم لصاحبه دعوى ، إلا يبيان من الواقع وشاهد من الفعل ، وما أحسن ما قيل :

دلائل الحب لا تخفى على أحد كحامل المسك لا يخلو من العبق وله مراتب مناسبة لموضوعه ، موافقة لمنشأه ، فهو في الكرامة كريم ، وفي النبالة شريف ، وفي المآثر حميد ، وفي العز والمجد رفيع ، وفي الوطن جامع لكل هذه الصفات ، فان قيل في حب الحسان

أحبك حباً لو تحيين مثله أصابك من وجد علي جنون
 لطيفاً مع الأحياء أما نهاره فدمع وأما ليله فأنين
 فقل في حب الأوطان :

أحبك حباً لو تحيين مثله أصابك منه ياديار تغير
 شديد مع الاشواق أما نهاره فسهي وأما ليله فتفكر

ولقد كان بعض الناس يحاولون خلع الشعار الوطني عن ذوي الحقوق والواجبات في مصر وإلباسهم جميعاً لباس الجهالة والذل، ولكن أبت الحوادث إلا أن تثبت لنا وجوداً وطنياً ورأياً عمومياً ولو كره المبطلون . على أن منهم فئة لا يزالون يؤلمون أسماعنا بما يكررون من سفاسف القول، من مثل اننا تعودنا احتمال الظلم والحيف، وألفنا الخدمة والرق، فلن يستقل لنا رأي، ولن نهتدي سبيل الحرية، كأنما هم لا يعلمون أن أهل الغرب أجمعين تعودوا مثل ذلك الحيف أعصاراً وكانوا في قديم الأيام على ضروب من الرق، وانخفاض الجناح، وأن العالم بأسره كان فريقين أحراراً يظلمون، وعبيداً يطيعون. أولم يكن في بلاد الفرنسيين من قبل هذا العهد صنوف من الرقيق يشتغلون في الأرض لغيرهم، ويبيعون كما تباع العجاوات . أولم يقل كاتبهم فولتير في وسط المائة السابقة : لا يزال في بلادنا ستون ألفاً أو سبعون ألفاً عبيداً للرهبان

فما بال هذه العادة لم تمنع الفرنسيين من الوصول إلى ما أدركوه من رفعة المقام، وإن يروا أمثال تيارس وجريفي وغامبتاني أبناء الذين كانوا من قبل عبداً أرقاء، واثق كان من فضل هذه المائة أن يكتب في صدر تاريخها تحرير أرقاء العصر السالف . فلقد رجونا وحقق الله هذا الرجاء أن يختم ذلك التاريخ بتحرير الذين كانوا أرقاء في هذا العصر، وحسن ذلك ابتداء، وحسن ذلك ختاماً

المقالة الثالثة والثلاثون

الشورى (٥)

تسلكم عليها من جهة وجوبها عقلا على الحاكم والمحكوم معا فنقول : خلق الانسان محاطا بالشهوات ، مكتنفا بالاميال ، مقيدا بالأغراض ، فهو أسيرها تدفعه إلى مقتضياتها ، وتجذبه إلى لوازمها ، بحيث تكون جميع قواه آلات لما تحركها بما يناسبها ، وتستعملها فيما يلائمها ، فلا يتصور حسنا إلا ما تستحسن ، ولا يتخيل جيلا إلا ما تستجمل . وهذا أمر يكاد أن يكون طبيعياً فطرياً ، لا يمكن الانسان أن يفاله ، ولا أن يتخلص منه . وإن أمكن في بعض الأحيان تقليل سطوته وتحديد سلطته . على أن هذا أيضاً ليس في وسع كل أحد ، ولا في طاقة كل شخص فلا يستطيعه إلا من كبرت همته ، ولا يقدر عليه إلا من ذكت فطنته حتى يتمكن من ردع تلك الدوافع وكبح تلك الجواذب بما يتخذه من الوسائل المختلفة حسب اختلاف المقاصد والذرائع المتنوعة حسب تنوع الغايات وحيث كانت هذه الدوافع والجواذب قوية لدى أولي الأمر لاقتدارهم على مقتضياتها ، وتمكنهم من لوازمها ، كانوا مضطرين إلى مغالبتها ومقاومتها بما يتيسر من الوسائل المؤدية الى ذلك ، حتى يتمكنوا من النهوض بما وسد اليهم من رعاية مصالح العباد . وليس من وسيلة إلى ذلك الا مشاوره العارفين العالمين بطرقها ، فان للرأي العام في مغالبة الأهواء مالا يخفى من القوة . ولذلك ترى أن الانسان ربما مال الى شيء ولكن يئمه من معاطاته لعله بأن الرأي العام

• نشرت في العدد ١٢٨٩ الصادر في ٥ صفر سنة ١٢٩٩ - ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٨٩ ونشرنا في الطبعة الاولى مقالة قبل هذه عنوانها « الشورى والاستبداد » ثم أخبرنا صاحب الدولة سعد باشا زغلول الذي كان من محرري جريدة الوقائع انهاله وانه لم يضع اسمه في آخرها لأن الاستاذ كان أمر جميع المحررين بترك وضع امضائهم في ذبول مقالاتهم

لا يستحسنه . وأيضاً فالإنسان الواحد قاصر وإن بلغ ما بلغ من اتساع نطاق الفكر عن أن يحيط علماً بمصالح عامة ، خصوصاً إذا كانت مصالح أمة كبيرة ، فإنها حينئذ تكون بمنزلة الفنون المتنوعة المختلفة التي يعجز الإنسان الواحد أن يستوعبها ويستوفىها اطلاعا

وقد يتنبه بعض الناس من أنفسهم لهذا الأمر ، ويعلمون أنهم لو تركوا أنفسهم وشأنها فربما استرسلت مع شهواتها ، ومالت مع أغراضها ، ووقفت دون الصواب حجاباً ، فيجتهدون في منع ذلك بأن يستنصحو الناس ويسترشدوهم ويستهدوهم ، استعانة منهم بأرائهم على كشف الحجاب ، ورفع النقاب عن وجه الصواب . وهؤلاء هم القوم الذين صفت سرائرهم وطابت نفوسهم ، فلا يرون حسناً إلا ما وافق الصواب ، ولا جميلاً إلا ما طابق الحق . ومن هذا يتبين وجوب الشورى على الحاكم

وأما وجوبها على المحكوم فيتبين مما أقول: قد علمت أن الواحد وإن بلغ من علو الفكر ورفعة الذكاء مكاناً علياً ، قاصر عن الاحاطة بمصالح الأمة . وحينئذ يلزمها إذا ألفت إليه مقاليد مصالحها أن تمدد من آرائها بما يقتدر به على التمهوض بواجباتها والقيام بحقوقها ، فليس من الانصاف أن تلتقي على كاهله أعباء هذه المصالح الجسيمة وتتخلى عنه . ثم إذا رأت ما لا بد منه من التصيير وجهت إليه سهام اللوم ، بل يجب عليها مساعدته بما تراه موافقاً لوجه الصواب . ثم إذا وجدت منه تقصيراً فيما اختص به كان لها حينئذ أن تلوم ، وكما لا يصح أن تتخلى عنه في الأعمال البدنية العمومية مثل حنى البلاد ممن يريدونها بسوء ، بل لا بد من مساعدته فيها ، وإن لم تفعل فقد قصرت فيما وجب عليها ، كذلك لا يصح التخلى عنه في الأعمال الفكرية العمومية ، فإن كونها فكرية لا يسلب عنها الجسامة المقتضية للتشارك فيها . وهل من العدل أن تترك الأمة حاكمها بين أعمال مهمة مختلفة الأنواع ، متشابهة الألوان ، يصعب على أي مخلوق كان وحده أن يقوم بأعبائها ثم إذا رأت منه تقصيراً بحسب ما يبدو لأول النظر بادرت إلى تعنيفه ؟ لعمرى لو فعلت ذلك انها إذا لمن الظالمين

وأن لنا على صحة ما قدمنا من الأدلة لدليلا فيما فعل سيدنا عمر وقومه رضي الله تعالى عنهم ، حيث قام بينهم خطيباً فقال : أيها الناس من رأى منكم في عوجاجا فليقومه الخ (١) إذ ليس معنى تقويم الاعوجاج في هذا إلا التنبية على الحق ، والارشاد إلى الطريق المستقيم ، فما يدل على وجوب التشاور على الحاكم هو طلب عمر رضي الله عنه تقويم اعوجاجه ، وما يدل على وجوبه على المحكوم هو إجابة الصحابي بقوله : والله الخ . فانه لا يجوز استعمال القوة الا بعد الاعتذار بالارشاد والهدى

ولقد رأى خديونا الأ فم حفظه الله مثل ما رأى سيدنا عمر مما قضى بالتشاور ، وأن بلاده قد كثرت بها خصوصاً في هذه الأيام مواد الاعمال ، واختلفت مواضع المصالح ، وتنوعت أسباب المنافع . إذ لا يخفى أن هذه البلاد قد امتازت عما سواها بكثرة الأعمال الداخلية المختلفة اختلافاً كلياً بحيث يناسب بعض البلاد منها ما لا يناسب البعض الآخر ، فندب رعاياه الى التشاور حرصاً منه على الاقتداء بالسلف الصالح ، كما هو شأنه حتى في الأمور الجزئية الخاصة ، فضلاً عن الامور الكلية العامة ، وعلماً منه بما وراء التشاور من الفوائد الجليلة ، والمنافع الجزيلة

وكأني بن يقول : ان لنا فيما كان عليه السلف من طريقة التشاور لغنى عن سلوك هذه الطريقة الحالية . فأقول في جوابه : ان هذه الطريقة الحالية قد صارت دون سواها ذات الوقع العظيم والتأثير القوي في النفوس بما اتصفت به من كونها مناطاً للعدل ، ومظهيراً للاستقامة في سائر الممالك . وحينئذ فالغاية المقصودة من التشاور لا تترتب الاعليها . وأما طريقة السلف فقد كانت كافية في الغرض

« ١ » تنمة الاثر : فقام رجل او اعرابي فقال : والله لو وجدنا فيك عوجاجا قومناه بسيوفنا . فقال عمر : الحمد لله الذي جعل في المسلمين من يقوم عوج عمر بسيفه ولم يكن عمر «رض» هو السابق إلى مطالبة الامة بحقها في السيطرة على الخلفاء والامراء بل كان السابق الى ذلك ابو بكر «رض» في خطبته الاولى بعد المبايعه بالخلافة اذ قال فيها : أما بعد فقد وليت عليكم ولست بغيركم ، فاذا استتمت فأعينوني ، واذا زغت قوموني - وكتبه محمد رشيد رضا

لما أنها هي المستعملة في زه منهم . على أن هذه الهيئات ليست الا وسائل غير مصقودة لذاتها . فاذا اقطعت الرابطة بينها وبين الغايات كانت مهمة غير مقصودة ، ومحور القصد الى ما صار بينه وبين الغاية ارتباط ووافق

المقالة الرابعة والثلاثون

الشورى والقانون (٥)

قد أسلفنا فيما سبق من أعداد الجريدة أن القوانين تختلف باختلاف أحوال الأمم ، وبيننا الأسباب الموجبة للاختلاف ، وضررنا لذلك أمثالا لتقريب المطالب من الأذهان ، وأن ذلك صريح في أن القوانين متعددة وأصنافها متنوعة لتفاوتها بحسب الغرض المقصود منها ، أعني ضبط المصالح ، وفتح سبل المنافع ، وسد طرق المفساد . والآن نريد أن نبين أقربها للغرض ، وأبعدها عن مساقط الاهمال ، وأمنعها عن عبث الجهل والأغراض ، فنقول :

ان القانون الصادر عن الرأي العام هو الحقيق باسم القانون المقصود بالبيان ليس الا . وبيانه : أن الاجتماع بين أمة من الناس في مبدأ أمره لا يكون له داعية سوى الصدفة ، أو أسباب أخرى قهرية لا تخرج عن الطوارق التي تلم بالانسان فتلجئه الى ملجأ من نوعه يستعين به على دفعها ، فاذا استتب الاجتماع وسكن الأمن في قلوب المجتمعين ، وانقطع كل منهم في الأسباب التي توصله الى لوازم المعيشة ، نزع فيهم حب المسابقة في كل ما يتنافس فيه كل حي ، وتولد من ذلك شدة الطمع والشهه ، وجر الأمر الى الحسد والبغض والبطر ، فأصبحوا وهم في مكان واحد ، متباعدي المقاصد ، أشتات القلوب ، لا يبالي أحدهم بافتداء مصلحته بمصلحة الآخر بأي طريق سلك ، ونسي رابطة الاجتماع وواجب

الاشتراك في الوطن ، وتناول أشدهم عنضداً مقاليد الحكم عليهم ، وبث فيهم أعوانه وأنصاره بدون قاعدة تربط الأعمال وتبين الحدود . فحينئذ لا ترى لاثنين منهم رأيين متوافقين ، ولا قصدين متطابقين ، بل لا ترى الا نفوساً شاردة ، وأغراضاً متباينة ، تسوقهم عصا الظلم ، وتجمعهم دائرة الغرم ، فهم في هذه الحالة ليس لهم وجهة تربط أعمالهم وتوحد مقاصدهم ، بحيث تكون محوراً لدائرة أفكارهم ، وغاية تنتهي اليها حركاتهم في كافة أمورهم اذا ما نزل بهم من دواعي الاضطراب ، وأسباب تبديل الألباب ، جعل لكل منهم شأنًا خاصاً به فلا يفكر يوماً ما في حقوق الاجتماع ونسب الارتباط ، فكأنه أمة وحده ، مقطوع العلاقات بغيره ، فلا يتصور أن يكون لهم حينئذ رأي عام يجمعهم

واذا استمرت بهم هذه الحال زمناً طويلاً فسدت طباعهم ، وتبدلت أخلاقهم الى ملكات رديئة تحملهم على البطالة والكسل ، وتكلمهم الى الآمال العاطلة ، والأمانى الكاذبة ، وتورثهم الحول والذل والفتور ، فاذا توالت عليهم الحوادث وعلمتهم أسفار الأخبار طرفاً من سير الأمم . تذكروا أنه قد كان لهم من حقوق الاجتماع ما يسوقهم الى العيش الرغد ، ويعنون عناصرهم الشريفة من لوث الخسة ودناسة الاتضاع ، ففهم نفوسهم بتقوم دعائم الاجتماع على أصولها التي تطالبهم بها طبيعته ، ففانهم تلك الأخلاق التي نشأوا بها مما نعمة تضعف منهم قوة العمل ، فكأما قويت فيهم دواعي الاجتماع اشتدت كراهمتهم لتقاعد عن الأخذ بالوسائل ، وتلفقت نفوسهم تنفض عنها درن (١) الملكات الفاسدة ، وتوفرت فيهم بواعث الأعمال المختلفة ، وأصبحت المقاصد متجهة الى غاية واحدة ، وهي المعاوضة على حفظ الهيئة الاجتماعية ، فعند ذلك ترى من لم تهزه الشفقة منهم على المنافع العامة ولم يفقه حقيقتها يوماً يفضلها على غاياته الخاصة ، ويملكها حق العالم بدون أن يتلقى درسها من معلم ، فان الحاجة هي الاستاذ الذي لا يضيع تعليمه ، ولا يخيب إرشاده

«١» انما ينفض الغبار وأما الدرن وهو الوسخ فيفسل غسلها فإظهاره انه سقط من الكلام . شبه الغبار كالكسلى لسرعة زواله فاعمل اصله : تنفض عنها غبار الكسل وتفسل درن الملكات الخ

ومن هنا يذشأ بين الناس ما يعبر عنه بالرأى العام ، وهو الأساس الذي بدونه لا يمكن أن تتوجه الكلمة في أمر ما يراد التداول فيه ، ونقطة التلاقي التي تجتمع بها أطراف الأفكار المتشعبة ، وتنمحي فيها الأغراض المتعددة ، إذ ليست في الحقيقة أغراضاً ذاتية وإن تلبست بصورها ، وإنما هي طرق متخالفة تؤدي الى مقصد لا يخرج عن الرأى العام ، وسالكوها بلغوا درجة الاجتهاد ، وكل عامل للامة مسخر لانتقاء أقرب الطرق الخالية عن أعباء الكلفة كما يشهده من وقف على مشارب القداما والمتأخرين من السياسيين ، حيث يتفرقون أحزاباً ، وينصبون حلبة الجدل في البحث عن الصالح العام

فاذا بلغت أمة من الناس هذه الدرجة من التور ، وأصبحوا جميعاً على رأى واحد في وجوب ضبط المصالح ، وتقبيد الأعمال بمحدود مقدسة ، آتصان ولا تهان ، اندفعوا جميعاً الى طلب هذه الحقوق الشريفة ، بدون أن يحشوا لومة لأثم ، ولا يكتفون دون أن يروا بين أيديهم قانوناً عادلاً لا تفتأ بمجالهم ، منطبقاً على أخلاقهم وعوائدهم كقلا بمصالحهم ، يرجعون اليه في أمر المساواة والأمن على العباد والبلاد ، ولا يعجبهم أن يكاوا وضعه لواحد منهم يتولاه بنفسه ، إذ الواحد لا يتأنى له أن يشخص مصالح الجيم مع تباينها . وهذا أمر ينبني عليه صحة القوانين وما يترتب عايتها من الفوائد ، ولا يمكنهم أن يباثروا وضعه جميعاً إذ فيهم من تمنعه موانع قوية عن ذلك ، فلم يبق إلا أن ينتخبوا منهم نواباً بقدر الحاجة للقيام بهذا الواجب من كل جهة ، ومن كل ذوي حرقة ، ليكونوا جميعاً على علم بأحوال موكلهم عموماً وطبايع أمكتهم .

فاذا أموا هذا القانون على وجه كامل شامل بعد البحث الدقيق — وإن استغرق عمالهم أمداً — كان هو القانون المعول عليه عملاً وعملاً . أما عملاً فلا أن أحكامه كلها صارت معلومة لدى أفراد الناس جميعاً لأن من وضعها هم نوابهم . ولا يخفى أن نفس الذنوب عنهم لا يغفلون طرفة عين عن كل أمر من أمورهم ، يشرع النواب في المداولة فيه ليقفوا على طريق الجدل في كل مبحث ، ويعملوا ما تم عليه الرأى فيه على أن صحف الأخبار ، التي لا يخلو منها قطر من الأقطار ، تسكفل بنشر

المفاوضات والأحكام في كل مسألة ، فتكون هي السفراء بين مجلس النواب وبين الرعايا على اختلافهم ولا يضر عدم العلم لأفراد منها كالسوقة والرعاي والعملة وإن كثروا ، فانهم كالألات الصماء ، الموقوفة على الأعمال البدنية ليس إلا ، فتيين من ذلك أن العلم بأحكام القانون الذي يضعه جملة النواب لا بد أن يتحقق بين الأفراد ، فبعد إتمامه لا يحتاج الأمر إلى المدارس في الامن هو حديث عهد به . وأما عملاً فلأن القانون عادل منطبق على المصالح ، ومثله حقيق بأن يرسم في صفحات القلوب ، خصوصاً وأن واضعيه هم النواب ، والنائب لسان المنوب عنه ، فكان من وضع الأمة بتامها ، وتلك حجة عليهم بأنهم جميعاً متعاهدون عليه ، سيما وأنهم هم الذين تقاسموا بالايمان على الأخذ بالأحسن من كل شيء نافع ، وأن قلوبهم طويت على المحافظة على الرأي العام ، وأنهم جميعاً سائرون إلى غاية واحدة ، فكيف بعد هذا كله يتركون القانون حبراً على ورق بدون علم ولا عمل ؟

فقد وضع مما ذكرناه أن أفضل القوانين وأعظمها فائدة هو القانون الصادر عن رأي الأمة العام أعني المؤسس على مبادئ الشورى ، وأن الشورى لا تنجح إلا بين من كان لهم رأي عام يجمعهم في دائرة واحدة ، كأن يكونوا جميعاً طالبين تعزيز شأن مصالح بلادهم ، فيطلبونها من وجوهها وأربابها . فما داموا طالبين هذه الوجوه فهم طلاب الحق ونصراؤه ، فلا يلتبس عليهم بالباطل ، ولا لوم عليهم إذا لم يأت مطلوبهم على غاية ما يمكن من الكمال . فإن الحصول على أقصى المراد يستحيل أن يكون دفعة واحدة ، كما قضت حكمة الله تعالى في خلقه أن الشيء لا يبلغ حده في الكمال إلا بالتدرج ، بل اللوم كل اللوم أن يضرب الطالب صفحاً عن مطلبه ويقصر في السعي ويرضى بما لله فيقف عندها وقد هيا الله له الأسباب ومهد له الوسائل ، إذ ذلك ضرب من الجهل المركب القبح الذي يجعل صاحبه أدنى درجة من الحيوانات العجم

وأن استعداد الناس لأن يهجو المنهج الشوري غير متوقف على ان يكونوا متدرجين في البحث والنظر على أصول الجدل المقررة لدى أهله ، بل يكفي كونهم صهبا أنفسهم وطمحت أبصارهم للحق وضبط المصالح على نظام موافق

لمصالح البلاد وأحوال العباد ، ولا يتوهم أن اتقانون العادل المؤسس على الحرية هو الذي يكون منطبقاً على الاصول المدنية ، واتقواعد السياسية في البلاد الاخرى انطباقاً تاماً ، فان البلاد تختلف باختلاف المواقع وتباين أحوال التجارة والزراعة وكذلك سكانها يخنفون في العوائد والاخلاق والمعتقدات الى غير ذلك ، فرب قانون يلائم مصالح قوم ولا يلائم مصالح آخرين فينفع أولئك ويضر هؤلاء ، إذ على مؤسس القوانين أن يراعي أخلاق الناس على اختلاف طبقاتهم وأحوالهم وطبيعة أراضهم ومعتقداتهم وكافة عوائدهم ليتسنى له أن يحدد مصالحهم ، ويربط أعمالهم بحدود تجر اليهم جلائل الفوائد ، وتسد عليهم أبواب الفساد ، وحينئذ لا يدعون لأرباب الشورى أن يجاروا غير بلادهم في سن القوانين ، بل عليهم أن يجعلوا أوضاع بلادهم وأحوال الاهالي المضرة نصب أعينهم حتى يتبين لهم حينئذ أن يرسموا مالا بد منه من الاحكام الملائمة . فإذا أمعنوا النظر ودققوا في البحث وطلبوا الحق حيث كان وان من صغير ، وكان هذا المنقصد السائق للجميع على البحث والتنقيب ، انفتحت لهم عيون المسائل ، وسهلت عليهم صهاب المطالب ، وحووت أفكارهم على ما كان يحسب أبعد خطوراً بالبال ، فتغافل أذكارهم في ما وراء ذلك من الامور التي لا يكاد يكشف الحجاب عنها في مبدأ الأمر حتى يصلوا على مبادئ أولية يتخذونها قواعد كلية لما يرد عليهم من الابحاث ، كأن يستعملوا قاعدة القياس والحكم على النظائر والاستدلال بالاصل والمادة والعرف وأمثال ذلك في محاورتهم بعد أن صارت لديهم من المسلمات الاولية ، وقد كانت في بداية الأمر من الغرامض التي يحتاجون في حلها الى نظر وبحث ، وهكذا يتدرجون من الوسائل الى المقاصد ، ثم ينساقون من المتعاضد التي لديهم بديهية المبادي الى مقاصد أعلا وأسمن حتى يثبت قدمهم في الشورى كل الثبات ومما تقدم سرده تعلم أن اهالي بلادنا المصرية دبت فيهم روح الاتحاد ، وأشرفت نفوسهم منه على مدارك الرأي العام ، وأخذوا يتصلون من جرم الاهمال ، ويستيقظون من نومة الانفعال ، وقد مرت عليهم حوادث كقطع الليل المظلم ، ثم تقشعت عنهم فظالموا من سماء الحق ما كحل عيونهم بنور الاستبصار ،

حتى اشرايت مطامعهم إلى بث أفكارهم في ما يصلح الشأن ، ويلم الشعب ،
ويجمع المتفرق من الامور، ليكونوا أمة متمتعة بجزاياها الحقيقية، فهم بهذا الاستعداد
العظيم أهل لأن يسلكوا الطريق الاقوم طريق الشورى والتعاقد في الرأي .
فقد أزف الوقت ولم تسمح لهم ظروف الاحوال بأن يتأخروا عن سن قانون
يراعى فيه ضبط المصالح على وجه ملائم يتبادلون فيه الافكار الحرة ، والآراء
الصائبة ، فلذا أجمعوا رأيهم على تأليف مجلس الشورى ممن لهم دربة ودراية تامة
بشؤون البلاد ، وصدرت الاوامر السامية بانتخابهم نوابا حسب ما قضت به
نواميس الحرية ، وانشرت صدور الناس عامة بهذا ، واستبدشروا بما يكون من
عاقبة هذا المسعى الجليل سيما وقد عهدوا من الحضرة الخديوية ارتياحاناً لما يؤيد
شأن البلاد وبعلي كامة الوطن . ولنا أمل لا يخيب في أهل البلاد وحضرات
النواب فهم أجل من أن يعدلوا عن طريق النجاح، أو يكون سعيهم إلا في حب
الاصلاح ، وهذه هي خطوة نعدّها إن شاء الله في سبيل تقدمنا فاتحة اللطاف

المقالة الخامسة و الثلاثون

التعمير والاعتبار

حصول صورة الشيء في النفس علم، وميلها الى طلبه أو تركه إرادة، والتصميم
على أحد الأمرين عزم ، وليس بعده الا الطلب بالفعل أو الترك، والترك لا يحمل
النفس كبير مشقة سوى الوقوف على كون المتروك من الامور التي تكلف بها
النفس تكليفاً ضرورياً أو كإيائاً كان من الامور المباحة أو المحظورة . فاذا وقفت
على حقيقته انصرفت عنه انصرفاً

وأما الطلب فهو أحد الأمرين الذي يحمل النفس عن اثنين أحدهما يتعلق بها

من جهة قوتها الفكرية ، والثاني من جهة القوة العملية المودعة في أعضاء البدن ،
والاول مقدمة الثاني وسابق عليه ونسبته اليه لدى أرباب الحل والعقد ورجال
النقد نسبة الأمرين المتضايين لا يوجد أحدهما بدون الآخر

أما الاول فهو البحث في أصل الطلب واستقصاء ما يعود منه على الطالب
أو غيره من المنافع والتنقيب عن الوسائل التي توصل الى الغاية بلا مشقة ولا
فوات منفعة ، وتقدير الاعمال إزاء الفائدة لتكون المنفعة مساوية على حكم التبادل
في الاعمال البشرية ، أو زائدة عنها على أصل التفاضل وذلك كما إنما يكون
بعد أن تعرف نسبة الطلب الى غيره من المطالب ليترجح عما سواه بخصوصية
من الخواص حتى لا يلزم على الشروع فيه الترجيح بلا مرجح. هذا شرح حال العناء
الاول . ليس بعده الا الشروع في العناء الثاني عناء الاعمال البدنية

أما فوائد الاعمال فهي وان كانت جزئياتها غير قابلة للدوام والاستمرار
اذ هي نتيجة أعمال متجددة وكل متجدد فتأخره كذلك ، ولكنها تقبل الدوام
بكليات أنواعها دواما غير مطلق والطالب لا يستغني عن هذه الفوائد وقتاً من
الاقوات ، وكيف يستغني مع أن الحامل له على العمل حاجته الى فوائده سواء
كانت من الضروريات أو الكماليات فهو محتاج الى دوام الفوائد ودوامها
يتوقف على دوام الاعمال وهو أمر موقوف على العامل ، وليس ادمانه العمل
المطلوب في موضوعنا هذا أمراً من لوازم وجود ذاته فيحتاج الى صفة زائدة
تقضي عليه أن يكون دائم العمل بقدر الحاجة ، وليس احتياجه كافيًا لهذا
الاعتناء ، إذ ربما تحققت الحاجة بدون أن يتحقق دوام العمل ، وإلا لم نسمع
بذكر التهاون والكسل والاهمال وما شاكلها. على أن الحاجة متفاوتة ، فما كان منها
في الدرجة الاولى درجة الاضطراب البحت فهو بنفسه كاف لادمان العمل بخلاف
ما كان منها في الدرجات الثانوية فما فوق ، والصفة القاضية بالادمان أي التمسمة لعلته
هي التمرن والاعتیاد

وبعبارة أوفق بالغرض : إن ملا تدعو اليه الحاجة أصلا في زمن من الازمان
قد تدعو اليه في زمن آخر لالسد الاضطراب البحت ، بل للمزاد عنه. من الحاجات

الثأوية كالكماليات والحسنات ، وقد تدعو اليه بعد زمن طويل أو قصير لسد
 الاضرار البحت ، فلا يجد الانسان عنه فراراً فيتكلفه مقهوراً مقسوراً يتصور
 المنفعة على بعد ، ولكنه غائب في دهشة آلام الاعمال التي لم يتكافأ يوماً من
 الايام لولا حكم الصروف والحادثات التي تقلبه على بساط القهر تقلب العصفور
 في يدي الطفل ، فلا يزال يحس بالالم ويدمن العمل حتى يهون عليه شيئاً فشيئاً
 إلى أن يزول الألم بالكلية ، ولا يجد إلا عملاً بدون ألم . فاذا مضت برهة بعد
 الابتداء يحس من نفسه بعض الميل الى العمل فكأن الألم الاول استحال الى
 ضده (على حكم تلاقي الطرفين) ويجد منه باعثاً طبيعياً اليه ، وهكذا يزداد الميل
 ويشد العشق حتى لا يميل به الكسل يوماً ما الى إهمال العمل ، وهذا هو المقصود
 من التمرن والاعتياد .

أما كون الشيء ربما يكون ضرورياً في وقت دون وقت ، فالأمر فيه
 وإن كان على ما أظن لا يحتاج إلى البيان غير أنني بحكم الحاجة لتوضيحه
 لبعض الناظرين أقول :

إن الانسان من حيث هو مفكر لا يقف عند حد محدود فيما يتعلق بواجبات
 حياته وهو في ذاته غير مكلف بكل فرض مطلوب يعده من قبيل التمدن أو
 الحضارة أو الترف في المعيشة أو غير ذلك ، بل يكفيه ما يسد الرمق من القوت
 ويقيه الحر أو البرد من اللباس ، ويكفيه وقت الايواء من البيوت ، غير أنه لما
 تأتق في هذه الضروريات بعض التأتق ، ورأى أنها تقبل التحسين شيئاً فشيئاً
 أخذ على نفسه أن لا يقر له قرار ، ولا يهدأ له جأش ، حتى يستخرج من دائرة
 الامكان كل ما تتأدى اليه فكرته ، فجد واجتهد واستطلع بقوته النظرية خواص
 العناصر فحسبها عند ما اكتشف منها معدات تساعد على غرضه أنها لم تخلق الا
 له ففسل على بعضها بصفة التحليل والتركيب حتى فتح أبواب التجارة والزراعة والصناعة
 ووصل الى ما وصل اليه الآن وهو في هذا السير الطويل يتحمل أثقالاً على أقال
 وكلما وصل منه الى درجة ظنها آخر الدرجات وحسب نفسه فيها غريباً ، فيتخذ
 نتائج تقاليدها الغريبة زينة شأن كل أمر غريب نادر الوجود ، إذ كل نادر

عزیز قال الشاعر

سیحان من خص القلیل بعزه والناس مستغنون عن أجناسه

وأذل أنفاس الهواء وكلّ ذي نفس لمحتاج الى أنفاسه

فإذا توطنت نفسه على هذه الغرائب زهنا استزاد منها حتى يبلغ بها حد
الكثرة فيستعملها في لوازمه الضرورية في كافة أحواله ، ولا يخصص بها وقتاً دون
وقت، الى أن تصير من قبيل الأمور المعتادة التي لا يستغني عنها بحيث يعتبر كل
ما كان أقدم منها وفي درجة قبليها من التقاليد ساقطاً عن درجة الاعتبار وغير
جائز الاستعمال ، ويتوهم أن استعماله في الحالة التي وصل اليها يزري بمقامه المنيف ،
ويحط بمقداره الشريف ، ولا يتذكر أنه هو هو الانسان أيام كان يقنت بسائط
النبات ، ويستتر بأوراق الأشجار ، ويأوي الكهوف والأغوار ، فبان بما ذكر
أن الشيء قد يكون ضرورياً في وقت دون آخر

ومن وجه آخر تقول انا اذا سيرنا أخبار الأمم نعلم يقيناً أن الهيئة الاجتماعية
البشرية ما وصلت إلى درجة من درجات التمدن والحضارة في وقت من الأوقات
دفعه ، بل لا بد كما يشهد العيان أن تسبق أمة من الأمم إلى غاية في المدنية . فإذا
نظرت إلى جارتها وقد بنيت في مركزها متأخرة عنها والانسان (قتل الانسان
مأكفره) بحكم الحيوانية مطبوع على التعدي والشره ، فتناخرها بما يدعش
العقول ويبيهر البواظر من صناعاتها الغربية ، وأوضاعها الجميلة ، فترمهاتلك بعين
الذاهل المندعش ، وتتوهم أن ضعفها واتقي فتنة بض نوعاً من الانقباض . فإذا
برسنت هذه فيها الانكماش والذعر (الخوف) أخذت تهددها بما تقاب عليها
من ضروب الخيل والدهاء ، وبما تتظاهر به من قوة الجند وكثرة العناد ، فتقف
تلك وقفة الحائر المتفكر إلى أن يرشدها التأمل إلى أن هذه ما وصلت الى
ما وصلت إلا بالعلم والعمل المتوقفين على السكد والاجتهاد ، فتندفع وراء الجند
بحكم الاضطرار، حتى تصل الى ما وصلت اليه أو تكاد ، غير أن تلك أيضاً بعد
أن تذوق لذة التقدم ، وتندبها سكرة تيه طعم الذل الذي كانت تقاسيه تحت رهبة
جارتها الأولى تعامل الأمة المجاورة لها أيضاً بمثل ما كانت تعامل به في مبدأ

الأمر حتى تضطرها كذلك الى أن تركب متن الاجتهاد في السير وراء من قدمها . وهكذا كلما دخلت أمة من باب كلفت به من يجاورها من الأمم حتى تنتظم الأمم جميعاً في سلك واحد في هذا الباب ، ولكن حيث إن حب التسابق طبيعة في الناس ، فلا تراهم يقفون لدى نقطة ، بل متى وصلوا إلى حد مامن حدود التقدم ، فلا يمضي زمن طويل حتى يقال إن أمة كذا انتهزت فرصة عظيمة وفتحت باباً من أبواب التقدم عاد عليها بالتماء في الأموال والانفس والثمرات ، وبأن مجاورها يخشون بأسها ، ويرقبون حركاتها ، فتضطرب الهيئة الاجتماعية البشرية من هذا النازل الذي لم يكن في الحسبان ، ولا تسكن خواطر بقية الأمم والممالك حتى ينساقوا الى هذه الخطوة التي خطاها غيرهم على غفلة منهم وهم كارهون . فبان أن الأمم قد يحتاجون في زمن مالا يحتاجونه في آخر ، فصدق القول أن الشيء قد يكون ضرورياً وقد لا يكون

وما ذكرناه من انتقليات والتقلبات بحكي حال الجمعية الانسانية من يوم أن تفرقت شعوباً وقبائل يتخالفون في العوائد والاخلاق ، فيتنافسون ويتحاسدون على التقير والقطمير ، ويغلب عليهم حب الذات والميل إلى الخصوصيات ، فيدعون أنهم أجناس شتى ، ولا يزال حالهم كذلك يتقلبون على جمر الشحنة ويعذبون بعوامل البغضاء ، فتارة ترمي بهم الاطماع في محالب التكلف ، ومشاق التنقل من حال الى حال ، فيضطربون لهذا الأمر اضطراباً ، وينقبضون منه اقبياضاً ، وآونة يلقي بهم الجهد الجهد بعد أن يروا من الصعوبات ألوانا في بوادي الراحة عند ما يصلون الى نقطة التمرن والاعتیاد ، ولكنها نقطة غير ثابتة كما أن درجات تقدمهم غير متناهية ، فلا يزالون يترددون من التعب الى الراحة حتى يرجعوا إلى المجرى الطبيعي ، فيلتئمون بعد التفرق ، ويرفعون عن أعينهم حجاب هذا التشتت

وباليت شعري ماهو النازل الذي حل بالانسان فغير معالمة الطبيعية ، وبدل أخلاقه السلية ، وحل رابطته النوعية ، وإلا فعهدنا به — إن لم تقل إنه من أم وأب تسليماً جديلاً — فهو من نوع واحد يشف مرآه عن الوحدة التامة الناطقة بأن الانسان

من جرثومة واحدة نشأ عنها عائلة واحدة حواها بسيط واحد بظمتها عادات وأخلاق متحدة الصفة ، ولقد رمزت تعاليمه الماضرة — التي منها وهو أكبرها تعميم المواصلات وتأكد الروابط بين الممالك وحركة الاجتماع والتألف — الى هذا السر المكنون ، وبشرتنا المحافظة العامة على دعائم السلام والراحة العموميين حفظ الحقوق الانسان وصوناً لذمة الشرف بان الحركة العمومية موجبة الى النقطة الاولى وكلما قربت إلى المركز زادت سرعتها شأن كل حركة طبيعية ، ولقد أثرت هذه الحال تأثيراً خفياً في الجم الغفير من عقلاء الناس فمالوا إلى خدمة الانسانية من غير أن يتعصبوا للجنس ولا دين ولا مذهب. فاذا رجع الانسان إلى مركزه الطبيعي لا ترى الجمعية البشرية بعد إلا كساكني منزل واحد يرتفقون بمنافعه على السواء ، ويجدون من بركات الارض ما يكفيهم مؤنة التعب ويكفهم عن الشقاق والعداء ، اذا أصاب قبيل منهم منفعة عادت على الجميع بدون اختصاص على حكم تبادل الاعمال . واذا نزل بقبيل نازل توجه الكل إلى اقتاذه مما ألم به ، وساروا جميعاً على وفق القانون الطبيعي المودع في فطرة الانسان ، يهديه اليه من علم الطير النياحة ، ومرنه على السباحة ، ثم لا ترى فيهم إذ ذاك ما يحتاج معه الانسان الى كلفة وعناء بل لا ترى إلا أعمالاً جارية على منهج السهولة منهج التمرن والاعتدال

المقالة السادسة والثلاثون

التمرن (*)

مارسنا اليه أمة الا وحط عن كاهلها جميع الأتعاب والبلايا، والاضطهادات والرزايا ، ولا رقي اليه شعب إلا وأمن غائلة الاعنات والاعتساف ، ومحصنت أعماله من جائحة السلب والاعتداء ، فصاحبه هو الساكن في منازل الرغد والهناء ، واللابس حلة الاسعاد ، تقول ولا مغالاة في الحق : إنه هو الضامن لتوطيد

أركان العمران، والكفيل بتشييد دعائم الاجتماع . كيف لا وهو الحقيقة الجامعة لكل فرد من أفراد الكمالات ؟ من غير فرق بين أن يكون أديباً أو مادياً ، حسيّاً أو معنوياً ، فالتقن في الصنائع فصل من فصوله . والتسابق في ميادين العلوم باب من أبوابه ، والتجاني عن مواضع النقيصة جزء منه ، والتجمل بالأخلاق الفاضلة نبت من جواهره . فإذا لا بدع إذا قلنا إن صاحبه هو السعيد ، والواطيء ، بنعله غرف النعيم ، جد في طلبه من أدرك نتيجته من الأثم ، فحني ثمره اليانع ، تراه يتقلب على بساط العز ، ويتدرج في معارج الاجلال والجمال ، عمرت دياره بعد أن كانت قاعاً صفصفاً بالأبنية العالية ، وتزينت بالأسواق الفسيحة ، والصنائع العديدة ، وصارت محط رجال السياسة ، ومطمح أنظار النبلاء ، ضاق بسيطها عن القيام بنفقاته الواسعات ، فطار على جناح العلم يستطلع بتاعا ربتها الجهالة ، وثلمتها يد البغي ، ليكون فيها هو الوارث بعد بنيتها ، يستخرج منها الكنوز بحكته ، ويفجر منها الينابيع بقدرته ، ليحني وأهلها الفارسون ، ويقضي وهم المطيعون ، تسمع أهل تلك الديار صدى صوته في العشي والابكار ، والغدو والأصال . ولكن يغالطون الحس ، ويكابرون بانكار البدهة ، ويسلون أنفسهم بأن هذا الأجنبي لا سطوة له ولا حكم ، وإنما هو غريب دعتة الحاجة لتتجول في البلاد لطلب الرزق . ثم تحدتهم خواطرم بأننا أرفع شأننا من أولئك الغرباء ، وأسبق منهم بدأ في المدينة ، ولئن تأخرنا عنهم حيناً من الزمن لكننا لحقنا بهم في انتظام الهيئة وحسن السلوك ، وهذه قصورنا المشيدة ، وثيابنا الملوثة ، وقودونا الجملة ، وأطعمتنا المتنوعة ، تشهد بأننا قوم نعمسنا في الترف ، وحظينا بالثروة ، ونهجننا الصراط المستقيم

يحسبون تلك الأوهام حقائق تجعلهم من ذوي النعمة واليسار ، والعزة والكمال ، اعتماداً على كونها سنة الأمم المترية ، والشعوب المتوردة ، وأيم الله إنها بالنسبة الى أولئك البسطاء لداعية الفقر المدقع ومجلبة الشر . وإن هذه الصور الظاهرية التي يظنونها تمدنا كسحابة حشيت بالصواعق ، يتوهم الغافل من بريقها ولعائتها أنها تأتي بوابل يعش القمل ، ويحبي الموات ، ولكن اذا حل الأجل

أمطرت ما يذهب بالحياة ، ويبدد الأجسام . وذلك لأن الأمم المتقدمة وإن أفنقت الأموال الكثيرة في تشييد القصور ، وتزيين الملابس ، وتحسين الأثاث ، إلى غير ذلك من المصارف ، فأنما يكون على نسبة مخصوصة من ايراداتهم ، الحائزين لها بالكد والتعب في إبراز المصنوعات الجميلة ، والمختبرات الجمة التي تكسب صاحبها في قليل من الزمن ثروة واسعة ، وقدرأ رفيعاً ، ولا يجيزون الاتفاق من رأس المال الا اذا مست ضرورة لا محيص عنها . ومع ذلك فنفقآهم هذه لا تتجاوز حد اللزوم ، ولا تخرج عن دائرة احتياجاتهم ، فنكأها مؤسسة على قاعدة جلب المصلحة ودفع الحاجة . تدخل منزل الرجل منهم قبرى غرفه ومخادعه مشغولات بأمتعته وبضائعه وتقوده ، وليس فيها قدر شبر عمر لغير حاجة حتى حديقته ، ولا يشتري ثوباله أو لزوجته وأولاده إلا بقدر العوز ، وحلي آل بيته ثلاثة أرباعه من النحاس ، وهما كثرث ثروته ، وايس في اصطبله سوى عربة أو حمار للركوب ، لا يجمع بينهما الا نادراً ، وفرشه وغطاؤه لا يخرج عن نوعي القطن والصوف كشيابه

وأما أهل تلك الديار الذين يزعمون أنهم قوم متمدون (وهم في ذلك مخطأون) فقد ركبوا الشطط ، وحملوا أنفسهم مالا يطيقون من النفقات الباهظة ، يصرف الواحد منهم آلاف من القود في سبيل تعمير أرض فسيحة ، وربما كفاء مالا يبلغ العشر من مساحتها ، ويفرشها من أئلى أنواع الفرش ، ويزينها بأهيج أصناف الزينة ، فتبقى غرف المنزل بلا ساكن ، يعلو التراب على ما فيها من الأثاث والفرش المغطاء بالفضة والذهب حتى يبدها ، وربما لا يستعملها مرة في العام ، يتختم في أصبعه بما تتجاوز قيمته عقد الألوف من الفرنكلت ، ولدى زوجته من الألماس والجوهر ما يكفي ربحه لنفقات بيته أو يزيد ، لو استعمل ثمنه في شيء ، يتجر به (اذا كان ممن يقهون) الى غير ذلك من المصارف التي يضيق بنا المقام عن تفصيلها ، وما حمله عليها سوى الطيش والانهماك في الشهوات ، والسفه المفرط الذي بلغ مرتبة الجنون . فان رجعنا الى سيرهم في طرق جلب المنافع ، وتخفيف أتعاب المعيشة ، وتحسين وسائل الاكتساب ، رأيناهم واقفين على

قطعة واحدة من آلاف من السنين . فايراداتهم الآن واقفة عند الحد الذي كانت عليه قبل أن كانوا يسكنون المنازل المصنوعة من اللبن الأخضر، المفروشة بقصب (الحلفاء) المفروشة (١) بقضبان شجر (الجيز) وجدوخ النخل ، مكتفين من الثياب بما يستر البشرة ، ومن الطعام بما يذهب التهمة ، فزروعاتهم الآن هي على ما كانت عليه في تلك الأيام لم تتغير أشكالها ، ولم تتبدل أصنافها . نعم قد زادت حاصلاتها نظراً للتسهيلات التي ربما أجريت في طرق الري، ولكن هذا النمو لا يعادل في الحقيقة الضعف الذي يلج بتجارة أبناء البلاد ، فقد كان يوجد قبل ورود الغريب اليهم في القرية الصغيرة أشخاص عديدون يتجرون في جميع أصناف المزروعات ، وغيرها من الأقمشة والمأكولات ، ويربحون من ذلك أجراً عظيماً ، أما بعد ذلك فلا يرى بنبيهم الا يتضورون جوعاً ، ويثنون تحت أحمال المشقات لبوار التجارة وكسادها ، واختصاصها بيد التزليل . ويتم ذلك سقوط صنعة التجارة والحداثة والحياكة ، وغيرها من الحرف اللاتي نسختها مستحدثات الامم المتمدنين ، وربما ينتهي بهم الأمر لو استمروا على الجهالة والسفه الى خلو أيديهم من الزراعة أيضاً ، لوجود من يحسنها سواهم ، ولا عجب بعد هذا اذا رأينا هؤلاء السفهاء واقعين في وهدة الفاقة والاضمحلال، يثنون تحت أثقال الديون التي تستغرق جميع ما في حوزتهم من الأملاك ، وهذا ما يجعلهم حقراء أذلاء في قبضة الدائن الذي يكونون رهنوه أملاكهم يتصرف فيهم بما يريد ، فيلاقون منه شماً لا تقدر على تحمله النفوس ، ولا تستطيعه الطباع ، وربما كان الدائن من سفلة قومه ، والمدين من أعيان بلاده ، ولا تقني عنه يومئذ قصوره العالية ، ولا ثيابه المزركشة ، ولا آثانته الخزية والمريرية ، فضلاً عما يعتره من البلبال ، وكثرة الوسوس والأفكار ، يبيت ليله يتقلب على الفراش ولا تقلبه على جمر الغضا ، يقدر بمحصولات زراعته قبل بذرها ، وينسبها لمقدار المطلوب في ابان الحصاد ، فاذا وجدها على قدره حصل له نوع من الاطمئنان ، ذاهلاً عما عساه يحدث من الفرق أو الشرق أو الأندية

(١) تكرر هنا لفظ المفروشة ولعل إحداها محرفة عن المعروشة أو المسقوفة

المتساقطة من الجو ، حتى اذا حلّ الاجل ولم يجد لديه ما يبي المطلوب لاصابة
الزرع بأحد الأسباب التي ذكرناها ضرب كفاً على كف ، واسود وجهه ،
وساءت حالته ، وتسوّل الناس ليكفلوه عند عميله إذا لم يف ما عنده بارهن ،
فلا يجد مجيباً ولا نصيراً . لعمر الحق إن المقترش للحصى المتوسد لجر الصخر ،
المستكن في منازل الحيوانات ، المتكفّف في معيشته ، خير من هؤلاء الناس ،
الذين لا يقر لهم قرار ، ولا يهدأ لهم بال (وبما يسوئنا ان نراهم أكثر من
الكثير في بلادنا) أهذا ما حسبوه تمدنا ، وزعموه نعيماً مقيماً بل أنه هو الشقاء
الابدي ، الجالب للفقر المدقع والعذاب الاليم

هذه مشاربهم في الأحوال المدشية ، تحزن الحب ، وتفرح قلب الرقيب ،
ولعلمنا بأن تلك الحالة لا يرضها الشرع ولا القانون ، لم تقصر في النصح فيما
مضى ، ولم تقصر في البيان الآن - وسنأتي بعد على هذا الموضوع كما أتينا
عليه سابقاً ، مبينين علة الميل الى الانهماك في السرف الذي نعده تمدنا ، وتتبعه
إن شاء الله بشرح بعض ما ألفناه من العادات المستهجنة في الأفراح والميائم ،
والموالد والضيافات . وبيان ما نتحدث به في متندياتنا مما هو عقبات في طريق
تقدمنا ، ونمو ثروتنا ، مفردين في البيان كل موضوع على حدته ، إنذاراً من
سوء عاقبته ، لعلنا نعتاض بما هو خير منه ، فنستبشر بانتهاجنا صراطاً قويمًا ،
وطريقاً مستقيماً ، وما ذلك على الله بعزيز

﴿ يقول جامع الكتاب ﴾ قد كان ينبغي أن توضع هذه المقالة بين مقالة
(ما أكثر القول وما أقل العمل) ومقالة (متندياتنا العمومية وأحاديثها)

وهذا ما علمناه من مقالات الاستاذ في جريدة الوقائع المصرية الرسمية . وله فيها
كتابة أخرى في ضروب من الاصلاح كان يكتبها بمناسبة الاخبار والحوادث ،



الفصل الثالث

مقالات العروة الوثقى

الاصحافية

أنشئت جريدة العروة الوثقى في باريس وصدر العدد الاول منها في ٥ جمادى الاولى سنة ١٣٠١ الموافق ١٣ مارس سنة ١٨٨٤ وكان مدير سياستها الفيلسوف العظيم السيد جمال الدين الأفغاني ورئيس تحريرها فقيدنا الاستاذ الامام (رحمهما الله تعالى) فالآراء والافكار فيها كانت مشتركة بين هذين الحكيمين والمحرر لجميع مقالاتها هو الثاني، وهاؤم فاتحة العدد الاول منها وهو

المقالة الاولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(ربنا عليك توكلنا واليك انبنا واليك المصير) هذا ما عمده العناية الالهية من قول الحق، متعلقا بأحوال الشرق، وعلى الله المتكفل، في نجاح العمل، خفيت مذاهب الظالمين أزمانا ثم ظهرت، بدأت على طرق ربما لا تنكرها النفس ثم التوت، أو غل الاقوياء من الأمم في سيرهم بالضعفاء حتى تجاوزوا يدياء الفكر، وسحروا ألبابهم حتى أذهلهم عن انفسهم وخرجوا بهم عن محيط النظام، وبلغوا بهم من الضيم حداً لا يحتمله النفوس البشرية

ذهب أقوام إلى ما يسوله الوهم، ويفري به شيطان الخيال، فظنوا أن القوة الآلية وان قل عملها، يدوم لها السلطان على الكثرة العددية وان اتفقت

آحاديها ، بل زعموا أنه يمكن استهلاك اللحم الغفير ، في النزر اليسير ، وهو زعم يأباه القياس بل يبطله البرهان ، فان تقلبات الحوادث في الازمان البعيدة والقريبة ناطقة بأنه ان ساغ أن عشيرة قليلة العدد فويت في سواد أمة عظيمة ونسبت تلك العشيرة اسمها ونسبتها فلم يجز في زمن من الأزمان امحاء أمة أو ملة كبيرة بقوة أمة تماثلها في العدد أو تكون منها على نسبة متقاربة ، وان بلغت القوة أقصى ما يمثله الخيال .

والذي يحكم به العقل الصريح ويشهد به سير الاجتماع الانساني من يوم علم تاريخه الى اليوم أن الأمم الكبيرة إذا عراها ضعف لا قراق في الكامة ، أو غفلة عن عاقبة لا محمد ، أو ركون الى راحة لا تدوم ، أو افتتان بنعيم يزول ، ثم صالت عليها قوة أجنبية ، أزعمتها ونهبها بعض التنبيه ، فاذا تواتت عليها وخزات الحوادث وأفلقتها آلامها فرغت الى استبقاء الموجود ورد المفقود ، ولم تجددأ من طلب النجاة من أي سبيل وعند ذلك نحس بقوتها الحقيقية وهي ماتكون بالتثام أفرادها ، والتحام آحاديها ، وان الالهام الالهي والاحساس الفطري والتعليم الشرعي ، ترشدها الى ان لا حاجة لها الى ما وراء هذا الاتحاد وهو أيسر شي عليها . ان النفوس الانسانية وان بلغت من فساد الطبع والعادة ما بلغت اذا كثر عديدها تحت جامعة معروفة لا تحتمل الضميم إلا إلى حد يدخل تحت الطاقة ويسعه الامكان فاذا تجاوز الاستطاعة كرت النفوس الى قواها ، واستأسد ذئبها ، وتتمر فعلها والتمست خلاصها ، ولن تعدم عندا الطلب رشاداً .

ربما تحطبي ، مرة فتكون عايتها الدائرة لكن ما يصيبها من زلة الخطأ يلهمها تدارك ما فرط والاحتراس من الوقوع في مثله فتصيب أخرى فيكون لها الظفر والغلبة . وان الحركة التي تبعث لدفع مالا يطاق اذا قام بتسييرها قيم عليها ومدبر لسيرها ، لا يكفي في توقيف سرياتها أو محو آثارها قهر ذلك القيم واهلاك ذلك المدبر ، فان العلة مادامت موجودة لا تزال آثارها تصدر عنها ، فان ذهب قيم خلفه آخر أوسع منه خبرة وأنفذ بصيرة ، نعم يمكن تخفيف الأثر أو إزالته بإزالة علته ورفع أسبابه

جرت عادة الأمم أن تأنف من الخضوع لمن يباينها في الأخلاق والعادات والمشارب، وإن لم يكافئها بزائد عما كانت تدين به لمن هو على شاكلتها، فكيف بها إذا حملها مالا طاقة لها به، لا ريب أنها تستنكره، وإن كانت تستكبره، وكما أنكرته بعدت عن الميل اليه، وكما ابتعدت منه بجهة كونه غريباً تقرب بعضها من بعض، فعند ذلك تستصغره فتلفظه كما تلفظ النواة وما كان ذلك بغريب

ان مجاوزة الحد في تعميم الاعتداء تنسي الأمم ما بينها من الاختلاف في الجنسية والمشرّب، قبرى الاتحاد لدفع ما يعمها من الخطر الأزمن التحزب للجنس والمذهب، وفي هذه الحالة تكون دعوة الطبيعة البشرية الى الاتفاق أشد من دعوتها اليه للاشتراك في طلب المنفعة. أبعد هذا يأخذنا العجب اذا أحسننا بحركة فكرية في أغلب أنحاء المشرق في هذه الايام؟ كل يطلب خلاصاً ويتغني نجاة وينتحل لذلك من الوسائل والاسباب ما يصل اليه فكره على درجته من الجودة والافن، وان العقلاء في كثير من اصقاعه يتفكرون في جعل القوى المتفرقة قوة واحدة يمكن لها القيام بحقوق الكل

بلى، كان هذا أمراً ينتظره المستبصر وان عمي عنه الطامع وليس في الامكان اقناع الطامعين بالبرهان ولكن ما يأتي به الزمان من عاداته في ابناهُ بلى ما يجري به القضاء الآهي من سنة الله في خلقه سيكشف لهم وهمهم فيما كانوا يظنون

بلغ الاجحاف بالشرقين غايته، ووصل العدوان فيهم نهايته، وأدرك للتغلب منهم نكايته، خصوصاً في المسلمين منهم، فمنهم ملوك أنزلوا عن عروشهم جوراً، وذووا حقوق في الامرة حرموا حقوقهم ظلماً، وأعزاء بأوا أذلاء، وأجلاء أصبحوا حقراء، وأغنياء أمسوا فقراء، وأحباء أضحوا سقاماً، وأسود تحولت أنعاماً، ولم تبق طبقة من الطبقات الا وقد مسها الضر من افراط الطامعين في اطماعهم، خصوصاً من جراء هذه الحوادث التي بذرت بذورها في الاراضي المصرية من نحو خمس سنوات بأيدي ذوي المطامع فيها

حملوا الى البلاد مالا تعرفه فدهشت عقولها، وشدوا عليها بما لا تألفه فخارت

البابها ، وألزموها ما ليس في قدرتها فاستعصت عليه قواها ، وخضدوا من شوكة
الوازع تحت اسم العدالة ايهبوا بكل ذلك وسيلة لنيل المطمع ، فكانت الحركة
العرايية العشاء ، فاتخذوها ذريعة لما كانوا له طالبين ، فاندفع بهم سيل المصائب ،
بل طوفان المصائب ، على تلك البلاد ، وظنوا بلوغ الأرب ، ولكن أخطأ
الظن وهو بما لم ينالوا

لم تكذب محمد تلك الحركة في بادي النظر حتى خلفتها حركة أخرى ، وفتح
باب كان مسدوداً ، وقام قائم بدعوة لها المكناة الاولى في نفوس المسلمين ، بل
هي بقية آمالهم ، ولا ندري الآن ماذا تستعقبه هذه الحركة الجديدة . وربما
يوجد من يدري أن مسيبيها في حيرة من تلافيا ، نعم إنهم غرسوا غرساً إلا أنهم
سيجنون أو هم الآن يجنون منه حظلاً ، ويطعمون منه زقوماً . لاجرم هذه هي
العواقب التي لا محيص عنها لمن يغالي في طمعه ، ويغفل في حرصه ، ولو أنهم
تركوا الأمر من ذلك الوقت لأربابه ، وفوضوا تدارك كل حادث للخبراء به ،
والتقادرين عليه العارفين بطرق مدافعته ، أو اقتناؤه ، لحفظوا بذلك مصالحهم ،
ونالوا ما كانوا يشتهون من المنافع الوافرة ، بدون أن تزل لهم قدمه ، أو ينكس لهم علم
غير أنهم ركبوا الشطط ، وغرهم ما وجدوا من تفرق الكامة وتشنت الالهواء ،
وهو أنفذ عوامليهم وأقتلها ، وما علموا أنه وإن كان ذريع الفتك إلا أنه سريع
العطب ، وما أسرع أن يتحول عند اشتداد الخطوب إلى عامل وحيدة يسدد
لقلوب المعتدين ، فان بلاء الجور اذا حل بشر من الأمة وعوفي منه باقياها ،
كانت سلامة البعض تعزية للمصابين ، وحجاب عقلة للسامين ، يحول بينهم وبين
الاحساس بما أصاب اخوانهم ، أما اذا عم الضرر ، فلا محالة يحيط بهم الضرر ،
ويعز عليهم الصبر ، فيندفعون الى ما فيه خيرهم ، ولا خير فيه لغيرهم

ان الحالة السيئة التي أصبحت فيها الديار المصرية لم يسبل احتمالها على نفوس المسلمين
عموماً ، إن مصر تعتبر عندهم من الاراضي المقدسة ، ولها في قلوبهم منزلة لا يحلها
سواها نظراً لموقعها من الممالك الاسلامية ، ولأنها باب الحرمين الشريفين . فان
كان هذا الباب أميناً كانت خواطر المسلمين مطمئنة على تلك البقاع ، وإلا اضطربت

أفكارهم وكانوا في ريب من سلامة ركن عظيم من أركان الديانة الاسلامية
 إن الخطر الذي ألم بمصر نفرت له أحشاء المسلمين ، وتكلمت به قلوبهم ،
 ولن تزال آلامه تستفزهم مبادام الجرح نغاراً . وما هذا بغريب على المسلمين ،
 فان رابطتهم الملية أقوى من روابط الجنسية واللغة . وما دام القرآن يتلى بينهم ،
 وفي آياته ما لا يذهب على أفهام قارئيه ، فلن يستطيع الدهر أن يذلهم .
 إن الفجعية بمصر حركت أشجانا كانت كأمينة ، وجددت أحزاننا لم تكن في
 الحسبان ، وسرى الألم في أرواح المسلمين سريان الاعتقاد في مداركهم ، وهم
 من تذكور الماضي ومراقبة الحاضر يتنفسون الصعداء ، ولا تأمن أن يصير
 التنفس زفيراً ، بل نفيراً عاماً ، بل يكون صاخة تمزق مسامع من أصمه الطمع
 إن أولى المتغلبين بالاحتراس من هذه العواقب جيل من الناس لا كتائب
 له في فتوحاته الا المداهاة ، ولا فيئالق يسوقها للاستملاك سوى المحاباة ، ولا
 أسنة يحفظ بها مآمئد اليهيدة إلا المراضاة ، يظهر بصور مختلفة الألوان ، متقاربة
 الأشكال ، كحافظ عروش الملوك والمدافع عن ممالكهم ، ومثبت مراكز الامراء
 ومسكن الفتن ، ومخلص الحكومات من غوائل العصيان ، وواقى مصالح المغلوبين ،
 فكان أول ما يجب عليه ملاحظته في سيره هذا أن لا يأتي من أعماله بما يهتك
 هذا الستر الرقيق الذي يكفي لتمزيقه رجع البصر ، وكر النظر . وأن يتحاشى
 العنف مع أمة يشهد تاريخها بأنها اذا حققت خنقت ، وليس له أن يغتر بعدم
 مكنتهم ، وهو يعلم أن الكلمة اذا اتحدت لا تعوزها الوسائط ، ولا يعدم
 المتحدثون قوياً شديد البأس يساعدهم بما يلزمهم لترويج سياسته ، وأن المغيظ
 لا يبالي في الايقاع بما نواته أسلم أو عطب ، فهو يضرب ليضرب ، وإن مسه الضر
 الا أن غشية النهيم ذهبت بعقول المهومين ، ووقرت أسماءهم عن حسيس
 الهمسات المتراسلة من الهند الى مكة ، ومن مكة الى مصر ، والكثير (١) الممتد
 (١) الكثير صوت في الصدر كصوت الخنثق او المجهود وقد استعارها هنا
 لدراسلات الخفية الصادرة عن شدة ضغط العدواني الاجنبي . ولا يوجد في
 لغات العالم كلمة أليق بهذا المقام وأحسز هوقما وأشد تأثيرا فيه من هذه الكلمة وهي
 من الدلائل على ان البلاغة تكون في المفردات كالمركبات لكن عند وقوعها في التركيب

من مصر الى مكة ، ومن مكة إلى الهند ، وكلها تتلاقى بين تراقي المفرورين بقوتهم ، المسترسلين في جفوتهم

إن الرزايا الاخيرة التي حلت بأهم مواقع الشرق جددت الروابط ، وقاربت بين الأقطار المتباعدة بمحدودها ، المتصلة بجامعة الاعتقاد بين ساكنيها ، فأيقظت أفكار العقلاء ، وحوالت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم ، مع ملاحظة العلل التي أدت بهم إلى ما هم فيه ، فتقارروا في النظر ، وتواصلوا في طلب الحق ، وعمدوا إلى معالجة الحق وعلل الضعف ، راجين أن يسترجعوا بعض ما فقدوا من القوة ، ومؤملين أن تمهد لهم الحوادث سبيلا حسنا يسلكونه لوقاية الدين والشرف ، وإن في الحاضر منها لتهرة تغتم ، واليها بسطوا أكتفهم ولا يخالونها تفوتهم ، ولئن فانت فكم في الغيب من مثابها ، وإلى الله عاقبة الامور

تألفت عصابات خير من أولئك العقلاء لهذا المقصد الجميل في عدة أقطار خصوصا البلاد الهندية والمصرية ، وطفقوا يتحسسون أسباب النجاح من كل وجه ، ويوحدون كلمة الحق في كل صقع ، لا ينون في السعي ، ولا يقصرون في الجهد ، ولو أفضى بهم ذلك إلى أقصى ما يشفق منه حي على حياته

ولما كانت بدايتهم تستدعى مساعدة من يضارعهم في مثل حالهم ، رأوا أن يعقدوا الروابط الأكدية مع الذين يتمللون من مصابهم ، ويحبون العدالة العامة ويحامون عنها من أهالي أوربا ، وكتبوا على أنفسهم النظر في أمر السلطة العامة الاسلامية وفروض القائم بها . وبما أن مكة المكرمة مبعث الدين ومناط اليقين ، وفيها موسم الحج العام في كل عام ، يجتمع اليه الشرقي والغربي ، ويتآخى في مواهبها الطاهرة الجميل والحقير ، والغني والفقير ، كانت أفضل مدينة تتوارد اليها أفكارهم ثم تنبث الى سائر الجهات ، والله يهدي من يشاء إلى سواء السبيل

ولما كان نيل الغاية على وجه أبعد من الخطر ، وأقرب الى الظفر ، يستدعي أن يكون للداعي في كل قلب سليم نفثة حق ، ودعوة صدق ، طلبوا عدة طرق لنشر أفكارهم ، بين من خفي عنه شأنهم من إخوانهم . واختاروا أن يكون لهم في هذه الأيام جريدة بأشرف لسان عندهم ، وهو اللسان العربي ، وأن تكون

في مدينة حرة كمدينة باريس، ايتمكنوا بواسطتها من بث آرائهم، وتوصيل أصواتهم إلى الأقطار القاصية، تنبيهاً للعائل، وتذكيراً للذاهل، فرغبوا إلى السيد جمال الدين الحسيني الأفغاني أن ينشئ تلك الجريدة، بحيث تتبع مشربهم، وتذهب مذهبهم، فلبى رغبتهم، بل أدى حقاً واجباً عليه لدينه ووطنه، وكلف الشيخ محمد عبده أن يكون رئيس تحريرها، فكان ما حمل الاول على الاجابة حمل الثاني على الامتثال، وعلى الله الاتكال في جميع الأحوال

الجهرة ومهجها

سيأتي في خدمة الشريين على ما في الامكان من بيان الواجبات التي كان التفريط فيها موجباً للسقوط والضعف، وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك ما فات، والاحتراس من غوائل ما هو آت

ويستتبع ذلك البحث في أصول الأسباب ومنائى، العلل التي قصرت بهم إلى جانب التفريط والبواعث التي دفعت بهم الى مهام حيرة عميت فيها السبل، واشتبهت بها المضارب، وتاء فيها الخريت (١) وضل المرشد، حتى لا يدري السالكون من أين تفجعهم الطوارق المفزعة، والمزججات المدهشة، والمدهشات القاتلة وتكشف الغطاء، ما استطاعت عن الشبه التي شغلت أوهام المترنين، ولبت عليهم مسالك الرشد، وتزيج الوساوس التي أخذت بعقول المنعمين، حتى أورشتهم اليأس من مداواة علائهم وشفاء أدوائهم، وظنوا أن زمان التدارك قد فات، وأن العناية بلغت حدها

وتحاول إشراق الأفهام أن لا حاجة في الوصول إلى نقطة الخلاص المرغوبة إلى قطع دائرة عظيمة، تصورها بوجوب فتور الهمم وانحطاط العزائم. وأن تخيل تلك الدائرة الواسعة إنما عرض من الادبار عن المطلوب وهو تحت الخناج، ويكفي في الوصول اليه عطفة نظر، وقطع بعض خطوات قصيرة

(١) الخريت بكسر الخاء وتشديد الراء الدليل الخاذق فخرت الارض وهو معرفة طرقها ومضايقتها

وأن الظهور في مظهر القوة لدفع الكوارث إنما يلزم له التمسك ببعض الاصول التي كان عليها آباء الشرقيين وأسلافهم ، وهي ما تمسكت به أعز دولة أوربية وأمنها (١) ولا ضرورة في إيجاد المنفعة الى اجتماع الوسائط ، وسلوك المسالك التي جمعها وسلمكها بعض الدول الغربية الاخرى ، ولا ملجىء للشرقي في بدايته أن يقف موقف الاوربي في نهايته ، بل ليس له أن يطلب ذلك ، وفيما مضى أصدق شاهد على أن من طلبه فقد أوفر نفسه وأتمه وقرأ أعجزها وأعوزها وتنبه على أن التكافؤ في القوى الذاتية والمكتسبة ، هو الحافظ للعلاقات والروابط السياسية . فان فقد التكافؤ لم تكن الرابطة الا وسيلة القوي لا بتلاع الضعيف . وتجعل إهاب الوداد المرقش بألوان الملائمة ، المديج بأشكال المجاملة ، شفافاً ينم عما وراءه ، وتتقب عن المسالك الدقيقة ، التي يسري بها الظالمون في دياجر الغفلات

وتتهم بدفع ما يرمي به الشرقيون عموماً والمسلمين خصوصاً من التهم الباطلة التي يوجهها اليهم من لاخبرة له بمجالهم ، ولا وقوف على حقائق أحوالهم ، وابطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون الى المدنية ما داموا على أصولهم التي فاز بها آباؤهم الأولون .

ولا تنه في تبليغ الشرقيين ما يمسهم من حوادث السياسة العمومية ، وما يتداوله السياسيون في شؤونهم ، مع اختيار الصادق ، وانتقاء الثابت وتراعي في جميع سيرها تقوية الصلات العمومية بين الأمم وتمكين الألفة في أفرادها ، وتأيد المنافع المشتركة بينها ، والسياسات القويمة التي لا تميل الى الحيف والاجحاف بحق الشرقيين

ومع كل هذا فهذه الجريدة تتبع سير الداعين اليها ، والماملين عليها ، لا تظهر اذا أذلجوا ، ولا تجدد اذا غوروا . وتذهب مذاهب الرشد ، وتصيب

(١) يريد الدرلة الروسية التي جمعت كلمة شعوبها وعقبت بمجملهم امة حررية مسلحة أحدث آلات القتال وأخذت بأحدث نظمه اقتياسا ومحاكاة لمن سبقوها بالعلم والاختراع والتهنئة

بمحول الله مواقفه عند من سبق في أزلي علم الله هدايته . والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

وترسل الى الذين نعرف أسماءهم مجانا بدون مقابل لتسداولها الأمير والحقير ، والغني والفقير . ومن لم يصل إلينا اسمه فما عليه الا أن يكتب الى ادارة الجريدة بالاسم المعروف به ومحل اقامته على النهج الذي يريده والله الموفق

المقالة الثانية

الجنسية والربانة الالهومية *

إن استقرار حال الأفراد من كل أمة واستطلاع أهوائها يثبت لجلي النظر ودقيقه وجود تعصب للجنس ونعرة عليه عند الاغلب منهم، وأن المتعصب لجنسه منهم ليتيه بمفاخر ينيه ، ويفضبه لما يمسه حتى يقتل دون دفعه بدون تنبه منه لطلب السبب ، ولا بحث في علة هذا الوجدان ، حتى ظن كثيرون من طلاب الحقيقة أن التعصب للجنس من الوجدانيات الطبيعية، إلا أنه يبعد ظنهم ما تراه في حال طفل ولد في أمة من الأمم ، ثم نقل قبل التمييز الى أرض أمة أخرى وربى فيها الى أن عقل ولم يذكر له مولده فانا لا نرى في طبعه ميلا اليه ، بل يكون خالي التهن من قبله ، ويكون مع سائر الاقطار سواء ، بل ربما كان آلف لمرباه وأميل اليه ، والطبيعي لا يتغير . ولهذا لا نذهب الى أنه طبيعي ، ولكن قد يكون من لللكات العارضة على الأنفس ترسمها على ألواحها الضرورات . فان الانسان في أي أرض له حاجات جمة ، وفي أفراده ميل الى الاختصاص والاستثمار بالمنفعة اذا لم يصبغوا بتربية ذكية . وسعة المطمع اذا صحبها اقتدار يطبعها على العدوان ، فلماذا صار بعض الناس عرضة لاعتداء بعض آخر ، فاضطروا بعد منازلة الشرور أحقاباً طوالا الى الاعتصاب بلحمة النذب على درجات متفاوتة

* نشرت في العدد الثاني من العروة الوثقى بتاريخ ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٠١

حتى وصلوا الى الأجناس فتوزعوا أما كالمهندي والانجليزي والروسي والتركاني ونحو ذلك ليكون كل قبيل منهم بقوة أفراده المتلاحمة قادراً على صيانة منافع وحفظ حقوقه من تعدي القبيل الآخر . ثم تجاوزوا في ذلك حد الضرورة كما هي عادة الانسان في ألواره فذهبوا الى حد أن يأنف كل قبيل من ساطة الآخر عليه علماً بأنه لا بد أن يكون جائراً اذا حكم، ولئن عدل فان في قبول حكمه ذلاً تحس به النفس ، وينفعل له القلب ، فلو زالت الضرورة لهذا النوع من العصبية تبع هو الضرورة في الزوال كما تبعها في الحدوث بلا ريب ، وتبطل الضرورة بالاعتماد على حاكم تصاغر لديه القوى، وتتضاءل لعظمته القدر، وتخضع لسلطته النفوس بالطبع ، وتكون بالنسبة اليه متساوية الاقدام، وهو مبدأ الكل، وقهار السموات والارض . ثم يكون القائم من قبله بتنفيذ أحكامه ، مساهماً للكافة في الاستكانة والرضوخ لأحكامهم أحكم الحاكمين . فاذا أذغنت الأ نفس بوجود الحاكم الأعلى وأيقنت بمشاركة القيم على أحكامه لعامتهم في التظامن لما أمر به، اطأنت في حفظ الحق ودفع الشر الى صاحب هذه السلطة المقدسة ، واستغنت عن عصبية الجنس لعدم الحاجة إليها، فحجى أثرها من النفوس ، والحكم لله العلي الكبير

هذا هو السر في إغراض المسلمين على اختلاف أقطارهم عن اعتبار الجنسيات ورفضهم أي نوع من أنواع العصبيات ماعدا عصبيةهم الاسلامية . فان المتدين بالدين الاسلامي متى رمخ فيه اعتقاده يلبو عن جنسه وشعبه ، ويلتفت عن الرابطة الخاصة إلى العلاقة العامة وهي علاقة المعتد لأن الدين الاسلامي لم تكن أصوله قاصرة على دعوة الخلق الى الحق ، وملاحظة أحوال النفوس من جهة كونها روحانية مطلوبة من هذا العالم الأدنى الى عالم أعلى ، بل هي كما كانت كافلة لهذا جات وافية بوضع حدود المعاملات بين العباد ، وبيان الحقوق كايها وجزئها، وتحديد السلطة الوازعة التي تقوم بتنفيذ المشروعات ، وإقامة الحدود ، وتعيين شروطها ، حتى لا يكون القابض على زمامها إلا من أشد الناس خضوعاً لها ، ولن ينالها بوراثة ولا امتياز في جنس أو قبيلة أو قوة بدنية ، أو ثروة مالية ، وإنما ينالها ياؤقوف عند أحكام الشريعة والقدرة على تنفيذها ورضا الأمة . فيكون

وازع المسلمين في الحقيقة شريعتهم المقدسة الالهية اني لا يميز بين جنس و جنس ، واجتماع آراء الأمة . وليس للوازع أدنى امتياز عنهم إلا بكونه أحرصهم على حفظ الشريعة والدفاع عنها

وكل فخر تكسبه الانساب ، وكل امتياز تفيده الأجساب ، لم يجعل له الشارع أثراً في وقاية الحقوق ، وحماية الارواح والاموال والاعراض ، بل كل رابطة سوى رابطة الشريعة الحقة ، فهي ممقوتة على لسان الشارع والمعتمد عليها مذموم ، والمتعصب لها ملوم ، فقد قال صلى الله عليه وسلم « ليس منا من دعا الى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية وليس منا من مات على عصبية » (١) والاحاديث النبوية ، والآيات المنزلة متضافرة على هذا ، ولكن يمتاز بالكرامة والاحترام من يفوق الكفاية في التقوى - اتباع الشريعة - (ان أكرمكم عند الله أتقاكم) ومن ثم قام بأمر المسلمين في كثير من الازمان على اختلاف الأجيال من لاشرف في جنسه ، ولا امتياز له في قبيله ، ولا ورث الملك عن آبائه ، ولا طلبه بشيء من حسبه ونسبه ، وما رفعه الى منصة الحكم إلا خضوعه للشرع ، وعنايته بالمحافظة عليه .

وإن بسطة ملك الوازعين في المسلمين كان يسديها اليهم على حسب امثالهم للأحكام الالهية واهدائهم بهديها ، وتجردهم من الاعتلاء الشخصي ، وكما أراد الوازع أن يختص نفسه بما يفوق به غيره في أميته ورفاهة معيشته ، وأن يستأثر على المحكومين بحظ زائد ، رجعت الأجناس الى تعصبها ، ووقع الاختلاف واتقبضت سلطة ذلك الوازع

هذا ما أوردنا اليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم الى الآن لا يعتدون برابطة الشعوب وعصبات الأجناس . وإنما ينظرون إلى جامعة الدين ، لهذا ترى العربي لا ينفر من سلطة التركي ، والفارسي يقبل سيادة العربي ، والهندي يذعن لولاية الافغاني ، ولا اشمزاز عند أحد منهم ولا انقباض . وإن المسلم في تبدل حكوماته لا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من أشكالها وانتقالها من قبيل إلى

(١) رواه ابو داود من حديث جبير بن مطعم مرفوعاً

(٢٩) - تاريخ الاستاذ الامام - الجزء الثاني

قبيل مادام صاحب الحكم حافظاً لشأن الشريعة ذاهباً مذاهبها . نعم اذا نبأ في سيره عنها ، وجار في حكمه عما نصت عليه ، وطلب الأثرة بما ليس من حقه انصدعت منه القلوب ، وانحرفت عن محبته الانفس ، وأصبح وإن كان وطنياً فيهم ، أشنع حالاً من الاجنبي عنهم (١)

إن المسلمين اختصوا من بين سائر أرباب الأديان بالتأثر والأسف عند ما يسمعون بانفصال بقعة اسلامية عن حكم اسلامي بدون التفات إلى جنسها وقبيلها ، ولو أن حاكماً صغيراً بين قوم مسلمين من أي جنس كان تبع الأوامر الالهية وثابر على رعايتها ، وأخذ الدهماء بمحدودها ، وضرب بسهمهم مع المحكومين في الخضوع لها وتبجاني عن الاختصاص بمزايا الفخفة الباطلة لا يمكنه أن يحوز بسطة في الملك وعظمة في السلطان . وأن ينال الغاية من رفعة الشأن في الاقطار المعمورة بارباب هذا الدين ، ولا يتجشم في ذلك اتعاباً ، ولا يحتاج إلى بذل النفقات ، ولا تكثير الجيوش ، ولا مظاهرة الدول العظيمة ، ولا مداخلة أعوان التمدن وأنصار الحرية . . . ويستغني عن كل هذا بالسير على نهج الخلفاء الراشدين والرجوع إلى الاصول الاولى من الديانة الاسلامية القويمة . ومن سيره هذا تنبعث القوة وتتجدد لوازم المنعة .

أكرر عليك القول بأن السبب هو أن الدين الاسلامي لم تكن وجهته كوجهة سائر الاديان الى الآخرة فقط ، ولكنه مع ذلك أتى بما فيه مصالحة العباد في دنياهم ، وما يكسبهم السعادة في الدنيا والتعظيم في الآخرة . وهو المعتبر عنه في الاصطلاح الشرعي بسعادة الدارين ، وجاء بالمساواة في أحكامه بين الاجناس المتباينة ، والأأم المختلفة

ايضت عين الدهر وامتقع لون الزمان حتى أصاب أن بعضاً من المسلمين على حكم الندرة يعز عليهم الصبر ، ويضيق منهم الصدر ، لجور محكمهم وخروجهم

« ٢٤ » آخر امثالته رجوع العرب الى عصبيتهم الجنسية وانقباضهم من الترك حين شرعوا يميزون أنفسهم من حيث انهم ترك ... بعد ان ظلوا قروناً لا يفرقون من سلطة الترك إذ كانت باهم الاسلام لا باسم « الحاكمة التركية المالية »

في معاملتهم عن أصول العدالة الشرعية ، فيلجؤون للدخول تحت سلطة أجنبية ، على أن الندم يأخذ بارواحهم عند أول خطوة يخطونها في هذا الطريق ، فمثلهم مثل من يريد الفتك بنفسه حتى إذا أحس بالألم رجع واسترجع . وإن بعض ما يطرأ على الممالك الاسلامية من الاقسام والتفريق إنما يكون منشأ قصور الوازعين وحيدانهم عن الاصول القوية التي بنيت عليها الديانة الاسلامية ، وأنحرافهم عن مناهج أسلافهم الاقدمين . فان منابذة الاصول الثابتة والنكوب عن المناهج المألوفة أشد ما يكون ضررها بالسلطة العليا ، فاذا رجع الوازعون في الاسلام إلى قواعد شرعهم ، وساروا سيرة الاولين السابقين لم يمض قليل من الزمان إلا وقد آتاهم الله بسطة في الملك ، وألحقهم في العزة بالراشدين من أئمة الدين ، وقفنا الله لاسداد ، وهدانا طريق الرشاد

المقالة الثالثة

ماضى الامة وماضرها وعمرج عليها (٥)

(سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا)

أرأيت أمة من الامم لم تكن شيئاً مذكوراً ، ثم انشق عنها عماء العدم ، فاذا هي بحمبة كل واحد منها كون بديع النظام ، قوي الاركان ، شديد البنيان عليها سياج من شدة البأس ، ويحيطها سور من منعة الهمم ، تحمد في ساحاتها عاصفات النوازل ، وتعمل بأيدي مديريها عقد المشاكل ، تمت فيها أفنان العزة بعد ما تبنت أصولها ، ورسخت جذورها ، وامتد لها السلطان على البعيد عنها والداني إليها ، ونفذت منها الشوكة ، وعلت لها الكلمة ، وكملت القوة ، فاستعلت آدابها على الآداب ، وسادت أخلاقها وعاداتها على ما كان من ذلك لسابقتها ومعاصريها ،

نشرت في العدد الثالث من "العروة الوثقى" في ٢٩ جمادى الاولى سنة ١٠٣١

وأحست مشاعر سواها من الامم بان المساعدة إلا في انتهاج منهجها، وورود شريعتها، وصارت وهي قليلة العدد كثيرة الساحات، كأنها للعالم روح مدبر وهو لها بدن عامل .

وبعد هذا كله وهي بناؤها، وانتثر منظومها، وتفرقت فيها الاهواء، وانشقت العصا، وتبدد ما كان مجتمعاً، وانحل ما كان منعقداً، وانفصمت عري التعاون، وانقطعت روابط التعاضد، وانصرفت عزائم أفرادها عما يحفظ وجودها، ودار كل في محيط شخصه المحدود بنهايات بدنه لا يلح في مناظره بارقة من حقوقها الكلية والجزئية، وهو في غيبة عن أن ضروريات حاجاته لاتنال إلا على أيدي الملتحمين معه بلحمة الامة، وأنه أحوج الى شد عضدهم من تقوية ساعده، والى توفير خيرهم من تنمية رزقه، وكأنه بهذه الغيبة في سبات يخيله الناظر اليه صحواً، وذبول يظنه المغرور زهواً، وأخذ القنوط بأمال أولئك المدهوئين فابادها، وحدثت فيهم قناعة التهم، والرضا بكل حال، واثن تنبه خاطر للحق في خيال أحدهم، أو استفزه داع من قلبه الى ما يكسب ملته شرفاً، أو يعيد لها مجداً، عده هوساً وهذياناً أصيب به من ضعف في المزاج، أو خلل في البنية، أو حسب أنه لو أجاب داعي الذمة لعاد عليه بالوبال، وأوردته موارد الهلكة، أو انصار من أقرب الاسباب لزوال نعمته، ونكد معيشته، ويحكم لنفسه سلاسل من الجبن وأغلالا من اليأس، فتغل يدها عن العمل، وتقف قدمها عن السبي، ويمس بعد ذلك بغاية العجز عن كل ما فيه خيره وصلاحه، ويقصر نظره عن درك ما أتى أسلافه من قبله، وتجمد قريحته عن فهم ما قام به أولئك الآباء الذين تركوه خليفة على ما كسبوا، وقبلا على ما أورتوه لاعتقابهم، ويبلغ هذا المرض من الامة حداً يشرف بها على الهلاك، ويطرحها على فراش الموت فريسة لكل عاد، وطعمة لكل طاعم .

نعم رأيت كثيراً من الامم لم تكن ثم كانت، وارتفعت ثم انحطت، وقويت ثم ضعفت، وعزت ثم ذات، وصحت ثم مرضت، ولكن أليس لكل علة ودواء؟ بلى وأسفناً، الأصعب الداء، وما أعز الدواء! وما أقل العارفين بطرق العلاج!

كيف يمكن جمع الكامة بعد افتراقها، وهي لم تفرق إلا لأن كلا عكف على شأنه؟ استغفر الله ، لو كان له شأن يعكف عليه لما انفصل عن أخيه وهو أشد أعضائه اتصالاً به ، ولكنه صرف لشؤون غيره وهو يظنها من شؤون نفسه ، نعم ربما التفت كل الى ما هو في فطرة كل حي من ملاحظة حفظ حياته بمادة غذائه ، وهو لا يدري من أي وجه يحصلها ، ولا بأية طريقة يكون في أمن عليها ؟ كيف تبعث الهمم بعد موتها ، وما ماتت إلا بعد ما سكنت زماناً غير قصير إلى ما ليس من معاليها ؟ هل من السهل رد التائه الى الصراط المستقيم ؟ وهو يعتقد أن الفوز في سالك سواه ، خصوصاً بعد ما استدبر المقصد ، وفي كل خطوة يظن أنه على مقربة من الخطوة ؟ كيف يمكن تنبيه المستغرق في منامه ، المتبهج بأحلامه ، وفي أذنه وقر وفي ملامسه خدر ؟

هل من صيحة تفرع قلوب الآحاد المتفرقة من أمة عظيمة تتباعد أحوازها ، وتتباين أطرافها ، وتتباين عاداتها وطبائعها ؟ هل من نبأ تجمع أهواءها المتفرقة ، وتوحد آراءها المتخالفة ، بعد ما تراكم جهل وران غيب ، وخيل للعقول أن كل قريب بعيد ، وكل سهل وعر ؟ أيم الله أنه لشيء عسير ، يعاين علاجها النطاسي ، ويحار فيه الحكيم البصير . هل يمكن تعيين الدواء إلا بعد الوقوف على أصل الداء ، وأسبابه الأولى والعوارض التي طرأت عليه ؟ ان كان المرض في أمة فكيف يمكن الوصول الى علاه وأسبابه إلا بعد معرفة عمرها وما اعترأها فيه من تنقل الاحوال وتنوع الاطوار ؟ أيمكن لطبيب يعالج شخصاً بعينه أن يختار له نوعاً من العلاج قبل أن يعرف ما عرض له من قبل في حياته ليكون على بينة من حقيقة المرض ؟ وإلا فان كثيراً من الامراض تتولد جراثيمها في طور من أطوار العمر ، ثم لا تظهر إلا في طور آخر ، لتغلب قوة الطبيعة على مادة المرض فلا يبدو أثرها .

كلا إنه يصعب على الطبيب الماهر تشخيص علة لشخص واحد سنة وعمره محدودة ، وعوارض حياته محصورة ، فكيف بمن يريد مداواة ملة طويلة الأجل وافرة العدد ؟ لهذا يندر في أجيال وجود بعض رجال يقومون بإحياء أمة أو

ارجاع شرفها وعمدها اليها ، وإن كان المشبهون بهم كثيرين . وكان المتطبب القاصر في الامراض البدنية لا يزيد علاجه المرض إلا شدة ، لولامساعدة الاتفاق والصدقة ، بل ربما يفضي بالمريض إلى الموت . كذلك يكون حال الذين يقومون بتعديل أخلاق الامم على غير خبرة تامة بشأنها . ووجب اعتلاها ، ووجوه العلة فيها وأنواعها ، وما يكتنف ذلك من العادات ، وما يوجد في أفرادها من المذاهب والاعتقادات ، وحوادثها المتتابعة على اختلاف مواقعها من الارض ، ومكانتها الاولى من الرفعة ، ودرجتها الحالية من الضعة ، وتدرجها فيما بين المنزلتين . فإن أخطأ طالب اصلاحها في اكتناه شيء مما ذكرنا تحول الدواء داء ، والوجود فدناء ، فن له حظ من الكمال الانساني ، ولم يطمس من قلبه موضع الالهام الالهي ، لا يجراً على القيام بما يسمونه تربية الأمم واصلاح ما فسد منها وهو يحس من نفسه أدنى قصور في أداء هذا الامر العظيم علماً أو عملاً . نعم يكون ذلك من محبي الفخفة الباطلة ، وطلاب العيش في ظل وظائف ليسوا من حقوقها في شيء .

ظن أقوام في هذه الازمان أن امراض الامم تعالج بنشر الجرائد ، وأنها تكفل أنماض الهمم ، وتنبيه الافكار ، وتقوم الاخلاق . كيف يصدق هذا الظن وإن لو فرضنا أن كتاب الجرائد لا يقصدون بما يكتبون إلا نجاح الأمم مع التمهز عن الاغراض ؟ فبعد ما عم الدهول ، واستولت الدهشة على العقول ، وقل القارئون والكتابيون . لا تجد لها قارئاً ، ولئن وجدت القاريء ، قلما نجد الفاعم ، والفاعم قد يحمل ما يجده على غير ما يراد منه لضيق في التصور ، أو ميل مع الهوى ، فلا يكون منه إلا سوء التأثير ، فيشبهه غذاء لا يلائم الطبع فيزيد الضرر أضعافاً . على أن الهممة اذا كانت في درك الهبوط . فمن يستطيع تفهيمها فائدة الجرائد حتى تتجه منها الرغبات لاستطلاع ما فيها مع قصر المدة ، وتدقيق سيول المواد ؟ إن هذا وحقك لعزيز .

ويظن أقوام آخرون أن الامة المنبثة في أقطار واسعة من الأرض مع تفرق أهوائها وأخلاقها إلى مادون رتبها بدرجات لا تحصر ، ورضاها بالدون من العيش ، والتماس الشرف بالانتماء لمن ليس من جنسها ولا مشربها ، بل لمن كان

خاضعاً لسيادتها، راضحاً لأحكامها، مع هذا كله يتم شفاؤها من هذه الأمراض القاتلة بإنشاء المدارس العمومية دفعة واحدة في كل بقعة من بقاعها، وتكون على الطرز الجديد المعروف بأوروبا، حتى تعم المعارف جميع الأفراد في زمن قريب. ومتى عمت المعارف كملت الأخلاق، واتحدت الكرامة، واجتمعت القوة. وما أبعد ما يظنون؟ فان غذا العمل العظيم إنما يقوم به سلطان قوي قاهر، يحمل الأمة على ما نكره أزماناً حتى تذوق لذته وتجني ثمرته، ثم يكون ميلها الصادق من بعد نائياً عن سلطته في تنفيذ ما أراد من خيرها، ويلزم له ثروة وافرة تفي بنفقات تلك المدارس وهي كثيرة. وموضوع كلامنا في الضعف ودوائه، فبيل مع الضعف سلطة تقهر، وثروة تغني؟ ولو كان للأمة هذان لما عدت من الساقطين.

فان قالوا: يمكن التدرج مع الاستمرار والثبات، وانقناهم على الامكان لولا ما يكون من طمع الأقوياء حتى لا يدعون لهم سبيلاً، لأن يستمشقوا نسيم القوة، فأين الزمان لنجاح تلك الوسائل البطيئة الأثر؟... على أنا لو فرضنا مسالة الدهر، ومنحت الأمة مدة من الزمان تكفي لبث تلك العلوم في بعض الأفراد، والاستزادة منها شيئاً فشيئاً، فهل يصح الحكم بأن هذا التدرج يفيدها فائدة جوهرية، وأن ما يصيبه البعض منها يهيؤه للكمال اللائق به، ويمكنه من القيام بارشاد الباقي من أبناء أمته؟ وعجبا كيف يكون هذا وإن الأمة في بعد عن معرفة تلك العلوم الغريبة عنها!؟ وكيف بذرت بذورها؟ وكيف نبتت واستوت على سوقها وأينعت وأثمرت؟ وبأي ماء سقيت، وبأي تربة غذيت؟ ولا وقوف لها على الغاية التي قصدت منها في مناشئها، ولا خبرة لها بما يترتب عليها من الثمرات، وإن وصل إليها طرف من ذلك، فانما يكون ظاهراً من القول لانبأ عن الحقيقة. فهل مع هذا يصيب الظن بأن مفاجأة بعض الأفراد بها، وسوقها إلى أذهانهم المشحونة بغيرها، يقوم من أفهامهم، ويعدل من أخلاقهم، ويهديهم طرق الرشاد في إفاضة إخوانهم. لعل الأقرب أن ناقل تلك العلوم— وهم من أمة هذا شأنها مع ما يعكس اليهم من الأوهام

المألوفة فيها ، وما رسخ في نفوسهم على عهد الصبا ، وما يعظمونه من أمر الأمة التي تلقوا عنها علومهم — يكونون بين أمتهم كخلط غريب لا يزيد طبائعها إلا فساداً ماذا يكون من أولئك الناشئين في علوم لم تكن ينابيعها من صدورهم ، ولو صدقوا في خدمة أوطانهم ؟ يكون منهم ما تعطيه حالهم ، يؤدون ما تعلموه كما سمعوه ، لا يراعون فيه النسبة بينه وبين مشارب الأمة وطبائعها ، وما مرنت عليه من عاداتها ، فيستعملونه على غير وضعه ، ولبعدهم عن أصله ولهوهم بمحاضره عن ماضيه ، وغفنتهم عن آتية ، يظنون على ما بلغهم هو الكمال لكل نفس ، والحياة لكل روح ، فيرومون من الصغير بالارام إلا من الكبير ، وبالعكس ، غير ناظرين إلا إلى صور ما تعلموه ، ولا مفكرين في استعداد من يعرض عليهم وهل يكون له من طبائعهم مكان يحمد ؟ أو يزيدا على ما بها أضعافا ؟ وما هذا إلا لكونهم ليسوا أربابها ، وإنما هم لها ثقلة وحمة . فهؤلاء الصادقون إلا من وفقه الله منهم بعنايته الالهية يكون مثلهم كمثل والدة حنون يلد لها غذاء ، فتفيض منه على ولدها وهو رضيع ليساهمها في اللذة ، وسنه سن اللبان لا يقبل سواه ، فيسرع اليه المرض ، وينتهي به إلى التلف ، فتكون منزلتهم من الأمة منزلة الآلة المحللة ، يشتتون بقية الجمع ، ويبددون أخريات الالتئام إن كان الفساد أبقى للقوم بعض الروابط فهؤلاء المغرورون يغشونهم بما يذهلهم عنها ، وما قصدوا إلا خيراً إن كانوا مخلصين ، ويوسعون بذلك الخصاص (الخرق في باب ونحوه) حتى تعود أبوابا ، ويباعدون ما بين الضفاف ، حتى تصير ميادين لتداخل الأجانب تحت اسم النصحاء ، وعنوان المصلحين ، ويذهبون بأمتهم إلى الفناء والاضمحلال وبئس المصير

شيد العثمانيون والمصريون عدداً من المدارس على النمط الجديد ، وبعثوا بطوائف منهم إلى البلاد الغربية ليحملوا اليهم ما يحتاجون اليه من العلوم والمعارف والصنائع والآداب ، وكل ما يسمونه تمدناً ، وهو في الحقيقة تمدن للبلاد التي نشأ فيها على نظام الطبيعة ، وسير الاجتماع الانساني . هل انتفع المصريون والعثمانيون بما قدموا لأنفسهم من ذلك وقد مضت عليهم أزمان غير قصيرة ؟ هل صاروا

أحسن حالا مما كانوا عليه قبل التمسك بهذا الجبل الجديد ؟ هل استنفذوا أنفسهم من أنياب الفقر والفاقة ؟ هل نجوا بها من ورطات ما يلجئهم اليه الأ جانب بتصر فاتهم ؟ هل أحكموا الحصون وسدوا الثغور ؟ هل نالوا بها من المنعة ما يدفع عنهم غارة الأعداء عليهم ؟ هل بلغوا من البصر بالعواقب والتصرف في الافكار حداً يميل عزائم الطامعين عنهم ؟ هل وجدت فيهم قلوب مازجتها روح الحياة الوطنية ؟ فهي تؤثر مصلحة البلاد على كل مصلحة وتطلبها ، وإن تجاوزت محيط الحياة الدنيا ، وإن بادت في سبيلها خلفها وارث على شاكلتها كما كان في كثير من الامم نعم ربما يوجد بينهم أفراد يتفهبون بألفاظ الحرية والوطنية والجنسية وما شاكلها ، ويصوغونها في عبارات متقطعة بترء ، لا تعرف غايتها ، ولا تعلم بدايتها ، ووسموا أنفسهم بزعماء الحرية أو بسمه أخرى على حسب ما يختارون ووقفوا عند هذا الحد ، ومنهم آخرون عمدوا إلى العمل بما وصل اليهم من العلم ، قبلوا أوضاع المباني والمسكن ، وبدلوا هيئات المآكل والملابس والفرش والأنية وسائر الماعون ، وتنافسوا في تطبيقها على أجود ما يكون منها في الممالك الأجنبية ، وعدوها من مفاخرهم ، وعرضوها معرض المباهة ، فنسفوا بذلك ثروتهم إلى غير بلادهم ، واعتاضوا عنها أعراض الزينة مما يروق منظره ولا يحمد أثره ، فأماوا أرباب الصنائع من قومهم . وأهلكوا العاملين في المهن لعدم اقتدارهم أن يقوموا بكل ما استدعيه تلك العلوم الجديدة والكماليات الجديدة ، لأن مصانعهم لم تتحول إلى الطرز الجديد ، وأيديهم لم تتعود على الصنع الجديد ، وثروتهم لا تنسج جلب الآلات الجديدة من البلاد البعيدة ، وهذا جدع لأف الأمة ، يشوه وجهها ، ويحط بشأنها ، وما كان هذا إلا لأن تلك العلوم وضعت فيهم على غير أساسها وفجأتهم قبل أوانها

علمتنا التجارب ونطقت مواضي الحوادث بأن المقلدين من كل أمة المنتحلين أطوار غيرها ، يكونون فيها منافذ وكوى لتطرق الأعداء اليها ، وتكون مداركهم مهابط الوسوس ومخازن الدسائس ، بل يكونون بما أفعمت أفئدتهم من تعظيم الذين قلدوهم ، واحتقار من لم يكن على مثالهم ، شوماً على أبناء أمتهم ، يذلونهم

ويحرقون أمرهم ، ويستعينون بجميع أعمالهم وإن جلت ، وإن بقي في بعض رجال الأمة بقية من الشمم ، أو نزوع إلى معالي الهمم ، انصبوا عليه وأرغموا من أنفه ، حتى يمحى أثر الشهامة ، ويحمد حرارة الغيرة ، ويصير أولئك المقلدون طلائع لجيوش الغالبيين وأرباب الغارات يهدون لهم السبيل ، ويفتحون الأبواب ، ثم يثبتون أقدامهم ويمكنون سلطنتهم ، ذلك بأنهم لا يعلمون فضلا لغيرهم ، ولا يظنون أن قوة تغالب قواهم

أقول ولا أخشى لوماً : لو كان في البلاد الأفغانية عدد قليل من تلك الطلائع عند ما تغلب على بعض أراضيها الانكياز؟ لما بارحوها أبد الآبدين . فان نتيجة العلم عند هؤلاء ليست إلا توطيد المسالك ، والركون إلى قوة مقلديهم واستقبال مشارق فنونهم ، فيبالغون في تطمين النفوس؟ وتسكين القلوب ، حتى يزيلون الوحشة التي قد يصون بها الناس حقوقهم ، ويحفظون بها استقلالهم . ولهذا لو طرق الأجانب أرضاً لأية أمة ترى هؤلاء المتعلمين فيها يقبلون عليهم ويعرضون أنفسهم لخدمتهم بعد الاستبشار بقدمومهم ، ويكونون بطانة لهم ومواضع لثقتهم كأنما هم منهم ، ويعدون الغلبة الأجنبية في بلادهم مباركة عليهم وعلى أعقابهم .

فما الخيلة وما الوسيلة ، والجرائد بعيدة الفائدة ضعيفة الأثر لو صحت الضمائر فيها ، والعلوم الجديدة لسوء استعمالها رأينا ما رأينا من آثارها ، والوقت ضيق والخطب شديد ؟ أي جهوري من الأصوات يوقظ الراقدين على حشايا الغفلات ؟ أي قاصفة تزعج الطباع الجامدة ، وتحرك الأفكار الخاملة ؟ أي نفخة تبعث هذه الأرواح في أجسادها ، وتحشرها إلى مواقف صلاحها وفلاحها؟ الأقطار فسيحة الجوانب ، بعيدة المناكب ، المواصلات عسرة بين الشرقي والغربي والجنوبي والشمال ، الرؤوس مطرقة إلى ماتحت القدم أو منفضة إلى ما فوق السماء ، ليس للأبصار جولان إلى الأمام والخلف واليمين والشمال ، ولا للأسماع إصغاء ، ولا للنفوس رغبات ، وللأهواء تحكم ، وللوسواس سلطان .

ماذا يصنع المشفقون على الأمة والزمن قصير؟ ماذا يحاولون والأخطار محددة بهم؟ بأي سبب يتمسكون ورسل المنيا على أبوابهم؟

لا أطيل عليك بحثاً ولا أذهب بك في مجالات بعيدة من البيان، ولكنني استلقت نظرك الى سبب يجمع الأسباب، ووسيلة تحيط بالوسائل: أرسل طرفك إلى نشأة الأمة التي خملت بعد النباهة، وضعفت بعد القوة، واسترقت بعد السيادة، وضيقت بعد المنعة، وتبين أسباب نهوضها الأول، حتى تتبين مضارب الخلل وجرائم العلل، فقد يكون ما جمع كلمتها، وأنهم هم آحادها، ولحم ما بين أفرادها، وصعد بها إلى مكانة تشرف منها على رؤوس الأمم، وتسوسهم وهي في مقامها بدقيق حكمتها، إنما هو دين قويم الأصول، ومحكم القواعد، شامل لأنواع الحكم، باعث على الألفة، داع إلى المحبة، منرك للنفوس، مطهر للقلوب من أدران الحسائس، منور للعقول بأشراق الحق من مطالع قضايها، كافل لكل ما يحتاج إليه الانسان من مباني الاجتماعات البشرية وحافظ وجودها، وينادي بمعتقديه إلى جميع فروع المدينة.

فان كانت هذه شرعتها، ولها وردت، وغنها صدرت. فما تراهن عارض خللها، وهبوطها عن مكاتبتها، إنما يكون من طرح تلك الأصول ونبذها ظهرياً، وحدث بدع ليست منها في شيء، أقامها المعتقدون مقام الأصول الثابتة، وأعرضوا عما يرشد إليه الدين وعما آتى لأجله، وما أعدته الحكمة الالهية له، حتى لم يبق منه الا أسماء، تذكر، وعبارات تقرأ. فتكون هذه المحدثات حجاً بين الأمة وبين الحق الذي تشعر بنداثة أحياناً بين جوانحها. . . . فعلاجها الناجح إنما يكون برجوعها الى قواعد دينها، والأخذ بأحكامه على ما كان في بدايته، وإرشاد العامة بمواعظه الوافية بتطهير القلوب وتهذيب الأخلاق، وإيقاد نيران الفيرة، وجمع الكلمة، وبيع الأرواح لشرف الأمة، ولأن جرثومة الدين متأصلة في النفوس بالوراثه من أحقاب طويلة، والقلوب مطمئنة اليه، وفي زواياها نور خفي من محبته، فلا يحتاج القائم باحياء الأمة الا الى نفخة واحدة يسري نفعها في جميع الأرواح لا تقرب وقت. فاذا قاموا لشؤونهم، ووضعوا أقدامهم على

طريق نجاحهم ، وجعلوا أصول دينهم الحقة نصب أعينهم ، فلا يعجزهم بعد أن يبلغوا بسيرهم منتهى الكمال الانساني ومن طلب اصلاح أمة شأنها ما ذكرنا بوسيلة سوى هذه ، فقد ركب بها شططا ، وجعل النهاية بداية ، وانعكست التربية ، وخالف فيها نظام الوجود فينعكس عليه القصد ، ولا يزيد الامة الانحسار ، ولا يكسبها الاتعسا .

هل تعجب أيها القارىء من قولي إن الأصول الدينية الحقة، المبرأة عن محدثات البدع، تنشيء للأمم قوة الاتحاد، وائتلاف الشمل وتفضيل الشرف على لذة الحياة، وتبعثها على اقتناء الفضائل وتوسيع دائرة المعارف وتنتهي بها إلى أقصى غاية في المدنية؟! إن عجبت فإن عجبني من عجبك أشد!! هل نسيت تاريخ الامة العربية وما كانت عليه قبل بعثة الدين من الهمجية والشتات ، واتيان الدنيايا والمنكرات ، حتى اذا جاءها الدين فوحدها وقواها وهذبها ، ونور عقولها ، وقوم أخلاقها ، وسدّد أحكامها . فسادت على العالم ، وساست من تولته بسياسة العدل والانصاف . وبعد أن كانت عقول أبنائها في غفلة عن لوازم المدنية ومقتضياتها نهبها شريعتهما وآيات دينها الى طلب الفنون المتنوعة والتبحر فيها . وتقلوا إلى بلادهم طب بقراط وجالينوس ، وهندسة أقليدس ، وهيئة بطليموس ، وحكمة أفلاطون وارسطو ، وما كانوا قبل الدين في شيء من هذا ، وكل أمة سادت تحت هذا اللواء إنما كانت قوتها ومدنيتها في التمسك بأصول دينها . . .

وقد تكون نشأة الأمة قائمة بدعوة الملك ، وافتتاح الأقطار ، وطلب السيادة على الأمصار ، وتلك الدعوة لما تستدعيه من عظم الهمم ، وارتفاع النفوس عن الدنيايا وبعد الغايات ، وعلو المقاصد هي التي هذبت أخلاقهم ، وقومت أفكارهم ، وكفقتهم عن معاطاة الرذائل وخسائس الامور وسوافلها . ثم بعد ما مضى زمان من نشأتها أصابها من الانحطاط ما أصابها . فبيان أسباب الخلل فيها وعلاته نغرد له فصلا مستقلا في عدد آخر إن شاء الله وهو الموفق للصواب

المقالة الرابعة

النصرانية والاسلام وأقاربها *

﴿ مقابلة بينهما في طلب العزة والسيادة نشرت بالعنوان الآتي ﴾

﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾

خلق الله الانسان عالماً صناعياً ، ويسر له سبيل العمل لنفسه ، وهداه للابداع والاختراع ، وقدر له الرزق من صنع يديه . بل جعله ركن وجوده ، ودعامته بقائه . فهو على جميع أحواله من ضيق وسعة ، وخشونة ورفاهة ، وتبد وحضارة ، صنعة أعماله : أقواته من معالجة الارض بالزراعة أو قيامه على الماشية ، وسرايله وما يقيه الحر أو البرد والوجي من عمل يديه نسجاً أو خصفاً ، وأكذانه ومساكنه ليست الا مظاهر تقديره وتفكيره . وجميع ما يتفنن فيه من دواعي ترفه ونعيمه إنما هي صور أعماله ومجالي أفكاره ، ولو نفى يديه من العمل لنفسه ساعة من الزمان وبسط أكفه للطبيعة ليستجد بها نفساً من حياة لشحت به عليه ، بل دفعته الى هاوية العدم ، وهو في صنعه وابداعه محتاج الى أستاذ يثقفه وهاد يرشده . فكما يعمل لتوفير لوازم معيشتة وحاجات حياته يعمل ليعلم كيف يعمل ، وليقتدر على أن يعمل . فصنعتة أيضاً من صنعه . فهو في جميع شؤونه الحيوية عالم صناعي كأنه منفصل عن الطبيعة ، بعيد من آثارها ، حاجته اليها كحاجة العامل لآلة العمل . هذا هو الانسان في مأكله ومشربه وملبسه ومسكنه .

دنه في هذه الحالة وخذ طريقاً من النظر إلى أحواله النفسية من الادراك والتعقل والأخلاق والملكات والانفعالات الروحية تجده فيها أيضاً عالماً صناعياً :

* نشرت في العدد اربع من العروة الوثقى الذي صدر في ٧ جمادى الآخرة

سنة ١٣٠١ الموافق ٣ ابريل سنة ١٨٨٤

شجاعته وجبنه ، جزعه وصبره ، كرمه وبخله ، شهامته ونذالته ، قسوته ولينه ، عفته وشرهه ، وما يشبهها من الكمالات والنقائص جميعها تابع لما يصادفه في تربيته الأولى . وما يودع في نفسه من أحوال الذين نشأ فيهم وتربى بينهم ، ومرامي أفكاره ، ومناهج تفعله ، ومذاهب مياله ، ومطامح رغباته ، ونزوعه الى الاسرار الالهية ، أو ركونه الى البحث في الخواص الطبيعية . وعنايته باكتشاف الحقيقة في كل شيء ، أو وقوفه عند بادىء الرأي فيه وكل ما يرتبط بالحركات الفكرية - إنمائي ودائع اختزنها لديه الآباء والأمهات ، والاقوام والعشائر والمخالطون وأما هواء المولد والمربي ونوع المزاج ، وشكل الدماغ ، وتركيب البدن وسائر الغواشي الطبيعية فلا أثر له في الأعراض النفسية ، والصفات الروحانية ، إلا ما يكون في الاستعداد والقابلية ، على ضعف في ذلك الأثر . فان التريبة وما ينطبع في النفس من أحوال المعاشرين وأفكار المثقفين تذهب به كأن لم يكن أودع في الطبع . نعم إن أفكاراً تتجدد ، ومعقولات من أخرى تتولد ، وصفات تسمو ، وهما تعلو ، حتى يفوق اللاحقون فيها السابقين . ويظن أن هذا من تصرف الطبيعة لا من آثار الاكتساب ، ولكن الحق فيه أن ثمرة ما غرس ونتيجة ما كسب ، فهو مصنوع يتبع مصنوعاً . فالإنسان في عقله وصفات روجه عالم صناعي

هذا مما لا يرتاب عليه العقلاء والسذج ، ولكن هل تذكرت مع هذا أن الاعمال البدنية ، إنما تصدر عن الملكات والعزائم الروحية ، وأن الروح هي السلطان القاهر على البدن ؟ أظنك لا تحتاج فيه الى تذكير ، لأنه مما لا يعزب عن الأذهان — إنما قبل الدخول في موضوعنا أقول كلمة حق في الدين ، ولا أظن منكرًا يجحدها :

إن الدين وضع إلهي ، ومعلمه والداعي اليه البشر ، تتلقاه العقول عن المبشرين المندرين ، فهو مكسوب لمن لم يختصهم الله بالوحي ، ومنقول عنهم بالبلاغ والدراسة والتعليم والتلقين ، وهو عند جميع الأمم أول ما يمتزج بالقلوب ، ويرسخ في الأفتدة ، وتصنع النفوس بعقائده وما يتبعها من الملكات والعادات ، وتتمرن

الأبدان على ما ينشأ عنه من الأعمال عظيمها وحقيرتها ، فله السلطة الاولى على الأفكار وما يطاوعها من العزائم والارادات ، فهو سلطان الروح ومرشدها إلى ما تدبر به بدنها . وكأنما الانسان في نشأته لوح صقيل ، وأول ما يخطط فيه رسم الدين . ثم ينبعث إلى سائر الأعمال بدعوته وإرشاده ، وما يطرأ على النفوس من غيره ، فانما هو نادر شاذ ، حتى لو خرج مارق عن دينه لم يستطع الخروج عما أحدثه فيه من الصفات بل تبقى طبعته فيه كأثر الجرح في البشرة بعد الاندمال

*

وبعد هذا الموضوع بحثنا الآن الملة المسيحية والملة الاسلامية ، وهو بحث طويل التذيل . وإنما نأتي به على إجمال ينبثق عن تفصيل : إن الديانة المسيحية بنيت على المسألة والمياسرة في كل شيء ، وجاءت برفع القصاص وإطراح الملك والسلطة ، ونبذ الدنيا وبهرجها ، ووعظت بوجود الخضوع لكل سلطان يحكم المتدينين بها ، وترك أموال السلاطين للسلاطين ، والابتعاد عن المنازعات الشخصية والجنسية ، بل والدينية — ومن وصايا الأنجيل : من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر — ومن أخباره أن الملوك إنما ولايتهم على الأجساد وهي فانية . والولاية الحقيقية الباقية على الأرواح وهي لله وحده . فمن يقف على مباني هذه الديانة ، ويلاحظ ما قلنا من أن الدين صاحب الشوكة العظمى على الافكار ، مع ملاحظة أن لكل خيال أثرآ في الارادة يتبعه حركة في البدن على حسبه . يعجب كل العجب من أطوار الآخذين بهذا الدين السلمي المنتسبين في عقائدهم اليه . فهم يتسابقون في المفاخرة والمباهاة بزينة هذه الحياة ورفه العيش فيها ، ولا يقفون عند حد في استيفاء لذاتها ، ويسارعون الى افتتاح الممالك ، والتغلب على الاقطار الشاسعة ، ويخترعون كل يوم فنا جديداً من فنون الحرب ، ويبدعون في اختراع الآلات الحربية القاتلة ، ويستعملها بعضهم في بعض ، ويصولون بها على غيرهم ، ويبالغون في ترتيب الجيوش وتدير سوقها في ميادين القتال ، ويصرفون عقولهم في إحكام نظامها حتى وصلوا غاية صار بها الفن العسكري من أوسع الفنون وأصعبها ، وإن أصول دينهم صارفة لعقولهم

عن العناية بحفظ أملاكهم ، فضلا عن الالتفات الى طلب غيرها

الديانة الاسلامية وضع أساسها على طلب الغلب والشوكة والافتتاح والعزة ورفض كل قانون يخالف شريعتها ، ونبذ كل سلطة لا يكون القائم بها صاحب الولاية على تنفيذ أحكامها . فالناظر في أصول هذه الديانة ، ومن يقرأ سورة من كتابها المنزل ، يحكم حكماً لا ريبه فيه بأن المعتقدين بها لا بد أن يكونوا أول ملة حربية في العالم ، وأن يسبقوا جميع الملل الى اختراع الآلات القاتلة ، وإتقان العلوم العسكرية ، والتبحر فيما يلزمها من الفنون — كالطبيعة والكيمياء وجر الاثقال والهندسة وغيرها — ومن تأمل في آية (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوّة) أيقن أن من صبغ بهذا الدين فقد صبغ بحب الغلبة ، وطلب كل وسيلة إلى ما يسهل له سبيلها ، والسعي إليها بقدر الطاقة البشرية ، فضلا عن الاعتصام بالمنعة والامتناع من تغلب غيره عليه . ومن لاحظ أن الشرع الاسلامي حرّم المراهنة إلا في السبافة وازماتة انكشف مقدار رغبة الشارع في معرفة الفنون العسكرية واتمرن عليها . ولكن مع كل ذلك تأخذ الدهشة من أحوال المتمسكين بهذا الدين لهذه الأوقات ، إذ يراهم يتهاونون بالقوّة ، ويتساهلون في طلب لوازمها . وليست لهم عناية بالبراعة في فنون القتال ، ولا في اختراع الآلات ، حتى فاقتهم الأمم سواهم فيما كان أول واجب عليهم . واضطروا لتقليدها فيما يحتاجون اليه من تلك الفنون والآلات ، وسقط كثير منهم تحت سلطة مخالفهم واستكأوا لها ، ورضخوا (١) لأحكامها . ومن وازن بين الديانتين حار فكره كيف اخترع مدفع الكروب والمتراليوز وغيرها بأيدي أبناء الديانة الاولى قبل الثانية ؟ وكيف وجدت بندقيّة مرتين في ديار الأواين ، قبل وجودها عند الآخرين ؟ وكيف أحكمت الحصون ، ودرعت البواخر ، وأخذت مغالقات البحار بسواعد أهل السلامة والسلم ، دون أهل الغلبة والحرب ؟

لم لا يبحر الحكيم وإن كان نطاسياً ؟ لم لا يقف الخبير البصير دون استكناه

« ١ » وضع هذه الكلمة هنا ، مما سبق الى قم الاستاذ من انشاء الجرائد ، والصواب أن يقال خضعوا أو خنعوا — وأما الرضوخ فعناه العطاء اقليل

الحقيقة ؟ هل القرون الحالية والأحتماب الماضية لم تكن كافية لرسوخ الديانتين في نفوس المستمسكين بهما ؟ هل نبذت كل ملة من الملتين عقائد دينها ظهريا من أجيال بعيدة ؟ هل انتصر النصراني في دينهم على الأخذ بشريعة موسى ، واقتفاء سيرة يوشع بن نون ؟ هل تخللت بعض آيات الانجيل من حيث يدري ولا يدري بين الخطب والمواعظ التي تتلى على منابر المسلمين ، أو ألقى شيء منها في أماني معلمهم وناشري شريعتهم عند ما يتربعون في محافل دروسهم ؟ هل تبدلت سنة الله في الملتين ؟ هل تحول مجرى الطبيعة فيهما ؟ هل استبدت الابدان فيهما على الأرواح ، أو وجد للأرواح دبير سوى الفكر والخيال ، أو انفلتت الأفكار من سلطة الدين ، أو تعاصت النفوس عن الانتقاش بنقشته ، وهو أول حاكم عليها وأقوى مؤثر فيها ؟ هل تتخلف العلل عن معلولاتها ؟ هل تقطع النسب بين الأسباب ومسبباتها ؟ ماذا عساه يرشد العقول الى كشف المسائير وحل المعميات ؟

أينسب هذا إلى اختلاف الأجناس. وكثير من أبناء الملتين يرجعون إلى أصول واحدة، ويتقاربون في الأنساب الدانية؛ أينسب هذا إلى اختلاف الأقطار، وكثير من القبيلين يتشابهون في طبائع البدان، ويتجاورون في مواقع الأمكنة؛ ألم يصدر من المسلمين وهم في شبيبة دينهم أعمال بهرت الابصار وأدهشت الألباب؛ ألم يكن منهم مثل فارس والعرب والترك الذين دوخوا الممالك واستووا على كرسي الولاية فيها. كان للمسلمين في الحروب الصليبية آلات نارية أشباه المدافع، فزع لها المسيحيون، وغابوا عن معرفة أسبابها - ذكر ملكم سرجم (انكايزي) في تاريخ فارس أن محموداً الغزنوي كان يحارب وثني الهند بالمدافع، وكانت هي السبب في انهزامهم بين يديه (سنة ٤٠٠) من الهجرة، وما كان المسيحيون لذلك العهد يعرفون شيئاً منها. فأبي عون من الدهر أخذ بأيدي الملة المسيحية فقدمها إلى مالم يكن في قواعد دينها؟ وأي صدمة من صدماته دفعت في صدور المسلمين فأخترتهم عن تعاطي الوسائل لما هو أول مفروض في دينهم؟ مقام للحيرة (٣١ - تاريخ الاستاذ الامام - الجزء الثاني)

وموضع للعجب ! ويظن أن لا بدّ لهذا التخالف من سبب ، نعم وتفصيله يطول .
ولكن نجمل على ما شرطنا :

إن الدين المسيحي إنما امتدّ ظلّه وعمت دعوته في الممالك الاوربية من
أبناء الرومانيين ، وهم على عقائد وآداب وملكات وعادات ورثوها عن
أديانهم السابقة ، وعلومهم وشرائعهم الاولى ، وجاء الدين المسيحي اليهم
مسالماً لعوائدهم ومذاهب عقولهم ، وداخلهم من طرق الاقناع ومشاركة الخواطر
لا من مطارق البأس والقوة ، فكان كالطراز على مطارفهم ، ولم يسلبهم ماورثوه
عن أسلافهم . ومع هذا فان صحف الانجيل الداعية الى السلامة والسلم لم تكن لسابق
العهد مما يتناول الكافة من الناس ، بل كانت مذكورة عند الرؤساء الروحانيين
ثم ان الاجبار الرومانيين لما أقاموا أنفسهم في منصب التشريع ، وسنوا محاربة
الصليب ، ودعوا اليهادعوة الدين ، التحمت آثارها في النفوس بالعقائد الدينية ،
وجرت منها مجرى الاصول ، ولحقها على الأثر تزعزع عقائد المسيحيين في أوربا ،
واقترقوا شيعاً ، وذهبوا مذاهب تنازع الدين في سلطته ، وعادا وميض ماأودعه
أجدادهم في جراثيم وجودهم ضراماً ، وتوسعوا في فنون كثيرة ، وانفسخ لهم
مجال الفكر فيها ، وكانت براعتهم في الفن العسكري ، واختراع آلات الحرب
والدفاع مساوقة لبراعتهم في سائر الفنون

أما المسلمون فبعد أن نالوا في نشأة دينهم مانالوا ، وأخذوا من كل كمال
حربي حظاً ، وضربوا في كل فخار عسكري بسهم ، بل تقدموا سائر الملل في
فنون المقارعة ، وعلوم النزال والمكائفة ، ظهر فيهم أقوام بلباس الدين وأبدعوا
فيه ، وخلطوا بأصوله ما ليس منها ، فانتشرت بينهم قواعد الجبر ، وضربت
في الأذهان حتى اخترقتها ، وامتزجت بالنفوس حتى أمسكت بهناتها عن
الأعمال . هذا الى ما أدخله الزنادقة فيما بين القرن الثالث والرابع ، وما أحدثه
السوفسطائية الذين أنكروا مظاهر الوجود وعدوها خيالات تبدو للنظر ، ولا
ثبتتها الحقائق ، وما وضعه كذبة النقل من الأحاديث ينسبونها الى صاحب
الشرع صلى الله عليه وسلم ، ويثبتونها في السكتب وفيها السم القاتل لروح الغيرة ،

وإن ما يلصق منها بالعقول يوجب ضعفاً في الهمم ، وفتوراً في العزائم . وتحقيق أهل الحق وقيامهم ببيان الصحيح والباطل من كل ذلك لم يرفع تأثيره عن العامة ، خصوصاً بعد حصول النقص في التعليم ، والتقصير في ارشاد الكفاة الى أصول دينهم الحق ومبانيه الثابتة التي دعا اليها النبي وأصحابه . فلم تكن دراسة الدين على طريقها القويم الا منحصرة في دوائر مخصوصة وبين فئة ضعيفة . لعل هذا هو العلة في وقوفهم ، بل الموجب لتقهرهم ، وهو الذي نعاني من عنائه اليوم ما نسأل الله السلامة منه

إلا إن هذه العوارض التي غشيت الدين ، وصرفت قلوب المسلمين عن رعايته وإن كان حجابها كثيفاً لكن بينها وبين الاعتقادات الصحيحة التي لم يجرمها بالمرّة تدافع دائم وتغالل لا ينقطع ، والمنازعة بين الحق والباطل كالدافعة بين المرض وقوة المزاج . وحيث إن الدين الحق هو أول صبغة صبغ الله بها نفوسهم ، ولا يزال وميض برقه يلوح في أفئدتهم بين تلك الغيوم العارضة ، فلا بد يوماً أن يسطع ضياؤها ويقشع سحب الاغيان . وما دام القرآن يتلى بين المسلمين وهو كتابهم المنزل ، وإمامهم الحق وهو القائم عليهم يأمرهم بحماية حوزتهم والدفاع عن ولايتهم ، ومقابلة المعتدين ، وطلب المنعة من كل سبيل لا يعين لها وجهاً ، ولا يخصص لها طريقاً ، فانتنا لانرتاب في عودتهم الى مثل نشأتهم ، ونهوضهم الى مقاضاة الزمان ماسلب منهم ، فيتقدمون على من سواهم في فنون الملاحمة والمنازلة والمصاولة حفظاً لحقوقهم ، وضناً بأنفسهم عن الذل ، وملتهم عن الضياع ، والى الله تصير الأمور .

المقالة الخامسة

انحطاط المسلمين وسكونهم وسبب ذلك *

(واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا)

إن المسلمين شدة في دينهم ، وقوة في إيمانهم ، وثباتاً على يقينهم ، يباهون بها من عدايم من الملل ، وإن في عقيدتهم أوثق الأسباب لارتباط بعضهم ببعض ، وممارسة في نفوسهم أن في الإيمان بالله وما جاء به نبيهم صلى الله عليه وسلم كفالة لسعادة الدارين . ومن حرم الإيمان فقد حرم السعادتين ، ويشفقون على أحدهم أن يمرق من دينه أشد مما يشفقون عليه من الموت والفناء ، وهذه الحالة كما هي في علمائهم متمكنة في عامتهم ، حتى لو سمع أي شخص منهم في أي بقعة من بقاع الأرض عالماً كان أو جاهلاً أن واحداً ممن وسم بسمه الإسلام في أي قطر ومن أي جنس صبا عن دينه رأيت من يصل إليه هذا الخبر في تحرق وتأسف يلهج بالهوقلة والاسترجاع ، ويعد النازلة من أعظم المصائب على من نزلت به ، بل وعلى جميع من يشاركه في دينه ، ولو ذكرت مثل هذه الحادثة في تاريخ وقرأها قارئهم بعد مئتين من السنين لا يتألك قلبه من الاضطراب ، وودمه من الغليان ، ويستنفره الغضب ويدفعه لمكينة مارأي كأنه يحدث عن غريب أو يحكي عن عجيب .

المسلمون بحكم شريعتهم ونصوصها الصريحة مطالبون عند الله بالمحافظة على ما يدخل في ولايتهم من البلدان ، وكلهم مأمور بذلك لافرق بين قريبهم وبعيدهم ولا بين المتحدنين في الجنس ولا المختلفين فيه ، وهو فرض عين على كل واحد منهم إن لم يقيم قوم بالحماية عن حوزتهم كل على الجميع أعظم الأثم . ومن

* نشرت في العدد الخامس من جريدة العروة الوثقى في ١٤ جمادى الآخرة

سنة ١٠٣١ و ١٠ أبريل ١٨٨٤

فروضهم في سبيل الحماية وحفظ الولاية بذل الاموال والارواح، وارتكاب كل صعب، واقتحام كل خطر، ولا يباح لهم المسالمة مع من يغالبيهم في حال من الاحوال حتى ينالوا الولاية خالصة لهم من دون غيرهم، وبالعقوبة الشرعية في طلب السيادة منهم على من يخالفهم إلى حد لو عجز المسلم عن التماس من سلطة غيره، لوجبت عليه الهجرة من دار حربه — وهذه قواعد مثبتة في الشريعة الاسلامية يعرفها أهل الحق، ولا يغير منها تأويلات أهل الأهواء وأعوان الشهوات في كل زمان.

المسلمون يحس كل واحد منهم بهاتف يهتف من بين جنبيه يذكره بما تطالبه به الشريعة، وما يفرض عليه الايمان، وهو هاتف الحق الذي بقي له من إلهامات دينه، ومع كل هذا يرى أهل هذا الدين في هذه الايام بعضهم في غفلة عما يلم بالبعض الآخر، ولا يألمون لما يألم له بعضهم، فأهل بلوجستان كانوا يرون حركات الانكليز في أفغانستان على مواقع أنظارهم، ولا يجيش لهم جاش ولا تكون لهم نعمة على اخوانهم، والافغانيون كانوا يشهدون تداخل الانكليز في بلاد فارس، ولا يضجرون ولا يتململون، وإن جنود الانكليز تضرب في الاراضي المصرية ذهاباً واياباً تقتل وتفتك، ولا ترى نجدة في نفوس اخوانهم المشرفين على مجاري دماهم، بل السامعين لخريرها من حلاقيمهم، الذين احمرت أحداقهم من مشاهدتها بين أيديهم وتحت أرجلهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم تمسك المسلمين بتلك العقائد وإحساسهم بداعية الحق في نفوسهم مع هذه الحالة التي هم عليها مما يقضي بالعجب ويدعو إلى الحيرة، ويسبق إلى بيان السبب فخذ مجلامه: إن الافكار العقلية والعقائد الدينية وسائر المعلومات والمدركات والوجدانيات النفسية وإن كانت هي الباعثة على الاعمال وعن حكمها تصدر بتقدير العزيز العليم، لكن الاعمال تثبتها وتقويها وتطبعها في النفس وتطبع النفس عليها حتى يصير ما يعبر عنه بالملكة والخلق، وتترتب عليه الآثار التي تلائمها.

نعم أن الانسان انسان بفكره وعقائده إلا أن ما ينعكس الى مرآة عقله من

مشاهد نظره ومدركات حواسه يؤثر فيه أشد التأثير، فكل شهود يحدث فكراً وكل فكر يكون له أثر في داعة، وعن كل داعة ينشأ عمل، ثم يعود من العمل إلى الفكر، ولا ينقطع الفعل والانفعال بين الأعمال والافكار، مادامت الارواح في الاجساد، وكل قبيل هو للآخر عماد.

إن للاخوة وسائر نسب القرابة صورة عند العقل ولا أثر لها في الاعتصاب والاتحام لولا ما تبعث عليه الضرورات، وتلجى اليه الحاجات، عن تعاون الانسباء والعصبة على نيل المنافع، وتضافهم على دفع المضار، وبعد كرور الايام على المضافة والمناصرة تأخذ النسبة من القلب مأخذاً يصرفه في آثارها بقية الاجل ويكون انبساط النفس لعون القريب، وغضاضة القلب لما يصيبه من ضيم أو نكبة جارياً مجرى الوجدانيات الطبيعية، كالاحساس بالجوع والعطش والري والشبع، بل اشبه أمره على بعض الناظرين فعده طبيعياً. فلوأهملت صلة النسب بعد ثبوتها والعلم بها، ولم تدع ضرورات الحياة في وقت من الاوقات إلى ما يمكن تلك الصلة ويؤكدها، أو وجد صاحب النسب من يظاها في غير نسبه أو الجأته ضرورة الى ذلك، ذهب أثر تلك الرابطة النسبية، ولم يبق منها إلا صورة في العقل تجري مجرى المحفوظات من الروايات والمنقولات. وعلى مثال ما ذكرنا في رابطة النسب وهي أقوى رابطة بين البشر يكون الأمر في سائر الاعتقادات التي لها أثر في الاجتماع الانساني من حيث ارتباط بعضه ببعض. اذا لم يصحب العقد الفكري ملجى، الضرورة أو قوة الداعية الى عمل تنطبع عليه الجارحة وتمرن عليه ويعود أثر تكريره على الفكر حتى يكون هيئة للروح وشكلا من أشكالها، فلن يكون منشأ لآثاره، وإنما يعد في الصور العلمية له رسم يلوح في الذاكرة عند الالتفات اليه كما قدمنا.

بعد تدبر هذه الاصول البينة، والنظر فيها بعين الحكمة، يظهر لك السبب في سكون المسلمين الى ما هم فيه مع شدتهم في دينهم، والعلة في تباطؤهم عن نصره اخوانهم وهم أثبت الناس في عقائدهم، فانه لم يبق من جامعة بين المسلمين في الأغلب إلا العقيدة الدينية مجردة عما يتبعها من الأعمال، وانقطع التعارف بينهم

وهجر بعضهم بعضاً هجراً غير جميل ، فالعلماء وهم القائمون على حفظ العقائد وهداية الناس اليها لا تواصل بينهم ولا تراسل ، فالعالم التركي في غيبة عن حال العالم الحجازي فضلاً عن يبعد عنهم ، والعالم الهندي في غفلة عن شؤون العالم الافغاني وهكذا ، بل العلماء من أهل قطر واحد لا ارتباط بينهم ، ولا صلة بمجتمعهم إلا ما يكون بين أفراد العامة لدواع خاصة من صداقة أو قرابة بين أحدهم وآخر . أما في هيتهم الكلية فلا وحدة لهم ، بل لأنساب بينهم وكل ينظر الى نفسه ولا يتجاوزها كأنه كون برأسه .

كما كانت هذه الجفوة وذاك المهجران بين العلماء كانت كذلك بين الملوك والسلاطين من المسلمين . أليس بعجيب أن لاتكون سفارة للعثمانيين في مرا كش ولا لمرا كش عند العثمانيين ؟ أليس بغريب أن لاتكون للدولة العثمانية صلات محيطة مع الأفغانين وغيرهم من طوائف المسلمين في الشرق ؟

هذا التدابر والتقاطع وارسال الحبال على الغوارب عم المسلمين حتى صح أن يقال لاعلاقة بين قوم منهم وقوم ولا بلد وبلد الا لطيف من الاحساس بأن بعض الشعوب على دينهم ويعتقدون مثل اعتقادهم ، وربما يتعرفون مواقع أقطارهم بالصدقة إذا التقى بعضهم ببعض في موسم الحج العام وهذا النوع من الاحساس هو الداعي الى الأسف وانقباض الصدر إذا شعر مسلم بضياح حق مسلم على يد أجنبي عن ملته ، ولكنه لضعفه لا يبعث على النهوض لمعاذته . كانت الملة كجسم عظيم قوي البنية صحيح المزاج ، فنزل به من العوارض ما أضعف الالتئام بين أجزائه فتداعت للتناثر والانحلال وكاد كل جزء يكون على حدة وتضمحل هيئة الجسم .

بدا هذا الانحلال والضعف في روابط الملة الاسلامية عند انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة وقما تقع الخلفاء العباسيون باسم الخلافة دون أن يحوزوا شرف العلم والتفقه في الدين والاجتهاد في أصوله وفروعه كما كان الراشدون رضي الله عنهم . كثرت بذلك المذاهب وتشعب الخلاف من بداية القرن الثالث من الهجرة إلى حدم يسبق له مثيل في دين من الأديان ، ثم انثلت وحدة الخلافة فانقسمت الى أقسام خلافة عباسية في بغداد ، وقاطمية في مصر والمغرب ، وأموية في أطراف

الأندلس . تفرقت بهذا كامة الأمة وانشقت عصاها وانحطت رتبة الخلافة الى وظيفة الملك ، فسقطت هيبتها من النفوس ، وخرج طلاب الملك والسلطان يبدأون اليه من وسائل القوة والشوكة ولا يرعون جانب الخلافة .

وزاد الاختلاف شدة وتقطعت الوشائج بينهم بظهور جنكيز خان وأولاده وتيمور لنگ وأحفاده وإيقاعهم بالمسلمين قتلا واذلالا حتى أذهلهم عن أنفسهم ففرق الشمل بالسكينة وانفصمت عرى الالتئام بين الملوك والعلماء جميعاً ، وانفرد كل بشأنه وانصرف الى ما يليه ، فتبدد الجمع الى آحاد ، واقترق الناس فرقا كل فرقة تتبع داعياً إما الى ملك أو مذهب ، فضعفت آثار العقائد التي كانت تدعو الى الوحدة ، وتبعث على اشتباك الوشيعة ، وصار ما في العقول منها صوراً ذهنية تحويها مخازن الخيال وتلحظها الذكرة عند عرض ما في خزائن النفس من المعلومات ، ولم يبق من آثارها إلا أسف وحسرة يأخذان بالقلوب عندما تنزل المصائب ببعض المسلمين بعد أن ينفذ القضاء ويبلغ الخبر الى المسامع على طول من الزمان ، وما هو الا نوع من الحزن على الفئات ، كما يكون على الاموات من الأقارب ، لا يدعو الى حركة تدارك النازلة ، ولا دفع الغائلة .

وكان من الواجب على العلماء قياماً بحق الورثة التي شرفوا بها على لسان الشارع أن ينهضوا لاهياء الرابطة الدينية ويتداركوا الاختلاف الذي وقع في الملك بتمكين الاتفاق الذي يدعو اليه الدين ، ويجعلوا معاهد هذا الاتفاق في مساجدهم ومدارسهم حتى يكون كل مسجد وكل مدرسة مهيطة بروح حياة الوحدة ويصير كل واحد منها كحلقة في سلسلة واحدة إذا اهتز أحد أطرافها اضطرب لهزته الطرف الآخر ، ويرتبط العلماء والخطباء والأئمة والوعاظ في جميع أنحاء الارض بعضهم ببعض ويجعلون لهم مراكز في أقطار مختلفة يرجعون اليها في شؤون وحدتهم ويأخذون بأيدي العامة الى حيث يرشدهم التنزيل وصحيح الأثر ، ويجمعوا أطراف الوشائج الي معقد واحد يكون مركزه في الأقطار المقدسة وأشرفها معهد بيت الله الحرام ، حتى يتمكنوا بذلك شد أزر الدين وحفظه من قوارع العدوان ، والقيام بحاجات الأمة إذا عرض حادث الخلل وتطرق الاجانب للتداخل فيها

بما يحيط من شأنها ويكون كذلك أدعى لنشر العلوم وتنوير الافهام وصيانة الدين من البدع، فان إحكام الربط إنما يكون بتعيين الدرجات العلمية وتحديد الوظائف، فلو أبدع مبدع أمكن بالتواصل بين الطبقات تدارك بدعته ومحوها قبل فشوها بين العامة، وليس بخاف على المستبصرين ما يتبع هذا من قوة الامة وعلو كالمها واقتدارها على دفع ما يغشاها من النوازل

الا إنا نأسف غاية الأسف إذ لم توجه خواطر العلماء والعقلاء من المسلمين الى هذه الوسيلة هي أقرب الوسائل وإن التفت اليها في هذه الايام طائفة من أرباب الغيرة، ورجاؤنا من ملوك المسلمين وعلمائهم من أهل الحية والحق أن يؤيدوا هذه الفئة ولا يتوانوا فيما يوحد جمعهم ويجمع شئتهم، فقد دارسهم التجارب ببيان لا مزيد عليه، وما هو بالعسير عليهم أن يثبوا الدعاة الى من يبعد عنهم، ويصالحوا بالأكن من هو على مقربة منهم، ويتعرفوا أحوال بعضهم فيما يعود على دينهم وملتهم بنائدة أو ما يخشى أن يسيء بضرر، ويكونون بهذا العمل الجليل قد أدوا فريضة وطلبوا سعادة، والرمق باق والآمال مقبلة، والى الله المصير

المقالة السادسة

التعصب *

(اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء)

لفظ شغل مناطق الناس خصوصاً في البلاد الشرقية تلوكه الالسن وترمي به الأفواه في المحافل والجامع، حتى صار تكأة للتكاملين، يلجأ اليه العبي في تهتهم، والذملقاني في تفهيمته (١) أخذ هذا اللفظ بمواقع التعبير ققلمما تكون عبارة إلا

* نشرت في العدد السادس من جريدة العروة الوثقى في ٢٨ جمادى الآخرة سنة ٣٠١
« ١ » التكأة بضم ففتح كهزمة ما يتوكأ عليه كالعصا والعمبي الذي لا يبين فهو فصيل من العبي وهو العجز عن الكلام والتهتم بضرب من الاكنة ورجل ذملقاني سريع الكلام والتفهيق في المنطق التوسع والتنطم فيه

(٢٢) - تاريخ الاستاذ الامام - الجزء الثاني)

وهو فاتحتها أو حشوها أو خاتمها، يعدون مساهمة لكل بلاء، ومنبعاً لكل عناء،
 ويزعمونه حجاً بائناً كفيفاً وسداً منيعاً بين المتصفيين به وبين الفوز والنجاح، ويجهلون
 عنواناً على النقص وعلماً للذائل. والمتسربلون بسر ايل الافرنج الذاهبون في
 تقليدهم مذاهب الخبط والخلط لا يميزون بين حق وباطل هم أحرص الناس على
 التشدق بهذا البدع الجديد، فتراهم في بيان مفاسد التعصب يهزون الرؤس ويعبثون
 باللحي وييرمون السبال وإذا ردوا به شخصاً للخط من شأنه أردفوه للتوضيح
 بلفظ أفرنجي (فناثيك) فإن عهدوا بشخص نوعاً من المخالفة لمشربهم عدوه
 متعصباً، وهزوا به وغزوا ولمزوا، وإذا رأوه عبسوا وبسروا، وشتمخوا
 بأنوفهم كبراً، وولوه دبراً، ونادوا عليه بالويل والثبور. ماذا سبق إلى أفهامهم
 من هذا اللفظ؟ وماذا اتصل بعقولهم من معناه حتى خالوه مبدأ لكل شناعة،
 ومصدراً لكل تقيصة؟ وهل لهم وقوف على شيء من حقيقته؟

التعصب قيام بالعصبية، والعصبية من المصادر الذببية، نسبة إلى العصبية،
 وهي قوم الرجل الذين يهزون قوته، ويدفعون عنه الضيم والعداء. فالتعصب
 وصف للنفس الانسانية، تصدر عنه نهضة لحماية من يتصل بها والذود عن حقه،
 ووجوه الاتصال تابعة لأحكام النفس في معلوماتها ومعارفها

هذا الوصف هو الذي شكل الله به الشعوب، وأقام بناء الأمم وهو
 عقد الربط في كل أمة، بل هو المزاج الصحيح يوحد المتفرق منها تحت اسم
 واحد، وينشئها بتقدير الله خلقاً واحداً، كبدن تألف من أجزاء وعناصر،
 تدبره روح واحدة، فتكون كـشخص يمتاز في أطواره وشؤونه وسعادته
 وشقائه عن سائر الأشخاص. وهذه الوحدة هي مبعث المباراة بين أمة وأمة،
 وقبيل وقبيل، ومباهاة كل من الأمتين المتقابلتين بما يتوفر لها من أسباب الرفاهة
 وهناء العيش، وما يجمعه قواها من وسائل العزة والمنعة، وسمو المقام ونفاذ
 الكلمة. والتنافس بين الأمم كالتنافس بين الأشخاص أعظم باعث على بلوغ
 أقصى درجات الكمال في جميع لوازم الحياة بقدر مائدته الطاقة

التعصب روح كلبي مهبطة هيثة الأمة وصورتها، وسائر أرواح الأفراد

حواسه ومشاعره ، فاذا ألم بأحد المشاعر مالا يلائمه من أجنبي عنه انفعل الروح الكلي ، وجاشت طبيعته لدفعه ، فهو لهذا مثار الحمية العامة ، ومسرعة النهرة الجنسية . هذا هو الذي يرفع نفوس آحاد الأمة عن معاطاة الدنيا وارتركاب الحيانات فيما يعود على الأمة بضرر ، أو يؤول بها الى سوء عاقبة ، وإن استقامة الطبع ورسوخ الفضيلة في أمة تكون على حسب درجة التعصب فيها والالتحام بين آحادها . يكون كل منهم بمنزلة عضو سليم من بدن حي ، لا يجرد الرأس بارتفاعه غنى عن القدم ، ولا يرى القدمان في تطرفهما انحطاطا في رتبة الوجود وإنما كل يؤدي وظائفه لحفظ البدن وبقائه ، وكما ضعفت قوة الربط بين أفراد الأمة بضعف التعصب فيهم استرخت الأعصاب ، ورثت الأطناب ، وورقت الاوتار ، وتداعى بناء الأمة الى الانحلال كما يتداعى بناء البنية البدنية الى الفناء ، بعد هذا يموت الروح الكلي ، وتبطل هيئة الأمة وان بقيت آحادها ، فما هي الا كالأجزاء المتناثرة ، إما أن تتصل بأبدان أخرى بحكم ضرورة الكون ، وإما أن تبقى في قبضة الموت إلى أن ينفخ فيها روح النشأة الاخرى (سنة الله في خلقه) إذا ضعفت العصبية في قوم رمام الله بالفشل ، وغفل بعضهم عن بعض ، وأعقب الغفلة تقطع في الروابط ، وتبعه تقاطع وتدابر ، فيتسع للأجانب والعناصر الغريبة مجال التداخل فيهم ، ولن تقوم لهم قائمة من بعد حتى يعيدهم الله كما بدأهم بافاضة روح التعصب في نشأة ثانية

نعم إن التعصب وصف كسائر الأوصاف ، له حد اعتدال ، وطرفا إفراط وتفریط ، واعتداله هو الكمال الذي بينا مزاياه ، والتفریط فيه هو النقص الذي أشرنا لرزاياه ، والافراط فيه مذمة تبعث على الجور والاعتداء . فالفرط في تعصبه يدافع عن الملتحم به بحق وبغير حق ، ويرى عصبته منفردة باستحقاق الكرامة ، وينظر الى الأجنبي عنه كما ينظر الى الهمل ، لا يعترف له بحق ، ولا يراعي له ذمة ، فيخرج بذلك عن جادة العدل ، فتقلب منفعة التعصب الى ضرة ويذهب بها، الأمانة ، بل يتقوض مجدها ، فإن العدل قوام الاجتماع الانساني ، وبه حياة الأمم . وكل قوة لا تخضع للعدل فمصيرها الى الزوال .

وهذا الحد من الافراط في التعصب هو الممقوت على لسان صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم في قوله « ليس منا من دعا إلى عصبية »

التعصب كما يطلق ويراد به النعرة على الجنس ، ومرجعها رابطة النسب والاجتماع في منبت واحد ، كذلك توسع أهل العرف فيه ، فأطلقوه على قيام الملتحمين بصلة الدين لمناصرة بعضهم بعضاً ، وانتطعون من مقلدة الافرنج يخلصون هذا النوع منه بالمت ، ويرمونه بالتعس ، ولا نخال مذهبهم هذا مذهب العقل . فان لحمه يصير بها المتفرقون الى وحدة ، تندفع عنها قوة لدفع الغائلات ، وكسب الكمالات ، لا يختلف شأنها اذا كان مرجعها الدين أو النسب . وقد كان من تقدير العزيز العليم وجود الرابطتين في أقوام مختلفة من البشر ، وعن كل منها صدرت في العالم آثار جليلة يفتخر بها الكون الانساني ، وليس يوجد عند العقل أدنى فرق بين مدافعة القريب عن قريبه ، ومعاوته على حاجات معيسته ، وبين ما يصدر من ذلك عن المتلاحمين بصلة المعتقد ورابطة المشرب . فتعصب المشتركين في الدين المتوافقين في أصول العتائد بعضهم لبعض ، اذا وقف عند الاعتدال ، ولم يدفع الى جور في المعاملة ، ولا انتهاك لحرمة المخالف لهم أو تقص لدمته ، فهو فضيلة من أجل الفضائل الانسانية ، وأوفرها نفعاً وأجزلها فائدة ، بل هو أقدس رابطة وأعلاها ، اذا استحكمت صعدت بذوي المكنة فيها الى أوج السيادة وذرورة المجد ، خصوصاً ان كانوا من قبيل قوي فيهم سلطان الدين ، واشتدت سطوته على الأهواء الجنسية حتى أشرف بها على الزوال كما في أهل الديانة الاسلامية . ولا يؤخذ علينا في القول بأنه من أقدس الروابط . فانه كما يطمس رسوم الاختلاف بين أشخاص وآحاد متعددة ، ويصل ما بينهم في المقاصد والعزائم والأعمال ، كذلك يحو أثر المنازعة والمناظرة بين القبائل والعشائر ، بل الأجناس المتخالفة في المنابت واللغات والعادات ، بل المتباعدة في الصور والاشكال ، ويحول أهواها المتضاربة الى قصد واحد ، وهو تأصيل المجد ، وتأيد الشرف ، وتحليل الذكر تحت الاسم الجامع لهم — هذا الاثر الجليل عهد لقوة التعصب الديني ، وشهد عليه التاريخ بعد ما أرشد

اليه العقل الصحيح . وما كانت رابطة الجنس لتقوى على شيء منه .
تفتت جماعة من متزندقه هذه الأوقات في بيان مفساد التعصب الديني .
وزعموا أن حمية أهل الدين لما يؤخذ به اخوانهم من ضيم ، وتضافرهم لدفع
ما يلم بدينهم من غاشية الوهن والضعف ، هو الذي يصددهم عن السير الى كمال
المدنية . ومحجبههم عن نور العلم والمعرفة ، ويرمي بهم في ظلمات الجهل ، ومحملهم
على الجور والظلم والعدوان على من يخالفهم في دينهم . ومن رأي أولئك
المثقفين أن لاسبيل لدرء المفساد واستكمال المصالح الا بانحلال العصبية الدينية
ومحو أثرها ، وتخليص العقول من سلطة العقائد . وكثيراً ما يرجفون بأهل

الدين الاسلامي ، ويخوضون في نسبة مذام التعصب اليهم
كذب الخراصون، إن الدين أول معلم وأرشد أستاذ وأهدى قائد للأفئس
الى اكتساب العلوم والتوسع في المعارف ، وأرحم مؤدب وأبصر مروض يطبع
الارواح على الآداب الحسنة والخلائق الكريمة ، وقيمها على جادة العدل ،
وينبه فيها حاسة الشفقة والرحمة ، خصوصاً دين الاسلام . فهو الذي رفع أمة كانت
من أعرق الأمم في التوحش والقسوة والحشونة ، وسماها إلى أرقى مراقي الحكمة
والمدنية في أقرب مدة ، وهي الامة العربية

قد يطرأ على التعصب الديني من التغالي والافراط مثل ما يعرض على
التعصب الجنسي فيفضي الى ظلم وجور ، بل ربما يؤدي الى قيام أهل الدين
لابادة مخالفينهم ومحو وجودهم ، وكما قامت الامم الغربية اندفعت على بلاد الشرق
لمحض الفتك والابادة لا للفتح ولا للدعوة الى الدين في الحرب الماثلة المعروفة
بجرب الصليب ، وكما فعل الاسبانيون بملسي الاندلس ، وكما وقع قبل هذا
وذاك في بداية ما حصلت الشوكة للدين المسيحي ، إن صاحب السلطان من
المسيحيين جمع اليهود في القدس وأحرقهم ، إلا أن هذا العارض لمخالفته لأصول
الدين فلما تمتد له مدة ، ثم يرجع أرباب الدين الى أصوله القائمة على قواعد
السلم والرحمة والعدل .

أما أهل الدين الاسلامي فمنهم طوائف شطت في تعصبها في الاجيال

الماضية إلا أنه لم يصل بهم الإفراط الى حد يقصدون فيه الابادة واخلاء الارض من مخالفينهم في دينهم ، وما عهد ذلك في تاريخ المسلمين بعد ما تجاوزوا حدود جزيرة العرب ، ولنا الدليل الاقوم على ما نقول ، وهو وجود الملل المختلفة في ديارهم الى الآن حافظة لعقائدها وعواذرها من يوم تسلطوا عليها وهم في عنفوان القوة وهي في وهن الضعف . نعم كان المسلمين ولع بتوسيع الممالك وامتداد الفتوحات وكانت لهم شدة على من يعارضهم في سلطانهم ، إلا أنهم كانوا مع ذلك يحفظون حرمة الاديان ، ويرعون حق الذمة ، ويعرفون لمن خضع لهم من الملل المختلفة حقها ويدفعون عنه غائلة العدوان . ومن العتائد الراسخة في نفوسهم (أن من رضي بذمتنا فله مالنا وعليه ما علينا) ولم يهدلوا في معاملتهم غيرهم عن أمر الله في قوله (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالتمسك شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين) اللهم إلا ما لا تخلو عنه الطباع البشرية

ومن نشأة المسلمين الى اليوم لم يدفعوا أحداً من مخالفينهم عن التقدم الى ما يستحقه من علو الرتبة وارتفاع المكانة ، ولقد سما في دول المسلمين على اختلافها الى المراتب العالية كثير من أرباب الاديان المختلفة . وكان ذلك في شبيبته وكمال قوتها ، ولم يزل الأمر على ما كان . وفي الظن أن الأمم الغربية لم تبلغ هذه الدرجة من العدل الى اليوم (فسحقاً لهم يظنون أن المسلمين بتعصبهم يمنعون مخالفينهم من حقوقهم)

لم يسلك المسلمون من عهد قوتهم ممالك الا لزام بدينهم والاجبار على قبوله مع شدة بأسهم في بدايات دولهم وتغاليلهم في افتتاح الاقطار ، واندفاع همهم للبطشة في الملك والسلطة ، وإنما كانت لهم دعوة يباغونها ، فإن قبلت إلا استبدلوا بها رسماً مالياً يقوم مقام الخراج عند غيرهم مع رعاية شروط عادلة تعلم من كتب الفقه الاسلامي . هذا على خلاف متعصرة الرومانيين واليونانيين أيام شوكتهم الاولى ، فانهم ما كانوا يطأون أرضاً إلا ويلزمون أهلها بجمع أديانهم ، والتطوق بدين أو تلك المسطين وهو الدين المسيحي كما فعلوا في مصر وسورية ، بل وفي البلاد الافرنجية نفسها .

هذا فصل من الكلام ساق اليه البيان وفيه تبصرة لمن يتبصر ، وتذكرة لمن يتذكر ، ثم أعود بك الى سابق الحديث فيما كنا بصده — هل لعاقلم يصب برزية في عقبه أن يعد الاعتدال من التعصب الديني قبيصة . وهل يوجد فرق بينه وبين التعصب الجنسي إلا بما يكون به التعصب الديني أقدم وأطهر وأعم فائدة . لأنخال عاقل يرتاب في صحة ما تررناه ، فما لأولئك القوم يهدرون بما لا يدرون ؟ أي أصل من أصول العقل يستندون اليه في المفاخرة والمباهاة بالتعصب الجنسي فقط ، واعتقاده فضيلة من أشرف الفضائل ، ويعبرون عنه بحبة الوطن ؟ وأي قاعدة من قواعد العمران البشري يعتمدون عليها في التهاون بالتعصب الديني المعتدل وحسابه قبيصة يجب الترفع عنها ؟

نعم إن الافرنج تأكد لديهم أن أقوى رابطة بين المسلمين إنما هي الرابطة الدينية ، وأدركوا أن قوتهم لا تكون إلا بالعصبية الاعتقادية . ولأولئك الافرنج مطامع في ديار المسلمين وأوطانهم ، فتوجهت عنايتهم الى بث هذه الافكار الساقطة بين أرباب الديانة الاسلامية ، وزينوا لهم هجر هذه الصلة المقدسة ونصم حبالها ، لينقضوا بذلك بناء الملة الاسلامية ويمزقوها شيعاً وأحزاباً ، فانهم علموا كما علمنا ، وعلم العقلاء أجمعون أن المسلمين لا يعرفون لهم جنسية إلا في دينهم واعتقادهم وتسنى للمفسدين نجاح في بعض الاقطار الاسلامية ، وتبعهم بعض الغفل من المسلمين جهلاً وتقليداً فساعدهم على التنفير من العصبية الدينية بعد ما تقدموها ولم يستبدلوا بها رابطة الجنس (الوطنية) التي يبالغون في تعظيمها واحترامها حقاً منهم وسفاهة ، فمثلهم كمثل من هدم بيته قبل أن يبني لنفسه مسكناً سواء فاضطر للاقامة بالعرء معرضاً لفواعل الجو وما تصول به على حياته

من هذا ماسلك الانكاييز في الهند لما أحسوا بخيال السلطنة يطوف على أفكار المسلمين منهم لقرب عهدا بهم وفي دينهم ما يعثهم على الحركة الى استرداد ماسلب منهم ، وأرشدتهم البحث في طبائع الملل الى أن حياة المسلمين قائمة على الوصلة الدينية . وما دام الاعتقاد الحمدي والعصبية المليية سائدة فيهم فلا تؤمن بعثتهم الى طلب حقوقهم فاستهوا وطائفة ممن يتسمون بسمة الاسلام ،

ويلبسون لباس المسلمين ، وفي صدورهم غل ونفاق ، وفي قلوبهم زيغ وزندقة ، وهم المعروفون في البلاد الهندية بالنيجربة أي الدهريين فاتخذهم الانكايز أعواناً لهم على افساد عقائد المسلمين ، وتوهين علائق التعصب الديني ليطفئوا بذلك نار حميتهم ويخمدوا نائرة غيرتهم ، ويبددوا جمعهم ، ويمزقوا شملهم ، وساعدوا تلك الطائفة على انشاء مدرسة كبيرة في (عليكر) ونشر جريدة لبث هذه الاباطيل بين المذنبين حتى يعم الضعف في العقائد ، وترث أطاب الصلات بين المسلمين فيستريح الانكايز في التسلط عليهم ، وتطمئن قلوبهم من جبهتهم كما اطمانت من جهة غيرهم ، وغر أولئك الغفل الميزنتين أن رجال دولة بريطانيا يظهرون لهم رعاية صورية ، ويدنونهم من بعض الوظائف الخسيسة — تعس من يبيع ملته بلقمة — وذمته برذال العيش (١)

هذا أسلوب من السياسة الاوربية أجادت الدول اختباره ، وجنت ثماره ، فأخذت به الشرقيين لتنال مطامعها فيهم ، فكثير من تلك الدول نصبت الحبال في البلاد العثمانية والمصرية وغيرها من الممالك الاسلامية ، ولم تهدم صيداً من الامراء والمنتسبين الى العلم والمدنية الجديدة ، واستعملتهم آلة في بلوغ مقاصدها من بلادهم ، وليس عجيباً من الدهريين والزنادقة ممن يتسترون بلباس الاسلام أن يميلوا مع هذه الاهواء الباطلة ولكننا نعجب من أن بعضاً من سدج المسلمين مع بقائهم على عقائدهم وثباتهم في إيمانهم يسفكون الكلام في ذم التعصب الديني ، ويهجرون في رمي المتعصبين بالخشونة ، والبعد عن معدات المدنية الحاضرة ، ولا يعلم أولئك المسلمون أنهم بهذا يشقون عصاهم ، ويفسدون شأنهم ، ويخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المارقين . يطلبون محو التعصب المعتدل ، وفي محوه محو الملة ودفعها الى أيدي الاجانب يستعبدونها مادامت الارض أرضاً والسماء سماء . والله ما عجيبنا من هؤلاء ، وهؤلاء بأشد من

« ١ » كان السيد جمال الدين الذي أملى هذا الكلام على الاستاذ المحرر « رحمهما الله » سي' الظن بمدرسة عليكرة ومؤسسها ولاشك في الانكايز كانوا يساعدونها لما فكره ولكنها كانت اعمدة على المسلمين ونخرج كثير من كبار الوطنيين الصادقين

العجب لأحوال الغربيين من الأمم الافرنجية الذين يفرغون وسعهم لنشر هذه الافكار بين الشرقيين ، ولا ينجلون من تبشيع التعصب الديني ورمي المتعصبين بالخشونة ، الافرنج أشد الناس في هذا النوع من التعصب وأحرصهم على القيام بدواعيه . ومن القواعد الاساسية في حكوماتهم السياسية الدفاع عن دعاة الدين والقائمين بنشره ومساعدتهم على نجاح أعمالهم ، واذا عدت عادية مما لا يخلو عنه الاجتماع البشري على واحد ممن على دينهم ومذهبهم في ناحية من نواحي الشرق سمعت صياحاً وعويلًا، وهيئات ونبات تتلاقى أمواجها في جوبلاد المدينة الغربية وينادي جميعهم : الأقدأملت ملنة، وحدثت حادثة مهمة، فأجمعوا الأمر وخذوا الالهة لتدارك الواقعة والاحتياط من وقوع مثلها، حتى لاتتخذش الجماعة الدينية، وترام على اختلافهم في الاجناس ، وتباغضهم وتحاقدم وتنازهم في السياسات، وترقب كل دولة منهم لعثرة الاخرى حتى توقع بها السوء، يتقاربون ويتآفون ويتحدون في توجيه قواهم الحربية والسياسية لحماية من يشاكلهم في الدين وإن كان في أقصى قاصية من الارض ، ولو تقطعت بينه وبينهم الانساب الجنسية . أما لو فاض طوفان الفتن ودام وجه الارض وغمر وجه البسيطة من دماء المخالفين لهم في الدين والمذهب ، فلا ينبض فيهم عرق ، ولا يتنبه لهم احساس ، بل يتغافلون عنه ويذرونه وما يجرف حتى يأخذ مده الغاية من حده ، ويذهلون عما أودع في الفطر البشرية من الشفقة الانسانية والمرحة الطبيعية ، كأنما يعدون الخارجين عن دينهم من الحيوانات السامة والهمل الراحية . وليسوا من نوع الانسان الذي يزعم الأوريون أنهم حماته وأنصاره . وليس هذا خاصاً بالمتدينين منهم ، بل الدهريون ومن لا يعتقدون بالله وكتبه ورسله يسابقون المتدينين في تعصبهم الديني ، ولا يألون جهداً في تقوية عصبيتهم وليتهم يقفون عند الحق ، ولكن كثيراً ما تجاوزوه . أما ان شأن الافرنج في تمسكهم بالعصبة الدينية لغريب .

يبلغ الرجل منهم أعلى درجة في الحرية كغلاستون وأضرابه ، ثم لاتجد كلمة تصدر عنه إلا وفيها نغمة من روح بطرس الراهب (١) بل لاترى روحه إلا

(١) هو داعية الحرب الصليبية وموقد نارها

نسخة من روحه (انظر الى كتب غلادستون وخطبه السابقة)

فيا أيها الامة المرحومة هذ، حياتكم فاحفظوها ، ودمائكم فلا تريقوها ، وأرواحكم فلا تزهدوها ، وسعادتكم فلا تبيعوها بثمان دون الموت . هذه هي روابطكم الدينية لا تفرنكم الوساوس ، ولا تستهوينكم الترهات ، ولا تدهشكم زخارف الباطل ، ارفعوا غطاء الوهم عن باصرة الفهم ، واعتصموا بجبال الرابطة الدينية التي هي أحكم رابطة اجتمع فيها التركي بالعربي ، والفارسي بالهندي ، والمصري بالمغربي ، وقامت لهم مقام الرابطة النسبية ، حتى إن الرجل منهم ليألم لما يصيب أخاه من عاديات الدهر وإن تناءت دياره ، وتقاصت أقطاره

هذه صلة من أمتن الصلات سابقها المذالكيم ، وفيها عزتكم ومنعتكم وسلطانكم وسيادتكم ، فلا توهنها ، ولكن عليكم في رعايتها أن تخضعوا لسطوة العدل ، فالعدل أساس الكون وبه قوامه ، ولا نجاح لقوم يزدرون العدل بينهم ، وعليكم أن تتقوا الله وتلزموا أوامره ، في حفظ الذم ومعرفة الحقوق لاربابها ، وحسن المعاملة وإحكام الالفة في المنافع الوطنية بينكم وبين أبناء أوطانكم وجيرانكم من أرباب الاديان المختلفة ، فان مصالحكم لا تقوم إلا بمصالحهم كما لا تقوم مصالحهم إلا بمصالحكم ، وعليكم أن لاتجعلوا عصبية الدين وسيلة للعدوان ، وذريعة لانتهاك الحقوق ، فان دينكم ينهاكم عن ذلك ويوعدكم عليه بأشد العقاب . هذا ولا تجعلوا عصبيتكم قاصرة على مجرد ميل بعضكم لبعض ، بل تضافروا بها على مباراة الأمم في القوة والمنعة والشوكة والسلطان ، ومنافستهم في اكتساب العلوم النافعة والفضائل والكمالات الانسانية . اجعلوا عصبيتكم سبيلا لتوحيد كامتكم واجتماع شملكم ، وأخذ كل منكم بيد أخيه ليرفعه من هوة النقص الى ذروة الكمال (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الأثم والعدوان)

المقالة السابعة

القضاء والقرار *

مضت سنة الله في خلقه بأن للعقائد القلبية سلطانا على الاعمال البدنية، فما يكون في الاعمال من صلاح أو فساد، فانما مرجعه فساد العقيدة وصلاحها على ما بينا في بعض الاعداد الماضية، ورب عقيدة واحدة تأخذ باطراف الافكار فيتبعها عقائد ومدركات أخرى، ثم تظهر على البدن باعمال تلام أثرها في النفس ورب أصل من أصول الخير وقاعدة من قواعد الكمال اذا عرضت على الانفس في تعليم أو تبليغ شرع يقع فيها الاشتباه على السامع فلتبس عليه بما ليس من قبيلها أو تصادف عنده بعض الصفات الرديئة أو الاعتقادات الباطلة فيعلق بها عند الاعتقاد شيء مما تصادفه، وفي كلا الحالين يتغير وجهها ويختلف أثرها، وربما تتبعها عقائد فاسدة مبنية على الخطأ في الفهم، أو على خبث الاستعداد، فتنشأ عنها أعمال غير صالحة، وذلك على غير علم من المعتقد كيف اعتقد، ولا كيف يصرفه اعتقاده، والمغرور بالظواهر يظن أن تلك الاعمال انما نشأت عن الاعتقاد بذلك الاصل وتلك القاعدة. ومن مثل هذا الانحراف في الفهم وقع التحريف والتبديل في بعض أصول الاديان غالباً، بل هو علة البدع في كل دين على الاغلب. وكثيراً ما كان هذا الانحراف وما يتبعه من البدع منشأ لفساد الطباع وقبائح الاعمال، حتى أفضى بمن ابتلاهم الله به الى الهلاك وبئس المصير. وهذا ما يحمل بعض من لاخبرة لهم على الطعن في دين من الاديان، أو عقيدة من العقائد الحققة، استناداً الى أعمال بعض السذج المنتسبين الى الدين أو العقيدة.

من ذلك عقيدة القضاء والقدر التي تعد من أصول العتائد في الديانة

«١» نشرت في العدد السابع من جريدة العروة الوثقى بتاريخ ٤ رجب سنة

١٣٠١ أول مايو سنة ١٨٨٤

الاسلامية الحقة . كثر فيها لفظ المغفلين من الافرنج وظنوا بها الظنون ، وزعموا أنها ما عمكت من نفوس قوم إلا وسلبتيم الهمة والقوة ، وحكمت فيهم الضعف والضعفة ، ورموا المسلمين بصفات ونسبوا اليهم أطواراً ، ثم حصروا علتها في الاعتقاد بالقدر فقالوا: أن المسلمين في قفر وفاقة وتأخر في تقوى المريية والسياسية عن سائر الأمم ، وقد فشا فيهم فساد الاخلاق فكثرت الكذب والنفاق والخيانة والتحاقد والتبغض ، وتفرقت كاهتهم وجهلوا أحوالهم الخاضرة والمستقبلة ، وغفلوا عما يضرهم وما ينفعهم ، وقنعوا بحياة يأكلون فيها ويشربون وينامون ثم لا ينافسون غيرهم في فضيلة ، ولكن متى أمكن لاحدهم أن يضر أخاه لا يقصر في إلحاق الضرر به ، فجعلوا بأسهم بينهم والأثم من ورائهم يتلعبهم لقمة بعد أخرى ، رضوا بكل عارض ، واستعدوا لقبول كل حادث ، وركنوا الى السكون في كسور بيوتهم ، يسرحون في مرعاهم ، ثم يعودون الى مأواهم ، الامراء فيهم يقطعون أزمتهم في اللهو واللعب ومعالمة الشهوات ، وعليهم فروض وواجبات تستغرق في أدائها أعمارهم ولا يؤدون منها شيئاً . يصرفون أموالهم فيما يقطعون به زمامهم اسرافاً وتبذيراً . نفتاتهم واسعة ، ولكن لا يدخل في حسابها شيء ، يعود على ملتهم بالمنفعة ، يتخاذلون ويتنافرون ، وينوطون المصالح العمومية بمصالحهم الخصوصية ، قرب تنافر بين أميرين يضيع أمة كاملة . كل منهما يخذل صاحبه ، ويستعدي عليه جاره ، فيجد الاجنبي فيها قوة فانية وضمة فاتلا ، فينال من بلادها مالا يكافئه عدداً ولا عدة . شملهم الخوف وعمهم الجبن والخور ، يفرغون من الهمس ، ويألمون من اللمس . قعدوا عن الحركة ، الى ما يلمحتون به الأثم في العزة والشوكة ، وخالفوا في ذلك أوامر دينهم ، مع رؤيتهم لجيرانهم بل الذين تحت سلطتهم يتقدمون عليهم ويباهونهم بما يكسبون ، واذا أصاب قوماً من اخوانهم مصيبة أو عدت عليهم عادية لا يسمعون في تخفيف مصابهم ، ولا ينبعثون لمناصرتهم ، ولا توجد فيهم جمعيات ملية كبيرة لاجهريية ولا سرية ، يكون من مقاصدها إحياء الغيرة ، وتبليغ الحمية ، ومساعدة الضعفاء ، وحفظ الحق من بني الاقوياء . وسلط الغرباء . هكذا نسبوا الى المسلمين هذه الصفات وتلك الاطوار ، وزعموا أن لامنشأها

إلا اعتقادهم بالتضاد والقدر ، وتحويل جميع مهماتهم على القدرة الالهية ، وحكوا بأن المسلمين لو داسوا على هذه العقيدة فلن تقوم لهم قائمة ، ولن ينالوا عزاً ولن يعيدوا مجداً ، ولا يأخذون بحق ، ولا يدفعون تعدياً ، ولا ينهضون بتقوية سلطان أو تأييد ملك ، ولا يزال بهم الضعف يفعل في نفوسهم ، ويركس من طباعهم ، حتى يؤدي بهم الى الفناء والزوال (والعياذ بالله) يقني بعضهم بعضاً بالمنازعات الخاصة ، وما يسلم من أيدي بعضهم يحصده الاجانب .

واعتمد أولئك الافرنج انه لا فرق بين الاعتقاد بالتضاد والقدر وبين الاعتقاد بمذهب الجبرية القائلين : بأن الانسان مجبور محض في جميع أفعاله . وتوهوا أن المسلمين بعقيدة التضاد يرون أنفسهم كالريشة المعلقة في الهواء تقلبها الرياح كيفما تميل . ومتي رسخ في نفوس قوم أنه لا اختيار لهم في قول ولا عمل ، ولا حركة ولا سكون ، وإنما جميع ذلك بقوة جابرة ، وقدرة قاسرة ، فلا ريب تتعطل قواهم ، ويفقدون ثمرة ما وهبهم الله من المدارك والقوى ، وتمحى من خواطرم داعية السبي والكسب . وأجدر بهم بعد ذلك أن يتحولوا من عالم الوجود إلى عالم العدم .

هكذا ظلت طائفة من الافرنج ، وذهب مذهبها كثيرون من ضعفاء العقول في المشرق . ولست أخشى أن أقول : كذب الظان ، وأخطأ الواهم ، ريطل الزاعم ، وافتروا على الله والمسلمين كذباً -- لا يوجد مسلم في هذا الوقت من سني وشيعي وإسماعيلي (١) وزيدي ووهابي وخارجي يرى مذهب الجبر المحض ، ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرّة ، بل كل من هذه الطوائف المسئلة يعتمدون بأن لهم جزءاً اختيارياً في أعمالهم ، ويسمى بالكسب ، وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم ، وأنهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزء الاختياري ، ومطالبون بامتثال جميع الأوامر الالهية ، والنواهي الربانية ،

« ١ » عد الاسماعيلية من المسلمين سبق فلم يظهر وعد الوهابية فرقة تقابل باهل السنة جرى على المشهور عند العامة والذي عرفاه من الاستاذ أنه يعد الوهابيين سلفيين ودعاة لإصلاح في الاسلام

الداعية الى كل خير ، الهادية الى كل فلاح ، وأن هذا النوع من الاختيار هو مورد التكاليف الشرعي ، وبه تتم الحكمة والعدل .
نعم كان بين المسلمين طائفة تسمى بالجبرية ذهبت إلى أن الانسان مضطر في جميع أفعاله اضطراراً لا يشوبه اختيار ، وزعمت أن لا فرق بين أن يتحرك الشخص فكه للأكل والمضغ ، وبين أن يتحرك بققفة البرد عند شدته . ومذهب هذه الطائفة يعده المسلمون من منازع السفطة الفاسدة . وقد انقرض أرباب هذا المذهب في أواخر القرن الرابع من الهجرة ، ولم يبق لهم أثر . وليس الاعتقاد بالقضاء والقدر هو عين الاعتقاد بالجبر ، ولا من مقتضيات ذلك الاعتقاد ما ظنه أولئك الواهون

الاعتقاد بالقضاء يؤيده الدليل القاطع ، بل ترشد اليه الفطرة ، وسهل على من له فكر أن يلتفت إلى أن كل حادث له سبب يقارنه في الزمان ، وأنه لا يرى من سلسلة الأسباب إلا ما هو حاضر لديه ، ولا يعلم ماضيها إلا مبدع نظامها ، وأن لكل منها مدخلا ظاهراً فيما بعده بتقدير العزيز العليم . وإرادة الانسان إنما هي حلقة من حلقات تلك السلسلة ، وإيست الإرادة إلا آتراً من آثار الإدراك ، والإدراك انفعال النفس بما يعرض على الحواس ، وشعورها بما أودع في الفطرة من الحاجات ، فلظواهر الكون من السلطة على الفكر والإرادة مالا ينكره أبه ، فضلاً عن عاقل . وأن مبدأ هذه الأسباب التي ترى في الظاهر مؤثرة إنما هو بيد مدير الكون الأعظم الذي أبدع الأشياء على وفق حكمته ، وجعل كل حادث تابعاً لشبهه كأنه جزء له ، خصوصاً في العالم الانساني

ولو فرضنا أن جاهلاً ضلّ عن الاعتراف بوجود إله صانع للعالم ، فليس في إمكانه أن يتخلص من الاعتراف بتأثير الفواعل الطبيعية واحداث الدهرية في الارادات البشرية ، فهل يستطيع إنسان أن يخرج بنفسه عن هذه السلسلة التي سنّها الله في خلقه ؟ هذا أمر يعترف به طلاب الحقائق فضلاً عن الواصلين — وإن بعضاً من حكماء الأفرنج وعلماء سياستهم التجؤوا إلى الخضوع لسلطة القضاء ، وأطالوا البيان في إثباتها . ولنا في حاجة إلى الاستشهاد بأرائهم

إن للتاريخ علماً فوق الرواية غني بالبحث فيه العلماء من كل أمة ، وهو العلم الباحث عن سير الأمم في صعودها وهبوطها ، وطبائع الحوادث العظيمة وخواصها ، وما ينشأ عنها من التغيير والتبديل في العادات والأخلاق والأفكار ، بل في خصائص الاحساس الباطن والوجدان ، وما يتبع ذلك كله من نشأة الأمم ، وتكون الدول ، أو فناء بعضها واندراس أثره

هذا الفن الذي عدّوه من أجل الفنون الأدبية وأجزلها فائدة بناء البحث فيه على الاعتقاد بالقضاء والقدر ، والاذعان بأن قوى البشر في قبضة مدبر الكائنات ، ومصرف للحادثات . ولو استقلت قدرة البشر بالتأثير ما انحط رفيع ، ولا ضعف قوي ، ولا انهدم مجد ، ولا تقوض سلطان

الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد عن شناعة الجبر يتبعه صفة الجراءة والاقدام ، وخلق الشجاعة والبسالة . ويبعث على اقتحام الممالك التي توجب لها قلوب الاسود ، وتنشق منها مرائر النور . هذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثبات ، واحتمال المكار ، ومقارعة الأهوال ، ويحلبها بحلي الجود والسخاء . ويدعوها الى الخروج من كل ما يعز عليها ، بل يحملها على بذل الأرواح ، والتخلي عن نضرة الحياة . كل هذا في سبيل الحق الذي قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة .

الذي يعتقد بأن الأجل محدود ، والرزق مكفول ، والأشياء بيد الله يصرفها كما يشاء . كيف يرهب الموت في الدفاع عن حقه وإعلاء كلمة أمته أو ملته ، والقيام بما فرض الله عليه من ذلك ؛ وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله في تعزيز الحق وتشيد المجد ، على حسب الأوامر الآسبية ، وأصول الاجتماعات البشرية .

امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضيلته في قوله الحق (الذين قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل * فاتقبلوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم) اندفع المسلمون في أوائل نشأتهم الى الممالك

والأقطار يفتحونها ، ويتسلطون عليها ، فأدهشوا العقول وحبروا الألباب بما دوخوا الدول وقهروا الأمم . وامتدت سلطتهم من جبال بيريني الفاصلة بين أسبانيا وفرنسا الى جدار الصين ، مع قلة عددهم وعددهم ، وعدم اعتيادهم على الأهوية المختلفة ، وطبائع الأقطار المتنوعة ، أرغوا الملوك ، وأذلوا القياصرة والأكاسرة في مدة لا تتجاوز ثمانين سنة . ان هذا ليعد من خوارق العادات وعظائم المعجزات .

دمروا بلاداً ، ودكدكوا أطواداً ، ورفعوا فوق الأرض أرضاً ثانية من القسطل ، وطبقة أخرى من القمع ، وسحقوا رؤوس الجبال تحت حوافر جيادهم ، وأقاموا بدلها جبالا وتلالا من رؤوس النابذيين لسلطانهم ، وأرجفوا كل قلب ، وأرعدوا كل فریضة وما كان قائدهم وسائقهم الى جميع هذا الاعتقاد بالقضاء . واقدر هذا الاعتقاد هو الذي ثبتت به أقدام بعض الأعداد القليلة منهم أمام جيوش يعص بها القضاء ، ويضيق بها بسيط الغبراء ، فكشفوهم عن مواقعهم ، وردوهم على أعقابهم

بهذا الاعتقاد لمعت سيوفهم بالمشرق ، وانقضت شهبا على الخياري في هبوات الحروب من أهل المغرب ، وهو الذي حملهم على بذل أموالهم وجميع ما يملكون من رزق في سبيل إعلاء كلمتهم ، لا يخشون فقراً ولا يخافون فاقة هذا الاعتقاد هو الذي سهل عليهم حمل أولادهم ونسائهم ومن يكون في حجورهم الى ساحات القتال في أقصى بلاد العالم ، كما يسرون الى الحدائق والرياض ، وكأنهم أخذوا لأنفسهم بالتوكل على الله أماناً من كل غادرة ، وأحاطوها من الاعتماد عليه بحصن يصونهم من كل طارقة ، وكان نسائهم وأولادهم يتولون سقاية جيوشهم ، وخدمتها فيما تحتاج اليه ، لا يفترق النساء والأولاد عن الرجال والكهول الا بحمل السلاح ، ولا تأخذ النساء رهبة ، ولا تفشى الأولاد مهابة

هذا الاعتقاد هو الذي ارتفع بهم الى حد كان ذكر اسمهم يذيب القلوب ويبدد أفلاذ الالكباد ، حتى كانوا ينصرون بالرعب يقذف به في قلوب أعدائهم

فينهزمون بجيش الرهبة قبيل أن يشيموا يروق سيوفهم ولعان أسنتهم ، بل قبل أن تصل الى تخومهم أطراف جحافلهم

(بكائي على السالفين ونحيبي على السابقين، أين أنتم يا عصابة الرحمة وأولياء الشفقة أين أنتم يا أعلام المروءة، وشوامخ القوة؛ أين أنتم يا آل النجدة، وغوث المضمير يوم الشدة؟ أين أنتم يا خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر؟ أين أنتم أيها الامجاد الانجاد القوامون بالقسط، الآخذون بالعدل، الناطقون بالحكمة ، المؤسسون لبناء الامة؟ ألا تنظرون من خلال قبوركم الى ما أتاه خلفكم من بعدكم ، وما أصاب أبناءكم ، ومن ينتحل نحلتمكم !! انحرفوا عن سنتكم ، وجاروا عن طريقكم، فضلوا عن سبيلكم ، وتفرقوا فرقا وأشياعاً ، حتى أصبحوا من الضعف على حال تدوب لها القلوب أسفاً ، وتحترق الأكباد حزناً ، أضحوا فريسة للامم الاجنبية لا يستطيعون ذوداً عن حوضهم ، ولا دفاعاً عن حوزتهم ، ألا يصيح من برازخكم صائح منكم ينبه الغافل ، ويوقظ النائم ، ويهدي الضال الى سواء السبيل؟ (انا لله وانا اليه راجعون)

أقول وربما لأخشى واهما ينازعي فيما أقول : إنه من بداية تاريخ الاجتماع البشري الى اليوم ما وجد فاتح عظيم ، ولا محارب شهير ، نبت في أوسط الطبقات، ثم رقي بهمه في أعلى الدرجات ، فذلت له الصعاب ، وخضعت الرقاب ، وبلغ من بسطة الملك ما يدعو الى العجب ، ويبعث الفكر لطلب السبب ، إلا كان معتقداً بالقضاء والقدر . سبحان الله !! الانسان حريص على حياته ، شحيح بوجوده على مقتضى الفطرة والجلبة ، فما الذي يهون عليه اقتحام المخاطر وخوض المهالك ومصارعة المنايا إلا الاعتقاد بالقضاء والقدر ؟ وركون قلبه إلى أن المقدر كائن ، ولا أثر لهول المظاهر؟

أثبتت لنا التواريخ أن كورش الفارسي (كيخسرو) وهو أول فاتح يعرف في تاريخ الأقدمين ما تسنى له الظفر في فتوحاته الواسعة ، إلا لأنه كان معتقداً بالقضاء والقدر ، فكان لهذا الاعتقاد لايهوله هول ، ولا توهن عزيمته شدة . وأن الاسكندر الاكبر اليوناني كان ممن رسخ في نفوسهم هذه العقيدة الجليلة .

وجنكيز خان التتري صاحب الفتوحات المشهورة كان من أرباب هذا الاعتقاد، بل كان نابليون الأول بوناپرت الفرنسي من أشد الناس تمسكا بعقيدة القضاء، وهي التي كانت تدفعه بعساكره القليلة على الجماهير الكثيرة، فيتياً له الظفر، وينال بغيته من النصر.

فعم الاعتقاد الذي يطهر النفوس الانسانية من رذيلة الجبن وهو أول عائق للمتدس به عن بلوغ كماله في طبقته أيا كانت. نعم اننا لانكر أن هذه العقيدة قد خالطها في نفوس بعض العامة من المسلمين شوائب من عقيدة الجبر. وربما كان هذا سبباً في رزيتهم ببعض المصائب التي أخذتهم بها في الأعصر الأخيرة. ورجاؤنا في الراسخين من علماء العصر أن يسعوا جهدهم في تخليص هذه العقيدة الشريفة من بعض ما طرأ عليها من لواحق البدع، ويذكروا العامة بسنن السلف الصالح وما كانوا يعملون وينشروا بينهم ما أثبتته أئمتنا رضي الله عنهم كالشيخ الغزالي وأمثاله من أن التوكل والركون إلى القضاء إنما طلبه الشرع منافي العمل، لافي البطالة والكسل وما أمرنا الله أن نهمل فروضنا ونبتذ ما أوجب علينا بحجة التوكل عليه، فتلك حجة المارقين عن الدين، الخائدين عن الصراط المستقيم، ولا يرتاب أحد من أهل الدين الاسلامي في أن الدفاع عن الملة في هذه الأوقات صار من الفروض العينية على كل مؤمن مكلف، وليس بين المسلمين وبين الالتفات إلى عقائدهم الحقبة التي تجمع كلمتهم، وترد اليهم عزيمتهم، وتنهض غيرتهم لاسترداد شأنهم الأول، إلا دعوة خير من علمائهم، وان جميع ذلك موكل إلى ذمتهم. وأما ما زعموه في المسلمين من الانحطاط والتأخر فليس منشؤه هذه العقيدة (ولا غيرها من العقائد الاسلامية) ونسبته اليها كنسبة التقيض إلى تقيضه بل أشبه ما يكون بنسبة الحرارة إلى الثلج والبرودة إلى النار.

نعم حدث للمسلمين بعد نشأتهم نشوة من الظفر، وتعمل من العز والغلب وفاجأهم وهم على تلك الحال صدمتان قويتان، صدمة من طرف الشرق وهي غارة التتريين جنكيز خان وأحفاده، وصدمة من جهة الغرب وهي زحف الأمم الأوروبية بأسرها على ديارهم، وان الصدمة في حال النشوة تذهب بالرأي، وتوجب الدهشة والسبات بحكم الطبيعة، وبعد ذلك تداولتهم حكومات متنوعة، ووسد الامر فيهم الى غير

أهله، وولي على أمورهم من لا يحسن سياستها، فكان حكمهم وأمرؤهم من جرائم الفساد في أخلاقهم وطباعهم، وكانوا مجلبة لشقائهم وبلائهم، فتمكن الضعف من نفوسهم وقصرت أنظار الكثير منهم على ملاحظة الجزئيات التي لا تتجاوز لذته الآنية، وأخذ كل منهم بناصية الآخر، يطلب الضرر ويلتمس له السوء من كل باب، لا لعله صحيحة ولا داع قوي وجعلوا هذائمة الحياة، فأل الأمر بهم إلى الضعف والقنوط وأدى إلى مآصروا إليه .

ولكني أقول - وحق ما أقول - ان هذه الملة لن تموت مادامت هذه العقائد الشريفة آخذة مأخذها من قلوبهم، ورسومها تلوح في أذهانهم، وحقائقها متداولة بين العلماء الراسخين منهم، وكل ما عرض عليهم من الأمراض النفسية والاعتلال العقلي فلا بد أن تدفعه قوة العقائد الحقة، ويعود الأمر كما بدأ وينشطوا من عقالمهم، ويذهبوا مذاهب الحكمة والتبصر في انقاذ بلادهم، وارهاب الامم الطامعة فيهم، وإيقانها عند حدها، وما ذلك ببعيد، والحوادث التاريخية تؤيده، فانظر إلى العثمانيين الذين نهضوا بعد تلك العدميات القوية (حروب التترو والحروب الصليبية) وساقوا الجيوش إلى أرجاء العالم، واتسعت لهم ميادين الفتوحات، ودوخوا البلاد، وأرغموا آتوف الملوك، ودانت لسلطانهم الدول الافرنجية، حتى كان السلطان العثماني يلقب بين الدول بالسلطان الأكبر

ثم ارجع البصر تجد هزة في نفوسهم، وحركة في طباعهم، أحدثها فيهم ما نوءدهم به الحوادث الأخيرة من رداثة العاقبة وسوء المنقلب . حركة سرت في أفكار ذوي البصيرة منهم في أغلب الإنحاء، شرقاً وغرباً، وتألفت من خيارهم عصابات للحق كتبت على نفسها نعمة العدل والشرع، والسعي بغاية الجهد ليث لغفلارها، وجمع الكلمة المقترقة، وضم الاشتات المتبددة، وجعلوا من أصغر أعمالهم نشر جريدة عربية، اتصل بما يكتب فيها بين المتباعدين منهم وتنقل اليهم بعض ما يضره الاجانب لهم، وانا نرى عدد الجمعية الصالحة يزداد يوماً بعد يوم، فسأل الله تعالى نجاح أعمالها، وتأيد مقصدها الحق، ورجاؤنا من كرمه أن يترتب على حسن سعيها أثر مفيد للشرقين عموماً والمسلمين خصوصاً .

المقالة الثامنة

الفضائل والذائل وأثرها*)

(وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين)

قالوا للإنسان كمال مفروض عليه أن يسعى إليه ، وقالوا انه عرضة لنقص يجب عليه الترفع عنه ، وقالوا كماله في استيفاء ما يمكن من الفضائل ، ونقصه في التلوث برذيلة من الرذائل ، فإهي الفضائل وماهي الرذائل ؟ الفضائل سجايا للنفس من مقتضاها التأليف والتوفيق بين المتصدين بها ، كالسخاء والعفة والحياء ونحوها ، فالسخيان لا يتشاحان ولا يتنازعان في التعامل ، فإن من سحجة كل منهما البذل في الحق ، والمنع إذا اقتضاه الحق ، فكل يعرف حده فيةف عنده ، فلا يوجد موضوع للنزاع عند معاطاة الأعمال المالية. والاعفاء لا يترجمون على مشتهى من المشتهيات ، فإن من خلق كل منهم التجافي عن الشهوة ، وفي طبيعته الايثار بالرغائب ، وهكذا إذا استقرت جميع ماعده علماء التهذيب من الصفات الفاضلة تجد أن من لوازم كل فضيلة منها التأليف بين المتصدين بها في متعلق الأثر الناشي ، عن تلك الفضيلة ، فإذا اجتمعت الفضائل أو غلبت في شخصين مالت نفوسهما إلى الاتحاد والاتنام في جميع الاعمال والمقاصد أو جلبها ، ودامت الوحدة بينهما بمقدار رسوخ الفضيلة فيها وعلى هذا النحو يكون الأمر في الاشخاص الكثيرة ، فالفضائل هي مناط الوحدة بين الهيئة الاجتماعية ، وعروة الاتحاد بين الآحاد ، تميل بكل منهما إلى الآخر ، وتجذب الآخر الى من يشاكله ، حتى يكون الجمهور من الناس كواحد منهم ، يتحرك بإرادة واحدة ، ويطلب في حركته غاية واحدة

مجموع الفضائل هو العدل في جميع الأعمال ، فإذا شمل طائفة من نوع الانسان

* نشرت في المدد الزامن من جريدة العروة الوثقى في ١٨ رجب سنة ١٣٠١

١٥ مايو سنة ١٨٨٤

وقف بكل من آحادها عند حده في عمله ، لا يتجاوزه بما يمس حقاً للآخر فيه
يكون التكافؤ والتوازن

لكل شخص من أفراد الانسان وجود خاص به ، وأودعت فيه العناية
الآسبية من القوى ما به يحفظ وجوده ، وما به التناسل لبقاء النوع ، وهو في
هذا يساوي سائر أفراد الحيوان ، لكن قضت حكمة الله أن يكون الانسان
ممتازاً عن بقية الانواع الحيوانية بكون آخر ، ووجود أرقى وأعلى ، وهو كون
الاجتماع ، حتى يتألف من أفراده الكثيرة بنية واحدة يعمرها اسم واحد ، والأفراد
فيها كأعضاء تختلف في الوظائف والأشكال ، وإنما كل يؤدي عمله لبقاء البنية
الجامعة وتقويتها وتوفير حظها من الوجود ليعود اليه نصيب من عملها الكلي ،
كما أودع الله في أعضاء أبداننا وبنيتنا الشخصية . والفضائل في المجتمع الانساني
كقوة الحياة المستكملة في كل عضو ما يقدره على أداء عمله مع الوقوف عند حد
وظيفته كاليد بها البطش والتناول ، وليس من خصائصها الابصار ، والعين بها
الابصار وتمييز الأشكال والألوان ، وليس من وظائفها البطش ، والشكل حي
بحياة واحدة ، وإن شئت قلت الفضائل في عالم الانسان كالجذبة العامة في العالم
الكبير ، فكما أن الجذبة العامة يحفظ بها نظام الكواكب والسيارات ، وبالتوازن
في الجاذبية ثبت كل كوكب في مركزه ، وحفظت النسبة بينه وبين الكوكب
الآخر وانتظم بها سيره في مداره الخاص بتقدير العزيز العليم ، حتى تمت
حكمة الله في وجود الأكوان وبقائها . كذلك شأن الفضائل في الاجتماع
الانساني ، بها يحفظ الله الوجود الشخصي إلى الأجل المحدود ، ويثبت البقاء
التوعمي إلى أن يأتي أمر الله

أي أمة يكون الواضع فيها والرافع ، والممارس والوازع ، والمجالب الدافع ،
وجميع من يدبر أمورها ، ويسوسها في شؤونها ، إنما هم أفراد منها من هاماتها أو
من لهازمها (من الأعداء أو الأواسط ، بل سائر الأطراف) ويكون كل واحد
منها قائماً بحق الكل ، ولا يختار مصادماً يعكس مقصد الكل ، ولا يسعى إلى
غاية تميل به عن غاية الكل ، ولا يهمل عملاً يتعاقق بالأمة ، حتى يكون الجميع

كالبيان المتين لا تزعزعه العواصف ، ولا تدكّه الزلازل ، وبقوة كل منهم يجتمع للأمة قوة تحفظ بها موقعها ، وتدفع بها عن شرفها ومجدها ، وترد غارة الاغيار عليها ، فهي الأمة التي سادت فيها الفضائل ، واستعلت فيها مكارم الاخلاق

إن أمة هذا شأنها لا يتخالف أفرادها إلا للتآلف ، ولا يتغابرون إلا للاتحاد ، فمثلهم في اختلاف أعمالهم كمثل المتدبرين على محيط دائرة يتفارقان في مبدأ السير ايتلاقيا على نقطة من المحيط ، ومثلهم في تغاير ما آخذهم لجلب منافعهم كجاذبي طرف خيطة واحدة (جبل واحد) كل آخذ بطرف مع تعادل القوتين ، ففي جذب أحدهما لصاحبه إبعاد لنفسه عنه من وجه ، وحفظ لمكان قربه منه من وجه آخر ، فلا يفترقان ولا يتباينان ، ولا تفسى منفعة أحدهما في منفعة الآخر . أما ان مسالك الأفراد من مثل هذه الأمة بما منحوه من الارتباط بينهم كانصاف دائرة مركزها حياة الأمة وعظمتها ، ولا يخرج ولا واحد منهم عن محيط الجلسية ، وأنهم في جلب منافعها واستكمال فوائدها كالجداول تمد البحر لتستمد منه

يرى كل واحد منهم أن ما يتجهج به النفوس البشرية ، وتمتاز بالميل اليه عن سائر الحيوانات من رفعة المكنانة والغلب وبسط الجاه ونفاذ الكامة ، إنما يمكن نيله إذا توفر للأمة حظها من هذه المزايا ، فيسعى جهده لا بلاغ كل واحد من الأمة أقصى ما يؤهله استعداده ليأخذ بسهم مما يناله ، فلا يهمل ولا يخون في الدفاع عن فرد من أفرادها ، فضلا عن هيبتها العامة ، وإلا فقد خان نفسه ، لأنه أبطل آلة من آلات عمله ، وقطع سببا من أسباب غايته ، ولا يحتقر واحداً من الآحاد ، ولا يزدرى بعمله ، وبحسب الشخص من الأمة وان كان صغيراً بمنزلة مسبار صغير في آلة كبيرة لو سقط منها تعطلت الآلة بسقوطه

عليك أن تنظر في حقائق هذه الصفات الفاضلة لتحكم بما ينشأ عنها من الأثر الذي ينهه : التعقل والتروي وانطلاق الفكر من قيود الأوهام والعمى والسخاء والتبذير والدمانة (ابن الجانب) والوقار والتواضع وعظم الهمة والصبر والحلم والشجاعة والايثار (تقديم الغير بالمنفعة على النفس) والنجدة والسماحة

والصدق والوفاء، والأمانة وسلامة الصدر من الحقد والحسد والعفو والرفق
 والمروءة والحمية وحب العدالة والشفقة — ألا ترى لو عمت هذه الصفات الجليلية
 أمة من الأمم أو غلبت في أفرادها يكون بينها سوى الأتحاد والالتزام التام؟
 هل يوجد مشار للتناظر والخلاف بين عاقلين حريين صادقين وفيين كريمين
 شجاعين رقيقين صابرين حليمين متواضعين وقورين عفيفين رحيمين؟ أما والله
 لو نفخت نسمة من أرواح هذه الفضائل على أرض قوم وكانت موافقاً لأحبتها،
 أو قفراً لأبنتها، أو جدباً لأمطرتها من غيث الرحمة ما يسبغ نعمة الله عليها،
 ولأقامت لها من الوحدة سياجا لا يخرق، وحرزاً أميناً لا يهتك، وإن أولى
 الأمم بأن تبلغ الكمال في هذه السجاياء الشريفة أمة قال نبيهم «إنما بعثت
 لأتمم مكارم الاخلاق» (١) الفضيلة حياة الأمم تصون أجسامها عن تداخل العناصر
 الغريبة، وتحفظها من الانحلال المؤدي الى الزوال (وما كان ربك ليهلك
 القرى بظلم وأهلها ماصحون)

وأما الرذائل فهي كصفات خبيثة تعرض للأنفس، من طبيعتها التحليل
 والتفريق بين النفوس المتكيفة بها، كالقحة (قلة الحياء) والبذاء (التطاول على
 الأعراس بما لا تقتضيه الحشمة والادب من الكلام) والسفه والبله والبطش
 والتهور والجبن والدناءة والجزع والحقد والحسد والكبرياء والعجب واللجاج
 والسخرية والغدر والخيانة والكذب والنفاق، فأى صفة من هذه الصفات تلوث
 بها نفسان ألفت بينهما العداوة والبغضاء، وذهبت بهما مذاهب الخلاف
 الى حيث لا يبقى أمل في الوفاق. فان طبيعة كل واحدة منها إما مجاوزة الحدود
 في التعدي على الحقوق، وإما السقوط الى ما لا يمكن معه للشخص أداء الواجب
 عليه لمن يشاركه في الجنسية أو الملية أو القبيلة أو العشيرة، أو بأي نوع من أنواع

«١» هذا الحديث ذكره الامام مالك في الموطأ بلاغا عن النبي «ص» وقال
 الحافظ ابن عبد البر هو متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره مرفوعا .
 وذكره السيوطي في جامعته بلفظ «صالح الاخلاق» وعزاه الى ابن سعد والادب
 المفرد للبخاري والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة وعلم عليه بالصحة

التعامل ، والانسان محبوب بالطبع على النفرة ممن يتعدى على حقوقه أو يمنع
حقها منها ، وإن شئت فتخيّل وقحدين بديئين سفهيين جبانين بخيلين (كل يمنع
الآخر حقه) شهين حاقدين حاسدين متكبرين (كل لا يستحس الا فعل نفسه)
لجوجين خائنين غادرين كاذبين منافقين هل يمكن أن يجمعها مقصد أو نوحده
بينها غاية ؟ أليس كل وصف على حدته قاضياً بانتباز كل من صاحبه وإن لم
تكن داعية ، وكفى بخلقه وصفته باعثاً قويا للتنايد

هذه الرذائل اذا فشت في أمة تقضت بناءها ونثرت أعضائها ، وبددتها
شذرها مذر . واستدعت بعد ذلك طبيعة الوجود الاجتماعي أن تسطو على هذه
الامة قوة أجنبية عنها لتأخذها بالقهر ، وتصرفها في أعمال الحياة بالقسر . فان
حاجاتهم في المعيشة طالبة للاجتماع ، وهو لا يمكن مع هذه الأوصاف ، ولا بد
من قوة خارجية تحفظ صورة الاجتماع الى الحد الضرورة .

هذه صفات اذا رسخت في نفوس قوم صار بأسهم بينهم شديداً تحسبهم جميعاً
وقلوبهم شتى ، تراهم أعزة بعضهم على بعض ، أذلة الأجنبي عنهم ، يدعون أعداءهم
للسيادة عليهم ، ويفتخرون بالانتماء اليهم ، يهدون السبل للغالبيين الى النكالية بهم ،
ويمكنون محالب المغتالين من أحشائهم ، ويرون كل حسن من أبناء جنسهم
قبيحاً ، وكل جليل منهم حقيراً ، اذا نطق أجنبي بما يدور على ألسنة صبيانهم
عدوه من جوامع الكلام وفانس الحكم ، واذا عاض أحدهم بجر الوجود
واستخرج لهم درد الخقائق وكشفت لهم دقائق الاسرار عدوه من سقط المتاع
وقالوا بلسان حالهم أو مقالهم : ليس في الامكان أن يكون منا عارف ، ومن
المحال أن يوجد بيننا خبير ، ويغلب عليهم حب الفخفة والفخر الكاذب ،
ويتنافسون في سفاسف الامور وديانها ، يرتابون في نصيح الناصحين ، وان قامت
على صدقهم أقطع البراهين ، يسخرون بالواعظين ، وان كانوا في طلب خيرهم
من أخلص المحلصين ، يبدلون جهدهم لحية من يسى لاعلاء شأنهم وجمع كآمتهم
ويقعدون له بكل سبيل ، يقيمون في طريقة العقبات ، ويهبثون له أسباب العتاء ،
تراهم بتضارب أخلاقهم وتعاكس أطوارهم كالبدن المصاب بالفالج ، لا تنتظم

لأعضائه حركة ، ولا يمكن تحريك عضو منه على وجه مخصوص لتقصده معلوم ، فتفقت أعمالهم عن حد الضبط ، وتخرج عن قواعد الربط ، فساد طباعهم بهذه الأخلاق يجعلهم منبعاً ومبعثاً للضرر ، يصير الواحد منهم كالكلب الكلاب ، أول ما يبدأ بعض صاحبه قبل الأجنبي ، بل كالبتلي بجنون مطبق ، أول ما يفتك بمزييه ومهذبه ، ثم يثني بطيبه ومعالج دائه ، تكون الآحاد منهم كالأمرض الأكلة من نحو الجذام والآكلة ، يمزقون الامة قطعاً وجذاذات بعد ما يشوهون وجهها ويشوشون هيئتها ، أولئك قوم يساهون في مراعي الدنيايا والحساس لتغلب النذالة على سائر أوصافهم ، فينتفخون على أبناء جلدتهم ويدلون لقرم الأجانب فضلا عن عليهم ، وبهذا يمكن الذلة في نفوسهم لمن دونهم ، ويطبعونها على الخضوع للغرباء ، بل الاعداء الألداء ، من طبقة الى طبقة حتى تصحل الامة وتنسخ هيئتها وتفتى في أمة أو ملة أخرى ، سنة الله في تبدل الدول وفناء الأمم ، (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد) أعاذنا الله من هذه العاقبة ، وحرس أمتنا وملتنا من المصير الى هذه النهاية .

بقيت لنا لمحة نظر الى مابه تقنتى الفضائل ، وتمحص النفوس من الرذائل ، حتى تسعد الجمعيات البشرية بالاتحاد ، وتصون به أكوانها من الفساد « كل مولود يولد على الفطرة » مادة مستعدة لقبول كل شكل والتلون بأي لون ، فهل ينال كمال الفضيلة من آبائه وأسلافه ؟ انى يكون لهم حظ منها . وقد كانوا ناشئين على مثل مانشأ عليهم وليدهم ؟

يرشدنا رائد الحق الى أن الاعتدال في أصول الأخلاق والتجلي بحلية الفضائل وترويض القوى والآلات البدنية على العمل بآثارها إنما يكون بالدين ، ولن يتم أثر الدين في نفوس الآخذين به فيصيبوا خطأ وافرأ مما يرشد اليه فيتمتعوا بحياة طيبة وعيشة مرضية إلا اذا قام رؤساء الدين وحملته وحفظته بأداء وظائفهم من تبيين أوامره ونواهييه وثبيتها في العقول ودعوة الناس الى العمل بها ، وتنبية الغافلين عن رعايتها ، وتذكير الساهين عن هديها . أما اذا أهمل خدمة الدين ووظائفهم أو تهاونوا في تأدية أعمالها ضعف اليقين في (٣٥ - تاريخ الاستاذ الامام - الجزء الثاني)

النفوس ، وذهلت العقول عن مقتضيات العقائد الدينية ، وأظلمت البصائر بالغفلة وتحكمت الشهوات البهيمية ، وتسلمت الحاجات المعاشية ، ومال ميزان الاختيار مع الهوى ، فحشدت الى الانفس أوفاد الردائل ، فيحق على الناس كلمة العذاب ويحل بهم من الشقاء ما أشرنا اليه سابقا .

هذه علل الخراب في كل أمة ولقد ظهر أثرها في أمم لا تحصى عدداً من بداية كون الانسان الى الآن ، ولم يزل بقايا بعضها يشهد على ما فتكت به الردائل فيهم بعد ما بدلوا وغيروا كما في طائفة الدهيرو (منك) من سكنة الأقطار الهندية المعروفين عند الأوربيين بطائفة « ياريا » (قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم) . فالدين هو السائق الى السعادة في الدنيا كما يسوق اليها في الآخرة .

تقلب قلب الدهر على بعض طوائف من المسلمين في أقطار مختلفة من الأرض ، وسلبهم تيجان عزمهم وألقاها على هامات قوم آخرين ، واليوم ينازع طوائف أخرى ولا نخاله يتقلب عليهم ، فكشف هذا عن نوع من الضعف ، ولا يكون ناشئاً إلا عن شيء من الاهمال في اتباع أوامر الشرع الاسلامي ونواهيه بحكم قول الله في كتابه (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وقد يكون ذلك ، وربما لا يذكر الآن أن كثيراً من عامة المسلمين وإن سحت عقائدهم من حيث ما تعلق به الاعتقاد إلا أنهم لا يتهجون في بعض أعمالهم منهاج الشريعة الفراء . وهذا مما يحدث ضعفاً في قوة الأمة بقدر الميل عن جادة الاعتدال في الفضائل والأعمال (وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم .)

إلا أن المسلمين لم يزالوا على أصول الفضائل الموروثة عن أسلافهم ، ولهم حسن الاذعان لما جاء به شرعهم ، وكتاب الله متلو على ألسنتهم ، وسنة نبينهم يتناقفونها رواية ودراية ، وسير الخلفاء الراشدين والسلف الصالح مرسومة على صفحات نفوس الخاصة منهم ، فليس ما طرأ على بعضهم من الغفلة عن متابعة الشرع وما تسبب عنه من الضعف في القوة إلا عرضاً لا يبقى وحالاً لا يدوم . انظر نظرة انصاف الى ما أودعته آيات القرآن من غرر الفضائل وكرائم

الشيم ، والى حرص المسلمين على احترام كتابهم وتبجيله ، نجد من نفسك حكماً
 باتاً بأن علماء الديانة الاسلامية لو نشطوا لاداء وظائفهم المفروضة عليهم بحكم
 ورائتهم لصاحب الشرع ، والمحتومة على ذمتهم بأمر الله الموجه الى الذين يعقلونه
 وهم هم في قوله الحق (ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف
 وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وبالخص الالهي المفهوم من قوله (فلولا
 نفر من كل فرقة منهم « المؤمنين » طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا
 رجعوا اليهم لعلهم يحذرون) ولو قاموا يعظون العامة بما ينطق به القرآن
 ويذكرونهم بما كان عليه صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الناهجون
 على سنته من الاخلاق المحموده والاعمال المبرورة ، لرأيت الامة الاسلامية ناشطة
 من عقلمها ، متضافرة على إعادة مجدها وصيانة ولايتها العامة من الضعف ، وبيضة
 دينها من الصدع ، كل ذلك في أقرب وقت ، ولن تكون إلا صيحة واحدة
 فاذا هم قيام ينظرون .

ولا ريب أن الراسخين في العلم من أهل الدين الاسلامي يعلمون أن
 ما أصيب به المسلمون في هذه الازمان الاخيرة ، إنما هو مما امتحنهم الله به جزاء
 على بعض ما فرطوا ، وليس للناس على الله حجة ، فالرجاء في همهم وغيرتهم
 الدينية وحميتهم المليية أن يوجهوا العناية إلى رتق الفتق قبل اتساعه ، ومداداة
 العلة قبل استحكامها ، فيذكروا أبناء الملة بأحكام الله ، ويحكموا بينهم روابط
 الاخوة والالفة كما أمر الله في كتابه وعلى لسان نبيه ، وينذلوا الجهد نحو اليأس
 والتقنوط الذي ملك أفئدة البعض منهم ، ويقنعوهم بأنه لا يأس من لطف الله
 إلا الذين في قلوبهم مرض وفي عقائدهم زيغ ، ويسيروا بهم في سبيل يجمع
 كلمتهم ، ويوحد وجهتهم ، ويقوي فيهم إباءة الضيم والنفرة من الذل ، ويحرك
 فيهم روح الالفة ، حتى لا تسمح نفس أحدهم أن يأتي الدنيا في دينه ، ويكشفوا
 لهم حقيقة وعد الله ووعدته الحق في قوله : (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين)

المقالة التاسعة

الومرة الاسلامية *

(وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم)

أظلت ولاية الاسلام ما بين نقطة الغرب الاقصى الى تونكاي على حدود الصين في عرض ما بين قازان من جهة الشمال وبين سرنديب تحت خط الاستواء. أقطار متصلة، وديار متجاورة، يسكنها المسلمون، وكان لهم فيها السلطان الذي لا يغالب. أخذ بصولجان الملك منهم ملوك عظام، فأداروا بشوكتهم كرة الارض إلا قليلا. ما كان يهزم لهم جيش، ولا ينكس لهم علم، ولا يرد قول على قائلهم. قلاعهم وصياصبيهم متلاقية، ومنابتهم ومغارسهم في سهوبهم (أراضيهم السهلة الواسعة) وأخياضهم (الاراضي المنحدرة عن الجبل) رابية مزدهية بأنواع النبات، حالية بأصناف الاشجار، صنع أيدي المسلمين، ومدنهم كانت أهلة مؤسسة على أمثن قواعد العمران، تباهي مدن العالم بصنائع سكانها وبدائعهم وتفاخرها، بشموس الفضل، وبدور العلم، ونجوم الهداية، من رجال كان لهم المكان الاعلى في العلوم والآداب.

كان في نقطة الشرق من حكائهم مثل ابن سينا والفارابي والرازي ومن يشاكلهم. وفي الغرب ابن باجه وابن رشد وابن الطفيل ومماثلهم، وما بين ذلك أمصار تتراحم فيها أقدام العلماء في الحكمة والطلب والهيئة والهندسة وسائر العلوم العقلية، هذا فضلا عن العلوم الشرعية التي كانت عامة في جميع طبقات الملة. كان خليفتهم العباسي ينطق بالكامة فيخضع لها فغفور الصين (١) وترتعد منها فرائض أعظم الملوك في أوربا. ومن ملوكهم في قرونها المتوسطة

(* نشرت في العدد التاسع من العروذ الوثقي الذي صدر في ٢٥ رجب سنة ١٣٠١ —
٢٢ ما يوسنة ١٨٨٤ في بيان مفسد أمراء المسلمين وفي دعوتهم الى الوحدة
١٥ كلمة فغفور بوزن عصه فور لقب ملوك الصين ككسرى وقيصر الملوك الفرس والروم

مثل محمود الغزنوي وملكشاه السلجوقي وصلاح الدين الايوبي ، وكان منهم في المشرق مثل تيمور الكوركان ، وفي الغرب مثل السلطان محمد الفاتح ، والسلطان سليم ، والسلطان سليمان العثماني ، أولئك رجال قضاوا ولم يطلو الزمان ذكرهم ولم يمح أثرهم .

كانت لاساطيل المسلمين سلطة لا تبارى في البحر الابيض والأحمر والمحيط الهندي ولها السكامة العليا في تلك البلاد إلى زمن غير بعيد . كان مخالفوهم يدينون للملكوت فضلهم كما يذلون لسلطان غلبهم . والمسلمون اليوم هم هم يملؤن تلك الاقطار التي ورثوها عن آباؤهم وعديدهم لا ينقص عن مئتي مليون (*) وأفرادهم في كل قطر بما أشربت قلوبهم من عقائد دينهم أشجع وأسرع إقداماً على الموت ممن يجاورهم ، وهم بذلك أشد الناس ازدياء بالحياة الدنيا ، وأقلهم مبالاة بزخرفها الباطل ، جاءهم القرآن بحكم آياته يطلب الناظرين بالبرهان على عقائدهم ، ويعيب الأخذ بالظنون والتمسك بالأوهام ، ويدعو إلى الفضائل وعقائل الصفات ، وأودع في أفكارهم جراثيم الحق وبذر في نفوسهم بذور الفضل ، فهم بأصول دينهم أنور عقلاً وأنبه ذهنًا وأشد استعداداً لنيل الكمال الانسانية ، وأقرب إلى الاستقامة في الاخلاق ، وبما يرون لأنفسهم من الاختصاص بالشرف ، وما وعدوا به على لسان كتابهم الصادق من اظهار شأنهم على شؤون العالم أجمع ولو كره المبطون ، لا يرغبون بسلطة اغيرهم عليهم : ولا يحوم بفكر واحد منهم ان يخضع لذي سطوة من سواهم وان بلغت من الشدة واللين ما بلغت . ولما بينهم من الاخاء المؤزر بمناطق العقائد ، بحسب كل واحد منهم ان سقوط طائفة من بني ملته تحت سلطة الاجانب سقوط لنفسه ، ذلك احساس يشعر به وجدانه ولا يجد عنه مسلياً ، وبما ساخ (غاص ورسب) في نفوسهم من جذور المعارف التي أرشدتهم اليها دينهم ، ونالوا منها النصيب الأعلى في عنفوان دولتهم يعدون أنفسهم أولى الناس بالعالم وأجدرهم بالفضل ذلك شأنهم الأول وهذا وصفهم للآن ، ولكنهم مع هذا كله وقفوا في سيرهم ، بل تأخروا عن غيرهم في المعارف والصنائع ، بعد ان كانوا فيها أساتذة (*) هذا بحسب الاحصاء لذلك العهد وقد تبين أخيراً انهم ٣٠٠ مليون أو يزيدون

العالم وأخذت ممالكهم تنقص من أطرافها وتتمزق حواشيتها مع ان دينهم يرسم عليهم أن لا يدينوا لسلطة من يخالفهم بل الركن الاعظم لدينهم طرح ولاية الأجنبي عنهم وكشفها عن ديارهم بل منازعة كل ذي شوكة في شوكته (١) هل نسوا وعد الله لهم بأن يرثوا الارض وهم العباد الصالحون؟ هل غفلوا عن تكفل الله لهم باظهار شأنهم على سائر الشؤون ولو كره المجرمون؟ هل سهوا عن ان الله اشترى منهم لاعلاء كرامته أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة؟ لا لا. ان العقائد الاسلامية مالكة لقلوب المسلمين، حاکمة في ارادتهم، وسواء في العقائد الدينية والمضائل الشرعية عامتهم وخاصتهم. نعم يوجد للتقصير في إيمان، العلوم والضعف في القوة أسباب أعظمها تخالف طلاب الملك فيهم، لأننا نينا ان لاجنسية للمسلمين الا في دينهم، فتعدد الملكة عليهم كتعدد الرؤساء في قبيلة واحدة، والسلطين في جنس واحد، مع تباين الاغراض وتعارض الغايات، فغفلوا أفكار الكافة بمظاهرة كل خصم خصمه، وأهلوا العامة بتهيئة وسائل المغالبة وقهر بعضهم لبعض، فأدت هذه المغالبات وهي أشبه شيء بالنزاعات الداخلية إلى الذهول عما نالوا من العلوم والصنائع، فضلا عن التقصير في طلب ما لم ينالوا منها، والاعسار دون الترقى في عواليها، ونشأ من هذا ما نراه من الفاقة والاحتياج، وعقبه الضعف في القوة والحلل في النظام، وجلب تنازع الامراء على المسلمين تفرق الكامة وانشقاق العصا، فلهوا بأنفسهم من تعرض الاجانب بالعدوان عليهم

هذا كان من أمراء المسلمين مع ما فيه من الضرر الفادح عند ما كانوا منفردين في ميادين الوغي، لا يجارهم فيها سواهم من الملل، ولكن ضرب الفساد في نفوس أولئك الامراء بمرور الزمان، وتمكن من طباعهم حرص وطمع باطل فاقبلوا مع الهوى، وضلت عنهم غايات المجد المؤثل، وقنعوا بألقاب الامارة وأسماء السلطنة

(١) جامع الكتاب : كل أمة وكل دولة تتعنى لو يكون العالم كله ناهيا لها في جنسيتها ودينها او حكما ولكن الاوربيين يتقدمون علينا هذا الاعتقاد الذي لا يعمل بمقتضاه وعم يعملون ويسمونه مناعتصبا وما التمصيب المدموم الا هضم حقوق المخالف في الدين وايدأوه لانه مخالف أو اكرهه على ترك دينه وكل هذا يحظره الاسلام ويذمه

وما يتبع هذه الاسماء من مظاهر الفخفخة وأطوار النفخة ونعومة العيش مدة من الزمان، واختاروا موالاة الأجنبي عنهم المخالف لهم في الدين والجنس، ولجؤا للاستنصار به وطلب المعونة منه على أبناء ملتهم، استبقاء لهذا الشبح البالي والنعيم الزائل هذا الذي أباد مسلمي الاندلس، وهدم أركان السلطنة التيمورية في الهند ومحا أطلالها، وعلى رسومها شيد الانكليز ملكهم بتلك الديار. هكذا تلاعبت أهواء السفهاء بالملك الاسلامية، ودهورتها أمانتهم الكاذبة في مهاوي الضعف والوهن، قبح ما صنعوا وبئس ما كانوا يعملون. أولئك اللاهون بذاتهم، العاكفون على شهواتهم، الذين بددوا شمل الملة، وأضاعوا شأنها، وأوقفوا مسير العلوم فيها، وأوجبوا الفترة في الأعمال النافعة، من صناعة وتجارة وزراعة، بما غلوا من أيدي بنيها. ألا قاتل الله الحرص على الدنيا والتهاكك على الخسائس ما أشد ضررها وما أسوأ أثرها نبذوا كلام الله خلف ظهورهم، وجددوا فرضاً من أعظم فروضه، فاختلفوا والعدو على أبوابهم، وكان من الواجب عليهم أن يتحدوا في الكلمة الجامعة، حتى يدفعوا غارة الأبعاد عنهم، ثم لهم أن يعودوا لشؤونهم. ماذا أفادتهم المقالة في الطمع والمنافسة في السفاست؟ أفادتهم حسرة دائمة في الحياة، وشقاء أبديا بعد الممات، وسوء ذكر لا تمحوه الأيام.

أما وعزة الحق وسر العدل، لو ترك المسلمون وأنفسهم بما هم عليه من العقائد مع رعاية العلماء العاملين منهم، لتعارفت أرواحهم، واثلت آحادهم، ولكن وأسفا تخلصهم أولئك المفسدون الذين يرون كل السعادة في لقب أمير أو ملك ولو على قرية لا أمر فيها ولا نهي. هؤلاء الذين حولوا أوجه المسلمين عما ولاهم الله وخرجوا على ملوكهم وخلفائهم، حتى تناكرت الوجوه، وتباينت الرغائب والاتفاق والتضامر على تعزيز الولاية الاسلامية، من أشد أركان الديانة المحمدية والاعتقاد به من أوليات العقائد عند المسلمين، لا يحتاجون فيه إلى أستاذ يعلم، ولا كتاب يثبت، ولا رسائل تنشر.

ان رعاة المسلمين فضلا عن علام تتصاعد زفراتهم وتفيض أعينهم من الدمع حزناً وبكاء على ما أصاب ملتهم من تفرق الآراء، وتضارب الاهواء، ولولا

وجود الغواة من الأمراء ذوي المطامع في السلطة بينهم لا اجتماع شرقيهم بغربيهم ،
 وشالبيهم بمجنوبيهم ، ولبي جميعهم نداء واحدا . ان المسلمين لا يحتاجون في صيانة
 حقوقهم إلا الى تنبيه أفكارهم لمعرفة ما به يكون الدفاع واتفاق آرائهم على القيام به
 عند لزومه وارتباط قلوبهم الناشئ ، عن إحساس بما يطرأ على الأمة من الاخطار .
 ألم تر أمة الروس هل تجد فيها ما يزيد على هذه الاصول الثلاثة ؟ هي أمة متأخرة
 في الفنون والصنائع عن سائر أمم أوروبا ، وليس في ممالكها ينابيع للثروة ، ولئن
 كانت فليس هناك ما يستفيضها من الاعمال الصناعية ، فهي مصابة بالحاجة
 والاعواز ، غير أن تنبيه أفكار آحادها لما به يكون الدفاع عن أمتهم واتفاقهم
 في النهوض به وارتباط قلوبهم صير لها دولة تتمد لسطوتها رواسي أوروبا . لم
 يكن للروسيا مصانع لمعظم الآلات الحربية ، ولكن لم يمنعها ذلك عن اقتنائها ،
 ولم يرتق فيها الفن العسكري الى حد ما عليه جيرانها ، إلا أن هذا لم يقعدها عن
 جلب ضباط من الأئم الاخرى لتعليم عساكرها ، حتى صار لجيشها صولة تحيف
 وحملة تخشاه دول أوروبا

فما الذي أقعدنا عن مشاكلة غيرنا فيما هو أيسر الأشياء علينا ونحن
 أشد الناس ميلا اليه : من رعاية شرف الأمة والتألم بما يحط منه والتعاون على
 صون الوحدة الجامعة لنا عن كل ما يثلها ؟ ما راد الافكار عن الحركة ، وما
 أقعد الهمم عن النهوض ، إلا أولئك المترفون ، يحرصون على طيب في المطعم ، ولين
 في المصمغ ، وتناول في البنيان ، وتفاخر بالخدم والحول ، ولا يراعون في حرصهم
 ما بهد يومهم ، ويحافظون على لقب موضوع ، ورسم متبوع ، يقنعون منه بالاحتفال
 لهم في المواسم والأعياد ، وهز الروس وثني الأعطاف ، تعظيما وتبجيلا ، ثم
 تذييل الأوراق الرسمية بأسماء ليس لها مسميات . هؤلاء الساقطون يرضون
 لتخيل هذه الموائل (جمع مائل من الرسوم ما ذهب أثره) بكل دنينة ، هؤلاء
 يقبلون من تصرف أعدائهم في بيوتهم مالا يقبله واحد من آحاد الناس دون
 موته ، أولئك صاروا في أعناق المسلمين سلاسل وأغلالا ، يحبسون هذه الأسود
 عن فريستها ، بل يجعلونها طعمة للثعالب ، لا حول ولا قوة إلا بالله

أيا بقية الرجال ، وبإخلف الأبطال ، وبانسل الأقيال ! هل ولى بكم الزمان ؟ هل مضى وقت التدارك ؟ هل آن أو ان اليأس ؟ لا . لا . معاذ الله أن ينقطع أمل الزمان منكم . إن من أدرنه إلى بيشاور دولا إسلامية ، متصلة الأراضي ، متحدة العميدة ، بجمعهم القرآن ، لا ينقص عددهم عن خمسين مليوناً ، وهم ممتازون بين أجيال الناس بالشجاعة والبسالة . أليس لهم أن يتفوقوا على الذب والاقدام كما انفق عليه سائر الأمم ؟ ولو اتفتوا فليس ذلك بيدع منهم ، فالانفاق من أصول دينهم . هل أصاب الخدر مشاعرهم فلا يحسون بمجاجات بعضهم لبعض ؟ أليس لكل واحد منهم أن ينظر الى أخيه بما حكم الله في قوله (إنما المؤمنون إخوة) فيقيمون بالوحدة سداً يحول عنهم هذه السيول المندفعة عليهم من جميع الجوانب

لا أتمس بقولي هذا أن يكون مالك الأمر في الجميع شخصاً واحداً ، فان هذا ربما كان عسيراً ، ولكني أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن ، ووجهة وحدتهم الدين ، وكل ذي ملك على ملكه يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع ، فان حياته بحياته ، وبقاءه ببقائه . ألا أن هذا بعد كونه أساساً لدينهم تقضي به الضرورة ، وتحكم به الحاجة في هذه الاوقات ،

هذا آن الانفاق . هذا آن الاتفاق . ألا أن الزمان يواسيكم بالفرص وهي لكم غنائم فلا تفرطوا . إن البكاء لا يحبي الميت . إن الأسف لا يبرد الفاتت . إن الحزن لا يدفع المصيبة . إن العمل مفتاح النجاح . إن الصدق والاخلاص سلم الفلاح . إن الوجل ، يقرب الاجل . إن اليأس وضعف الهمة من أسباب الختف (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون * ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) ألا لا تكونوا ممن كره الله انبعاثهم فبسطهم وقيل اقمعدوا مع القاعدین . احذروا أن تقعوا تحت قول الله (رضا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون) إن القرآن حي لا يموت ، ومن أصابه نصيب من حمده فهو محمود ، ومن أصيب بسهم من مقته

(٣٦ - تاريخ الاستاذ الامام - الجزء الثاني)

فهو ممقوت . كتاب الله لم ينسخ فأرجعوا اليه ، وحكموه في أحوالكم وطباعكم
(وما الله بغافل عما تعملون)

ولعل أمراء المسلمين ، قد وعظوا بسوء مغبة أعمال السالفين ، وهووا
بملافة أمرهم قبل أن يقضى عليهم بما رزىء به المفرطون من قبلهم ، ورجاؤنا
أن أول صيحة تبعث الى الوحدة ، وتوقظ من الرقدة ، تصدر عن أعلام مرتبة
وأقوام شوكية . ولا نرتاب في أن العلماء العاملين ستكون لهم اليد الطولى في هذا
العمل الشريف ، والله يهدي من يشاء ، والله الأمر من قبل ومن بعد

المقالة العاشرة

الوحدة والسيادة — أو الوفاق والغلب *

﴿ المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ﴾

أمران خطيران تحمل عليها الضرورة تارة ، ويهدي اليها الدين تارة
أخرى . وقد تفيدهما التربية وممارسة الآداب ، وكل منها يطلب الآخر
ويستصعبه ، بل يستلزمه ، وبهما نمو الأمم وعظمتها ورفعتها واعتلاؤها ، وهما
الميل الى وحدة تجمع ، والكاف بسيادة لا توضع . وإذا أراد الله بشعب أن
يوجد ويلقي بوانيهِ (يثبت ويقيم) الى أجل مسمى أودع في ضنائه (أصوله)
هذين الوصفين الجليلين ، فأنشأ خلقاً سوياً ، ثم استبقى له حياته بقدر ما مكن
فيه من الصفتين الى منتهى أجله

كل أمة لا تمد ساعدها لمغالبة سواها لتنال منها بالغلب ما تنمو به بنيتها ،
ويشدد به بناؤها ، فلا بد يوماً أن تقضم وتهضم وتضمحل ويمحى أثرها من
بسيط الأرض . إن التغلب في الأمم كالتغذي في الحياة الشخصية ، فإذا أهمل
البدن من الغذاء وقفت حركة النمو ، ثم ارتدت الى الذبول والنحول ، ثم أفضت

* نشرت في العدد العاشر من جريدة العروة الوثقى في ١٠ شعبان سنة ١٣٠١

إلى الموت والهلاك . وليس من الممكن لامة أن تحفظ قوامها ، وتصل على من يليها لتختزل منه ما يكون مادة لنماها ، الا أن تكون متفقة في تحصيل ما يحتاج اليه هيئتها . اذا أحسست من أمة ميلا الى الوحدة فبشرها بما أعد الله لها في مكنون غيبه من السيادة العليا والسلطة على متفرقة الأمم — اذا تصفحنا تاريخ كل جنس واستقرينا أحوال الشعوب في وجودها وفنائها وجدنا هذه سنة الله في الجمعيات البشرية ، حظها من الوجود على مقدار حظها من الوحدة ، ومبلغها من العظمة على حسب تطاولها في الغلب ، وما انحط شأن قوم وما هبطوا عن مكائهم الا عند هومهم بما في أيديهم ، وقناعتهم بما تسنى لهم ، ووقوفهم على أبواب ديارهم ينظرون طارقهم بالسوء ، وما أهلك الله قبلا الا بعد مارزوثوا بالاقتراق ، وابتلوا بالشقاق ، فأورثهم ذلا طويلا ، وعذابا وييلا ، ثم فناء سرمديا الوفاق تواصل وتقارب يحدنه احساس كل فرد من أفراد الأمة بمنافعها ومضارها ، وشعور جميع الآحاد في جميع الطبقات بما تكسبه من مجد وسلطان ، فيأخذ لهم كما يلد أشهى مرغوب لديهم ، وبما تفقده من ذلك ، فيألمون له كما يألمون لأعظم رزء يصابون به ، وهذا الاحساس هو ما يبعث كل واحد على الفكر في أحوال أمته ، فيجعل جزءاً من زمنه للبحث فيما يرجع اليها بالشرف والسؤدد وما يدفع عنها طوارق الشر والغيلة ، ولا يكون همه بالفكر في هذا أقل من همه بالنظر في أحواله الخاصة ، ثم لا يكون نظراً عميقاً حائراً بين جدران الحيلة ، دائراً على أطراف الألسنة ، بل يكون استبصاراً تتبعه عزيمة يصدر عنها عمل يثابر على استكمالها بما يمكن من السعة ، وما تحتمله القدرة على نحو ما يكون في استحصال مواد المعيشة بلا فرق ، بل تجد الأنفس أن شأن الأمة في المكان الأول من النظر ، والدرجة الأولى من الاعتبار ، والشؤون الخاصة في المنزلة الثانية منها . ولا تقف فيما تجد عند جلب المصالح ودرء المفاسد لأوقاتها الحاضرة ، بل يأخذ العقلاء منها سبلا من التفكير ، ويحترطون سيوفاً من الهمة ، ليصيبوا من سعيهم شوارد من القوة ، ونوادٍ من المكنة ، ويستخرجوا دفائن من الثروة ، ويجمعوا ذلك للأمة ، لصيانة حياتها الى حد العمر اللائق بها ، كما يسي الحازم جهده

لتوفير ما يلزم لمعيشتها ، وما يطمئن به قلبه في دفع حاجته مدة العمر الغالب ، بل يزيد عليه ما فيه الكفاية لأبنائه من بعده. وإن الدور الأول من أعمار الأمم لا ينقص عن خمسة قرون ثم تتلوه سائر الادوار وأولها أقصرها وهوسن الطفولية، وبدء الكمال فيما يليه ، فما أرفع همم العقلاء في الأمم المستبصرة .

إذا بلغ الاحساس من مشاعر أفراد الأمة الى الحد الذي يبناه ، رأيت في الدهماء منهم والخاصة هما تعلقو ، وشيا تسمو ، واقداما يقود ، وعزما يسوق ، كل بطلب السيادة والغلب ، فتتلاقى هممهم ، وتتلاحق عزائمهم في سبيل الطلب فيندفعون للتغلب على الذين يلونهم ، كما تندفع السيول على الرهاد ، ولا تقف حركتهم دون الغاية مما نهضوا اليه ، ويكون نزومهم على الأمم بعد الغلب الاول تدققاً من الطبع لا يحتاج الى فكر وروية إلا في إعداد وسائل الفوز والظفر .

هذان الأمران الوفاق والغلب عمادان قويان وركنان شديدان من أركان الديانة الاسلامية ، وفرضان محتومان على من يستمسك بها ، ومن يخالف أمر الله فيما فرض منها عوقب من مقتته بالخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة . جاء في قول صاحب الشرع أن « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً »^(١) وأن المؤمن ينزل من المؤمن منزلة أحد أعضائه اذا مس أحدها ألم تأثر له الآخر^(٢) وجاء في نهيه « لا تقاطعوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله اخواناً »^(٣) وأخذ من شد عن الجماعة بالخمران والهلوسة ، وضرب له مثل الشاة القاصية تكون فريسة للذئاب .

هذا كله بعد ما أمر الله عباده بالاعتصام بجملة ، ونهاهم عن التفرق والتغابن وأمتن عليهم بنعمة الاخوة بعد أن كانوا أعداء ، ونطق الكتاب الالهي (إنما

(١) حديث « المؤمن للمؤمن كالبنيان » الخ رواه الشيخان في الصحيحين وغيرهما
(٢) لفظ الحديث في هذا المعنى « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتماطفهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » رواه أحمد ومسلم في الصحيحين

(٣) لفظه في الصحيحين « لا تباغضوا ولا تدابروا ولا تنافسوا » الخ ما ذكره
وله ألفاظ أخرى عندها وعند غيرها

المؤمنون إخوة) وطلب من المخاطبين بآياته أن يبادروا باصلاح ذات البين عند التخالف، ثم شدد في وجوب الاصلاح وإن أدى الى مقاتلة الباغى فقال (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت احدهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله) وإنما أمر الله الدخول فيما اتفق عليه المؤمنون وتوحيد الكامة الجامعة (ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم اليينات) وأوعد الكتاب الأقدس كل من انحرف عن سبيل المؤمنين بالعقاب الأليم، فحكم بان من يتبع غير سبيل المؤمنين بوله ماتولى، ويصله جهنم وساءت مصيراً.

وفي أمره الصريح إيجاب التعاون على البر والتقوى، ولا برأحق بالتعاون عليه من تعزيز كلمة الحق وإعلاء منار الأئمة، وأخبر الصادق صلى الله عليه وسلم أن «يد الله مع الجماعة»^(١) وكفى بالقدره الالهية عوناً اذا صاح الاجتماع وصدقت الألفه، وقد بلغت مكانة الاتفاق في الشريعة الاسلامية أسنى درجة في الرعاية الدينية حتى جعل إجماع الأئمة واتفاقها على أمر من الأمور كاشفاً عن حكم الله وما في علمه، وأوجب الشرع الاخذ به على عموم المسلمين، واعد ججوده مروقا من الدين، وانسلاخا عن الايمان^(٢) ومن عناية الشارع بأمر الاتفاق قوله صلى الله عليه وسلم «لو دعيت الى حلف الفضول لفعلت» (حلف الفضول ماكان من هائم وزهرة وتيم حيث وفدوا على عبد الله بن جدعان وتحالفوا على أن يدفعوا الظلم ويأخذوا الحق من الظالم، وسمي حلف الفضول لانهم تحالفوا على أن لا يدعوا عند أحد فضلاً يزيد عن حقه ويكون نواله بالظلم إلا أخذوه منه وردوه لمستحقه) فهو من حلف الجاهلية، وقد صرح الشارع بقبوله لو دعي اليه. هذا

(١) رواه الترمذي بلفظ «مع الجماعة»

(٢) اجماع الامة الاسلامية كلها بالعمل على أمر من أمور الدين المراد هنا غير الاجماع الاصولي الذي هو اتفاق المجتهدين وان قل عددهم في أي عصر بعد عصر النبي (ص) على أمر - فهذا من المسائل الاجتهادية التي وقع فيها الخلاف من عدة وجوه. والاول يستلزم كون المجمع عايه معلوما من الدين بالضرورة لعدم خلاف احد فيه واعما بعد في جهله حديث العهد بالاسلام ومن لم يش بين الإامة

إجمال الأدلة على وجوب الاتفاق وحظر المنازعة والمغاينة بين المسلمين ، بل وبينهم وبين غيرهم ممن رضي بدمتهم وقبل جوارهم بالمعروف في شرعهم ، فإن سبيل المؤمنين يسعه ولا يضيق عنه *

وأما السعي لاعلاء كلمة الحق وبسطة الملك وعموم السيادة ، فلا تجرد آية من آيات القرآن الشريف ألا وهي داعية اليه ، جاهرة بمطالبة المسلمين بالجد فيه ، حاظرة عليهم أن يتوانوا في أداء المفروض منه . ومن الأوامر الشرعية أن لا بدع المسلمون تنمية ملتهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، وفي السنة المحمدية والسيرة النبوية مما يضافر آيات القرآن ما جمعه العلماء في مجلدات يطول عددها - هذا حكم ديننا لا يرتاب فيه أحد من المؤمنين به والمستمسكين بعروته .

هل يمكن لنا ونحن على ما نرى من الاختلاف والركون الى الضيم أن ندعي القيام بفروض ديننا ؟ كيف ومعظم الاحكام الدينية موقوف اجراؤه على قوة الولاية الشرعية ، فان لم يكن الوفاق والميل الى الغلب فرضين لذاتهما أفلا يكونان مما لا يتم الواجب إلا به ؟ فكيف بهما وهما ركنان قامت عليهما الشريعة كما قدمنا ؟ هل لنا عذر نقيمه عند الله يوم العرض والحساب يوم لا تنفع فيه خلة ولا شفاعة بعد هدم هذين الركنين ؟ وأيسر شيء علينا إقامتها وعددينا مثتا مليون أو يزيد ؟ هل يتيسر لنا اذا خلونا بأنفسنا وجادلتنا ضمائرنا أن نتعها ونرضيها بما نحن عليه الآن ؟

كل هذه الرزايا التي حطت باقطارنا ، ووضعت من أقدارنا ، ما كان قاذفنا بيلائها ورامينا بسهامها إلا اقتراقنا وتدابرننا والتقاطع الذي نهانا الله ونبيه عنه . لو أدينا حقوقاً تطالبنا بها تلك الكلمة التي تهمل بها الأستتاء ، وتطمئن قلوبنا بذكرها ، وهي كلمة الله العلياء ، هل كان يمكن للغرباء أن يمزقوا ممالكنا كل ممزق ، وهل كان يلمع سيف العدوان في وجوهنا ، وهل كنا نشيم نيران الاعداء إلا وأقدامنا في صياصيمهم ، وأيدينا على نواصيمهم ، ؟ ان لأبناء الملة الاسلامية يقيناً بما جاء به شرعهم ، لكن أليس على صاحب اليقين بدين أن يقوم بما فرض الله

عليه في ذلك الدين؟ (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) (ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) ولا ريب في أن المؤمن يسره أن يعلمه الله صادقا لا كاذبا، وأي صدق تظهره الفتنة ويمتاز به الصادق من الكاذب إلا الصدق في العمل؟ هل يود المسلم لو يعمر ألف سنة في النذل والهوان وهو يعلم أن الازدراء بالحياة الدنيا دليل الايمان؟ أنرضى ونحن المؤمنون وقد كانت لنا الكلمة العليا أن تضرب علينا الذلة والمسكنة، وأن يستبد في ديارنا وأموالنا من لا يذهب مذهبنا، ولا يرد مشربنا، ولا يحترم شريعتنا، ولا يرقب فينا إلا ولا ذمة، بل أكبر همه أن يسوق علينا جيوش الفناء حتى يحلّي منا أوطاننا، ويستخلف فيها بعدنا أبناء جلده والجالية من أمته؟ لا . لا . إن المحلّصين في إيمانهم الواثقين بوعد الله في نصر من ينصر الله الثابت في قوله (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) لا يتخلفون عن هذا أموالهم وبيع أرواحهم، والحق داع والله حاكم والضرورة قاصية، فابن المهر، المبصر ببور الله يعلم أنه لا سبيل لنصر الله وتعزيز دينه إلا بالوافق وتعاون المحلّصين من المؤمنين. هل يسوغ لنا أن نرى أعلامنا منكسة، وأملاكنا ممزقة، والقرعة تضرب بين الغرباء على ما بقي في أيدينا ثم لا نبدي حركة، ولا نجتمع على كلمة، وندعي مع هذا أننا مؤمنون بالله وبما جاء به محمد؟ واخجلناه لو خطر هذا بيا لنا ولا أظنه يحظر بيال مسلم يجري على لسانه شاهد الاسلام

إن الميل للوحدة والتطلع للسيادة وصدق الرغبة في حفظ حوزة الاسلام كل هذه صفات كامنة في نفوس المسلمين قاطبة، ولكن دهام بعض ما أشرنا اليه في أعداد ماضية فألهام عما يوحى به الدين في قلوبهم وأذهلهم أزمانا عن سماع صوت الحق يناديهم من بين جوارحهم، فسهوا وما غووا، وزلوا وما ضلوا، ولكنهم دهشوا وتاهوا، فمثلهم مثل جوارب المجاهيل من الارض في الليالي المظلمة، كل يطلب عوننا وهو معه ولكن لا يهتدي اليه، وأرى أن العلماء العاملين لوجهوا فكرتهم لا يصال أصوات بعض المسلمين إلى مسامع بعض لا يمكنهم أن يجمعوا بين أهوائهم في أقرب وقت وليس بعسير عليهم ذلك بعد ما اختص الله من

يقاع الأرض بينه الحرام بالاحترام وفرض على كل مسلم ان يحجه ما استطاع وفي تلك البقعة يحشر الله من جميع أجيال المسلمين وعشائرهم وأجناسهم فما هي إلا كلمة تقال بينهم من ذي مكالة في نفوسهم تهتز لها أرجاء الأرض وتضطرب لها سواكن القلوب . هذا ما أعدتهم له العقائد الدينية فان أضفت اليه ما أذاب قلوبهم من تعديت الأجنبي وما ضاقت به صدورهم من غارات الغرباء على بلادهم حتى بلغت أرواحهم التراقي ذهبت إلى أن الاستعداد بلغ من نفوس المسلمين حداً يوشك أن يكون فعلاً وهو مما يؤيد الباحثين في هذا المقصد ويهيء لهم فوزاً ونجاحاً بعون الله الذي ماخاب قاصده وهو ربي اليه أدعو واليه أنيب .

المقالة الحادية عشرة

استعانة الفاتحين على الأمم بأمرائها ورؤسائها *

(ان في ذلك لعبرة لأولي الابصار)

كيف يمكن لقوة أجنبية تصول على أمة من الأمم ان تسود عليها وتستعبد لها وتذللها للعمل في منافعها مع التخالف في الطباع والعوائد والأفكار ووجود المتناومة الطبيعية فضلاً عن الارادية . ان الوحشة المتمكنة في نفس كل واحد من الأمة وظن كل فرد انه في خطر على روحه وماله إذا غلبه الغالبون تحمله على المدافعة كما يدافع عن بيته وحرمة فلا يتسنى للقوة المغيرة ان تذلل الأمة إلا باقتنائها عن آخرها أو انفساء الأغلب حتى لا يبق إلا العجزة والزمنى . هذا أمر طبيعي وحكم بديهي متى كانت الغارة على الأمة . نعم يسهل للقوة الأجنبية ان تغلب على أمة عظيمة بدون تناحر ان كان لهذه الأمة حاكم أو رئيس روحاني يجتمع عليه قلوبها وتدين له رقابها لمنزلة له في افئدة أبنائها ولمكان ابائه من الكرامة في

نفوسهم فلا تحتاج القوة الغالبة إلا لايقاع الرعب في قلبه فيجبن ويقبل ماتحكماً به أو نصب حباله الخليل له فتحذعه بالأمانى والآمال فيذعن لما تقضي به فإذا خضع للقوة الغريبة خضعت الأمة تبعاً له . ولهذا ترى طلاب الفتوح وبقاة الغلب ينصبون قبل سوق الجيوش وقود الجنود على قلوب الأمراء وأرباب السيادة في الأمة التي يريدون التغلب عليها فيخلعونها بالتهديد والتخويف أو يملكونها بالخدعة وتزيين الأمانى فينالون بغيتهم ويأخذون أراضي الأمم . وهذا الطريق هو الذي سلكه الانكايز مع السلطان التيموري في الهند ولولا ما كان للهنديين من عقدة الارتباط بسلطاتهم التيموري وقبض الانكليز أول الامر على تلك العقدة لما تيسر للبريطانيين ان يخضعوا الأمم الهندية في أحقاب طويلة .

هذه قبائل الافغان عندما انحلت ثقمتها بأمرها وصار الامر إلى الأما قامت كل عشيرة بل كل فرد للدفاع عن نفسه بعد ما تمكنت عساكر الانكليز في قلاعهم وحصونهم واستولت على قاعدة ملكهم وفتكوا بالعساكر الانكليزية وهزموا قوتها وأجلوها عن بلادهم وهي ستون الفاً من الجيوش المنتظمة مسلحة بالأسلحة الجديدة واضطر الانكليز ان يتركوا تلك البلاد لأهلها .

لا ريب انه يسهل على الانسان ان يأخذ شخصاً واحداً أو أشخاصاً محصورين بالترغيب والتهديد ويتيسر له أن يقف على طباعهم ويدخل عليهم من مواقع أهواهم ويأتيهم من أبواب رغائبهم ، لكن يتعسر بل يتعذر عليه أن يأخذ أمة بتمامها وعقولها مختلفة عليه نفوسها في وحشة منهم اللهم إلا بالابادة والتدمير . من هذا نجد الملوك العظام لا يرهبون الاشتباك في حرب مع اقتالهم بل ومن هو أشد منهم قوة ، ولكنهم يفرقون بل تذهب أفئدتهم هواء إذا أحسوا بميل الأمة عنهم ، وما هذا الا لأن قوة المغالين داخلة تحت الضبط

واما آحاد الامم وقواها فلا تضبط ولا تستطاع مقاومتنا اذا تعاضت وشحت بنفسها عن الذل لسواها

ان الامراء كما يكونون في دور من أدوار الأمة قوى فعالة لنموا وعلوها وعظمتها واشتداد عضدها كذلك يكونون في بعض أطوارها علة فاعلة في سقوطها

وهبوطها وانحلالها، وانا نخاف ولا حول ولا قوة الا بالله ان يكون أمرنا والأعلون
من آلة في اضمحلالنا وفنائنا لما غاب عنا يوم من اترف والانهماك في اللذائذ
والانكباب على الشهوات مع سقوط الهمة وتغلب الجبن والحرص والطمع على
طبايعهم فانا لله وانا اليه راجعون

المقالة الثانية عشرة

الامل وطلب المجد *

(انه لا يياس من روح الله الا القوم الكافرون * ومن يقنط من
رحمة ربه الا الضالون)

تلك آيات الكتاب الحكيم ، تنبيء عن سر عظيم ، اختص الله به الانسان ،
ورفعه به على سائر الالكوان ، ليلبغ به المقام المحمود ، وبحوز ما أعدته له العناية
الالهية من الكمال اللائق به . راجع نفسك ، واصغ لمناجاة سرك ، تجد في
وجدانك ميلا قوياً وحرصاً شديداً يدفعك الى طلب المجد وعلو المنزلة في قلوب
أبناء جنسك ، ثم ارفع بصرك الى سواد أمة بجاهها تجد مثل ذلك في كليتها كلهم
في آحادها ، تتبغى رفعة المسكنة في نفوس الأمم سواها . ذلك أمر فطري جبل
الله عليه طبيعة هذا النوع منفرداً ومجتمعاً : ليس من السهل على طالب المجد أن
يصل الى ما يطلب ولكنه يلاقى في الوصول اليه وعراً في السبل ، وعقبات تصد
عن المسير ، ومع هذا فلا يضعف حرصه ، ولا ينقص ميله . يقطع شعابا ، ويعاني
صعابا ، حتى يرق ذروة المجد ، ويتسنى شاهق العزة ، ولو قام في وجهه مانع عن
الاسترسال في مسيره والتجأ للسكون رأته يتملئ ويتضجر كأنما يتقلب على
الرمضاء . لو سبر الحكيم الخبير أعمال البشر ، ونسب كل عمل الى غاية العامل

(* نشرت في العدد الحادي عشر من جريدة العروة الوثقى في ٢٥ شعبان

سنة ١٣٠١ و ١٩ يونيو سنة ١٨٨٤

منه ، رأى أن معظمها في طلب الكرامة وعلو المقام ، كل على حسبه وما يتعلق
 منها بتقويم المعيشة ليس شيئاً مذكوراً بالنسبة لما يتعلق بشؤون الشرف . هذه
 خلة ثابتة في الكفاة من كل شعب على اختلاف الطبقات من أرباب المهن الى
 أصحاب الأمر والنهي ، كل ينافس أهل طبقتة في أسباب الكرامة بينهم ، ويأنف
 من وضعته فيهم ، ويحرص على ما يحمله في قلوبهم محل الاعتبار ، حتى اذا بلغ
 الغاية مما به الرفعة عندهم ، تخطى حدود تلك الطبقة ودخل في طبقة أخرى ،
 ونافس أهلها في الجاه ، ولا يزال يتبع سيره مادام حيا بمخطر في بسيط الارض
 ذلك لأن الكمال الانساني ليس له حد ، ولا تحده نهاية . وليس في استطاعة
 أحد من الناس أن يقنع نفسه ويعتقد أنه بلغ من الكمال حداً ليست بعده غاية
 سبحانه الله ، ماذا أخذت محبة الشرف من قلب الانسان ، وماذا ملكت من
 أهوائه ؟ بعدة ثمرة حياته وغاية وجوده ، حتى إنه يحتقر الحياة عند فقده والعجز
 عن دركه ، أو عند مسه والخوف من سلبه - رأيت أن فقيراً ذا أسمال لا يؤبه له
 اذا اعتدى عليه من تطول يده اليه بفعلة تهيئه أو قذفة تشينه يغلبه الغضب للدفاع
 عن المنزلة التي هو فيها ، فيرتكب مخاطرة ربما تفضي به الى الموت ، وأن القذف
 أو الاهانة ما تقصت من طعامه ولا شرابه ، ولا خشيت مضجعه في ميته -
 آلاف مؤلفة من الناس في الأجيال المختلفة والأجناس المتنوعة ألقوا بأنفسهم
 الى المهالك ، وماتوا دفاعاً عن الشرف أو طلباً للكرامة والمجد - جل شأن الله
 لا يهناً للانسان طعام ولا شراب ، ولا يابن له مضجع ، إلا أن يلحظ فيه أن
 مانال منه أعلى مما نال سواه ، مع وقوف بعض من الناس على ذلك ليعترفوا له
 بالأعلوية فيه ، كأن لذة التغذية والتوليد انما وضعت لتكون وسيلة للذة المباحة
 والمفاخرة . فما ظنك بسائر اللذات ؟

كم يعاني الانسان من التعب البدني ، وكم يقاسي من مشاق الأسفار ، وكم
 يحاطر بروحه في اقتحام الحروب والمكالحات ، وكم يحتمل في الاقطاع عن اللذات
 مع التمكن منها ، كل ذلك لينال شهرة أو ليكسب فخراً أو ليحفظ ما آتاه الله
 منه . ما أجل عناية الله بالانسان ، لا يعيش الا ليشرف فيشرف به العالم ، وكل

لذة له دون الشرف فهي وسيلة اليه ، بل الحياة الدنيا هي السبيل الوعرة يسلكها
الحي الى ما يستطيع من المجد ، وفي نهاية الأجل يفارقها قري العين بما قارب
منه ، آسف الفؤاد على ما قصر عنه

ما هو المجد الذي يسمى اليه الانسان بالالهام الآسهي ، ويخوض الاخطار
في طلبه ، ويقارع الخطوب في تحصيله ؟ هو شأن تعترف النفوس لصاحبه
بالسوؤدد ، وتدعن له بالاعتلاء ، وتلقي اليه قياد الطاعة ، يكون هذا له ولكل
من يدخل في نسبه اليه من ذوي قرابته وعشيرته وسائر أمته ، فتتفد كالمته
وكلمة المتصلين به ، والملتحمين معه في شؤون من سواهم ، وهو أعظم مكافأة
من العزيز الحكيم على معاناة الأوصاب لتحصيل ذلك الشأن في هذه الحياة الاولى .
فما كان يحسبه طالب المجد عائداً الى نفسه بالمنفعة ، يبارك فيه مدبر الكون ،
فيفيض خيره على بني جلدته أجمعين . واها ! تلك حكمة بالغة : اذا نال الواحد
من الأمة مطلبه من المجد نالت الامة حظها من السوؤدد . نعم وهل نال مانال الا
بمعونة سائر الأحاد منها (ذلك تقدير العزيز العليم) ماذا يستطيع الجاهد وحده ؟
وماذا يكسبه من سعيه ، إن لم يكن له أعضاء من بني قبيله ؟ فن كان همه أن يصعد
الى عرش العزة ، ويرقى الى ذروة السيادة ، فعليه أن يهيء نفسه والمنتمين اليه
لتحصيل كل ما يعد في العالم فضيلة وكالا . ما أصعب القيام بخدمة هذا الميل
القطري والالهام الآسهي ! وما أشد ما تحتمل النفوس في قضاء بعض الوطرمما
يتصل به ! وما أعظم الحامل للأففس على تجشم المضاعب لنيل ما تميل اليه من
هذا الأمر الرفيع ! ما هذا الباعث الشريف الذي يسهل على الأرواح كل
صعب ، ويقرب كل بعيد ، ويصغر كل عظيم ، ويلين كل خشن ، ويسليها عن
جميع الآلام ، ويرضيها بالتعرض للتهلكة ومفارقة الحياة ، فضلا عن بذل كل
نفيس ، والسماح بكل عزيز ؟ هذا الباعث الجليل ، وهذا الموجب للفعال هو :

الامل

الامل ضياء ساطع في ظلام الخطوب، ومرشد حاذق في بهاء الكروب، وعلم هادف في مجاهيل المشكلات، وحاكم قاهر للعزائم اذا اعترتها قفرة، ومستفز للهمم إن عرض لها سكون، ليس الأمل هو الأمنية والتشهي اللذان يلحهما الذهن تارة بعد أخرى، ويعبر عنهما بايت لي كذا من الملك وكذا من الفضل، مع الركون الى الراحة والاستلقاء على الفراش، واللهو بما يبعد عن المرغوب، كأن صاحبها يريد أن يبدل الله سنته في سير الانسان عناية بنفسه الشريفة أو الخسيسة، فيسوق اليه ما يهجن بخاطره بدون أن يصيب تعباً أو يلاقي مشقة. إنما الأمل رجاء يتبعه عمل، ويصعبه حمل للنفس على المكاره، وعرك لها في المشاق والمتاعب، وتوطئها لملافة البلاء بالصبر، والشدائد بالجلد، وتهوين كل ملم يعرض لها في سبيل الغرض من الحياة، حتى يرسخ في مداركها أن الحياة لغو اذا لم تغدّ بنيل الأرب، فيكون بذل الروح أول خطوة بخطوها المقاصد، فضلاً عن المال الذي لا يقصد منه الا وقاية بناء الحياة من صدمات حوادث الكون. وكما كان الميل للرفعة أمراً فطرياً، كذلك كان الأمل وثقة النفس بالوصول الى غاية سعيها من ودائع الفطرة، غير أن ثبوتها في فطرة عموم البشر كان داعياً للعزائم والممانعات، فان كمل واحد بما أودع في جبلته يطلب الكرامة والتمكن في قلب الآخر، فكل طالب مطلوب، ولم يبلغ سعة العقل الانساني الى درجة تعين لكل فرد من الأفراد عملاً تكون له به المنزلة العليا في جميع النفوس، غير ما يكون به للآخر مثل تلك المنزلة، حتى يكون جميعهم انجاء شرفاء بما يأتون من أعمالهم، ولكنهم تزاخموا في الأعمال، كما تزاخموا في الآمال والأهواء، ومسالكهم ضيقة، ومشارعهم ضنكة، فنشأت تلك المقاومات والمصادمات بين النوع البشري، حكمة من الله يعلم الذين جاهدوا ويعلم الصابرين — فاذا توالى الصدام على شخص أو قوم حدث في الهمم ضعف

وأصابها انحطاط ، وحصل الفساد في هاتين الخلتين الشريفتين (الرجاء وطلب المجد) كما يحصل الفساد في سائر الأخلاق الفاضلة بسوء التربية . وربما يؤول الضعف الى اليأس والقنوط (نعوذ بالله منها)

ماذا يكون حال القانطين المنقطعة آمالهم ؟ يحكمون على أنفسهم بالحطة ، ويسجلون عليها العجز عن كل رفعة ، فيأتون الدنيا ويتعاطون الرذائل ، ولا ينفرون من الالهانة والتحقير ، بل يوطنون أنفسهم على قبول ما يوجه اليهم من ذلك أياً كان ، فتسلب منهم جميع الاحساسات والوجدانات الانسانية التي يمتاز بها الانسان على الانعام ، فيرضون بما ترضى به البهائم ، فلا يهتمون إلا بمجارات قبقيهم وذذبهم ، ثم ياليتهم يكونون هملاً وسوائب يرعون النبات ، ويتبعون مواقع الغيث ، ولكنهم وإن تركوا العمل لأنفسهم ، فإله تعالى يسלט عليهم من يكافهم بالعمل غيرهم ، فيكونون كالجمال الحاملة لا تستفيد مما تحمل شيئاً ، وظيفتها أن تسمى وتشفى ليسعد غيرها ويستريح ، فيعالجون العمل في الفلاحة والصناعة وغيرهما من الاعمال الشاقة ، ويدأبون بأشد مما يدأب العامل لنفسه ، ثم لا يتألون مما يعملون شيئاً . ثمات كسبهم بأسرها محولة الى الذين سادوا عليهم بهمهم (هذا الذي يتجشمه الذليل في ذله من مشاق الاعمال ومعاناة المكاره لو تحمل بعضاً منه في طلب العزة لاصاب حظه منها) بل تصير درجة القانطين عند من سادوا عليهم أدنى من درجة الحيوانات العاملة ، فإن السائدين يشعرون بحكم البداة أن هؤلاء أسقطوا أنفسهم عن منزلة كانوا يستحقونها بمقتضى الفطرة الانسانية ورضوا لها بما دون حقاها ، بل بما لا يصح أن يكون من شأنها وكفروا نعمة الله في تكوينهم على الشكل الانساني وإبداعهم ما أودع في أفراد الانسان فيعاملهم أو تلك السادات بما لا يعاملون به ما يقتنون من الحيوانات ، ولنا على ذلك شاهد العيان في الأمم التي أدركها اليأس وسقطت في أيدي الاجانب

ونظن أن يوجد أقوام آخرون سامهم ساداتهم في الزمن السابق ويسومونهم الآن ما لا تسام به السوائم الراعية وهم على القرب منا وليسوا ببعيد عنا .
عجبا كيف تتبدل أحكام الجبلية وكيف يمحي أثر الفطرة ؟ كيف تسفل النفس

حتى لا تطلب رفعة ، وكيف تقنط حتى لا يكون لها أمل ، والامل وحب الكرامة طبيعيان في الانسان ؟ بعد إيمان النظر نجد السبب في ذلك ظن الانسان أن جميع أعماله إنما تصدر عن قدرته وإرادته بالاستقلال وأن قوته هي سلطان أعماله وليس فوق يده يد تمده بالمعونة أو تصده بالقهر ، فاذا صادفته الموانع مرة بعد أخرى وقطعت عليه سبيل الوصول رجع الى قدرته فوجدها فانية ، وقوته فراها واهنة ، فيعترف بوهنه ، ويسكن الى عجزه ، فييأس ويقنط ، وبذل ويسفل ، اعتقاداً منه بأنه لا دافع لتلك الموانع التي تعاصت على قدرته ، ومتى كانت قوة المانع أعظم من قوته فلا سبيل الى العمل لاستحالة قهر المانع، فينقطع الأمل فيقع في الشقاء الابدي .

أما لو أيقن بان لهذا الكون مدبراً عظيم القدرة تخضع كل قوة لعظمته ، وتدين كل سطوة لجبروته الاعلى ، وأن ذلك القادر العظيم بيده مقاليد ملكه يصرف عباده كيف يشاء لما أمكن مع هذا اليقين أن يتحكم فيه اليأس ، وتقتال آماله غائلة القنوط ، فان صاحب اليقين لو نظر الى ضعف قدرته لا يفوته النظر الى قوة الله التي هي أعلى من كل قوة فيركن اليها في أعماله ، ولا يجيد اليأس الى نفسه طريقاً ، فكلمها تعانقت عليه الشدائد زادت همته انبعاثاً في مدافعها معتمداً على أن قدرة الله أعظم منها . وكلما أغلق في وجهه باب فتحت له من الركون الى الله أبواب ، فلا يمل ولا يكل ، ولا تدركه السامة ، لاعتقاده أن في قدرة مدبر الكون أن يقهر الأعداء ، ويلتقي قيادهم الى الاذلاء ، وأن يدك الجبال ، ويشق البحار ، ويمكن الضعفاء ، من نواصي الاقوياء . - وكما كانت لقدرة الله من هذه الآثار ؟ - فتشتد عزيمته ويدأب فيما كلفه الله من السعي لنيل الكمال والفوز بما أعده الله له من السعادة في الاولى والآخرة . وما كان لموقن بالله وبقدرته وعزته وجبروته أن يقنط وييأس ، ولهذا أخبر الله تعالى عن الواقع والحقيقة التي لا ريب فيها بما قال وهو أصدق القائلين (انه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون) وبما حكى من قول نبيه ابراهيم (ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) فقد جعل الله اليأس والقنوط دليلاً على الكفر والضلال ، ومن أن

يطرق اليأس قلباً عقد على الايمان بالله وبقدرته الكاملة .

لهذا نقول أن المسلمين لا يسمح لهم يقينهم بالله وبما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام أن يقنطوا من رحمة ربهم في إعادة مجدهم مع كثرة عددهم ، ولا يسوغ لهم ايمانهم أن يرضخوا^(١) للدل ويرضوا بالاضيم، ويتقاعدوا عن إعلاء كلمتهم وهم الى الان محفوظون مما ابتلي به كثير من الأمم ، فان لهم ملوكا عظاما ، ولا يزال في أيديهم ماك عظيم على بسيط الارض ، وإن من الحق أن نقول : إن أبواب رحمة الله مفتحة لديهم وما عليهم سوى أن يلجوها ، وإن روح الله نافحة عليهم وما يلزمهم سوى أن يستنشقوها ، والفرص دائماً تمد أيديها اليهم تطلب انهاضهم وتنبه غافلهم وتوقظ نائمهم ، وليس عليهم في استرجاع مكائهم الاولى والصعود الى مقامهم الاول إلا أن يجمعوا كلمتهم ، ويتعاونوا على ما يقصدون من إعزاز ملتهم ، وذلك أيسر ما يكون عليهم، بعد تمكن الجامعة الدينية بينهم ، فأبي موجب لليأس وأي داع للقنوط وبين أيديهم كتاب الله الناظر بأن اليأس من أوصاف الضالين ؟ وهل توجد واسطة بين الرشد والغي ؟ (فإذا بعد الحق إلا الضلال) هل يكون للقائطين فيهم من عذر ؟ أيرضون بالعبودية للأجانب بعد تلك السيادة العليا ؟ ماذا يتفنون من الحياة إن كانت في ذل وإهانة وفقير وفاقة وشقاء دائم بيد عدو غاشم ؟ أيطمئنون وهم بين أجنبي حاكم ، وبغيض شامت ، ومقبح غبي ، ومشنع ذني ، ومعير خسيس ، يرمونهم بضعف العقول ونقص الاستعداد ، ويحكمون بأن محالاً عليهم أن يصيروا أمة في عداد الأمم ؟ اذا لم ينسلخ الانسان عن كل خاصة انسانية كيف يرضى بحياة مكتنفة بكل هذه التعاسات والمكدرات ؟ أينسون أنهم كانوا الاعلى في الارض وما طال على ذلك الزمان ، ولا محبت التواريخ ولا عفت الآثار ، ولا اضمحلت بالكلية شوكة المسلمين من وجه الارض ؟

إن كان للعامة عذر في الغفلة عما أوجب الله عليهم فأبي عذر يكون للعلماء وهم حفظة الشرع والراسخون في علومه ؟ لم لا يسعون في توحيد متفرق المسلمين ؟ لم لا يبذلون الجهد في جمع شملهم ؟ لم لا يفرغون الوسع لاصلاح ما فسد من ذات بينهم ؟

(١) الوجه ان يقال يخضوا أو يخضعوا

لم لا يأتون على ما في الطاقة لتقوية المسلمين وتذكيرهم بوعود الله التي لا تخلف لمن صدق في طاعته واليقين به ، وتبشيرهم بهبوب روح الله على أرواحهم ؟ بلى إن قوماً شرح الله صدورهم للإيمان قاموا بهذا الأمر في مواقع مختلفة من الارض ، يجمع التواصل بينها عقدة واحدة ، إلا أن أملنا في بقية المسلمين أن يتفقوا معهم ويقوموا بتعريضهم ، ليتمكن الجميع من نصر الله (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)

المقالة الثانية عشرة

رجال الرونة وبطانة الملك

كيف يجب أن يكونوا (*)

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون)

قالوا تصان البلاد ومحرم الملك بالبروج المشيدة، والقلاع المنيعة، والجيوش العاملة ، والأهب الوفرة ، والأسلحة الجيدة ، قلنا نعم هي أحرار وآلات لا بد منها للعمل فيما بقي البلاد ولكنها لا تعمل بنفسها ، ولا تجر من بذاتها، فلا صيانة بها ولا حراسة إلا أن يتناول أعمالها رجال ذوو خبرة، وأولوا رأي وحكمة، يتعهدونها بالاصلاح زمن السلم ، ويستعملونها فيما قصدت له زمن الحرب، وليس بكاف حتى يكون رجال من ذوي التدبير والحزم وأصحاب الحنق والدراية يقومون على سائر شؤون المملكة ، يوطئون طرق الأمن ، ويسيطون بساط الراحة، ويرفعون بناء الملك على قواعد العدل ويوقفون الرعية عند حدود الشريعة ثم يراقبون روابط المملكة مع سائر الممالك الأجنبية ليحفظوا لها المنزلة التي تليق بها بينها، بل يجمعوها

(*) نشرت في العدد الحادي عشر أيضا

على أجنحة السياسة القويمة إلى أسمى مكانة تمكن لها، ولن يكونوا أهلاً للقيام على هذه الشؤون الرفيعة حتى تكون قلوبهم فائضة بمحبة البلاد طامحة بالمرحمة والشفقة على سكانها، وحتى تكون الحمية ضاربة في نفوسهم آخذة ببطاعهم، يجدون في أنفسهم منبها على ما يجب عليهم، وزاجراً عما لا يليق بهم، وغضاضة وألماً موجهاً عند ما يمس مصلحة المملكة ضرر، ويوجس عليها من خطر، ليتيسر لهم بهذا الاحساس وتلك الصفات أن يؤديوا أعمال وظائفهم كما ينبغي ويصونها، الخلل الذي ربما يفضي قليلاً إلى فساد كبير في الملك. فيؤلا، الرجال بهذه الخلال هم المنعة الواقية والقوة الغالبة. يسهل على أي حاكم في أي قبيل أن يكتب الكتاب ويجمع الجنود ويوفر العدد من كل نوع بنقد النقود وبذل النققات؟ ولكن من أين يصيب بطانة من أولئك الذين أشرنا إليهم: عقلاء رحماء، أبابة أصفياء، تهمهم حاجات الملك كآتهمهم ضرورات حياتهم؟ لا بد أن يتبع في هذا الأمر الخطير قانون الفطرة، ويراعى ناموس الطبيعة، فإن متابعة هذا الناموس تحفظ الفكر من الخطأ وتكشف له خفيات الدقائق، وقلما يخطئ، في رأيه أو يتأود في عمله من أخذ به دليلاً، وجعل لمن هديه مرشداً. وإذا نظر العاقل في أنواع الخطأ التي وقعت في العالم الانساني من كلية وجزئية وطلب أسبابها لا يجد لها من علة سوى الميل عن قانون الفطرة والانحراف عن سنة الله في خلقه.

من أحكام هذا الناموس الثابت ان الشفقة والمرحمة والحمية، والنصرة على الملك والرعية، إنما تكون لمن له في الأمة أصل راسخ ووشيح يشد صلته بها. هذه فطرة فطر الله الناس عليها: ان الملتحم مع الامة بعلاقة الجنس والمشرع يراعي نسبه اليها ونسبتها اليه ويراه لا يخرج عن سائر نسبه الخاصة به فيدافع الضيم عن الداخلين معه في تلك النسبة دفاعه عن حوزته وحرمة (راجع رأيك فيما تشهده كثيراً حتى بين العامة عند ما يرمي أحدهم أهل البلد الآخر أودينه بسوء على وجه عام كسوري ينتقد المصريين أو مصري ينتقد السوريين) هذا إلى ما يعمله كل واحد من الامة أن ماتناله أمته من الفوائد يلحقه حظ منها وما يصيبها من الازراء يصيبه سهم منه، خصوصاً ان كان بيده هامات أمورها، وفي قبضته زمام التصرف

فيها، فان حظه (حينئذ) من المنفعة أوفر، ومصيبته بالمضرة أعظم، وسهمه من العار الذي يلحق الأمة أكبر، فيكون اهتمامه بشؤون الامة التي هو منها وحرصه على سلامتها بمقدار ما يؤمله من المنفعة أو يخشاه من المضرة .

فعلى ولي الامر في مملكة أن لا يكل شيئاً من عمله الا الى أحد رجلين إما رجل يتصل به في جنسية سالمة من الضعف والتمزيق موقرة في نفوس المتظمين فيها محترمة في قلوبهم يحملهم توقيرها واحترامها على التغالي في وقايتها من كل شين يدنو منها ولم توهن روابطها اختلافات المشارب والاديان وإما رجل يجتمع معه في دين قامت جامعته مقام الجنسية بل فاقت منزلته من القلوب منزلتها كالدين الاسلامي الذي حل عند المسلمين وان اختلفت شعوبهم محل كل رابطة نسبية فان كلا من الجامعتين (الجنسية على النحو السابق والدينية) مبدآن للحماية على الملك ومنشآن للغيرة عليه .

وأما الأجانب الذين لا يتصلون بصاحب الملك في جنس ولا في دين تقوم رابطة مقام الجنس، فمثلهم في المملكة كمثل الأجير في بناء بيت لا يمهه الا استيفاء أجرته ثم لا يبالي أسلم البيت أو جرفته السيل أو دكته الزلازل. هذا اذا صدقوا في أعمالهم يؤدون منها بمقدار ما يأخذون من الأجر واقفين فيها عند الرسم الظاهر، فان الواحد منهم لا يشرف بشرف الأمة الذي هو خادم فيها ولا يمه شيء مما يمهها من الضعة لانه منفصل عنها اذا فقد العيش فيها فارقها واريد الى منبته الذي ينتسب اليه ، بل هو في حال عمله وخدمته لغير جنسه لاصق بمنبته في جميع شؤونه ما عدا الأجر الذي يأخذه وهذا معلوم بيداهة العقل فلا يجد في طبيعته ولا في خواطر قلبه ما يبعثه على الخذر الشديد مما يفسد الملك أو الحرص الزائد على ما يبلي شأنه، بل لا يجد باعثاً على الفكر فيما يقوم مصلحته من أي وجه . هذه حالهم هي لهم بمقتضى الطبيعة لو فرضنا صدقهم وبراءتهم من أغراض أخرى، فما ظنك بالأجانب لو كانوا نازحين من بلادهم فراراً من الفقر والفاقة، وضربوا في أرض غيرهم طلباً للعيش من أي طريق وسواء عليهم في تحصيله صدقوا أو كذبوا وسواء وفوا أو قصروا ، وسواء راعوا الذمة أو خانوا ، أو لو كانوا مع هذا كاه يخدمون مقاصد

لأنهم يهدون لها طرق الولاية والسيادة على الأقطار التي يتولون الوظائف فيها (كما هو حال الأجانب في الممالك الإسلامية لا يجدون في أنفسهم حاملاً على الصدق والأمانة ولكن يجدون منها الباعث على الغش والحيانة) ومن تتبع التواريخ التي تمثل لنا أحوال الأئمة الماضية وتحكي لنا عن سنة الله في خلقته وتصريفه لشؤون عباده رأى أن الدول في نموها وبسطها ما كانت مصونة إلا برجال منها يعرفون لها حقها كما تعرف لهم حقهم وما كان شيء من أعمالها بيد أجنبي عنها وان تلك الدول ما انخفض مكانها ولا سقطت في هوة الانحطاط إلا عند دخول العنصر الأجنبي فيها، وارتقاء الغرباء إلى الوظائف السامية في أعمالها، فإن ذلك كان في كل دولة آية الخراب والدمار، خصوصاً إذا كان بين الغرباء وبين الدولة التي يتناولون أعمالها منافسات وأحقاد مزجت بها دماؤهم، وعجنت بها طينتهم من أزمان طويلة

نعم كما يحصل الفساد في بعض الاخلاق والسجاياء الطبيعية بسبب العوارض الخارجية كذلك يحصل الضعف والفتور في حمية أبناء الدين أو الأمة ويطرأ النقص على شفتهم ومرحمتهم فينقص بذلك اهتمام العطاء منهم بمصالح الملك إذا كان ولي الأمر لا يقدر أعمالهم حق قدرها، وفي هذه الحالة يقدمون منافعهم الخاصة على فرائضهم العامة، فيقع الخلل في نظام الأمة ويضرب فيها الفساد، ولكن ما يكون من ضرره أخف وأقرب إلى التلافي من الضرر الذي يكون سببه استلام الأجانب لهيئات الأمور في البلاد، لأن صاحب اللحمة في الأمة وإن مرضت أخلاقه واعتلت صفاته إلا أن ما أودعته الفطرة وثبت في الجبلة لا يمكن محوه بالكيفية فإذا أساء في عملهم مرة أزججه من نفسه صائح الوشيحة الدينية أو الجنسية فيرجع إلى الاحسان مرة أخرى، وإن ما شد بالقلب من علائق الدين أو الجنس لا يزال يجذبه أونة بعد أونة لمراعاتها والاتفات إليها، ويميله إلى المتصاين معه بتلك العلائق وإن بعدوا .

لهذا يحق لنا أن نأسف غاية الأسف على أمراء الشرق وأخص من بينهم أمراء المسلمين حيث سلموا أمورهم ووكلوا أعمالهم من كتابة وإدارة وحماية للأجانب عنهم، بل زادوا في موالاته الغرباء والثقة بهم حتى ولو هم خدمتهم الخاصة بهم في

بطون بيوتهم ، بل كادوا يتنازلون لهم عن ملكتهم في ممالكهم بعد مارأوا
 كثرة المطامع فيهم لهذا الزمان ، وأحسوا بالضعف والاحقاد الموروثة من أجيال
 بعيدة ، وبعد ما علمتهم التجارب أنهم اذا ائتمنوا خانوا ، واذا عززوا أهانوا ،
 يقابلون الاحسان بالاساءة ، والتوقير بالتحقير ، والنعمة بالكفران ، ويجازون
 على اللقمة باللطمة ، والركون اليهم بالجفوة ، والصلة بالقطيعة ، والثقة فيهم بالخدعة
 أما أن لأمرء الشرق أن يدينوا الأحكام الله التي لا تنقص ؟ ألم يأن لهم أن
 يرجعوا الى حسم ووجدانهم ؟ ألم يأت وقت يعملون فيه بما أرشدتهم الحوادث
 ودلتهم عليه الرزايا والمصائب ؟ ألم يحن لهم أن يكفوا عن تخريب بيوتهم
 بأيديهم وأيدي أعدائهم .

ألا أيها الأمرء العظام مالكم وللأجانب عنكم (ها انتم أولاء تحبونهم
 ولا يحبونكم) قد علمتم شأنهم ولم تبق ريبة في أمرهم (إن تمسكم حسنة تسؤهم
 وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها) سارعوا الى أبناء أوطانكم وإخوان دينكم وملتكم ،
 وأقبلوا عليهم ببعض ما تقبلون به على غيرهم تجددوا فيهم خير عون وأفضل نصير .
 اتبعوا سنة الله فيما ألهمكم وفطركم عليه كما فطر الناس أجمعين ، وراعوا حكته البالغة
 فيما أمركم وما نهاكم كيلا تضلوا ويهوي بكم الخطل الى أسفل سافلين ، ألم تروا ،
 ألم تعلموا ، ألم تحسوا ، ألم تجربوا ؟ إلى متى إلى متى ؟ إنا لله وإنا اليه راجعون .

المقالة الثالثة عشرة

كم حكمة لله في حب المحمودة الحقة (*)

العالم الانساني كتاب المعترف، وسفر المستبصر، وكل قرن من قرونه صفحة، وكل جيل من الناس سطر فيه أو جملة، ولنا في كل ماخطه القلم الالهي عبرة،

أول ما يفيدنا النظر فيه وقوفنا على أحوال الشعوب في أطوارها المختلفة، وأدوارها المتبدلة، فترى أمما علت وسمت وحلقت في جو المعالي وجازت في الرفعة مسارح النظر، ثم انحدرت بعد هذا وتدهورت وعفت رسومها، ولم يبق لها أثر إلا في الروايات والأحاديث. ومنها أجيال كانت في ثني العدم، ثم اكتست حلية الوجود، وأخذت من الاجتماع الانساني مكان الهامة من الجسد ثم انطوت وأخت عليها أمهات قشع. ومنها ما نراه الى اليوم يسحب مطارف العزة، ويشرف على العالم بالأمر والنهي من شواهد القوة فمن الناس من تتجلى له هذه الشؤون وتلك الأطوار كما تعرض عليه الصور والتماثيل ينبسط لبعضها إذا أعجبه، وينقبض للآخر إذا أنكره، وهو في غفلة من منشأ ظهورها وعلل انقلابها. فان سئل عن السبب قال: سبحان الله! هكذا كان وهكذا يكون، وما هو إلا نجت يسعد فيسعد به السعداء، وينحس فيتعس به الأشقياء.

ومنهم من تنفذ بصيرته الى الحقيقة فيقف على ماهيات الله من الاسباب التي تتبعها أحوال الأمم في صعودها وهبوطها، ويعلم أن ماسيق من الخير لأمة إنما كان بأيدي آحاد من أمثالها جدوا وجاهدوا، وبما بذلوا من نفائسهم وأنفسهم فازوا بتأصيل المجد لشعوبهم وبنو جنسهم، ويرى لأولئك الأعلام ذكر أيرفع،

(*) نشرت في العدد الثاني عشر من جريدة العروة الوثقى في ١٠ رمضان ١٣٠١

ومكانة من القلوب محمد ، وتميزاً عند الخلف بالكرامة ، وهم لم يخالفوا الناس في
جسومهم ودمائهم وإنما تقدموهم بهمهم ، وقد يسوقه الاعتبار الى الاقتداء بهم
رغبة في اقتطاف ثمار الثناء وتخليد الذكر ، فاذا أخذ مأخذهم واستقام على طريقهم
فلا يكاد يخطو بعض خطوات ومبدأ المسير تحت نظره ، حتى تتعثر أقدامه في أياد
مقطعة ، وروس مجذوزة ، وأشلاء مبددة ، وشعور منشورة ، وصدور مدقوقة ،
ويشهد الطريق مضرسة بقبور الشهداء من طلاب الحق والناهجين في منهاجه ،
ولا يحيص له عن سلوكها ، وتبدو له غابات وأدغال يرجع اليه منها صدى زئير
الآساد وزمجرة الضراغم ، ولا بد له من اختراقها

هكذا تنكشف لطالب المعالي موحشات مدهشات مصاولة ، المخاطر أدناها ،
والموت الشريف أقصاها وأعلاها ، فتارة يخور عزمه ، ويضعف همه ، فينكص
على عقبيه ، ويرتد الى أسوأ حاله ، ويرتج في مراتع أمثاله حتى يروح الى عطنه
الاولى به وهو العدم ، وتارة يوحى اليه الالهام الالهي ، أن الشخص في خاصته
والأثم في هيئاتها ، ونوع الانسان في مجموعه ، تطايبها صورة الابداع بأعمال شريفة
دونها اجهاد النفس في السعي وحملها على مالا تهوى ، ومغالبة الاهوال والعوائل ،
وفيما أودع الله الانسان من القوى العالية ، والخواص السامية ، أكبر مساعد على
ماتندفع اليه الهمة ، وتنبعث له العزيمة .

ان من أحياء الله بالحياة الانسانية كلما حاجته المصاعب لايزداد إلا حرصاً
على قهرها ، كما أن صاحب الشم لايزيده الخصام إلا حدة في الجدال واصراراً
على اقتناع المخاصم . وكثير ممن على شكل الانسان يحيا حياته هذه بروح
حيوان آخر وهو يعاني فيها من الشقاء أشد ما يعانيه الانسان في ابراز مزايا الانسان
إن صاعد الجبل ربما يجد شيئاً من التعب ويحشى مقترسة الكواسر ولكن
قد ينجو منها ويستريح على القنة ، ويعتصم بمكانة من الرفعة ، وتقصر عنه
يد المتناول . وأمان أخذ الى السفلى فحظه من الحياة خوف لا ينقطع واشفاق
لايزول . كل لحظة توعده بالسقوط في صيد الصائد ، والوقوع بين أياب الغائل .
مات من الناس كثير في طلب العلاء ولم ينالوا ، وبلغ كثير من الطالين غاية ما

أملوا ، ولكن هلك بالفتك أضعاف هؤلاء وهؤلاء من ربموا الخول ، ورضوا
 بالحياة الحيوانية — هذه أحاديث الحق ونفثات الروح الزكية تبعث من
 أيده الله ووهبه نعمة العقل الى مداومة السير واقتفاء أثر الماضين إلى أشرف
 المقاصد، فاما وصل وإمامات كما يموت الكرام

لم تنل أمة من الأمم مزية من المزايا المحمودة عند بني البشر ، سواء في
 العلوم والمعارف، أو الآداب والفضائل، أو القوانين والنواميس العادلة، أو العسكرية
 وقوة الحماية ، حتى خرج آحاد منها الى ماتخشاها النفوس وتمابه القلوب ، وسلكوا
 تلك المسالك الوعرة ، فبلغوا بأهمهم، أقصى ما بلغت بهم همهم، مع الاعتماد على
 العناية الالهية في جميع سيرهم

ماذا يريد العاؤون في خدمة الأمم أو النوع الانساني ، والمنفقون لحياتهم في
 أعمال فادحة يعود نفعها على من تجمعهم معهم جامعة الأمة أو الملة أو يشاركونهم
 في النوع ؟ أليس قد جعل الله لكل شيء سبباً ؟ أليس من سنة الله في عباده
 أن لا تتجه الارادة البشرية إلى حركة تصدر عن المرید الا بعد تصور غاية تعود
 الى ذاته ، وبعد اليقين أو راجح الظن بأنه يستفيد الغاية من العمل ؟ فان كان
 الأجل يذهب في مساورة الآلام الروحية ، والعمر ينفد في مناهضة الأوصاب
 البدنية . فإذا يقصدون من أعمالهم ؟ إن كان يوجد في أبناء جلدتهم ، وذوي
 ملتهم ، من يساعد حوادث الكون على إيلاهم ، وممانعتهم في مقاصدهم ،
 وصدّهم عن السعي فيما يرجع خيره الى أنفس المعارضين ، ويشخن فيهم جراح
 اللوم والتقريع، والشامة والتشنيع ، أو يدافعهم بالمكافحة والمنازلة ، فما الذي
 ينتفون من جدم وكدم ؟ لا لذة تجتني ، ولا ألم يتقي . فما هذا البعث القوي
 الذي غلب الأهواء، ولم يضعفه جهد البلاء ؟

نعم أودع الله في الانسان ميلا أقوى من كل ميل ، وهو أخص خاصة فيه
 يمتاز بها عن غيره من الأنواع — وهو حب المحمودة الحقة وحسن الذكر من
 وجوه الحق ﴿ أقول هذا تفاديا من حب المحمودة من أي وجه حقا كان أو باطلا ،
 وطلب الثناء بالزور والغش والرياء ، والظهور بمظاهر الأختيار ، مع تبطن سرائر

الأشرار ، فان هذا من أسوأ الخلال ، وإنما يعرض بعد اعتلال الفطرة وفساد الطبيعة. المحمّدة هي الغذاء الروحاني ، والمقوم النفساني، وكلما قرب الشخص من الكمال الانساني تهاون بالشهوات ، وازدرى اللذائذ الحسية ، وقوي فيه الميل الى المحمّدة الباقية ، وبذل الوسع فيما يفيدها من جلائل الأعمال ، تأمل ، إن الفاضل يرى له في هذا العالم أجلين ، أقصاها الأجل المحدود من يوم ولادته إلى نهاية العمر المقدر ، والآخر أبعد من هذا نهاية ، وبدايته عند ما ينجم من عمله الصالح أثر لمنفعة تشمل أمته أو تعم النوع الانساني . وغاية هذا الأجل عند ما يمحي أثره من ألواح النفوس وصفحات التاريخ . فلروح الفاضلة وجودان وجود في بدنها الخاص ، ووجود في جميع الأبدان ، وهو ما يكون محلها من كل روح محل الكرامة والتبجيل . ولا ريب أن هذا الأجل الطويل ، وهذا الوجود العريض ، خير من ذلك الأجل القصير ، والوجود الكثر^(١) وحقيق بالانسان أن يبيع ما هو أدنى بالذي هو خير

يطول بي الكلام فأقصر . إن الله الذي وهب كل نوع ما به كماله وضع في جبهة البشر ميلا الى الحمد ، وأهمهم تأدية حقه لمستحقه . ألم تر انطلاق الألسن في كل أمة بالثناء على من كان سبباً لها في مجد ورفعة ، أو نهوض من سقطة ، أو توحيد كلمة ، أو تجديد قوة ، أو كمال في فضيلة ، أو تقدّم في علم أو صنعة ، ويرسمونه في الألواح ، ويسجلون مدحته في بطون التواريخ ، ويرفعون لها الهياكل والتماثيل ، ويحفظون له ذكراً حميداً ينقله الأبناء عن الآباء ، حتى ينقرضوا أو ينقرض العالم ؟ إذا جحدت الأمة حق العامل لها أو قصرت في استحسان عمله ، ضعفت الهمم ، وقلّ السعي في المصالح العامة ، واتقبضت الأيدي عن تعاطيها ، فهبطت شؤون الأمة ، فافقرت وماتت

إن الله جل شأنه قرن كل حادث بسبب ، فاذا استوى لدى الأمة الحسن والقبيح ، والطيب والحديث ، والفضيلة والرذيلة ، والمصلحة والمفسدة ، وقصد منها التمييز ، ولم تقدر أعمال العاملين حق قدرها ، ولم تعرف معروفاً ، ولم تنكر

(١) الكثر اليايس والمنقبض . وكثر اليبدين بخيل والمراد هنا مالا خير فيه

منكرآ ، سلبت آحادها الميل الى المعالي والكمالات ، وكان هذا أشد نكايّة بها من جور الظالمين ، وتغلب الغالبين ، ظلم الظالمين لا يدوم ، وسطوة الغالب لا تثبت إذا كان جمهور الامة يقابل الاحسان بالاعتراف ، والفضل بالحمد ، فانه يوجد منها من يشترى هذه المكافأة بتخليصها وإقازها . وأما فقد هذا الاحساس الشريف ، فهو أشبه علة بالهرم لاعتقبي له الا الموت والهلاك

كيف لا تكون المحمودة الحقّة نعمة على النفوس الانسانية ، يسعى لها الأعلون من بني الانسان . وقد امتن الله بها على نبيه فيما يقول له (ورفعنا لك ذكرك) وكيف لا تكون حقاً تطالب به الطبيعة وقد سمح الله لمستحقها بالتحدث بنعم الأعمال الصالحات ؟ كما سوّغ ذلك لنبيه في قوله (وأما بنعمة ربك فحدث) قلب طرفك في تواريخ الأمم أقصاها وأدناها ، تجد برهاناً قاطعاً على أن الامة متى بنحت قيم الاعمال العالية ، وازدري فيها بشأن الفضيلة ، فقدت ما به قوامها وانهدم بناؤها ، وذهبت كما ذهب أمس . ولا جرم إن الكفران مقرون بزوال النعم يمكنني أن أختم كلامي هذا بكلمة شكر لهذه العصابة الطاهرة التي أقدمت في هذه الأوقات النحسة ، ووقفت على شفير الخطر ، وكتبت على نفسها السعي في توحيد المسلمين . ويسرنا أن نرى عددها كل يوم في ازدياد ، نسأل الله نجاح أعمالها وتأيد مقاصدها ، إنه نعم المولى ونعم النصير

المقالة الرابعة عشرة

الشرف (١)

كلمة يهتف بها اقوام مختلفة من الناس ، الا أن أكثرهم عن حقيقة معناها غافلون : فئة ترى الشرف في تشييد القصور ، والتعالي في البنيان ، وزخرفة الحوائط والجدران ، ووفرة الخدم والحشم ، واقتناء الجياد ، وركوب العربات . وفئة أخرى تتوهم أن الشرف في لبس الفاخر من الثياب ، والتزين بألوان الألبسة وأنواعها ، والتجلي بمجلي الجواهر الثمينة ، مرصعة بالأحجار الكريمة ، كالألماس والياقوت والزمرد ونحوها . وفئة تتخيل الشرف في الألقاب والرتب كالليك والباشا ، أو في الوسامات المعروفة بالنيشين وعلو أسمائها كالأول من الصنف الفلاني ، والثاني من الدرجة الفلانية . حتى إنك ترى الرجل يسلب مال أخيه ، وينهب ثروة أقاربه وذويه ، أو بني ملته ومواطنيه ، ليشيد بما يصيب من السحت قصرأ ، ويرفع ويزخرف بيتأ ، ويقدم له حراسأ من المماليك ، وخفراء من الفلمان ، ويظن بذلك أنه نال مجداً أبدياً ونجارأ سرمدياً . وصح لحاله أن يعنون بعنوان الشرف . وتجد الآخر يذهب في الكسب أشنع مما يذهب الأول ليكتسي برفيع الثياب ، ويتزين بأجل الحلي ، أو ليكون له من ذلك ما يفاخر به أمثاله ، ويتخيل أنه بلغ به درجة من الرفعة لا يداني فيها . ويعبر عن حاله هذا بلفظ الشرف ، ويتوهم أنه وصل الحقيقة من معناه — ومنهم ثالث يسهر ليله ويقطع نهاره بالفكر في وسيلة ينال بها لقبأ من تلك الألقاب ، أو يحصل بها وسامأ أو يستفيد وشاحا . وسواء عنده الوسائل يطلبها أيا كان نوعها، وإن

(*) نشرت في العدد الثالث عشر من جريدة العروة الوثقى بتوقيع محمد نجيب الاسكندري الحسيني وقد سألت الاستاذ الامام رحمه الله عن محمد نجيب هذا فقال انه اسم مستعار فالمقالة من انشائه رحمه الله تعالى

أفضت الى خراب بلاده أو تذليل أمته أو تمزيق ملته . وعنده أنه رقي الذروة
من معنى الشرف

نحن نرى هذه الأوهام قائمة مقام الحقائق في أذهان كثير من الناس ،
ولكن لا نظنها طمست عين الحق فيهم ، حتى عموا عن ادراك خطتهم
وانحرفهم عن الصواب في وهمهم ؟ ماذا يجد من نفسه المباهي بقصوره ، وولادته
وحوره ؟ ألا يحس من نفسه أنه وان حاز منها أعلى ما يتصوره العقل ، فذاته
التي هي أعز لديه من جميع ما كسب لم تستفد شيئاً من الكمال ، وأن جميع
ما حصله فهو أجنبي عنه . وليس له نسبة اليه الا نسبة العناء في تحصيله ؟ ألا يرى أن
كثيراً ممن بلغ مبلغه أو فاقه ، سلبتهم صروف الدهر ما بأيديهم ، فأصبحوا
بصفاتهم وجواهر ذاتهم ، فإن لم تكن على جانب من الكمال الانساني انخرطت
في سلك الطبقات السافلة ، ولم يبق لهم في القلوب منزلة ولا في النفوس مكانة
ماذا يشعر به المفاخر بجذبه ولباسه اذا تجرد منه وخلي بنفسه ان لم يكن
لذاته حلية من الفضيلة وزينة من الكمال ؟ ألا يكون هو وعراة الفقراء سواء ؟
أولا يجد من سره عند المفاخرة أنه يجول مع الغانيات وربات الخدور في ميدان
واحد ؟ ماذا يتصور الزاهي برتبته ، المعجب بوسامه ، ان لم يكن قبل وسمته أو
الصعود لرتبته على حال تجل أو كمال يبجل . أليس يشعر أنه لو سلب الوسام أو نزع
عنه الوشاح يعود الى منزلته من الاحتقار ؟ فان نال الكرامة عند بعض السذج
واللقب معلق عليه ، أليس ذلك تعظيماً للقب لا للملقب به ؟ ألا تكون هذه
الكرامة عارضاً سريع الزوال ، بل رسماً ظاهراً لا يمس بواطن القلوب ؟

نعم لهذه الألقاب الشريفة شأن يرتفع به النظر اذا سبق بعمل يعترف
عموم العالم بشرفه ، وكان اللقب دليلاً عليه أو مشيراً اليه ، كما يكون لمثلها حال
يسقط به الاعتبار اذا تقدمها ففعله يمتقها العقلاء من النوع البشري ، وكان الوسام
واللقب عنواناً على ما افتخر كاسبه ، وعلامة على ما اجترم .

انظر وتدبر ولا تحطي فما أنت من الصواب ببعيد . إن عثمان الغازي الذي
لقبه أعداؤه بأسد (بلاونه) نال رتبة ، ومنح لقباً ، وحظي بمكانة رفيعة بين

الطبقة العليا من العظاماء في دولته ، بعد ما دفع بروحه الموت في المدافعة عن ملته ،
وجاهد في إعلاء كلمة دينه بما شهد له به الأعداء والأصدقاء — وأن بعض
الامراء في ديار اسلامية علق عليهم ألقاب شريفة من دولة كدولة الانكايز
جزاء لهم على ما تقدموا أمام جيوش أعدائهم لافتتاح بلادهم ، حتى مكثوا الانكايز
من ديارهم . وجميع المسلمين الآن يكابدون الجهد في إيجاد الوسائل لخروجهم
منها — أين موقع النيشان من صدر عثمان باشا الغازي من موقعه على صدر
أولئك الخدوعين ، أظن رجح النظر بين الموقعين يثبت لك أن النيشان يشرف
بشرف العمل الذي جعل دليلا عليه ويسقط بسقوطه .

ماذا غرّ أولئك الواهين على اختلافهم ؟ ألا يعلمون أن الثياب المعلقة بالدم ،
الموشاة بالنجيع ، الملونة بالمهج ، هي التي حفظت للباسيها ذكراً حسناً لا ينقطع ،
وأثراً مجيداً لا يمحي . إن الذين ضُرجوا بدمائهم في طلب المجد للمتهم ، هم الذين
خشعت لذكورهم الأصوات ، وأجمعت على فضلهم خواطر القلوب . ألم يصل اليهم
أن الذين قضوا نجبتهم في غيابات الحب ، وانتهت حياتهم في ظلمات السجن ،
لطلب حق مسلوب ، أو حفظ مجد موجود ، هم الذين سما ذكورهم الى شرف
الشمس الأعلى ، وعلت أسماءهم على جميع الأسماء . أظن أن الذين كانوا في
العرفات العالية ينظرون الى جناتهم وحدائقهم ، ويشرفون على الناس من شرفات
قصورهم ، وقصروا حياتهم على التمتع بما نالوا ، لم يبق لهم ذكر ، ولم يكن لهم
في حياتهم شأن ، إلا ما هو محصور في دوائر بيوتهم . ولا يختلف عنهم أولئك
الذين كانوا يسحبون مطارف الرفة ويكتسون حلال الخبز والديباج ، ذهبوا وذهبت
معهم أكسيتهم ، وارتدوا من حيث أتوا لا يعلم متى جاؤا الى الدنيا ، ومتى
انكشفوا عنها

هل سمعنا أن أحداً يذكر بين بني البشر بأنه نال نيشان كذا وحصل رتبة
كذا ؟ نعم يقولون : علم وعمل ، وأعطى وبذل ، ورفع ووضع ، وجاهد وكافح ،
وأباد وأبقى ، وما يشاكل ذلك من الاعمال التي لها أثر ثابت . إذا ذكر
الاسكندر الأكبر هل يخطر بالبال إن كان له قصر أولاً ؟ أي أبله يطلب سيرة

نابليون الأول في آثار قصر كان يسكنه ، أو في خرق ثياب كان يلبسها ؟ وهل بلغ عظماء العالم ما بلغوا من مقامات الشرف بعد ماشيدوا وزينوا وترفهاوا وتعموا ، أم كان جميع ما ينالون من ذلك بعد أن يسودوا ويفتحوا ويفلبوا ويأخذوا بالنواصي ؟ خدع قوم بالاحلام وغرتهم الأوهام ، ففرطوا في شؤون بلادهم ، وباعوا مجدها الشامخ بتلك الاسماء التي لامسى لها ، وزعموا وإن لم تطاوعهم ضمائرهم أنهم رقا من مكانة الشرف وإن كان خاصا بهم بعد ما علموا أن الرتب والنياشين جاوزت حدتها ، ونالها غير أهلها ، فلو أنهم أصغوا لما تحدثهم به سرائرهم ، وتعنفهم به خواطر أفئدتهم ، ورمقوا بأبصارهم ما يحيط بهم ، لعلموا أنهم في أخس المنازل وأبعد المزاجر ، وأدر كوا خطأهم في معنى الشرف وجورهم عن جادة الصواب في طلبه .

— لو أحسوا بما رزئت به أوطانهم ، وما لصق من الذل والعار بذرارهم لطحوا الوشاحات ، وتبذوا الوسامات ، ولبسوا أثواب الحداد ، ونفروا خفافا وثقالا لطلب الشرف الحقيقي

— الشرف حقيقة محدودة كشفها الشرائع ، وحددتها عقول الكاملين من البشر . وليس لذي شاكلة إنسانية أن يرتاب في فهمها ، إلا من ختم الله على قلبه ، وجعل على بصره غشاوة .

— الشرف بهاء للشخص ، يحوم عليه بالأبصار ، ويوجه إليه الخواطر والأفكار ، وجمال يروق حسنه في البصائر والابصار .

ومشرق ذلك البهاء عمل يأتيه طالبه ، يكون له أثر حسن في أمته أو بني ملته ، أو في النوع الانساني عامة ، كاتقاذ من تهلكة ، أو كشف الجباله ، أو تنبيه لطلب حق سلب ، أو تذكير بمجد سبق ، وسؤدد سلب^(١) أو إنهاض من عثرة ، أو إيقاظ من غفلة ، أو إرشاد لخير يعم ، أو تحذير من شر يعم ، أو

(١) في الاصل سلق باللام فهو محرف عن سلب أو عن سقم بالميم بمعنى علا وارتفع وهذا اقرب الى اللفظ وذلك اليق بالاسلوب

تهذيب أخلاق ، أو تثقيف عقول ، أو جمع كلمة وتجميد رابطة ، أو إعادة قوة ، وانتشال^(١) من ضعف أو ايقاد حمية أو حضو لغيرة .

من أتى عملاً من الاعمال له أثر من هذه الآثار فهو الشريف وان كان يسكن الخصاص والأكواخ ، ويلبس الدلوق والأسمال ، ويقتات بنبات البر ، ويبيت على تراب القفر ، ويتوسد نشز الأرض ، ويضرب في كل واد ، ويتردد بين الربا والوهاد ، هذا له حلية من عمله ، وزينة من فضله ، وبهاء من كماله ، وضياء من جده ، يهدي اليه ضلالة الألباب ، وتائبة الافئدة ، تعرفه المشاعر الحساسة ولا تنكره ، وتكتفه ذرات القلوب المتطائرة اليه ولا تنفصل عنه . له من روحه قصور شاهقة ، وغرفات شائقة ، ومناظر رائقة ، وجمال باهر ، ونور زاهر ، لا يكاد يخفى حتى يظهر ، ولا يكاد يستر حتى يبصر ، اليه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه الى أعلى عليين . حياة طيبة في القلوب ، وعزة مشرقة في جبهة الزمان (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون)

نعم قد ينبعث عليه من أرباب الطباع الفاسدة بعض الكرائه ، فيسلقونه بالالسة ، ويرشقونه بسهام اللوم ، ولا تروق في أنظارهم أزهار أعماله . ولا أوامر مزاهره ، لبعدها عن فهمهم ، وغرابتها على حواسهم ، لما أفوه من الانكباب على تلك السفاسف الساقطة ، التي عدوها شرفاً ، وحسبوها مجداً . وقد بينها كما كشفتها الشرائع وآراء العقلاء . وانما مثلهم مثل الجعل ينفر من رائحة الورد ويألف روائح القدر . لا يبعد أن يسخر بالعامل الفاضل أناس لاخلق لهم ، أو يقصده بالاضرار من لازمة له ، ولكنهم بأنفسهم يهزؤون ، وبمصلحهم يضرون ، ولا يطول عليهم الزمان في هذا العمى ، بل لا يلبثون اذا بدت الثمرة الشبيهة أن يهرعوا لاقتطافها ، ويطعموا من جناها . ولا يسميهم بعد ذلك الا الحمد لغارس الشجرة وحافظ الثمرة ، وان كان دونهم في تلك الزخارف التي لا قيمة لها في

(١) الانتشال اخذ اللحم عن العظام او نشله من القدر بالمشال « حديدة مقوفة لأجل النشل » واستعمله المتأخرون من الكتّاب بمعنى الانتياش وهو الاقاز من التهلكة . ومعنى المادتين في الاصل متقارب

نظر العاقل . ثم يكون عقابهم على ما فرط منهم ندم على الخطيئة ، وأسف على السيئة ، وألم في قلوبهم ، تهيجه ذكرى ما قدموا من سوء عملهم ، وانكشاف نقصهم لدى وجدانهم . هكذا تمنح العناية الالهية هذه الكرامة لصاحب العمل الشريف مادام حيا . فاذا غابت شمسه عن أفق هذا العالم لم تحجب أشعة ضيائه التي فاضت منه على نجوم هاديات ، وبدور منيرات . نعم انه يموت ويتواري خلف حجاب العدم بجسمه ، ولكنه قائم في الأفتدة ، شاهد على الألسنة ، حي يرزق عند ربه ، ونعمت الحياة حياته . ولئله هذا فليعمل العاملون

المقالة الخامسة عشرة

دعوة الفرس الى الاتحاد مع الافغانه (*)

إذا أراد الله بقوم خيرا جمع كلمتهم

سرنا من الجرائد الفارسية صدقها في خدمة أوطانها واعتدالها في مشاربها ، وزادنا مسرة اهتمامها بترجمة بعض الفصول المهمة من جريدتنا ، ونقلها الى اللسان العذب الفارسي مما تظن فيه تنبيها لأفكار المسلمين ، واستلفتنا لعقولهم الى ما فيه خيرهم ، فلها منا ومن كل مخلص في محبة ملته أوفر الشكر خصوصا جريدة (اطلاع) التي تطبع في مدينة طهران . وهذا المنهج القويم مما تعم به الفائدة في جميع الاقطار الاسلامية ، فان جميعها بعد بلاد العرب وان اختلفت السنة سكانها باختلاف شعوبهم ، الا أنهم ينطقون باللغة الفارسية ، فهي في الشرق كاللسان الفرنسي في الغرب ، وكان بودنا أن يعززوا أفكارنا بما تجود به قرائهم السليمة ، وأذهانهم الصافية ، وترشدهم اليه عقولهم العالية ، خصوصا فيما يتعلق بالدعاء للوحدة الاسلامية ، واحياء الرابطة المليية بين المسلمين ، لاسيما في الاتفاق بين الايرانيين والافغانين .

(*) نشرت في العدد الرابع عشر من جريدة العروة الوثقى في ٢٢ شوال سنة

١٣٠١ و ١٤ اغسطس سنة ١٨٨٤

هانان طائفتان هما فرعان لشجرة واحدة ، وشعبتان ترجعان لأصل واحد هو الاصل الفارسي القديم . وقد زادهما ارتباطا اجتماعهما في الديانة الحقبة الاسلامية ، ولا يوجد بينهما الا نوع من الاختلاف الجزئي لا يدعو الى شق العصا ، وتمزيق نسيج الاتحاد ، وليس بسائع عند العقول السليمة أن يكون مثل هذا التغير الخفيف سبباً في تخالف شديد

ليس ببعيد على هم الايرانيين وعلو أفكارهم أن يكونوا أول القائمين بتجديد الوحدة الاسلامية ، وتقوية الصلات الدينية ، كما قاموا في بداية الاسلام بنشر علومه ، وحفظ أحكامه ، وكشف أسرارهِ . وما قصرُوا في خدمة الشرع الشريف بأي وسيلة .

نعم البخاري ومسلم والنيسابوري والنسائي والترمذي وابن ماجه وأبو داود والبغوي وأبو جعفر البلخي والكايني وغيرهم ممن أنبتهم اراضي ايران . أبو بكر الرازي الطيب الشهير والامام فخر الدين الرازي ممن نشأوا في طهران ، أبو حامد الغزالي حجة الاسلام وأبو اسحق الاسفرايني والبيضاوي وخواجه نصير الدين الطوسي والأبهري وعضد الملة والدين وغيرهم من علماء الكلام والأصول ممن تفتخر بهم بلاد فارس وهم فخر المسلمين . الفيلسوف الشهير أبو علي ابن سينا وشهاب الدين المقتول ومن على شاكلتهم ممن جبلوا من تراب فارس أن أهل فارس كانوا من أول القائمين بخدمة اللسان العربي وضبط أصوله ، وتأسيس فنونه ، منهم سيويه وأبو علي الفارسي والرضي ، ومنهم عبد القاهر الجرجاني مؤسس علوم البلاغة لبيان إعجاز القرآن وفهم دقائقه على قدر الطاقة البشرية . وصاحب صحاح الجوهر من إحدى قراهم ، ومجد الدين الفيروزآبادي من إحدى بلدانهم

الزمخشري والسكاكي وأبو الفرج الاصفهاني وبديع الزمان الهمداني وغيرهم ممن بينوا دقائق القرآن وشيدوا معالم الدين كلهم من أرض فارس . الطبري أول المؤرخين ، والاصطخري والقزويني أول الجغرافيين ، كانوا من بلاد فارس

الشبلي كان من نهاوند ، وأبو يزيد البسطامي كان من بسطام ، والاستاذ الهروي وهو الاستاذ الحقيقي للشيخ محيي الدين بن العربي كان من هراة ، وكلها بلاد ايران هل ينسب صدر الشريعة ونجر الاسلام البزدوي والآمدي والمرغيناني والسرخسي والسعد التفتازاني والسيد الشريف والآبيوردي وكلهم من أبناء فارس . من أين كان القطب الشيرازي والصدر الشيرازي ورأس الحكمة في المتأخرين ميرباقر الداماد ومير فندر كسي وغيرهم ؟ كانوا من بلاد فارس (١)

أي فضل كان ، ولم يكن لهم فيه اليد الطولى ، أي مزينة من الله بها على الاسلام ولم يكونوا من السابقين لاقتنائها ، نعم وفيهم جاء من قول النبي صلى الله عليه وسلم « لو كان العلم في التريا لناله رجال من فارس » (٢)

(١) أن كثيراً من هؤلاء العلماء كانوا من العرب فنسبتهم الى بلاد الفرس نسبة بلد وتربة لاجنس ولا لغة ، وكان منهم الفارسي المعروف الاصل كسيبويه والجوهري ... والعربي المعروف النسب كعبد القاهر الجرجاني والسيد الجرجاني ... والمجد الفيروزبادي وابوالعرج الاسفهاني وأبو اسماعيل الهروي الانصاري ... ومنهم المجهول النسب كالغزالي . وذلك ان الاسلام مزج بعضهم ببعض فكانوا أمة واحدة لا تفاضل بينها إلا بالعلم والعمل الصالح . ثم فرقت السياسة بين العرب والفرس . وستجمع بينهم السياسة التي جعلت الجميع مهددين باستعباد الافرنج لهم (٢)

الحديث مروى عن أبي هريرة مرفوعاً بلفظ « لو كان الايمان عند التريا لتناوله رجال من فارس » هكذا ذكر في الجامع الصغير وعليه روى اتفاق البخاري ومسلم (ق) ورمز الترمذي وبجانبه الاشارة إلى ضعفه وهي غلط من الطبع . ثم ذكره عنه بلفظ « لو كان العلم معلقاً بالتريا لتناوله قوم من أبناء فارس » وعزاه إلى الحلبي لابي نعيم واللقاب للشيرازي مع علامة الضعف . وسبب ذلك انه من طريق شهر بن حوشب وهو مختلف فيه وثقه جماعة وضعفه آخرون . ولعل أعدل الاقوال فيه ما ذكره الترمذي عن البخاري قال عنه : شهر حسن الحديث ، وقوى أمره اه وروى عنه مسلم وأصحاب السنن الاربعة . وأما الحديث الاول المتفق عليه فروى بلفظ الدين ولفظ الايمان وروى في سببه انه لما نزلت سورة الجمعة وقرأ النبي (ص) قوله تعالى بعد آية بعثته في الاميين - أي العرب - (وآخريين منهم لما يلحقوا بهم) قال أبو هريرة الرواي قلت من هم يا رسول الله ؟ فلم يراجعهم حتى سألت ثلاثاً (قال) وفيما سلمان الفارسي وضع رسول الله (ص) يده على سلمان ثم قال « لو كان الايمان عند التريا لناه رجال من هؤلاء »

فيأيها الفارسيون تذكروا أياديكم في العلم وانظروا الى آثاركم في الاسلام
وكونوا للوحدة الدينية دعامة ، كما كنتم للنشأة الاسلامية وقاية .
أنتم بما سبق لكم أحق الناس بالسعي في استرجاع ما كان لكم في فتوة
الاسلام، أنتم أجدر المسلمين بوضع أساس للوحدة الاسلامية وما ذلك يبعد على
طيب عناصركم وقوة عزائمكم . أظن أنه لا يخفى عليكم أن هذا الوقت هو أحسن
الاوقات لندائكم بالوحدة مع الافغانين، والتحالف معهم على مقاومة العادين ،
لتكونوا بالائتداد معهم حصناً حصيناً وحرزاً منيعاً تقف دونه أقدام الطامعين .
أظنكم لم تنسوا أن استيلاء الانكاييز على الممالك الهندية إنما هم بوقوع الخلاف
بينكم وبين الافغانين

هل يخفى عليكم أن كل مسلم في الهند شاخص بصره إلى طرف بنجاب ينتظر
قدومكم اذا اتحدتم مع اخوانكم الافغانين . ؟ حصلت لكم تجارب كثيرة ، وشهدتم
من مظاهر الحوادث ما فيه أكل عبرة ، فهل يصح بعد هذا أن تستمروا على التجافي
والتباعد مع علمكم أن الوحدة منبت الشوكة .

هذا آن التأخي والتوافق ، هذه أوقات التحالف والتوافق ، أحاط
الاعداء ببلادكم ، شرقاً وغرباً وكل يشحذ سيفه ويسدد سهمه ، حتى تتمكنه الفرصة
من شن الغارة على أطراف بلادكم ، فلو ضاعت الفرصة في هذا الوقت
فربما لا تصادفونها في غيره . الانكاييز في ارتباك شديد في المسئلة المصرية مع ضعفهم
في القوة العسكرية ، ومتورطون باختلاف الدول عليهم ومعاكساتها لمقاصدهم

الامير عبد الرحمن خان أمير أفغانستان على ما نهده من أول شبوبيته أشد
الناس عداوة للانكليز ، وبينه وبينهم حزازات لا تزول ، بل نقول إن عداوة
الانكليز سارية في عروق الافغانين عموماً متمرجة بدهائمهم . فلو حصل الاتفاق
الآن بين سلطنة الشاه وبين إمارة الافغان لوجدت قوة اسلامية جديدة في
المشرق بين سائر الطوائف الاسلامية ، وينبعث فيهم وفي سائر المسلمين حياة
جديدة ، وتتجدد لهم آمال جلييلة ، وتتعش بذلك أرواح المؤمنين . هذا وقت
تبهت فيه أفكار الافغانين إلى أعمال جيرانهم في المسئلة المصرية ، وتحركت

فيهم السواكن، وهي أعظم فرصة لأهل فارس في دعوتهم للاتحاد معهم هذا عمل من أجل الاعمال وأجزؤها فائدة، وإن من أكبر الفضل أن يقوم أهل الفضل من أهالي ايران بتحرير الفصول ونشر الرسائل في بيان فوائد الاتفاق بين الطائفتين، وإن لذلك لا تراً عظيماً في النفوس خصوصاً إن كانت من أقلام العلماء الاعلام، والمجاهدين الكرام.

العالم الانساني عالم الفكر والكلام فاحكام الفكر الصالح ونشره في الكتب والرسائل والجراندما يؤثر أجهل الأثر في تهذيب الناس وتثقيف عقولهم، وإزالة الضغائن المفسدة لمعاشهم ومعادهم، فاذا قام المستبصرون وخطبوا ووعظوا، وكتبوا ونشروا، مع الوقوف عند الحدود الدينية والأصول الشرعية، كان فضل الله كافلاً لهم النجاح. أي فرق بين الافغانيين واخوانهم الايرانيين؟ كل يؤمن بالله وبما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم. عبد الرحمن خان بما أكسبته التجارب أول من يتقدم لهذا الاتفاق، ولا نشك أن شاه ايران لما اطلع عليه في سياحاته وشاهده في أسفاره لا يأبى المبادرة اليه والسعي فيه. إن البادئ بالعمل في هذا المقصد الاسمى هو صاحب الفضل الاعظم بين المسلمين خصوصاً وبين العالم عموماً ويحني ثمرته في وقت قريب. كان الألمانيون يختلفون في الدين المسيحي على نحو ما يختلف الايرانيون مع الافغانيين في مذاهب الديانة الاسلامية، فلما كان لهذا الاختلاف الفرعي أثر في الوحدة السياسية ظهر الضعف في الأمة الألمانية، وكثرت عايتها عدايات خيراتها، ولم يكن لها كلمة في سياسة أوروبا، وعند ما رجعوا الى أنفسهم وأخذوا بالاصول الجهورية، وراعوا الوحدة الوطنية في المصالح العامة، أرجع اليهم من القوة والشوكة ما صاروا به حكماً أوروبا ويدهم ميزان سياستها.

رجاؤنا في الأفاضل الكرام صاحب جريدة (فرهنگ) الأصفهانية وصاحب جريدة (اطلاع) الطهرانية وسائر أرباب الجرائد الايرانية، أن يوجهوا أفكارهم الى هذا المطلب الرفيع ويجعلوا له محلاً فسيحاً في جرائدهم وينشروها في بلادهم وبلاد الافغان باللسان الفارسي وهو لسان الطائفتين. وما هي إلا أيام ثم نرى علم النجاح إن شاء الله رب العالمين.

المقالة السادسة عشرة

امنحار الله للمؤمنين (*)

آلم . أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فإعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين

من الناس بل أغلب الناس يقول : آمنا : وللإيمان آثار . ثم يحسبون أن الله يتركهم وما يقولون ، ويدعهم وما يتوهمون ، ويعاملهم سبحانه وهو الحكم العدل بما يظنون في أنفسهم قبل ان يتلبيهم أيهم احسن عملا ، حتى تظهر أنفسهم لأنفسهم ، ويعلموا هل هم حقيقة مؤمنون أو هذه دعوى سوائها النفس ، وغرت بها الأمازي ، وأنهم تأهون في أوهامهم يحسبون أنهم على كل شيء ، وهم خلون كل شيء ، ولما يدخل الإيمان في قلوبهم . ألا أنهم في حسابهم مخطئون ، فلن يدع الله المغرور في غيه حتى يتلبيه في دعوى الإيمان ليعلم الله الذين جاهدوا ويعلم الصابرين . ولتلا تكون للناس على الله حجة . حاشا حكما أنزل الكتب وأرسل الرسل ، ووعد وأوعد ، وبشر وأنذر ، وقوله الصدق ، ووعده الحق ، أن يجازي من بنى عقيدته على خيال ليس له أثر وظن ليس له أساس بالسعادة السرمدية والنعيم الأبدى . إن المغتر بزعمه الخائر في ظلمات أوهامه ، الذي لايسهل عليه الإيمان احتمال المشاق ، تجشم المصاعب في سبيله ليس بمعزل عن المناقنين الذين حكم الله عليهم بالشقاء الأبدى والعذاب المخلد . الإيمان يغلب كل هوى ، ويقهر كل أمنية ، ويدفع بالنفس إلى طلب مرضاة الله بلا سائق ولا قائد سواه .

يقول الله وهو أصدق القائلين (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم

(*) نشرت في العدد الخامس عشر من جريدة العروة الوثقى في يوم الخميس

في ٦ ذي القعدة سنة ١٣٠١ و ٢٨ أغسطس سنة ١٨٨٤

الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والله عليم بالمتقين * إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون (هذا قضاء الله وهذا حكمه على الذين يستأذنون في بذل أرواحهم وأموالهم في أداء فريضة الايمان . حكم عليهم بأنهم لا يؤمنون

صدق الله وصدق كتبه ورسوله ، إن للعقائد الراسخة آثاراً تظهر في العزائم والأعمال ، وتأثيراً في الأفكار والارادات ، لا يمكن للمعتقدين أن يزجوها عن أنفسهم ماداموا معتقدين . هكذا الايمان في جميع شؤونه وأطواره ، له خواص لا تقارقه ، ونزعات لا تزايه ، وصفات جليلة لا تنفك عنه ، وخلاتق عالية سامية لا تباينه ، بها كان يمتاز المؤمنون في الصدر الأول وكان يعترف بمزيتهم وعلو منزلتهم من كانوا يجحدون عقيدتهم

نعم هم الذين صبروا في نيران امتحان الله وابتلائه حتى ظهر إيمانهم ذهباً ابريزاً صافياً من كل غش ، وأعد الله لهم جزاء على صبرهم نعيماً مقيماً . ما أصعب ابتلاء الله وما أشد فتنته وما أدق حكمته في ذلك ليميز الله الخبيث من الطيب . نعم ان دون ابتلاء الله خلع العادات ، وتحمل الصعوبات ، وبذل الأموال ، وبيع الأرواح . كل خطر فهو تهلكة ينبغي البعد عنها إلا في الايمان ، فكل تهلكة فيه فهي نجاة ، وكل موت في المحاماة عن الايمان فهو بقاء أبدي ، وكل شقاء في أداء حقوق الايمان فهو سعادة سرمدية . المؤمن يبذل ماله فيما يقتضيه إيمانه ولا يبغى الفقر ، وإن كان الشيطان يعده الفقر . ليس في النفقة لأداء حق الايمان تبذير ولو أتت على كل مافي أيدي المؤمنين . ان المؤمن حياة وراء هذه الحياة ، وان له لذة وراء لذتها ، وان له سعادة غير ما يزينه الشيطان من سعادتها . هكذا يرى المؤمن إن كان الايمان مس قلبه ولو لم يبلغ الغاية من كماله

إن الفرار من محنة الله في الايمان مجلبة للخزي الأبدي . ان الفرار من صدمة جيش الضلال وإن بلغت أقصى ما يتصور . موجب للشقاء السرمدية . لا سعادة إلا بالدين ودون حظ الدين تطاير الأعتاق . ان الايمان تكاليف شاقة وفرائض صعبة الاداء الاعلى الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى . ان القيام بفرائض الايمان

محفوف بالمخاطر مكتنف بالمكارة كيف لا وأول ما يوجبه الايمان خروج الانسان عن نفسه وماله وشهوته ووضع جميع ذلك تحت أوامر ربه . لن يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون الله ورسوله أحب اليه من نفسه . أول احساس يلم بنفس المؤمن في هذه الدنيا عابر سبيل الى دار أخرى خير من هذه الحياة وأبقى ، وأول خطوة يخطوها المؤمن بذل روحه اذا دعاه داعي الايمان ، ولا داعي أرفع صوتاً وأبين حجة من نداء الحق على لسان أنبيائه . لا يقبل الله في صيانة الايمان عذراً ولا تعالاة ، مادامت الرجل تمشي ، والعين تنظر ، واليد تعمل . ان امتحان الله للمؤمن سنة من سننه ، يميز بها الصادقين من المنافقين قرناً بعد قرن ، الى أن تنقضي الدنيا . في كل قرن يدعو الله المؤمنين الى قوم أولي بأس شديد ، فان يطيعوا يؤتهم الله أجراً حسناً ، وإن يتولوا يعذبهم عذاباً أليماً . فيمزان عدل الله منصوب الى يوم القيامة ، وهناك الجزاء الأوفى ، فلا يحسبن الواسمون أنفسهم بسمة الايمان ، القانعون منه برسم يلوح في مخيلاتهم ، ان عدل الله يتركهم وما يظنون . كلا انهم في كل عام يفتنون ، فلينظر المفرطون في دينهم ضناً بأموالهم ، أو صوتاً لأرواحهم ، ماذا يكون موقعهم من علم الله ؟ هل من الذين صدقوا أو من الكاذبين ؟ أرشد الله المؤمنين الى وسائل خيرهم ، وبصرهم بعاقبة أمرهم .

المقالة السابعة عشرة

أسباب حفظ الملك *

أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها؟ فاتها لا تعنى الإبصار ولكن تعنى القلوب التي في الصدور

أهلك الله تعالى شعوباً ، وأباد قبائل ، ودمر بلاداً ، ولا يزال عدل الله يبدل قوماً بقوم ويأتي لكل حين أناس آخريين * حكيم سبقت رحمته غضبه ، جعل لكل عمل جزاء ، وعين بحكمته لكل حادث سبباً ، (ولا يظلم ربك أحداً) وليست أفعاله جزافاً ، ولا يصدر عنه شيء عبثاً * أمر الله عباده بالسير في الأرض فقال (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) ليريهم قضاء الحق وحكمه العدل فيمن سلف ومن خلف ، فيطيعوا أوامره ، ويقفوا عند حدود شرائعه ، ويفوزوا بخير الدنيا وسعادة الآخرة * من كان له قلب يعقل وعين تبصر ، وعقل يفقه ، وتتبع حوادث العالم ، وتدبر كيفية انقلاب الأمم وخاض في تواريخ الأجيال الماضية ، واعتبر بما قص الله عليه في كتابه المنزل يحكم حكماً لا يخاطه ريب ، بأنه ما حاق السوء بأمة وما نزلت لها نازلة البلاء ، وما مسها الضر في شيء ، إلا وكانت هي الظالمة لنفسها بما تجاوزت حدود الله ، وانتهكت حرمانه ، ونبذت أوامره العادلة ، وانحرفت عن شرائعه الحققة ، وحرفت الكلم عن مواضعه ، وأولت من كلامه تعالى على حسب الأهواء والشهوات ، كما أن للأغنية واختلاف الفصول والأهوية أثرًا ظاهرًا في الأمزجة بتقدير العزيز العليم ، كذلك اقتضت حكمة الله أن يكون لكل عمل من الأعمال الإنسانية ولكل طور من أطوار البشر أثر في الهيئة الاجتماعية . ولهذا كان من رحمته بعباده

(* نشرت في العدد السادس عشر من جريدة العروة الوثقى في يوم الخميس

في ٢١ ذي القعدة سنة ١٣٠١ و ١١ سبتمبر سنة ١٨٨٤

تحديد الحدود ، وتقرير الاحكام ليتبين الخير من الشر ، ويتميز النفع من الضر ، فأرسل الرسل ، وأنزل الكتب ، فمن خالف الأوامر الالهية فقد ظلم نفسه ، فليستعد لحزني الدنيا وعذاب الآخرة .

ان تأثير الفواعل الكونية في اطوار الحياة قد يخفى سببه حتى على الطبيب الماهر . وأما تأثير أحوال بني الانسان في هيئة اجتماعهم ، فيسهل الوقوف على سره لكل ذي ادراك، إن لم تكن عين بصيرته عمياء .

ألم تر أن الله جعل اتفاق الرأي في المصلحة العامة والاتصال بصلة الألفة في المنافع الكلية سبباً للقوة واستكمال لوازم الراحة في هذه الحياة الدنيا ، والتمكن من الوصول لخير الابد في الآخرة . وجعل التنازع والتعابن علة للضعف ، وداعياً للسقوط في هوة العجز عن كل فائدة دنيوية أو أخروية ، ومهيمناً لوقوع المتنازعين في مخالب العاديات من الامم . فمن نظر نظرة في أحوال الشعوب ماضيها وحاضرها ، ولم يكن مصاباً بمرض القلب ، وعمي البصيرة ، أدرك سر أمر الله في قوله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعاً) وسر نهييه في قوله (ولا تفرقوا — وقوله — ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) أي جاهكم وعظمتكم وعوا كلمتكم . ان الله تعالى جعل الركون الى من لا يصح الركون اليه ، والثقة بمن لا تنبغي الثقة به ، سبباً في اختلال الامن وفساد الحال ، فمن وثق في عمله بمن ليس منه في شيء ، ولا نجمعه معه جامعة حقيقية ، ولا تصل به رابطة صحيحة ، وليس في طبعه ما يعثه على رعاية مصلحته ، أو كتم سره ، ولا ما يحمله على بذل الجهد في جلب منفعته ، ودفع المضار عنه ، فلا ريب يفسد حاله ، ويسوء مآله ، وإن كان ملكاً ضاع ملكه ، أو أميراً بطل أمره ، والحوادث شاهدة ، وأحوال المغرورين ناطقة . فمن لم يرزأ بعى البصيرة يدرك بأول التفات سر نهي الله تعالى في قوله (لا تتخذوا عشوي وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق) وقوله (لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر) وسائر نواهيه المبنية على الحكمة البالغة المرشدة إلى مصالح الدارين .

لكل شخص في طبقة من أمته عمل مفروض عليه ، وواجب يلزمه القيام به ، ليحفظ بذلك لنفسه حياة طيبة في هذه الدنيا ، ويعد لها ما لا صالحا في الآخرة . وهو انسان له قلب واحد ، لو جعل معظم همه في شيء فاته سائر الاشياء ، فلو توغل في الشهوات ، وبالغ في الترف ، وبطرفيا أنعم عليه ، فقد أغفل فرائضه ، وأضر بنفسه ، وحرّم من منافعه ، وحلّ به من عقاب الله أشد الوبال ، وخسر الدنيا والآخرة معاً . وربما مست آثار أعماله بالسوء من يجاوره ، واحترق بناره الموقدة بفساد أخلاقه وانحرافه عن سنن الحق من يساكنه في بلده ، أو يوطنه في مدينته . وهذه آثار المترفين في كل أمة تنطق بما لا يعجز إلا على أذن صماء ، وتشهد بما لا يخفى إلا على بصيرة كهاء ، وان فيما قص الله علينا من أحوال المترفين لأكبر عبرة (وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكننا نحن الوارثين ^(١) * حتى اذا أخذنا مترفيهم بالعذاب اذا هم يجأرون * لا تجأروا اليوم أنكم منا لا تنصرون ^(٢) * ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون) ^(٣) هذه عواقب اللاهين بحظوظهم عما أوجب الله عليهم (ومن أعرض عن ذكري فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) ما أوتي الانسان من العلم إلا قليلا . لا يمكن الانسان وحده أن يحيط بوجوه المنافع الخاصة بنفسه ، ولا أن يطلم على منابع فوائده ليكسبها ، أو يكشف مكامن مضاره فيتقيها ، خلق الانسان ضعيفا فأرشده الله للاستعانة بغيره من بني جنسه (وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) خلقنا محتاجين للعون مضطرين للنصير وهدانا ربنا للتعاون والتناصر .

هذا مما يحكم به العقل في المصالح الخاصة ، فكيف لو كان شخص ولاء الله رعاية أمة ، وألقى اليه بزمام شعب مصالحه العامة تحت ارادته ، وهو الوازع فيه والواضع والرافع . لا ريب أن مثل هذا الشخص أخرج الى المشورة والاستفادة

(١) الآية من سورة الفصص (٢٨ : ٥٨) (٢) هما من سورة المؤمنين (٢٣ : ٦٥ و ٦٦) (٣) هي من سورة غافر (٤٠ : ٧٤) والاقباس لا يشترط فيه الترتيب

من آراء العقلاء ، وهو أشد افتقاراً الى ذلك ممن يكون سمعيه لمتعلقات ذاته ، وتكون سعة دائرة افتقاره الى التشاور على مقدار سعة سلطانه ، وقد أمر الله نبيه وهو المعصوم من الخطأ تعليماً وارشاداً فقال (وشاورهم في الامر) وقال فيما امتدح به المؤمنين (وأمرهم شورى بينهم) أي بصر يزوغ عن هذا الصراط المستقيم ؟ وأي بصيرة لا تهدي الى هذا المنهج القويم ؟ (أنلم يدبروا القول أم جاءهم مالم يأت آباءهم الأولين)

ان وازع البلاد والقائم على الملك لو لمح لمحة الى نفسه لرأى أن بلاده في كل وقت معرضة لاطلاع الطامعين ، وأن الحرص المودع في طباع البشر بحرك جيرانه كل آن للسطوة على ممالكه ليدلوا قومه ، ويستعبدوا أهله ، ويستأثروا بمنافع أرضهم ، ويمنحوها أبناء جلدتهم . فعليه وعلى من يشركه في أمره من عماله ، والحكام النائبين عنه في إيلاته ، وقواد جيشه ، وعلى كل أرباب الرأي ، ومن بهم قوام الملك ، أن يستعدوا للدفع طوارئ العدوان ، ورفع نوازل الغارات الاجنبية . فلو فرطوا في اعداد لوازم الدفاع ، أو تساهلوا فيما يكف عنهم سيل الاطلاع ، أو تهاونوا فيما يشد قوتهم ، ويقوي شوكتهم ، بأي وجه كان ، ومن أي نوع كان ، فقد عرضوا ملكهم للهلاك ، وألقوا بأنفسهم في مهاوي الاخطار هذا مما يفهمه الابله والحكيم ، ويصل اليه ادراك الجاهل والعليم . وهو سر الافصاح والابهام في قوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) أمر باعداد القوة ووكها الى الطاقة وحكم الاستطاعة ، على حسب ما يقتضيه الزمان . وما تكون عليه حالة من تخشى غوائلهم ، هذا أمر الله ينبه الغافل ، ويذكر الذاهل ، (فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً)

اعطاء كل ذي حق حقه ، ووضع الاشياء في مواضعها ، وتفويض أعمال الملك للقادرين على أدائها ، مما يوجب صيانة الملك وقوة الساطان ، ويشيد بناء الساطة ، ويحكم دعائم السطوة ، ويحفظ نظام الداخل من الخلال ، ويشفي نفوس الأمة من العلل . هذا مما يحكم به بدهة العقل ، وهو عنوان الحكمة التي قامت بها السموات والارض ، وثبتت نظام كل موجود ، وهو العدل المأمور به على لسان الشرع في قوله

تعالى (ان الله يأمر بالعدل والاحسان) كما أن الجور عن الاعتدال والميل عن سبيل الاستقامة في كل جزء من أجزاء العالم يوجب فناءه واضمحلاله . كذلك الجور في الجمعيات البشرية بسبب دمارها . لهذا حثت الاوامر الالهية على العدل ، وكثر النهي في الكتاب المجيد عن الظلم والجور . والحكام أولى من توجه اليهم الأوامر والنواهي في هذا الباب . العدل هو الحكمة التي أمّن الله بها على عباده ، وقرنها بالخير الكثير فقال (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً) . هي مظهر من أجل مظاهر صفاته العلية ، فهو الحكم العدل وهو اللطيف الخبير

من سار في الأرض ، وتتبع توارخ الأمم ، وكان بصير القلب ، علم أنه ما تهدم بناء ملك ، ولا انقلب عرش مجد ، إلا اشفاق واختلاف ، أو ثقة بمن لا يوثق به ، وتحلل العنصر الاجنبي ، أو استبداد في الرأي ، واستنكف عن المشورة ، واهمال في اعداد القوة ، والدفاع عن الحوزة ، أو تفويض الاعمال لمن لا يحسن أداءها ، ووضع الاشياء في غير مواضعها ، فيكون جور في الحكم ، واختلال في النظام ، وفي كل ذلك حيد عن سنن الله ، فيحل غضبه بالخاطئين وهو أحكم الحاكمين .

لو تدبرنا آيات القرآن ، واعتبرنا بالحوادث التي ألمت بالممالك الاسلامية ، لعلمنا أن فينا من حاد عن أوامر الله وضل عن هديه ، ومنا من مال عن الصراط المستقيم الذي ضربه الله لنا وأرشدنا اليه ، وبيننا من اتبع أهواء الانفس وخطوات الشيطان ، (ذلك بان الله لم يك غيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وان الله سميع عليم) فعلى العلماء الراسخين وهم روح الأمة ، وقواد الملة المحمدية ، أن يهتموا بتبنيه الغافلين عن ما أوجب الله ، وايقاظ النائمة قلوبهم عما فرض الدين ، ويعلموا الجاهل ، ويزعجوا نفس الداهل ، ويذكروا الجميع بما أنعم الله به على آبائهم ، ويستلثفتم إلى ما أعد الله لهم لو استقاموا ، ويحذروهم سوء العاقبة لو لم يتداركوا أمرهم بالرجوع إلى ما كان عليه النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه (رضي الله عنهم) ، ورنض كل بدعة ، والخروج عن كل عادة سنية ، لا تنطبق على نصوص الكتاب العزيز ، ويقصوا عليهم أحوال الأمم الماضية ، وما نزل بها من قضاء الله عند ما حادت عن شرائعه ، ونبذت أوامر الله (نأذقهم الله

الحزبي في الحياة الدنيا واعداب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون)
 على العلماء أن يزيلوا اليأس بتذكير وعد الله ووعد الحق في قوله تعالى (وعد الله
 الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم
 وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلهم من بعد خوفهم أمناً) هذه وظيفة
 العلماء الراسخين ، ومأمم بقليل بين المسلمين ، ولا نظمتهم يتهاونون فيما فوض الله
 اليهم ، ووكل الي ذمتهم ، وهم أمناء الدين وحملة الشرع ، ورافعوا لواء الاسلام ،
 وأوصياء الله على المؤمنين ، أعانهم الله على خير أعمالهم ونفع المؤمنين بارشادهم .

المقالة الثامنة عشرة

سنن الله في الامم

وتطبيقها على المسلمين (*)

إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . ذلك بأن الله لم يك
 مغيراً لنعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم

تلك آيات الكتاب الحكيم ، تهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، ولا
 يرتاب فيها إلا القوم الضالون ، هل يخلف الله وعده ووعيده وهو أصدق من
 وعد وأقدر من أوعده ؟ هل كذب الله رسله ؟ هل ودع أنبياءه وقلامه ؟ هل غش
 خلقه وسلك بهم طريق الضلال ؟ نفوذ بالله !! هل أنزل الايات الينيات لغواً
 وعبثاً ؟ هل اقترت عليه رسله كذباً ؟ هل اختلفوا عليه أفكاً ؟ هل خاطب الله
 عبيده برموز لا يفهمونها و اشارات لا يدركونها ؟ هل دعاهم اليه بما لا يعقلون ؟
 تستغفر الله ! أليس قد أنزل القرآن عربياً غير ذي عوج ، وفصل فيه كل أمر ،

(*) نشرت في العدد السابع عشر من جريدة العروة الوثقى في يوم الخميس

سنة ١٣٠١ و ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٨٤

وأودعه تبياناً لكل شيء ، ؟ تقدست صفاته وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً .
هو الصادق في وعده ووعيدته ، ما اتخذ رسولا كذاباً ، ولا أتى شيئاً عبثاً ، وما
هدانا إلا سبيل الرشاد ، ولا تبديل لآياته ، نزول السموات والارض ولا يزول
حكم من أحكام كتابه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

يقول الله (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي
الصالحون — ويقول — والله العزة ورسوله وللمؤمنين — وقال — وكان حقاً
علينا نصر المؤمنين — وقال — ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً)
هذا ما وعد الله في محكم الآيات مما لا يقبل تأويلاً ، ولا ينال هذه الآيات
بالتأويل ، إلا من ضل عن السبيل ، ورام تحريف الكلام عن مواضعه . هذا وعده
الى تلك الأمة المرحومة ، ولن يخلف الله وعده ، وعدها بالنصر والعزة وعلو
الكلمة ، ومهد لها سبيل ما وعدتها إلى يوم القيامة ، وما جعل الله لمجدها
أمداً ، ولا لعزتها حدّاً .

هذه أمة أنشأها الله عن قلة ، ورفع شأنها الى ذروة العلى ، حتى ثبتت أقدامها
على قنن الشامخات ، ودكت اعظمتها عوالي الراسيات ، وانشقت لهيبتها مرائر
الضاريات ، وذابت للرعب منها أعشار القلوب ، هال ظهورها الهائل كل نفس ،
وتحير في سببه كل عقل ، واهتدى الى السبب أهل الحق فقالوا : قوم كانوا مع
الله فكان الله معهم ، جماعة قاموا بنصر الله واسترشدوا بسنته فأمدهم بنصر من
عنده . هذه أمة كانت في نشأتها فاقدة الذخائر ، وهوزة من الاسلحة وعدد القتال ،
فاخترقت صفوف الأمم واختطت ديارها ، ولا دفعتها أبراج الجوس وخنادقهم ،
ولا صدها قلاع الرومان ومعاقلهم ، ولا عاقها صعوبة المسالك ، ولا أثر في همتها
اختلاف الاهوية ، ولا فعل في نفوسها غزارة الثروة عند من سواها ، ولا راعها
جلالة ملوكهم ، وقدم بيوتهم ، ولا تنوع صنائعهم ، ولا سعة دائرة فنونهم ، ولا
عاق سيرها أحكام القوانين ولا تنظيم الشرائع ، ولا تقلب غيرها من الأمم في
فنون السياسة . كانت تطرق ديار القوم فيحترقون أمرها ، ويستبينون بها ، وما
كان يحظر ببال أحد أن هذه الشرذمة القليلة تززع أركان تلك الدول العظيمة

وتمحو أسماءها من لوح المجد . وما كان يختلج بصدر أن هذه العصاة الصغيرة تقهر تلك الأمم الكبيرة وتمكن في نفوسها عقائد دينها، وتخضعها لأوامرها وعاداتها وشرائعها، لكن كان كل ذلك ونالت تلك، الأمة المرحومة على ضعفها ما لم تنله أمة سواها . نعم قوم صدقوا ما عاهدوا الله عليه فوفاهم أجورهم مجداً في الدنيا، وسعادة في الآخرة .

هذه الأمة يبلغ عددها اليوم زهاء مئتي مليون من النفوس، وأراضيها آخذة من المحيط الاطلسيكي الى أحشاء بلاد الصين — تربة طيبة ، ومنابت خصبة ، وديار رحبة ، ومع ذلك نرى بلادها منهوبة ، وأمواها مسلوبة ، تتقلب الاجانب على شعوب هذه الأمة شعباً شعباً ، ويتقاسمون أراضيها قطعة بعد قطعة ، ولم يبق لها كلمة تسمع ، ولا أمر يطاع ، حتى إن الباقين من ملوكها يصبحون كل يوم في مله ، ويمسون في كربة مدلهمة ، ضاقت أوقاتهم عن سعة الكوارث التي تلم بهم ، وصار الخوف عليهم أشد من الرجاء لهم

هذه هي الأمة التي كان الدول العظام يؤدين لها الجزية عن يدهن صاغرات، استبقاء لحياتهم ، وملوكها في هذه الايام يرون بقاءهم في التزلف إلى تلك الدول الأجنبية . بالمصيبة وباللرزبة !!

أليس هذا بخطب جمل ، أليس هذا بلاء نزل ما سبب هذا الهبوط ، وما علة هذا الانحطاط ؟ هل نسي ، الظن بالعهود الالهية ؟ معاذ الله ! هل نستئس من رحمة الله ونظن أن قد كذب علينا ؟ نعوذ بالله ! هل نرتاب في وعده بنصرنا بعد ما أكد لنا ؟ حاشاه سبحانه ! لا كان شيء من ذلك ولن يكون ، فعلياً أن ننظر لأنفسنا ولا لوم لنا إلا عليها ، ان الله تعالى برحمته قد وضع لسير الأمم سنناً متبعة ثم قال (ولن تجد لسنة الله تبديلاً)

أرشدنا سبحانه في محكم آياته الى أن الامم ماسقطت من عرش عزها ، ولا يادت ومحى اسمها من لوح الوجود ، إلا بعد نكوبها عن تلك السنن التي سننها الله على أساس الحكمة البالغة . ان الله لا يغير ما بقوم من عزة وسلطان ورفاهة وخفض عيش وأمن وراحة حتى يغير اولئك القوم ما بأنفسهم من نور العقل

وصحة الفكر ، وإشراق البصيرة ، والاعتبار بأفعال الله في الأمم السابقة ، والتدبر في أحوال الذين جاروا عن صراط الله فهلكوا وحل بهم الدمار ، ثم لعدوهم عن سنة العدل ، وخروجهم عن طريق البصيرة والحكمة ، حادوا عن الاستقامة في الرأي ، والصدق في القول ، والسلامة في الصدر ، والعفة عن الشهوات ، والحمية على الحق ، والقيام بنصره ، والتعاون على حمايته ، خذلوا العدل ولم يجمعوا همهم على إعلاء كلمته ، واتبعوا الأهواء الباطلة ، وانكبوا على الشهوات الفانية وآوا عظام المنكرات ، خارت عزائمهم ، فشحوا ببذل مهجهم في حفظ السنن العادلة ، واختاروا الحياة في الباطل على الموت في نصرة الحق ، فأخذهم الله بذنوبهم وجعلهم عبرة للمعتبرين

هكذا جعل الله بقاء الأمم ونمائها في التحلي بالفضائل التي أشرنا إليها ، وجعل هلاكها ودمارها في التخلي عنها . سنة ثابتة لا تختلف باختلاف الأمم ، ولا تبدل بتبدل الأجيال ، كسنته تعالى في الخلق والايجاد ، وتقدير الأرزاق ، وتحديد الآجال .

علينا أن نرجع إلى قلوبنا ، ونمتحن مداركنا ، ونسبر أخلاقنا ، ونلاحظ مسالك سيرنا ، لنعلم هل نحن على سيرة الذين سبقونا بالإيمان ؟ هل نحن نقتفي أثر السلف الصالح ؟ هل غير الله ما بنا قبل أن نغير ما بأنفسنا ، وخالف فينا حكمه ، وبدل في أمرنا سنته ؟ حاشاه وتعالى عما يصفون ، بل صدقنا الله وعده ، حتى إذا فشلنا وتنازعنا في الأمر وعصيناه من بعد ما أرى أسلافنا ما يحبون ، وأعجبنا أكثر تناغم تغرنا شيئاً ، فبدل عزنا بالذل ، وسمونا بالأنحطاط ، وغنانا بالفقر ، وسيادتنا بالعبودية . نبذنا أوامر الله ظهرياً ، وتحاذلنا عن نصره ، فجازانا بسوء أعمالنا ، ولم يبق لنا سبيل إلى النجاة والانبابة إليه . كيف لانلوم أنفسنا ونحن نرى الأجانب عنا يفتصبون ديارنا ويستذلون أهلها ، ويسفكون دماء الأبرياء من اخواننا ، ولا نرى في أحد منا حراكا؟

هذا العدد الوافر والسواد الأعظم من هذه الملة لا يبذلون في الدفاع عن أوطانهم وأنفسهم شيئاً من فضول أموالهم ، يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ،

كل واحد منهم يودّ لو يعيش ألف سنة ، وإن كان غذاؤه الذلة وكساؤه المسكنة ، ومسكنه المهوان . تفرقت كلمتنا شرقا وغربا ، وكاد يتقطع ما بيننا ، لا يحسن أخ لأخيه ، ولا يهتتم جار بشأن جاره ، ولا يرقب أحدنا في الآخر إلاّ ولا ذمة ، ولا نحترم شعائر ديننا ، ولا ندافع عن حوزته ، ولا نغززه بما نبذل من أموالنا وأرواحنا حسبا أمرنا

أيحسب اللابسون لباس المؤمنين أن الله يرضى منهم بما يظهر على الألسنة ولا يمس سواد القلوب ؟ هل يرضى منهم بأن يعبدوه على حرف ؟ فإن أصابهم خير أطمانوا به ، وإن أصابهم فتنة انقلبوا على وجوههم خسروا الدنيا والآخرة ؟ هل ظنوا أن لا يبتلي الله ما في صدورهم ، ولا يمحص ما في قلوبهم ؟ ألا يعلمون أن الله لا يذر المؤمنين على ما هم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ؟ هل نسوا أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم للقيام بنصره وإعلاء كلمته لا ييخون في سبيله بمال ، ولا يشحون بنفس ؟ فهل لمؤمن بعد هذا أن يزعم نفسه مؤمنا وهو لم يخط خطوة في سبيل الايمان ، لا بماله ولا بروحه ؟

إنما المؤمنون هم الذين إذا قال لهم الناس : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم لا يزيدهم ذلك الا ايمانا وثباتا ، ويقولون في اقدمهم : حسبنا الله ونعم الوكيل . كيف يخشى الموت مؤمن وهو يعلم أن المقتول في سبيل الله حي يرزق عند ربه ؟ تمتع بالسعادة الأبدية في نعمة من الله ورضوان كيف يخاف مؤمن من غير الله ، والله يقول (فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين)

فلينظر كلّ إلى نفسه ولا يتبع وساوس الشيطان ، ولتمتحن كل واحد قلبه قبل أن يأتي يوم لا تنفع فيه خاة ولا شفاعاة ، وليطبق بين صفاته وبين ما وصف الله به المؤمنين ، وما جعله من خصائص الايمان ، فلو فعل كل منا ذلك لرأينا عدل الله فينا واهتدينا . ياسبحان الله ، إن هذه أمتنا أمة واحدة ، والعمل في صيانتها من الأعداء أهمّ فرض من فروض الدين عند حصول الاعتداء . يثبت ذلك نص الكتاب العزيز ، وإجماع الأمة سلفا وخلفا ، فمالنا نرى الأجنبي

يصلون على البلاد الاسلامية صولة بعد صولة ، ويستولون عليها دولة بعد دولة ، والمتسمون بسمة الايمان آهلون لكل أرض ، متمكنون بكل قطر ، ولا تأخذهم على الدين نعة ، ولا تستفزهم للدفاع عنه حمية ؟ ألا يا أهل القرآن لستم على شيء حتى تقيموا القرآن ، وتعملوا بما فيه من الأوامر والنواهي ، وتتخذوه إماما لكم في جميع أعمالكم مع مراعاة الحكم في العمل كما كان سلفكم الصالح . ألا يا أهل القرآن هذا كتابكم فاقروا منه (فاذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت) ألا تعلمون فيمن نزلت هذه الآية ؟ نزلت في وصف من لا إيمان لهم . هل يسر مؤمناً أن يتناوله هذا الوصف المشار اليه بالآية الكريمة ، أو غرّ كثيرين من المدعين للإيمان ما زين لهم من سوء أعمالهم ، وما حسنته لديهم أهواؤهم (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)

أقول ولا أخشى تكبراً : لا يمس الايمان قلب شخص إلا ويكون أول أعماله تقديم ماله وروحه في سبيل الايمان ، لا يراعي في ذلك عذراً ولا تعلقة ، وكل اعتذار في القعود عن نصره الله فهو آية النفاق وعلامة البعد عن الله مع هذا كله تقول : إن الخير في هذه الأمة الى يوم القيامة كما جاءنا به نبي النبوة ، وهذا الانحراف الذي نراه اليوم نرجو أن يكون عارضاً يزول ، ولو قام العلماء الأتقياء وأدوا ما عليهم من النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وأحيوا روح القرآن ، وذكروا المؤمنين بمعانيه الشريفة ، واستلقتوهم الى عهد الله الذي لا يخلف لرأيت الحق يسمو والباطل يسفل ، ولرأيت نوراً يبهز الأبصار ، وأعمالاً تجار فيها الأفيكار . وإن الحركة التي نحسبها من نفوس المسلمين في أغلب الأقطار هذه الأيام تبشرنا بأن الله تعالى قد أعدّ النفوس لصيحة حق تجمع بها كلمة المسلمين ، ويوحد بها بين جميع الموحدين ، ونرجو أن يكون العمل قريباً ، فإن فعل المسلمون وأجمعوا أمرهم للقيام بما أوجب الله عليهم ، محت لهم الأوبة ، ونصحت منهم التوبة ، وعفا الله عنهم ، والله ذو فضل على المؤمنين ، فعلي العلماء أن يسارعوا الى هذا الخير ، وهو الخير كله : جمع كلمة

المسلمين ، والفضل كل الفضل لمن يبدأ منهم بالعمل و (من يهد الله فهو المهتد
ومن يضل فلن تجد له وليا مرشداً)

المقالة التاسعة عشرة

الخير (٥)

(أيما تكروا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة — قل ان

الموت الذي تفرون منه فانه ملائكة)

شهد العيان ودلت الآثار على ما صدر من بعض أفراد الانسان من أعمال تحير
الألباب ، وتدهش الأفكار ، ينظر اليها ضعفاء العقول فيعدونها معجزات ،
وان لم تكن في أزمنة النبوات ، ومحسبونها خوارق عادات ، وان لم تكن من
تحدي الرسالات ، وقد ينسبها الغفل الى حركات الأفلاك ، وأرواح الكواكب
وموافقة الطوالع . ومن القاصرين من يظنها من أحكام الصدق وقذفات الانفاق،
عجزاً عن درك الأسباب وفهم الصواب . وأما من أتاه الله الحكمة، ومنحه الهداية،
فيعلم أن الحكيم الخبير جل شأنه وعظمت قدرته، أناط كل حادث بسبب، وكل
مكسوب بعمل . وأنه قد اختص الانسان من بين الكائنات بموهبة عقلية ،
ومقدرة روحانية ، يكون بهما مظهراً للعجائب الأمور ، وبهذه المقدرة وتلك
الموهبة مناط التكاليف الشرعية ، وبهما استحقاق المدح أو الذم عند العقلاء ،
والتواب أو العقاب عند واسع الكرم سريع الحساب

إذا رجع البصير الى القياس الصحيح رأى في تشابه القوى الانسانية وتماثل
القطرة البشرية ما يدل على تقارب العقول ، بل على استواء المدارك، وأرشدته الفكر

* نشرت في العدد الثامن عشر من جريدة العروة الوثقى في ٢٦ ذي الحجة - سنة

١٣٠١ - ١٦ أكتوبر سنة ١٨٨٤

السليم الى ان فضل الله قد اعد كل انسان للكمال ، ومنحه ما يكون به مصدراً لفضائل الأعمال ، على تفاوت لا يظهر به الاختلاف بينهما الا للنظر الدقيق * هنا وقفة الحيرة: استعداد فطري للكمال في خلقه الانسان. ميل كلي في كل فرد لأن يتفرد بالفخار، ويمتاز بجلائل الآثار، وفضل عام من الجواد المطلق سبحانه وتعالى، لا يخيب طالباً، ولا يرد سائلاً، اذا صدق القاصد في قصده، واخلص السالك في جده . فما العلة في اخلاص الجمهور الأعظم من بني الانسان الى دنيا المنازل وقصورهم عن الوصول الى ما أعدته لهم العناية ويستفهم اليه الميل الغريزي، خصوصاً إن كانت النفوس مؤمنة بعدل الله مصدقة بوعده ووعيده ، ترجو ثواباً على الباقيات الصالحات ، وتخشى عقاباً على ارتكاب الخطيئات ، وتعترف بيوم العرض الأكبر — يوم تجزي كل نفس بما كسبت (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) ماذا يقعد بالنفوس عن العمل ؟ ماذا ينحدر بها في مزالق الزلل ؟ اذا ردت المسببات الى أسبابها، وطلبت الحقائق من حدودها ورسومها، وجدنا لهذا علة هي أم العلل ، ومنشأ يقرب به كل خلل : الجبن *

الجبن هو الذي أوهى دعائم الممالك فهدم بناها ، هو الذي قطع روابط الامم فخل نظامها ، هو الذي أوهن عزائم الملوك فانقلبت عروشهم ، وأضعف قلوب العالمين فسقطت صروحهم ، هو الذي يغلغق ابواب الخير في وجود الطالبين ، ويطمس معالم الهداية عن أنظار السائرين ، يسهل على النفوس احتمال الذلة ، ويخفف عليها ماض المسكنة ، ويهون عليها حمل نير العبودية الثقيل . يوطن النفس على تلقي الاهانة بالصبر والتذليل بالجلد، ويوطن الظهور الجاسية لأحمال من المصاعب أثقل مما كان يتوهم عروضه عند التحلي بالشجاعة والاقدام . الجبن يلبس النفس عاراً دون القرب منه موت أحمر عند كل روح زكية وهمة علمية . يرى الجبان وعر المذلات سهلاً ، وشظف العيش في المسكنات ريفاً ونعيمًا .

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت اسلام

لا بل يتجرع مرارات الموت في كل لحظة ولكنه راض بكل حال وإن لم

ييق له إلا عين تبصر الأعداء، ولا ترى الاحياء، ونفس لا يصعد إلا بالصعداء، واحساس لا يلج به إلا ألم اللأواء . هذه حياته : اضاع كل شي، في القناعة بلا شي، وهو يظن انه أدرك البغية، وحصل المنية

ماهو الجبن ؟ انخدال في النفس عن مقاومة كل عارض لا يلائم حالها، وهو مرض من الامراض الروحية، يذهب بالقوة المحافظة للوجود التي جعلها الله ركناً من أركان الحياة الطبيعية، وله أسباب كثيرة لو لوحظ جوهر كل منها لرأينا جميعها يرجع الى الخوف من الموت . الموت مآل كل حي ومصير كل ذي روح . ليس للموت وقت يعرف ولا ساعة تعلم، ولكنه فيما بين النشأة وأرذل العمر ينتظر في كل لحظة، ولا يعلمه إلا مقدر الآجال جل شأنه (وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت) يشتد الخوف من الموت الى حد يورث النفس هذا المرض القاتل بسبب الغفلة عن المصير المحتوم، والذهول عما أعد الله للانسان من خير الدنيا وسعادة الآخرة اذا صرف قواه الموهوبة فيما خلقت لأجله . نعم يغفل الانسان عن نفسه فيظن ماجعله اقيماً للحياة - وهو الشجاعة والاقدام - سبباً في الفناء . يحسب الجاهل أن في كل خطوة حتماً، ويتوهم أن في كل خطرة خطراً، مع أن نظرة واحدة لما بين يديه من الآثار الانسانية، وما ناله طلاب المعالي من الفوز بأمامهم، وما ذلوا من المصاعب في سيرهم، تكشف له أن تلك المخاوف إنما هي أوهام وأصوات غيلان، ووساوس شياطين، غشيتة فأدهشته، وعن سبيل الله صدته، ومن كل خير حرمته .

الجبن فتح تنصبه صروف الدهر وغوائل الايام، لتفتال به نفوس الانسان، وتلتهم به الامم والشعوب، هو حباله الشيطان يصيدها عباد الله ويصدم عن سبيله، هو عاة لكل رذيلة، ومنشأ لكل خصلة ذميمة، لاشقاء، إلا وهو مبدؤه، ولا فساد إلا وهو جرثومته، ولا كفر الا وهو باعته وموجه، ممزق الجماعات، ومقطع روابط الصلات، هازم الجيوش، ومنكس الاعلام، ومهبط السلاطين من سماء الجلالة الى أرض المهانة . ماذا يحمل الخائنين على الحياة في الحروب الوطنية؟ أليس هو الجبن؟ ماذا يبسط أيدي الادنياء، لدنيئة الارتشاء؟ أليس هو الجبن؟

ربما تتوهم بعد المثال فتأمل ، فان الخوف من الفقر، يرجع بالحقيقة الى الخوف من الموت ، وهو علة الجبين . سهل عليك أن تعتبر هذا في الكذب والنفاق وسائر أنواع الامراض المفسدة لمعيشة الانسان * الجبين عار وشار على كل ذي فطرة إنسانية خصوصاً الذين يؤمنون بالله ورسله واليوم الآخر ، ويؤمنون أن ينالوا جزاء لأعمالهم أجراً حسناً ومقاماً كريماً .

ينبغي ان يكون أبناء الملة الاسلامية بمقتضى أصول دينهم أهد الناس عن هذه الصفة الرديئة (الجبين) فانها أشد الموانع عن اداء ما يرضي الله ، وانهم لا يبتغون إلا رضاه . يعلم قراء القرآن أن الله قد جعل حب الموت علامة الايمان ، وامتنح الله به قلوب المعاندين ، ويقول في ذم من ليسوا بمؤمنين (ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال اذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية . وقالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا الى أجل قريب ؟) الخ الآيات ، الاقدام في سبيل الحق ، وبذل الاموال والأرواح في إعلاء كلمته ، أولسمة يتسم بها المؤمنون . لم يكتب الكتاب الالهي بأن تقام الصلاة وتؤتى الزكاة وتكف الايدي ، وعد ذلك مما يشترك فيه المؤمنون والكافرون المناقون ، بل جعل الدليل الفرد هو بذل الروح في اعلاء كلمة الحق والعدل الالهي ، بل عدده الركن الوحيد الذي لا يعتد بغيره عند فقده . لا يظن ظان أنه يمكن الجمع بين الدين الاسلامي وبين الجبين في قلب واحد . كيف يمكن هذا وكل جزء من هذا الدين يمثل الشجاعة ويصور الاقدام وان عماده الأخلص لله والتخلي عن جميع ما سواه لاستحصال رضاه .

المؤمن من يوقن أن الأجل بيد الله يصرفها كيف يشاء ، ولا يفيد التباطؤ عن أداء الفروض زيادة في الأجل ، ولا ينقصه الاقدام دقيقة منه . المؤمن من لا ينتظر نفسه الا احدى الحسينين ، اما أن يعيش سيداً عزيزاً ، وإما أن يموت مقرأً سعيداً ، وتصعد روحه الى أعلى عابدين ، ويلتحق بالكر وبيبين ، والملائكة المقربين ، من يتوهم أنه يجمع بين الجبين والايمان بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فقد غش نفسه وغرر بعقله ولعب به هوسه وهو ليس من الايمان في شيء . كل

آية من القرآن تشهد على الجبان بكذبه في دعوى الايمان . لهذا تؤمل من وردته الانبياء أن يصدعوا بالحق ويذكروا بآيات الله وما أودع الله فيها من الأمر بالاقدام لاعلاء كلمته والنهي عن التباطىء والتقاعد في أداء ما أوجب الله من ذلك وفي الظن أن العلماء لو قاموا بهذه الفريضة (الامر بذلك المعروف والنهي عن هذا المنكر) زمناً قليلاً ووعظوا الكفاية بتبيين معاني القرآن الشريف واحياؤها في أنفس المؤمنين رأينا لذلك أثرآ في هذه الملة يبقى ذكره أبد الدهر وشهدنا لها يوماً ما تسترجع فيه مجدها في هذه الدنيا وهو مجد الله الاكبر ، فالؤمنون بما ورثوا عن أسلافهم وبما تمكن في أفئدتهم من آثار العقائد لا يحتاجون إلا لقليل من التنبه ويسير من التذكير فينهضون نهضة الاسود فيستردوا مفقوداً ، ويحفظوا موجوداً ، وينالوا عند الله مقاماً محموداً .

المقالة العشرون

الامة وسلطة الحاكم المفسير (١)

وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون

ان الامة التي ليس لها في شؤونها حل ولا عقد ، ولا تستشار في مصالحها ولا أثر لارادتها في منافعها العمومية ، وإنما هي خاضعة لحاكم واحد إرادته قانون ومشيئته نظام ، يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد . فتلك أمة لا تثبت على حال واحد ولا ينضبط لها سير ، فتعورها السعادة والشقاء ، ويتداولها العلم والجهل ، ويتبادل عليها الغنى والفقر ، ويتناوبها العز والذل ، وكل ما يعرض عليها من

١٠ نشرت في العدد الرابع عشر من جريدة المروة الوثقى في ٢٢ شوال سنة

١٣٠١ و١٤ أغسطس سنة ١٨٨٤

هذه الاحوال خيرها وشرها ، فهو تابع لحال الحاكم . فان كان حاكماً عالماً حازماً ، أصيل الرأي ، عليّ الهمة ، رفيع المقصد ، قويم الطبع ، ساس الأمة بسياسة العدل ، ورفع فيها منار العلم ، وهد لها طرق اليسار والثروة ، وفتح لها أبواباً للتفنن في الصنائع ، والحذق في جميع لوازم الحياة ، وبعث في أفراد المحكومين روح الشرف والنخوة ، وحملهم على التحلي بالمزايا الشريفة من الشجاعة والشجاعة وإباء الضيم ، والأنفة من الذل ، ورفعهم إلى مكانة عليا من العزة ، ووطأ لهم سبل الراحة والرفاهة ، وتقدم بهم الى كل وجه من وجوه الخير

وإن كان حاكماً جاهلاً ، سيء الطبع ، سافل الهمة ، شرهاً ، مغتلاً ، جباناً ، ضعيف الرأي ، أحق الجنان ، خسيس النفس ، معوج الطبيعة ، أسقط الأمة بتصرفه إلى مهاري الخسران ، وضرب على نواظرها غشاوات الجهل ، وجلب عايبها غائلة الفاقة والفقر ، وجار في سلطته عن جادة العدل ، وفتح أبواباً للعدوان ، فیتغلب القوي على حقوق الضعيف ، ويختل النظام ، وتفسد الأخلاق ، وتخفض الكلمة ، ويغلب اليأس ، وتمتد إليها أنظار الظالمين ، وتضرب الدول الفاتحة بمخالبها في أحشاء الأمة ، عند ذلك إن كان في الأمة رمق من الحياة ، وبقيت فيها بقية منها ، وأراد الله بها خيراً اجتمع أهل الرأي وأرباب الهمة من أفرادها ، وتعاونوا على اجتثاث هذه الشجرة الخبيثة ، واستئصال جذورها قبل أن تنشر الرياح بذورها وأجزاءها السامة القاتلة بين جميع الأمة ، فتميتها وينقطع الأمل من العلاج ، وبادروا إلى قطع هذا العضو المجذوم قبل أن يسري فساده إلى جميع البدن فيمزقه ، وغرسوا لهم شجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وجددوا لهم بنية صحيحة ، سالمة من الآفات (استبدلوا الخبيث بالطيب) وإن انحطت الأمة عن هذه الدرجة ، وتركت شؤونها بيد الحاكم الأبله الغاشم يصر فيها كيف يصر فيها ، فأنذرنا بمحض العبودية ، وعناء الذلة ، ووصمة العار بين الأمم ، جزاء على ما فرطوا في أهورهم ، وما ربك بظلام للعبيد

المقالة الحادية والعشرون

الوهم (*)

ألا قاتل الله الوهم ، الوهم طوراً يكون مرآة المزججات ، ومجلى المفزعات ، وطوراً يكون ممثلاً للمسررات ، حاكياً للمنعشات ، وهو في جميع أطواره حجاب الحقيقة ، وغشاء عن عين البصيرة ، لكن له سلطان على الادارة ، وحكم على العزيمة ، فهو مجلبة الشر ، ومنفأة الخير

الوهم يمثل الضعيف قويا ، والقريب بعيداً ، والمؤمن مخافة ، والموثل مهلكا . الوهم يذهل الواهم عن نفسه ، ويصرفه عن حسه ، يخيل الموجود معدوما ، والمعدوم موجوداً ، الواهم في كون غير موجود ، وعالم غير مشهود ، يخبط فيه خبط المصروع ، لا يدري ما إذا أدركه وماذا تركه ، الوهم روح خبيث يلبس النفس الانسانية وهي في ظلام الجهل ، اذا خفيت الحقائق تحكمت الأوهام ، وتسلمت على الارادات ، فتقود الواهمين الى يسداء الضلالة ، فيخبطون في مجاهيل ، لا يهتدون إلى سبيل ، ولا يستقيمون على طريق اه المراد منه

* صدر مقالة سياسية في مسالة السودان وهصر نشرت في العدد السابع عشر من العروة الوثقى الذي صدر بباريس في ٦ ذي الحجة سنة ١٣٠١ الموافق ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٨٤ ولم تنشرها برمتها لالتزامنا في هذا الفصل نشر مقالات العروة الاصلاحية من دينية واجتماعية ، دون السياسية ، كده المقالة . جميع مقالات العروة الانتاجية ، وتلك سياسة السيد جمال الدين رحمهما الله تعالى

استدراك على الفصل الاول

(جامع الكتاب) إننا بعد أن طبعنا ما كان لدينا من مقالات الأستاذ الامام التي كتبها قبل دخوله في أعمال الحكومة الرسمية، وبعد طبع مقالات الوقائع المصرية أيضاً أرسل اليها الأديب المصري الشهير سليم بك المنجوري الدمشقي صاحب ديوان (سحر هاروت) مقالة من قلم الأستاذ الامام نشرت في إحدى الجرائد في ٣١ يوليو سنة ١٨٧٩ الموافق ١٢ شعبان سنة ١٢٩٦ موضوعها انتقاد رجال الدولة العثمانية على ما كانوا يرومونه من العبث باستقلال تونس الاداري، ومن محاولة إبطال حقوق مصر وامتيازاتها عقب سقوط اسماعيل باشا التي أفضت الى تدخل الدول وإجائها الباب العالي الى جعل فرمان تولية توفيق باشا كفرمان والده، وفيها التناء على توفيق باشا ووزرائه، وبيان مايجب على حكومته بأسلوب بيان مايرجى منها

جلس محمد توفيق باشا على كرسي الخديوية في رجب سنة ١٢٩٦ وكتب الأستاذ هذه المقالة في تأييده وتأييد حكومته في شعبان، تنفيذاً لخطه الحزب الوطني الذي أسسه السيد جمال الدين وهو الذي سعى لاستقاط اسماعيل وتولية توفيق إذ كان مشابهاً له ومنتظماً في سلكه، وصدر أمر توفيق في رمضان بنفي السيد جمال الدين من مصر باغراء قنصل الانكليز، وبعزل الشيخ محمد عبده من وظيفة التدريس في مدرسة دار العلوم ومدرسة الألسن، وإلزامه الإقامة في قريته (محلة نصر) لايفارقها - كما شرحنا ذلك في الجزء الأول من هذا التاريخ. فقد كتبت هذه المقالة بعد كتابة مقالة التربية بشهرين فقط وقد رأينا وضعها هنا استدراكاً ولما كانت قصاصة الجريدة التي نشر الشيخ فيها هذه المقالة خالية من العنوان وضعنا لها العنوان الآتي

المقالة الثالثة

الدولة العثمانية، والحربوية المصرية

لم يكف رجال الدولة ما ألمّ بها من الضعف والاختلال ، حتى راموا تجريدها عن الأولياء والنصراء ، بما يتخذون من تنفير النفوس ، وأسباب إفساد القلوب . فمن ذلك ما روته بعض الجرائد من محاولتهم إزالة الاستقلال الإداري عن تونس وإرسالهم الى فرنسا من يستميلها الى ذلك المقصد ، فان هذا الأمر (ان صح خبره) يوجب لامحالة انقباض الحكومة التونسية ، وبيعها على الالتجاء الى الدول الأجنبية ، تلتبس منهم المساعدة ، وترجوم الحماية ، نيسومونبا بذلك ما يرومون ، فلا تعصي لهم أمراً ، ولا تخالف لهم رأياً .

ومن ذلك ما بدا منهم في المسألة المصرية مما أوجب أسف انصريين عموماً وحكومتهم خصوصاً ، فانهم قد راموا في بادى الأمر أن يطلوا ما تقرر لها من الحقوق ، وما ثبت من الامتيازات ، غير ذاكرين ما تقدم لها من الخدمة ، وما سبق من المساعدة والنجدة ، فدعتهم الدول الى العدول عن ذلك ، فلجأوا الى المطالبة والمدافعة شأنهم في غالب الأمور والأوقات ، على علمهم بما ينشأ عن ذلك من تعطيل المصالح وتأخير الاصلاح المالي والاداري ، وما يترتب عليه من تداخل الاجانب فيما لا ينبغي لهم التداخل فيه من أمورنا الخصوصية ، وأحوالنا الداخلية حتى وقع ذلك بالفعل ، اذ تداخلت الدول في الأمر بالصورة الرسمية ، وأجأت الباب العالي الى اصدار فرمان ، مثبتاً لما تقرر في الفرائين السالفة من حقوق مصر وامتيازاتها — أفلم يكن الأجمل بالدولة أن تفعل اختياراً ، ما أخلصت الى فعله اضطراراً ، فتستبقي بذلك ولاء قوم فدوها بالاول ، وأهرقوا في مساعدتها دم الرجال ؟ على أن المصريين لا يعدلون عن ذلك الولاء ، ولا يطلبون به بديلاً ، علماً منهم بأن تلك المعارضه لم تقع من الجناب السلطاني ، وانما صدر بها عن رأي المصدر السابق (يريد به خير الدين التونسي) فان هذا الوزير على سعة علمه ،

وحسن نظره وذكاء نفسه ، لم يستطع مقاومة ميله الذاتي في هذا الأمر ، بل أخذته فيه المودة الخصوصية لمن اصطنعه ، وكان علة رفعه الى ذلك المقام الأسمى ، فبذل المجهود في القيام بأمره والانتصار له ، على علمه بأن ذلك لا يعني عنه شيئاً ، لوجود القوة فيما يخالفه ، فان القوة لا تقاوم مع الحق ، فكيف نرجى مقاومتها بغير حق ؟

ولقد استعفى الوزير المشار اليه من منصبه كما أننا التلغراف ، وكتب العرمان السلطاني مثبتاً لفرمان سنة ١٨٦٣ فلم يبق لنا في هذا الأمر ما يدعو الى النظر فيه . ولكننا نرجو أن يكون من آثاره انتظام أحوال الدولة العلية ، وترتب شؤون الحكومة المصرية

فأما الأول فلا يكون إلا بالاصلاح المستمر ، مبنياً على قانون يحفظ نظامه ، وترعى أحكامه ، ليستقيم به أمر العدل الموجب للنجاح ، وتتجسم أسباب الظلم المؤذن بخراب العمران ، ولا يحصل ذلك إلا بالحرية الذاتية ، والمساواة التي ترفع العدوان عن الناس ، فلا ينقبضون عن السعي في الاكتساب والمصالح فانه لا عزاً للملك إلا بالرجال ، ولا قوام للرجال إلا بالمسال ، ولا سبيل الى المسال الا بالعارة ، ولا تحصل العارة الا بالعدل ، وما العدل الا الحرية والمساواة . قال أحد الحكماء : كل من أخذ ملك أحد أو غصبه في علمه ، أو طالبه بغير حق ، أو فرض عليه حقاً لم يفرضه القانون ، فقد ظلمه ، نجباة الأموال بغير حقها ظلمة ، والمعتدون عليها ظلمة ، والناهبون لها ظلمة ، والمناعون لحقوق الناس ظلمة ، ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران الذي هو علة قوتها ، بل مادة وجودها ، فإذا سلمت الدولة من هذه المعاييب ، أمنت المصائب والمعاظيب ، ولا سبيل الى ذلك الا برفع الاستبداد ، وتقرير أمر الشورى

وأما اقامة أمور الحكومة المصرية ، فهي الآن في عالم اقروءة ، تعدها معدّات حسن القصد وصفاء النية ، وسنراها بعناية أميرنا الجديد ووزرائه الكرام ، بارزة الى عالم الفعل ، يتقدمها نظام الشورى ، معيناً للأمة حقوقها ، مبيناً لها واجباتها ، فتنتظم بذلك الأحوال المالية ، والأموال الادارية ،

وتنجوبه من ربة التداخل الأجنبي ، الذي جعل في كل مملكة شرعية دولة مستقلة ،
 وحكومات مختلفة ، وأجأ أهلها الناطقين بلغتها ، المستظلمين بحمايتها ، النابتين في
 أرضها ، المسترزقين من خيرها ، الى الانحراف عنها ، والانتماء الى غيرها ،
 يتفاخرون بذلك ولا يحسبونه عاراً ، بل يعدون البقاء على ولاء الحكومة
 المالكة عجزاً وضعفاً ، لما هو ظاهر من امتياز أهل العتوق بالسطوة والقوة
 والمنعة ، وإن دولة المطيعين صارت لهم كبتاً وعاراً وذلاً وصغاراً ، وللأجنبي
 عزاً ورفعة وسعة ومنعة

وكيف لانرجو ذلك وقد علمنا علم اليقين أن أميرنا الفتى منزه النفس عما
 يوجب هرم الدولة من الترف والاستبداد ، بدليل تعفنه عن معظم الراتب
 المعين له ، وإثباته لقانون شورى النواب ، الحاسم لأسباب الاستبداد ، فلا
 شك أن سيكون من أعظم سيرته ، وأفضل رغبته ، ما كان لله رضى ، وللحق
 قواماً ، والأمة عدلاً ، والدولة نظاماً

الفصل الرابع

﴿ ما نشر له بعد النفي من المقالات في الصحف السورية والمصرية ﴾

المقالة الاولى

مصر وجمهورية الجيزة (*)

(كتب الينا بعض أهل الفضل ممن له مزيد اطلاع في أحوال مصر بما يأتي)
وقفت بالصدفة على نسخة من جريدة (الجنة) الغناء المؤرخة في الحادي عشر من شهر رجب ، فاذا فصل في فآحتها يبحث في شؤون القطر المصري وعلائق سكانه مع حضرة خديويهم المعظم ومعاملتهم لذوي المصاحبة فيه من الاجانب فأنجحى على المصريين بالتقريع والتعنيف ووجه الأئمة عليهم في ذنوب كأنهم كانوا اقترفوها ، ودعاهم الى طاعة خديويهم كأنهم معه في عصيان ، ونهيبهم على مزايا الجناب الخديوي وفضائله كأنهم عنها في غفلة . وكنت رأيت جريدة الجنان قد سبقت الجنة الى مثل ذلك من قبل بأيام فشكرت لصاحب القلم ماأخلص من نصيحته وحمدته على عنايته بأمر المصريين

غير أني وجدت حال المصريين في ماضيهم وحاضرهم ينطق بخلاف ماتقريبه عبارة من أنهم منحرفون عن الخديوي المعظم وأن حضرة نزل في أعينهم عن المقام الذي يستحقه من الاجلال . والحوادث المصرية شاهدة على أن أسباب المشاكل في القطر المصري غير ما ذكره حضرة الكاتب . والسجلات الرسمية والاعمال الثابتة حاكمة بنقيض ماأثبته من جنابة المصريين على الاجانب أو تطاولهم الى مس المصالح الدوائية . وجميع السياسيين من أهل المسكونة (ما عدا بعض

(*) نشرت في سنة ١٨٨٥ من جريدة ثمانات الفنون التي كانت تصدر في بيروت - بتاريخ ٢٣ رجب سنة ١٣٠٣ من غير نزو - وهي مما زنادا في الطبعة الثمانية

رجال الانكبايز) في اتفاق على خلاف ماذكره من أن دولة الانكبايز مستمسكة بالحلق في تعرق الديار المصرية . لهذا رأيت أن أكتب اليكم بمجمل من القول لتنبيه من لم يقف على الحقيقة أو طال عهده باخبارها فديسيها ، فان رأيتم الفائدة في نشره فذلك اليكم

الجناب الخديوي كان أعرف الناس بأهل بلاده ودرجة استعدادهم فظفر اليهم بعين المرحلة ، وافتتح ولايته الميمونة بأمر كريم أصدره في أوائل رجب سنة ١٢٩٦ هجرية بعد استوائه على كرسي الخديوية بايام ووجه به إلى دولتو شريف باشا ، وكان من فصوله ما يحدث عن مقاصد سموه في حكم بلاده فجعل منها توسيع نطاق الشورى وتحويل النواب حق النظر في برنامج المالية ولم ينسخ هذا الأمر بغيره . وثابر دولتو شريف باشا على انفاذه وسعى لذلك سعياً بليغاً حتى في زمن انعزاله عن الحكومة إلى أن عرف برجل الحرية ، ثم إن جناب الخديوي هو الذي أصدر الأمر بانتخاب النواب وواجتماع مجلسهم في سنة ١٢٩٩ ونفذ الأمر بتأييد من شريف باشا . وأشد الناس كانوا حرصاً على الحقوق الوطنية وتوسيع دائرة الشورى هم أكرم الناس منزلة لدى الحضرة الخديوية في هذه الأيام ، ولو أراد مرشد أن يصرح بأسمائهم لفعل ولكن ظهور الأمر غني عن البيان . فلو قال قائل إن طلاب تلك الحقوق أخفض شأنًا من أن تناط بهم الأعمال في أقل الأمور كما أثبتته الكاتب لكان ذلك تطاولاً على الجناب الخديوي وعقلاء رعيته مثل دولتو شريف باشا ، ولو كانت إجابة غلب أولئك الطالبين تعدد مشايعة للفساد و تغرير بالبلاد لما صدرت به الأوامر الخديوية مع تقرر مال للخديوي من أصالة الرأي وحسن الرعاية لمصالح بلاده . ودعوى أن البلاد صارت حكومتها إلى الفوضى جرأة على المقام الخديوي بنسبة الضعفاء اليه ، ورمي له بعدم القدرة على تلافي الأمر في بدايته ، وإنا نجل مقام الحضرة الخديوية عن مثل هذه الظنون ، ومن ظنمها به فقد مس مقامه بأشد ما يمدح به في حاكم من جهة كونه حاكماً . برأه الله مما قالوا

فقد كانت منزلة الخديوي في نفوس رعيته هي المنزلة التي نالها من يوم

توليته ورعاياه كانوا من أشد الناس محبة له ومن أخشعهم خضوعاً لأوامره ،
 وجميع نظمات الحكومة وأعمالها التي نفذت وأجريت فيما بين الخامس عشر
 من شوال سنة ٩٨ والسادس والعشرين من شعبان سنة ٩٩ كلها بأوامره العلية
 ولم يدرك سلطته أدنى ضعف . وأما ما تقدم ذلك من حركات الجند فلم يخرج عن
 حد نزاع خاص بين بعض كبار الضباط وبين بعض رجال الحكومة لكن الجانب
 الخديوي كان في منزلة الاجلال من نفوس العامة والخاصة ، ولولا خيفة التطويل
 لسردت كل قول شاهداً على التعضيد

غير أن الحكومة الانكليزية على عاداتها في اختلاق العالل وارتمجال المساءات
 قلبت وجوه المسائل ، واستدبرت طالع الحق ، واستقبلت وجهه طمها ، واتخذت
 مجرد التغيير في بعض نظمات الحكومة الخديوية سبباً للنداوة ، واندفعت
 لتسير مراكبها إلى مياه الاسكندرية مهدداً الحكومة الخديوي وعدواناً عليه ،
 ثم نفخ بعض رجالها في أنوف ضعفة العقول من الاجانب المقيمين بالثغر حتى
 أوقدوا فتنة هلك فيها المساكين قضاء لشهوة انكليزية ، وأقامت منها حكومة
 انكلترا حجة في العدوان على الأراضي الخديوية ، ولأن بصيراً نظراً إلى أحوال
 القطر المصري بعين صحيحة من مرض الغرض لعلم أن بدء الخلل في ذلك القطر
 من يوم ورود المراكب الانكليزية لثغر الاسكندرية . ولا نسبة بين ما كان
 قبل ذلك من عموم الأمن ورواج الاعمال وانتظام المصالح وبين ما كان بعده .
 المصريون لم يتطاولوا المس المصالح الدولية ولا في وقت من الاوقات فقد قرروا
 في مجلس نوابهم أن يكون العمل على قانون التصفية الذي أسسه دولتلو رياض
 باشا في سنة ١٢٩٧ بالاشتراك مع وكلاء الدول ، وأخذوا على أنفسهم بالقول والفعل
 أن لا يبحثوا في أمر رابطة من روابط الحكومة مع الدول العظيمة مما تقرر في
 عقود الحكومة ، وقد مضى ذلك الزمن ومخصصات الديون تؤدي مستوفاة في
 آجالها ، وحقوق الاجانب في مكائنها من الرعاية ، إلا أن الحكومة الانكليزية
 نهيات لها فرصة للتقدم إلى بعض ما كانت تنزع اليه من زمن طويل فتجنحت على
 المصريين بما لم يجنوه

ولم يزل المصريون على وفاق في تعظيم خديويهم وتعظيم سموه في رعاية المصالح الدولية مع المحافظة على حقوق البلاد إلى أن حال الانكاييز بحربهم الظالمة بين جنابه العالي وبين رعيته فسأت ظنون قوم من كبار ضباط الجند لبعدهم عن حقيقة أمر خديويهم ، فاستمروا على المقاومة ظناً منهم أنهم لا يقاومون إلا الانكاييز ، ولا يدافعون إلا جيشاً أجنبياً يغير على البلاد ، وواقفهم على ذلك عامة المصريين لهذا الظن نفسه ، فلما طالت المدة وفشا ما كان من أوامر الجناح الخديوي وإرادة الحضرة السلطانية فيما بينهم كان ما كان من تراجع الناس ، وتسليم القيادة إلى حاكمهم الشرعي ، وخضع له المصريون كافة خضوعاً غير أفنديتهم ، وخالط ألبابهم ، وهذا شأنهم إلى اليوم . ثم حالهم مع المسيطرين عليهم من الانكاييز لم يتعد حدود المسألة والامثال لأوامرهم ، رجاء التخلص من غوائلهم ، وانتظاراً لو فائهم بعودهم ، ولو كان المصريون قوماً شرس الطباع صعب المراكب ، جفاة الجوانب ، لما سكنت لهم نائرة ، ولما جنحوا إلى مسالمة ، ولما رسخت قدم الانكاييز فيهم على قلة جيشهم ، وشدة ملاقوا من عندهم ،

أما فضائل الجناح الخديوي من العفة والاستقامة والشقة على الرعية والسعي في مصالحها ، فهو مما ذاق المصريون لذته ، ووجدوا فائدته ، فلا يرتابون في شيء منه ، والتنبيه عليه اعلان لحفائه على أعين مشاهديه سنين عديدة ، فهو إلى الطعن أقرب منه إلى المدح . ورضاء الحضرة السلطانية عن الخديو المعظم وإقامة الشواهد على الرضاء باهداء النياشين والتحف مما نشرته الجرائد المصرية وشهد المصريون رونق الاحتفال له وبلغ شاهدتهم غائبهم ، فأثر للاحتجاج به بعد سبق علمه بأزمان عند من تقام الحججة به عليهم؟

وبالجملة فالمصريون قوم عرفوا بالطاعة لحضرة سلطانهم المعظم أمير المؤمنين أيده الله ، وعلموا أن الجناح الخديوي نائبه في بلادهم ، ومظهر سلطته عليهم ، فهم له خاضعون ، وعلى محبته متفقون ، فان نقل ناقل خلاف ذلك فهو إبطال فساد ، أو منخدع بوسوسة أجنبية ، فقد تبين أن من حظ الانكاييز ايقاع النفرة بين الخديوي ورعيته ليتم لهم ما يريدون منها ، كما مرنا عليه في كل بلد دخلوه

هذه هي الحقيقة التي ينكرها الجهلاء ، ويعرفها العقلاء ، فلم تكن أسباب المشاكل ما ذكره حضرة الكاتب وإنما سببها الجشع الانكائزي كما اتفق عليه سياسيو العالم . ولم يكن تداخل الانكائز حقاً مفروضاً في بداية الأمر ، ولا حلولهم اليوم يعدّ من حسناتهم ، فانا لم نسمع بأن الديون تخول للدائن حق التغلب على المالك ، وأهم العالم بين أيدينا تهتف بنا أحوالها ولو شاء حاكم أن يحكم بحق لأحد في التداخل لأصلاح أمر من أمور مصر فليحكم به للدولة العلية فهي حاكمة البلاد ، ولا تعجز عن تقرير النظام فيها بالكلام ، فضلاً عن تجريد الحسام ، ورحم الله أمراً عرف حده ، فوقف عنده ، والله الموفق لما فيه الصلاح

المقالة الثانية

كتب المغازي وأحاديث القصاصين*

سألني سائل عن الرأي فيما يوجد بأيدي الناس من كتب الغزوات الاسلامية وأخبار الفتوح الاولى ، وعمّا حشيت به تلك الكتب من أقوال وأعمال تنسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وإلى كبار أصحابه رضي الله عنهم ، وهل يصح الاعتماد على شيء منها ، ثم خص في السؤال كتاب الشيخ الواقدي الموضوع في فتوح الشام ، وذكر لي أن بعضاً من معرّبة هذه الأيام المعتدين على مقام التصنيف ، قد جعلوا هذا الكتاب عمدة نقلهم ، ومثابة يرجعون اليها في روايتهم ، ليتخذوا منه حجة على ما يروّجونه من تشويه سيرة المسلمين الأولين ، وليسلكوا منه سبيلاً إلى إذاعة المثالب ، ونشر المعاييب وأن بعضاً آخر من ضعفة العقول من المسلمين ، ظنوا هذا الكتاب من أنفس ما ذخر الأولون للآخرين ، وأنه جدير أن يحرز في خزائن الكتب السياسية ، وحقيق أن ينقل من اللغة العربية إلى غيرهما من

* نشرت في العدد ٥٨٧ من جريدة ثمرات الفنون البيروتية في ٢٦ رمضان

اللغات، فأجبت السائل بمجواب أحببت لو ينشر، على ظن أن تكون فيه ذكرى لمن يتذكر لم يُرزأ الاسلام بأعظم مما ابتدعه المنتسبون اليه ، وما أحده الغلاة من المقتريات عليه ، فذلك مما جلب الفساد على عقول المسلمين ، وأساء ظنون غيرهم فيما بني عليه الدين ، وقد فشت للكذب فاشية على الدين المحمدي في قرونه الاولى ، حتى عرف ذلك في عهد الصحابة رضي الله عنهم ، بل عهد الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم في حياته ، حتى خطب في الناس قائلاً : « أيها الناس قد كثرت علي الكذابة ، ألا من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » أو كما قال (١)

إلا أن عموم البلوى بالأكاذيب حق على الناس بلاؤه في دولة الامويين ، فكثرت الناقلون ، وقل الصادقون ، وامتنع كثير من أجلة الصحابة عن الحديث إلا لمن يشقون بحفظه ، خوفاً من التحريف فيما يؤخذ عنهم ، حتى سئل عبد الله ابن عباس رضي الله عنه : لم لا يتحدث ؟ فقال : لكثرة المحدثين . وروى عنه الامام مسلم في مقدمة صحيحه أنه قال : مارأيت اهل الخير في شيء ، أكذب منهم في الحديث (٢) ثم اتسع شر الاقتراء ، وتفاقم خطب الاختلاق ، وامتد بامتداد الزمان ، إلى أن نهض أئمة الدين من المحدثين ، والعلماء العاملين ، ووضعوا للحديث أصولاً ، وشرطوا في صحة الرواية شروطاً ، وبينوا درجات الرواة وأوصافهم ، ومن يوثق به ومن لا يوثق به منهم ، وصار ذلك فناً من أهم الفنون سموه فن الاسناد ، وأتبعوه بفن آخر سموه فن مصطلح الحديث ، فامتاز بذلك الصحيح من الفاسد ، وامتاز الحق من الباطل ، وعرفت الكتب الموثوق بها من غيرها ، وثبت علم ذلك عند كل ذي إلمام بالديانة الاسلامية

وقد روي عن الامام مالك رضي الله عنه أنه كان قد كتب كتابه الموطأ

(١) لا أذكر اني رأيت الحديث بهذا اللفظ وظاهر انه مروى بالمعنى بقوله أو كما قال (٢) روى مسلم هذه العبارة في مقدمة صحيحه عن يحيى بن سعيد القطان بهذا اللفظ وبلغظ الصالحين بدل أهل الخبر ولم يذكر ابن عباس وأوله بان الكذب يجري على لسانهم ولا يعتمدون الكذب يعني يرون الاحاديث الموضوعة ولا يعلمون لحسن ظنهم وعدم تقدم

حاوياً أربعة عشر ألف حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما سمع حديث « قد كثرت علي الكذابة فطابقوا بين كلامي والقرآن ، فان واقفه والا فاطر حوه » عاد إلى تحرير كتابه ، فلم يثبت له من الأربعة عشر ألفاً أكثر من ألف ومن راجع مقدمة الامام مسلم علم ما لحقه من التعب والعناء في تصنيف صحيحه ، واطلع على ما أدخله الدخلاء في الدين وليس منه في شيء لم يخف على أهل النظر في التاريخ أن الدين الاسلامي غشي أبصار العالم بلامع القوة ، وعلا رءوس الأمم بسطان السطوة ، وفاض في الناس فيضان السيول المتحدرة ، ولاحت لهم فيه رغبات ، وتمثلت لهم منه مرهبات ، وقامت لأولي الألباب عليه آيات بينات . فكان الداخلون في الدين على هذه الأقسام : قوم اعتقدوا به إذعانا لحجته واستضاءة بنوره ، وأولئك الصادقون . وقوم من ملل مختلفة انتحلوا لقبه ، واتسموا بسمته ، إما لرغبة في مغامره ، أو لرهبة من سطوات أهله ، أو لتعزز بالانتساب اليه ، فتدثروا بدثاره ، لكنهم لم يستشعروا بشعاره . لبسوا الاسلام على ظواهر أحوالهم ، إلا أنه لم يمس أعشار قلوبهم ، فهم كانوا على أديانهم في بواطنهم ، ويضارعون المسلمين في ظواهرهم . وقد قال الله في قوم من أشباههم (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) فمن هؤلاء . من كان يبالي في الرياء ، حتى يظن الناس أنه من الاقياء ، فإذا أحسن من قوم ثقة بقوله أخذ يروي لهم أحاديث دينه القديم ، مسنداً لما إلى النبي صلى الله عليه وسلم أو بعض أصحابه ، ولهذا ترى جميع الاسرائيليات وما حوته شروح التوراة قد نقل إلى الكتب الاسلامية ، على أنه أحاديث نبوية ، إلا أن أئمة الدين عرفوا ذلك فنصوا على عدم صحتها ، ونهوا عن النظر فيها . ومنهم من تعمد وضع الأحاديث التي لو رسخت معانيها في العقول أفسدت الأخلاق ، وحملت على التهاون بالأعمال الشرعية ، وفترت الهمم عن الانتصار للحق ، كالأحاديث الدالة على اقتضاء عمر الاسلام (والعباد بالله) أو المطمعة في عفو الله مع الانحراف عن شرعه ، أو الحاملة على التسليم للقدر تبرك العقل فيما يصلح الدين والدنيا . كل ذلك يضعه الباحثون قصداً لافساد المسلمين ،

وتحويلهم عن أصول دينهم ، ليختل نظامهم ، ويضعف حولهم .

ومن الكاذبين قوم ظنوا أن التزيد في الاخبار والاكثر من القول يرفع من شأن الدين ، فهدروا بما شاؤا ، ينتغون بذلك الاجر والثواب ، ولن ينالهم إلا الوزر والعقاب ، وهم الذين قال فيهم ابن عباس : ما رأيت أهل الخير في شيء أ كذب منهم في الحديث . ويريد بأهل الخير أولئك الذين يطيلون سبالمهم ، ويوسعون سربالمهم ، ويطأطئون رءوسهم ، ويخفتون من أصواتهم ، ويغدون ويروحون إلى المساجد بأشباحهم ، وهم أبعد الناس عنها بأرواحهم ، يحركون بالذكر شفاههم ، ويلحقون بها في الحركة سبحهم ، ولكنهم كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب : منقادون لحملة الحق ، لا بصيرة لهم في أحنائه ، ينقدح الشك في قلوبهم لأول عارض من شبهة ، جعلوا الدين من أقفال البصيرة ومغاليق العقل ، فهم أغرار مرحومون ، سيئون ومحسبون أنهم يحسنون . اهـ فهؤلاء قد يخيل لهم الظلم عدلا ، والقدر فضلا ، فيرون أن نسبة ما يظنون إلى أصحاب النبي مما يزيد في فضلهم ، ويعلي في النفوس منزلتهم ، فيصح فيهم ما قيل : عدو عاقل ، خير من محب جاهل . ومن هؤلاء واضع كتب المغازي والفتوح وما شاكها

أما الشيخ الواقدي فكان من علماء الدولة العباسية ، ولاء المأمون القضاء في عسكر المهدي ، وكان تولى القضاء في شرقي بغداد . قال ابن خلدكان : وضعفوه في الحديث وتكلموا فيه اهـ أي عدوه ضعيف الرواية ليس من أهل الثقة . ولذا نص الامام الرملي من علماء الشافعية : على أنه لا يؤخذ بروايته في المغازي^(١) فان كان هذا الكتاب المطبوع الموجود في أيدي الناس من تصنيفه ، فهذه منزلته من الضعف عند علماء المسلمين ، على آني لو حكمت بأنه مكذوب عليه ، مخترع النسبة اليه ، لم أكن مخطئاً

(١) أقل ما قيل فيه انه ضعيف وقد كذبه الشافعي وأحمد وروى البيهقي عن الشافعي انه قال كتب الواقدي كلها كذب ، وروثه آخرون ولا خلاف في كونه من أعلم علماء الملة . كما في تهذيب التهذيب

وذلك لأن الواقدي كان من أهل المائة الثانية بعد الهجرة ، وكان من العلم بحيث يعرفه مثل المأمون بن هرون الرشيد ، ويواصله ويكاتبه ، وصاحب هذه المنزلة في تلك القرون إذا نطق في العربية فأنما ينطق بلفظها ، وقد كانت اللغة لتلك الأجيال على المعبود فيها من متانة التأليف ، وجزالة اللفظ ، وبدواة التعبير . والناظر في كتاب الواقدي ينكشف له بأول النظر أن عبارته من صناعات المتأخرين في أساليبها ، وما ينقل فيها من كلام الصحابة مثل خالد بن الوليد وأبي عبيدة وغيرهم رضي الله عنهم لا ينطبق على مذاهبهم في النطق ، بل كلما دقق المطالع في أحناء قوله يجد أسلوبه من أساليب القصاصين في الديار المصرية من أبناء المائة الثامنة والتاسعة ، ولا يرى عليه لهجة المدنيين ولا العراقيين ، والرجل كان مدني المذبت عراقي المقام ، ولولا خوف التطويل لأتيت بكثير من عباراته ، وبينت وجه المخالفة بينها وبين مناهج أبناء القرون الأولى في التعبير ، على أن ذلك لا يحتاج إلى البيان عند العارفين بأطوار اللغة العربية فهذا الكتاب لا تصح الثقة به ، إما لأنه مكذوب النسبة على الواقدي وهو الأظهر ، وإما لضعف الواقدي نفسه في رواية المغازي كما صرح به العلماء ، فلا تقوم به حجة المتحذلقين ، ولا يصلح ذخراً للسياسيين ، ومثل هذا الكتاب كتب كثيرة كقصص الأنبياء المنسوب لأبي منصور الثعالبي ، وكثير من الكتب المتعلقة بأحوال الآخرة ، أو بدء العالم ، أو بعض حقائق مخلوقات المنسوبة إلى الشيخ السيوطي ، وقصص روايات تنسب إلى كعب الأخبار أو الأصمعي ، وما شا كلهما ممن عرفوا بالرواية ، فأولع الناس بالنسبة إليهم من غير تفريق بين صحيح وباطل ، فجميع ذلك مما لا اعتداد به عند العلماء ، ولا ثقة بما يندرج فيه . والعمدة في النقل التاريخي كتب الحديث كصحيح البخاري ومسلم وغيرهما من الصحاح ، ويتلوها كتب المحققين من المؤرخين كابن الأثير والمسعودي وابن خلدون وأبي الفدا وأمثالهم . وعلى أي حال فلا يستغني مطالع التاريخ عن قوة حاكمة يميز بها بين ما ينطبق على الواقع وما ينبو عنه هذا ما أردنا اليوم إجماله ، فإن دعا إلى التفصيل داع عدنا إليه ، والله الموفق للصواب

المقالة الثالثة

مراسلات *

(ملخص خطاب له كان القاه في المدرسة السلطانية ببيروت وكان من مدرسيها وكان بعض جواسيس فيها بلغ السلطان طمنا فيه وفي الاستاذ ، وكتبت جريدة ثمرات الفنون ثناه عليه تبني به الدفاع عنه فأرسل اليها رحمه الله تعالى ما يأتي :)

طالعت في جريدتكم جملة تتعلق بالخطاب الذي دعيت اليه وأقيته في احتفال المدرسة السلطانية ، ولقد مننتم بذكر صفات أثبتوها لهذا العاجز ، وعندني أن نفسي تقصر عن القليل منها فضلا عن كثيرها ، فليشكرم الأدب ولتحمدكم الفضيلة . ثم إن أحد الادباء سألتني أن أثبت ما بني عليه الخطاب بالكتابة لينشر ، فرأيت أن أكتب به اليكم ، فان رأيتم الفائدة في نشره فدونكم وما تشاؤون

قت بين يدي الحاضرين فحمدت الله وصليت على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم اعترفت بالقصور ، واستجدت العفو من الحاضرين ثم قلت ما معناه : أفتح كلامي بالدعاء لمولانا أمير المؤمنين ، وخليفة رسول رب العالمين ، السلطان عبد الحميد خان ، فقام هذا الخليفة الأعظم فينا ، هو الحافظ لنظامنا ، والحامي عن مجدنا ، والآخذ بميزان القسط بيننا ، وهو هادينا إلى أفضل سبلنا ، فهو ولي النعمة علينا ، ولو أفرغنا جميع أوقاتنا في الدعاء لعظمت ما أدينا أدنى حقه علينا ، فاللهم أيد شوكته ، وأبد دولته ، وتمتع بوجوده رعاياه الصادقين . ثم أتبع ذلك بالدعاء لوزرائه الذين فوض اليهم النظر في شؤون رعيته ، والقيام بتنفيذ إرادته . ثم أثبتت على حضرة ملجأ الولاية السورية ، وعلى سعادة

متصرف بيروت ، وذكرت فضل دولة الوالي الأنعم ، وسعادة المتصرف الأكرم في ترويج سوق العلم ، وتعزيز جانب الفضل . ثم شكرت الحاضرين على الاحتفال في ذلك المعهد العلمي . وقلت : إن الحامل لهم عليه إنما هو تعظيم المعارف ، واجلال مقامها ، علماً منهم بأن العلم عزيز ، والعزير اذا حل دار قوم فلم يجولوا منزلته هاجرم وارتحل عنهم ، وتركهم في ظلمات لا يبصرون . فليحدم العلم ، ولتفض عليهم بركانه ان شاء الله
ثم أعقبت ذلك بما معناه :

إن حرصنا معاشر العثمانيين على انتشار المعارف منشؤه أمر في نفوسنا ، فاننا اذا خالطنا سكان الأقطار الشرقية على اختلاف مواقعها نجد في كل واحد منهم احساساً بفقد شيء ، كان له فهو آسف على فوائده ، وفيه ميل لطلبه برغبة الوصول اليه ، غير أن النفوس في حيرة من هذا المقفود المطلوب كأنها لا تهتدي اليه . ويزيدنا أسفاً وشوقاً مخالطتنا لاقوام يدعون أنافي المنزلة المتأخرة عنهم ، وسواء أصابوا في دعواهم أم أخطأوا ، فان الجمهور مناقد صدقهم ، ولم تزل الحيرة آخذة بالعقول حتى قامت الدولة العلية بصوت خليقتها الأعظم تنادي على الأمة أن مطلوبكم المحبوب هو العلم . كان العلم فيكم وكان الحق معه ، وكان الحق فيكم ، وكان المجد معه . كل مقفود يفقد بفقد العلم ، وكل موجود يوجد بوجود العلم . ثم أنشأت المدارس ، وأقامت بناء المكتاب ، وحملت رعاياها من كل طبقة على الدراسة ، وطالبهم باقتناء العلوم ، فاستجاب لها اقوام منحهم الفطرة قوة في الاستعداد ، وسيتبعهم غيرهم ان شاء الله
أما العلم الذي نحس بمحاجتنا اليه ، فيظن قوم أنه علم الصناعة وما به اصلاح مادة العمل في الزراعة والتجارة مثلاً . وهذا ظن باطل فاننا لو رجعنا إلى ما يشكوه كل منا نجد أمراً وراء الجهل بالصناعات وما يتبعها . إن الصناعة لو وجدت بأيدينا نجد فينا عجزاً عن حفظها ، وإن المنفعة قد تنهياً لنا ثم تغفلت منا لشيء في نفوسنا ، فنحن نشكو ضعف الهمم ، وتخاذل الايدي ، وتفرق الأهواء ، والغفلة عن المصلحة الثابتة ، وعلوم الصناعات لا تفيدنا دفعاً لما

نشكبه ، فطلوبنا علم وراء هذه العلوم ، ألا وهو العلم الذي يمس النفس ، وهو علم الحياة البشرية

إذا نفخت الحياة في جسم نهبته لجميع ضروراته ، وهدهته لحاجاته ، واستحفظته ما يصل اليه ، وصرفته في سبيل الحصول عليه ، والعلم المحيي للنفوس هو علم أدب النفس ، وكل أدب لها فهو في الدين ، فما فقدناه هو التبخر في آداب الدين ، وما نحس من أنفسنا طلبه هو التقه في الدين ، ولا أريد أن نطلب علماً محفوظاً ، ولكننا نطلب علماً مرعياً ملحوظاً . وما أودعته الديانة من الآداب النفسية والسمكالات الروحية لم يختلف في صحته أحد من البشر ، حتى من يظن نفسه غير آخذ بالدين ، فإذا استكملت النفس بأدائها عرفت مقامها من الوجود ، وأدرت منزلة الحق في صلاح العالم ، فاتصبت لنصره ، وأيقنت بحاجتها إلى مشاركتها في الوطن والملة ، فأخذت بالفضيلة الجامعة للفضائل ، وهي ما يعبر عنها بحب الوطن والدولة والملة ، ولا نريد من الحب ميلاً خيالياً ، ولكننا نريد منه ميلاً يعث على العمل ، كما يرشد إليه الدين والأدب ، فتمت تحملت النفوس بهذه الفضيلة أبصرت مواقع حاجاتها فاندفعت إلى طلبها ، وطرقت لها كل باب ، لا ترجع حتى تظفر أو يدركها الأجل أما دعوى أننا فقراء فهي باطلة ، فانا لو نظرنا إلى ثروة بلادنا لا نجد لها قاصرة عن حاجاتها ، ولكن القاصر عن الحاجات هو ادراكنا لاحتياجنا ، فقد نرى الغني يبذل أموالاً جمة في زخارف زينة لا مقام لها في نظر العاقل ، ولا يرى في بذله هذا مغرمًا ، ثم اذا دعي الى مساعدة وطنه وملته ودولته يستكثر القليل ، ويعطي وهو كاره ، ولو كان حي القلب بحياة العلم الحق لجعل الأفضل من ماله ونفسه مبدولاً في تأييد دولته ورفع أوطانه ، (ثم أتيت على ذلك بشواهد وضربت له أمثالا كلها يرجع الى هذا الأصل) ثم قلت :

واننا في تحصيل هذا العلم الحيوي لا نحتاج الى الاستفادة من البعداء عنا ، بل يكفيننا فيه الرجوع لما تركنا ، وتخليص ما خلطنا ، فهذه كتبنا الدينية والأدبية حاوية لما فوق الكفاية مما نطلب ، وليس في كتب غيرنا ما يزيد عنها الا بما لاحاجة بنا اليه ، وكما وصل اليها وجودنا بالتنازل عن آباءنا ، فلتصل اليها حياة (٤٥) - تاريخ الاستاذ الامام - الجزء الثاني)

نفوسنا بما أوثقونا من علومهم وآدابهم ، ولا يتيسر لنا ذلك الا بعلم اللغات التي أودعوها معارفهم ، وأهمها لدينا لغتان : اللغة التركية لأنها لغة دولة قامت بشأن الممالك الاسلامية ما يقرب من سبعة قرون ، وقد تكلم فيها من الأفاضل والعلماء جم غفير نحن في حاجة الى الاستفادة من معارفهم ، ثم هي اللغة الرسمية في الممالك العثمانية ، فيها حياننا السياسية ، وبها تقف على هدي مولانا الخليفة الاعظم أيده الله بنصره ، واللغة العربية وهي لغة القرآن الشريف ، وكتب الشرع المنيف ، فعلى الناس أن يطلبوا البراعة في اللغتين ، لا لأن يقال كاتب ومنشئ ، ولكن ليدرك أسرار ما أودع فيهما ، ويتمكن من افادة ما قد ينكشف له . أما اللغة الفرنسية وغيرها من اللغات فاحاجة اليها خاصة ، والاشتغال بها ولا بد أن يكون منحصرأ في طبقات من الناس ، إما عالم يطلب ترجمة ما فيها من العلوم الطبيعية مثلا الى لغته ، وإما متهيء لأن يخدم دولته في معاملة سياسية بينها وبين الدول الأجنبية ، وإما تاجر يحتاج الى معاملة أناس من غير جنسه وما شابه ذلك . وليس بمحمود في نظر العملاء أن تطلب اللغات الأجنبية لذاتها فان اللغة طريق الى ما أودع فيها ، وليس في علمها نفسها أدنى فضيحة .

ثم استطلت الكلام وطلبت الوقوف عند هذا الحد ، وختمت كلامي بالدعاء لمولانا أمير المؤمنين ، وطلبت من الحاضرين أن يؤمنوا ، فارتفعت الأيدي بالدعاء لعظمته بتأييد الملك وتخليد السلطان ، هذا ماوسع الوقت إجماله ، والله الموفق للصواب (يقول جامع الكتاب) ان الاستاذ الامام رحمه الله تعالى كان في بيروت يخدم الاسلام والدولة العثمانية والشعب السوري الذي أحبه وعرف له قدره ، وكان كبار الطوائف من جميع الملل والنحل تجله وتكبره ، وما كان يمكنه أن يقيم في البلاد العثمانية متمتعاً بهذا الاحترام إلا إذا لهج بمثل هذا الشناء والدعاء للسلطان

المقالة الرابعة

رسالة السير صعوبيل باكر في السودان ومصر وانكثرة *

وردت الينا الكتابة الآتية تحت العنوان المذكور اعلاه ونصها :

أبعث اليكم بسطور أظن في نشرها مايسر مطالعي جريدتكم ، فان رأيتم
كما رأيتم فالكم الاختيار في درجها بصحيفتكم
طلعت في إحدى الجرائد رسالة بعث بها السير صعوبيل باكر الانكليزي
الى جريدة التيمس موضوعها السودان ومصر وانكثرة ، فأجلت مقام الرجل
من الخبرة بأحوال السودان ومصر ، ومن الاحاطة بمنزلة دولته الانكليزية من
قلوب المصريين والسودانيين ، وبمكانة الدولة العثمانية من نفوس الفريقين ، إلا
أنني وجدت ضعفاً في رأية عند ما أخذ في بيان الوسائل التي يظنها موصلة لحل
مشاكل السودان ، ونخيل مصر من الاضطراب العارض أو ما سيعرض في
مستقبل الزمان، قال :

« عظمت رزايا السودان من فقد الرجال وإشغال الأفكار والأيدي
بالمحاربات وسفك الدماء عن تعاطي أعمال الزراعة والتجارة ، حتى أصبح أهاليه
في فقر أعوزهم معه حفظ الحياة ، وأصيبت مصر بالافلاس ، وابتلى أهاليها
بالفاقة وضيق المعيشة . ولم يكن نصيب الانكليز من الرزية أقل من نصيب تلك
البلاد ، فأنفقوا أموالا وافرة ، وقعدوا رجالا من أعز أبطالهم ، وأشجع رجالهم ،
وهتكوا أستار قوتهم الحربية ، ثم عادوا بالحنية والفشل ، ولصق بهم عار الهزيمة
وسوء المفرد . فهذا الذي أصاب البلاد المصرية ، والأقطار السودانية ، ونال
رجال الانكليز كله من عواقب تدخل انكثرة في المسائل المصرية ، فكان
مثلا كمثل من « سقط العشاء به على سرحان » ثم قال :

« إن القبائل المنتقضة على الحكومة المصرية من أهالي السودان لا يحتمل

(* نشرت في العدد ٥٤٤ من عمات الفنون المؤرخ في ١٤ ذي القعدة سنة ١٣٠٢

خضوعها لسلطة الانكليز ، وإن ساقوا عليها من اقوى ما ساقوا ، أو دخلوا عليها من أبواب الحيل ما دخلوا . أما الحيل فلا تروج على تلك القبائل بعد ما عرفت ختل الانكليز ، ومما ظلتهم في المواعيد ، وقعودهم عن نصره من يلتمسون ولاءهم من غيرهم ، بل عن إغاثة من يتولاهم من بني جنسهم ، كما فعلوا بالجنرال كوردون ، والسودانيون والمصريون في اتفاق على أن الانكليز قوم متغلبون ، معتدون على البلاد ، طالبون لتملكها ، وهم مخافون للأهالي في الدين ، فلا يسوغ الخضوع لهم ، وإن أقاموا العدل ، ونصبوا ميزان القسط . وأما القوة فقد شهدت التجربة الماضية بعدم نجاحها في مراغمة السودانيين ، ولم ننس ما كان من الجيش الانكليزي في كل المواقع الحربية حيث فشل في جميعها ، ورجع بالعار عن كل موطن ، ولا قدرة لدولة على تطويع السودان ، وتقرير سلطة نظامية في إغاثته إلا للدولة العثمانية . فهي صاحبة السيادة الدينية على مصر والسودان ولها الحق الشرعى في الولاية عليهما ، فإن صح أن السودانيين لا يميلون اليها (ولا صحة له) فمن الحق أنهم يهابونها ، ويخشون بأسها ، لما تعودوه من سيادتها عليهم ، ولما عرفوه لها من الحق الشرعى . والتاريخ شاهد بأن العثمانيين هم الذين دوخوا بلاد السودان بعد المعارك الدموية ، ولم يؤثر عنهم أنهم تقهقروا في معركة مع تقارب الأساحة في تلك الأوقات . وأما عننا كونا (الانكليزية) فقد انهزمت بمدافعها المهلكة ، وبنادقها المنفية ، وأرغمتها رماح العربان وحرابهم على الرجوع القهقري «

هذه معلومات السير صنويل باكر في هذه الحوادث ، وانا لأخالفه في شيء منها ، بل لا يوجد ذو عقل صحيح الا ويرى رأيه فيها . أما وسائل الخلاص من هذه البلايا فنذكرها بقوله عنه ، ونأتي مع كل وسيلة ببيان الصواب فيها ، وان كنا لا تتبع ترتيبه في رسالته لغرض لنا في التقديم والتأخير

رأى هذا السياسي كما رأى غيره من أبناء جلدته الانكليز أن من الواجب الختمى لتقرير الراحة في مصر وحمايتها من غارات الأجانب إلغاء الجيش المصري المؤلف من الفلاحين المصريين ، وتأليف جيش من الأرنأوط ونحوهم ، وفي

ذلك مسرة للجند الملغى بذهابه لزراعة الأراضي كما يشتهي
أما المصريون فهم كغيرهم من العثمانيين لا يفرقون بين طائفة من الطوائف
العثمانية وطائفة أخرى لتكون حامية البلاد ، ومناعة لها من اضطراب داخلي
أو عدوان أجنبي . ولكننا لم نعلم ما حمل هذا الرجل وغيره على التفرقة ، وهو
يعلم أن المصريين هم طبقة من طبقات العثمانيين ؟ وما اعترف به للعثمانيين في
تدويم السودان يصيب المصريين منه حظ وافر ، فانهم كانوا ولم يزالوا منهم ،
والجند المصري كان فرقة من العثماني في الفتوحات السودانية ، وقد كان للجند
العثماني المصري وحده عمل في فتح أقاصي السودان على عهد الخديوي السابق ،
ولهذا الجند يد في حفظ بلاده داخلا ، ومدافعة المغيرين عليها زمناً طويلاً ، وهذا
الجند هو المحاصر في كسلا وسنار والتا كلا ، فان كان المصريون وهم عثمانيون لم
لم يصيبوا ظفراً في بعض المواقع لهذه الأزمان الأخيرة ، فليس من ضعف
استعدادهم للمغالبة أو من جبن في طباعهم كما يتوهمه المتوهمون ، وإنما كان
لنقص في بعض قادتهم ، أو لكون الصدمة كانت أعظم من القوة ، أو لشيء
في طبيعة الحادثة ، وقد أوفى الزمان لهم بأمثال أصابهم مثل ما نزل بهم . فإبهرال
غراهم انهزم في سواحل البحر الأحمر مرتين وجبن جيشه ، أو ضعف عن مقاومة أشباه
من العربان ، واللورد ولسلي فشل بجيشه في السودان الغربية ، وخسر في كل
مشاهده مع عراة السودان . والمصريون لم يزالوا في مواقعهم — سنار والتكلا
وكسلا — يهاجمهم الموت ولا يفرون ، فان كان هذا لم يؤثر نقصاً في الجيش
الانكليزي ، فن الحق أن لا يؤخذ على المصريين مالا يخلو منه جيش في أي
أمة ، على أن الألبانيين وأمثالهم إن كانوا قرماً يجلبون من الأطراف على غير
نظام فن المتعذر أن يتألف منهم جيش منتظم يقوى على ما يريد حضرة الكاتب ،
وقد جرب ذلك في حملة السودان الأخيرة ، وإن لوحظ في تأليفه النظام المعروف
في الممالك العثمانية ، فذلك جيش عثماني وأدلا به وسهلاً . واهل السكاتب رأى
من الواجب أن يبذل جيش عثماني مصري بجيش عثماني تحت اسم آخر ، ويكون
جولوه في مصر عوضاً عن حاول الجيش الانكليزي ، فان كان ذلك واقفانه في رأيه ؟

ورجونا أن يعجل الله بتنفيذه

ثم أشار على حكومته (الانكليزية) بأن تأخذ بأبجح الوسائل وأقربها لحلّ مسألة السودان ، وإرجاع تلك البلاد إلى ما كانت عليه قبل الفتنة ، فانه لاغنى لمصر عن شمول الراحة في تلك الأقطار ، ولا أنجح من توسط الدولة العثمانية ، وسوق فريق من جنودها لمحاربة السودانين ، وكسر سورتهم . فمن الواجب على دولة انكلترا أن تسعى في اعداد جيش عماني ينزل من بلاد السودان على سواكن ، فاذا وصل اليها انقسم الى فرقتين ، تتوجه احدهما من طريق كسلا لاخضاع الأقطار الشرقية ، واقتاذ الحامية المصرية ، والأخرى تزحف من طريق بربر . والجنود الانكليزية والمصرية تحل في وادي حلفا ومديرية دنقلا ، ويكون ذلك الزحف من ٢٠ أكتوبر الآتي

ولما كانت الدولة الانكليزية قد غاضبت الدولة العثمانية بالعدوان على حقوقها في مصر أخلص لها النصيحة بتجديد الوداد بين الدولتين ، وطلب من دولة بريطانيا أن تعرض اخلاصها على الدولة العلية ، وتؤكد لها المحافظة على المعاهدة المتعقده بينهما على يد اللورد سالسبورج ، ومن مقتضاها أن تكون انكلترا عوناً للدولة العثمانية بالسلاح والرجال اذا تعرضت دولة أخرى لشيء من الممالك العثمانية . فاذا تجددت المحالفة بين الدولتين في هذا الوقت تصبح انكلترا حامية لقطر المصري ، ومتفرغة لمسئلة أهم من المسئلة المصرية :

﴿ المسئلة الأفغانية ﴾

أما نحن فنخال الدولة العثمانية تقول : « كيف أعاودك وهذا اثر فأسك ؟ » ان المعاهدة التي يشير اليها ان صح القصد فيها لحماية شيء من الممالك العثمانية ، فأهم مقصود منها هو مصر ، فانها هي البلاد التي يمكن لانكلترا أن تشترك مع الدولة في الدفاع عنها لاكتنافها بالمياه من أغلب جوانبها . وأما سائر الولايات الاسيوية فهي بعيدة عن البحر ولا قدرة لانكلترا على سوق جيش في الأراضي اليابسة اللهم إلا عدداً قليلاً يمكن للدولة أن تستغني عنه . وإذا وصلت أذنان الحرب إلى البحر فانت فرصة المدافعة . فالبلاد التي يصح التحالف مع انكلترا

على صيانتها قد أغارت عليها انكلترا نفسها فصار الخليف على صون شيء هو السالب له ، فكيف يوثق بمحالفته ؟ فان قيل نقض المحالفة كان من وزارة غلادستون فلتحافظ عليها وزارة سالسبوري . قلنا الدولة التي تكون عهدها تابعة لهوى رجالها لا يعتمد على محالفتها فلتترك وشأنها ، وان الدولة العثمانية أحرص من أن تسهل لانكلترا طريق حمايتها لمصر كما زعم حضرة الكتّاب في آخر نصيحته فان ذلك أعظم الضرر على سائر ممالكها

وليس من مصلحة الدولة العثمانية أن تسيطر جنودها لاختصاص السودان -- وعساكر الانكليز في مصر -- فان الجند العثماني إذا ظفر بالسودانيين وألزمهم الطاعة ، فلا يخلو حاله إما أن يرجع بعد ذلك ويسلم البلاد لطلاب الحلول فيها من الانكليز والمصريين القائمين بخدمتهم ، فتكون الدولة قد استعملت سيفها في رعاياها قصد ادخالهم في قهر غيرها ، ومحال على الدولة أن تفعل ذلك . وأما أن يبقى الجند العثماني في السودان ، وتكون البلاد ولاية عثمانية ، وجيش الانكليز حال بمصر ، فهذا غير ممكن من وجهين ، (الأول) أن رضا الدولة بها بذلك اختيار لأخص القسمين وأبعدهما عن مركز القوة الحربية العمومية ، خصوصاً وطريق مواصلة الولايات السودانية مع قاعدة الملك لا تكون إلا من البحر ، فتكون عرضة للنزاع في أي وقت تنفرغ انكلترا من منازعاتها الاسيوية ، وتلتفت لاستخلاص السودان . (والوجه الثاني) ان انكلترا لا تأمن أن تكون قوة عثمانية دائمة الجوار لقواها الحربية في مصر ، وهي تعلم ان المصريين والسودانيين على وفاق في الميل للدولة العثمانية ، وقرب المكان يقويه وطول الزمان يظهر أثره في الاجماع على طرد الجيش الانكليزي من أرض مصر وماخذه من مواقع السودان ، فلا واحدة من الدولتين ترضى بجعل السودان ولاية عثمانية مع العزم على استمرار الحلول الانكليزي زمنًا طويلًا

فلم يبق من الوجوه الممكنة إلا وجه واحد وهو انجلاء الجنود الانكليزية عن القطر المصري ، وحلول الجيوش العثمانية فيه ، وسوق فرقة منها إلى أطراف السودان ، وهذا أيسر الوجوه وأدناها من الصواب ، فانه لما لزم الاعتراف بسيادة الدولة العلية على السودان ومصر ، وان المصريين والسودانيين ينظرون إلى الانكليز

نظرهم إلى الأعداء المتغلبين ولا يخضعون لهم خضوعاً ثابتاً — وعلى هذا تستقر الراحة في مصر ولا تتأيد سلطة الخديوي ماداموا فيها — وجب أن يطلب إلى الدولة تقرير الراحة في الديار المصرية كما يطلب ذلك منها للسودان، وهذا أسهل على انكلترة ان تتفق مع الدولة عليه وتقم من أعمالها السابقة ببعض الامتيازات في إدارة المالية أو فيها مع ادارة أخرى وبعض الخصوصيات في قيادة السويس، هذا إلى أن يتألف جيش عماني مصري ثم تعود مصر إلى ما كانت عليه ان كان لابد من ذلك، وبهذا تفرغ انكلترة من أعمال مصر إلى أعمال أهم منها في آسيا لما تم لضمان مخالفة الدولة العثمانية على وجه صحيح ثابت

أما ما طرى به على سعادة حسن باشا خليفه من انه الرجل الذي يجمع بوجهه كلمة السودانين، وانه يعسوب القبائل متى رآه التفت عليه، وانه هو الذي يسلب بغض الانكليز من قلوب عرب السودان، وينشئ فينا ثقة بهم، فهو المثل المعروف (ترى فتينانا كأنخل، وما أدراك ما اندخل) فان حسن باشا خليفه ان كان رجلاً في قبيلة فليس رجلاً في قبائل، وبرهان ما تقول ما كان من أمره أولاً وآخرأً. ولولا خيفة ان أمس بأحواله الشخصية لذكرت من أعماله مالا وقوف للحكومة المصرية عليه (ولا يبتك مثل خبير)

هذا ما قصدنا ايراده في هذه الأسطر والله يهدينا جميعاً طريق الرشاد

(م . ع)

(جامع الكتاب) هكذا يكون الدفاع واقامة الحجج: أرضى رحمه الله به الدولة العثمانية - وهو نزيل بلادها - ودافع عن الجيش المصري وعن حق أهل مصر في تأليف جيشهم منهم، وكشف الستار عن دسائس الانكليز ومحاولتهم استخدام الدولة لتذلل لهم السودان بجيشها في الوقت الذي كانوا يريدون فيه توجيه قوتهم إلى الافغان، حتى لا تتسع النفقات عليهم. ومن أصول سياستهم قطع الشجرة بفرع منها، والاستعانة على الرعية بحكومتها، وضرب بعض الأمم ببعض، كالسبل يقذف جلوداً بجلود*

المقالة الخامسة

مصر - المحاكم الأهلية (*)

(وردت إلينا الرسالة الآتية من أحد الفضلاء في مصر تحت العنوان المذكور) رأينا بين عدة من الجرائد المصرية منافسه في هذا الموضوع وكنتم الختم بشيء من الكلام فيه رواية عن مكاتبكم في القاهرة فمن حقوق الانصاف أن تقبلوا مني ما بعث به إليكم مما خطر ببالي ولكم بعد ذلك الرأي الأعلى أتت جريدة على ذكر ما يشاع من الخلل في المحاكم الأهلية بمصر ، وتذرت بذلك إلى الكلام في وكيل الختانية ، وناطت جميع الخلل بأثرته وتطرفه في الميل إلى أبناء طائفته (القبط) حيث أقام منهم في مناصب القضاء وما يتعلق به من لأهلية فيه لاجادة العمل ، واسترسلت من ذلك إلى دعوى أن المسلمين قد نظروا الى هذا التصرف بعين الناقم . فعارضتها جريدة أخرى ودفعت مادعته من وقوع الضغائن بين المسلمين وبين اخوانهم في الوطنية من الاقباط ، وأقامت الادلة على التحامهم بالالفة والمحبة ، وأخذ كل منهم بعضد أخيه عند الشدة ، ورسوخ ذلك في نفوسهم بالتوراث عن أسلافهم ، وأقوى برهان على ذلك وقوفهم مواقف القتال مع اخوانهم المسلمين في مواطن الحروب في فتنه كريد و حرب الحبش والمواقع السودانية ، وما سبق ذلك وما لحقه ، يناصرونهم ويوازرورهم ، فكانوا حرباً لمن حاربهم ، وسالماً لمن سالمهم ، وأن الخلاف المذهبي لم يحدث في البلاد شقاقاً وطنياً في زمن من الازمان . ولهذا انزى للقبط في مصر مسألة سياسية تعني بها دول أوربا كما نرى لغيرهم في غير مصر مسائل . وأيدت هذه الجريدة جريدة أخرى جاءت بتاريخ القبط في الاحقاب الماضية ، وما وصلوا اليه في الاوقات الحاضرة ، ثم فصلت القول تفضيلاً فيمن عهدت اليهم وظائف في المحاكم الأهلية من الطائفة القبطية وذكرت أسماءهم وسوابق خدمهم فكان أعضاء المحاكم منهم عشرة من سبعة وستين عضواً والذين في أقدلام النيابة منهم ثلاثة من

(*) نشرت في العدد ٦٥٨ من عمرات الفنون بتاريخ ١٣ ربيع الاول سنة ١٣٠٥

وذكر فيها انها رسالة من مصر للايهام ولم يكن الاستاذ قد عاد الى مصر

(٤٦) - تاريخ الاستاذ الامام - الجزء الثاني

عدد كثير من النواب ومتعلقينهم والكل في قولها من أهل الاستحقاق لا يعجز على أحد منهم في العلم بما وليه ، ولا يرمي بالقصور عن تأدية ما عهد اليه عمله ، ثم رأينا في مواضع متعددة من جريدة جديدة تطبع في القاهرة تلويحاً وتصريحاً بالخلل الواقع في المحاكم ، وأن معظمه بل كله من تداخل وكيل الحقانية بطرس باشا غالي في أعمال تلك المحاكم . وتقلت تلك الجريدة إجماع الناس على أن السبب في نزول النازلة الهائلة وهي استعفاء عزتو شفيق بك منصور إنما هو الخلاف الذي وقع بين بطرس باشا وبينه ووقوف الباشا مانعاً بين اليك وبين الاصلاح . هذا إجمال ما رأيناه فرويناه

وعندنا أن التحامل على شخص بعينه لا ينبغي أن يتخذ ذريعة للطعن في طائفة أو أمة أو ملة ، فإن ذلك اعتداء على غير معتد ومحاربة لغير محارب ، أو كما يقال جهاد في غير عدو ، وهو مما ضرره أكثر من نفعه ان كان له نفع ، فانه يثير الساكن ، وينطق الساكت ، ويؤلب القلوب المتفرقة على مقاومة رأي الطاعن ومخالفته الى عكس ما يريده ، فليس من اللائق باصحاب الجرائد أن يعمدوا الى إحدى الطوائف المتوطنة في أرض واحدة فيشملوها بشيء من الطعن ، أو ينسبوا الى شائن من العمل ، تعليلاً بأن رجلاً أو رجلاً منها قد استهدفوا لذلك ، فانه مما يرسل العداوات إلى عمائق القلوب ، ويدلى بالضعفان الى مواطن الافئدة ، فاذا تنافرت الطوائف تشاغلت كل منها بما يحيط شأن الأخرى ، فكانت كل مساعيهم ضرراً على أوطانهم ، فالتوى على الطاعن قصده ، وبهدت عنه غايته ، فقد كان يريد بقوله انتقاص شخص واحد تأديباً له أو استصراقاً لدفع شره ، فأدى سوء استعماله الى خيبة آماله . فنحن نرى رأي الجريدتين المحاميتين خصوصاً عن طائفة الاقباط في مصر ، فانها أظهرت بحسن سيرها مع المسلمين من مواطنيها ما أهلها لوجوب المحافظة على وصية النبي صلى الله عليه وسلم فقد عهد الى أصحابه اذا فتحوا مصر أن يستوصوا بتبطلها خيراً ، وقد كان حسن حال الاقباط مظهرأ لصديق نبأه عليه الصلاة والسلام . على أن كثيراً من أسلاف هذه الطائفة كانوا أمنا ، على مال الحكومة المصرية في الدول الاسلامية المتعاقبة بما أجادوا من صناعتي الحساب والكتابة في تلك الاوقات ، ولم تعهد لهم فتنة ، ولم تذكر لهم على

البلاد غائلة ، فلا ينبغي لمبتغي الحق أن يمس شأنهم بالعنوان العام . وأما مالا تخلو منه طائفة من وجود أشخاص ضعاف العقول أو ميالين الى الشر ، فعلى الناقدين أن يقصروا تقدمهم على حال أولئك الاشخاص ، ويستعينوا ببقية الطائفة وغيرهم من مواطنيهم على دفع شرهم ، أو تحويلهم عن القبيح من أعمالهم ، ويجب أن يكون النقد خاصاً بالعمل الذي ظهر فيه الخلل لا يتعدى إلى أوصاف خاصة لا تقيد في البحث . نعم إن كانت الطائفة أو الأمة من قوم أجانب على البلاد ومتغلبين عليها بقوة قاهرة ، أو حيلة غادرة ، وكانت أعمال آحادها مبنية على أصول سننها المتغلبون ، فيكون عمل الواحد كأنه صادر عن الجملة كما في أعمال الانكباين بمصر ، جاز للناقد أن يأخذ الجماعة بأثم الواحد منهم ، ويستصرخ أبناء الوطن جميعاً لكشفهم عن بلاده ، واستخلاص الحق منهم لأربابه

أما بطرس باشا غالي فهو رجل ذكي حاذق في عمله ، بصير بأمره ، قلب في وظائف الحكومة من عنقوان شيبته ، ورفي به اجتهاده الى ما وصل اليه من سامي وظيفته ، وكان (باشكاتب) الحقانية زمناً طويلاً ، ثم صار وكيل الحقانية من نحو ست سنوات ، ووثقت به الحكومة الخديوية في كثير من أعمالها المهمة ، ونال منها مكافآت على ما أدى من الاعمال التي نيطت به ، فمن الظن به أن لا تضيق معرفته عن الاحاطة بما توجب عليه أحكام وظيفته ، وأن لا يصدر عنه ما يبعث عليه لأئمة من مصيب في رأيه محق في حكمة . واننا إلى الآن لم نر الناقدين ذكروا عملاً مما أخذوا عليه يستحق أن نبث فيه سوى الخلاف الذي وقع بينه وبين شفيق بك منصور وافضاء هذا الخلاف إلى استعفاء البيك المومي اليه ومحاباة الباشا لبني طائفته : أما الاخيرة فدفعتها الجرائد المحامية بما لا سبيل إلى معارضته إلا بآبآت تقيضه ، وهو مما لا يتيسر لنا التهدي اليه حتى نرى ما لا ترتاب فيه من الادلة ، وأما الاولى فالخلاف قد يكون بين عاقلين ومستقيمين ومختلفين في الصفتين ، ولا طريق للحكم بخطأ أحدهما إلا النظر في مواد الاختلاف وأدلة كل من المختلفين ، وهي الآن لم تحضرنا بوجه ظني فضلاً عن قطعي ، على أن الذائع على ألسنة البصراء من المصريين أن النيابة العمومية لحرصها على تقوية نفوذها

وإعلاء سطوتها ، فقد تتجاوز الحد المحدود لها عند الاجراء في بعض دوائر المحاكم ، والانتقاد عليها كان أشدّ من الانتقاد على القضاة ، حتى قيل ان سبب استعفاء الاستاذ العلامة الشيخ العباسي من الافتاء كان عدواناً من بعض خدمة النيابة ممن لاخلاق له اضطر الشيخ للمداخلة في دفع عواقبه فلم ينجح ، ولا ريب أن هذا كان معروفا لعزتو شفيق بك منصور وكان الظن به وهو في وظيفته أن لا يغفل عن ذلك ، وأن يردّ الاعمال إلى حدود أحكامها ، ولا نظنه أهمل فريضة العمل فيه ، لكن ربما كان الأمر أصعب من أن يلافي دفعة واحدة ، والرجاء في حيمته أن يداوم على إرشاده لأهل القضاء وعمل النيابة بما ينشره من آرائه في صفحات الجرائد ، فوطني مثله لا يحجب فوائد أفكاره عن أبناء وطنه حاجب وأما تأدية الخلاف إلى استعفائه فلا نعهده جريمة لبطرس باشا لأن الاستعفاء عمل اختياري لا يؤخذ به المنسب فيه ، على أن جريدة الأحكام ذكرت أن سبب الاستعفاء تعيين أحد البلجيكين في وظيفته كان من رغبة البيك أن لا يكون فيها وهو أمر يتعلق بدولة ناظر الحقانية لا بوكيلها ، وعهدنا باخواننا المصريين أن يوجد بينهم من أهل المعارف الشرعية والادارية من يمكنهم بسعة اقتدارهم إصلاح محاكمهم وتقويم مآثروا منها ، وأن لا يكون تخلي رجل أو رجائين من وظيفة من التوازل المهمة ، أو الخطوب المدامة ، فان ذلك لا يكون إلا في بلاد بلغت من فقر الرجال غاية قصوى ، ونسأل الله تعالى أن ينير بصائر أهل الحل والعقد في بلادنا المصرية حتى يعرفوا للمصيب إصابته ، ويلزموا المحطي خطيئته ، ويؤلف بين قلوبهم ، ويجمعها على مصالح بلادهم

كنتم ذكرت في بعض أعدادكم أن أمين بك غالي انتقل إلى وظيفة أرقى من وظيفته راتباً والحقيقة أن ذلك لم يكن والراتب واحد والوظيفة مؤقتة ، وكنتم ذكرت أن باش محضر محكمة مصر الابتدائية عزل برأي وكيل الحقانية في اليوم الثامن لاستعفاء شفيق بك وعين مكانه أحد أقارب الوكيل ، والحق أن عزله كان بناء على طلب رئيس المحكمة ولم يعين بدله أحد إلى الآن ، ويؤدي أعماله أحد المحضرين الموجودين بالقلم . هذا ماشافنا إليه العدل والله الهادي إلى الصواب

المقالة السادسة

اللغة الرسمية في المحاكم الأهلية بمصر (*)

كتب الينا من مصر تحت العنوان المذكور ما يأتي
انظر إلى المادة ٢٣ من لائحة ترتيب المحاكم الأهلية تجدها صريحة في أن
اللغة الرسمية في المحاكم الأهلية هي اللغة العربية ويجوز أن تنقل خلاصة المرافعة
وحجج الدعوى إلى لغة أخرى كتابة وتقدم إلى المحكمة ، فن الواجب بناء على
هذه المادة أن لا يتكلم أحد الخصمين أو وكيلها إلا باللغة العربية ، فإذا شاء أحد
المذكورين أن يؤيد ذلك بترجمة ما قال إلى اللغة الفرنسية مثلاً تحريراً لم يمنع من
ذلك ، ونظرت الحكومة المصرية في إيجاب التكلم باللغة العربية في المرافعة عند
تلك المحاكم إلى تقرير حق لو أغفل بطل المقصود من تشكيل هذه المحاكم بالمرءة ،
واقبلت المنفعة المطلوبة بها مضرة ، فان الغرض من تشكيلها الفصل بين الأهالي
فما يقع بينهم من المحاصمات والزام كل جان عقوبة جنائية على وجه هو للعادل
أدنى منه إلى الظلم ، وجعلت جلساتها علنية لتكون مدافعة كل من الخصمين عن
نفسه معروفة عند العامة والخاصة ممن يجب الوقوف على ما أخذ الحق ، ويكون
في ذلك حكم عام لا يخفى أثره فيما يصدر عن المحاكم من الحكم الخاص .
والمختصمون (من أهالي مصر) لسانهم واحد وهو المعروف (باللسان العربي)
وكذلك المأخوذون بتهمة الوقوع فيما يوجب العقوبة ، فاذا ترفع المختصمان إلى
المحكمة أو وجهت الحكومة تهمة على جان وطلبت المدافعة عن نفسه كان من
الضروري أن يفهم كل من الخصمين ما يقول الآخر حتى يتمكن من دفعه
وكذلك يكون حال وكلاء الخصوم فان تكلم متكلم منهم بلغة لا يفهمها الآخر
تعد على غير الفهم أن يلعب بحجة ومعارضة أدلة خصمه . ثم إن أعضاء المحاكم
لم يشترط فيهم العلم بلغة أجنبية البتة فلو كان في المترافعين من يتكلم بلغة غير
(*) نشرت في العدد ٧١١ من عمات الفنون بتاريخ ١٣ ربيع الآخر سنة ١٣٠٦
وذلك بعد عودته من سورية إلى مصر في هذه السنة

العربية لكان التأمون للفصل في المحاصمة غير عارفين بوجوه الحكم إن لم يكن عندهم علم بغير اللغة العربية ، فمن هذا يظهر أن وكلاء الخصوم (الافوكاتيه) عند المحاكم الأهلية يجب عليهم أن يتكلموا باللغة العربية لا غير سواء كانوا عرباً أو عجماً ، ولا يجوز لأحد منهم أن يخاصم بلغة أخرى

فان قال قائل اذا كان الخصمان عارفين بلغة أجنبية ورضي كل منهما بأن تكون المحاصمة بها ، فلم لا يجوز أن تسمع المحكمة مرافعتها باللغة التي اختارها؟ فجوابه أن ذلك لو فرض وقوعه يكون نادراً ولا موقع له في نظر القانون ، على أنه لا يكون هذا الفرض سائغ القبول إلا اذا اتفق أن أعضاء المحكمة جميعاً من العارفين باللغة التي تراضى الأخصام على المرافعة بها حتى يتمكن كل منهم أن يحكم في الخصومة كما هو شرط النظام ، وأن رؤساء المحاكم وأعضاءها الذين هم حفاظ القانون والقوام عليه لا يصاله إلى الغاية المطلوبة منه يجب عليهم أن يراعوا حكم هذه المادة حفظاً لشأنهم ، وصوناً للقانون ، وتأييداً لقصد الحكومة وحياطة للحقوق

في مثل هذا اليوم من الاسبوع الماضي ٢٣ ربيع الاول انعقدت جلسة الجنب الاستثنائية تحت رئاسة صاحب العزة أمين بك سيداحمد وكيل المحكمة ووجد في وكلاء المتهمين رجل أوروباوي لا يعرف اللسان العربي ومعه ترجمانه فلما أفضت النوبة اليه طلب أن يتكلم باللغة الفرنسية فوضع طلبه هذا موضع المداولة في الجلسة . وكان حكم الاعلانية أن لا يتكلم إلا باللغة العربية فأعلن له الرئيس ذلك فأخذ في الكلام بالفرنساوية فمنعه الرئيس فانتصر للفرنساوي أحد القضاة الوطنيين ممن يدعون نجباء ، أو فضلاء ، أو ماشاكل ذلك . وسأل الرئيس أن يده يتكلم فاحتد الرئيس وقال : بصفة كوني رئيساً قضائياً أطلب منه أن يتكلم بالعربية ، فان لم يفعل أمرت بطرده من الجلسة ، وكان كما قال فانصرف الافوكاتو وعادت المحكمة لأعمالها . أما الرئيس أمين بك سيداحمد فقد أدى الواجب عليه للقانون ، وللحكومة ، وللأهالي ، ولنفسه من جهة أنه مصري عربي وأن عرف الفرنسية ، ولو تساهل مع الفرنسية وأجاب طلبه لماز لغيره أن

يطلب مثل طلبه واندفع الاجانب ينوبون عن بعض الخصوم على رغم من البعض الآخر ويضيع قصد الحكومة ، وتبطل حقوق الاهالي بعناء المحاصمة على من لم يعرف لغة المحاصم منهم ، ولا يجوز للرئيس ولا لغيره منع الطالبين مما يطلبون إلا أن العادة تكون قانوناً وهي عند الاوروبيين تثبت بمرّة

بقي الكلام في ذلك القاضي النجيب : هو مصري ولا يعرف له صلة بالفرنساويين برأه الله من ذلك ، غاية أمره انه يعرف الفرنسية كما يعرف كثير من أمثاله - هو حاكم مصري يجب عليه مراعاة مصلحة المصريين والمحافظة على مانه صون حقوقهم - هو قيم على القانون وبمحكم القانون صار قاضياً ، ولولاه لم يكن شيئاً ، فمن الواجب عليه شكر القانون واحترام مواده والمحافظة على أحكامه بما استطاع - هو موظف للحكومة المصرية ، يفرض عليه الامانة في خدمتها ، وموافاة مقصدها الصالح ، وغايتها النبيلة - هو انسان والانسان ، محبول على حب وطنه وترجيح ما يؤيد جانبه ، فلو فرض أن القانون جوز أن يكون الكلام بغير العربية ، لوجب عليه أن يستعمل الجواز موجياً للخطر ، فيقول يجوز هذا ويجوز غيره ، ولي الخيار في القبول ، فلا أقبل إلا لسان بلدي - هو متعلم قرأ الكتب ودرس الفنون . وهو أجدر أن يسبق الناس في صحة الاحساس ، ليكون قدوة حسنة لهم - هو معدود في نجباء الغتيان المصريين ، فكان الواجب عليه اذا وجد من نفسه ميلاً إلى سماع الفرنسية في المرافعة ، للذة له في رتبتها ، أن يكتم ذلك الميل المضاد للقانون ، ولما يوجب الحق الاهلي ، كيلا يؤخذ عليه . ومع ذلك كله فقد بلغني عنه أنه يجب أن تكون المرافعة بالفرنساوية ، وأنه قد سبق له عند ما كان رئيس جلسة اباحته ذلك لمحام فرنساوي ، وأنه يتمنى لو أن الحكومة تلغي مادة ٢٣ من القانون حتى يكون القانون مسوغاً للفرنساوي أن يترافع بصفته انه نائب عن المصري باللغة الفرنسية ، وحكي أنه لما شاع (وغالب ما يشاع كذب) أن الحكومة منيتها أن تسمح للاجانب بالمحاصمة عن الاهلين بغير العربية فرح ذلك القاضي حتى شرب في أحد مجالس لهوه على سر تلك الاشاعة على نحو ما يفعل الاورباييون ولا أقول انه شرب مسكراً ولكنه قلد الفعل تقليداً ، كذا يقال . ولما سئل عن

سبب ميله إلى ذلك أجاب بأن المحامين الفرنسيين يعرفون الحيل الشرعية ويجيدون في نسجها ، فكان ذلك ماثراً تهمة عليه بأنه يود أن يكون للفرنساويين مثلاً حق في المحاماة ليصح له الاتفاق معهم في محاولة القانون ويكون في حماية من ألسن الوطنيين وسلطة الحكام بميل الأوروبيين ؛ واني أعينه من ذلك وإن قامت القرينة من كلامه عليه ، وغاية ما يمكنني أن أقول في سبب هذا الفرح ، وعلّة ذلك الميل ، انه طيش شبيهة يسوّّل له أن في سماعه كلام الفرنسي والاقبال عليه عند المحاماة — والمتفرجون مزدحمون — والتفاتهم إلى انه عارف بما يقول الفرنسيون ومدرّك لدقائقه بما يلوح على وجهه عند ذلك من علامات الفهم ، وأن في معرفة المتفرجين انه من المدققين في اللغة الفرنسية لذة بما ينال من الشهرة عنده ما يتناقل الحاضرون حاله . لكن خفي عليه أن من لم يعرف لا يصح حكمة ولا قيمة للشهرة عنده ، وقليل من الحاضرين من يعرف اللغة التي يميل إلى الاشتهار بمعرفتها وقد بلغني أن ذلك الفاضل على ذكائه وسعة اطلاعه في القوانين كثيراً ما يعتمد على شدة فهمه فيلهو عن سماع المحاماة اكتفاء منه بالاشراف على الضمائر بغير سماع ، وأحياناً يأتي ببعض القضايا يلخصها في الجلسة ويترك المترافعين يناقش بعضهم بعضاً ، وهو مع ذلك يُدِلُّ على المحامين الوطنيين ، ولو كان بين يديه محامون أورييون لما سهل عليه إتيان شيء من ذلك ، وكان خوفه منهم إذ ذاك أشد من ميله اليهم الآن ، فعليه أن يعقل ما يفعل ، وعلى الناس أن ينهوه عند ما يفعل ، وأملنا في نجاة المصريين أن لا يكون هذا الميل شائعاً في كثير منهم ثم بلغني بعد ذلك أن مرافعة وقعت في المحكمة الابتدائية في مصر باللغة الفرنسية وأن رئيسها مع أنه من أهل التقى والاستقامة وذوي الدراية قد أذن في ذلك ، ولم أعلم كيف كان منه هذا الاذن ؟ ثم لم أدر كيف سكتت نظارة الحقانية على ذلك ، ولم تصدر أمرها بالتحذير من تكرار الوقوع في مثله ؟ ولعل نشر ذلك في جريدتكم ينه غافلاً ، أو يستلفت من يجب عليه الالتفات. وأملنا أن هذه الوزارة الرفيعة الشأن تراقب ما يقع في المحاكم من مثل هذه الهفوات ، وتنبه الاعضاء والرؤساء على ما يخاطون منها ، وتعرفهم مواضع الخطأ فيها ، فانها

قد تكون في نظر بعض الناس جزئيات ، لكنها في نظر العارفين منازع لكليات ، وأن يوقفنا جميعاً لما فيه صلاحنا ، ويرشدنا إلى سبيل فلاحنا ، اه
(جامع الكتاب) ليتأمل القارىء غير الاستاذ رحمه الله على وطنه ولغته ومقاومته لتيار التفرنج ، وكبحه لجماع المتفرنجين الذين كانوا وما زالوا يفسدون عليها جميع مقوماتها المليية والقومية ، وأعلاها الدين واللغة - وجميع مشخصاتها الوطنية كالعادات والازياء مثلاً . وأن نجد مثل هذه الحمية عند غيره كما كانت عنده؟

المقالة السابعة

الانتقاد *

(ما وعظك مثل لائم * وما قومك مثل مقاوم)

الانتقاد نفثة من الروح الالهية في صدور البشر تظهر في مناطقهم ، سوقاً للناقص إلى الكمال ، وتنبهياً يزعج الكامل عن موقفه إلى طلب الغاية مما يليق به . الانتقاد قاصف من اللائمة تنفس عنه القلوب ، وتفتق به الألسنة ، لتقرير الناقصين في اعمالهم ، ودفع طلاب الكمال الى متهى ما يمكن لهم
جعل الله للحياة قواماً وقوام الحياة بالادراك

انما الانسان كون عقلي سلطان وجوده العقل ، فان صلح السلطان ونفذ حكمه ، صلح ذلك الكون وتم أمره . إن الله لم يهمل العقل من ناصرين عزيزين حاذقين أحدهما له والثاني له وعليه ، أما الاول فما قرن الله به من غريزة الميل للافضل ، والاصطفاء للأمثل ، وأما الثاني فما أزمه الصانع من الانتباض عن الدون ، والنفور عن منازل الهون ، فذاك يحدوه ، وهذا يسوقه ، وذاك يزين له الطلب ، وهذا يزعجه إلى الهرب ، وكل منازل العقل صعود إلا أدناها ، فعجز يقف بأهله على شفير العدم ، وكل منزلة بعد الأدنى دنو من الكمال ، غير أن

(* نشرت في جريدة ثمرات الفنون البروتية وكنا ظفرونا بنسخة منها فنشرناها في المجلد الرابع من المنار ولم نقف على تاريخ نشرها في الثمرات

(٤٧ — تاريخ الاستاذ الامام — الجزء الثاني)

ما يسمو اليه العقل ، أشبه بما ينبسط اليه الوجود ، يمتد الى غير نهاية ، ويرتفع دون الوقوف عند غاية ، فليس يصل منتجع الكمال الى مقام إلا ويرمي بطرفه إلى أبعده منه ، ومساقط العجز وبيئة المقام ، كثيرة الآلام ، تستوكرها أفاعي الهموم ، وغائلات الغموم ، وقد جعلها الله من وراء العقل ، كما التفث اليه راعه هول منظرها ، فتحفز عنها ، الى منجاة منها ، ولا يزال يزجيه الخوف ، وتطير به الرغبة ، حتى يدنو من رفرف السعادة الأعلى

ولكن كلال البصائر البشرية قد يقف بها عند مظاهر غرارة ، وظواهر ختارة ، فتخالطها لبتها ، وتحسبها منيتها ، ولا تدري أن بها هلكتها ، وفيها منيتها ، فثلها مثل الطير ينظر الى الحب المنشور ، ويعجب عن الفخ المنصوب ، فاذا سقط للالتقاط وقع في يد الحابل ، أو مثل المفترس يلوح له لأخ الفريسة ، ولا يشعر بما أعد له صائده ، فاذا وثب عليها أتاه الصائد من مقتله ، وأعجبه عن مأكله

لهذا وكل الله بالعقل منبها لا يغفل ، وحسيباً لا يهمل ، وكالئذا لا ينام ، يزعج الواقف ، ويحثث المترث ، ويمسك الواجف ، ماسكن ساكن الى حال ، ولا قنع قانع بمنال ، الا هتف به : إن ما تطلب أمامك . ولا أوغل أوغل فيما لا ينفعه ، ولا أوضع موضع الى ما يضره ، إلا صاح به : تعست الجدود ، وأضرعت الحدود ، فحفض من سيرك ، وقوم من سيرك ، وإلا فالذل مقيلك ، والهلكة مصيرك ، ذلك الواعظ الحكيم ، والمؤدب العليم هو (الانتقاد) ، يثبت في الفؤاد ، ثم يتجلى في البيان ، على أسلة اللسان ، فيفقهه العالمون ، ولا يهمله العاملون ، (فطرة الله التي فطر الناس عليها) : أودع في كل ناطق بصراً بشأن غيره ، أشد احاطة من بصره بشأن نفسه ، ومكن كلاً من تمييز أحوال الآخر حسننا من قبيحها ، وقاسدها من صحيحها ، ثم دفعه للناطق بما ألهمه ، والقضاء بما أحكمه ، فكان لكل انسان أبصار بعدد الناظرين اليه ، والعارفين بما عليه عمله ، كلها كبصره تربه الخير فيطلبه ، وتكشف له الشر فيجتنبه ،

وجعل الله الناقدين أقساماً فمنهم ناظر الى الفضل لا يمدوه فهو يذكّر المنقبة ، ويفض عن المثوبة ، ومن هذا القسم المفرطون في الوفاء من الاصدقاء . ومنهم رقباء النقائص

وجواسيس العيوب، يروون المسآت، ويسكتون عن الحسنات، وفيهم الحساد، وأهل الاحقاد، ومنهم ناظرون بالعينين، عارفون بالوجهين، يذكرون للكمال نبله، ويلزمون النقص ويله، وهؤلاء في أعلى المنازل، وفيهم الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر، والحافظون لحدود الله. ومن الناقدين فاسقون يكتمون ما يعرفون، ويهرفون بما لا يعلمون، وهم في أخس المنازل. وليس في الناس إلا من تجتمع هذه الاقسام له وعليه. وما جعل الله بشراً يسلم منها، ويحرم من بعضها، فكأنها التي قال فيها (وإن منكم إلا واردة) وكلها صدى صوت الكمال الالهي الأعلى، ينادي الكاملين أن يستزيدوا، والناقصين أن يستجيدوا.

هل لجاحد أن يصغر قدر الحسيب على أي وجه كان حسابه؟ أو لجاهل ينكر حكمة الله في تقيضه لنا؟ أو لواهم أن يذهب الى انه ليس من نظام الفطرة؟ واني أحيلك على خواطر نفسك اذا بلغك، وأنت غربي مثلاً أن ملك الصين غدر بأحد أوليائه، أو استصفي أموال رعيته، أو كفهم مالا يطيقون احتماله، أو أهمل في مصلحة بلاده حتى تجرأ عليها أعداؤها، أو جبن عن حادث ألم به، وكان يستطيع دفعه، ألا ترى من قلبك امتعاضاً عليه، ومن نفسك ازدراء لعمله، وفي لسانك لمجة بلومه، وهو منك على بعد المشرقين؟ ولئن وصلت اليك روايات عدله، ورعايته حقوق بلاده، وحفظه لذماته، وجدت اليه من فؤادك ميلاً، ومن رأيك لعملة استحساناً، ومن لسانك عليه ثناء. —

ولو شئت حاكمتك الى مذاهب يملك عند ما تنظر في تاريخ لمن سبقك، فان مثل لك النظر فضلاً في سيرة، أو خزيرة في جريرة، ألمت نجد من نفسك انبساطاً الى فواضل الغرر، وانقباضاً عن مخازي العرر، ثم انطلقاً الى نشر ما وجدت، ثم رأيت عضداً منك لأحدهما، كأنه قائم يستنصر فانت تنصره، وتغيظاً على الآخر، كأنما يدعوك لعونه فانت تخذله؟

لاجرم أن النقد نائرة غريزية تقدح شررها على السابقين واللاحقين، وكل قد فحشوه لوم، حتى ما كان منه قاصراً عند بث الحمدة والاقرار بالفضيلة، فان حمد الكامل عدل للناقص على التقصير، وازعاج المحمود، وزجر له عن ملاسة

الاعياء، فكأنني وصاحب الثناء يقول : ألا أيها القاعدون انهضوا، وبأيها المبرزون اركضوا ، واحذروا الوقفة فانها بداية القهقري : تلك أقلام الحق ، في السنة الخلق ، لا يصم عن نداءها إلا أصم ، ولا يغبي عن انذارها إلا أهبم^(١) على ذلك قام النظام الانساني، فلولا الانتقاد ماشب علم عن نشأته، ولا امتد ملك عن منبته ، أترى لو أنفل العلماء تقد الآراء ، وأهملوا البحث في وجود المزاعم، أكانت تتسع دائرة العلم ، وتتجلى الحقائق للفهم ، ويعلم الحق من المبطل ؟ أو لو أنغض الاصدقاء والاولياء عن سياسة السائس ، وتدبير الحاكم ، وهجروا النظر في قوة الملك ، ولم يقرعوا كل عمل بمقاييم النقد ، أكانت تستقيم بحجة ، وتعتدل بحجة ، أو تعظم قوة ؟ كلا بل كان يتحكم الغرور ، وتتسلط الغفلة ، ويعود الصواب خطلاً ، والنظام خطلاً ، تلك سنة الله في الأولين . وهي كذلك في الآخرين

فالمغبوط في حاله من يستمع قول الاعمين ، ويستطلع خواطر المعترضين ، ويتصفح وجوه المتكبرين ، ذلك روح الحياة فيه يطلب حاجاته ، ويتحفظ من آفاته ، وليس فيما يملك المازنون أنفس لديهم ، من الانحاء عليهم بما ينبههم اذا غفلوا ، ويهلبهم اذا جهلوا ، ويهديهم اذا ضلوا ، وينعشهم اذا زلوا ، وكما توجد نقائس الارشاد هذه عند الاولياء ، توجد عند الاعداء ، بل هي عندهؤلاء أجود ، فانهم يرفعون المعايير أعلاماً بيّنة ، حتى لا تعود فيها شبهة لناظر ، وأحجى بالعقل أن لا يمتج من الانتقاد شيئاً ، حتى أكاذيب أهل الضغينة ، ورجوم ذوي السخيمة ، على مخالفتها للحقيقة ، فان أباطيل اللوم تكون للعقل بمنزلة المسالخ ، تقام في الثغور زمن السلم حذراً مما عساه يطرقها من عدوان المغيرين عليها ، وأقل ما يكون من العاقل فيها أن يقول : قيل فينا ولم نعمل فكيف بنا لو عملنا : فهي ان لم تهده الى مطلب ضل عنه ، ولم ترد اليه فائتاً كان ينفلت منه ، فقد تحفظه من السقوط فيما يجعل الكذب صدقا ، والباطل حقاً ، فمن فسق لسانه ، وخالف بيانه جناحه ، وجاء بغير الحق في ثلب غيره ، فقد أفسد نفسه لصالح

(١) الابهيم المصاب في عقله

عدوه ، والله ما يقول بعض الصوفية : جزى الله الاعداء عنا كل خير ، فلولا هم مازلنا منازل القرب ، ولا حللنا حظائر القدس . (*)

هذا وقد كفر قوم نعمة الانتقاد، فظنوا صنع الله فيه عبثاً « نعوذ بالله » فوقروا عنه آذانهم ، وعطلوا من ناحيته سمعهم ، وجعلوا أصابهم في صالحيهم^(١) من صواعق زجره ، وقواصف نهييه وأمره ، وضربوا بينهم وبين أهل النقد حجبا ، وأقاموا دونهم استاراً وخيل لهم الجبل أن صممهم عنه ، يقيم منه ، وأن قبوعهم في أهب الغفلة^(٢) ، يدر أعينهم سهام اللوام ، كأنهم لا يعلمون أن ذلك وقوع في أشد ما خافوا ، واندفاع الى شر مما رهبوا ، فمثلهم كمثل بعض الطيور اذا رأى الصائد غمس رأسه في الماء ، ظناً منه انه متى أغمر عن طالبه أغمرض الطالب عنه ، فيكون بذلك قد يسر للصائد صيده ، وسهل عليه كيده ، ومن ثم تجدهم في عمى عن شؤونهم ، وتخبط في أعمالهم ، قد لزموا خطة من الهون ، لو أبصر عقلم بعض أطرافها ، لما أتوا جزعاً من هول ما فيها ، كل ذلك وأسلات اللسن واسنة الاقلام ، لا تألوا في تقريبهم ، بل ووصوت الحق الصريح يناديهم من عائق ضمائرهم : بئس ما اشتريتم لأنفسكم لو كنتم تعلمون ، وليهم عاتب ، وعدوم عائب ، وهم في غفلة عن هذا ، بل لا يشعرون أولئك الذين ختم الله على سمعهم ، وطبع على قلوبهم ، فمروا من ناموس الفطرة الالهية ، فهم أموات الارواح . مضطربو الاشباح . ولا تنشق عنهم قبور الخمول ، حتى يذشرهم الله في حياة أخرى ، يخضعون فيها للأحكام الكونية ، ويعملون على السنن الالهية ، فلينتظروا وأنا معهم من المنتظرين

(*) في معناه قول الشاعر :

عداتي لهم فضل علي ومنسة فلا أذهب الرحمن عني الاعاديا
هو تجنوا عن زلتي فاجتنبتها وهم نافسوني فاكتسبت الماليا
(١) الصالبيخ ج صملاخ وصملوخ وهو داخل خرق الاذن ويطلق على وسخها
(٢) الاله بضمين جمع أهاب ككتاب وهو الجلد الذي لم يدبغ أو أعم

المقالة الثامنة

المسألة الهندية*)

وردت إلينا هذه الرسالة من أحد أفضل الكتّاب البلغاء ففشرناها
بمخروفها كما ترى.

أكسبني الاطلاع على جريدتكم علماً برغبتكم في البحث عن دقائق السياسة
في البلاد الشرقية وإقدامكم على نشر مائةفون عليه منها خدمة لأوطانكم وأياداً
لاعتدال سيركم وهذا ما بعثني أن أكتب اليكم بعض ما وصل إليّ في مسألة من
أهم المسائل المنظور فيها لهذا الوقت وهي المسألة الهندية ، وربما ترون من المفيد
نشر ما أقدم لكم من ذلك

كأنني بالحال في بلاد الهند وقد اشبهت الحال في كثير من البلاد الشرقية
عند ما تضرب راسياتها ، وتمتدز ثوابتها ، وتنفس صوامتها ، اعداداً لزلزال
يوجب الانقلاب فيها ، غير أن المألوف في تلك الاحوال أن تكون متألف
الانقلاب ومضاره مهلكة للشرقي لتساهله وسوء تصرفه ، وفوائد وثمراته غنيمة
للأوربي لحزمه وتجويد الرأي فيما يفعله . والمتظر في الهند على خلاف المألوف
قد تسقط بتبدل الاحوال فيه دولة من أعظم الدول الاوربية ، وأخذت في السياسة
الخارجية ، وتنهض دولة أو دول شرقية تعضدها دولة أوربية . هذا ما تفرق به
هذه المسألة عن سائر المسائل

لا يفوتكم العلم بأن البلاد الهندية على سعتها تسكنها طوائف مختلفة تباين في
العقائد والاخلاق حتى يخيل للناظر في أطوارها أنها اجناس متباينة ، غير أن هذا
الاختلاف قلما كان يظهر أثره في الروابط السياسية اذا تولت طائفة منهم أمر
الحكومة في باقيا ما دامت خصائص الطوائف محفوظة . ولما دالت الدولة للانكباب

*) نشرت في العدد ٤٧٣ من جريدة الاهرام الاسبوعية الذي صدر في
الاسكندرية في ٢ ذي القعدة سنة ١٣٠٢ و ١٣ أغسطس سنة ١٨٨٥ وقد وجدنا
هذا العدد في محفوظات الاستاذ رحمه الله

فيهم سكنوا اليها زمناً ثم نبذتها طابعهم فموا بالتملص منها فلم يمنعهم الاختلاف الفكري والديني من الاجتماع تحت لواء الجنسية العامة وحملوا بغارة واحدة على الانكليز في سنة ١٨٥٧ غير أنهم لم يوفقوا للنجاح فيما هموا به ، بل ظفرت بهم الدولة الحاكمة

ومن ذلك الوقت أخذت الدولة الانكليزية حذرهما فرفعت بناء سياستها على أساسين الأول توليد الشقاق بين الطوائف وإيقار صدور كل طائفة من الاخرى وآلتها في ذلك أصل الخلاف الموجود بينهم وأدركت بعض النجاح في سعيها هذا وظهر بعض أثره في بلاد البنجاله بين الوثنيين وبين المسلمين ، وفي أواسط الهند بين الطوائف الوثنية بعضها مع بعض . والاساس الثاني سد نوافذ الاخبار عن المهندسين قاطبة حتى لا يقفوا على المشاكل السياسية والورطات الحربية التي تقع فيها انكلترا ، ولا تكون بينهم وبين الأوربيين صلة سياسية يلبأون اليها اذا هموا بمثل عملهم السابق ، ولا يطرق آذانهم صيحة من صيحات الحوادث التي تنبههم لطلب حال خير مما هم فيه . قطعتم عن العالم فهم بمعزل عن معرفة شيء من أحواله ليستمر بهم الاذعان بأن لاقوة إلا بانكلترا ، ولا ملجأ منها إلا اليها ، ولا حيلة في الادبار عنها إلا الاقبال عليها ، ولا شفيع من جورها إلا جبروتها الأعلى . وهذه أحكم سياسة يقوم بها سلطان الغالب على المغلوب ، وليس في نظر العقلاء أجود منها لولا تضاريف القدرة الالهية مما لا يطاق له بناء ، ولا يعاجله دهاء .

وي انتقض الأساس الثاني فانصدع له ركن عظيم من قوة الدولة . لم يكن في حسابان أحد من حكام الهند ان يزحف جيش الروس على حدود الافغان ، بل كانوا في غرة الأمن من وقوع مثله ، فاذا الحادث فاجأهم فطار طائر الأخبار بغتة حتى جثم على قم جبال الهند ، وصاح بالخبير المفرع فلم يبق هندي إلا وبلغ منه الخبر حد اليقين ، فذلك قد أعجل الدولة عن التدبير في كتمانها ، قراجمت العقول من غيبتها ، وانطلقت الآمال من محابسها ، وخيل للنفوس أن المارك أصبحت على حدود بلاد الهند

علم ذوو الرأي من أهل الهند أن دولة أوربية شديدة البأس سامية القوة ستصبح جارة لهم ولها من المصلحة في بلادهم ما يضارع مصلحة الدولة الحاكمة، فلو تقربوا منها شبراً لتقربت منهم ذراعاً . ومذاهب المتغلبين في السيادة على المغلوبين وإن كانت مشابهة إلا أن من أحكام العادة أن يكون في سيرة الجديد لين إلى أمد حتى يتمكن من السلطة ، ويكون من أحوال البلاد على خبرة ، فلهم في تقليب الحال متنفس . بل تعالت أفكارهم إلى أسى من ذلك فظنوا أن لاطاقة للروسية لو تقدمت إلى الهند أن تضبطها بقوة السلاح دفعة واحدة ، فمن المحتوم عليها أول العمل أن تعيد الملك لطلابيه من أهالي البلاد وتقدم بالمعونتة على سالبه منهم لتكون البلاد عوناً لها على بلوغ غايتها من فتح أبواب التجارة الهندية لأبناء جلدتها ، ثم إن شاءت بعد ذلك غالبتهم ، وفي هذا متاع من الاستقلال إلى حين ، وفسحة من الزمان ربما تمكنهم من صون ما يصل إليهم . هذا ما يرتفع إليه الخبال في رؤوس الهنديين على اختلاف طوائفهم ولا أظنهم يخطئون فيما يظنون ، ولا تجب طائفة منهم عوناً على ما تؤمل إلا في الاتحاد مع الأخرى

وقد ضعف الأساس الأول فيوشك أن يتضعض البناء . همدت نيران الضغائن التي كان يسعها الحكام في البنجاله بين المسلمين والوثنيين ، وبعد أن كانوا متدابرين يذهب كل منهم إلى حيث لا يلتقي مع الآخر أبد الأبد ، انعطفت كل في سيره إلى ما يقارب الآخر فلا يعضى كثير من الزمن إلا وقد عادوا متقابلين .

لا يقتر الحكام عن امداد اللهب بوقود الفتن كأنهم خلفاء الفرس الاقدمين في عبادة النار إلا أن الآمال المقبلة تصب عليها ماء باردا فلا تلبث أن تصير برداً وسلاماً . وقبائل (المرتة) في أواسط الهند هزت مناكبها نحو مطلوبها القديم هذه من أقوى قبائل الهند وأشدّها تمسكاً بعوائدها وأحرصها على الاستقلال . أرغموا من زمن على الدخول تحت السلطة الانكليزية ، ولكنهم لم يؤدوا من رسوم الطاعة شيئاً سوى الخراج ، فقد تحالفت هذه القبائل على وفرة عددها أن لا ترفع من أمرها شيئاً جزئياً كان أو كلياً إلى حاكم انكليزي ، واتفقت على

أن يكون تدبير شؤونها مفوضاً لرجال منها ينتخبون بالاقتراع ، وما كان عاملاً من شؤونها خصته بمجلس عام يشبه مجالس النواب في البلاد المتعدنة ، وما كان خاصاً كالفصل في الحصومات جنائية كانت أو قضائية ناطقه بقضاة منها لا ينازع في حكمهم ، ولا يدافعون في قضائهم ، ولو أن مرتباً رفع أمره في خصومة إلى القاضي الانكليزي لأعدموه حياته وذهب دمه هدرًا لا يطالب به أحد . كل ذلك ولا يستطيع حاكم من حكام الانكليز أن يقف على شيء من أحوال الداخلية . بل حرموا على أنفسهم الانتفاع بشيء من مصنوعات أوربا وثبتوا على صنائعهم وروجوها بينهم ، وبذلوا الجهد في ترقيتها حتى صار لهم من الصنائع ما يشبه صنائع الأوربيين في كل نوع ، ولا يوجد في بيت واحد منهم أو على بدنه مصنوع إلا من عمل أيديهم

فهذه القبائل الرفيعة الهمة الآرية النفس أخذت الالهة في هذه الأيام لما أعده لها استعدادها . ولست بالوأم إن قلت بتواتر رسالتها وكتبها إلى الحدود الشمالية لتجاذب جبال الهمة بينها وبين رؤساء المنفذين في زعمها حكومة حيدرآباد ملت سيطرة الانكليز عليها ، ونظرت إلى قوتها العسكرية واجتماع رعاياها على بعض المتحكمين في شأنها ، الآخذين على يديها ، وجاءها خبر الزحف الروسي ، فشدت عزمها ، وزاد في حرصها على الخلاص من عنف السيطرة الانكليزية ، وقبائل (السيك) في بنجاب من شمال الهند شمروا للخوض في لجج الفتنة متى اشتبكت حرب في بلاد الأفغان ، ليعيدوا مجدهم الأول ، ويأخذوا بالحق لأنفسهم ممن أباح دماءهم ، وقتك بأشرافهم . ولم يمض على ذلك الزمن الطويل فينسى ، ولم يأتهم عوض عما فقدوا فيتلوا عنه

أحست حكومة الهند بمبادئ الاضطراب ، فأخذت الطرق على كل سائر إلى جهة الشمال ، منعاً للمواصلات بين الهنديين والروس ، ومنعت تجار الأفغانيين من الجولان في البلاد الهندية ، وصدت كل عربي يدخل إلى الهند من الشخوص إلى حيدرآباد لكثرة أبناء العرب فيها ، واشتدت في التضييق على كل طارق غريب يرد إلى أرض الهند ، وعلى كل وطني يصل إلى الحدود

الشمالية ، وأخرست الجرائد عن التكلم في حوادث التقدم الروسي ، وأنظمتها قهراً بما يغشي وجه الحقيقة ، ويصرف الأفكار عما شغلت به من أعداد العدد وتحويل مراكز الجند ، وحشد الجيوش ، وتوفير الذخائر في مواقع المحافة ، وأرسلت عيونها على موارد البريد ، ورسمت بفتح المغلقات ، وأخذت بكل احتياط . ومع هذا كله ضاقت سلطة الحكومة عن سد أبواب الهند المفتوحة ، وقطع طرقها الواسعة ، وتسوير حدودها الممتدة . فالأخبار بين أمراء الهند وبين الروسية متواصلة ، وقد علم رجال الحكومة أن الحال في هذه الأزمان الأخيرة غيرها في سنة ١٨٥٧ (*) حيث أمكن للحكام في تلك الأوقات كتمان سر الفتنة عند اشتباكهم في الحرب مع دولة إيران ، وكتمان خبر الحرب عن رؤساء الفتنة ، حتى تم الأمر للحكومة انكثرا في إهماد الثورة وإنهاء الحرب على شروط توافقها . أما الآن فليس يخفى على الروسية أدنى حركة تكون في الهند ، ولا يخفى على الهنديين أقل عمل يكون من الروسية

وإن الأخبار الخصوصية الواردة من الهند تفيد أن الأمر في تلك الأقطار أشد مما تدل عليه أخبار الجرائد . أما ما زعموا من أن بعض التوايين والرجوات عرضوا أنفسهم وجيوشهم لمساعدة انكثرا عند ما طاش ميزانها مع الروسية ، فذلك مما يعجب خبره ، ويضحك معجبه . فان رجلا من الانكابتز سعوا عند بعض الضعفاء من الأمراء وأغروهم أن يتقدموا بهرض أنفسهم لمساعدة الحكومة لتوهم بذلك أنها معضدة من رعاياها ، ففعلوا على أن ينالوا أجراً على فعلهم ثم خابت آمالهم فاقبلوا على أعقابهم . ولو فرض صحة ما زعموا فهو كثير الوقوع في كثير من البلاد عند بداية الحوادث يظهر الضعيف أنه نصير القوي ، فاذا حم الصدام كان أول خاذل له ، خصوصاً اذا أحسَّ بل توهم الانقلاب بالهزيمة بقي شيء في مجمل خبرنا نذكره تيميا للبحث وهو : أن للدولة العثمانية شأنًا في المسألة الهندية لا يسوغ إنكاره ، فان لها عدة كافية ، وقوة وافية ، يمكنها أن تستخدمها لأرائها السياسية متى شاءت ، ويسهل عليها أن تستفيد منها اذا

أقبلت عليها بشيء من التدبير . تلك قوة خمسة واربعين مليوناً من المسلمين أهل السنة يعتقدون أنها دولة الخلافة ، وأنها مرمى آمالهم في تخليصهم من أيدي الأتجانب ، ومكانتها من قلوبهم أعلى من مكانة حاكبيهم ، وأوصال أعمالهم معقودة بأوامرها . ولو أن لدولة أخرى قوة مثل هذه القوة لرأينا جوادها المجلي في هذه الحجارة . ولكن مما يوجب الأسف أن هذه العدة ربما تتبدد ، وتلك القوة تضحل ، ولا يكسب رجال الدولة من إهمالها إلا ما يكسبه باذل ماله أعدوه وفقهم الله لاسداد في آرائهم ، والصلاح في أعمالهم

(يقول جامع الكتاب) لم نعتبر للاستاذ رحمه الله تعالى على مقالة

في جريدة مصرية بعد عودته من باريس الى سورية وترك جريدة العروة الوثقى الا هذه المقالة ، وهي تشبه مقالات العروة الوثقى السياسية التي كانت من نثبات السيد جمال الدين في قلم الاستاذ . وكان الحكيمان يرجوان من تحرش الروسية بالهند في تلك السنين أن يفضي الى ترك الانكاز لمصر والسودان فلذلك كانا يعظمان شأن ذلك التحرش

*

هذا واننا رأينا أن نغير في هذه الطبعة ترتيب ما نشرناه في الطبعة الاولى لهذا التاريخ فنقدم ما كتبه من المقالات المادية في الصحف ، ونؤخر اللوائح الاصلاحية والمناظرة الدينية السياسية ، ورحلة صقلية

المقالة التاسعة

بسمارك والرياسة

(نبذة نشرت في العدد ٤٤ من السنة الأولى من المنار وكانت جريدة

اسبوعية في ٩ رمضان سنة ١٣١٦ - ٢١ يناير سنة ١٨٩٩)

رأيت في وقائع بسمارك التي نشرت بعد موته بقلم كاتب أسراره مسيو بوش كلاما جاء به البرنس وهو على مائدة الطعام مع جلسائه يتعلق بالدين فاستحسنتم ترجمته ليطلع عليه من لم يعن بقراءة هذا الكتاب من شباننا الذين يعدون النسبة الى دينهم سبة ، والظهور بالمحافظة عليه معرفة ، وليعلموا أن الايمان بالله وبالوحي الالهي إلى أنبيائه ليس نقصاً في الفكر ، ولا ضلّة عن صحيح العلم ، ولا عيباً في الرياسة ، ولا ضعفاً في السياسة

جلس البرنس بسمارك على مائدة الطعام فرأى بقعة من الدهن على غطاء المائدة فقال لأصحابه : « كما تنتشر هذه البقعة في النسيج شيئاً فشيئاً ، كذلك ينفذ الشعور باستحسان الموت في سبيل الدفاع عن الوطن في أعماق قلوب الشعب ولو لم يكن هناك أمل في الأجر والمكافأة ، ذلك لما استكن في الضمائر من بقايا الايمان ، ذلك لما يشعر به كل أحد من أن واحداً مهيمناً يراه وهو يجالديهم ياهد ويموت ، وان لم يكن قائده براء » فقال بعض المرتابين : اتظن سعادتك ان العساكر يلاحظون في اعمالهم تلك الملاحظة ؟ فأجاب البرنس :

« ليس هذا من قبيل الملاحظات وإنما هو شعور ووجدان ، هو بوادر تسبق الفكر ، هو ميل في النفس وهوى فيها كأنه غريزة لها ، ولو أنهم لاحظوا لفقدوا ذلك الميل ، وأضلوا ذلك الوجدان . هل تعلمون اني لا افهم كيف يعيش قوم ؟ وكيف يمكن لهم ان يقوموا بتأدية ما عليهم من الواجبات ؟ او كيف يحملون غيرهم على اداء ما يجب عليه ؟ ان لم يكن لهم ايمان بدين جاء به وحي سماوي واعتقاد بالآله يحب الخير ، وحاكم ينتهي اليه الفصل في الأعمال في حياة بعد هذه الحياة » ثم ساق الوزير كلامه على هذا النمط بأسلوب آخر فقال :

« لو تقضت عقيدتي بديني لم اخدم بعد ذلك سلطاني ساعة من زمان . اذا لم اضع ثقتي في الله لم اضعبها في سيد من اهل الأرض قاطبة ، لكن انظروا الي تجدونني قد ملكت من موارد الرزق ما يكفيني ، وارتقيت من المناصب ما لا مطمع بعده ، فلماذا اشتغل؟ ولم اجهد نفسي في العمل؟ ولم اعرضها للهموم والآلام؟ لا يبعثني على شيء من هذا الشعورى بأنتي في جميع ذلك اعمل عملي لوجه الله . لو لم يكن لي ايمان بالعناية الالهية التي قضت بأن يكون لهذه الأمة الألمانية شأن كبير ، وأثر في الخير عظيم ، لطرحت لساعتي ما حمله من أثقال ووظائف الحكومة . «ماذا أقول؟ بل لولا ذلك الايمان لما قبلت شيئاً من هذه الوظائف ، لأن الرتب والألقاب لا بهاء لها في نظري ، لولا يقيني بحياة بعد الموت ما كنت من حزب الملكية . لو لم يكن هذا اليقين لكنت جمهورياً . نعم أنا جمهوري بالفطرة، يتبين ذلك من الغارات التي أشنها على هنات (خصال الشر) رجال الحاشية من مدة تزيد على عشر سنين ، من هذا يظهر أن ايماني قد بلغ من القوة أعلاها ، حتى حملني بقوته على أن أكون ملكياً ، اسلبوني هذا الايمان تسلبوني محبتي لوطني . اعلموا أنني لو لم أكن مسيحياً مخلصاً لم يكن لكم وزير كبير مثلي يدبر أمر الاتحاد الألماني . لو لم أكن مخلصاً في ديني لوليت ظهري جميع الحاشية ، ولو وجدتم لي في الغد خلفاً يكون أخلص مني في يقينه لانقلت من المنصب في الحال . ما أنظم مسرتي بهجر الوظائف لو تعلمون . إني أحب المعيشة في القرى والحقول ، أحب الآجام ومناظر الخليقة ، انزعوا مني هذه الرابطة التي تصلني بالله تجدونني من الغد رجلاً يأخذ اهتبه للسفر الى (وارزين) ليشتغل بجرانه ارضه وتنمية غرسه ، إن لم أكن خاضعاً لأمر الهي فلم أضع نفسي تحت طاعة هذه العائلة المالكية ، مع انها تتصل بأصل ليس بالأعلى ولا بالأنبيل من الأصل الذي تتصل به عشيرتي؟ »

هذا كلام بسمارك وهو يدلنا على ان هذا الرجل العظيم كان يعتقد ان عظام أعماله انما كانت من مظاهر ايمانه ، وان الاعتقاد بالله والتصديق باليوم الآخر هما الجناحان اللذان طار بهما إلى ما لم يدركه فيه مفاخر ، ولم يكثره مكثر

المقالة العاشرة

آثار محمد علي في مصر

﴿ نشرت في الجزء الخامس من مجلد المنار الخامس المؤرخ في غرة ربيع الاول سنة ١٣٢٠ - ٧ يونية سنة ١٩٠٢ ﴾

لفظ الناس هذه الأيام في محمد علي وماله من الآثار في مصر وأهلها وأكثر الجرائد من الخوض في ذلك^(١) والله أعلم ماذا بحث المادح على الاطراء ، وما ذاجل القادح على الهجاء ، غير انه لم يبحث باحث في حالة مصر التي وجدها عليها محمد علي وما كانت تصير بالبلاد اليه لو بقيت وما نشأ عن محوها واستبدال غيرها بها على يد محمد علي . اذكر الآن شيئا في ذلك ينتفع به من عساة ينتفع ، ويندفع به من الروم مار بما يندفع ،

كانت حكومة البلاد المصرية قبل دخول الجيش الفرنسي فيها من أنواع الحكومات التي كانت تسمى في اصطلاح الغربيين حكومات الاشراف وتسمى في عرف المصريين حكومات الانزام وتعرف عند الخاصة بحكومات الأقطاع . وأساس هذا النوع من الحكومات تقسيم البلاد بين جماعة من الأمراء يملك كل أمير منهم قسما يتصرف في أرضه وقوى ساكنيها وأبدانهم وأموالهم كما

﴿ ١ ﴾ سبب ذلك الاحتفال بذكرى مرور مائة سنة على تأسيس محمد علي للدولة المصرية . وكنا كتبنا في الجزء الرابع الذي قبل هذا الجزء مقالا اتقدنا فيه جعل الاحتفال في المساجد وبيننا سينات محمد علي وأكبرها قتاله للوهابية، قضائه على ذلك الاصلاح ومن اللطائف أن الخديو أرسل جزء المنار الرابع الى الاستاذ الامام مع بعض رجال حاشيته وأمره أن يشكونا فيه اليه راجيا منه أن ينهانا عن العود الى القدرح في جده وكان قد صدر الجزء الخامس الذي فيه مقالة الاستاذ فلما بلغه الرسول ما أمر به قال له الاستاذ : يظهر ان أفندينا لم يطلع على الجزء الخامس فان فيه مقالة شرا من تلك المقالة التي يشكو منها (!)

يريد ، فهو حاكمهم السياسي والاداري والتضائى وسيدهم المالك لرقابهم . ومن طبيعة هذا النوع من الحكومة أن تنمو فيه الأثرة وتفاظ فيه أصول الاستبداد وفروعه ، وتترزع نفس كل أمير إلى توسيع دائرة ملكه بالاستيلاء على مافي يد جاره من الأمراء . فكأن من مقتضى الطبيعة ان كل أمير لا ينفك عن التدبير والتفكر فيما تعظم فيه شو كته ، وما يدفع به عن حوزته ، وان يكون الجميع دائماً في استعداد إما اللوثوب وإما للدفاع . ولكن الأمراء في مجموعهم كانوا يقاومون سلطة الملوك فيضطر الملك لاستماتهم ومحابة بعضهم للاستعانة به على البعض الآخر ، فضعف بذلك استبداد الملوك فيهم

حاجة الأمراء إلى المال كانت تسوقهم إلى ظلم رعاياهم ، وكانت شدة الظلم تميل برعاياهم إلى خذلانهم عند هجوم العدو عليهم ، ظهر ذلك في خصوصياتهم المرة بعد المرة ، فاضطر الأمراء أن يخففوا من ظلمهم ، وأن يتخذوا من الأهلين أنصاراً يضبطونهم عند قيام الحرب بينهم وبين خصومهم ، أحسن الأهلون بحاجة الأمراء اليهم فزادوا في الدالة على الأمراء واضطروهم إلى قبول مطالبهم ، فعظمت قوة الارادة عند أولئك الذين كانوا عبيداً بمقتضى الحكومة ، وانتهى بهم الأمر ان قيدوا الأمراء والملوك معاً ، ولم يكن ذلك في يوم أو عام ولكنه كان في عدة قرون كما هو معروف عند أهل المعرفة

نعم كانت الحكومة في مصر على نوع تخالف به جميع الحكومات المشرقية ، وكانت البلاد متوزعة بين أمراء كل منهم يستغل قسماً منها ويتصرف فيه كما يهوى ، وكان كل يطلب من القوة ما يسمح له بمد يده إلى مافي يد الآخر أو يدفع به صولته ، فالخصام كان دأبهم ، والحرب كانت أهم عملهم . لذلك كان كل منهم يستكثر من الممالك ما استطاع ليهدمهم جنده ولكن كانت تعوزه مؤنتهم اذا كثروا فاضطروا إلى اتخاذ أعوان من أهالي البلاد فوجدوا من العرب أحزاباً كما وجدوا منهم خصوماً . ثم رجعوا إلى سكان القرى فوجدوا فيهم ما يحتاجون اليه فاتخذوا بيوتاً منها أنصاراً لهم عند الحاجة ، وعرف هؤلاء حاجة الأمراء اليهم فارتفعوا في أعينهم وصار لهم من الأمر مثل ما لهم أو ما يقرب من ذلك . لهذا كنت ترى في البلاد

المصرية بيوتا كبيرة لها رؤساء يعظم نفوذهم ويعلوجاهمهم ذلك كان يقضي على كل أمير من أولئك الأمراء أن يصرف زمنه في التدبير ، واستجلاب النصير ، واعداد ما يستطيع من قوة لحفظ ما في يده ، والتمكن من اخضاع غيره . أنصاره من الأهالي كانوا يجارونه في ذلك خوفا من تعدي أعوان خصمه عليهم ، فوقعت القسمة بين الأهالي ، ولا تزال أسماء الاقسام معروفة إلى اليوم : سعد وحرام . هذا يحدث بطبعه في النفوس شماً ، وفي العزائم قوة ، ويكسب القوى البدنية والمعنوية حياة حقيقية ، لها احتقرت نوعها . فكانت العناصر جميعها في استعداد لأن يتكون منها جسم حي واحد يحفظ كونه ويعرف العالم بمكانته

جاء الجيش الفرنسي والبلاد في هذه الحالة ، دخل البلاد بسهولة لم يكن ينتظرها . احتل عاصمتها واستقر له السلطان فيها . لم تكن إلا أيام قلائل حتى ظهر فيه القلق ، وعظمت حوله الفلاقل ، أخذت القوى الحيوية الكامنة في البلاد تظهر ، فكثرت الفتن ولم تنقطع الحروب والمناوشات ، ولم يهدأ لرؤساء العساكر بال . يدلك على ذلك شكوى نابليون نفسه في تقاريره التي كان يرسلها إلى حكومة الجمهورية من اصطياذ العربان لعساكره من كل طريق . وسلبهم أرواحهم بكل سبيل . واضطر نابليون أن يسير في حكومة البلاد بمشورة أهلها ، وانتخب من أعيانها من بشركه في الرأي لتديبرها طوعاً لحكم الطبيعة التي وجدها

قتل بعض رؤساء الجيش واضطرت عليه البلاد وجاء الجيش العثماني وعاونه الجيش الانكليزي ، وخرجت عساكر الفرنسيين من مصر ، ولا أطيل الكلام فقد ظهر محمد علي بالوسائل التي هيأها له القدر

والذي كانت تنتظره البلاد من نوع حكومتها ؟ كانت تنتظر أن يشرق نور مدنية يضيء لرؤساء الاحزاب طرقهم في سيرهم لبلوغ آمالهم ، وقد كان ذلك يكون لو أمهلهم الزمان حتى يعرف كل منهم ما بلغ به غيره الغاية التي كان يقصدها في بلاد غير بلاده . وما كان بينهم وبين ذلك إلا أن يختلطوا بأهل البلاد الغربية ، ويرتفع الحجاب الذي أسد له الجهل دونهم . أو كانت تنتظر أن يأتي

أمير عالم بصير فيضم تلك العناصر الحية بعضها إلى بعض ويؤلف منها أمة تمكها حكومة منها، ويأخذ في تقوية مصباح العلم بينها، حتى ترتقي بحكم التدرج الطبيعي وتبلغ ما أعدته لها تلك الحياة الأولى

ما الذي صنع محمد علي؟ لم يستطع أن يجي ولكن استطاع أن يميت. كان معظم قوة الجيش معه، وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة، فأخذ يستعين بالجيش وبمن يستميله من الأحزاب على اعدام كل رأس من خصومه، ثم يعود بقوة الجيش ويجزب آخر على من كان معه أولاً وأعانه على الخصم الزائل فيمحقه، وهكذا حتى اذا سحقت الأحزاب القوية وجه عنايته إلى رؤساء البيوت الرفيعة فلم يدع منها رأساً يستتر فيه ضمير (أنا) واتخذ من المحافظة على الأمن سبيلاً لجمع السلاح من الاهلين وتكرر ذلك منه مراراً حتى فسد بأس الأهالي، وزالت ملكة الشجاعة منهم، وأجهز على ما بقي في البلاد من حياة في أنفس بعض أفرادها، فلم يُبق في البلاد رأساً يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه، أو نفاه مع بقية بلده الى السودان فهلك فيه

أخذ يرفع الاسافل ويعلمهم في البلاد والقرى كأنه كان يحن لشبه فيه ورثه عن أصله الكريم، حتى انحط الكرام، وساد الانام، ولم يبق في البلاد إلا آلات له يستعملها في جباية الأموال، وجمع العساكر بأية طريقة، وعلى أي وجه، فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأي وعزيمة واستقلال نفس، ليصير البلاد المصرية جميعها أقطاعاً واحداً له ولأولاده، على أثر أقطاعات كثيرة كانت لأمرأة عدة

ماذا صنع بعد ذلك؟ اشترأت نفسه لأن يكون ملكاً غير تابع لاسلطان العثماني، فجعل من العدة لذلك أن يستعين بالأجانب من الاوربيين، فإوسع لهم في المجاملة، وزاد لهم في الامتياز خارجاً عن حدود المعاهدات المنعقدة بينهم وبين الدولة العثمانية، حتى صار كل صعلوك منهم لا يملك قوت يومه ملكاً من الملوك في بلادنا يفعل ما يشاء ولا يسئل عما يفعل. وصغرت نفوس الأهالي بين أيدي الاجانب بقوة الحاكم، وتمتع الاجني بحقوق الوطني التي حرم منها، واقلب الوطني

(٤٩) — تاريخ الاستاذ الامام — الجزء الثاني

غريباً في داره ، غير مطمئن في قراره ، فاجتمع على سكان البلاد المصرية ذلان — ذل ضريته الحكومة الاستبدادية المطلقة ، وذلل سامهم الأجنبي إياه ليصل الى ما يريد من غير واقف عند حد أو مردود الى شريعة

قالوا : أنه اطلع نجم العلم في سماء البلاد . نعم عني بالطب لأجل الجيش والكشف على المجني عليهم في بعض الأحيان عند ما يراد إيقاع الظلم بتسمم . وبالهندسة لأجل الري حتي يدبر مياه النيل بعض التدبير ، ليستغل أقطاعه الكبير .

هل تفكر يوماً في اصلاح اللغة العربية ، أو تركية ، أو أرثوذية ؟ هل تفكر في بناء التربية على قاعدة من الدين أو الأدب ؟ هل خطر في باله أن يجعل للأهالي رأياً في الحكومة في عاصمة البلاد أو أمهات الاقاليم ؟ هل توجهت نفسه لوضع حكومة قانونية منظمة يقيم بها الشرع ويستقر العدل ؟ لم يكن شيء من ذلك . بل كان رجال الحكومة إما من الارنؤد ، أو الجراكسة ، أو الأرمن المورلية ، أو ما أشبه هذه الأوشاب ، وهم الذين يسميهم بعض الأحداث من أنصاره اليوم دخلاء . وكانوا يحكمون بما يهون لا يرجعون الى شريعة ولا قانون . وإنما يتفنون مرضاة الأمير ، صاحب الاقطاع الكبير

أين البيوت المصرية التي أقيمت في عهده على قواعد التربية الحسنة ؟ أين البيوت المصرية التي كانت لها التقدم السابقة في إدارة حكومته أو سياستها أو سياسة جندها ، مع كثرة ما كان في مصر من البيوت الرفيعة العمارات الثابتة الاوتاد ؟ أرسل جماعة من طلاب العلم الى أوروبا ليتعلموا فيها ، فهل أطلق لهم الحرية أن ينشوا في البلاد ما استفادوا ؟ كلا ولكنهم استعملهم آلات تصنع له ما يريد ، وليس لها ارادة فيما تصنع . وجد بعض الأطباء الممتازين وهم قليل . ووجد بعض المهندسين الماهرين وليسوا بكثير ، والسبب في ذلك أن محمد علي ومن معه لم يكن فيهم طبيب ولا مهندس فاحتاجوا الى بعض المصريين ولم يكن أحد من الأعوان مسلطاً على المهندس عند رسم ما يلزم من الأعمال ، ولا على الطبيب عند تركيب أجزاء العلاج ، فظهر أثر استقلال الارادة في الصناعة عند أولئك النفر

التقليل من النابغين ، وكان ذلك مما لا تحشى عاقبته على المستبدين هل كانت له مدرسة لتعليم الفنون الحربية ؟ أين هي وأين الذين نبغوا من طلابها ؟ فان وجد أحد نابغ فيل هو من المصريين ؟ عدوا إن شتم أحياء أو أمواتاً

وجد كثير من الكتب المترجمة في فنون شتى من التاريخ والفلسفة والادب ولكن هذه الكتب أودعت في المخازن من يوم طبعت وأغلقت عليها الابواب إلى أواخر عهد اسماعيل باشا فأرادت الحكومة تفرغ المخازن منها ، وتخفيف ثقلها عنها ، فنثرتها بين الناس فتناول منها من تناول . وهذا يدلنا على أنها ترجمت برغبة بعض الرؤساء من الأوربيين الذين أرادوا نشر آدابهم في البلاد لكنهم لم ينجحوا لأن حكومة محمد علي لم توجد في البلاد قراء ، ولا منتفعين بتلك الكتب والفنون

كانوا يتخطفون تلامذة المدارس من الطرق وافناء القرى (الأبناء الناس المجهولون) كما يتخطفون عساكر الجيش ؛ فهل هذا مما يجب القوم في العلم ويرغبهم في ارسال أولادهم الى المدارس ؛ لابل كان يخوفهم من المدرسة كما كان يخيفهم من الجيش

حمل الأهالي على الزراعة ولكن ليأخذ الغلات ولذلك كانوا يهربون من ملك الاطيان كما يهرب غيرهم من الهواء الأصفر والموت الأحمر ، وقوانين الحكومة لذلك العهد تشهد بذلك

يقولون انه أنشأ المعامل والمصانع ، ولكن هل حجب إلى المصريين العمل والصنعة حتى يستبقوا تلك المعامل من أنفسهم ؟ وهل أوجد أساتذة يحفظون علوم الصنعة وينشرونها في البلاد ؟ أين هم ؟ ومن كانوا ؟ وأين آثارهم ؟ لابل بغض الى المصريين العمل والصنعة بتسخيرهم في العمل والاستبداد بشرته . فكانوا يتربصون يوماً لا يعاقبون فيه على هجر المعامل والمصنع لينصرفوا عنه ساخطين عليه ، لاعين الساعة التي جاءت بهم اليه .

يقولون انه أنشأ جيشاً كبيراً فتح به الممالك ودوخ به الملوك ، وأنشأ أسطولاً

ضخماً تتقل به ظهور البحار، وتفتخر به مصر على سائر الأمصار، فهل علم المصريين حب التجند، وأنشأ فيهم الرغبة في المتح والغال، وحب اليم الخدمة في الجندية وعلمهم الافتخار بها؟ لا بل علمهم الهروب منها، وعلم آباء الشبان وأمهاتهم أن ينوحوا عليهم معتقدين أنهم يساقون إلى الموت، بعد أن كانوا ينتظمون في أحزاب الأمراء، ومحاربون ولا يبالون بالموت أيام حكم الماليك، وكان من ينتظم في الجندية على عهد محرز مصر لا يخرج منها إلا بالموت! هل شعر مصري بعظمة أسطوله أو بقوة جيشه، وهل خطر ببال أحد منهم أن يضيف ذلك اليه بأن يقول هذا جيشي وأسطولي أو جيش بلدي أو أسطوله؟ كلا لم يكن شيء من ذلك فقد كان المصري يعد ذلك الجيش وتلك القوة عوناً لظالمه فهي قوة خصمه. كذلك كان بعدها كل عثماني في مصر أو في غير مصر. ليقبل لنا أنصار الاستبداد كم كان في الجيش من المصريين الذين بلغوا في رتب الجندية إلى رتبة البكباشي على الأقل؟ فما أثر ذلك في حياة مصر والمصريين إلا أسوأ الأثر — أثر كاله شر في شر، لذلك لم تلبث تلك القوة أن تهدمت واندثرت

ظهر الأثر العظيم عند مجاء الانكباب لآخماد ثورة عرابي. دخل الانكباب مصر بأسهل ما يدخل به داصر^(١) على قوم ثم استقروا ولم توجد في البلاد نخوة في رأس تثبت لهم أن في البلاد من يحامي عن استقلالها وهو ضد مارأينا عند دخول الفرنسيين إلى مصر، وبهذا رأينا الفرق بين الحياة الأولى والموت الأخير، وجهله الأحداث فهم يسألون أنفسهم عنه ولا يهتدون اليه

لا يستحي بعض الأحداث من أن يقول أن محمد علي جعل من جدران سلطانه بنية من الدين. أي دين كان دعامة للسلطان محمد علي؟ دين التحصيل؟ دين الكبراج، دين من لا دين له إلا ما بهواه ويريده. وإلا فليقل لنا أحد من الناس أي عمل من أعماله ظهرت فيه راحة للدين الاسلامي الجميل؟ لا يذكرن إلا مسألة الوهاية. وأهل الدين يعلمون أن الاغارة فيها كانت على

الدين للدين . نعم أن الوهاية غلوا في بعض المسائل غلوا أنكره عليهم سائر المسلمين ، وما كان محمد علي يفهم هذا ولا سفك دماءهم لارجاعهم الى الاعتدال وإنما كانت مسألة سياسية محضة تبعها جراءة محمد علي على سلطانه العثماني وكان معه ما كان مما هو معروف

نعم أخذ ما كان للمساجد من الرزق وأبدلها بشيء من النقد يسمى «فائض رزنامة» لا يساوي جزءاً من الألف من ايرادها . وأخذ من أوقاف الجامع الأزهر ما لو بقي له اليوم لكانت غلته لا تقل عن نصف مليون جنيه في السنة وقرر له بدل ذلك ما يساوي نحو أربعة آلاف جنيه في السنة

وقصارى أمره في الدين انه كان يستميل بعض العلماء بالخلع أو اجلاسهم على الموائد، لينتفي من يريد منهم اذا اقتضت الحال ذلك وفاضل العلماء كانوا عليه في سخط ما أتوا عليه

ولا أظن أن أحداً يرتاب بعد عرض تاريخ محمد علي على بصيرته أن هذا الرجل كان تاجراً زارعاً ، وجندياً باسلاً ، ومستبداً ماهراً ، ولكنه كان لمصر قاهراً ، ولحياتها الحقيقية معدماً ، وكل ما زاره الآن فيها مما يسمى حياة فهو من أثر غيره ، متعنا الله بنجيته ، وحمانا من شره ، والسلام

المقالة الحادية عشرة

أما ينهض بالشرق مستبد عادل *

مستبد يكره المتناكرين على التعارف ، ويلجئ الأهل إلى التراجع ، ويقهر الجيران على التناصف ، يحمل الناس على رأيه في منافعهم بالرهبة ، إن لم يحملوا أنفسهم على ما فيه سعادتهم بالرغبة ، عادل لا يخطو خطوة إلا ونظرته الأولى إلى شعبه الذي يحكمه ، فإن عرض نفسه فليقع دائماً تحت النظرة الثانية ، فهو لهم أكثر مما هو لنفسه

يكفي لا بلاغهم غاية لا يسقطون بعدها خمس عشرة سنة ، وهي سن مولود يبلغ الحلم ، يولد فيها الفكر الصالح ، وينمو تحت رعاية الولي الصالح ، ويشهد حتى يصرع من بصارعه . خمس عشرة سنة يثني فيها أعتاق الكبار إلى ما هو خير لهم ولأعقابهم ، ويعالج ما اعتدل من طباعهم بأنجع أنواع العلاج ، ومنها البتر والكي إذا اقتضت الحال ، وينشئ فيها نفوس الصغار على ما وجه العزيمة نحوه ويسدّد نياتهم بالثقيف ، يتعهدا كما يتعهد الفارص شجره بضم أعواد مستقيمة إلى سوقها لتنمو على الاستقامة ، خمس عشرة سنة تحشد له جمهوراً عظيماً من أعوان الإصلاح من صالحين كانوا ينتظرونه ، وناشئين شبوا وهم ينظرونه ، وآخرين وهبوه فاتبعوه ، وغيرهم رغبوا في فضله فجاروه

حتى إذا عرفت الأفكار مجاريها بالتعريف ، وانصرفت إلى ما أعدت له بالتصريف ، وضح الشعور بالتعليل ، واستقامت الأهواء بالتعديل ، أباح لهم من غذاء الحرية ما يستطيع ضعيف السن قضمه ، والناقة من المرض هضمه ، وأول ما يكون ذلك بتشكيل المجالس البلدية ، ثم بعد سنين تأتي مجالس الإدارة لاعلى أن تكون آلات تدار ، بل على أن تكون مصادر للأراء والأفكار . ثم تتبعها بعد ذلك المجالس النيابية ، نعم ربما لا يتيسر لرجل واحد أن يشهد (* نشرت في السنة الأولى من مجلة الجامعة العثمانية التي كانت تصدر في الإسكندرية

هذا الأمر من بدايته إلى نهايته ، ولكن الخطوة الأولى هي التي لها ما بعدها ،
ويكفي لمدها خمس عشرة سنة ، وما هي بكثير في تربية أمة فضلا عن أمة .
هل يعدم الشرق كله مستبدآ من أهله ، عادلا في قومه ، يتمكن به العدل
أن يصنع في خمس عشرة سنة مالا يصنع العقل وحده في خمسة عشر قرناً ؟

المقالة الثانية عشرة

القضاء والقدر *

حضر صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ،
حفلة الامتحان لتلامذة مدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية بالاسكندرية يوم السبت
الماضي . وقد جرى ذكر (القضاء والقدر) على لسان أحد التلامذة في مقولة
ألقاها ، فرأى فضيلته مناسبة للكلام على هذه العقيدة بين مئات من الناس ،
جلهم إن لم يكن كلهم يخطئ ، في فهم معناها ، وربما كان أصل هذا الخطأ أصل
بلاء الاسلام والمسلمين فقال حفظه الله :

جرى في كلام بعض التلامذة ذكر للقضاء والقدر ، والاتكال على الله في
نبيل الارزاق ، وأن الحيلة في ترك الحياة ، والتدبير في ترك التدبير ، ونحو هذه
الكلمات ، مما عساه أن يؤثر في النفوس الأثر الذي يجدونه دائما في التماس العذر
للكسل ، وترك العمل ، والامسك عن البذل ، ونحو ذلك ، تعلا بالمقادير ، ولكن
ترون أن التلامذة من جهة أخرى كما ذكروا ذلك ذكروا الحزم والعزم والمجد
والنشاط في الأعمال ونحو ذلك ،

عقيدة الاذعان للقدر حسبت من أسباب الانحطاط عند الشرقيين عموما ،
وعند المسلمين خصوصا ، لأنها نزعتم بالأثم المعتقد بها إلى الكسل ، انتظاراً
لما يأتيهم من الغيب ، وبسطت أيدي أغنيائهم في الاسراف اتكالا على ما يسوقه
علم الغيب . ولكن ذلك سوء فهم ، سببه سوء فهم أهل هذه العقيدة .

(*) نشرت في العدد ٢٣٩٧ المؤرخ في ١٤ ربيع الآخر سنة ١٣١٩ . من جريدة المؤيد

الاعتقاد بالقدر مما يلهمك الصبر على ما نزل ، و يذلل لك إلى ما ستعمل — خلق الانسان وخلق معه عدو يلازمه ، فلا يزال يهاجمه ويحاصر قواه حتى يهلكها ، ويكافح عزائمه حتى يمحقها . فعلى الانسان أن يعد لمقاومته من العدد ما استطاع . ويتخذ من الوسائل لكف غائلته ما قدر ، فان غفل عنه طرفة عين أحل به الحين . ولكن ذلك العدو محتال وخصم محبوب ذلك العدو الطبيعي هو الكسل وحب الراحة ، ومن عادة الأنفس أن تلتصق الوسائل ، وتمهد الاغذار لمساعدة هذا العدو الخداع ، فكما وجدت وسيلة للانتصار له أخذت بها وهي لا تعلم أن في نصرته هلكتها . فكان من حكمة الله تعالى أن يدعو الأنفس البشرية للإيمان بقضائه وقدره ، ليكون مخفياً لجزعها إذا نزلت النوائب ، مثبتاً لها عند ملاقات المصائب ، وتجشم المصاعب ، فيحصل من ذلك عون لها على ذلك العدو المحبوب . فإذا هاجم اليأس قلب امرئ من مطلوب يطلبه ، أو قامت العقبات دون مرغوب برعبه ، قام الإيمان بالقضاء والقدر ، والاعتماد على معونة صاحب الحول والقوة ، يفتح له الأبواب المغلقة ، و يذلل المصاعب الشديدة ، فيأخذ العدة من حيث أمر الله باتخاذها . فالتاجر الذي يخشي الخسران ، أو تالف البضائع في البحار ، أو يخاف الخطر في الأسفار ، أو ما أشبه ذلك . إذا تصور أن كل شيء بقضاء وقدر ، وأن الرزق مقسوم ، والأجل محتوم ، نهض إلى العمل ، بعد أن يهيئ وسائله . ويسأل عما يجبل منها من له علم بها . ويتبع سنة الله سبحانه وتعالى في استعمال العقل وجميع قوى النفس فيما وهبت له ، فيقوى بمقيدة القدر على الكسل ، وينزع إلى العمل . وكذلك من يخوفه الشيطان من البذل في سبيل الخير ، ويهدده الفقر ، يقوم له الاعتقاد بالقدر نصيراً على الشيطان ، يلممه أن الأرزاق محدودة ، وأنه لا ينقص مال من صدقة ، ونحو ذلك ، فتفيض يدها بالعتاء مع مراعاة ما يشره الجود من الفوائد ، وما يعود به على العامة من العوائد .

الانسان عامل بالطبع ، فانه مادامت له حياة فهو في حاجة الى تقويمها ، ولا محيص له عن أن يعمل لنفسه ولغيره ، فانه لا يستقل بما يكفي لحفظ بقائه ، ولا

بدّ له من الاستعانة بغيره ، ولن يعينه الغير حتى يرى من عمله ما يعود عليه بمنفعة ما . وإنما يخرجّه عن سلطان هذه المفطرة ذلك العدو الذي أشرنا اليه ، فهو في حاجة الى ما يعينه عليه ويرجع به إلى فطرته : ولا معين له أفضل من الاتكال على الله والاعتماد على قوته ، بعد استيفاء ما أمر به من اتباع سنته . فهذه العميدة الصالحة انقلب أثر ما في أنفس المعتقدين بها إلى فساد عظيم . وليس العيب فيها ، ولكن العيب في الأذهان التي تلقتها . كما قال جلال الدين الرومي : كل ما يتناوله العليل يتحوّل إلى علة ، فاللحم مع غزارة مادة التغذية فيه وتقويته لبنية المتغذي به لو تناوله المريض بحمى التيفوس مثلاً فإنه يقتله . ولا عيب في اللحم ، ولكن العيب في معدة المريض الآكل

فإن كان سرى لبعض أذهان الحاضرين شيء مما أشرنا اليه ، من أثر المقال الذي جاء على ألسنة التلامذة . فأرجو أن ينفي عنه ذلك الأثر بما سمعه من الكلام الذي جاور الكلام الأول في مقالهم أيضاً . ومن شرع ليسلي نفسه عن بعض أعمال البر بما فهمه من القول الأول ، رجوت أن ينشط بها الى البذل في سبيل الخير بما تحمّقه من القول الآخر . وأسأل الله أن يوفقكم جميعاً لأعمال الخير ، وكل عام وانتم بخير اه ملخصاً

المقالة الثالثة عشرة

الرجل الكبير في الشرق *

قرأت اليوم سطوراً تحت عنوان (رجال الشرق) كتبها قلم كاتبها عند ذكر موت (لي هنج تشنغ) رجل الصين ، وقارن فيها بين الرجل الكبير في نفسه يظهر في بلاد الغرب ، ومثله في عقله وهيمته يوجد في أرض الشرق ، وكيف يشرق النور من عقل الأول في أفق بلاده ، فيكون شمساً في الفائدة والشهرة ، وتظلم الآفاق في عين الثاني فينطمس مافيه من نور ، ويخمد ما يطويه من نار ، ويموت غير معروف ، أو مشيعاً من اللعنات بألوف

ما كان لساني لينطلق بشيء في هذا الموضوع ، ولقد كان يبقى كل معنى فيه مقبوراً في نفسي ، لولا أنك بما قلت وصلت شرارة بنار كامنة لم تطفأ بعد ، فهجت ساكناً ، وآثرت كامناً ، فطارت إليك هذه الكلمات القلائل لعلها تجد في بعض صفحاتك ما يحملها إلى من ظننت أنهم يقرؤون كاماتك

حقاً ما قلت ، فهل لك في شيء من تفصيل ما أجملت ؟ إن الكبار من الرجال هداة في أمهم . وإنما يظهر آثرهم في إرشادها ، والسير بها في الطريق المؤدية إلى الغاية التي تطلبها ، وليسوا بمخالقين ولا ناشرين من موت . وإنما تنجح الهداية فيمن رمى بفكره إلى المطلب ، وعرف أنه أبعد عما هو فيه ، فتهياً للسفر ، وتحفز للرحلة ، وأخذ لأمره أهبتة ، وأعد له عدته ، واستقام على أول الطريق ، فاذا السبل متفرقة ، والأعلام كثيرة ، والصَّوْى متعدّدة ، فيقف المسافر ، وقفه الحائر ، فيأتيه البصير بالمسالك ، فيدله على خيرها ويختار له أقربها وأبعدها عن المهالك ، فيقع في نفسه صدقه لا لأنه قلده ووثق بخبرته ، ولكن لأنه رسم له الغاية التي يطلبها ، والطريق التي يختارها لها ، وبقية الطرق

* نشرت في العدد ٣٥٠٩ من المؤيد في غرة شعبان سنة ١٣١٩ و ٢١ نوفمبر سنة ١٩٠١ ونسبت إلى «أحد أفاضل الكتاب المجيديين» لتكثير الكاتب

على جوانبها، فرأى الدليل قويمًا، والصراط مستقيمًا، فيسير والرجل الرشيد أمامه، إلى أن يمس الغاية بيده، ويلبس الطلب بأصبعه، نعم: الرجل الكبير موقظ من نوم، أو منبه من غفلة، وليس بمحيي الموتى، ولا بمسمع من في القبور. فان كانت الأمة في منخفض من المنازل، قد ضاق أقبها، فلا تعرف جواً غير جواها، ولا دواً غير دواها، ولا بواً غير بواها — بواها رئيسها — فان كان هواها منزلها وبيتها، وكان مسكنها وبيلا، فهي تتامل في مكانها، وتعتقد أن لا منقلها من هوانها، وإذا هاجبها الطامعون ليستصاحوا لأنفسهم ما أفسدته، ويستجيدوا لها ما استوبأتها، تقاصت من الاطراف ظناً منها أن لا متسع لها في الأرض، وان ليس بعد طول مكانها طول ولا وراء عرضها عرض، فاذا وجد فيها الرجل الكبير، فأول ما يحظر له أن يفعل هو أن يمد بصره إلى ما وراء أنفها، حتى يعرفها ان وراء منزلتها مذهباً لمن يريد النجاة مما هو فيه. وكيف يمكن الطبيب أن يحدث في البصر امتداداً ان كان قد خلق قصيراً؟ وكيف يتيسر له أن يجد له حدة ان كان قد جبل حسيراً؟

الرجل الكبير يحس ويتألم، ويدفعه الألم إلى أن يتكلم، بل تحمله شدة الألم على أن يجاهد في قومه وهم أحب الناس إليه، ويقائلهم ليدفعهم عن موارد الهلكة وهم أعز الخلق عليه، ولكن قد يبلغ بهم العمى أو قصر البصر أن يعدو عدواً لهم، وكلما دعاهم إلى الحركة دعوه إلى السكون، وكلما أخذ بهم إلى الفرع جذبه إلى الركون، وهم أكثر منه عدداً، وأوفر عدداً، فلا يمضي طويل من الزمن حتى يخفت صوته من كثرة الصياح، وينقطع نفسه من الدعوة إلى الاصلاح، وتضعف عزيمته، وتضمحل همته، فاذا جاءهم عدوهم، وقد خدعهم بؤهم، وأحسوا بشدة الصدمة، صاحوا ولكن صياح التناكة العاجزة، تنفس الصعداء: وحسرة تصعد إلى السماء، مع القعود في المساكن، والخلود إلى أخس المنازل، فينتهي بهم الأمر إلى الاضمحلال، وما بعد الاضمحلال الا الزوال.

إن كان ما بالامة ليس نوماً فيزول بالايقاظ، ولا غفلة فتذهب بالتنبيه. وانما هو خدر شلت به الأعصاب، وذبلت به العروق، فماذا يكون فعل الرجل الكبير؟ يجهد عقله في البحث عن الدواء، ويستعمل ما لديه من قوة في

معالجة الداء ، وهيبات أن يشعر به المريض ، بل هو تارة يضحك ضحك المستهزئ ، وأخرى يبكي بكاء اليأس ، وثالثة يضرب الطيب بما حضر لديه ، أو يديه ورجليه . حتى يقضى عليه

هذا اذا ذهب الطيب نحو الأمة يستعين بها عليها ، ويشفع لها لديها ، فاذا حمه اليأس منها ، على الانصراف عنها ، وتوجه إلى صاحب السلطة عاينها ، والحكم النافذ فيها ، لعلمه انه يتمكن من ازعاجها عن موطنها ، وسوقها إلى ماينجيه من هلكتها - وذلك قد يكون - فان الملوك والرؤساء لهم في الأمم ما للجبل فيها ، فكما أن للجبل فيها حكماً لا معارض له ، فالسلطان عليها قول لا يرد ، فيمكن للحاكم أن يداويها بدائها . والاستبداد الذي يستعمله ليسوقها إلى الشر ، يمكنه أن يستعمله فيها ليقودها به إلى الخير ، والرتب والمناصب التي يمنحها لمحض الشهوة وطاعة الهوى ، يسهل عليه أن ينوط بها ما يريد من وسائل المنفعة الثابتة ، والمصلحة القائمة - اذا حدثت الرجل الكبير نفسه بذلك فماذا يجد ؟ يجد ما لا سبيل إلى شرحه الآن ... (*)

إذا فما الذي يصنعه الرجل الكبير ؟ يسمى ويجد ، ويدأب ويكد ، ثم يموت محروماً من ثمرة عمله ، بائساً على خيبة أمه ، ومن للرجل الكبير في أمته مثل أم المشرق يمثل امبراطور اليابان ، أو الأمير عبدالرحمن خان ، إن صح ماجات به الانباء ، وصدق ما روت عنه صحف الأخبار ؟

ولكن هل ذلك كله يقضي على الكبير بأن يصغر ، وهل يحكم على العظيم في نفسه بأن يحقر ، كلا فهو انما يؤدي واجباً عليه ، وعلى الله ما وراء ذلك والمرجع اليه . أكتب اليك هذا ولا أجد من الوقت ما أثبت به ما أجد ، فان سمح لي الحال بأوسع من دقائق هذه ، فسأوافيك بأوسع من هذا ، في بيان أسباب ما للشرق فيه من مساواة الكبار للصغار ، في ضياع العمر وفساد الآثار

(*) قد حذف المؤيد ههنا كلاماً من الاصل في وصف أمرائنا هو أبلغ ما كتب في سوء حالهم على اجماله وسبب حذفه له انه كان يؤيد الامير والاطنان ويدافع عنهما ولو بالباطل ، ولكن فاته اطلاق لقب ابو عليهم أو أغمض فيه

المقالة الرابعة عشرة

الحث على ائمة منكرى مريب ميت عمر *

﴿ وتأليف لجنة في الجمعية الخيرية الاسلامية لجمع الاعانات ﴾

عرض لي ما منعتني من قراءة الجرائد نحو أسبوع كنت أسمع فيه بمحادثة ميت عمر من بعض الأقواه كأنها من الحوادث المعتاد حدوثها ، حتى تمكنت من مراجعة الجرائد ليلة الخميس الماضي ، فاذا لهب ذلك الحريق يأكل قلبي أكله لجسوم أولئك المساكين - سكان ميت عمر - ويصبر من فؤادي ما يصبره من لحومهم . أرتقت تلك الليلة ولم نغمض عيناى إلا قليلا . وكيف ينام من بيت يتقلب في نعم الله وله هذا العدد الجم من اخوة وأخوات ، يتقلبون في الشدة والبأساء . أردت أن أبادر بما أستطيع من المعونة ، وما أستطيع قليل لا يغني من الحاجة ، ولا يكشف البلاء . ثم رأيت أن أدعو جمعا من أعيان العاصمة ليشاركوني في أفضل أعمال البر في أقرب وقت ، وكان يوم السبت ، فحضر منهم سابقون ، وتأخر آخرون ، وكتب بعضهم يعتذرون ، فشكر الله سعي من حضر ، وجزى خيرا من اعتذر ، وغفر لمن تأخر .

اجتمعت اللجنة وقررت التماس أن تكون تحت رعاية الحضرة الخديوية . وكتبت من قبل إلى سعادة السر تشريفاتي ، فوجدت رقيما منه بعد الانصراف يفيد أن الجناب العالي قبل ذلك . سبق السابقون من أرباب الجرائد الى الدعوة ، وفتحوا باب الاكتتاب في الخير ، فجزاهم الله أفضل الجزاء . ولكن الكثير إذا تفرق قليل ، والوافر إذا تشتت يسير ، لهذا كان من قرارات اللجنة المجتمعة في مركز

(* نشرت في العدد ٣٦٥٤ من جريدة المؤيد في صفر سنة ١٣٢٠ - ١٢

الجمعية الخيرية الاسلامية أن يكتب إلى حضرات المكتبتين الأوابين بالانضمام الى إخوانهم، وأن يرسلوا مندوبين منهم الى لجنة الادارة العاملة إذا شاؤوا . شككت لجان جمع المال بأسرع ما يمكن ، ودعي أناس كرماء في بعض مرا كز الشرقية لأن يقوموا بمثل هذا العمل في نواحيهم ، وسيكتب الى غيرهم من أعيان المديرات الأخر .

ليس الحادث بذى الخطب اليسير ، فالمصابون خمسة آلاف وبضع مئتين ، منهم الأطفال الذين فقدوا عائلتهم ، والتجار والصناع الذين هلكت آالاتهم وروس أموالهم ، ويتعذر عليهم أن يتبدأوا الحياة مرة أخرى ، إلا بمعونة من إخوانهم، وإلا أصبحوا متشردين متلصصين أو سائلين ، والذين فقدوا بيوتهم ولا يجدون ما يأوون اليه ، ولا مال لهم يقيمون به ما يؤويهم من مثل بيوتهم المتخربة . لهذا رأيت ورأى كل من تفكر في الأمر أن يجمع مبلغ وافر يمكن منه تخفيف المصاب على جميع أولئك المنكوبين . كتبت الى حضرة مأمور مركز ميت غمر ليميدني برأيه فيما يجتمع لديهم من مركزي ميت غمر وزفتى هل يكفي لدفع الضرورة الحاضرة ، ولغذاء الناس ، وستر عوراتهم ، ووقايتهم من الموت؟ ثم طلبت إحصاء وقتياً لأصناف المصابين وطبقاتهم ، حتى ذلك يكون التوزيع على قاعدة صحيحة . وسرسل من تعظم فيهم الثقة للقيام بالتوزيع على أكمل وجه، وأفاد بالمقصود متى اجتمع مبلغ واف بالحاجة

سيودع ما يجتمع في خزينة محافظة العاصمة حسب مارآه المجتمعون بالاتفاق، وفي ذلك ضمانة من الضياع ، وبعد عن مراحي الظنون ، وما بقي من تفصيل محضر اللجنة فهو على ماتراه بعد.

هذا مارأيت أن أكتبه عن سبب الاجتماع وخبره، وأختم ذلك بالمشور الذي أوجهه الى أهل المروءة ليجودوا بما تسمح به سجاياهم الكريمة، من بذل مال و بذل سعي

مفسور

قد بلغكم ولا ريب من أخبار الجرائد ما عليه أهل ميت غمر بعد الحريق الذي أصاب بلدتهم ، فهم بلا قوت ، ولا ساتر ، ولا مأوى ، فليتصور أحدكم أن الأمر نزل بساحته ، أفما كان يتعني أن يكون كل الناس في معونته؟ فليطالب كل منا نفسه بما كان يطالب به الناس لو نزل به ما نزل بهم ، ولينفق من ماله وهمته ما يدفع الله به عنه مكروه الدهر ، ان شاء الله (لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون * يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون * الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم) فكذبوا وعد الشيطان ، وثقوا بوعد الله ، فكلكم يؤمن بالله ، وكلكم يوقن أنه أصدق القائلين ، وأقدر القادرين . فأرجو من همتكم أن تدفعوا شيئا من مالكم في مساعدة اخوانكم ، وأن تبذلوا ما في وسعكم لحث من عندكم على مشاركتكم في هذا العمل ، وترسلوا بما تجمعون الى الداعي

رئيس الجمعية الخيرية الاسلامية

محمد عبده

(يقول جامع الكتاب) كان من عناية الاستاذ رحمه الله بالسعي لهذه الاعانة انه كان يترك أبواب الأغنياء بنفسه ويطلب منهم التبرع للمنكوبين ، وقد جمع لديه ألوف كثيرة من الجنيهاً وبلغ من عنايته في توزيعها على مستحقيها ان سافر إلى الجهة التي وقع فيها الحريق وأشرف على التوزيع بنفسه مع مساعدة رجال الحكومة له . وقد قال له صديقه المرحوم حسن باشا عاصم بعد عودته وكنت معها : لو أعطيتني هذا المال الذي جمعته لأجل مدارس الجمعية ... قال : ما جمع لشيء ، وجب صرفه فيه ، واننا نقتصر الحوادث الموجهة لتعلم الناس البذل في سبيل البر ومتم اعتادوا البذل في بعضها هان عليهم البذل في سائرها

الفصل الخامس

﴿ بعض ما كتبه في المناظرات الدينية وغيرها ﴾

أشهر ما كتبه في هذا الموضوع رده على موسيو هانوتو - أحد وزراء فرنسة وكتابه في الاسلام والعقائد السامية والآريّة؛ وما يعاقبها بالاسلام والنصرانية. ثم ما كتبه في الرد على مجلة الجامعة في فلسفة ابن رشد والمقابلة بين الاسلام والنصرانية في التسامح الديني والعلم والمدنية . وانا نكتفي في هذا الكتاب بالمناظرة الأولى لأن الثانية قد نشرناها في المنار ثم جمعناها في كتاب مستقل طبع مراراً .

الرد على هانوتو

هو الرد الذي سارت به الركبان ، وانتشر ذكره في كل مكان ، وعده له المؤننون الغربيون والشرقيون ، وأظن في مدحه عليه الشعراء الرثون ، وسببه ان موسيو هانوتو وزير خارجية فرنسا من قبل كتب في جريدة الجرنال الباريسية مقالا في الاسلام والمسألة الاسلامية ترجمته جريدة المؤيد ونشرته بالعربية ، وكان من عادة الأستاذ الامام عليه الرضوان أن يتصفح الجرائد في القطار بين القاهرة وعين شمس التي فيها داره غدواً ورواحا فلما كان راحاً بعد العشاء من الأزهر وقد قرأ درس المساء فيه نظر في المؤيد فاذا فيه قسم من مقال هانوتو فقرأه في القطار والانفعال يساوره فما عتم بعد وصوله إلى الدار أن شرع في الرد على ماقرأ في فرصة تهيئة طعام العشاء وأتم المقالة الأولى بعد تناول الطعام وأرسلها إلى المؤيد صباحاً فنشرت فيه . وانا ننشر مقال هانوتو قبل الرد عليه ليفهمه القاري حق الفهم وهو:

ترجمة مقال هانوتو

بقلم محمد مسعود (بك) اذ كان أحد محرري جريدة المؤيد ونشر فيها سنة ١٣١٧هـ

قد أصبحنا اليوم ازاء الاسلام والمسألة الاسلامية
اخترق المسلمون أبناء آسيا شمال القارة الافريقية بسرعة لا تجارى، حاملين
في حقائبهم بعض بقايا تمدن البيزنطيين « يونان الشرق » ثم تراموا بهاعلى أوربا
ولكنهم وجدوا في نهاية انبعاثهم هذا مدينة يرجع أصلها إلى آسيا بل أقرب في
الوصلة إلى المدينة البيزنطية مما حلوه معهم ألا وهي المدينة الآرية المسيحية ولذلك
اضطروا إلى الوقوف عند الحد الذي يهوصلوا، وأكروهوا على الرجوع إلى افريقية
حيث ثبتت أقدامهم أحقابا متعاقبة ولكن كان لا يزال الهلال ينتهي طرفاه من
جهة بمدينة (القسطنطينية) ومن أخرى ببلدة (فاس) في الغرب الأقصى
معاقباً بذلك الغرب كله

في تلك البقعة الافريقية التي أصبحت مقر ملك الاسلام جاءت الدولة
الفرنسوية لمباغته . جاء القديس (لويس) الذي ينتمي إلى اسبانيا بوالدته
ليضرم نيران القتال في مصر وتونس، وتلاه لويس الرابع عشر في تهديده
بالايلات الافريقية الاسلامية، وعاود هذا الخاطر (نابليون الأول) فلم يوفق
إلى تحقيقه الفرنسيون إلا في القرن التاسع عشر حيث أخذوا على دولة الاسلام التي
كانت لا تتي في متابعة الغارات على القارة الأوربية فأصبحت الجزائر في أيديهم منذ
٧٠ عاماً وكذلك القطر التونسي منذ عشرين عاماً

قد وصلت طلائع قوانا الآن إلى أصقاع من الصحراء تنتهي إليها كتباتها
الرملية، فعظم اندهاش الباقين من خصومنا وتزايد ذهولهم لأنهم بعد اندفاعهم
شبيثاً فشيثاً في الفياقي ووطن الحبوت وظنهم أنهم صاروا في أمنع موئل شعروا
بأنفسهم وقد حلق عليهم الأوريون من جميع الجهات وكانت القبائل الواردة إليهم
من (السنغال) أخبرتهم بأن الأوريين امتلكوها وتقدموا منها إلى (باقل)

(وباما كوا) (وسيجو سيكورو) وتوغلوا في جهات أخرى حتى وصلوا الى (النيجر) وبحيرة (شاد) وان مدينة (نمبكتو) المقدسة قد سقطت في أيديهم منذ أعوام وأكد لهم هذه الأخبار أيضاً رسلهم الذين يخترقون أفريقية الوسطى ويجوبون نواحيها بما ذكروه لهم من أن جهات (صانفا) و (تجاوندرة) قد وطأها أقدام الحاملين للعلم المثلث الالوان الذين يصعدون الأنهار لتنظيم البلاد وترقية شؤونها وأن ابوراتهم (في الأصل بابور على التحريف الشائع عند الأمم الشرقية من تسمية البواخر النهرية أو البحرية بالباورات بدلا من البواخر) تشق عباب نهري (الكونغو) و (الشاري) وتنعكس على سطحها صورة الدخان الأسود المسترسل خلفها، عندئذ كان يطرق الاذان صوت اليائسين وقد جلسو أمام دورهم واضعين رؤسهم بين أخاذهم لكثرة الغم والكدر وهم يدعون الله ويكررون قولهم عن (فرنسا) يشبهونها بسراق كبير اذا حاول الانسان قلعه فلا يزال له السمو عليه ويختمون كلامهم بقولهم (قد كان هذا قادراً مقدوراً)

إذا فقد صارت (فرنسا) بكل مكان في صلة مع الاسلام بل صارت في صدر الاسلام وكبده حيث فتحت أراضيها وأخضعت لسلطوتها شعوبه وقامت مجاهه مقام رؤسائه الأولين، وهي تدبر اليوم شؤونه وتجي ضرائبه وتمشد شباه لخدمة الجندي، وتتخذ منهم عساكر يذبون عنها في مواقف الطعان، ومواطن القتال. تلك المملكة الفسيحة الارعاء التي أنشأها في باطن القارة الافريقية هي الوارثة لما أبقته الدول السابقة والأثم البائدة من (قرطاجيين) (ورومانيين) (وعرب) من آثار المدينة التي كانت القارة الافريقية منتبأ لثمارها اليانعة

ان شعباً جمهوري المبادي، يبلغ عدد نفوسه أربعين مليوناً لا مرشد له الانفسه، لاعائلات ملوكية فيه يتنازع الحكم، ولا رؤساء يتناولون الرئاسة بطريق الوراثة، هو الذي تقلد زمام ادارة شعب آخر لا يلبث أن ينمو حتى يساويه في العدد وهو ذلك الشعب المنتشر في الارعاء الفسيحة والاصقاع المحبولة والمتبع لتقاليد وعادات

غير التي نعولها ونحترمها هو الشعب الاسلامي السامي الاصل الذي يحمل اليه الشعب الآري المسيحي الجمهوري الآن ملح وروح المدنية ، نعم ان ظروف وشروط هذه المعضلة نادرة ، ولكن ليس على الشعب الغالب أن يحاول جده لمعرفتها والاطلاع عليها

ليس الاسلام فينا فقط بل هو خارج عنا أيضاً قريب منا في (مراكش) تلك البلاد الخفية الاسرار التي يشبه وجودها الحاضر مقدور الابد في الغموض والاشتباه - قريب منا في (طرابلس الغرب) التي تم بها المواصلة الاخيرة بين مركز الاسلام في البحر الابيض المتوسط وبين الطوائف الاسلامية في باطن القارة الافريقية - قريب منا في (مصر) حيث تصادمت (الدولة البريطانية) فصادمتها اياها في الافطار الهندية ، وهو موجود وشائم في (آسيا) حيث لا يزال قائماً في (بيت المقدس) ونائراً اعلامه على مهد الانسانية ، وبحسب أنصاره وأشياءه في قارات الأرض القديمة بالملايين ، وقد انبعثت منه شعبة في بلاد (الصين) فانتشر فيه انتشاراً هائلاً حتى ذهب البعض إلى القول بأن العشرين مليوناً مسلماً الموجودين في الصين لا يلبثون أن يصيروا مائة مليون فيقوم الدعاء لله مقام الدعاء (اسا كياموني) وليس هذا بالأمر الغريب فانه لا يوجد مكان على سطح المعمورة إلا واجتاز الاسلام فيه حدوده منتشراً في الآفاق ، فهو الدين الوحيد الذي أمكن انتحال الناس له زمراً وأفواجا ، وهو الدين الوحيد الذي تفوق شدة الميل إلى التدين به كل ميل إلى اعتناق دين سواه ، ففي البقاع الافريقية ترى المرابطين وقد أفرغوا على أبدانهم الحلل البيضاء يحملون الى الوثنيين من العبيد العارية أجسامهم من كل شعار قواعد الحياة ومبادئ السلوك في هذه الدنيا كما أن أمثالهم في القارة الاسيوية ينشرون بين الشعوب الصفر الألوان قواعد الدين الاسلامي ، ثم هو - أي هذا الدين - قائم الدعائم ثابت الأركان في أوربا عينها أغني في الأستانة العلية حيث عجزت الشعوب المسيحية عن استئصال جرثومتها من هذا الركن المنيع الذي يحكم منه على البحار الشرقية ، ويفصل الدول الغربية بعضها عن بعض شطرين

في باحات قصر يلديز ترى العلماء والدرائش وقد تذرثوا بشباب الصوف وتعمموا بالعمائم الكبيرة جالسين على الارائك بجانب سفراء الدول . هم هناك يمثلون في الخاطر أشخاص ألف لاية و لاية لا يحركون من مقاعدهم ، ينبسون بكلمات تطابق تحريك أيديهم حبات السبح منتظرين مجيء دورهم في المقابلات لعرض طلب أو توجيه لوم . وكل المسلمين من مقيم في (الاستانة) أو في (مراش) في أرجاء آسيا أو اصقاع افريقية من يبدو كأنوا أو حضر ، واقفين في أماكنهم أو سارين مع القوافل ، يركون مع الراكهين : اذا حانت الصلاة يتوضؤون أو يتيممون بالتراب ، موأين وجوههم جميعاً شطر الكعبة ، وسواء منهم الذين يلبسون الثياب الواسعة أو يتزبون بالستره الاسلامبولية ، والذين يلبسون الطربوش أو العمائم على رؤسهم ، والذين يضعون السيف واليطقان في نطاقهم ، أو يتلقون العلوم في مدرسة براين الجامعة ، أو يدرسون علوم السياسة في باريس ، فانهم يولون وجوههم شطر مكان واحد ، هي الأرض المقدسة ، هي الأرض التي تكنفها الصحراء ، هي الأرض التي عاش فيها محمد ، هي الأرض التي تتضمن جسمه المبارك في قبر لا يحسر أحد على الوصول اليه إلا مغطى الوجه حيا . وهيبة ، هي الأرض التي جاء منها الالباء ويعود اليها الالبناء بمحركة مستمرة ، هي الحج الأبدى الى بيت الله الحرام . وجميع المسلمين عن بكرة أبيهم يرنون بطرفهم الى هذا المكان المقدس ويمدون اليه أعناقهم ، ولا يجدون لذة في الحياة إلا بأمل العودة اليه ، ومن مات منهم ولم يكن أدى فريضة الحج مات على أسف وحسرة .

وخلاصة القول ان جميع المسلمين على سطح المعمورة تجتمعهم رابطة واحدة بها يدبرون أعمالهم ، ويوجهون أفكارهم الى الوجهة التي يتتبعونها . وهذه الرابطة تشبه السبب المتين الذي تتصل به أشياء تتحرك بحركته ، وتسكن بسكونه ، بل هي القطب الذي تنتهي اليه قوة المغناطيسية . ومتى اقتربوا من الكعبة — من البيت الحرام — من بئر زمزم الذي ينبع منه الماء المقدس — من الحجر الاسود المحاط باطار من فضة — من الركن الذي يقولون عنه إنه سره العالم ، وحققوا بأنفسهم أمنيتهم العزيزة التي استحشتم على مبارحة بلادهم في أقصى مدى من العالم

للفوز بجوار الخالق في بيته الحرام — اشتعلت جذوة الحية الدينية في أفئدتهم فتهافتوا على أداء الصلاة صفوفاً ، وتقدمهم الامام مستفتحاً العبادة بقوله « باسم الله » فيعم السكون والسكوت وينشران أجنحتهما على عشرات الالوف من المصلين في تلك الصفوف ، ويملاً الخشوع قلوبهم ، ثم يقولون بصوت واحد « الله أكبر » ثم تعنوا جباههم بعد ذلك قائلين « الله أكبر » بصوت خاشع

يمثل معنى العبادة

لا تظنوا أن هذا الاسلام الخارجي الذي تجمعه جامعة فكر واحد غريب عن اسلامنا ولا علاقة له به لأنه وإن كانت البلاد التي محكمها شعوب مسيحية ليست في الحقيقة « بدار اسلام » وإنما هي « دار حرب » فانها لا تزال عزيزة وموقرة في قلب كل مسلم صحيح الايمان . والغضب لا يزال يحوم حول قلوبهم كما تحوم الاسد حول قفص حبست فيه صغارها ، وربما كانت قضبان هذا القفص

ليست متقارنة ولا بدرجة من المتانة تمنعها عن الدخول اليهم من بينها

ترى في قرانا وبلادنا درويشاً فقيراً شاحب اللون ، مدثراً بأرديته البيضاء المعلمة بخطوط سوداء ، يلهج لسانه بذكر الله والصلاة على نبيه ، لا يلويه عن ذلك شيء — هذا الدرويش الذي ينتقل من خيمة الى خيمة ، ومن قرية الى قرية ، راوياً حوادث الأقطاب والأولياء من مشايخ الاسلام ، إنما يبذر في القلوب حينما حل وأينما توجه بذور الحقد والضيفية علينا .

إن العالم الاسلامي منقسم الى طوائف وطرائق لاعداد لها ينخرط في سلوكها الألوف من رعايانا المسلمين ، ولكن ليس لها في الغالب مراكز ولا زوايا بالاراضي الداخلة في دائرة نفوذنا ، وغاية الأمر أن العاملين في هذه الطوائف والمذاهب الكثيرة يحترقون بلا انقطاع ولا توان مستعمراتنا الافريقية فيستقبلهم أهلها بالترحاب ، ويحسنون وفادتهم ويكرمون مثواهم ، حتى إن الفقير منهم لا يرى في إكرامه له أقل من أن ينحر له شاة . هذا عدا ما يجمعه له من صدقات ذوي البر والاحسان ، أو من المرتبات المالية السنوية التي يبلغ ما يدفعه أهالي الجزائر وخدمهم منها ثمانية ملايين من الفرنكات كل عام ، وهذا مما يستوجب العجب والدهشة لأن مقدار ما يجنيه من

الضرائب كل سنة من أهالي الجزائر لا يتجاوز ضعف هذا المبلغ ومن بين تلك الطرائق والطوائف ما يخذل أعضاؤه الى السكون وربما كانت علاقتهم مع رجال حكومتنا في الجزائر وتونس على أحسن مايرام . وما ذلك إلا لأن الرابطة التي تربط بعضهم ببعض قد اعترها الوهن ، ولأن الفوضى التي أصابت الاسلام الافريقي قد أخذت نصيبها منهم . ولكن توجد طوائف غيرها بلغت شدة العصبية منها مبلغاً عظيماً لأنها مؤسسة على مبدأ كنفاح غير المؤمنين وعلى كراهة المدنية الحاضرة . وقد أسس الشيخ السنوسي في جهة ليست بعيدة عن الاصقاع التي تلي أملاكنا في الجزائر مذهباً خطيراً له أشياع وأنصار ، ومقر هذا الشيخ بلدة جغوب الواقعة على مسيرة يومين من الواحة التي كان قائماً بها هيكل البرجيس آمون ، وقد هاجر أولاده الى (كوفرة) ومن مذهبهم التشديد في رعاية القواعد الدينية . وقد لبثوا زمناً مديداً لا يرتبطون بعلاقة مامع الدولة العلية بسبب ما بينها وبين الدول المسيحية من العلاقات ، ولكن يظهر أن أخلاقهم الشديدة قد تلطفت ، فتقربوا أخيراً من الدولة العلية ، غير أن هذا لم يمنعهم من طرح حباتل الدساس التي أوقفت رجال بعثاننا عن كل عمل مفيد لصالحها في افريقية الجنوبية ، ولم يكن الأمر قاصراً على وسط القارة الافريقية ، فانه توجد بالاستانة نفسها وبالشام ، وبلاد العرب ، ومراكش عصابة خفية ، ومؤامرة سرية تحيط بنا أطرافها ، وتضغط علينا من قرب ، ويخشى أنها تقترسنا اذا غمضا الطرف

كنا نرى من زمن حديث رعايانا الوطنيين في الجزائر يتقادون لأوامر سرية تناقلوها بالافواه ، وكانت تقضي عليهم بتأليف الزمر والافواج منهم لمهاجرة أوطانهم والذهاب الى آسيا الصغرى حيث يجدون الأمن المرجو

يؤخذ مما تقدم أن جرائم الخطر لا تزال موجودة في ثنيات الفتوح وطبي أفكار المتهورين الذين اتبعتهم النكبات التي حاقت بهم ، ولكن لم تثبط همهم . نعم ايس لمقاومتهم رؤساء يديرون هذه المقاومة ، ولكن رابطة الاخاء الجامعة لأفراد العالم الاسلامي بأسره كفاة بالرئاسة في مسألة علاقتنا مع الاسلام تجد

المسألة الاسلامية والمسألة الدينية والمسائل الداخلية والخارجية شديدة الاتصال والارتباط بعضها ببعض، وهذا ما يجعل حلها صعباً ومتعزراً كما سنبينه.

المسائل الاساسية في كل دين هي التي ترتبط بالقدر والمغفرة والحساب . وهي كلمات ثلاث مصبوغة بصبغة دينية تلقي في النفس الاعتقاد بوعودة المسلك في تفهمها مع أنها من الأمور التي ينبغي الوقوف عليها والعلم بها مهما صعب منالها وتعذر مرامها . إن الدين هو الوسيلة التي تمهد للانسان طريق الوصول الى الحضرة الالهية أو هو بعبارة أخرى الواسطة في وقوف المخلوق بين يدي الخالق (اذا تقرر ذلك فهل الخالق بقدرته المطلقة يودع في نفس المخلوق استعداداً للعمل بمقتضى إرادته السرمدية بحيث لا يجحد عما تأمره به هذه الإرادة أم للانسان متى تم خلقه إرادة خاصة يعمل بحسبها واختيار مستقل لا يستمد من اختيار أسى منه ؟ وهل للانسان الذي خلقه الله وسواه إرادة مطلقة من نفسه وتصرف مطلق في ذاته ؟ أم ترجع جميع أعماله من خير وشر الى القدرة الربانية القابضة على زمام الكون والمسببة لوجوده فيه؟

في دائرة هذا البحث تنحصر الخلافات الدينية والفلسفية التي لم يوفق دين من الاديان ولا مذهب فلسفي الى حسمها بكيفية يقتنع بها الادراك ويرضاها العقل، مع أن البحث فيها لأصابة هذا الغرض السامي لم يكن بالامر الحديث إذ طالما بحث فيها فلاسفة الاقدمين فلم يجدوا لها حلاً ، وكان حظهم منها كحفظ فلاسفة وعلماء المتأخرين

وغاية ما عرف منذ اعصر السالفة الى الآن انه وجد مذهباً تشاطرافياً بينهما العقائد البشرية من تلك الوجهة المهمة ، فالاول منهما يقول بتناهي الربوبية في العظمة والعلو ، وجعل الانسان في حضيض الضعف ودرك الوهن ، وينذهب الثاني إلى رفع مرتبة الانسان وتخويله حق القربي من الذات الالهية بما فطر عليه من إيمان وإرادة ، وبما أتاه من أعمال صالحات وحسنات

والنتيجة الطبيعية للاعتقاد بمذهب الفريق الاول هي تحريض الانسان على اغفال شؤون نفسه ، وبث القنوط في فؤاده وتثبيط همته ، وإيهان عزمته ، بينا

تسوقه نتيجة الاعتقاد بمذهب الفريق الثاني إلى ميدان الجلال والعمل ، وتلقي به في غمرات التنافس الحيوي ، ومن الأمثال على الفريقين البوذية الذين يدينون بدين يقضي عليهم بالتجرد إذ من قواعده أن الانسان والكون يفنيان في الذات الالهية . وقدماء اليونان الذين يدينون بدين من قواعده تشبيه الآله بالانسان في أوصافه المادية يقضي عليهم هذا الدين بالعمل والحياة لاعتقادهم بأن الانسان أو « البطل » يمكنه أن يهvir في عداد الآلهة بحسناته وخيراته

وقد ظهرت على أطلال العالم القديم بعد خمسمائة عام من اقتضائه ديانتان احدهما ربانية، والثانية بشرية، تماثلان ذنك المذهبين المتناقضين ، ولكن بتلطيف في التناقض . أما الأولى فهي الديانة المسيحية الوارثة بلا واسطة آثار الآريين، والمقطوعة الصلات بالمرقة مع مذهب السامية، وإن كانت مشتقة منه، وغصناً من دوحته ومن خصائص هذه الديانة ترقية شأن الانسان بتقريبه من الحضرة الالهية، على حين أن الديانة الثانية وهي الاسلام المشوبة بتأثير مذهب السامية تحبط بالانسان إلى أسفل الدرك وترفع الآله عنه في علاء لانهاية له «

هذان الميلان المختلفان يظهران ظهوراً واضحاً في الاعتقاد الاساسي لكثا الديانتين وهو أصل الالهية . أما المسيحي فيذهب في هذا الأصل الى الثالث أي أن الآله الاب أوجد الاله الابن واتصل الاثنان بصلة هي روح القدس وعليه فيكون يسوع المسيح إلهاً وبشراً — هذا الثالث السري المشتقة أصوله من ضرورة وجود إله بشري يمحو ذنب الجنس البشري ، ويفديه من الخطيئة التي اقترفها، يرفضه المسلم الذي يعتقد بوحدانية الرب ، ويتمسك بهذا الاعتقاد تمسكاً شديداً حيث يقول « لا إله إلا الله »

غير أن إدراك المسيحيين من هذا التميل هو أخف وأعلى وأجلب للثقة، إذ هو يجعلهم على اتیان الأعمال التي تقرهم الى الله، حيث الوسائط بينهم وبين ذاته العلية موصولة ، في حين أن المسلمين تجعلهم ديانتهم كمن يهوى في الفضاء بحسب ناموس لا يتحول ، ولا يتبدل ، ولا حيلة فيه سوى متابعة الصلوات والدعوات ، والاستغانة بالله الاحد الذي هو مستودع الآمال ، وافظة الاسلام

معناها « الاستسلام المطلق لأرادة الله »

نرى الديانتين (أو بعبارة أخرى) المدينتين المسيحية والاسلامية احدهما بازاء الاخرى ، وتتصل الاثنتان بعضهما ببعض من حيث المنشأ العام لهما ، إذ هما مشتقتان من الأصول اليونانية والسامية ، ومنهما استمدتا جانباً من العقائد والمذاهب والآداب ، فهما اذاً متداخلتان من وجوه عدة ، و لكن مسافة الخلف بينهما شاسعة في الحقيقة ، من حيث البحث في القدرة الالهية والحرية البشرية .

وقد كانت هذه المناقضات وتلك الاشباه تقطة تفرع الطريقتين المختلفتين اللذين اتبعناهما فيما يربطنا من العلائق بالاسلام والمسلمين . قصر فريق منا بحثه وحكمه على ماشاهده من المناقضات والخلافات بين الدينين المسيحي والاسلامي ، فرأى في الاسلام العدو الالذ ، والخصم الأشد ، قال المسيو كيمون في كتابه (باثولوجيا الاسلام) إن الديانة المحمدية جذام فشا بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكا ذريعاً ، بل هي مرض مريع ، وشلل عام ، وجنون ذهولي ، يبعث الانسان على الخمول والكسل ، ولا يوقظه منهما إلا ليسفك الدماء ، ويدمن على معاقرة الخمر ، وبجمح في القبائح ، وما قبر محمد في مكة (؟) إلا عمود كهربائي ييث الجنون في رءوس المسلمين ، ويلجئهم إلى الاتيان بمظاهر المستيريا (الصرع) العامة والذهول العقلي ، وتكرار لفظة الله إلى مالا نهاية ، والتعود على عادات تنقلب الى طباع أصلية ككراهة لحم الخنزير ، والنبيذ ، والموسيقى ، والجنون الروحاني ، والليمانيا ، أو المالبخوليا ، وترتيب ما يستنبط من أفكار القسوة والفجور في اللذات الخ الخ

أمثال هذا الكاتب يعتقدون أن المسلمين وحوش ضارية ، وحيوانات مفترسة (كالفهد والضبع كما يقول المسيو كيمون) وأن الواجب ابادة خمسهم (كما يقول أيضاً) والحكم على الباقيين بالاشغال الشاقة وتدمير الكعبة ، ووضع ضريح محمد في متحف اللوفر (وهذا أيضاً قوله) وهو حل بسيط وفيه مصلحة للجنس البشري .. أليس كذلك ؟ . ولكن قد يرح عن خاطر الكاتب

أنه يوجد نحو (١٣٠) مليون مسلماً ، وأن من الجائز أن يهب هؤلاء « المجازين » للدفاع عن أنفسهم والذود عن بيضة دينهم ويذهب غير أصحاب هذا الرأي إلى أن الاسلام دين ومدنية يتصلان مع ديننا ومدنيتنا بعروة الاخاء والتصاحب ، وتطرف البعض منهم فاعتبروا الاسلام أرقى مبدأ وأسمى كعباً من الدين المسيحي . قال المسيو لوازون (القس ياسنت سابقاً) معترفاً ومقرراً بأن الاسلام هو الدين المسيحي محسناً ومحوراً ، ونصح للفرنسيين الذين يلتمسون دينهم المفقود أن يستعينوا بالاسلام للعثور على ضالتهم المشوذة ، ويذهب قوم غير الذين سبقت الاشارة اليهم إلى وجوب احترام الاسلام وتبجيله مستندين في ذلك على مادونه أحد مؤرخي الكنيسة الذي صار فيما بعد كرديناً حيث قال « أن الاسلام قنطرة للأمم الافريقية ينتقلون بواسطتها من ضفة الوثنية إلى ضفة المسيحية ، فليس الواجب والحالة هذه قاصراً على معاملة الاسلام بالتساهل والتسامح ، بل لابد من رعايته وتعظيمه بأن نسعى في توسيع نطاقه وترتيب الارزاق على المساجد والمدارس ، وجعله رائداً لمدينة فرنسا وآلة تستعين به على فتوح البلاد »

هذان هما الرأيان السائدان بما بينهما من درجات الاعتدال والتلطف والمسألة ، ولكنهما وإن اختلفا متصل بعضهما ببعض ، وموجودان في حيز واحد ، وقد لوحظ كثيراً أن كل فرد من أفراد موظفينا أو وكلائنا ، أو أبنائنا المستعمرين قد حار بين المبدئين ، وسلك الخطة التي رسمها لنفسه تجاه المسلمين ، طبقاً لامياته^(١) نحو قطب من القطبين المتناقضين الذين يوجد باحدهما المتطرفون ، وبالأخر المتعصبون ، ولا وسط بينهما

وتلك الأُمم^(٢) المتعاكسة التي برزت من مكان الاعتقاد إلى مجالي الفعل والتنفيذ ، هي التي أحدثت التناقض في أعمالنا الاجتماعية ، والسياسية والادارية ، وأدت إلى الشكوك والريب ، وتقض ما أبرم و أبرام مانقض ، إلى غير ذلك مما جرت عليه حكومتنا ، ولا سيما في البلاد الافريقية ، من عدم السير على وتيرة

(١) المراد بالاميال أنواع الميول أي جمع ميل بالفتح وهو مصدر مال يميل

واحدة . هذا الخلل ينمو شيئاً فشيئاً ، ويتضاعف خطره كل يوم ، اذا فكر الانسان في أنه لا يصيب بسوئه بلاد الجزائر مع سكانها الوطنيين الذين يبلغ عددهم أربعة أو خمسة ملايين فقط ، بل يسري على نصف قارة بأكلها عديدة السكان ، وسيزداد ويتضاعف عددها بامتداد رواق الامان على الأهالي، وإبطال التجارة في الرقيق

فالمسئلة اذاً خطيرة جداً، ولا بد من الاعتماد على أمر واحد في حلها، إذ لا يكفي للوصول إلى هذا الحل تنميق عبارات ، وتسطير كلمات ، ولذلك خيرت أن أعرضها على محك الرأي العام ، مبيناً أحكم الوسائل وأكثرها انطباقاً على العقل والصواب، للوصول إلى نتيجة فعلية ، ومورداً شيئاً واحداً هو من أزم الأشياء لموضوع تلك المسئلة وأشدها ارتباطاً به

قد سبق لي وقيام تشكيل مملكتنا الافريقية تشكيلاً تاماً أن سألت — ولا زلت أكرر هذا السؤال — الحكومة أن تبحث بحثاً علمياً في علاقاتنا مع الاسلام والمسلمين بمعرفة أناس خبيرين ، وعلماء عارفين، لينجلي هذا البحث عن الحطة التي يتحتم على الجميع اتباعها من حاكم منا ومحكوم عليه

إن الراغب في الاستعمار من أبناء بلادنا يصل إلى الجزائر ، أو تونس ، أو السنغال ، فيجد نفسه في اتصال مع العربي ، أو بعبارة أعم مع المسلم ، إذ منه يشتري الأرض التي يريد استنباتها ، ومنه يطلب اليد العاملة ، ومع يدبر شؤونه المعيشية ، فبالرغم عن هذا الاتصال وعن هذا الجوار والتلاصق تراهما يجهل أحدهما الآخر ، وتفترج مسافة هذا الجهل ، وتكون عواقبه أكثر خطراً اذا كانت العلاقة بين الاهالي وبين الموظف ، أو الحاكم ، أو القاضي ، أو الضابط ، أو غيرهم ممن هو منوط بالفصل في خصوماتهم والقيام على شؤونهم ، وتنفيذ قوانيننا بينهم ، وما أسوأ مغبة ذلك الجهل اذا كانت العلاقة بينهم وزارة مستعمراتنا ، أو رجال حكومتنا المركزية التي يديرها أحد عشر وزيراً ، ربما لا يوجد من بينهم سوى واحد أو اثنين أمعنا النظر في خريطة الأنحاء الواسعة والاصفاح القصية التي عهد اليهم أمر ادارتها وتنظيمها

مع أن الواجب - متى رضينا باحتمال هذه المسؤولية على عواقبنا ، ولنا هذه السلطة - أن نطيل البحث ونعمّن النظر في طرق استخدام هذه السلطة ، وأن نسأل الخبيرين والعارفين ، ونستفيد ممن شاهدوا واختبروا ، ونستمد من معلوماتهم مانستعين به على تحرير متن سياسي وجيز يتضمن أصول ومبادئ ، علاقاتنا مع العالم الاسلامي . إن فريقاً كبيراً من العلماء النظريين والعمليين من موظفين وضباط وأساتذة ومهندسين ومزارعين ومستعمرين - قد كانوا ولا يزالون في اتصال بالمسلم ، وجعلوا أحوال معيشتهم وطرق أعماله موضوع بحثهم ودراستهم ، ولكن المسلمين أنفسهم قد ينبؤنا بما نجعله من يقين أخبارهم ، فهم اذا سئلوا أجابوا ، واذا أجابوا أفاضوا ، وقد كثرت الابحاث في كل موضوع حتى في الموضوعات الصريحة الواضحة ، ولم يفكر أحد في الأمر الذي نحن بصددده وهو من أكثرها غموضاً والتباساً ، فلماذا لانستعين بالوسيلة التي تفيض علينا أنوار الحقيقة ، ونطرح من هذه الأنوار شعاعاً على من يريدون اتباع الصراط المستقيم ، حتى اذا مأمّم التحقيق والبحث ، حررنا بما ينبعث عنهما من الحقائق رسالة تذاع على الألسنة ، وتتداولها أيدي الموظفين والمستعمرين ، وتنشر بين الطلاب في المدارس ، وتمتدحج بها آثار الاضاليل والترهات الكثيرة ، وتزول العقبات القائمة ، وتقال الاقدام من العثرات ، وتكون تلك الرسالة بمثابة قانون ثابت لفرنسا الاستعمارية ، يجري على نهجها كل عامل ، فيعم نفعه ، وتجتني ثماره ، وربما كان سبباً في أن نعيش مدة نصف جيل على أساس اختبار الفرنسيين المستعمرين الذين انتشروا في عرض البلاد وطولها لارابطة بينهم ولا صلة ، يواصلون الصباح بالساء في الندم والحسرة من عواقب هفوة هفوها ، أو زلة سقطوا فيها ، وكانت كلمة واحدة كافية لأقالتهم من عثرتهم ، واصلاح هفوتهم

ولست أظن أحداً يرتاب في نتائج ذلك التحقيق . وانما قبل ختام هذا الفصل ، أورد بعض اعتبارات إخالها ضرورة للوصول إلى الغاية المقصودة من أقوم طرقها : أشرت سابقاً إلى الصلة الاكيدة بين السياسة والدين في العالم الاسلامي ، والمسالمون في الاحوال الراهنة شاعرون شعوراً قوياً بايمانهم العام ، غير أن ادراكهم

مبهم من حيث الجامعة السياسية ، وما كان يسميه القدياء بالرابطة المدنية أو الوطنية، إذ ينحصر الوطن عندهم في الاسلام . وهم يقولون إن السلطة مستمدة من الالهية ، فلا يجوز أن يتولاها إلا من كان من عقيدتهم، ولم تدخل في دء وسبهم حتى الآن فكرة سوى هذه التي تمكنت من أفئدتهم، وأخذت من قلوبهم أمتن مأخذ، فكان ذلك سبباً في حدوث سوء التفاهم بين الحاكمين والمحكومين في البلاد الاسلامية الخاضعة لحكومات مسيحية

على أنه بالرغم عن ذلك قد حصل انقلاب عظيم في بلد من هذه البلاد ، فصلت فيه السلطة الدينية عن السلطة السياسية بدون جلبة ولا ضوضاء، نريد به القطر التونسي الذي وضعت عليه الحماية التي مؤداها احترام النظام السابق على الفتح بصيانة القوانين والعادات من المساس، والحفاظة على مركز الباى ، وقد بالغنا في ذلك بحيث تمكنا بواسطة ماأدخناه من التعديلات الطفيفة شيئاً فشيئاً وأجريناه من المراقبة على الأمور الادارية والسياسية من التداخل في شؤون البلاد، والقبض على أزمئها ، بدون شعور من أهلها

تم هذا الانقلاب بسرعة واين، فلم يتألم منه الاهلون، ولم تتخذش له احساساتهم، إذ لبثت المساجد مغلقة في أوجه المسيحيين، والاملاك الموقوفة محبوسة على السبل التي خصصت لها ، وتركت أزمة الاحكام بأيدي القواد والقضاة ، ولم يغير شيء من القوازين الالهية إلا برضى وتصديق من الاهالي ، وربما كان بطلب منهم، وقام بأعمال هذا التغيير والتبديل ، وهذا النسخ والتحويل ، عدد قليل من الموظفين، أكثرهم من التونسيين . وجملة القول أن انقلاباً عظيماً حصل بدون أن يجر وراءه أماً أو توجعاً أو شكوى، بحيث وطدت الآن دعائم السلطة المدنية من غير أن يلحق بالدين مساس ، وتسربت الافكار الاوربية بين السكان بدون أن يتألم منها الايمان الحمدي ، واقترنت السلطة الفرنسية بالسلطة الوطنية اقتراناً لم تغشه سحابة كدر .

إذاً يوجد الآن بلد من بلاد الاسلام قد ارتنخى ، بل انقسم الجبل بينه وبين البلاد الاسلامية الاخرى الشديدة الاتصال بعضها ببعض ، اذاً توجد ارض

تفتت شيئاً فشيئاً من مكة ومن الماضي الاسيوي . أرض نشأت فيها نشأة جديدة
انبتت في قضائها ، وادارتها ، وعاداتها ، وأخلاقها . أرض يصح أن تتخذ مثالا
يقاس عليه ونموذجا ينسج على منواله، ألا وهي البلاد التونسية

كانت هذه البلاد ميدان التنافس والجلاد، إذ حكمت فيها قرطاجة، ورومية
وبيزنطية ، والعرب ، وسان لويس ، وشارالكن . فأصبحت الآن مهبط المسالمة،
ومعهد اتصالح والوثام، ففيها الديانتان، بل المدينتان متلاصقتان، بل متداخلتان،
حتى تأكدت تقط التشابه بينهما ، وانحسرت فرجة الخلاف ، وارتفعت الاحقاد
من الصدور، رغبة من الفريقين في التمتع بمزايا الأراضي الخصبة ، والسماء الصافية
الاديم، التي ينزل منها على القلوب برد وسلام يلطفانها . ولعل الاطلاع العديدة
الشاهدة على ماتعاقب في الاقطار التونسية من المدينت القديمة لم تندثر تماما ،
ولم ينمح أثرها، كي تهتز لاستقبالنا، ويوصل بعضها ببعض ما تنقطع من حلقات سلسلة
الدهر الماضي والزمن الغابر

إن مسجد القيروان الجامع، شيدت عقوده على الأعمدة القديمة ، وبنيت
كنيسة الكردينال لايفجري الكاندرائية تجاه أكمة (بيرسا) التي عبت فيها
(تانبنت) وخلاصة القول أن مزيجاً من التاريخ يركب في هذه الأرض تحت رعاية
فرنسا وانسانيتها ، ومن المحتمل أن تنبعث تلك الآثار من قبور الماضي فتعيش
في خلال الجليل الذي نظرق الآن أبوابه للتروع في واسع رحابه اه

هذه ترجمة مقال هانوتو وقد نشرت في عدد من المؤيد ، والمبر

فيه كثيرة ، وقد أتى الامام أحسن الله جزاءه على أهمها كما نرى

رد الاستاذ الامام

١

قرأت الساعة مقال مسيو هانوتو المترجم في جريدتكم تقلاع عن جريدة « الجورنال » الباريسية تنميا لبحثه السابق

ببحثه السابق، وشي من تمته، إنما هو دافع من غيرته على شؤون دولته، يريد أن يدعو قومه إلى التبصر في وضع قاعدة لمعاملة المسلمين الذين يدخلون تحت ولايتهم، أو يجاورونهم في ممالكهم. وذلك لا يتم على مذهبه إلا بالبحث في طبيعة الأمر الذي صار به المسلمون غير مسيحيين، وبه يفضل المسلمون سلطة إسلامية، على سلطة فرنساوية. فان أمكن تلقيح ماعليه المسلمون بالولاء الفرنساوي وسهل الجمع بين ما وقر في نفوسهم، وبين الخضوع الأعمى لسلطان فرنسا، وطاب الجوار في قلوب الملة الاسلاميه لعقيدة الاسلام، والطاعة لكل أمر يصدر من آخر فرنساوي في طبقته، صح للدولة الفرنسية أن تمن على المسلمين بالبقاء في الأرض، والاوجب عليها أن تحمل عليهم فتبيدهم من البسيطة، أو تجلبهم إلى قارة أخرى

ولهذا جره البحث إلى النظر في أصول دين المسلمين، والمضاهاة بينه وبين الدين المسيحي، بل بينه وبين أديان كثيرة أشار إليها في كلامه، ثم الحكم في تفضيل أحد الدينين على الآخر بأثار كل منهما في نفوس معتقديه

أما غايته من البحث، وتناوله بيده محضاً يحرك به نيران العداوة في قلوب الفرنسيين، لتثير عزائمهم إلى حرب المسلمين، وليكون مسيو هانوتو الأمة الفرنسية اليوم مثل ذلك الراهب الذي أثار تلك الحروب المعروفة، فذلك أمر نكل فائده اليه وإلى علمه بما كان دولته من القوة، ومنزلة تمدنه من الرحمة والانسانية، ونلفت اليه ذكاء بعض شباننا من المسلمين الذين يعرفون اللغة الفرنسية ويتجملون بأداب الأمة الفرنسية ويظربون اذا ذكرت المدينة الفرنسية

ولو لم يتعرض مسيو هانوتو الى الطعن في أصل من أصول الدين، ما حركت قلبي لذكر اسمه، وكان حظي من النظر في مقاله هو العظة والاعتبار - حظ الناظر في أحوال الأمم وأعمال رجالها - حظ المؤرخ الذي يقرأ ليفهم، ويفهم ليعلم ويحكم. ولا يهمه أخطأ القائل أو أصاب

أما ما جاء به في التحكك بأصول الدين، فهو الذي أغمزه بما أكتب اليوم. يرى الناظر في كلام مسيو هانوتو لأول وهلة أنه مقلد في التاريخ كما هو مقلد في العقائد، وأنه جمع خليطاً من الصور وحشرها إلى ذهنه. ثم هو سلط عليها قلبه ينثرها كما يشاء القدر ليدهش بها من لا يعرف الاسلام من الفرنسيين وهو جمهورهم أكثر من ذكر التمدن الآري والتمدن السامي والتفريق بينهما، وأن أحدهما قهر الاخر، وأن التمدن الآري هو الذي ظفر بقرنه التمدن السامي، وما يشبه ذلك إن مهد التمدن الآري - ومنبت غراسه (الهند) - لا يزال الى اليوم على الوثنية التي يجلبها مسيو هانوتو في أغلب أنحاءه، ولكن أهله هم الذين قضوا على الآخذين بعقائدهم أن ينقسموا إلى أقسام لا يمكن الخلط بينها، بل يدوم تباينها مادامت الارض أرضاً، ومن طبقاتهم من قضي عليه بالانحطاط في العقل والخلق والصناعة، ولا يباح له أن يرتقي الى طبقة ما فوقه الى انقضاء العالم، وهو الجمهور الأغلب منهم. وفيهم من حكم عليه بالنجاسة، حتى لا يباح لأهل طبقة أخرى أن تمسه. والاعتقاد بفناء العالم، وأنه لا يليق بالانسان أن يهتم بشؤون العيش فيه هو مبني عقائدهم

فهل جاء هذا للآخذين بدين البراهمة من التمدن السامي، وهو لم يعرفهم إلا في آخر الزمان، ولم يخالط إلا قلوب القليل منهم، كما لا يخفى على من له إلمام بجغرافية البلاد الهندية؟

ثم هل يظن مسيو هانوتو أن التمدن الذي وصل اليه الأوربيون حمل إلى أوربا مع المهاجرين الأوائل الذين رحلوا من البلاد الشرقية الآرية الى الاقطار الغربية؟ ألم يخطر بباله تلك العظائم التي أنتفخ بها بطن التاريخ، وما كانت عليه أوربا الآرية من الهمجية، وأن العلم والمدنية لم ينبعا من معينها، وإنما جاءها

بمخالطة الأمم السامية، كما يعلمه المطالع على تاريخ اليونان الأقدمين، وهم أساتذة
الاوربين الآخرين، كما يزعم مسيو هانوتو

ما هذا التمدن الآري الذي كانت عليه أوروبا عند ما انتقص أطرافها المسلمون؟
هل كانت تلك المدنية هي التسافك في الدماء، وإشهار الحرب بين الدين
والعلم، وبين عبادة الله والاعتراف بالعمل؟ نعم!!! هذا هو الذي كان معروفا
عند الغربيين وقت مآظهم الاسلام

ماذا حمل الاسلام الى أوروبا، وما هي المدنية التي زحف عليهم بها فردوها؟
زحف عليهم بما استفاد من صنائع الفرس، وسكان آسيا من الآريين، زحف
عليهم بعلوم أهل فارس والمصريين والرومانيين واليونانيين، نظف جميع ذلك
ونقاه من الأدران والأوساخ التي تراكت عليه بأيدي الرؤساء في الأمم الغربية
لذلك التاريخ، وذهب به أبلج ناصعاً، يبهر به أعين أولئك الغافلين المتسكعين
الذين كانوا في ظلمات الجهالة لا يدرون أين يذهبون

إني أكيل لمسيو هانوتو اجمالاً باجمال، والتفصيل لا يجمله قومه، وكثير
من منصفهم لم يستطع الا الاعتراف به

ان أول شرارة ألهبت نفوس الغربيين فطارت بها الى المدنية الحاضرة
كانت من تلك الشعلة الموقدة التي كان يسلم ضوءها من بلاد الاندلس على
ما جاورها، وعمل رجال الدين المسيحي على اطفائها مدة قرون فما استطاعوا
الى ذلك سيلاً. واليوم برعى أهل أوروبا ما نبت في أرضهم بعد ماسقت بدماء
أسلافهم المسفوكة بأيدي أهل دينهم في سبيل مطاردة العلم والحرية وطوال
المدنية الحاضرة

بحار القارىء لكلام مسيو هانوتو في معنى المدنية السامية التي جاء بها
الاسلام، وتصادم بها مع المدنية الآرية

ولعل عنايته بالالفاظ التاريخية مع قصوره عن النفوذ الى حقائق ما أودعته
هو الذي قصر به عن النجاح في أعماله في السياسة الخارجية بين أمة مثل الأمة
الفرنساوية التي تنقاد بذكائها الى الأذكياء. والعارف بطباع الأمم لا يعسر عليه

أن يقودها الى ما يضمن لها الفوز على جيرانها . وإنما العسر كل العسر أن يوجد فيها ذلك العارف اليوم

ان الناظر في التاريخ تحمر عيناه من مناظر الدماء المتجسدة على جليد الازمان ، ذلك مما سفكه أهل ذلك الدين المتحد بالمدينة الآرية ، ليقاوموا دعاة تلك المدينة السامية ويخمدوا نارها

ان صح الحكم على الأديان بما يشاهد في أحوال أهلها وقت الحكم جاز لنا أن نحكم بأن لاعلاقة بين الدين المسيحي والمدينة الحاضرة ، فإن الانجيل بين أيدينا نقرأه ونفهمه ولا يقرب عنا شيء من دقائق معناه ، يأمر الانجيل أهله بالانسلاخ عن الدنيا ، والزهادة فيها ، ويوجب عليهم اذا سلبهم السالب قيصاً أن يعطوه الرداء أيضاً ، واذا ضربهم الضارب على خدم الأيمن أن يدبروا له خدم الایسر ، وأن يفتنوا بكياتهم في الآب ، ويقص عليهم أن دخول الجمل في سم الحياط ، أيسر من دخول الغني ملكوت السموات ، وما شابه ذلك من الوصايا الملكوتية ، التي تليق برسول إلهي رباني يدعو الناس الى الانقطاع عن هذا العالم الفاني ، ليلتقوا بالاتظام في أهل ذلك العالم الباقي

هل خطر ببال مسيو هاوتو أن يجعل مآلهة الله ، وما لقيصر لقيصر ، كما أوصى الانجيل ؟ وهل رأى مثالا لذلك في المدينة الآرية التي تأخت مع الدين المسيحي؟ العيان يدلنا على أن شيئاً من ذلك لم يكن . فإن هذه المدينة إنما هي مدينة الملك والسلطان ، مدينة الذهب والفضة ، مدينة الفخفخة والبهرج ، مدينة الختل والتفاق وحاكها الأعلى هو الجنيه عند قوم والديرا (الفرنك) عند قوم آخرين ، ولا دخل للانجيل في شيء من ذلك

أوصى المسيح بأن يترك ما لقيصر لقيصر حتى لا يشغب المسيحيون على ملوكهم من غيرهم ، فاقبلت الحال بهم وأصبحوا لا يهتمون أن يروا لهم رعايا من غير دينهم فضلا عن ملوك

نعم يوجد قوم الآن يقيمون أوامر الانجيل وهم جماعة من الاميركان تركوا بلادهم وخرجوا من ديارهم وأمواهم وجاؤا إلى القدس الشريف ينتظرون نزول

المسيح ليستقبلوه لأول هبوطه على المنارة المشهورة ، وليكونوا أول من يقبل قدميه ويديه . وهم من طهارة القلب وسلامة النفس ونزاهتها عن الطمع بحيث انقطعوا عن كل عمل سوى النظر في الكتب المقدسة . فان كانت هذه هي المدينة الآرية التي صارها الدين الاسلامي فانا أول من يسلم لحججه ويقتنع بأدلته من الساميين الفينقيون وهم أساتذة القوم في الصناعة والتجارة ، بل والقراءة والكتابة ، ومنهم الآراميون وقد كانت لهم مدينة لا تنكر أيام الرومانيين ، وما كان الغرييون لينكروا فضلهم في ذلك . ومبادئ الصناعة والعمل عند جميع الاقوام المرتقية في سلم الانسانية واحدة ، وإنما يختلف قوم عن قوم بما تحدثه في نفوسهم ضرورات المعيشة ، وما تجلبه عليهم عاصفات الحوادث ، وما تطبعه فيهم طبائع الاقاليم . ولا زالت الأمم يأخذ بعضها عن بعض في المدينة لافرق عندهم بين آري وسامي متى مست الحاجة إلى تناول عمل ، أو مادة ، أو ضرب من ضروب العرفان ، لدفع ضرورة من ضرورة الحياة ، أو استكمال شأن من شؤونها . وقد أخذ الغرب الآري عن الشرق السامي أكثر مما يأخذه الآن الشرق المضمحل ، عن الغرب المستقل ، فلم يبق من معنى للمدينة يريد حاضرة الكاتب إلا الدين ، وقد ظهر في كلامه أن الدين السامي يراد منه التوحيد والدين الآري يعني به ما يقابله

واني أقرر لهذا الوزير الشهير حقيقة بديهية يعرفها صبيان المكاتب وهي أن دين التوحيد ليس ديناً سامياً ، بل هو دين عبراني فقط عرف به ابراهيم عليه السلام وبنوه ، ومنهم عيسى من جهة أمه وأحبابه وأنصاره الأولون . أما بقية الساميين من عرب ، وفينقيين ، وآراميين وغيرهم من الأمم المذكورة في الكتاب المقدس وهو يعرفها فقد كانوا وثنيين مشبهين ، ولم يخالفوا في ذلك بني عمهم أو أعداءهم الآريين . وقد خاض الكاتب في تفضيل التشبيه والتجسيم على التوحيد ، وذكر لذلك عللاً وأسباباً أدته إليها سعة اطلاعه في الفلسفة وأحوال الاجتماع الانساني . وسنأتي على الكلام فيها وهي المقصد من مقالنا غداً إن شاء الله تعالى

وقبل إلقاء القلم أذكر الذين يتفانون في اجلال مثل هذا الوزير كما يتفانى المسلم في الله على رأيه أتى إن صغرت شأن هانوو في معارفه التاريخية فذلك لأنه صغير فيها حقيقة ، وكثير من قومه يعرف ذلك منه ، ولأنه لأمر في العلم إلا العلم والسلام .

المقالة الثانية

في الرد على هانوو

(وفيها تحرير الكلام في مسأتي القدر والجبر عند الآريين
والساميين ، أو النصرى والمسلمين)

تمرحش مسيو هانوو بمسئلتين من أمهات مسائل الدين — القدر والتوحيد أو التنزيه ، وبعد أن خلط في بيان وجه الاشكال في المسئلة الاولى واختلاف الناس فيها قديماً ، وأنهم انقسموا إلى فريقين قائل بأن العبد مسير بقدره الله لاعمل لارادته في فعله، وذاهب الى أن خالقه وهبه اختياراً يتصرف به، فله ما كسب وعليه ما اكتسب ، قال إن الرأي الاول يحط الانسان الى حضيض الضعف ، والثاني يرفعه الى ذروة القوة ، ثم وصل الاول بمذهب البوذيين القائلين بفناء الموجودات في الوجود الأزلي ، والثاني بمذاهب اليونانيين القدماء الذين يدينون بتشبيه الآلهة بالانسان في أوصافه المادية ، وأن الاول قعد باهله ، والثاني ارتفع بمعتقديه الى مراتب الكمال الانسانية !! وهو خلط وخط لم يعهد لهما مثيل .

ثم انصب على الديانتين المسيحية والاسلامية وقال انهما تمثلان ذينك المذهبين أي مذهبي الناس في القدر . وأن الأولى ربانية ورثت ماترك الآريون، والثانية بشرية أخذت ماترك الساميون ، وأن الأولى ترقى بالانسان إلى المقام

الاهي ، والاخرى تنزل به إلى أسفل درك حيواني ، ويظهر ميل كل من الدينين ظهوراً بيناً في الأصل الذي بني عليه كل منهما . فأصل الأول هو ايجاد الاله الاب للاله الابن حتى كان إلهاً بشراً واتصال الالهين بروح القدس . وأصل الثانية تنزيه الاله عن البشرية وتقديسه إلى حد تنقطع فيه النسبة بينه وبين الانسان ، ثم رجع بعد هذا إلى الخلط بين الدينين ووردهما إلى أصول واجدة وعقد التشابه بينهما، الى آخر ما أطال به على غير جدوى

هل عهد بين الكتاب وأهل النظر تشويش في الفكر ، وخلل في المقال ، يشبه ماجاء به هذا الكاتب ؟ أدع الحكم في ذلك لمن له أدنى إلمام بمذاهب الأمم وآرائهم

لم يختص الكلام في القدر بجملة من الملل مشبهين أو منزهين ، ولادخل للتشبيه والتنزيه في شيء من ذلك ، بل كان منشأ الكلام في ذلك الاعتقاد باحاطة علم الله بكل شيء وشمول قدرته لكل ممكن

وقد عظم الخلاف في المسئلة بين المسيحيين أنفسهم وهم مشبهة في رأي مسيو هانوتو ، وبدأ النزاع بينهم قبل الاسلام ، واستمر الى هذه الأيام ، ولعل هانوتو اطلع على مذهب التوميين — اتباع القديس توما — أو اللومينيكيين وهم جبرية ، وأشباع (لويولا) وهم قدرية اختيارية . ولكل من المذهبين شيعة بين أهل الملة المسيحية . وليس هذا بمذهب سامي كما يزعم ، بل لم تنبت أصوله ولم تشعب فروعه إلا بين الآريين ثم انتقلت عدواه الى غيرهم

هل سمعت بيهودي استلقى على قفاه وترك العمل اتكالا على القدر ؟ هل سمعت بأحد من الفيينيقيين (وقد وصلوا بزوارقهم ذات المجاذيف إلى جزائر بريطانيا) أنه كان ينام ويتلذذ بالاحلام اعتماداً على ما يسوقه اليه الغيب ؟ لكن سمعنا بذلك في الاديار وبين الرهبان ، وعرفنا أخبار ذلك الجيش العرمم من للتكدين الذين كانوا يعيشون عالة على الناس حتى ضجت منهم أوروبا في زمن من الأزمان ، وطلبت الخلاص منهم بالصارم البتار

وقد اشتهر مذهب أهل البخت والاتفاق بين اليونانيين ولم يخف أمره على

صغار المتعلمين لمبادئ الفلسفة - ذلك المذهب الذي يتدثون كتب الفلسفة بإبطاه، وهو مذهب القائلين أن الأشياء توجد بالاتفاق أو بالمصادفة، ولا يحتاج الممكن في وجوده إلى سبب. أليس هذا أدخل في باب الجبرية من اسناد كل أمر إلى خالق الكون؟ وهل يرتفع هذا المذهب بمعتقده الآري إلى منازل الرفعة ومكانات الشرف؟

جاء القرآن الشريف - وهو الكتاب المنزل بالاسلام - يعيب على أهل الجبر رأيهم وينكر عليهم قولهم (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء) بقوله (كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخمرون) وأثبت الكسب والاختيار في نحو أربع وستين آية. وما جاء به مما يتوهم الناظر فيه ما يخالف ذلك فأنما جاء في تقرير السنن الالهية العامة المعروفة بنواميس الكون كما في آية (ولو شاء ربك لجعل الناس امة واحدة) الخ ونحوها

والعاقل يرى الفرق الجلي بين مسألة اختيار العبد في أفعاله وبين آثار القدرة الالهية في أخلاق الأمم، أو في تفريز الغرائز مثلاً. فاختيار العبد في أفعاله مما يقرر به الوجدان، ولا ينكره إلا من جهل نفسه، لكن ما عليه الأمم من الاختلاف في الطبائع والغرائز والسجايا ليس لأحد من خلق الله فيه اختيار، بل خلقه كخلق السموات والأرض وما بينها

وجاء النبي صلى الله عليه وسلم في عمله وقوله بما يؤيد ذلك، فكان العامل الذي لا يكل، والدائب الذي لا يمتل، والساهر الذي لا ينام، والجاد الذي لم يلغ شأوه أحد من الأنام، هل نقل عنه أنه اتكأ يوماً على وسادته واكتفى بالتسليم للقدر في إتمام دعوته ثانياً: الذي كفل لي النصر يكتفيني التعب، وضمان الله لأعلاء كلمة دينه تغنيني عن النصب؟ كلا بل لم تكن تزيد العود الصادقة إلا نشاطاً، ولا تجد العصمة الالهية من نفسه إلا حزمًا واحتياطاً

جاء أصحابه على أثره وتبعهم من جاء بعده من السلف الأولين، وكانوا أكل الناس إيماناً باحاطة علم الله وشمول قدرته، وأعرف الناس بقدر ما آتاهم الله من

قوتي العقل والاختيار ، وكانوا أسوة في السعي ، ومثلا في الأدب والنسب ، حتى كل من آثارهم في نشر الاسلام ما يتألم منه اليوم هانوتو وأمثاله
 هذه هي العقيدة السامية ، أو الدعوة المحمدية ، أو المدينة الاسلامية ارتقت بأربابها وهم من أهل البداوة في قاصية من الأرض لم يتلظوا بشيء من نعيم الحضرة ، ولم يتذوقوا طعم العلم والصنعة ، حتى بلغت بهم ما بلغت ، واستوت بهم على عروش العزة والسلطان ، ثم بلغوا بها من رقة الوجدان وصفاء العقل ، مبلغاً مكنهم من التلطف بالأثم حتى وقفوا على ما كان خفياً لديها ، وكشفوا ما كان مستورا عندها ، واستخرجوا من كنوز معارفها ما ظهر فضله على الأوربيين بعد عدة قرون من البعثة النبوية

ولكن وأسفاه! نتأت رهوس بين المسلمين ، كأنها رهوس الشياطين ، واحتملت غناء من قش الآريين ، وقذفت به في الأرض الطاهرة فتدنس به أديمها ، واننشر قدره ، وعظم ضرره .

جاء الموالي من عجم الفرس والرومان^(١) ولبسوا لباس الاسلام وحملوا اليه ما كان عندهم من شقاق ونفاق ، وأحدثوا في الدين بدعة الجدل في العقائد ، وخالفوا الله ورسوله في النهي عن الخوض في القدر ، وخذعوا المسلمين ببهرج القول وزور الكلام ، حتى كان ما كان من تفرقهم شيعاً ، والله يقول لنبيه (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء)

وجد بين المسلمين طائفة تعرف بالجيرية ، ولكنها كانت ضعيفة ضئيلة يقذفها الحق ، ويطردها العقل ، وينبذها الدين ، حتى انقرضت بعد ظهورها بقليل ولم تبق بينهم بقاء التوميين بين النصارى . وغلب على المسلمين مذهب التوسط بين الجبر والاختيار ، وهو مذهب الجد والعمل ، وصدق الايمان ، وأخذ عن المسلمين في أخريات الايام أهل النظر من النصرانية مثل « بوسويه » ومن مال ميله وتبعهم الجمهور الاعظم منهم

ولكن لأنكر أن الزمان يجهم للمسلمين كما كان قد تنكر لغيرهم ، وابتلاهم

بمفسد من المتصوفة من عدة قرون فبشوا فيهم أوهاماً لانسبة بينها وبين أصول دينهم ، فلصقت بأذهانهم لاعلى أنها عقائد ، ولكنها وساوس قد تملك الجاهل ، وتربك العاقل ، اذا لم يغلبها بهوامل الدين الصحيح فنشأ الكسل ، بين المسلمين يفشو الجهل بأصول دينهم ، وعاون على ذلك ميل الاعلياء منهم الى توريطهم فيما هم فيه كما هو شأنهم في كل أمة

وهذا الضرب من المتصوفة أيضاً من حسنات الآريين فانه جاء ، نامن الفرص والهنود بما بقي فيهم من عقائدهم الأولى

ما أضل هانوتو وأمثاله من قصار النظر إلا أولئك الدرايش الحثاء أو البله الذين يفشون أطراف الجزائر وتونس ، ولا يخلو منهم اليوم قطر من أقطار الاسلام ، ممن اتخذ دينه متجراً يكسب به الحطام ، وجعل من ذكر الله آلة لسلب الأموال من الطعام

أما لو رجع المسلمون الى الحقيقة من دينهم لأدوا فرضهم ، واستنبتوا أرضهم واستغزروا من الثروة ، وأعدوا لفرنسا ما استطاعوا من قوة ، واعتمدوا في نجاح أعمالهم على معونة القدر ، وأيقنوا في صولاتهم علماً أن ليس من الموت مفر ، ثم صال صائلهم على مكان العزة منها ، ونال ما ينال القومي من الضعيف ، والعزيز من الذليل ، ولا تقلب جنونهم لدى هانوتو عقلا ، ومحول هذيانهم حكمة وعلماً هذا ما يتعلق برأيه الضئيل في مسألة القدر عند المسلمين . أما التنزيه والتشبيه فانا نؤفيه حقه في تمة لهذا المقال ، ونشفق على القارئ اليوم من الاملال . والسلام «

المقالة الثالثة

في الرد على فانوتو

(وفيها تحرير القول في التوحيد والتنزيه ، وتجسد الالهية والتشبيه)

اليوم آتي على آخر القول لكسر شرّة هانوتو في توثبه على الاسلام ، وما
فني بالكلام فيه اليوم هو التوحيد والتنزيه وخصمه التشبيه والتجسيد (الاعتقاد
بتجسد الالهية) ونبدأ بالكلام في الثاني ، ونختم بالحديث عن الاول

ان كان مسيو هانوتو قرأ شيئاً في أحوال الأئم ونشأة العقائد ، وعقله يعلم
أن الوثنية وتوهم السلطان الالهي ظاهر آ في بعض الموجودات المادية كانت عقيدة
الواقفين على أبواب الانسانية لم يدخلوها ولم يتوسطوا منازلها ، وكانت ولا تزال
دليلا على انحطاط عقول أهلها ، مع تفاوت في درجات ذلك الانحطاط ، تتبدى
من وثني افريقية وتنتهي إلى بوذي الصين وبرهن الهند

كلما ارتقى الانسان في العلم ، ولطف وجدانه بالفهم ، ونفذ عقله في أسرار
الكون ، تمزقت دون روجه حجب المادة ، وانجلي له الوجود الأعلى ، على تفاوت
كذلك في درجات الظهور والانجلاء ، تنتهي إلى الاعتقاد بوجود واحد واجب
يستحيل عليه أن يلبس لباس المادة على النحو الذي يظنه مسيو هانوتو وأمثاله ،
لأن ما لاحد له محال أن تحيط بوجوده المحدود

وقد كان هذا شأن اليونانيين الذين يفتخر هانوتو بمدنيتهم : نشؤا وثنيين ،
ولا زالت الوثنية ترق وترث يارتقائهم في العلوم ، وبحث فلاسفتهم في طبائع
الكائنات حتى انتهوا وهم في ذرى مدنيتهم إلى التوحيد وتنزيه واجب الوجود
عن مخالطة المادة . وقف فيثاغورس على عتبة التقديس ، وجاء بعده سقراط
وأفلاطون وأرسطو مجاهدين في كشف الغمة عن عيون شعوبهم ، باذلين الوسع

(٥٤ - تاريخ الاستاذ الامام - الجزء الثاني)

في نحو ماغشي نفوسهم من ظلمات الوثنية الأولى ، ومن قرأ جمهورية أفلاطون التي نقلت إلى العربية أيام المأمون تحت اسم (المدينة الفاضلة) علم كيف كان يقارع أفلاطون ما بقي من آثار الوثنية من الآراء السخيفة ، والعادات الرديئة ، التي كانت تحول بين الأمة اليونانية وما ينبغي لها من الفضائل التي كان يطعم الفيلسوف أن تكون عليها

وبعد أن أوصلهم العلم إلى التوحيد لم يرتد بهم التنزيه إلى الجهل ، بل بقيت شمس مدنيتهم تشرق في العالم قرونا متعددة ، وكانت أشد صفاً وأهم سطوعاً كذلك قدماء المصريين لم يقف بهم العلم دون التوحيد غير أن رؤساء دينهم لم ينشروا تلك العقيدة بين عامتهم واستبقوا صور العبادات الأولى ، وألبسوا التنزيه ثوب التشبيه ، استثناءً منهم بشرف العقيدة على من دونهم

فترى ضعف العقل وقلة العلم ونقص الإدراك تقف بصاحبها عند الوسائط. وقوة العقل ، ونفوذ البصيرة ، وسعة العلم ، تصعد باهلها إلى مشهد الوجود الأعلى ، وتشرق بهم من هنالك على العالم بأسره ، فيرونه عظيمه وحقيقه سواء في النسبة إلى تلك القدرة الشاملة والعظمة الغالبة — الفاضل والمفضول ، والفروع والأصول ، وما ظهر للأبصار ، وما نفذت إليه العقول ، كل ذلك يستمد وجوده من مشرق الوجود على مراتب قدرتها الحكمة ، وتمت بها النعمة ، فأى مقام أعلى من مقام صاحب هذه العقيدة حيث قام شاهداً على الكون بجملته ، مافصل منه في فهمه ، وما أجل في كليات علمه ، يحكم عليه بأنه مرئوب لرب واحد هو رب العالمين ، وأن لاسلطان لشيء من هذا جميعه على نفسه لافي الابداد ولا في الامداد ، بل هو وحده يمكنه بما سن له الشرع الآلهي أن يصل بنفسه إلى تلك الحضرة ، وأن يستمد منها المعونة في كل شؤونه

يتقسم أهل التشبيه الى قسمين أحدهما من يعتقد الألوهية في بعض الموجودات المشهودة ، ويقف منها عند ما يعتقد منها . والآخر يعتقد بأن باري الكون يظهر في بعضها

أما الأولون فهم الذين ضعف الإدراك فيهم عن الاحاطة بحقائق الاكوان

فاذا ظهرت عليهم آثار قوة من القوى أو سلطة حيوان من الحيوانات ظنوه المنفرد
بالقدرة عليهم ، وأنهم اليه يرجعون في جميع أمورهم ، فهؤلاء يسلطون على أنفسهم
مماشاؤا وشاء لهم الجهل من جناد وحيوان وانسان ، ولا يزالون حيارى في شؤون
حياتهم حيرتهم بين معبوداتهم ، ثم هم يقيسون معبوداتهم بأنفسهم لأنها ليست
بأبعد منهم في النوع أو الجنس ، ويقدرّون لها رغائب وشهوات تفوق رغائبهم
وشهواتهم ، يسارعون في إرضائها بما يعين لهم ، وبما تشرعه لهم أهواؤهم ، ومن
ذلك كانت ترتكب القبائح في هياكل الآلهة ، وتنتهك حرّمات الفضائل في
محاريبها ، وتهدس الذبائح الانسانية، بين يدي التماثيل الحجرية ، وأي درك ينحط
اليه الانسان آزل من هذا ، وأمر ذلك معروف في التاريخ ، ولا تزال مشاهد
إلى اليوم معروفة

وأما الآخرون فهم أرقى درجة من أولئك في الادراك ولكن ماذا أصابهم
ويصيبهم من ذلك الاعتقاد ؟ كانوا اذا فاتهم انسان في عقل أو شجاعة ، أو صدر
منه مالا يألفون من الاعمال ، أو ظهر بما لا يعرفون من الاحوال ، ظنوه مظهرأ
للوجود الالهي ، فدأنوا لسلطانه ، واستكانوا لقهره ، وأخذوا أنفسهم بالخضوع
لارادته ، فسلبهم كل ما كانوا يملكونه من عقل و ارادة وعزم ، وحق عليهم الصغار
ماداموا على تلك العقيدة

وقد سهل هذا الوهم على كثير من أهل الدهاء أن ينزلوا من الناس منازل الآلهة
طمعاً في استعبادهم . وكما قاست الأمم من الرزايا التي جلبتها عليهم هذه العقائد الضالة
وقرب من هؤلاء قسم ثالث ليس بخير من القسمين الآخرين وهم
المعتقدون بالوسائط . ماقدروا الله حق قدره ، فقاسوه على الكبراء وأهل السمو
منهم ، فظنوا أنه في ملكوته ، كلك في جبروته ، يصطفي لنفسه مدبرين من خلقه ،
ويستصنع عمالاً للتصرف في شؤون عباده ، فاذا امتاز أحدهم بما يعتقدونه زلني
إلى الله ، أو صدر منه ما يظنونه دليلاً على أنه من المقربين اليه ، رفعوه الى تلك
المرتلة — مرتلة الاصطفا ، للتصرف في الكون — فآخذوه شفيحاً لديه ، يلجئون اليه
في مهمات أعمالهم ، ويستجدون منه المعونة بما له من الدالة على ربه . واذا سئلوا

عما يفعلون ، وما به يدينونا ، قالوا « مانعدهم إلا يقربون اليه زلني »
 ماذا أصاب هؤلاء من شر ما اعتقدوا ؟ استعبدوا للسادن والكاهن ، والزعماء
 ووارثيهم ، واستسلموا لهم في جميع شؤونهم ، فكانت علومهم من أوهامهم ،
 وافهامهم واقفة عند خيالاتهم ، ينكرون الأوليات من المعلومات ، اذا توهوا
 أنها تخالف تلك الموهومات التي تلقوها من زعمائهم . ثم كانوا يتركون وسائل
 العمل اتكالا على ما يستمدونه منهم ، ولا يزال التاريخ يشهد على ما فاسته الانسانية
 من بلايا هذه العقائد ، والعيان يؤيده في كثير من الامم في الشرق والغرب إلى اليوم
 هذه مفاسد الوثنية وما جاورها لا ينكره ما مطلع على مبادئ العلوم الصحيحة ،

بل يعرفها كثيرون من العامة الذين لم ينشؤا في جوها الفاسد

أما زعم هاتوتو أن وثنية اليونانيين كانت ترتقي بالافراد في سلم الفضائل
 طمعا في نيل مرتبة الالهية ، فهو زعم لم يقل به من المسيحيين سواه فيما أعلم . ولم
 يقل أحد من اليونانيين أنفسهم إنهم كانوا يسعون في كسب الفضائل من طريق
 التوصل إلى مقام الالهية ، ولا إن الالهية البشرية تركت فيهم آثرا صالحا ،
 بل لم تورثهم إلا تلك الرذائل التي قام سقراط وأفلاطون لمحاربتها . وأما السعي
 إلى الفضائل فكان للتقرب لاربابها كما هو معلوم

وأما حكمه على المسيحية بأنها من ناحية الديانة اليونانية فذلك أدع الكلام فيه
 إلى المسيحيين أنفسهم . ولكني أقول إن المسيحية بذلت وسعها في بداية أمرها
 لتطهير الارض من الوثنية التي كان الناس عليها في عهدها ، وجاهدت من تلوث
 بعقائدها من اليهود والرومانين ، وانبث رجالها بين الوثنيين يدعونهم إلى الاله
 الواحد . وكان التنزيه قوام دعوتهم ، كما يعلمه المدقق في فهم كلامهم ، ولم تظهر
 آثار التشبيه فيها إلا بعد قرون من نشأتها ، وتاريخ الامبراطور قسطنطين
 معروف عند أهل التاريخ وغيرهم لاحاجة إلى تفصيل ما كان منه

ثم لما امتد الغلو في التشبيه ظهرت المظالم ، وعظمت المغارم ، واختنق العلم ،
 وخسي العقل ، وتهدمت أركان النظام ، واستشرى الفساد في الأمم النصرانية
 حتى ظهر الاصلاح وقضى على ما سبقه ، واستقامت أوربا في طريقها المعروفة اليوم ،

وقد أشرنا إلى شيء من أسباب ذلك

لم نسمع أن أحداً من المسيحيين يعبد الله لينال رتبة المسيح فيكون إلهاً بشراً كما يؤخذ من عبارته . ولم نر آراً لأحد من يدل على أنه عقل عقيدة التثليث على هذا النحو الذي ذكره . ولكنهم يصرحون بأنها عقيدة لاجمال للعقل فيها، فلا مكنة له في أن يجتذبا ، وقد قامت طوائف منهم في أزمان مختلفة تصرح بأن فرقاًين مالا يصل اليه العقل وما يناقض حكم العقل ، وذهبت الى أن المسيح لم يكن الا نبياً مختاراً بعثه الله لخلاص البشر من سلطان الشيطان ، وحلوا الابن على المصطفى (المختار) والأب على الرب الرحيم * وأعرف بعض طوائف البروتستانت اليوم وان كانت قليلة العدد يذهب الى تأويل الكلمة بالعموروح القدس بالحياة وقد لاقيت بعضهم في بعض أسفاري وأكد لي أن لم شعبة تدين بذلك

وهل كانت المسيحية في سالف الأزمان تجاهد من حولها من الوثنيين لتخرجهم من وثنية الى وثنية ؟ نعوذ بالله من هذا الخبط الصادر من محب غير عالم اني أرفع أدبا من أن أظن في عقائد المسيحية في جريدة ، وقد أمرت أن أجادل بالتي هي أحسن ، ولكنني أرجع الى الكلام في الآثار التي غني هانوتو بأغنازها دليلاً

جاء الاسلام يدعو العالم بأسره الى التوحيد ، وصرح بان دين التنزيه هو دين الله من لدن آدم ونوح و ابراهيم الى موسى . ثم هو دين الانبياء بعد موسى ، ودين خام رسل اسرائيل عيسى عليه السلام ، ولم ينكر أن في اليهود وفي المسيحيين خصوصاً أهل تنزيه ، وذكر أن منهم من مال الى التشبيه ودعا الى الرجعة الى أصل دينه حتى يقوم بالعبادة لله وحده ، ويعتق من سلطة الرؤساء والزعماء الذين اغتصبوا عقله ، وملكوا هواه وهمه

هبت الوثنية واليهودية والنصرانية لمناوأة الاسلام ، وكانت أكثر عدداً ، وأوفر عدداً ، وأعظم قوة ، وأشد بأساً ، فلم يكن الا قليل من الزمن ثم ظهر الحق ونفذ شعاعه الى القلوب ، فدخل الناس فيه أفواجا من كل ملة من هذه الملل ، فاعتقت المهمم ، وافتكت العزائم من أسرها ، وأخذ كل يطلب من الكمال

ما يُعده له استعداداً الممنوح له من واجب الوجود . وأخذ المعتقدون بالتوحيد والتنزيه يشرفون من شرفات الايمان على أسرار الوجود ، ومزقوا تلك الحجب والاوهام ، واتصلوا بمناجم العلم من الفكر والنظر والدين ، ولم يكدهم أهل الملة يستريحون من الشغب الذي هبت ربحه بينهم ، حتى سطعت آوار العلم فيهم ، ولم يبق باب من أبوابه الا دخلوه ، ولا مرتقى من مراقبه الاعلوه ، ولم يبق متروك من مخلفات اليونان والفرس والرومان الا استخرجوه من زوايا النسيان ، وجلوا صداه وأبرزوه للأناظر

هذا أثر الاسلام وهو دين التنزيه . ولم يكدهم ينتهي القرن الثاني من ظهوره حتى جال المسلمون في علوم السموات والأرض ، وصححوا الأغالط ، وتصحوا القواعد ، وحرروا الأصول . وفي مفتح القرن الثالث أقاموا المراصد ، ومسحوا الأرض ، وآوا في ذلك بما هو معهود لأهل العلم في ديارنا وديار موسى هانوتو . اني أكتفي فيما يقابل هذا بقول جماعة من أهل النظر في الامم الغربية اليوم: أقامت النصرانية في الارض ستة عشر قرناً ولم تأت بفلسفي واحد . وأخذ المسلمون يبحثون في هذه العلوم بعد وفاة نبيهم ببضع سنين ، ومع هذا لا يعد ذلك طعناً في أصول الديانة المسيحية ، وإنما هو طعن في تصرف القائمين عليها والمحرفين لها عما جاءت له

يظن هانوتو أن الاسلام قطع الصلة بين العبد وربه ، ولكنه وهم في ذلك ، فان الاسلام أفضى بالعبد الى ربه ، وجعل له الحق أن يقوم بين يديه وحده بلا واسطة تبيعه رضاه — قضي الاسلام بأن لا يكون للكون الا قاهر واحد ، يدين له بالعبودية كل مخلوق ، وحظر على الناس مقامين لا يمكن الرقي اليها ، مقام الألوهية التي تفرد بها ، ومقام النبوة التي اختص بمنحها من شاء ثم أغلق بابها ، وما عدا ذلك من مراتب الكمال فهي بين يدي الانسان ، وينالها استعداداً ، لا يحول دونها حجاب الا ما كان من تقصيره في عمله ، أو قصوره في نظره

اذا اعتقدت بقصور فضل الله عنك وقفت نفسك حيث وضعتها ، ولن تستطيع إلى التقدم سبيلاً ، هكذا يرفع الاسلام الصحيح نفس صاحبه ، وهذا

هو معنى الاسلام والاستسلام الذي أخطأ في فهمه (مسيو هانوتو) فهل بقي الانسان مع هذا المعنى من الاسلام في درك من الحيوانية ، وفي هجرة عن التوصل بالاسباب إلى مسيبتها في كسب الفضائل والكمالات

يجب على الباحث في الاسلام أن يطلبه في كتابه كما يجب عليه أن يطلب آثاره والاسلام إسلام ، والمسلمون مسلمون . ولو استشم مسيو (كيون) الذي استشهد (هانوتو) بكلامه ربح العلم ما استفرغ ذلك القدر من فيه ، ولا حاجة إلى الكلام فيه ، فسخافة رأيه وقلة أدبه تكفيه

من أين أتى المسلمون؟ وكيف دخل عليهم في عقائدهم بالتشبيه، وفي عوائدهم بالتمويه؟ ومن تعلموا الاقتراس؟ وعن أخذوا الضراء بالشهوات؟ أنا أعلم ذلك وأهل العلم يعلمون ، والله من ورائهم محيط:

اتبع المسلمون سنن من قبلهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى سقطوا في مساقطهم، وطارحورهم الأوهام حتى انجروا إلى مطارحهم، ووباؤا بما كان لهم وما عليهم حدثت في الدين بدع أكلت الفضائل، وحصدت العقائل، وترامت بالناس إلى حيث يُصَبُّ عليهم ما استفرغه (كيون)

أما لو رجع المسلمون إلى كتابهم ، واسترجعوا باتباعه ما فقدوه من آدابهم ، سلمت نفوسهم من العيب ، وطلبوا من أسباب السعادة ما هداهم الله إليه في تزيينه ، وعلى لسان نبيه ، ومهداهم سلفهم ، وخطه لهم أهل الصلاح منهم ، واستجمعت لهم القوة ، ودبت فيهم روح الفتوة ، وكان ما يلقاد (هانوتو وكيون) من دين صحيح ، شراً عليهما مما يخشونه من دين شوهته البدع

يرى (كيون) أن يخل وجه الارض من الاسلام والمسلمين ، ويستحسن رأيه هانوتو لولا ما يقف في طريق ذلك من كثرة عدد المسلمين، وبئسما اختارا لسياسة بلادها: أن يظهرا ضغنها ، ويعلنا خطل رأيهما وضعف حلمها

أما فليعلما وليعلم كل من يخدع نفسه بمثل حلمها أن الاسلام إن طالت به حجة، فله أوبة ، وإن صدعته النوائب فله نوبة . وقد يقول فيه المنصفون اليوم من لا تمكيز مثل اسحق طيلر وهو قس شهير ورئيس في كنيسة:

« إنه يمتد في أفريقيا ومعها تسير الفضائل حيث سار ، فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره ، والشجاعة والاقدام من أنصاره »

ويأسف أشد الأسف من أن السكر والفحش والقمار انتشرت بين السكان بانتشار دعوة المبشرين بينهم . وقال « إنه يختار إسلاماً لاسكرفيه على مسيحية فيها سكر » ثم هو لا يزال ينتشر في الصين وغيره من أطراف آسيا . وسترشده الحوادث إلى طريق الرجوع الى طهارته ، وتنثي به الملمات الى ما كان عليه لأول نشأته ، وتدرك عند ذلك الأثم منه خير ماترجو ان شاء الله

لو أسلمت الأمة الفرنسية بأسرها وفي مقدمتها مسيو هانوتو ، وكانت معاملتها لغير الفرنسيين على مانهده في الجزائر ومدغسكار هل ترجو من سكان مستعمراتها أن يميلوا اليها ، وأن لا يتهزوا الفرص للثورة عليها ؟ كلا . فما ظنك بالمسلمين وهم يسمعون قصف هذا الرعد ، ولا يرون من المتغلبين عليهم إلا الجند في اهلا كهيم ، والدأب في افنائهم

إن العدل ورعاية الحقوق ، واحترام المعتقدات بعد معرفة أصولها هي التي تخفف على المغلوب سلطة الغالب ، وتدنو به منه ، وتهون عليه الرضاء عنه ، ولكن هانوتو وأترابه من ساسة الفرنسيين لا يعرفون شيئاً من هذه الأركان الثلاثة ، ولا يزالون يهرفون بما لا يعرفون ، حتى يصلوا الى ما كانوا يحسبون ، فلينتظروا انا معهم من المنتظرين اه

﴿ يقول جامع الكتاب ﴾ لما نشر هذا المقال انبرت جريدة الاهرام للمناقشة فيه والرد على كاتبه ، زاعمة أنه مبني على تحريف في ترجمة مقال هانوتو ولكن شهد كثيرون من العارفين بالفرنسية أن الترجمة صحيحة ، ومنهم صاحب جريدة اللواء . ولما اطلع مسيو جبرائيل هانوتو على ما كتب في الاهرام الفرنسية كتب مقالة أخرى في جريدة (الجرنال) موضوعها ﴿ الاسلام أيضاً ﴾ وترجمتها جريدة المؤيد في عددها (٣٠٦٦) الصادر في ٢٢ المحرم سنة ١٣١٨ (٢١ مايو سنة ١٩٠٠) حاول فيها الاعتذار عما رمي به من ناحية السياسة التي تغري دولته بالمسلمين ، ولم يستطع الجواب عما خطاه به الامام من المسائل الاعتقادية والتاريخية

ثم زاره صاحب الازهرام (بشارة باشا قنلا) الذي تولى الدفاع عنه أو تخطته الامام في الرد عليه فيما ذكر آنفا ودار بينهما حديث في هذا الموضوع نشره في العدد ٦٧٨٥ من الازهرام الذي صدر في ١٦ يوليو سنة ١٩٠٠ وقد رأينا أن ندر المقاتلين وتبني عليها برد الامام الاخير وهذا نص مقال ناتو :

الاسلام أيضا

من المسلم أنه يتعذر علي الرد في هذه الجريدة علي جميع الرسائل التي ترد الي بشأن ما أنشره فيها من الفصول والمقالات ، ولذا أشكر جميع الذين راسلوني شكراً جزيلاً . وأرجوهم أن يعتقدوا ويثقوا بأن ما أشاروا به علي وأبأنوه لي محفوظ في مخيلتي ، ولا يبرح ذاكرتي . واني أجد في تبادل الأفكار علي هذا المثال خير معوان وأحسن مشجع . وبالرغم مما يخالفني من الميل الي عدم قصر البحث في نوع خاص من الموضوعات ، أرى أن لامندوحة لي من العود الي بعض المناقشات التي أثار عجاجها الفصلان اللذان نشرتهما حديثاً في مسألة الاسلام . والحق يقال اني أصبحت بسببها — كما يقال — بين نارين . فالسليحيون آحموا علي بالتعنيف واللوم قائلين انني تظاهرت بليل للاسلام ، واتخذني المسلمون خصماً لدوداً لدينهم ، وهو ما يثبط همة الانسان عن اتباع خطة المسألة والتوفيق لو لم يعرف من قديم الزمان أن الذين يتصدون الي بيان الحقائق بالتصوير والتعقل إنما يشبهون سندان الحداد تتلاقى فيه ضربات المطرقتين

ويجب قبل الدخول في الموضوع أن أشير الي طريقة من الجدل كان الجهل يلقنتا — وهو في نظري أكثر تأثيراً من سوء القصد — سببا في اتباع بعض الجرائد الاسلامية لها وسيرها علي سننها . فان جريدة المؤيد التي تظهر في مصر القاهرة قد نشرت ترجمة أو بالاحرى خلاصة فاسدة من الفصلين اللذين

كتبتهما على الاسلام . ولعل القراء يذكرون أنني أوردت فيها آراء (كيمون) التي أبداهها في كتابه (بآولوجيا الاسلام) وان ارادي لها كان على سبيل الحكاية والنقل ، اذ اشرت الى خطر شدتها ، وابنت العواقب الضارة التي يفضي اليها الجدال السياسي في الخواطر السريعة التأثير والانفعال ، ولكيلا يختلط على الذهن شيء من اقوال كيمون التي اوردها وضعت في آخر كل عبارة من عباراته كأمي (انا اقل ، انا انقل) محصورتين بين قوسين دفعاً للتباس ومنع اللشك بالرغم من هذه الاحتياطات نسبت إلي تلك الأفكار التي عمدت إلى دحضها ، وإظهار فسادها ، حتى إن أحد كبار أئمة الدين الاسلامي كلف نفسه مؤنة الاجابة في جريدة المؤيد على أفكار ليست أفكاري ، بل هي تقيض ما ذهبت الى تعضيده واستحسانه في بحني . ولذلك أرى أن ذلك الامام العظيم صار في بحثه أشبه بمن يدفع بابا مفتوحا من ذاته ، سواء قرأ ما سطرته في الاصل الفرنسي أو وقف عليه من الترجمة ، إما أنه لم يفهم مرادي ، وإما أن الترجمة كانت فاسدة ، لم تتوفر فيها شروط الأمانة ، لذلك أناشده بذمته الطاهرة أن يوقف من يأثمرون بأمره ويصيخون لأقواله على حقيقة فكري التي كشفت النقاب عنها في آخر مقالتي وكلها احترام واعتدال ، ومسألة وتوفيق ، على أن احدى الجرائد العربية التي تنشر بمصر ، ولها شهرة فائقة في جميع العالم الاسلامي ألا وهي جريدة الاهرام قد أتت بتلك الملحوظات أحسن مما استطيع ايرادها به فان محررها (المسيو تقلا) الكاتب الشهير الذي يدبر في آن واحد جريدة البيراميد الفرنسية قد اقتني أثر ملحوظات الامام فرد عليها نقطة نقطة ، ولم يبق لي بعد مناقشته التي روعيت فيها أساليب اللطف والحدق مجال للكلام ، أو شيء كثير من القول أضمه الى قوله . على أنني أستنتج من هذا الحادث عبرة تزداد قوتها في نظري كلما تقدمت في طريق العمر ، وجبوت نحو الشيخوخة ، وهي أن منشأ المشاكل والصعوبات التي تقوم بين الناس سوء التفاهم ، والخطأ في معرفة بعضهم مقاصد بعض إذ كثيراً ما كان الغلط الناشيء من سوء تلاوة كلمة ، أو القصور عن ادراك معنى جملة ، أو فهم مغزى رأي ، أو مراعي حيلة من حيل المناظرة .

سبباً في جرّ ما لا يحصى من المصائب ، بل سبباً في انشقاق قوم كانت تجمعهم
لحمة الاتحاد ، ورابطة الجوار ، وكانوا إلى الالتئام والاتفاق أقرب منهم
إلى الخلف والانشقاق

ولو أمكن محوما تراكم شيئاً فشيئاً حول ما يقع بشأنه سوء التفاهم من العواقب
الضارة ، والشدائد التي لا فائدة منها ، وتيسر العود إلى النقطة الأولى التي كانت
مبدأ النزاع ، وسبب الاختلاف ، لانهش الانسان من السهولة في تذليل
الصعاب ، وتمهيد المشاكل التي جعلت الفارق عظيماً ، ومسافة الخلف بعيدة . ولقد
قيل إن العالم ميدان يتنازع فيه بنو الانسان ، وهو قدر مقدور لولاه لتعذر على
الفهم أن يدرك كيف تكون مقدمات أمثال تلك النتائج البالغة في الرداءة والسوء
مبلغاً عظيماً تافهة ، وأسبابها بسيطة إلى هذا الحد ، حتى لقد تمر على الانسان لحظات
يسأل فيها نفسه عما إذا كان في الامكان اصلاح ما اتلم من حوادث التاريخ
باجتهاد الناس في فهم بعضهم مقاصد بعض على فرض أن تبادل المودة فيما بينهم
لم يكن من الأمور المتاحة لهم

ومن الأمور التي كان لا يزال خاطري منصرفاً إليها أن المسائل المشككة ولو
كانت من أهم المسائل وأخطرها ، تتضمن في ذاتها الحل الملائم لها ، والمطابق
للانصاف والسلام . وكنت ولا زلت على اعتقاد وطيء في المباحثات المتعلقة
بمصلحة من المصالح وفكرة من الأفكار بأنه متى كان الطرفان على جانب من
طهارة الذمة وحسن النية ، وجعلا غايتها القصوي المسالمة والاتفاق ، واتخذوا
لذلك وسائل الحكمة والتدبر ، وصدق اجتهادهما في التجرد عن الأهواء ، فانهما
يصلان إلى نقطة تتفق فيها مقاصدهما ، وتتطابق رغائيهما

اعتقدت دائماً أن للسياسة على الخصوص مهمة في هذا المعنى ينحصر فيها
شرفها ، وترجع إليها كرامتها ، ليس بما تعلنه الشعوب من الشكر والاعتراف
بالجميل فقط ، بل بحسن العمل العقلي الذي يقوم به السياسيون بدون لغط ، ولا
ضوضاء في سكون قاعات أعمالهم أيضاً . وأما الاعتماد على القوة والركون إلى العنف

الذي هو أخص ما يلتجئ إليه القومي ، فهو من أخريات الوسائل وأخطاها ، وهو حيلة من لاحيلة له

ويظن الناس في الغالب أن الواجب التخيير بين الاتفاق والمجاهرة بالشقاق ، وهو خطأ بين وغلط ظاهر ، إذ بين السلم والحرب ميدان فسيح يمكن للسياسة أن تجول فيه جولتها . وكما انطبقت هذه الطريقة على السياسة تنطبق أيضاً على المناقشات الفلسفية والدينية ، إذ للأفكار والعقائد سياسة مرجعها التسامح والاحتمال ، وليس التسامح من مخترعات هذا العصر ، بل تقيضه من مخترعاته ، لأننا إذا نظرنا في أصول المشاكل البشرية الكبرى يكون اندهاشنا من التشابه بين الآراء التي تعذر التوفيق بعد فيما بينها أعظم من الانفراج المستحکم بينها . وخلاصة القول أن معيشة بني الانسان بعضهم مع بعض بسلام ميسورة لمن يريدون ذلك ويقصدونه برغبتهم ، وحسن ارادتهم

وقد حدا بي هذا البحث الى نوع آخر من الانتقاد صوبه نحوي بعض المسلمين وليس المقصود به السياسة في هذه المرة ، بل المقصود به الفلسفة والعلوم الدينية ، وقد انتهت إلي رسالتان غريبتان في هذا الباب احدهما من رجل مشهور الاسم في فرنسا وهو (احمد رضا) مدير جريدة مشورت الذي جمع ملحوظاته في رسالة سماها (التسامح الاسلامي) وقصد بها الرد على الكتاب الغربيين الذين يتهمون العالم الاسلامي بالتعصب الديني ، واستشهد في خاتمها بكلمات قالها الكردي نال لافي جري وهي : « أجاهر علانية بانني اعتبر اثاره خواطر الشعوب الاسلامية بعدم التدبر في دعوتهم الى الدين المسيحي إنما من الآثام وضرباً من ضروب الجنون » وانه ليفيض بي الكلام على الوصف الذي وصف به صاحب الرسالة تسامح المسلمين ولكنني على ثقة من أن تبادل الشكوى أو الشتم لا يحدو بنا الى الغاية السلمية التي تقصدها ، وأن الاجتهاد في فهم بعضنا مقاصد بعض أولى وأحسن من الصياح والعيويل لمنع الناس من الاتفاق والوثام

ووردت إلي رسالة ثانية من أحد عظماء المسلمين وهو حضرة (احمد افندي مدحت) أكبر كتاب الترك في الوقت الحاضر ، وأني آسف شديد الأسف من

عدم إمكانية نشر مضمونها بأكمله في هذا المقام لطولها وغموض مباحثها، ولا ريب في أن القراء الفرنسيين كان يسرهم أن يتلذذوا ابتلاوة انشاء شرقي مكتوب بلغة فرنسوية صحيحة، غير أن في المباحث الدينية ولو كانت متعلقة بالاسلام شيئاً من الاكفرار والتعجب .

على أن هذا لا يمنعني عن ايراد شذرة قصيرة يبين فيها الكاتب مبدأ الدين الاسلامي وهامي ذي « فيما يتعلق بالايمان والضمير كل مسلم قس نفسه فهو لا يقدم لأحد سوى الخالق جل وعلا بدون واسطة حسابه عن أقواله وأعماله، ولم ير النبي محمد عليه الصلاة والسلام، ولم تسمح له فرصة رأي فيها لنفسه حقاً أو سلطة مما يخوله لانفسهم رجال الاكليروس في الديانة المسيحية، بل لم يفرقه فارق عن بقية العالمين أمام عدالة الحق سبحانه وتعالى، وهو ما يؤخذ منه أنه لو سأل أحدهم ماهو الاسلام؟ لاجاب المسلمون قاطبة على اختلاف مذاهبهم بأنه العمل بما قرره القرآن الشريف — فالديانة القرآنية لا تهوي بالانسان باقصاء الاله عنه في نهاية القضاء — إذ جاء في القرآن الشريف: (ونحن أقرب اليه من جبل الوريد) . هذا الدين فرق بين الانسان من وجهته الادبية والمادية، فحدد أحواله فيها بكيفية موافقة للادراك البشري »

ثم استنبط الكاتب من هذا الفرق دفاعاً عن الدين الاسلامي يراه أرقى وأحسن ما يدافع عنه به، وأخذ يعتب عليّ لكوني اختصرت البحث في المسئلة الفاسفية، ذريعة الى قصر الكلام على المسئلة السياسية

وأنتي اعترف بأنني انصرفت أثناء سياحتي في الجزائر وتونس الى الوجهة التاريخية السياسية أكثر منها الى غيرها، واذا كن القاريء لا يملّ حديثي، فانتني أورد هنا بالايجاز كيفية الاسباب التي حملتني على هذه السياحة، وقصر مباحثي مؤقتاً على أعظم مشكلة قامت منذ قرون بين الديانتين المسيحية والاسلامية

لما كنت أقرر مباحثي في تاريخ (الكردينال ريشليو) وصلت إلى النقطة التي أفضت الظروف به فيها الى اتخاذ طريقة من الطرق المختلفة التي حومت حوله، واستلقت أنظاره . ففي أواخر عام ١٦٢٢ وأوائل عام ١٦٢٣ أي في إبان

استلامه زما. الأحكام كانت ظهرت المسئلة البروتستانية ، وسوف أورد كيفية حله لها . ولكن ما يعرفه القليل هو أنه عرض عليه الحكم في المسئلة المحمدية ، أو بعبارة أهل ذلك الوقت: في المسئلة الصليبية

وكان يوجد في فرنسا وقتئذ جم غفير من الناس يجاهرون بضرورة استئناف الحروب الدينية التي اشتهرت بها القرون الوسطى ، واسترسل في هذا الموضوع كثيرون من أخص أصدقاء (الكردينال ريشليو) الذين أخذوا بناصره في خطاه الأولى ، وواله بنصائحهم وسطوتهم . ومنهم (الدوق دي نيفير والأب جوزيف) صديق ريشليو الحميم ومشير، الخاص الذي انطوى معهم في أفكارهم قلباً وقالباً حتى لقد بدى، في ذلك الحين بتجهيز الحرب الصليبية ، ويمكن القول بأن حزب الملكة ماري دي متديسي — الذي أجلس ريشليو على منصة الأحكام وكان يسمى بحزب الكاثوليكين — حزب من الصليبيين

فما كان من الكردينال ريشليو الا أن قطع كل صلة مع أصدقائه ، رافضاً أن يكون آلة بأيديهم ، بل كان منه أن جذب الأب جوزيف الى ناحيته ، ثم ولى وجهه عن الاسلام فخارب — كما هو مشهور — الأسرة النمساوية . والحق يقال أن الكردينال كان من أقل الناس تعصباً ، فانه قبل أن يأتي بما عمل به بني عمه على أسباب تأمل لها طويلا واستخبر وقارن . وأن هذه الأسباب هي التي كنت أروم الوقوف عليها لاظهارها وإيقاف غيري عليها

وقد تابعت البحث والتنقيب على هذا المثال في أسبانيا وأفريقية إلى حيث تلك البقعة التي تم بها الاقتران بين العالمين الشرقي والغربي ، أريد بها تونس ، هذا هو السبب الذي استحثني مع أسباب أخرى على التقله الى تلك الأضواء باحثاً ومفكراً ، شاهدت فيها أطلال قرطاجنة أي أطلالها في عهد انيبال واتمديس أوغستان ، وفي عهد سان لويس وشارلكن ، فتجلى لي وأنا واقف على تلك الطلول أن الارض التي كانت ميدان النزال والجلاد يمكن أن تكون أيضاً مهيطة السكينة والسلام

وأما الأسباب التي حملت ريشليو على العدول عن الحروب الصليبية فلسوف

أينها في يوم ما . ولكنني بالبحث في الماضي والمشاهدة العيانية في الحاضر، قد توصلت إلى البحث عن مبادئ الاتفاق والوثام في عين المكان الذي اشتهر بأسباب الشجناء والبغضاء ، بحثت عن أصول هذه الأسباب فاشرت إلى السلم الناشئ من الحماية ، ونهت بذكر أمر مهم وهو معيشة فريقين من الناس كان لا يظن أنهما يجتمعان في وثام واتفاق باحترام كل منهما معتقدات الآخر ، لما لاحظت هذه الامور كنت أود مداراة العواطف والاقتصار على عبارات التسامح والمسألة والاكتفاء بالكلام على الحياة الفعلية ، ولكن يظهر أن هذا صعب المرام ، إذ الجميع لم يفهموا مرادي ، ولم يقفوا تمام الوقوف على مقصدي ، ومهما يكن من الأمر فإن من الامور المهمة قيام الأفكار في البلاد المسيحية والاسلامية قيما إذا تحركت فيه بالحركة الطبيعية المبنية على حسن النية ، وطهارة الضمير ، كانت نتيجتها التقريب والتوفيق ، لا الابعاد والتفريق

(يقول جامع الكتاب) هذا ما كتبه هانوتو وليس فيه رد لشيء مما خطاه به الاستاذ الامام من المسائل الدينية والتاريخية ، ولكنه تنسم من الكلام أن الترجمة تشعر بأنه مستحسن لما نقله عن كيمون وما هو بمستحسنه وهذا صحيح . وقد كان بشارة باشا تقلا يدافع عنه وينحي على المؤيد وعلى الامام ، ثم سافر الى باريس ولقيه ونقل عنه الحديث الآتي فنشر في العدد ٦٧٨٥ من الاهرام الصادر في ١٦ يوليو سنة ١٩٠٠ بالعنوان الآتي ونلخص مقدمة صاحب الاهرام للحديث قال :

حديث مع المسير هانوتو

رأيت وأنا في باريس أن أقابل المسير هانوتو واقف منه على حقيقة الاحوال بوجه عام ، وعلى الغاية التي قصدها ويقصدها من كتاباته الاخيرة عن الشرقيين والمسلمين بوجه خاص ولما كان هذا الموضوع من أهم المباحث لدينا مع رجل مثل هانوتو الكاتب البعيد الصيت والسياسي الواقف على أحوال أوروبا والشرق وكنا نعتقد كما قالت الاهرام مراراً وتكراراً أن تقدم الشرق يكون بتقدم الامة الاسلامية توخيت أن أنشر أقواله وآراءه فاستأذنته بذلك فأذن لي . قال :

أنتم تعرفون من تاريخ أوروبا ان أممها ما تقدمت علماً ومدنية واختراعاً إلا يوم تقيدت السلطة المدنية وعرف الشعب والحكام فروضهم المتبادلة وآلام أكتب إلا إلى أبناء وطني الفرنسيين ولم أستشهد بكيمون وهو يوناني الجنس إلا لأفند أقواله التي لم ينفرد بها فان كثيرين من الكتاب الالمانيين والفرنسيين والانكليزي وغيرهم حذوا حذوه وقالوا قوله ، وخلاصة كتاباتهم ان تقدم المسلمين مستحيل ونجاحهم بعيد ، لأن الاسلام معتقدهم يحول دون ذلك ، وحجة هؤلاء ، واحدة وهي : انه كلما تقدمت أوروبا تأخر الشرق ، لأن الواقف يتأخر بقدر ما يسير الماشي ، وان كل حكومة انفصلت عن الشرق سارت على منهاج أوروبا علماً ومدنية فنجحت مع ان العثمانية وأفغانستان ومراكش والعجم لا تزال على ما كانت عليه في السنين الغابرة ، وأنا ذكرت من هؤلاء الكتاب كيمون وحده ليعرف المسلمون ما يقال عنهم ، ولأفند مزاعم هذا الرجل وغيره من الكتاب الذين على رأيه ، لا اعتقادي ان الاسلام لا يحول دون الاصلاح والمدنية ، واستشهدت على صحة معتقدي هذا بتونس فذكرتها مثلاً أؤيد به أقوالي وسياسي . هذه هي روح كتابتي السابقة ، وانها ستكون روح اللاحقة

والذي دعاني إلي ذلك ما كان من هؤلاء الكتاب الذين لا يخرج مغزى كتاباتهم عن اعادة الكرات انصليبية كما كان في الأعصر الخالية ، وما دفعهم في

الأيام الأخيرة إلى ذلك إلا الحوادث الأرمنية وغيرها ، ولما كنت قد وقفت
نفسى لدرس حياة ريشليه السياسى الشهير ، وسرت فى أكثر أعمالى وكتاباتى على
منهاجه ، وعرفت ان هذا الرجل مع انه كاثوليكي وكردينال من أعمدة الكنيسة الرومانية
رفض على عهد وزارته تلك السياسة العوجاء - سياسة الصليبيين - وحال دونها بدهائه
المعروف ، مع انه كان القابض على سياسة فرنسا وأروبا معا ، فاذا كان هذا السياسى
الكاثوليكي قد امتنع عن تأييد سياسة أقرب المقربين اليه فى تلك الأعصر أى
السياسة الصليبية فهل مثل هذه السياسة يجوز اليوم انفاذاها ؟ لا لعمرى فلهدا عارضت
بالأمس ولهذا أعارض اليوم ، ولحسن الحظ ان الرأى العام إذا قال بوجوب مساعدة
الضعيف ضد الظالم فهو لا يريد حربا تشب نارها اعتداء ، ولا سببا الحرب الدينية
فهى عدوة المدنية بل هى أفضع الأعمال

على ان معارضتى لا مثال هؤلاء الكتاب أى تقضى لأقوالهم لا بمنغى عن
أن أقول لكم الحقيقة لأنه يستحيل على أن أقول ان شرقكم سائر على منهاج
حكومات أوروبا فى العدل والحرية والمدنية كما انه يستحيل على أن أقول ان فى
حالتكم الحاضرة ضمانا لمستقبلكم السياسى ، فاعلم ان أوروبا حاربت السلطة الدينية
مدة ثلاثة قرون لاعن عدم اعتقاد بل لتفصلها عن السلطة المدنية فان المتحارين
كانوا من معتقد واحد ولكن أراد أفراد أممها أولا ولنيف شعوبها ثانيا ان تكون
الكلمة الأولى للسلطة المدنية فى أحوال الحكومات وشؤون الشعب وان يكون
للمعتقد حق الادبيات الدينية بأن يعطى ما تقصر لقيصر وما لله

واعلم ان الذى أيد هذه السياسة أيضا فى بلادنا فرنسا هو أعظم تلامذة رومة
وأحد أقطاب الكنيسة الكاثوليكية أى الكردينال ريشليه فهو الذى قال بفصل
السلطتين ولم تنسه واجباته الكنيسة الدينية معرفة الحقيقة وهو بهذه السياسة
خدم السلطتين أشرف خدمة ، إذ أيد السلام بينهما فتأيدت سطوة الحكومات ،
وتقدمت شعوب أوروبا قدما عجيبا ، واعتزت السلطة الدينية أيضا ، وعاشت
السلطتان بوفق وسلام

وهذا ما يريد تأييده نحن الفرنسيين فى مستعراتنا بأن يكون الأمر المطلق

للسلطة الحاكمة مع احترام عمائد الشعوب الذين تحت حكمنا وسلطاننا وهو ما سرنا عليه في الجزائر وتونس وغيرها من المستعمرات الفرنسية واني لأأكلكم كسيحي بل كمؤرخ أو ككاتب حر الضمير لا شأن لغيره في معتقده الخاص ، ولكنني أحترم أديبات كل دين ومعتقد ، وأقدر تلك الأديبات قدرها ، ولكن الماديات غير الأديبات ، والأولى من شؤون عالمنا هذا الذي نعيش فيه ونحيا به ، وكل أمة لم تتقدم في مادياتها لا بد أن تموت إذ لا حياة بلا مادة ، واللهم أنتم الشرقيين الله أوروبا والله أميركا إذ إن الله الجميع واحد ، ولا يمكن أن يكون أكثر انعطافاً على الأوربي منه على الأميركي ، فالشرقي بل إن الشرقيين عموماً أكثر تمسكاً بعقائدهم من الغربيين ، وقد علمنا أن أوروبا فاقت شرقيهم بمرحلة ، ونرى اليوم أميركا تزاحم أوروبا وكثيراً ما فاقتها في اختراعاتها وفنونها ولم يكن ذلك لأن الله سبحانه وتعالى أميل إلى الأميركي منه إلى الأوربي أو الشرقي ، ولكن لأن الأخير مستميت والأول حي ، هذا يشتغل مجتهداً وكلما زادت أرباحه زاد نشاطاً وإقداماً ، وذلك يقضي حياته بين القنوط واليأس مستملاً ، ولهذا تقدم الأوربي وتأخر الشرقي ، وضيق أوروبا بأهلها دفعها إلى الاستعمار في كل صوب ، فصادف أبنائها أرضاً واسعة ، وشعباً لا حراك بها ، فقبضوا على الأعمال السياسية والاقتصادية فيها

وهنا استمحت حضرة المسيو هانوتو وقلت له : إذا كنت تحب مصلحة المسلمين وتعتقد أنهم راضون في تونس فهل تعتقد ذلك في أهل الجزائر ؟ ولماذا لانسأل الحكومة الفرنسية ان ترى في احوال هؤلاء .

قال : أما التونسيون فلا خلاف في أنهم مسرورون بحالهم ^(١) ونحن قد دخلنا بلادهم وهي فاع صفصف مزق شملها أفراد حكوها ، وأما نحن فقد تركزنا للسكان حقوقهم المذهبية ، فاحترمنا جوامعهم وعقائدهم وأحوالهم الشخصية ، ولم نسلهم إلا أمراً واحداً أي احترام سلطتنا السياسية ، فأدركوا هذه الحقيقة وعملوا بها ، ولهذا كان النجاح عظيماً في مدة قريبة ، وأنت تعلم أن مذهبي في الاستعمار وضع

الحماية كإهو في تونس ، لأضم المستعمرة إلى فرنسا كما فعلنا في مدغسقر بالرغم عن معارضتي ذلك ، وقدرضيت به متقاداً لأوامر أكثرية دار الندوة ، ولا أنكر أنه يجب تعديل بعض قوانين الجزائر ، وقدرش عناني ذلك ، وسأكتب كثيراً في هذا الموضوع لأنني ذهبت بنفسني إلى تلك البلاد ودرست أحوالها ، وأهلي أن لا يمضي طويل زمن حتى ترى ذلك الاصلاح الذي طلبه غيري قبلي ، وشترعت حكومتنا في انفاذه (١)

قلت إني أعرف ماسر دته لي عن تاريخ السلطين الدينية والسياسية في أوروبا وعن أحوال شعوب البلادين ولكن ذلك مستحيل في الشرق ولاسيما في الحكومات الاسلامية والذين يقولون به من الأجانب ليسوا إلا خصوماً للمسلمين لا اعتقاد هؤلاء أن في فصل السلطين ضعفاً ترومه أوروبا لتنال بغيتهما منهم قال هانوتو : أنا لأسأل الشرق ذلك فهو حر يفعل مايشاء ولكن اعتقدان أوروبا لم تتقدم إلا بعد تعيين حقوق السلطين وجعل الكلمة الأولى للسلطة الحاكمة كما إني أعتقد أن جمع السلطين في شخص واحد لم يمنع ان تخسروا في الحروب الماضية ، واعتقد أيضاً أن صاحب السلطين ولا سيما في بلاد كالشرق يستطيع أن يجري اصلاحات لا يقدر غيره عليها ويعلم المسلمون ان جمع السلطين في شخص واحد لم يمنع فرنسا من الاستيلاء على الجزائر وتونس ، وان أكثر من التهام الهند ، وروسيا من أخذ خيوه وغيرها إلى حدود أفغانستان ، كما انه لم يمنع استقلال مراكش وبلاد فارس والمملكتان اسلاميتان ، فاذا كان يستحيل توحيد حكومة اسلامية توحيداً سياسياً يستحيل أيضاً توحيد سلطتها الدينية ، وابن مراكش لا يعرف غير سلطانها خليفة له

واذا كان الاسلام كما قلتم ويقول كتابكم (وأود أن أعتقد أنا مثلكم أيضاً) انه لا يحول دون التقدم العصري ، فما بالك متأخرين ونحن متقدمون ؟ وبماذا تردون على اولئك الكتاب الذين لا يعتقدون اعتقادي واعتقادكم ؟ فاذا قلتم كما يقول اخوانكم ان أوروبا تحول دون تلك الاصلاحات ، أجاوبكم ان أكثر الدول

كانت دائما معكم الى سنة السبعين وبعدها ، فلم تأخرتم واليابان لم تشتغل الا ربع قرن حتى وصلت الى ما وصلت اليه اليوم ، فأصبحت أوروبا تقدرها قدرها في جميع مسائل الشرق الأقصى؟

وإذا قال لكم اولئك الكتاب اننا مقتنعون بأن أوروبا وشعوب تركيا حلت دون اصلاح الولايات الواقعة في أوروبا والقرية من أوروبا كسورية مثلا، سألتكم هل مسلو بغداد وما بين النهرين وحب راضون عن أحوالهم؟ أياظن رجالكم وكتابتكم اننا نحن وكتابتنا جاهلون أحوالهم هنالك حيث لا أوربي ولا غيره يحول دون تعميم العدالة وحفظ حقوق المتقاضين؟

وأنا أعرف ان أمثال هذه الحقائق يجرحكم ذكرها ولكن قد حان لكم ان لا يعيكم غرضكم عن الحقيقة ولو انها خارجة من فم أجنبي ما دام كتابكم ليس فقط لا يقولونها بل يكذبونها ، كأنني بهم يساعدون الظالمين من حكامكم على ما يأتونه من المغارم والمظالم ، فكان ذنبهم نحو وطنهم أعظم من ذنب الحكام الظالمين

واني أقول لك هذا بعد الذي قرأته في جرائدكم ردا على ما كتبته فقد عدوني خصما لهم ونسوا خدماتي لهم وانا في منصة الوزارة الخارجية في ايام المسألة الأرمنية ، فاذا كان هذا رأيهم في صديق خدمهم فاذا يكون حكمهم على خصم جبر بعداوتهم؟ ولكن فليعلم هؤلاء انه اذا حدثت امثال تلك الحوادث في المستقبل فيستحيل على وزير اوربي ان يرتئي مثل تلك السياسة ، ولا اقول هذا من باب العدا بل لما نراه من تعديل اروبا على وجه عام مبادي سياستها الخارجية مع الشعوب المشرقية ، فان الدول ستكون واحدة في المستقبل كما ترى الآن في مسألة الصين

فقلت للمسيو هانوتو : وما شأنكم والشرق وأمه؟ فكلاهما راض عن حاله ومفضل اياها على كل سلطة اجنبية او اروبية ، والذي ينفر الشرقي هو ظلم اروبا في سياستها هذه ، وعتبنا على فرنسا اكثر من غيرها لأنها عودتنا حماية الضعيف من القوي

فقال الوزير بعبارة صريحة : ان هذه الأقوال خيالية لا تنطبق على حالة اوروبا في هذا الزمان فهي بعد ان كانت لا تهتم بغير قادتها قد اندفعت الى الاستعمار ولا تقف عند دعوى العدالة وغيرها ، واعلم ان فرنسا مضطرة مادامت لا تقدر على منع الدول الثانية عن توسيع نطاقها الاستعماري والتجاري الى الاقتداء بالدول المذكورة ، واني ارى كتابكم وافراد امتمكم يجهرون في غالب الأحيان بأفكار صيانية فيستعبدون للألماني لكتابة الانكليزي ، وينتصرون للفرنسوي على الألماني، ولكن أما حان لهم أن يعلموا أن الأوربيين مهما اختلفت اجناسهم ومذاهبهم سهل اتفاهم على الشرقيين ، لأن هؤلاء لا يعملون عمل العامل البصير باستخدام مصلحة هذه الدولة أو اغراض تلك الأمة لاصلاح شؤونهم ، بل لمعارضة دولة ثانية، وهي سياسة قديمة العهد لا تعتد بها أوروبا اليوم ، وأنت تعلم ان ألمانيا اكثر الدول في اوروبا استقراراً وابعدها استعماراً هي التي اقترحت تحديد مناطق النفوذ في الصين وهي التي سألت امتياز انشاء سكة حديد بغداد مما يدل لكم على ان اوروبا لاتسعي الا الى مصلحتها السياسية وما سوى ذلك فضلة عندها اوصعب على طبعها ثم قال لي : انت تقول إن الساسة المسلمين لا يعتقدون باخلاص سياسة أوروبا كلها او بعضها ، ولهذا يخافون من مصافاة هذه الدولة خوفهم من معاداة تلك لاسيا وان اكثر الدول طامعات في املاكهم ، وحضرتك اكدت ذلك في كلامك الآن عن سياسة اوروبا

والمسلمون يعتقدون أيضاً ان مصلحة أوروبا المسيحية تخالف مصلحتهم الاسلامية ولذلك لا يأمنون على أنفسهم من سياسة الدول المسيحية وقد أدى بهم فقدان هذه الثقة الى أن لا يأمنوا مسيحياً عثمانياً ولو اخلص لهم الخدمة وصدق معهم ، وهم يؤيدون سياستهم هذه لما رأوه من تداخل أوروبا في أعمالهم ومن افعال الموظفين غير المسلمين في المناصب السياسية العثمانية سواء في بلاد الدولة او في سفاراتها ، وانت تقول لي ان في ذلك بعض المغالاة ولكنهم يعذرون

فهذا الذي تقوله لي اليوم قد سمعته منك من قبل وقاله لي بعض العثمانيين في الأستانة وباريس، ولكن تنفيذ امر سهل واليك البرهان : لا يسعك والساسة

المسلمين ان تنكروا ان بعض دول اوربا قد اتفقت مع الدولة العثمانية على دول ثانية مسيحية في اوربا فان هذا حصل قولاً وفعلاً في حرب القريم فنحن وانكنا ترا لم نبخل بالمال والرجال لمساعدة دولتكم العثمانية ، ونحن وروسيا والمانيا منعنا بعض دول اوربا عن نيل أغراضها في المسألة اليونانية ، وهذه الدول الثلاث خدمت سلطنتكم أجل خدمة في المسألة الأرمنية بالرغم عن هياج الرأي العام الأوربي وتصريح بعض الدول بمعارضتكم وتلك أمور حديثة العهد يعرفها رجالكم كما تعرفها نحن وإذا راجعنا حوادث التاريخ القديمة تبين لنا أيضاً أن فرنسا وبلونيا وغيرهما حالفت العثمانية ضد دول ثانية مسيحية مما يدل على أن ضالة أوربا ومصحتها الاقتصادية فالسياسية ، ولا دخل للاعتقاد البتة في أعمالها ، ولعمرك هل منع المانيا كونها مسيحية أن تحارب أوستريا وفرنسا المسيحيين . أو لم تحارب ايطاليا أوستريا وهل منع فرنسا مذهبها الكاثوليكي من أن تحالف روسيا ومذهبها أرثوذكسي؟ وهكذا قل عن التحالف الثلاثي بين البرتستنتي الألماني ، والكاثوليكي النمساوي والاطالي ، وهذه الترسفال دينها كدين انكنا ترا ، وأهلها من أقرب العناصر الى الجنس السكوني ، وقد حاربها الانكنايز وغرضهم سلب استقلالها ، كل هذه شواهد قديمة العهد وحديثة ، تفند زعم حضرتك ومزاعم ساسة الشرق ، وإذا وجب أن يلوم المسلمون سياسياً مسيحياً بخدمهم ، فكما يجب أن يلوم ساستهم العبيدين . أفي مراكش مسيحي موظف ؟ وهل غير المسلمين قابضون على سياسة العجم ؟ ومتى كانت سياسة الدولة العلية الخارجية في غير أيدي المسلمين (*) ؟ فإذا كان ذلك السفير غير أهل لمنصبه ، أو أن رأيه مضر ببلاده ، فلماذا أبقى عليه وزير خارجيتكم أو الصدر الأعظم ؟ وهل قام ولا تكتم وجميعهم مسلمون بما تتطلبه حقوق الأمة ومصالحة الوطن ؟ نعم لأنكر أن تداخل أوربا أو بعضها نفركم ، ولكن بعض الحوادث التي حدثت في جهات عديدة من بلاد الشرق هي التي كانت سبب ذلك التداخل

(*) الجواب في كل زمن ولا يزال أكثر سفرانها وقناصلها وموظفو نظارة الخارجية من المسيحيين اه من حواشي الطبعة الاولى

واني أتساهل معك وأقول إن بعض دول أوروبا يريد لكم سوءاً ، وان هذا ولد فيكم عدم الثقة بنا نحن الاوربيين ، ولكن اذا كان قد استحال على دول الشرق وهي في أوج مجدها ، وشامخ عزها ، أن تتحد وتوحد كلمتها ، فهل يسهل ذلك عليها اليوم ؟ واذا كان المسلمون يعدون سياسة أوروبا عداء لمصلحة الاسلام لان أوروبا مسيحية « وهو زعم باطل » فهلا كان ماينادون به من وجوب الاتحاد الاسلامي وجمع كلمة المسلمين مما يخيف أوروبا ويمنعها عن انفاذ مايتبها به المسلمون وكيف يمكن ذلك الاتحاد المزعوم ؟ أترضى به أوستريا ولها البوسنة والمهرسك وهي طامعة في غيرها ؟ أم تقبل به فرنسا مع أملاكها الافريقية الواسعة ، أم تؤيده انكلترا وعدد رعاياها المسلمين عظيم ؟ أم تعضده روسيا ؟ أليس ذلك خرقا في الرأي من الذين ينادون بهذه السياسة ؟ كأني بهم هم الذين يريدون انفاذ ما يطلبه كيون وغيره من كتبة أوروبا ، وقد كان أولى لمثل أولئك الكتاب أن يكتبوا كتابات أدبية بلغات الكتبة الأوربيين لتفنيد أقوالهم ، ولاستماله الرأي العام الاوروبي اليهم

أما ما كان يجب عمله على رجالكم سواء الذين عر كتهم حوادث السنين الغابرة ، أو الذين درسوا في أوروبا وتعلموا بعض علومها ، ووقفوا على قليل من مبادئها وسياستها ، — فهو أن يهتموا بنشر العلوم العصرية في بلادهم ، وأن يعملوا في الخارج على إزالة سوء التفاهم الواقع بين الشرق والغرب بان يتخذوا إقدام أوروبا واجتهاد أبنائها مثالا يسيرون عليه ، وأنموذجا يعملون بموجبه ، أي كما فعل اليابانيون في السنين الأخيرة . وأنت تعلم أن الذي نبه اليابان هو خوفها من أوروبا وهي لم تتعز عن ضعفها باحتقار الاوربي وذمه والمباهاة بمجد الآباء ، ولم يقل ياباني بتحقير الأجنبي لأنه عنصر غريب ، أو لأنه مسيحي ودينه بعيد بمراحل عن دين أهل اليابان ، بل قال رجال هذه المملكة بوجوب محاربة أوروبا ، ولكن بسلاح أوروبا ، أي بان تتشبه بها في العلم والمدنية والاقدام ، ولهذا فازت في مطالبها وحالت دون فتوحات الاوربي الاقتصادية أولا ، فالسياسة ثانياً ، ولو آتى رجال الشرق القريب هذا المآتي منذ حرب القريم لما شكوا مسلم من أوروبا ، ولما شكوا كاتب أوربي من حال الشرق وأهله ، بل لو فعلوا وحدث انقلاب عظيم في السياسة

الاوربية سواء في اوربا او في الشرقين الاقصى والاقرب لكان دون شك حظ دولتكم العثمانية اضعاف حظوظ اعظم دولة اوربية

واراني في هذا الشرح قد بلغت ماقصده من تنفيذ مايزعمه رجالكم الذين اذا رجعوا الى نفوسهم عرفوا هذه الحقائق كما نعرفها نحن ، وقد كان يجب عليهم أن يجهروا بها خدمة لأمتهم ولوطنهم ، لأن يتجاهلوها ويكذبوها

وتقول لي إن النهضة العلمية بدأت في مصر ، وإن بعض الافراد انشأوا المدارس ، وإن الجناب السلطاني قد اهتم كثيراً بتوسيع نطاق المعارف في البلاد العثمانية ، وأن أصحاب النشأة الجديدة ادركوا قصور الحكم وتأخر البلاد فقاموا يجهرون بوجوب الاصلاح وتعميم العدالة ، والأمل وطيد بالنجاح ، ولكن الطفرة محال . وهذا أمر يسرني ويشرح صدري لأنني أرغب رغبة خالصة في نجاح شرقكم ، ولكن يجب أن تعلم أن العبرة ليست فقط في إقامة المدرسة، بل في وضع البر وغرامات المدرسية، كما أن العلم وحده لا يكفي ، وقد يضر اذا لم يمزج بالتهذيب ، فاني لأجهل أن كثيرين من أبناء الشرق درسوا في أوربا ، وقديروا عدمهم على عدد اليابانيين الذين درسوا في أوربا أيضاً ، ولكننا رأينا في اليابان نتيجة لم نرها حتى الآن عندكم ، ولعلنا نراها يوماً ما لأنني أعتقد أن رجال النشأة الجديدة ينجحون نجاحاً كاملاً اذا كان غرضهم خدمة الوطن منزهة عن كل غاية شخصية أو مذهبية ، لأن الوطن الواحد قد يجمع أكثر من عنصر ومعتقد ، ولكن الاعتقاد وحده لا يجمع إلا عنصراً واحداً ، وأنت تعلم أن الفرنسي يشمل الكاثوليكي والبروتستنتي والمسلم واليهودي والوثني وغيرهم من سائر رعايا فرنسا ، ولكن الكاثوليكي الفرنسي ، والفرنسوي الكاثوليكي ، أو الكاثوليكي أو المسيحي لا يشمل كل فرنسوي

لهذا كانت السلطة المدنية أهم وأشد من الرابطة الدينية، وهي التي كانت قاعدة أوربا الاولى في سياستها وبها تقدمت وتمدنت ونجحت . والى هنا قد أجبتك على جميع ماأردت أن تعرفه مني عن رأيي في الشرق اه

هذا آخر ماقله مدير الاهرام عن هانوتو ويلييه رد الاستاذ الامام عليه وهو

المقالة الرابعة

هانوتو والاسلام *

(وفيها بيان عناصر القوى في أوربة وهو سبعة)

أقلت إليّ المصادفة نسختين من إحدى الجرائد المشهورة في القطر المصري جاء بها حديث بين صاحب الجريدة ومسيو هانوتو صاحب الفصول المعروفة في الاسلام ولم أشك في أن كثيراً مما جاء في هذا الحديث صادر عن رأي مسيو هانوتو، لأنه لا يصدر الا عن عارف مثله بأحوال أوربا، وكثير من أحوال المشرق. ولهذا رأيت أن حرمانه من حظ النظر فيه، وتركه يمر بلا مناقشة معه في بعض ما تضمنه، يعد ظلماً له وجوراً عليه، خصوصاً ونسبة القول اليه مما يدع في أذهان الناس آراً لا يحسن السكوت عنه

وقد جاء في كلامه ما يدل على أنه قد أصيب بشيء من سوء الفهم في أحوال المسلمين وما انبعثت اليه نفوسهم اليوم، وسوء الفهم منشأ الشقاق والحصام بين أهل المقصد الواحد كما ذكره حضرته في مقال له سابق. فلا يليق بذئ غيرة على الحق، أن لا يوفيه من الاعتبار ما يستحق، وأرجو أن يترجم ما كتبه في جريدة المؤيد الفرنسية، وأن يرسل الى مسيو هانوتو ليقف على ما غاب عنه من مقاصدنا وأفكارنا

إن كان المسلمون اليوم ينتفعون بشيء، ويعتبرون بمثال، لم يكن أنفع لهم من الاعتبار بما جاء في كلام مسيو هانوتو، فقد أرشدهم الى عيوب فيهم لا يسعهم إنكارها، وهداهم الى مقاصد لطلاب الاستعمار في ديارهم قد شهدوا بالعيان آثارها، وصرح لهم بأن الاعتماد على العدالة في معاملة الدول ضرب من الخيال،

(١) نشرت في العدد ٣١٢٠ من جريدة المؤيد المؤرخ في ٢٨ ربيع الاول

سنة ١٣١٨

وعقد الآمال بانصاف الامم تلمس للحال ، وما على المهتم بحماية ذماره ، وطالب الطهر من عاره ، الا أن يندر كهم ويعمل عملهم ، ليبلغ من الحول حولهم ، فيفوقهم في القوة أو يكون مثلهم ، فيتعاوض في المنافع معهم معاوضة المالك مع المالك ؛ لا أن يتسلى بالأعاليل ، ويلهو بالأضاليل ، ويقنع بالأمانى ، ويكتفى من العمل بالصوت الجهوري واللفظ المطلي ، وهو من روح قائله خلي ، حتى اذا دهموه وهو في غفلته ، وأخذوه في نومه او يقظته ، بسط يده يلتمس الرحمة منهم ، ويرقب أن يفيض عليه سيب العدل عنهم ، فهذا عمل الجاهل الأحمق ، وهو بالذلة والاستعباد أحق

وهي نصيحة يجب على المسلم قبولها من أجنبي منه ، وكان يجب عليه من قبل أن يقبلها من أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فقد قال لخالد بن الوليد حين أرسله لحرب اليمامة « حاربهم بمثل ما يحاربونك به ، السيف بالسيف والرمح بالرمح » ولا يخفى أن كل نزاع فهو حرب ، وكل منافسة فيما هو عماد الحياة فهي جلاذ ، وكل عمل يأتيه أحد المتنافسين للظفر بمنافسة فهو جهاد ، وكل وسيلة تظفره بطلبته فهي سلاح ، وكل تجاذب أو تدافع بينها فهو كفاح ، وكل منفعة حفظها أو استخلصها منه فهي غنيمة ، وكل انخزال عن حق أو تقويت لمصلحة فهو هزيمة . فالظافر في ميدان المنافسة من كان رأيه أسد ، وقوته أشد ، وسلاحه أحد . فان قربت القوتان من التكافؤ أمكن بمصالح المتنافسين أن تتفق ، وسهل على كل منهما أن يرتفق ، وإلا استحال الاتفاق ، واستبدت القوي بالاتفاق ، بل صعب على الضعيف أن ينال حق البقاء ، سنة الله في عالم الأحياء .

وقد فصل مسيو هانوتو ما أجمله بعض أساتذتنا في قوله (العدل تكافؤ القوى) صرح مسيو هانوتو بأن أوربا بعد أن كانت لا تشتغل الا بما يجري فيها اندفعت الى الاستعمار ، ولا يردّها عنه الا قوة الأمم التي تريد الاستعمار فيها . وضرب المثل باليابان فانها بما ارتقت في المدنية ، وما أصلحت من شؤونها الداخلية ، وما أعدت لوقاية ممالكها ، وحماية مسالكها ، قد أذنت أوربا بقوتها ، وحملتها على الاقرار بمكانتها ، فحمت بلادها ومصالحها من صولتها ، وأمكنها

برهان القوة أن تؤلف بين منافعها ومنافع الاوربيين ، وهو قول حق ، وكان على المسلم أن يعرفه من قرون ، وله في كتابه المنزل خير هاد وأرشد مرشد ، وكان يكفيه منه آية (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) فقد دعت الآية الكريمة إلى الاعداد ، وطالبت ان يبلغ منه حد المستطاع ، ولا حد لما تستطيعه امة إذا صرفت قواها العقلية والجسدية فيما هيئت له . واطلقت له القوة ، وهي كل ما يقوى به على خصم ، ويقندر به على حماية نفسه وحوزته من اعتداء معتد ، أو يستطيع به استخلاص حق من يد معتصب ، وخير القوى ما حفظ به الحق ، وعظمت به المنفعة ، ووقف لهيبته كل المتنافسين عند حده ، حتى يستقر السلام بينهم ، وتشمل الطمأنينة شؤونهم

وقد تألفت قوى الأمم الأوربية من عناصر ، هي العلم والأدب والتجارة والصناعة والعدل والدين والسلاح . وذكرت الدين في جملة عناصر القوة ، لأن مسيو هانوتو لا ينكر أن أوربا تعتمد على الدين في سياسة الاستعمار ، وأن المرسلين والجمعيات الدينية من أهم الوسائل لديها في اعداد الشعوب الى قبول سلطانها عند سnoch الفرص لسوقه اليها ، وتهيئة نفوس الأمم لاحتمال ما ينقض به ذلك السلطان متى أظلمهم ، وفي فتح المغالق التي لا يستطيع السلاح وحده أن يفتحها ، وتهيئ السبل التي لا يمكن لساعد الجندي وحده أن يمهدها . وهو من الأمور المسلمة التي لا يجادل فيها عارف مثل هانوتو ، فلا حاجة للإطالة في بيانه ، غير اني أذكر قصة كنت شاهديها لأبأس بذكرها في هذا المقام

تعلم أحد أبناء جبل لبنان من بلاد سوريا في بعض مدارس الجمعيات الدينية الفرنسية في تلك البلاد ، وأخذ عن أساتذته كثيراً من آدابهم ، وطالع عدداً من مؤلفات كتابهم ، وامتلاً قلبه بحب فرنسا ، واستقر في ذهنه أنها منبع نور العلم والحريه ، وأنها محررة العالم أجمع من رق الاستبداد . ثم انتقل لكتب بعض الفلاسفة الفرنسيين ، ومؤلفات بعض السياسيين ، فعظم عنده الاعتقاد بأن هذه الأمة الجليلة إنما يهمها في سياستها أن تنشر المعارف في العالم لتهديب العقول ، وتكميل النفوس ، لتربيتها على أصول العقل وحرية الفكر . ورأي أن من

الزلفي عند الحكومة الفرنسية أن يذهب الى باريس ويسألها المعونة على انشاء مدارس في جبل لبنان بيني التعليم فيها على تلك الاصول السابقة ، فذهب الى باريس سنة ١٨٨٤ ، واتصل بأحد اذكاء السوريين الذين طاب لهم المقام في البلاد الفرنسية ، وطلب منه ان يكون وسيلته في نيل مايرغبه من معونة الحكومة ، فسعى الذكي سعيه . ثم عاد الى صاحبه وقال له : إن ما تخيلته ضرب من الوسواس . وإن الحكومة الفرنسية وإن كانت تطرد الجزويت من بلادها وتنازع الكنيسة في سلطتها ، لكن سياستها في الخارج دينية محضة . ويمكن أن تعرف ذلك من حمايتها للجزويت ، وإعانتها لهم بالمال والقوة في بلادك فان كنت تريد إنشاء مدارس دينية في بلاد لبنان كان أملاك في المساعدة قريباً . وإلا فارجم واشتغل بما يصلح شأنك الخاص بك . فرجع الشاب بالحنية بعد ما أقام مدة صرف فيها ما كان عنده من النقود ، ولم يجد من يساعده على الرجوع الى بلده إلا من رحمه من أصدقائنا اذ ذلك ، وكان لي حظ في مساعدته كما كنت شاهداً الحديث الذي رويته

فان لم يسع المسلم بعزم ثابت في تحصيل هذه العناصر التي سبق ذكرها أو تقوية ما ضعف عنده منها وهو مسلم كان مخالفاً لكتابه ، ولقول الصديق رضي الله عنه ، ومستحقاً للوم مسيو هانوتو . ولم تنفق له مصلحة مع مصالح الاوربيين الى يوم القيامة .

بقي علي الكلام مع هذا الوزير في أمرين الأول فيما فهمه من شأن المسلمين في هذه الأيام ، وما يسمونه دعوة الى توحيد كلمة المسلمين قاطبة ، وجمع السلطة الدينية والسياسية في شخص واحد . والأمر الثاني سوء ظن أكثر المسلمين بالسياسة الاوربية ، بل بالمسيحيين أجمع ، حتى وصل فقد الثقة بهم الى أن لا يأتئمنوا مسيحياً عثمانياً في عمل من أعماله ، وإن أخلص لهم الخدمة كما سمعه من صاحب هذه الجريدة الناشرة الحديث وغيره . وموعدي بذلك عدد آخر اه

المقالة الخامسة

هانوتو والاسلام

(شأن المسلمين اليوم وظهور دعوة فيهم الى توحيد كلمة المسلمين وجمع السلطة الدينية والسياسية في شخص واحد في جميع البلاد الاسلامية)
 أوكد لموسيو هانوتو أن هذه الدعوة لم يوجد لها أثر الى اليوم في بلد من بلاد المسلمين ، ولو خطأ خطوة الى معرفة أحوالهم على ما هي عليه لما خطر بباله أن يشير الى هذه الدعوة ، فضلا عن أن يبني عليها حكماً ، وأن معلق بالأوهام منها فأنما منشؤه سوء فهم بعض مسيحيي الشرق ، ثم انعكس ذلك في أذهان سياسيي المغرب ، وقد يكون لسوء نية بعضهم مدخل في تعظيم ما توهم فيها وإني أعرض الحقيقة كما هي ، لا يغشاها ستار من تمويه ، ولا غطاء من تليس ، وأرجو أن يكون في هذا البيان ما يقنع مسيو هانوتو بحسن مقاصد المسلمين اليوم في كلامهم عن الدين ، وما يرد أمثال صاحب الجريدة التي نشرت حديثه الى رشدهم ، حتى يتقوا الله في أنفسهم وأهل بلادهم ، ولا يتخذ بعضهم من السلم حرباً ، ولا من السكون شغباً

لا أنكر أن طائفاً من الدين طاف في هذه السنين الأخيرة بعقول بعض المسلمين في أقطار مختلفة من الارض . وأن نسمة من نفس الرحمن مرت بأنفس قليل من أهل الفضل فيهم ، فحركت ساكنهم ، وأثارت همهم الى النظر فيما كان عليه أهل هذا الدين ، وفيما صاروا اليه . وأن منهم من يتكلم بما يرى اذا وجد سبيلا الى الكلام . ومنهم من ينشر رأيه في كتاب أو جريدة اذا تهيأت له الوسائل لذلك . ثم يوجد متلدون لهؤلاء ، يقولون مالا يعلمون ، ويهرفون بما لا يعرفون . ولا كلام لنا في هذر المقلدين . وإنما كلامنا فيما يربي اليه غرض أولئك الناظرين

ظهر الاسلام لاروحيا مجرداً ، ولا جسدياً جامداً ، بل إنسانياً وسطاً

بين ذلك ، أخذ من كل من القليلين بنصيب ، فتوفر له من ملائمة الفطرة البشرية ما لم يتوفر لغيره ، ولذلك سمي نفسه دين الفطرة ، وعرف له ذلك خصومه اليوم وعدوة المدرسة الاولى التي يرقى فيها البرابرة على سلم المدينة . ثم لم يكن من أصوله « أن يدع ما لقيصر لقيصر » بل كان من شأنه أن يحاسب قيصر على ماله ، ويأخذ على يده في عمله . جاء هذا الدين على الوجه الذي ذكرنا ، فهدى ضالا ، وألأن قاسياً ، وهذب خشناً ، وعلم جاهلاً ، ونبه خاملاً ، وأثار الى العمل كسلاً ، واقدّر عليه وِ كلاً ، واصلح من الخلق فاسداً ، وروح من الفضيلة كاسداً . ثم جمع متفرقا ، ورأب منصدعا ، واصلح مختلا ، ومحاذظا ، وأقام عدلا ، وجدد شرعا ، ومكن الامم التي دخلت فيه نظاماً ، امتازت به عن سواها ممن لم يدخل فيه . فكان الدين بذلك عند اهله كلالاً للشخص ، والفة في البيت ، ونظاماً للملك ، وظهرت به آثار النعمة عليهم في جميع شؤونهم . ولم يفت العلم حظ من عنايته . بل كان قائده في جميع وجوه سيره . فان شاء قاتل ان يقول : إن الدين لم يعلمهم التجارة ولا الصناعة ، ولا تفصيل سياسة الملك ، ولا طرق المعيشة في البيت ، لم يسعه أن ينكر انه اوجب عليهم السعي الى ما يقيمون به حياتهم الشخصية والاجتماعية ، واوجب عليهم ان يحسنوا فيه ، وإباح لهم الملك وفرض عليهم ان يحسنوا الملكة . وما ظنك بدين يقول خليفته الثاني وهو في المدينة من بلاد العرب « لو ان سخلة بوادي الفرات اخذها الذئب لسئل عنها عمر » ويقول خليفته الرابع « أقتنع من نفسي بأن يقال امير المؤمنين ولا اشاركم في مكاره الدهر ، أو اكون أسوة لهم في جشوبة العيش » — أي خشوته — يريد بذلك ان يساوي المساكين في العيش ليكون قدوة الأغنياء في الاحسان . وأسوة الفقراء في حسن الصبر

هكذا كان الاسلام مهذاراً للمسلمين يحثهم إلى جلائل الاعمال ، ومصباحاً لبصائرهم يسترشدون به في استغراق الاحوال وتقويم الافكار ، وعاطفاً يعطف قلوبهم على الأمم بالعفو والمرحمة وحسن المعاملة ، حتى رضيتهم الارض سادة لها وقادة لسكانها ، وكان من امرهم وامره ما هو معلوم

افبعد هذا يعجب عاقل اذا رأى المسلم يرضى مارضيه هذا المرشد الحكيم ويمتق مامته؟ ايدهشه ان يرى المسلم يهزأ بكل مالم يعتقد سائقاً في دينه وإن كان فيه ملك الأرض أو ملكوت السموات بعد ماشهد المسلم من آثر نعمة الله عليه في هذا الدين ماشهد؟ لا يعجب في ذلك فانه نتيجة ضرورية ينساق اليها الأمر بنفسه، بحكم سنة الله في خلقه

وأسفاً!! لم يبق للمسلم من الدين إلا هذه الثقة فيه . أما الدين نفسه فقد انقلب في عقل المسلم وضعه ، وتغير في مداركه طبعه ، وتبدلت في فهمه حقيقته ، وانطمست في نظره طريقته ، وحق فيه قول علي كرم الله وجهه «ان هؤلاء القوم قد لبسوا الدين كما يلبس الفرو مقلوبا» .

لأبجث اليوم في الأسباب التي وصلت بالدين في نفس المسلم الى ما ذكرت ، ولكن أقول ولا أخشى منكرأ لما أقول : قد دخل على المسلم في دينه ما ليس منه ، وتسرب في عقائده من حيث لا يشعر مالا يتصل بأصلها ، بل ما يهدم قواعدها ويأتي على أساسها . عرضت البدع في العقائد والاعمال ، وحات محل الاعتقاد الصحيح ، وأخذت مكان الشرع القويم ، وظهرت آثارها في أعماله ، وعم شؤونها جميع أحواله

ان صح لفظ الحديث « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة »^(١) أو لم يصح فالقرآن يؤيد معناه ، وعمل الاولين من المسلمين يحقق صحة ما حواه ، فالرجل والمرأة سواء في الخطاب التكليفي ، وكان سواء في علم ما يجب عليهما من فرائض الاسلام ، وخصال الايمان ، وفي طلب العلم بما يلزم لصلاح معادهما ومعاشهما ، وبما تحسن به المعاملة مع من يتصل بهما قرب أو بعد على تفصيل معروف في كتاب الله وسنة رسوله ، وعمل الصالحين من بعده ، حتى لم يبق باب من أبواب العلم إلا دخل منه بقدر الاستطاعة وما يسمح الزمان .

(١) الحديث رواه ابن ماجه وغيره من طرق كثيرة ضعفها بعضهم ولكن قال الحافظ العراقي قد صحح بعض الائمة بعض طرقه وليس فيه لفظ مسلمة ولكن المعنى يشملها بالاجماع

ضل المسلم بعد ذلك في معنى العلم ، فظنّ الرجل أن غاية ما يفرضه الدين منه معرفة فرائض الوضوء والصلاة والصوم في صورة أدائها ، أما ما يتعلق بسر الاخلاص فيها ، ووسيلة قبولها عند الله ، فذلك مما لا يخطر له ببال إلا القليل النادر . وأما آداب الدين وتهذيب الروح ، واستكمال الحاصل الجليلية مما جعله الاسلام غاية العبادات ، وثمرة الاعمال الصالحات ، فهو مع انه اهم علوم الدين مما لا توجه اليه عزيمة ، ولا تنصرف نحوه ارادة ، اللهم إلا من أشخاص قلائل منشورين في أطراف الأرض لا ترقى بهم أمة ، ولا تسمو بهم كلمة

أما من ينقطعون لطلب العلوم ليحصلوا جملة منها فقد انقسموا إلى فريقين الاول من يظن أنه وارث علوم الدين والقائم بحفظها ، وقد قلّ أفراده في معظم البلاد الاسلامية ، ولم يبق منه إلا رسوم لا يكاد لا يدركها نظر الناظر ، والمشتغلون منهم في بعض البلاد كصر والاستانة ، فانما حظ الذكيّ منهم وقليل ما هم أن ينظر في كتب مخصوصة عينها له الزمان وضعف العرفان ، ويفهمها بمعنى أن يثق أن هذا اللفظ دال على ذلك المعنى ، ومتى تم له ذلك فقد استكمل العلم ، سواء سلم له عقله ودينه وأدبه بعد ذلك أم لم يسلم ، فكان مثاهم مثل من ورث سلاحا هم أن ينظر اليه ويملاً عينه منه ، ولا يمد يده اليه يستعمله او يزيل الصدأ عنه ، فلا يلبث أن يأكله الصدأ ، ويفسده الحثب ، ويزعمون أن الدين يصدعهم وراء ما عرفوا من العلوم النافعة ، ومن رأي هؤلاء ان لاشأن لهم مع العامة ولا يجب عليهم ان يأمرؤا بمعروف ولا أن ينهؤا عن منكر ، وقد ارتكبوا بذلك خطأ في فهم دينهم لا يساويه في سوء عاقبته خطأ ، وللكثير منهم بل الاغلب من سوء الفهم في الدين مالا حاجة الى عده ، ولا يخفى ان ما يحصله هذا الفريق في العلم لا يظهر له ادنى اثر في صلاح الأمة كما هو مشهود

والفريق الثاني من يهيوه اولىاؤه لنيل منصب من مناصب الحكومة عال أو سافل ، وأفراد هذا الفريق إن كثروا أو قلوا يحصلون مبادي العلوم المعروفة بالعلوم العصرية ، ثم يحصل كل واحد مابه ينال المنصب الذي يعده له والدعا على ان ما يحصل إما لفظ يحفظ او خيال يمحزن والمدار على الوصول إلى ورقة

الشهادة ، ومن هؤلاء من يذهبون إلى اوريا لاستعمال التريسة فيها ، ولا غاية لهم سوى هذه الغاية ، فمن أصاب منهم بعد ذلك وظيفة قنع بها ، وحصر همه على العمل فيها ، ومن لم يجد وقف على الابواب ينتظرها ، فاذا ملّ الانتظار او تقضي زمن العمل وجدته في قهوة او ملهى يسرف في اوقاته ، أو يفسد في ادواته ، والصالحون منهم - وقليل مالم - لا يهتم شأن العامة شقيت ، أو سعدت ، هلكت أو قامت ، فاي أثر لما تعلمه هؤلاء يظهر في الأمة ، وأستثنى منهم شواذ في كل بلد على ضعفهم ، يرجى أن ينمو عددهم ، وتنجي الأمم بمار أعمالهم ، هذا شأن الرجال مع العلم

وأما النساء فقد ضرب بينهن وبين العلم بما يجب عليهن في دينهن أودنيانهم بستار لا يدري متى يرفع ، ولا يخاطر بالبال أن يعلن عقيدة ، أو يؤدين فريضة ، سوى الصوم ، وما يحافظن عليه من العفة ، فانما هو بحكم العادة وحارس الحياء ، وقليل جداً من موروث الاعتقاد بالحلال والحرام ، وحشو أذهانهم الخرافات ، وملاك أحاديثهن الترهات ، اللهم إلا قليلاً منهم ، لا يستغرق الدقيقة عدنهم ، وكل من الرجال والنساء يعد نفسه مسلماً ، بعدها الجنة ويمنيها السعادة

اخطأ المسلم في فهم معنى التوكل والقدر فال إلى الكسل ، وقعد عن العمل ، ووكّل الأمر إلى الحوادث ، تصرفه حيثما تهب ريحها ، ويظن أنه بذلك يرضى ربه ويوافي رغائب دينه

اخطأ المسلم في فهم ماورد في دينه من أن المسلمين خير الأمم ، وأن العزة والقوة مقرونتان بدينهم أبدالدهر ، فظن أن الخير ملازم لعنوان المسلم ، وأن رفعة الشأن تابعة للفظه ، وإن لم يتحقق شيء من معناه ، فان أصابته مصيبة ، أو حلت به رزية ، تسلى بالتضاء ، وانتظر ما يأتي به النيب ، بدون أن يتخذ وسيلة لتدفع الطارىء ، أو ينهض إلى عمل لتلافي ما عرض من خلل ، أو مدافعة الحادث الجلل ، مخالفاني ذلك كتاب الله وسنة نبيه

اخطأ المسلم في فهم معنى الطاعة لأولي الأمر والاقتياد لأوامرهم ، فالتى مقاليد إلى الحاكم ، ووكّل اليه التصرف في شؤونه ، ثم أدبر عنه ، حتى ظن أن (٥٨ - تاريخ الاستاذ الامام - الجزء الثاني)

الحكومة يمكنها القيام بشؤونه جميعها من ادارة وسياسة بدون أن يكون لها منه عون سوى الضريبة التي تفرضها عليه . ومن رأى حزن الآباء اذا طلب أبناؤهم لأداء الخدمة العسكرية ، وما يبدون من السعي في تخليصهم منها ، حكم بأن ما يعقله أكثر المسلمين من معنى الحكومة لا يمكن انطباقه على شيء من أوليات العقل ، وعرف أن ثقتهم بالحاكم قد بلغت إلى حد التأليه، من حيث ظنوه قادراً على كل شيء ، بدون عون من أحد، وانقلبت تلك الثقة إلى الادبار والتخلي عنه من حيث إنهم تركوه وشأنه لا يساعده في حادث ، ولا يعينونه في أمر مهم ، اللهم إلا اذا أرغوا على ذلك ، ومن ذا الذي يحسن عملاً اذا ألجىء اليه بالرغم منه ؟ ومن هنا انصرف المسلم عن النظر في الأمور العامة جملة ، وضعف شعوره بحسنها وقيبحها ، اللهم إلا ما يمس شخصه منها

وأما الحكام، وقد كانوا أقدر الناس على انتيash الأمة مما سقطت فيه، فاصابهم من الجهل بما فرض عليهم في اداء وظائفهم ما أصاب الجمهور الأعظم من العامة، ولم يفهموا من معنى الحكم إلا تسخير الأبدان لأهوائهم ، واذلال النفوس لحشونة سلطاتهم ، وابتزاز الأموال لأفئادها في ارضاء شهواتهم ، لا يراعون في ذلك عدلاً، ولا يستشيرون كتاباً ، ولا يتبعون سنة ، حتى أفسدوا أخلاق الكافة بما حملوها على النفاق والكذب والغش والافتداء بهم في الظلم ، وما يتبع ذلك من الخصال التي مافشت في أمة إلا حل بها العذاب .

هذا كله إلى ما حدث من بدع أخرى من مذاهب شتى في العقائد ، وطرق متخالفة في السلوك ، وأراء متناقضة في الشرائع ، وتقليد أعمى في جميع ذلك ، ففترقت المشارب ، وتوزعت المنازع ، وعظم سلطان الهوى على أرباب النزعات المختلفة ، كل يجذب إلى نفسه ، لا ينظر إلى حق ، ولا يفرغ من باطل ، وإنما هم أن يظفر بخصمه ، وذلك الخصم هو ما يدعوه أخاه في الاسلام ، في معرض التشدق بالكلام

وزد على ذلك — وهذا أكبر بدعة عرضت على نفوس المسلمين في اعتقادهم — وهي بدعة اليأس من أنفسهم ودينهم، وظنهم أن فساد العامة لا دواء له ، وأن ما

نزل بهم من الضر لا كاشف له ، وأنه لا يمر عليهم يوم إلا والثاني شر منه: مرض سرى في نفوسهم ، وعلّة تمكنت من قلوبهم ، لتركهم المقطوع به من كتاب ربهم ، وسنة نبينهم ، وتعلقهم بما لم يصح من الاخبار ، أو خطائهم في فهم ماصح منها ، وتلك علّة من أشد العلل فتكاً بالارواح والعقول ، وكفى في شاعتها قوله جل شأنه (إنه لا يئأس من روح الله إلا القوم الكافرون)

تبع هذه البدع جميعها وأخرى يطول ذكرها هُزال في الهمم ، وضعفة في العزائم ، وفساد في الاعمال ، ينتديء من البيت وينتهي إلى الأمة ، ويمر في كل طبقة ، ويجول في كل دائرة ، خصوصاً من دوائر الحكومات ، وما يرمى به المسلمون من التعصب الديني الأعمى فانما عرض على أقوام في بعض البلاد الاسلامية تبعاً لهذه البدع الضالة ، على أنني لا أسلم انهم بلغوا فيه ادنى درجاته في الأمم المسيحية شرقية كانت أو غربية ، والتاريخ شاهد لا يكذب

هذا ما أصاب المسلمين في عقولهم وعزائمهم واعمالهم ، بسبب ابتداعهم في دينهم وخطائهم في فهم أصوله ، وجهالهم بادنى ابوابه وفصوله ، لهذا سلب الله عليهم من يسلبهم نعمة لم يقوموا بشكرها ، وينزل بهم من عقوبة الكفران ما لا قبل لهم بدفعه ، إلا اذا تداركهم الله بلطفه ، وقد ابتلاهم بمن يلصق بدينهم كل عيب ، ويقرنه اذا ذكره بما يتبرأ منه ، ويعده حجاباً بين الأمم والمدنية ، بل يعده منبع شقائهم ، وسبب فناءهم

تنبه لذلك أفراد من عقلاء المسلمين في أواسط القرن الماضي من سني الهجرة في أقطار مختلفة من بلاد فارس والهند وبلاد العرب ، ثم في مصر ، وكل منهم بحث في الداء وقدر له الدواء بحسب فهمه على تقارب بينهم ، واعلمهم يلتقون يوماً من الأيام عند الغاية إن شاء الله

مقصد الجميع ينحصر في استعمال ثقة المسلم بدينه في تقويم شؤونه ، ويمكن أن يقال إن الغرض الذي يرمي اليه جميعهم إنما هو تصحيح الاعتقاد ، وإزالة ما طرأ عليه من الخطأ في فهم نصوص الدين حتى اذا سلمت العقائد من البدع تبعها سلامة الاعمال من الخلل والاضطراب . واستقامت أحوال الأفراد . واستضاءت

بصائرهم بالعلوم الحقيقية دينية ودنيوية . وتهذبت أخلاقهم بالملكات السليمة وسرى الصلاح منهم إلى الأمة . فاذا سمعت داعياً يدعو إلى العلم بالدين فهذا مقصده . أو منادياً يحث على الترية الدينية فهذا غرضه . أو صائماً ينكر ما عليه المسلمون من المفاسد فذلك غايته . وهذه سبيل لمريد الاصلاح في المسلمين لاندوحة عنها ، فان اتيانهم من طرق الأدب والحكمة العاربية عن صبغة الدين ، يحوجه إلى انشاء بناء جديد ليس عنده من مواده شيء ، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحداً ، واذا كان الدين كافلاً بتهديب الاخلاق ، وصلاح الاعمال ، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها ، ولأهله من الثقة به ما يبناه ، وهو حاضر لديهم ، والعناء في ارجاعهم اليه أخف من احداث مالا يلام لهم به ، فلم العدول عنه إلى غيره !!

لم يخطر ببال أحد ممن يدعو إلى الرجعة إلى الدين سواء في مصر أو غيرها أن يثير فتنة على الاوربيين ، أو غيرهم من الأمم المجاورة للمسلمين ، غير أن بعض المسيحيين اذا سمع قولاً في الدين اعرض عن فهمه ، وانشأ لنفسه غولاً من خياله يخاف منه ويخشى غائلته يسميه باسم الدين ، وبعضهم يظن أنه لو اتبته المسلمون إلى شؤونهم ، ورجعوا إلى الأخذ بالصحيح من دينهم ، لاعتصموا بجماعتهم ، واستعانوا على تقويم أمورهم بأنفسهم ، واستغنوا عن ادخلوه في أعمالهم من غيرهم ، فيحرم الكثير من المسيحيين تلك المنافع التي نالوها بفعلتهم ، وهو سوء ظن من الزاعم بنفسه ، فانه بظنه هذا يعتقد انه غاش مغرر ، وسالب متلصص ، وسوء ظن بالمسلمين أيضاً فان أهل الوطن الواحد لا يستغني بعضهم عن بعض مما ارتقت معارفهم ، وعظم اقتدارهم على الاعمال . وغاية الأمر أن ما كان ينال اليوم بدون حق ، يصبح وهو لا ينال إلا بحق ، والاجنبي الذي كان ينفق الواحد ويربح المئتي يرجع إلى الاعتدال في الكسب ، ويحتاج إلى شيء من التعب في استيراد الربح . وقد كان المسيحيون عاملين في الدول الاسلامية وهي في عنفوان قوتها . والاجانب يطلبون الكسب في ارجائها ، وهي في ارفع مقام من عزتها نعم يعرض في طريق الدعوة إلى الدين على هذا اوجه ، أن يلتمس مسلم بمصر

معونة من مسلم آخر بسورية أو بالهند أو بالمجم أو بفغانستان ، أو بغير هذه الأقطار ، لأن مرض الجميع واحد ، وهو البدعة في الدين ، فاذا نجح الدواء في موضع كان السليم أسوة للمريض في موضع آخر . وأما السعي في توحيد كلمة المسلمين وهم كما هم . فلم يمر بعقل أحدهم ، ولو دعا اليهداع لكان أجدر به أن يرسل إلى مستشفى المجانين يكتب بعض أرباب الأقلام من المسلمين في حكمة الحج ، ويقول : إنه صلة بين المسلمين في جميع أقطار الأرض ، ومن أفضل الوسائل للتعاون بينهم . فعليهم أن يستفيدوا منه ، وهو كلام حق . لكن لا ينبغي أن يفهم على غير وجهه . فإن الغرض منه أن يذكر المسلمون ما بينهم من جامعة الدين ، حتى يستعين بعضهم ببعض على إصلاح ما فسد من عقائدهم ، أو ضل من أعمالهم . وفي مدافعة ما ينزل بهم من قحط أو ظلم أو بلاء ، وهو أمر معهود عند جميع الأمم التي تدين بدين واحد ، خصوصاً عند الاوربيين

يكثر المسلمون اليوم من ذكر الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد ، ويعلقون آمالهم بهمه ،^(١) وكثير منهم يدعو الى عقد الولاة له ، وهذا أمر لا ينبغي أن يدهش ، فإن هذه الدولة هي أكبر دول الاسلام اليوم ، وسلطانها أخمس سلاطينهم ، ومنه يرتجى إنقاذ ما بين يديه من المسلمين لما حلّ بهم ، وهو أقدر الناس على إصلاح شؤونهم ، وعلى مساعدة الداعين إلى تمحيص العقائد وتهذيب الأخلاق بالرجوع الى أصول الدين الطاهرة النقية . فأى شيء في هذا يزعج أوربا حتى تتحد على هضم حقوق المسلمين إذا حدثت حوادث مثل الحوادث الماضية كما يقول مسيو هانوتو

بقي الكلام على جمع السلطة الدينية والسياسية في شخص واحد يقول فيه مسيو هانوتو : إن أوربا لم تتقدم الا بعد أن فصلت السلطة الدينية من السلطة المدنية ، وهو كلام صحيح . ولكنه لا يدري ما معنى جمع السلطتين في شخص عند المسلمين . لم يعرف المسلمون في عصر من الأعصر . تلك السلطة الدينية التي

(١) كانت الآمال فيه بقية الى عهد كتابة هذا المقال ولم تلبث أن زالت قبل زواله ثم أسقطه رجال دولته ثم أسقطوا الدولة نفسها دولة آل عثمان الكبرى اهل الطبعة الثانية

كانت للبابا على الأمم المسيحية عند ما كان يعزل الملوك ، ويحرم الأمراء ، ويقرر الضرائب على الممالك ، ويضع لها القوانين الالهية . وقد قررت الشريعة الاسلامية حقوقا للحاكم الأعلى ، وهو الخليفة أو السلطان ، ليست للقاضي صاحب السلطة الدينية . وإنما السلطان مدير البلاد بالسياسة الداخلية ، والمدافع عنها بالحرب أو السياسة الخارجية ، وأهل الدين قائمون بوظائفهم ، وليس له عليهم الا التولية والعزل ، ولا لهم عليه الا تنفيذ الأحكام بعد الحكم ، ورفع المظالم إن أمكن . وهذه الدولة العثمانية قد وضعت في بلادها قوانين مدنية ، وشرعت نظاما لطريقة الحكم وعدد الحاكمين وملهم ، وسمحت بأن يكون في محاكمها أعضاء من المسيحيين وغيرهم من الملل التي تحت رعايتها . وكذلك حكومة مصر أنشئت فيها محاكم مختلطة ومحكم أهلية بأمر الحاكم السياسي ، وشأن هذه المحاكم وقوانينها معلوم . ولا دخل لشيء من ذلك في الدين . فالسلطة المدنية هي صاحبة الكلمة الأولى كما يطلب مسيو هانوتو . ولكن مع ذلك لم يظهر نفعها في صلاح حال المسلمين ، بل كان الأمر معكوساً ، فإن أمراءنا السابقين لو اعتبروا أنفسهم أمراء الدين ، لما استطاعوا المجاهرة بمخالفته في ارتكاب المظالم ، والمغالاة في وضع المغارم ، والمبالغة في التبذير الذي جر الويل على بلاد المسلمين ، وأعدمها أعز شيء كان لديها وهو الاستقلال

إن فرنسا تسمي نفسها حامية الكاثوليك في الشرق ، وملكة انكلترا تلقب بملكة البروتستانت ، وامبراطور روسيا ملك ورئيس كنيسة معاً ، فلم لا يسمح للسلطان عبد الحميد أن يلقب بخليفة المسلمين أو أمير المؤمنين ؟
لا أظن أن موسيو هانوتو يسيء الظن بدعوة دينية على الوجه الذي بيناه ، وأظنه يكون عوناً للمسلمين على تعضيدها في البلاد الاسلامية الفرنسية اذا وجد فيها من يقوم بها ، وأنا أضمن له بعد ذلك أن تتفق مصالح المسلمين مع مصالح الفرنسيين . فان المسلمين اذا تهذبت أخلاقهم بالدين ، سابقوا الاوربيين في اكتساب العلوم وتحصيل المعارف ، ولحقوا بهم في التمدن ، وعند ذلك يسهل الاتفاق معهم إن شاء الله

المقالة السادسة

في الرد على هانوتو

سوء ظن المسلمين بسياسة أوروبا كلها ، وعدم ثقة سياسيمم بدولة من الدول واعتقاد المسلمين بأن مصلحة أوروبا المسيحية تخالف مصلحتهم الاسلامية ، وعدم اطمئنانهم الى سياسة الدول المسيحية ، حتى أدى بهم فقدان الثقة بالمسيحيين الى أن لا يأتمنوا مسيحياً عثمانياً ولو أخلص لهم الخدمة وصدق معهم — سمع بذلك كله مسيو هانوتو من صاحب الجريدة المعروفة^(١) ومن بعض العثمانيين في الاستانة وباريس . ثم أخذ يرهن على أن سياسة أوروبا اقتصادية مملكية لادينية لاهوتية . لا أدري من هم المسلمون الذين وصفهم موسيو هانوتو ؟ ومن ابلغه أخبارهم ؟ أم الهنود وهم في حكم دولة أجنبية ولا نزال نرى في خطبهم وجرائدهم ما يدل على طاعتهم لحكامهم ، وتعليقهم الآمال بعدهم والتماسهم الحق من طرفه . هل هم مسلمو روسيا وثقتهم بحكومتهم وثقة حكومتهم بهم لا تخفى على أحد ، حتى إن الدولة الروسية تفضلهم على المسيحيين من غير المذهب الاورثوذكسي . هل هم الأفغانيون ؟ واخلاص أميرهم في مصافاة الانكايز أشهر من أن يذكر ولا ينفي إخلاصه حرصه على بلاده ، ومحافظته على مصلحتها . هل هم الفرس ؟ واستنابتهم الى السياسة الروسية لا يجعلها أحد ؟ هل هم المراكشيون وهم بمعزل عن كل ما يسمى سياسة ، بل هم في غفلة عن الدين والدنيا جميعاً شغل بعضهم ببعض ، فلا ينفكون يتقاتلون ويتسالبون حتى يقضي الله فيهم بقضائه . هل هم التونسيون وقد أثني عليهم موسيو هانوتو بما هم أهله ، وثبت له ارتياحهم الى السلطة الفرنسية بمجرد ما أطلقت لهم الحرية في دينهم لعلة لم يقصد الا العثمانيين كما يدل عليه بقية كلامه ، وكما يفيدده قوله أن

لا يأتعنوا مسيحياً عثمانياً ، والعثمانيون منهم المصريون ومنهم غيرهم . فأما المصريون فلا شيء ، عندم يدل على عدم الثقة بالأوربيين وبالمسيحيين العثمانيين فانهم يشاركون في العمل مواطنهم من الأقباط في جميع مصالح الحكومة ماعدا المحاكم الشرعية الخاصة بالمسلمين ، وهم معهم في غاية الوفاق ، خصوصاً أهل الاخلاص وسلامة النية منهم ، ولكل من الفريقين أصدقاء وأحبة في الفريق الآخر . ثم شأنهم هو ذلك الشأن مع سائر الطوائف المسيحية ، الا من ظهر منهم بالتعصب البارد للدين ، وآذاهم في دينهم أو في منافعهم الخاصة بهم ، لا شيء سوى التعصب الأعمى ، ولا نطلب على ذلك شاهداً أقرب من صاحب الجريدة الذي يحادته موسيو هانوتو إنه بعد ان كان على المسلمين اثناء الحرب الروسية العثمانية ، وبعد أن أتى ما أتى عقب الحوادث العراقية شهد له المسلمون بأنه صديقهم ، والساعي في خيرهم ، كما افتخر بذلك مراراً في جريدته ، وإن كانت له اليهم هنات لاتزال تبدو من فيه الى وقت ذلك الحديث . فأين فقد هذه الثقة بالعثمانيين المسيحيين في مصر؟ هل طرد أحد من خدمة الحكومة لأنه مسيحي عثماني؟ هل حرم أحد حق الحماية ! أو إنشاء الجرائد أو المطابع؟ أو إقامة المصانع ، أو تأسيس البيوت التجارية لأنه مسيحي عثماني؟ فليات صاحبنا بشاهد واحد

وأما حالهم مع الاوربيين ، فاننا نراهم إذا أحسوا ببدل من انكليزي ذكروه ، أو وصل اليهم معروف من أي عامل أوربي شكروه ، بل أزيدك على هذا أن المستغيث منهم بالحكومة يطلب منها أن يتولى تحقيق مظلمته انكليزي ، كما شوهد ذلك كثيراً في شكاياتهم . وليس بقليل من يعرض شكواه على جناب اللورد كرومر ، وهو ليس بمحکم رسمي ، فأى دليل على الثقة أكبر من هذا؟ ليس بقليل في مصر من يثق بالفرنساويين ، ومن له بينهم أصدقاء يركن

اليهم ويعتد بولايتهم وموسيو هانوتو وصاحب الجريدة يعرفان كثيراً ما أغرى الأوربيون من فرنساويين وأمريكيين من أرباب المدارس في مصر شباناً من المسلمين بالمروق من دينهم والدخول في الديانة المسيحية ،

وفروا ببعضهم من القطر المصري الى البلاد الأجنبية ، وأحرقوا كبد والديه .
ومع ذلك لانزال نرى المسلمين يرسلون اولادهم الى مدارسهم ، وناظر المعارف
عندنا وزير مسلم واولاده يتربون في مدارس الجزويت ، وكثير من ابناء الاعيان
في مدارس الفرير . فأي اثمان يفوق هذا الاثمان

زادت ثقة المصريين من المسلمين بالاوربيين ، خصوصاً في المعاملات ، حتى
اساء اولئك الاوربيون استعمالها ، واتهزوا فرصتها فسلبوا كثيراً من اهل الثروة
ما كان بأيديهم . ومع ذلك فهم لا يزالون يأمنونهم ويفالون في الاستقامة اليهم ،
ويقلدونهم فيما يخالف دينهم وعوائدهم ، فماذا يطلب من الثقة فوق هذا ؟ !

هل يشكو عقلاء المسلمين في مصر من شيء مثل ما يشكون من الثقة العمياء
بالأجنبي من غير تمييز فيما هو عليه من إخلاص او غش ، من صدق او كذب ،
من امانة او خيانة ، من قناعة او طمع ؟ حتى آل الأمر بالناس الى ما آل
اليه من خسارة المال وسوء الحال . فهل هذا هو فقد الثقة بالأوربيين والعثمانيين
المسيحيين الذي يعنيه حضرة صاحب الجريدة وجناب موسيو هانوتو ؟

وأما العثمانيون من غير المصريين فاذا ارتقينا الى الدولة وسلطانها أيده الله
وجدنا أن نظام الدولة قاض باستعمال المسيحيين في ادارتها ومحاكمها في كل بلد
فيه مسيحيون ، والمأمورون من المسيحيين ينالون من النياشين والرتب ما يناله
المسلمون على نسبة عددهم أوفوق ذلك ، وكثير من المسيحيين نالوا من
الامتيازات والمنافع في الدولة مالم ينله مسلم ، وسفارات الدولة ومناصبها العالية
لا تخلو من المسيحيين *)

إقبال السلطان على رؤساء الطوائف المسيحية وانعامه عليهم بوسامات

*) كان قبل هذا العهد جميع سفراء الدولة أو أكثرهم من النصراني ولا سيما
الارمن حتى انتقد ذلك وزراء تلك الدول : أخبرني الغازي أحمد مختار باشا ان الرئيس
بسمارك الشهير قال له انهم متعجبون من ذلك وانه هو لا يمتد بتمثيل رجل نصراني
لدولة اسلامية يعد سلطانها خليفة بين المسلمين وقال له أنا أطلب سفيراً مسلماً
أعرف منه شعور أمته بل أريد سفيراً معهما !!

الشرف ، واختصاصه لبعضهم بشرف الثول في حضرته والاحسان اليه برقيق
 المحاطبة لا ينقطع ذكره من الجرائد ، صاحب الجريدة التي نقلت الحديث
 أمثل شاهد على مثل ذلك ، فقد جاهر زمنا ليس بالقصير بما لا ترضى الدولة
 بمثله ولا بأقل منه من مسلم ، ثم سهل عليه وهو مسيحي ان يكون موضع ثقة
 للجناب السلطاني حتى أدناه منه ، وقبله في مجلسه ، وسمع منه أمير المؤمنين
 تلك النصيحة المفيدة التي نشرها في جريدته من نحو شهرين ، إثر هبوبه لنصرة
 مسيو هانوتو ، ثم الى عليه إحسانه بالرتب والنياشين وغيرها ، فما هي الثقة
 إن كان هذا فقدها ؟

وأما سياسة الدولة الخارجية ، فالفرنساويون يشكون من مصافاة السلطان وثقته
 بدولة ألمانيا ، وهي دولة مسيحية ، ولا أظنهم يشكون من ثقة أخرى بدولة اسلامية ،
 وكانت للدولة ثقة لا تنزعزع بالسياسة الانكليزية ، ثم حدثت حوادث أهمها نشأ من
 ضعف سياسة موسيو غلادستون ، فأعقبها اضطراب في تلك الثقة مدمرة من الزمان بحكم
 الضرورة ، ثم انا نراها اليوم تتراجع ، وفي رجال الدولة من لهم ثقة بصداقة روسيا ،
 ويودون لومات اليها سياسة الدولة ، وهم مسلمون

والذي أحب أن يعرفه موسيو هانوتو ان سياسة الدولة العثمانية مع الدول
 الأوروبية ليست بسياسة دينية ، ولم تكن قط دينية من يوم نشأتها إلى اليوم ، وإنما
 كانت في سابق الأيام دولة فتح وغلبة ، وفي أخرياتها دولة سياسة ومدافعة ، ولا
 دخل للدين في شيء من معاملاتها مع الأمم الأوروبية

امبراطور ألمانيا جاء إلى سورية للاحتفال بفتح كنيسة ، فبالغ السلطان في
 الاحتفال به إلى الحد الذي اشتهر وبهر . يجيء الأمراء المسيحيون من
 الأوربيين إلى الآستانة فيلقون من الاحتفال ما يلاقونه في بلاد مسيحية ، وينفق
 في تعظيم شأنهم من المال ما المسلمون في حاجة اليه ، أليس ذلك لمجاملتهم واكتساب
 مودتهم ؟ وهل بعد المودة إلا الثقة بصاحب المودة ؟ كان يمكن للسلطان أن يكتبني
 بالرسيلت ولا يزيد عليها ولكن عهد في معاملته ما يفوق الرسمي بدرجات فان سلمنا

ان سياسة أوروبا ليست بدنية من جميع وجوها ، فسياسة الدولة العثمانية مع أوربا هي كذلك ومسلوها تبع لها

فان قال قائل : ان حوادث الأرمن لم تزل في ذاكرة اهل الوقت وينسبون وقائعها إلى التعصب الديني بل يقولون إن أسبابها مظالم جر إليها ذلك التعصب : أمكن أن يجاب بأن العداوة مع طائفة مخصوصة لا تدل على فقد الثقة بكل مسيحي منها ومن غيرها ، ومع ذلك فان كثيراً من الأرمن في خدمة الدولة إلى اليوم وهم بذلك موضع ثقة ، وهذا وذاك يدل على الريب فيما يزعمون من أن منشآتك الوقائع التعصب الديني ، فان المسيحيين سواهم في الممالك العثمانية أنعم حالا من المسلمين كما شاهدناه بأنفسنا ، ولو أنصف الأوربيون لا يمكنهم فهم أسباب هذا الاضطراب الذي يظهر زمناً بعد زمن في تلك الأقطار ولعل عليهم ان يعرفوا ان منبعه في أوربا لا في آسيا

لا يفث عليّ أن أقول إن المسيحيين في الممالك العثمانية متمتعون بنوع من الحرية في التعليم والتربية وسائر وجوه الخير يتمنى المسلمون أن يساووهم فيه ، فهل هذا عنوان سوء الظن بالمسيحيين وعدم الثقة بهم ؟ لا يليق بكاتب مثل صاحب الجريدة ان يروي عن المسلمين كافة مثل ما رواه ، فان ذلك مما يحزن المسلمين والمسيحيين جميعاً ، واني أعتقد انه عند الكلام على المسلمين لم يكن في ذهنه إلا بعض أشخاص لم تهجه آراؤهم فيه ، فاستحضر في صورهم جميع المسلمين وسياسيهم

ليعلم موسيو هانوتو ان جميع ما يقال له أو يكتبه بعض العثمانيين لاجل حقيقة له إلا في ذهن القائل أو الكاتب ، فلا ينبغي أن يعول على مثله في أحكامه ، وعليه أن يحقق الأمر بنفسه ان كان يهيمه أن يتكلم فيه

وأما ان المسلمين أخذوا عليه فيما كتب عن الاسلام مع انه خدمهم ، وقوله : فكيف بحالمهم مع من لم يخدمهم ؟ فنبين له الوجه فيه ايزول عنه ما سبق إلى فهمه : لو اقتصر على الكلام في السياسة وبحث في علاقة المسلمين مع حكومته ولم يسط على الدين نفسه في أصلين من أهم أصوله ، لما أخذ عليه أحد الا من ينتقد رأيه من

جهة ما هو صحيح أو غير صحيح، ولكنه لم يكتف بذلك وطعن في عقيدة التوحيد،
وبيّن رداءة أثرها في المسلمين، واستل سلاحه على عقيدة القدر، وبيّن سوء
ما جرت إليه فيهم، وهو بذلك يثبت أن المسلمين لا يزالون منحطين ماداموا مسلمين.
وهو مالا يرضاه أحد منهم

لو مال على المسلمين فيما هم عليه اليوم وفي انحرافهم عن أصول دينهم، وأخفى
بتعريفهم على أهلهم لشؤونهم، وغفلتهم عن مصالحتهم، كما جاء في حديثه "لندي نحن
بصدده، لما وجد من المسلمين إلا معتبراً بقوله متعظاً بنصيحته، والسلام.

(يقول جامع الكتاب) إن الغرض الذي رمى إليه الاستاذ في الرد على موسيو
هاتوتو هو تنبيه المسلمين وارشادهم إلى النظر في عيوبهم، والبحث عن الأسباب
التي أفسدت عليهم أمر دينهم وديارهم، وعتت ملوكهم وحكامهم، وسوقهم
ودهماءهم، والجمع بين بيان أسباب الفساد وبيان المخرج منها — ثم إنها على ما كان
من حسن تأثيرها، ولهج الألمان بها، وطبع الألوف الكثيرة من نسخها، لم
تحمل المسلمين على اصلاح حال في تربية ولا تعليم ولا إدارة ولا سياسة، وإنما كان
ذلك التأثير قاصراً على التلذذ بفلج إمامهم في المناظرة وظهور حجة في العلم
والدين والسياسة على كاتب من أكبر رجال أوربة، وذلك شأن الأمة في طفوليتها:
سرور كسرور الأفعال، وغضب كغضب الأطفال، لا يعثنان إلى عمل من الاعمال !!
ولم يكن نصيب رجال الدولة الاسلامية الكبرى خيراً من نصيب رجال الامه
الاسلامية الجامة من هذه الآيات والعبر فقد صرح الامام بأن سياستها غير
دينية وان ادارتها غير اسلامية، وأشار الى دابة الامم التي تأكل منسأتها فلم
يعتبر أحد من رجالها فلما خرت صريعة زعم الملاحدة الذين أسقطوها بجهاهم ان
اتباع الاسلام هو الذي نبل عرشها وأودى بملكها !!

التربية

التي يكون بها الانسان انساناً ، والجماعة الكبيرة أمة

خطاب في امتثال الجمعية الخيرية الاسلامية

(ظفرنا بعد الشروع في طبع الفصل الخامس بهذا الخطاب الذي ألقاه الاستاذ الامام في الاحتفال السنوي للجمعية الخيرية الاسلامية ونشر في المأوئد ماخذه في ربيع الاول سنة ١٣١٤ فاستدركناها هنا)

إن الجمعية لم تأخذ على عاتقها أن تساعد كل عائلة فقيرة في الأمة لأن ذلك فوق استطاعتها ، بل وضعت لها قانوناً اتفق عليه جميع أعضائها ، وهو قد اشتمل على شروط معينة يجب أن تراعيها الجمعية عند إعانة من تريد إعانته من الفقراء ثم جعلت كما قدمت أهم مقصد لديها إصلاح حال الناشئين من أولئك الضعفاء المساكين بالتربية والتهذيب ، إذ الواجب علينا أن نعني قبل كل شيء بما نعني به الأمم الأخرى الناجحة قبل غيره ، وهي لم تعن بشيء أكثر من التربية وتحسين أخلاق العامة ، وهانحن أولاً نرى فساد الأخلاق عاماً ومصائبه مشاهدة للجميع

إذا رأينا مجالاً للفخر افتخرنا بآبائنا وأجدادنا الأولين ، وإذا حاسبنا أنفسنا رجعنا بالملامة والذم على آبائنا الأقربين ، وفي ذلك الفخر كبير العار ، وفي هذا اللوم عظيم اللوم . لاننا نحن قد أهملنا وتصرفنا وأضعفنا أهم ركن وهو التربية . أهملنا فتركنا ذلك الفخر التالذ يذهب هباءً منثوراً . فلم نتدارك من آثاره شيئاً ، وزدنا الطينة من إهمال أسلافنا الأقربين بلة باهمال آخر قفوضنا ما كان باقياً من آثار ذلك الفخر ، فكان لنا ذلك العار ، وهذا الشار

ان الانسان لا يكون إنساناً حقيقياً الا بالتربية وليست هي الا عبارة عن اتباع الاصول التي جاء بها الانبياء والمرسلون من الاحكام والحكم والتعاليم . وهي عبارة عن السعادة الحقيقية . تعلم الايمان الصادق والامانة ومحبة نفسه فاذا

تربي الانسان أحب نفسه لأجل أن يحب غيره وأحب غيره لأجل أن يحب نفسه.
 إذا تربي الانسان أحس في نفسه انه سعيد بوجود الآخر معه، ولكن نحن في
 وسط لا يحس فيه أحدنا الا بأنه شقي بوجود غيره، وقد ذهب الثقة بيننا أدراج
 الرياح وخلفتها الشكوك والريب والظنون الأثيمة المولدة للوساوس والأوهام،
 ولا شقاء للمرء أعظم من وجود ضميمه في مثل هذا الشقاء والحسبان
 ولكن لو كنا مترين لانبث فينا احساس واحد يؤلف بين شعورنا وحاجاتنا
 وحينئذ يحس كل فرد منا بأن عليه وظيفة يؤديها لنفسه ولفيه

ان بلادنا ليست بلاد الجوع القتال، ولا بلاد البرد القارص المميت، ولا
 بلاد الشقاء التي لا ينال الانسان فيها قوت يومه إلا بالعذاب الأليم. بل نحن في
 بلاد رزقها الله سعة من العيش، ومنحها خصوبة وغنى يسهلان على كل عائش فيها
 قطع أيام الحياة بالراحة والسعة. ولكنها وبالأسف مُنيت مع ذلك بأشد ضروب
 الفقر: فقر العقول والتربية

ليست القوانين التي تفرض العقوبات على الجرائم وتقدر المغارم على المخالفات
 هي التي تربي الأمم وتصلح من شؤونها. فان القوانين لم توضع في جميع العالم إلا
 للشواذ والمفوت والسقطات. وأما القوانين العامة المصلحة فهي نواميس التربية
 الملية لكل أمة

ونحن على نموذج هذه التربية قد جرينا في خطة التعاليم بمدارس الجمعية الخيرية،^(١)
 وندمى أن يصبح هذا النموذج يوماً ما عاماً بين جميع أفراد الامة المصرية. وإذا
 لم توجد التربية على مثل هذا النمط فلاحياة للامة ولا سعادة

إن العلم الحقيقي هو الذي يعلم الانسان العلاقة الموجودة بينه وبين غيره من
 أفراد جامعته، فهو إذاً يعلم الانسان من هو ومن معه فيتكون من ذلك شعور واحد
 وروابط واحدة هي ما يسمونه بالاتحاد

وسنة الله في خلقه ان توجد الروابط في العائلات ومنها الى الفروع ومنها الى
 الاصول القومية ومنها الى مجموع الامة التي هو منها. اذاً فلا بد من الوقوف على

(١) كذا كان يريد رحمه الله ولكن لم يتم له ما يريد، لقلة الرجال وقلة المال

كنه هذه الروابط ومعانيها، واذا تمكن هذا العلم من نفس الانسان تعلم كل شيء، وبحث عن طرق النجاح في كل شيء، ولكن كيف يوجد الاتحاد مع هذا الفساد الذي نشاهده عاما في أخلاق الامة - وقد انعكست آية الوجدان فاذا الانسان أجنى مالمديه الاقرب فالقريب فالبعيد فالابعد؟

الآن الاتحاد ثمرة لشجرة ذات فروع وأوراق و جذوع وجذور هي الاخلاق الفاضلة بمراتبها، فعلى المسلمين اذا أرادوا الاتحاد أن يربوا أنفسهم تربية اسلامية حقيقية ليبنوا تلك الثمرة، وبغير ذلك كل أمل باطل، وكل الاماني أحلام أو همام، وكل احتجاج بغير سعي عجز

الناس في كل الامم أكفأ في التمثيل، ولا تقص في الدنيا الامن جهة العقول والأخلاق، وهي لا تكمل الا بالتربية، وما وراء ذلك من العلوم لا يبث فيها غير اللقطة والهديان

وان الجمعية الخيرية الاسلامية قد شرعت في طريقة ابتدائية للتربية، ولديها أمل أن تصل الى الطريقة الاتهائية طريقة العمل، لا طريقة العلم المعيبة التي نرى مثلها في الذين يأتون الينا كأساتنة عندما نعلن عن حاجتنا لمعلمين وليس لديهم ما يؤهلهم للتربية والتهديب. ولست أقول ذلك قدحا في طريقة التعليم الجارية بين ظهرائنا، ولكنني أقول بالاجمال انها غير ملائمة لمنهاج جمعيتنا التي تحسب ان تصلح شؤون الناشئين من الطبقات النازلة

نحن نتمنى تربية بناتنا فان الله تعالى يقول (ولهن مثل الذي عليهم بالمعروف) (ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات) الآية. إلى غير ذلك من الآيات الكريمة التي تشرك الرجل والمرأة في التكاليف الدينية والدينية. فكان بذلك ترك البنات يقرسهن الجهل وتستويهن الغباوة من الجرم العظيم

انظروا إلى المرأة حين تقول لابنها مثلا اذا أرادت أن تمنحه شيئا: خذ هذا وأخفه عن الأعين حتى لا يراك أخوك. فكم من تقيصة علمته بمثل هذا القول؟ علمته ثلاث خصال هن الموبقات المهلكات: الأثرة والدناءة والسرقة. وربما توصيه بانكار ما أعطته اذا سأله أخوه، فتعلمه بذلك أقيح خصال السوء والفساد

وهو الكذب، وقد لا يتعلم الطفل عنده ما يراد تمرينه على النطق والكلام غير ألفاظ
السباب والشتائم القبيحة، فيشب الطفل متعوداً على أن تلفظ شفتاه كل كلام قبيح،
لا يعبأ بماذا ينطق ولا يبالي بما يقول

وانتي أذكر حديثاً شريفاً أو اثرأ بمعناه هو ان الرجل لينطق بالكلمة
لا يرى لها بالا فيهبى بها في النار اربعين خريفاً^(١)

فتأملوا في فظاعة الاخلاق التي يشب عليها ابناء وبنات العامة من الامم ولا
خلاص لنا من هذه الورطة الشنيعة الا بالتربية الكاملة الشاملة للابناء والبنات
وان النساء الجاهلات والرجال الجاهلين لا يمكن أن تتكون من بينهما امة ولا جمعية وعلى
الخصوص اذا اصبحت العلاقات والروابط الطبيعية مهددة بين الناس كأن شاهد بيننا الآن
ولقد استتجت بالاستقراء منذ كنت قاضياً في احدى المحاكم الجزئية ان

نحو (٧٥) في المائة من القضايا بين الأقارب بعضهم مع بعض بما لم يحمل عليه
غير التباغض وحب الوقعة والنكالية، فهل من المعقول أن يكون الفساد في العلاقات
الطبيعية الى هذا الحد من التصرم، وتتساءل عن تصرم العلاقات الوطنية؟ هل يمكن
اننا بعد أن نفقد الروابط الضرورية بين العائلات نبحت عن الروابط للجامعة
الكبرى. أو ليس هذا كمن يطلب الثمر من أغصان الشجر بعد ما جذ أصولها
وجذورها، وقطع أوصال عروقها، وغادرها مجرد قطع أخشاب يابسة

اللهم ان كنا نريد الحياة الطيبة والسعادة الدائمة فلنعمل لاصلاح شؤون
الناشئين بالتربية المثقفة المهدبة، ولنجهد أنفسنا في طريق استكمال الاخلاق
الفاضلة. وكما زدان في سبيل ذلك سعياً توفر لدينا حب تعضيد هذه الجمعية ونمت
ثروتها فأدت وظيفتها الامة كما ينبغي. ونسأل الله أن يصلح ما بيننا من فساد، وان
بوحننا جميعاً إلى ما به نجاحنا وفلاحنا وسعادتنا. اه

(١) روي هذا المعنى في عدة أحاديث أقربها إلى هذا اللفظ « ان الرجل
ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا يهوى بها سبعين خريفاً في النار » رواه الترمذي وابن
ماجه والحاكم من حديث أبي هريرة مرفوعاً بسند صحيح. ومنها ما رواه أحمد من
حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً « ان الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا
ليضحك القوم وانه ليقع بها أبعد من السماء »

باب الرحلات العلمية التاريخية

(فصل من رحلة الاستاذ الامام الاخيرة إلى اوردية وجزيرة صقلية وتونس والجزائر سنة ١٣٢١ ١٩٠٢ هـ م دوّن فيه ما رأى فيه الفاتحة والعبرة من الآثار العربية في بلرم عاصمة جزيرة صقلية . وكنا نتنظر فرصة فراغ منه نطالبه فيها بكتابة فصول أخرى من تلك الرحلة فلم نسمح)

بالرم - صقلية

(نشر هذا الفصل في أجزاء مجلدي المنار السادس والسابع)

« أفلّم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تسمى الأبصار ولكن تعى القلوب التي في الصدور »

قضت المقادير أن أغير خطة سفري عن طريق مرسيليا إلى طريق ايطاليا وكان لي في ذلك خطان من السير أحدهما يمر ببارم ثم يصل إلى نابولي ، ثم تكون الإقامة في نابولي نحو أربعة أيام وبعدهم المركب بنا إلى مسينا ومنها يذهب إلى الاسكندرية ، والآخر ينتهي عند بلرم أو « باليرم » وتكون الإقامة خمسة أيام نذهب بعدها إلى مسينا^(١) كذلك ، وكان بودي لو ذهبت مع الخط الاول فكنت رأيت بلدانا كثيرة ، وآثاراً عظيمة ، تزيدني علمي كثيراً مما لم أعلم إلى اليوم غير أن بعض أصحابي قال لي أن بلرم هي عاصمة صقلية ، ويوجد فيها من الآثار العربية ما يهيم العربي أن يراه ، وفيها داران للكتب ، لا تخلو كل منهما من كتب عربية قديمة ربما يستغرق الاطلاع عليها زمناً مثل الزمن الذي تقضي الضرورة بصرفه إلى يوم السفر إلى مسينا : ففضلت النزول إلى بلرم ولا أذكر الآن شيئاً مما لاقيت من الجمالين وغيرهم من مستقبلي المسافرين ولكن أعود إليه

(١) كانت العرب تسميها مسيني . قال الشاعر * من ذا يمسيني على مسيني *

بعد أن أخذت مكاناً في نزل سنترال بشارع رومية خرجت لا يصلح بعض رسائل التوصية إلى من أرسلت اليهم فلاقيت منهم ماسرني ، وكان أحدهم موسى بأن يسهل لي طريق زيارة المكتبة العمومية ودار المحفوظات الرسمية ، والتمكن من رؤية ما يكون فيها ، فوعدني المحيي ، في الغد لم افقتي إلى المكتبة

قصر الملك في بلرم وكنيسته

ثم بعد ذلك بدأت بزيارة قصر الملك ولا حاجة بي إلى وصفه فان ذلك من شأن صاحب جريده أو سائح يطلب اظهار البراعة في حسن الوصف وسعة العبارة . وغاية ما أقول أنه قصر أو (سراي) واسع كبير البيوت باهر الزينة والأثاث كسائر قصور الملوك في أوربا أو في غيرها من البلاد الشرقية والعربية ، مما تنفق فيه الأموال بحساب وبغير حساب ، ولا شيء منها من كد الملك أو الأمير . وإنما هي من أموال الرعية وكسب الحفاة العراة الذين لا يجدون مابه يستترون ، ويشتهون لو أنفق على جدران أبدانهم وأركان أجسادهم جزء من المليون مما أنفق على حيطان تلك القصور وزواياها وسقوفها — ما أنا بذاكر شيئاً من وصف ذلك الغنى في بلد الفقر ، ولكن أذكر ما رأيت فيه مما يجب الشرقي أن يطلع عليه اما لعبرة واما لفكاهة .

ذهب بي حارس القصر أولاً إلى حيث توجد كنيسة الملك ولا حاجة إلى وصفها كذلك — إلا لو كان الله يجب أن تزين له معابده ، وتنقش لجدده ساجده ، كما يجب ذلك ملوك الارض — فوجدت في الممر الموصل إليها على الحائط المتصل بالكنيسة حجراً قد كتبت عليه هذه العبارة :

« خرج الأمر من الحضرة الملكية المعظمية الرجارية العلية أبد الله أيامها ، وأيد أعلامها بعمل هذه الآلة لرصد الساعات بمدينة صقلية المحمية سنة ست وثمانين وخمسةائة » ثم في أعلى الحجر سطور بالحرف اليوناني يظهر أنها ترجمة هذه العبارة . والحضرة الرجارية هي حضرة الملك رجار أو (روجير) الترمندي الذي دخل جزيرة صقلية وفتحها على العرب ، وكان لسانه الرسمي في حكومته اللسان العربي واليوناني . وأما ميله في البناء والزينة فكان إلى الرسم اليوناني . ولهذا

الملك آثار كثيرة في بلرم ، و يوجد كثير من المحررات العربية والصكوك كما كتب في أيامه . و يقال أن العرب كانوا في زمن الترمنديين ممتعين بحرية تامة في إقامة شعائر دينهم و تصرفهم في شؤونهم ، وإن كان هذا الملك قد هدم مساجد كثيرة لنقل أعمدها الجميلة إلى الكنائس التي رأى تجديدها في المدينة ، و يظهر من العبارة المرقومة على الحجر أن هذا الترمندي كان عندما دخل البلاد ذهب مذهب أهلها من العرب في المدينة ، ولم يحتقر ما وجد من آثار العلم ، فكان يأمر بصنع الآلات الفنية والفلكية ، و يساعد القائمین بعملها

رأيت في خزانة الجواهر من قصر الملك صندوقاً عربياً في طول نحو ثلثي ذراع ، و ارتفاع ثلاثة أرباع الذراع صنع ، من نحو ثمان مئة سنة على ما يقول الحارس ، وهو مغشى بالنقوش الذهبية من أجل ما رآه عين الآن ، و قيمته عند الدولة خمس مئة ألف فرنك ، و رأيت في أحد بيوت القصر باباً من الحديد مطلياً بطلاء أصفر جميل من أجل ما يصنع من الابواب ، وهو من صنع أيدي العرب أيام دولتهم

و رأيت بيتاً من بيوت القصر فيه صور نواب الملك في عهد البربون بعد الترمنديين ، و مع كل نائب منهم كردينال كما كان الملوك كرادلة يصحبونهم و يشركونهم في كثير من شؤون الملك . لذلك كان النائب عن الملك يصحبه كردينال يرجع إليه في أمور دينه ، و في أعماله السياسية أيام كانت الأحكام المدنية و السياسية مما يدخل فيه رجال الدين كما تقول عندنا « المفتي أو شيخ الاسلام » في عهد الملوك الذين لا تسمح لهم أوقافهم بتعلم العلوم الدينية فيحتاجون إلى من يرجعون إليه من علماء الدين . غير أن المفتي و شيخ الاسلام إنما يجب عما يستل عنه ، أو يؤدي ما كلف به . و أما الكردينال فكان يتتدى المشورة ، و يقترح الطلب ، و يقيم نائب الملك على المذهب ، و يكف يده عن العمل الذي لا يرضاه و يحمله على بسطها فيما يتوخاه ، فكانت السلطة الحقيقية مدنية سياسية دينية في نظام واحد لا فصل فيه بين السلطتين . و هذا الضرب من النظام هو الذي يعمل الباباوات و عمالهم من رجال الكنيسة على إرجاعه ، لأنه أصل من

أصول الديانة المسيحية عندهم ، وإن كان يذكر رحمة السلطة الدينية والمدينة من لا يدين بدينهم

الكنيسة الكبرى والأديار

وكان مما قيده بعض أصدقائي في جريدة الأمانة التي يرغب في رؤيتها محل يسمى بالدوم أي القنب فذهبت اليه وإذا هو الكنيسة الكبرى التي تسمى (كاتيدرال) رئيسها هو مرجع رؤساء بقية الكنائس في المدينة أو الولاية ، وهي من عظمة البناء ، وبهجة الزينة على ما يطول شرحه . وأصل هذه الكنيسة الكبرى مسجد باق على ما هو عليه حتى باب الخشبي الجميل ، غاية ما في الأمر أنه زيدت فيه الصور والنماثيل ، وضروب أخرى من الزينة الكنسية . ويمكن للناظر أن يتفرس ذلك بمجرد رؤيته من الظاهر لأن رسم البناء على الطريقة العربية في عامة المساجد .

وزرت بعد ذلك ديراً يسمى دير سانت جواني ، وهو مما كان قد كتب في جريدة الاماكن ، ولم أر فيه شيئاً سوى أن أسفل الدير كان مسجداً . فلما جاء الترمنديون حولوه الى كنيسة بناها راجار وقتل اليها هذه الاعمدة من المساجد التي خربها لما أعجبه من أعمدها ، ثم أخذني السادن بعد ذلك إلى قرية من الكنيسة وقال لي انها على شكل عربي . ولما رأيتها خالية من الزينة المعتادة رؤيتها في أماكن العبادة النصرانية ، سألته عن ذلك فآخبرني أن الاسبانيين عندما غلبوا على صقلية سلبوا ما كان في هذه الكنيسة من الموزايك (زينة من أجمل ما تزين به الاماكن والادوات تصنع من قطع دقيقة من الحجارة على أشكال مختلفة بحيث يصور بها جمع ما يمكن تصويره من الرسوم والصور) وحملوا ذلك إلى بلادهم وقال انهم لم يقتصروا على ذلك ، بل سلبوا الكنائس كل ما كان فيها من المصنوعات الفضية كذلك . فقلت لصاحب كان معي يظهر أن كل قانع يرى من الواجب عليه أن يفسد شيئاً من عمل من سبقه . فكل منهم يقوم بما رآه واجبا عليه :

وعرفت قسيساً حليياً معلماً العربية بمدرسه دير الكوشيين في بلرم — وسنأتي على ذكره — فما أرشدني اليه رؤية بنية من قصر يسمى العزيزة وهو اسمه في الطليانية فذهبت معه اليه وإذا هو قاعة كبيرة فيها سلسبيل ماء، بنيت على نمط ما كنا نسميه عندنا (القاعات الحرمية) حيطانها مزينة بالموزاييك من أجمل ما تحب عين أن تراه ، ولم يبق من القصر مكان ينظر اليه السائحون إلا تلك القاعة، وأما أعلى القصر فيسكنه أناس من أهل المدينة وقد دخل بتمامه في ملك بعض الاغنياء . والقصر من بناه الملك راجار الترمندي بناه لابنته عزيزة . وعلى مقربة من هذا القصر قبة يقول القسيس أنها مسجد عربي ، فاخذنا نحوها فاذا هي في بستان كبير قد أغلق بابه ، وقيل لنا ان خادم البستان فيه ، وذهب ذاهب لينادية ، وطال بنا الوقوف ، واجتمعت علينا من الصغار والنساء صفوف أو زحوف ، جلبتهم علينا تلك العمامة وصاحبها الجبة . وكلما طردنا فوجاً أقبل فوج ، أو نجونا من موج علا علينا موج ، إلى أن جاء رجل قيل أنه هو حارس البستان ، وبعد قيل وقال في فتح الباب واحتياجه الى اذن من صاحب البستان ، رضي بالفتح . طمعاً في النفخ . فدخلنا ورأينا صعوبة جديدة في فتح القبة فذلاناها القبة من قباب المشايخ التي يقيمها المسلمون على قبور الأولياء او الامراء على خلاف ما يأمر به الدين . وأظن أنها على قبر من هذه القبور وايس فيها من أثر عربي سوى شكلها هذا

﴿ كنيسة موريالي ، وتساهل العرب ، وأين هم اليوم؟ ﴾

مما رأيته في بلرم (صقلية) كنيسة موريالي ، وجميع سقفها والأغلب من جدرانها مغشي بالموزاييك ألوانا وأشكالاً من أبهى ما يبهج الناظر، وأجل ما يسرح فيه الخاطر . وفي ناحية منها قبة تعرف بمعد الصليب ، فيها من التماثيل وضروب الزينة ما يقصر عنه الوصف . وأهم ما يذكر من شأنها أنها مبنية في القرن السادس من التاريخ المسيحي ، فيكون لها نحو الف وثلاث مائة سنة ، والمصنوعات الخشبية الجميلة محفوظة من ذلك العهد لم يجزأ السوس على قرض

شيء منها بركة العناية والاهتمام بالتنظيف . وأما مايقول به بعض الخذاق في معرفة طبائع هذه الموام الدقيقة من أنها تعرف الصليب وما خصص له من الأدوات، وتشعر باحترام تلك الصور والتماثيل التي صورت في تلك الأخشاب، وأنها بذلك صارت مسيحية كاثوليكية ، فلا يباح لها قرص الخشب المسيحي . ثم أن اعتقادها بجرمة القرص حملها على العمل ، فخالفت شهوة الأكل قياما بالفرض ، فلا أظنه في غاية الصحة ، بل ولا في أولها كذلك . ويقال إن الكنيسة من بناء الملك كيلولمو الثاني وقبره فيها ، صندوق من حجر فيه جثته

ومن ذلك تعرف أن العرب رحمهم الله لم يمسا هذه الكنيسة بسوء مع عظمة سطوتهم ، وامتداد ملكهم في سيسليا ، وتلمح من هذا أن العرب — وإن فسق كثير منهم عن أمر ربهم — فروح الدين الاسلامي كانت تنوم في كثير من أعمالهم ، نهى الدين عن هدم الكنائس اذا لم تكن مريضاً لشر يخشى خطره على الدولة ، فحفظوا لرعاياهم كنائسهم ومعابدهم ، ولم يصنعوا بها ما صنع غيرهم ممن جاء بعدهم ، ولم يريدوا أن يقتفوا أثر خصومهم ، ممن كان يهدم مساجدهم، ويحرب معابدهم ، فحيا الله أيامهم . لاجرم أن الاسلام عربي، وأحق الناس برعايته ، والوقوف عند حدوده ، بعد فهم حقيقته ، هم العرب فأين هم ؟ يمكن أن يقول قائل : انهم في جزيرة العرب أو في الشام أو في العراق أو في مصر أو في تونس والجزائر أو في المغرب الأقصى ، فلم يكفك كل هذا العدد ، في أكثر من الف بلد ، حتى تقول أين هم ؟ ولاكني أقول له : إنما يكون القوم أولئك القوم اذا بقيت لهم أخلاقهم وحياة أرواحهم ، فان كان لم يبق إلا أشباح تشبه أشباحهم ، فليسوا بهم فلي الحق أن أقول عن العرب فأين هم ؟

﴿ دير الكبوشيين ومدرستهم ومقبرتهم في بلرم ﴾

﴿ وفيه بحث الدعوة الى الدين واحياء اللغة ﴾

للكبوشيين دير في بلرم فيه معبد ومدرسة ومقبرتان . أما المعبد فهو المعبد لا يحتاج الى الكلام عليه ، ولا يختلف عن غيره من المعابد . وأما المدرسة فهي لتعليم اللغات والفنون والعلوم التي يحتاج اليها المرسلون الذين يكلفون الدعوة الى الدين المسيحي والتبشير بالانجيل ، ونشر ما تقتضي الغيرة الدينية نشره في الأقطار النائية كبلاد العرب والتورك والفرس وغيرها . ومما يعلم فيها اللغة العربية وأستاذها الراهب جبرائيل ماريا الكبوشي ، وهو من حلب ، وتعلم العربية في بيروت ، وأخبرني أن من أسانذته صديقنا الشيخ سعيد الشرتوني صاحب (أقرب الموارد) في اللغة . لاقت ذلك الراهب وحادثته في شأنه ، والزمن الذي قضاه في ايطاليا ، والداعي الى الإقامة فيها ، فتبين لي أنه جاء اليها ليخدم دينه هذه الخدمة — تعليم اللغة العربية لنشر الدين في بلاد العرب مثلا . وكان يتحرى في كلامه قواعد اللغة العربية بقدر الامكان فخدمت منه ذلك . كأنه اعتقد أنه أما تعلم العربية لينتفع بها في منطقته — وان كان في بلاد ايطاليا — وعمل بما اعتقد . وما كان أسهل عليه أن يكلمني بالحلبية كما يكلمني البيروتي بالبيروتية ، والتونسي بالتونسية ، ولا يبالي أ كنت أفهم أم لا أفهم ؟ كما لا يبالي الكثير ممن ذكرناهم

وفي هذه المدرسة تعلم العلوم اللاهوتية كذلك للغاية التي ذكرناها ، ولا حاجة الى ذكر ما فيها من العلوم ، فان ما يحتاج اليه للبراعة في نشر الدين ، والدعوة اليه معروف عند من يعرفه ما هو الدين ويتصور معنى الدعوى اليه . اما من لا يعرف ذلك فلا نكتب له حرفا واحداً من هذا الكلام فان قال قائل : فلن تكتب ما تكتب ؟ قلت . ان فقد الفاهم فاني احفظه لنفسي والسلام . هل خطر ببالنا — وكل منا يدعي الغيرة على دينه ويرى انه الحق الذي يجب على الناس كافة ان يخلصوا ارواحهم باعتقاده والأخذ بأصوله

ان ننشى فرعاً من فروع التعليم لنشر الدين وتقويم اصوله بين اهله؟ فضلاً عن نشره بين من ليسوا من أهله أريد من أهله أولئك الذين اسوار داءه، واعترفوا أن الدين دينهم سواء عرفو دحق معرفته، وهم في غنى عن الدعوة اليه، أو جهلوه وانحرفوا عن طريقه وهم أحوج الناس الى الارشاد، وأشدهم افتقاراً الى من يحول اليه نظرهم، ويعطف عليه اختيارهم. هل مرةً ببالنا أن نهيبء لهذا الفرع من التعليم ما يلزم له من فنون وأساتذة لتلك الفنون، كما يهيبء هؤلاء ما يهيبئون لتعليم من يقوم بدعوة من ليس من دينهم الى دينهم؟ ما كان أحوجنا الى إنشاء ضرب من التعليم خاص بمن يكلف ارشاد من يسيء الى الدين باسم الدين، ومن يهدم شرف الدين بعمل ينسبه الى الدين؟

ألا يحق لنا أن نطلب من أولئك الذين صعدت بهم ألقاب الرئاسة الدينية الى أسمى المنازل أن يفكروا في هذا الأمر، ويقوموا بما يجب عليهم منه إن لم يكن لمصلحة الدين فلمصلحة أنفسهم، فان في تقوية جانب الدين تقوية لمساندهم، وفي تبصير العامة بشؤون الدين تمكيناً لمرمتهم في نفوس الدهماء، وتسجيلاً لسيادتهم عليها؟ أليس لنا على ضعفنا أن نذكرهم بالأمر الالهي، اتقارع للقلوب، المزعج لهمم، في قوله تعالى (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) الخ، فهل يليق بهم أن يصموا آذانهم عن هذا الخطاب، ولا يحشوا أن يكون التصام عنه بمنزلة الخروج من مدلول كاف الخطاب، ومشعراً بأنهم ليسوا من أولئك الذين خوطبوا به؟ لنا بل علينا أن نطالبهم بذلك، وأن نزيد عليه مطالبهم بالنظر في إنشاء فرع لتعليم ما يلزم لنشر الدين بين بقية الأمم، ان كانوا يعتقدون أن دينهم هو الحق، فان السكوت عن الدعوة الى الحق رضاء بالباطل. أولئك الملوك والأمراء الذين لا فضل لشيء عليهم في تمتعهم بملكهم، واخلضاع رعاياهم لسلطانهم، مثل فضل الدين، لم لا يقطعون شيئاً من مالهم وقطعاً من زمانهم ينفقونها في الاشتغال باحياء روح الدين، ولا يكتفون بغش العامة بالمحافظة على رسوم كلها أو جلها لا يعرفها الدين؟ أفلا يجب عليهم أن يسعوا في زيادة تمكين قوتهم، وتعزيز سلطنتهم؟ اللهم الا

اذا ظنّ هؤلاء، وأولئك ان الدين حيوان يمشي على رجلين ، يطلب رزقه من القلوب حيث يجد الحاجة اليه ، ويقعدو الى مرعاه من النفوس متى اشتد الجوع عليه . فاذا قصر في ذلك حتى أهلكه الجوع ومات فانما أثمه على نفسه لا عليهم ربما يقول قائل: ولم تستبعد هذا الظن منهم فتعبر في جانبه بكلمة « اللهم » وهم قد يزعمون أنهم من أهل السنة ، وربما طلبوا الدخول في أبواب حجة السنة، بهذا الظن الذي تستبعده ، وما عليهم في ذلك الا أن يقولوا : نحن سنيون لا نقول باستحالة شيء ، وغرنا أن نجوز الحال ، ونذهب الى جواز تجسم المعاني وفتقد أن الاعمال والعقائد ، وهي معان نفسية وحركات بدنية يمكن أن تنقلب أشخاصاً حيوانات تمشي ، وأناسي تتكلم . أليست هذه العقيدة هي مطيتنا الى الجنة ؟ فليكن الدين رجلاً عاقلاً ، أو ميكروباً منتقلاً مفيداً لا قاتلاً ، يفعل لنفسه ما كان فاعلاً ، ويدعنا تمتع بالنسبة اليه، وإن لم يكن لنا عطف عليه ، فنجيب القائل بأنهم مغرورون ، وأن السنة بريئة مما يزعمون ، وسيعلمون أي منقلب يتقلبون خرج بنا الكلام عما نحن بصدده . هذا الراهب أستاذ العربية في الدير وضع طريقة سهلة لتعليم قواعد اللغة العربية من الصرف والنحو للايطاليين — يضع القاعدة العربية ، ثم يفسرها باللغة الايطالية بأسلوب يسهل معه تناولها بقدر الامكان . وقد رأيت من تلامذة الراهب من يحسن قراءة العربية ، وإن كان لا يحسن التكلم بها لعدم التمرين على السماع والنطق ، وما أحوج كل عربي الى تعلم ما يحتاج اليه من لغته ، لكن ما أشق العمل ، وما أوعر الطريق ، وما أكثر العقبات في طريق العربي الساعي في تحصيل ملكة لسانه !! يقني عمره وهو لا يزال يضرب برجليه في أول الطريق . أفلا نشعر بالحاجة الى تقريب المطلب ريتسير المذهب في تحصيل ماتدعو اليه الحاجة من لغتنا ، حتى نستطيع فهم ما أودع فيها من النفائس ، والتعبير بها عما نجد في أنفسنا ، ونحب أن نسوقه الى بني لغتنا على وجه صحيح ، وبأسلوب فصيح ؟ ألم يأن لنا أن نرجع الى المعروف مما كان عليه سلفنا ، فتحيا بما كان قد أحياهم ، وترك ما ابتدعه أخلافهم مما أماتهم وأماتنا معهم ؟

أما المقبرتان فاحدهما في بناء متسع الأرجاء تحت الأرض ، ينزل إليه بسلام ، وفيه نوافذ يأتي إليه منها الضياء ، وقد وضعت فيه الجثث على ضروب شتى ، فمن الجثث ماهو في صناديق مقللة من الخشب أو الحجر أو البرنز ، ومن ذلك جثة موسيو كرسبي رئيس الوزارة الإيطالية السابق ، فانه في ذلك المحل في صندوق مغلق ، ومنها ما وضع في صناديق من البلور بحيث تظهر الجثة للرأي من داخل الصندوق على الهيئة التي كانت عليها عند الموت . وقد يوجد في الصندوق الواحد عدة أشخاص بادية هياكلهم ، ظاهرة وجوههم ، على أتم ما يجوز له قلب ، وتعتبر به نفس . وهذان القسمان من الأموات إنما ينالون حظوة الاستيداع في هذا المكان اذا كانوا من الأغنياء الذين يتمكنون أن يدفعوا الى الدير ما يطلبه من قيمة هذه الحظوة . وهناك قسم آخر وهو جثث محنطة قائمة في جوانب المكان ، عليها ثيابها في الحالة التي كانت عليها عند موتها ، وهي جثث الرهبان والقسيسين الذين يحبون أن يودعوا في هذا المكان ليسعدوا بيركته ، ولهم هيئات تنقبض لها النفس ، ويضيق بها الصدر ، ولا حاجة بنا الى تعداد ذلك . ويكفي القاريء أن يتصور ميثاقاً أشد ماتكره النفس مما يصوره الموت في البدن وأما المقبرة الأخرى فهي كسائر المقابر على ظهر الأرض ، وإن كان الأموات في بطنها ، وهي من أجل الأماكن وأنظفها . والقبور فيها نظيفة البناء ، بهجة الظاهر . وقد غرس في المقبرة أشجار السرو بنظام بديع ، وقيل لنا : إن الذين يدفنون فيها هم الأمراء والأغنياء . أما الفقراء فلمهم مقبرة تليق بقمرهم في مكان آخر . وكأنه قضي عليهم بأن لا يساوا الأغنياء حتى في الموت مع أن الموت قد سوى بين الأغنياء وبين أدنى طبقة من الأحياء ، بل جعلهم طعنة لأقذر الديدان ، كما جعل ذلك حظ أمثالهم من سائر الحيوان

قيل : إن الحكومة بعد أن استولت على رومية منعت الدفن في المقبرة الأولى على تلك الطريقة ، وأمرت أن لا يدفن الميت إلا في المقابر المعتادة كذه المقبرة الثانية ونحوها . وإنما حفظت الحق في الاستيداع في المعابد للبابا والملك دون سائر الناس . فها وحدهما توضع جثتها في صندوق وتودع في الكنيسة ،

وقد أحسنت الحكومة في ذلك ، فان من كان محجياً بعظمته عن الناس في حياته يجب أن يكون عبرة لعامةهم بعد مماته

﴿ المكتبة العمومية ودار المحفوظات ﴾

أما المكتبة العمومية فقد جاءني من أوصي بصحبي - ويثقل عليّ ذكر إسمه لطوله - فذهبت معه الى تلك المكتبة ، وهو أخو مديرها وله احترام في نفوس خدمتها ، وكان يعرف قليلا من اللغة الفرنسية ، فسألته أن يطلب لي فهرس الكتب العربية ان كانت ، فطلب ذلك فبلت حركة شديدة في الخدمة وكثر الداخل والخارج ، والذاهب والآتب ، ولغظت الألسن ، وارتفعت الأيدي بالاشارات ، وطال الزمن نحو ربع ساعة ، كل ذلك وأنا لأفهم أسباب هذا الاضطراب . وآخر الأمر جيء اليّ بدقر صغير جداً يحتوي على نحو خمسين صفحة ، وكانت تلك الضوضاء للبحث عنه ، وكل يتهم صاحبه بأنه هو الذي يعرف مقره . والآخر يدافع عن نفسه تهمة معرفته . ولم يرعني عند تصفحه الا كثرة ما فيه من كتب الأدعية والصلوات ، كأنه فهرس خزانة لشيخ من مشايخ الطريقة الخلوتية ، أو مكتبة السادات البكرية ، قدّمس الله أرواحهم جميعاً وإنما رأيت فيها قطعة من شرح ابن رشد على مدونة الامام مالك رضي الله عنه وكتابا في السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، الا أنه لا يمكن قراءة سطر واحد من تلك السيرة ، لأن خطوطا قد جرت على السطور بعناية غريبة حتى عمت الحروف الأصلية ، وحجبت حقيقتها عن النظر مع سلامة الظاهر من التشويه ، فعجبت لذلك وسألت عن السبب ؟ فقيل لي : ان قسيساً من أهل القرن الثامن حمله التعصب على أن يأتي الى المكتبة ويطلب الكتاب بحجة أنه يريد قراءته ، وكان يعرف العربية حق المعرفة فسلم اليه فصنع به ذلك حتى يصد الناس عن مطالعة ما فيه . وقد فعل مثل ذلك بمصحف من المصاحف ، وزور كتباً كثيرة أفسدها . وقد انكشف للحكومة حاله فحوكم وصدر الحكم عليه بالحبس مدة عشر سنين في روايته ، ومدة خمس عشرة سنة في رواية أخرى . أما القطعة من

شرح ابن رشد فكانت سليمة وخطها مغربي جيد تسهل قراءته على طالب العلم والكتاب الفرد الكامل الذي رأيت في المكتبة هو كتاب النخل لأبي حاتم السجستاني . وهو صغير في نحو ستين ورقة بخط ضيق مضبوط صحيح . قرأت منه عدة صفحات . وقلت منه عدة فقرات في تفسير قوله تعالى (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين باذن ربها) الخ . ومما نقلته في ذلك قول أبي حاتم رحمه الله . ومما كرم الله به الاسلام وكرم به النخل أنه قدر جميع نخل الدنيا لأهل الاسلام فغلبوا عليه وعلى كل موضع فيه نخل . وليس في بلاد الشرك منه شيء . فرحم الله أبا حاتم ما كان أبعد عن صحة الحكم في طبائهم العمران . وان كان من أفضل أهل السير وأجل علماء اللغة . والكتاب مفيد في اللغة وهو بخط مشرقى تاريخ نسخه شهر جمادى الآخرة سنة « ٣٩٤ » وقد بلغنا أنه طبع في المانيا . وكان الأجدد به أن يطبع في مصر . ولعل ذلك يكون ان شاء الله متى ساوى المصريون أهل المانيا في اهتمامهم باللغة العربية ونفائسها

ثم زرت دار محفوظات الدولة وهي مثل (الدقرخانة) عندنا إلا أنها لم تبع أوراقها ولا دقترها لا بالقطار ولا بالرطل كما فعل بالدقرخانة المصرية . بل هي محفوظة على ما كانت عليه من عدة قرون لا يفرط في ورقة واحدة منها . وقد طبعت الدولة ما في الأوراق التاريخية المحررة باللسان العربي وغيره من الألسن الشرقية . حتى يسهل على الناظر فيها معرفة ما كتب في تلك الأوراق ويتيسر له بعد ذلك قراءتها في أصولها . خصوصاً إذا كان غير متعود على قراءة الخطوط العربية المختلفة ، فإذا قابل بين المطبوع والمرقوم عرف صحة العبارة في النسختين . ولعل المكتبة المصرية الكبرى تصنع مثل ذلك في الخطوط المكتوبة على أوراق البردي وغيرها مما كتب بالكوفية . أو النسخ القديم . أو ما عني بعضه القدم لثم فائدة حفظ هذه الأوراق والاتفاع بها إن شاء الله من العادة في المكاتب وديار حفظ الأوراق أن يجعل لها دفاتر يكتب فيها

الزائر اسمه ولقبه وتاريخ الزيارة ، وهي عادة حسنة تليق بأماكن أقيمت لحفظ الآثار العلمية والمذكرات التاريخية . أما عمال المكتبة العمومية في بلرم فلم يحفلوا بهذه العادة واكتفوا بتقديم ورقة من أوراق طلب المطالعة لوضع امضائي عليها كما فعل ذلك خدمة المكتبة العمومية في مسينا ، لكن عمال دار محفوظات الدولة راموا أن تجري تلك العادة مجراها فطلبوا ذلك الدقير فلم يجدهم ، فجدوا في البحث والتنقيب ، وأخذت الاصوات تتقاذف ، والاشارات تنمو وتزايد ، على نحو ما فعل عمال المكتبة العمومية ، في اكتشاف فهرس الكتب العربية ، وكنت على عجل أريد زيارة محل آخر ، فحسبت مدة حتى يسر الله ووجد الدقير ، ووضعت امضائي فيه . وأظنهم حمدوا الله لأن كنت السبب في العثور عليه بعد ضياعه

هذا وذلك يدلانك على أحد أمرين : إما قلة الزائرين لهذه الأماكن العلمية من الاجانب ، وطلاب النظر في الآثار العربية ، وقلة الدراسين من أهل البلاد في تلك الكتب التي كتبت في لسان غير لسانهم اكتفاء بتراجمها أو لعدم الحاجة اليها . وأما شدة الاهمال من موظفي هذه الديار ، وقد تيسر لك الجمع بين الأمرين ، ولم أعهد في مكتبة أوربية أن وقع لي مثل ما وقع في مكتبتي بلرم .

مهام السائح الى معرفة اللغات وأبها أنفع

ومن الأمور التي لا أجد بدأ من تقدها أن موظفي هاته المكاتب لا يعرفون من اللغات إلا الإيطالية فلا يعرفون الفرنسية مع قربها من لغتهم ، ومن عرف منها بعض كلمات يصعب عليه أن يؤدي بها مراده ، وكان رفيقي يترجم بيني وبينهم عند ما كان معي في المكتبة العمومية ، لكنني بعد انصرافه وقعت في وحشة يزيدها لزوم الصمت ، وعدم الفائدة في الكلام ، وضيق الصدر عند ارادة الاستفهام عما يراد فهمه ، ولا يوجد السبيل اليه إلا من طريق الاشارة . ولا يخفى عليك أن الاشارة إنما تصلح الافادة والاستفادة من الاخرس اذا

كنت والدلة له على ما في المثل « أم الاخرس أعرف بلغته » فلا بدّ من التعود على ضرب من الاشارة مخصوص حتى يتيسر الفهم والافهام . ولهذا لم يمكني أن أستفيد شيئاً فيما ينبغي أن يصنع لاستنساخ شيء من الكتب العربية، كذلك القطعة من شرح ابن رشد مثلاً . وبعد طول الكلام بفرنسية لا يفهمونها ، وإيطالية لأنهمها ، انصرفت وأنا من الجهل على مثل ما دخلت به ، لكن قد انكشفت عني غمة هذا الجهل بملاقة من أمكنه فهم ما أقول ، وأمكنتني فهم ما يقول من أهل المدينة

يناسب في هذا المحل ذكر ما يقال من أن الذي يعرف اللغة الفرنسية بسهولة عليه السفر في جميع بلاد أوربا ويتيسر له الفهم والافهام لأنها لغة عامة لا تجد نزلاً ولا مكاناً يرغب في زيارته إلا وأنت تجد فيه من يكفيك حاجتك فيما تريد . وقد رأيت أن هذا القول اضمحلت صحته في مكاتب بلرم ، ولم ألق ما يقوي صحته في مكتبة مسينا ، والمكاتب من ديار العلم التي يكثر فيها العارفون باللغات الأجنبية ، ولا ينبغي أن تخلو منهم لمسيس الحاجة اليهم . وقد بت ليلة في لوندرا ونزلت في أكبر نزل فيها يسمى (كيرافنور أوتيل) فيه ما يزيد على ست مئة بيت للنوم ، ولم أجد فيه من يعرف الفرنسية إلا خادمين أحدهما بواب والآخر من خدمة قاعة الطعام . أما خدمة أماكن النوم وغيرهم فلا يفهمون كلمة واحدة والحاجة اليهم أشد ، فإن المطالب الخاصة جميعها منوطة بهم أو بهن . اذا طلبت ماء أو لبناً أو قهوة ، أو تهيئة حمام أو نقل متاع من مكان إلى مكان ، أو تصحيح منكرس ، أو كسر صحيح ، لم تجد من تطالبه إلا أوائلك الذين لا يعرفون كلمة من الفرنسية ، غير أنهم لتعودهم فيما يظهر على كثرة ورود هذا النوع من الخرس صاروا أو صرن كوالدلة الأخرس يسهل عليهم أو عليهم فهم الاشارات بدون اتعاب شديد لأعضاء المشيرين (أي الذين يتفاهمون بالاشارة لا الذين حازوا رتبة المشيرية العسكرية العثمانية) لكن لا يخفى عليك أن من المطالب مالا تعبر عنه الاشارة ، فماذا تصنع اذا كنت أعلم العلماء بالفرنسية ، وعرض لك مثل هذا الطلب وليس عندك وقت يسع تعلم اللغة الانكليزية ؟ لا يسمعك إلا الاقارب بأن

ذلك القول الذي قالوا مبني على تجربة قاصرة لاتصلح أن تكون مقدمة من مقدمات البرهان المدودة في فن المنطق

أزيدك شيئاً في هذا وهو أنك اذا كنت لاتعرف لسان القوم الذين تنزل فيهم ، يجدونك طعمة أو هبة من الله سيقت اليهم ، فهم يكفرونك من النفقات ما يشاؤون ولا يجدون في أنفسهم داتقاً من الرأفة بك ، أو الرحمة لقربتك ، ولا يمكنك أن تبحث مع ناهبك في موضوع نهبك ، لأنه لا يفهم ما تقول ، وأنت لاتفهم ما يقول ، فينتهي أمرك بدفع ما رقم لك رغم أنك ، وغاية ما يمكنك فعله أن تتنفس الصعداء ، وتهز رأسك ، وتلوي عتقك ، علامة على غضبك ، ولكن هذا كله لا يوفر عليك ما نقصه منك الجهل باللسان

وفي ظني أن من أراد أن يسافر إلى بلد لا يعرف لسانه فأولى له ان يتعلم من لسان ذلك البلد ما يكفيه للتعامل ، ومدة سنة قبل السفر تكفي لذلك ، وأجرة الاستاذ المعلم لاتصل إلى نصف ما يخسره ببركة الجهل باللسان

أستغفر الله من خطأ فيما قلت . اذا أراد السفر إلى صقلية (سيسيلى) من بلاد ايطاليا فعليه أن يجدها معرفة اللغة الايطالية حتى يتكلم بسرعة ، ويفهم بسرعة يسبق بها كلامه وفهمه كلام الايطاليين وفهمهم ، وإلا سأل الله العوض فيما يفقد من متاعه ، أو ما يؤخذ منه أجرة على ضياعه . عند وضع قدمه على ساحل صقلية ، يجتمع عليه الحالمون والمرشدون المضلون ، ويتجادبون متاعه وثيابه ، كل يأخذ قطعة ، فان كان لا يعرف اللسان ، كان ما كان مما لا يسعه الامكان ، فاذا سلم له متاعه من التحطيم أو الضياع . او أصابه من ذلك فالم يفديه الدفاع . وجد أمامه جيشاً من الطالبيين كل واحد يطالبه بقيمة عمله . وما هو ذلك العمل ؟ هو حمل قطعة من المتاع وكلمة قيلت غير مفهومة في هدايته الى المحل الذي وصل اليه . مع أنه وصل برجليه . ومن طريق كل الناس يمشون فيه . ولا تنس أنهم يجاذبونك أعضاءك حتى ان جميع اجزائك لي خطر من مجاذبتهم ، اذا لم تكن حريصاً عليها . فاذا كنت في حاجة إلى السفر إلى هذه البلاد والاقامة فيها مدة من الزمان لتبديل الهواء وترويح النفس بجمال المناظر ، خصوصاً أيام الربيع

فعليك أن تصرف سنتين في تعلم اللغة الايطالية وما تنفقه في التعلم أقل مما تخسر مع تعذر التفاهم

وجدت أن الذي يعرف الانكليزية أسعد حظاً في فرنسا من يعرف الفرنسية في انكلترا . فانك لا تجد نزلاً في البلاد الفرنسية إلا وفيه كثير من الخدم الذين يعرفون الانكليزية . سألت عن السبب في ذلك فقيل لي ان أهل فرنسا قلما يسيحون في بلاد الانكاييز . أما الانكاييز والامريكيون فيملأون سهول فرنسا وجبالها . ويدهشون بالذهب صفارها ورجالها فاضطر الفرنسي الى ترويج الانكليزية في بلاده لتعجب الزائرين وليستكثر من الناثرين

ويل لك اذا اقامت يوماً أو يومين في نزل بمسينا من اكبر ما يقصده السائحون رب النزل يعرف بعض كلمات قليلة من الفرنسية يمكنه بها أن يفهمك ان أجرة محل النوم وحده بلا أكل ولا شرب عشرة فرنكات في الليلة ، ويمكنك أن تفهمه بأنك قبلت ذلك على شرط النظافة وتوفر الراحة ، وإن كان لا يعمل من ذلك بما فهم منك ، وإنما العمل على ما فهمت انت منه

تمام عند الساعة العاشرة فلا يمر عليك نصف ساعة إلا وقد أطار نومك صياح وجلبة ودوي حركات تذهب وتجي ، خارج منامك فيضيق صدرك وتطلب الفرج ولا تجده ، فتفتح الباب وتقول كلاماً كثيراً يفهم منه انك في شدة الضيق مما تسمع ولا سبيل إلى النوم ، فيقال لك ما تفهم منه ان هؤلاء مسافرون جاؤا إلى المحل من جديد ، وماذا يصنع معهم ؟ فتطلب محلاً آخر للنوم ، ويأخذون فراشك من محلك الأول إلى محلك الثاني ، فتحمد الله على الهدو وإقبال الراحة ، ثم تلتقي جسمك على الفراش ويقبل النوم على عينيك بتقله ، ثم لا يمضي نصف ساعة إلا وقد أخذت يداك تحك وجهك وعنقك ، واليسرى تحك اليمنى ، واليمنى تحك اليسرى ، ولا يزال الحك يزيد والمحكوك يتألم حتى تتنبه أعصاب الدماغ والعين ، ويصبح ذلك النوم الثقيل ، أخف من نفس الجليل ، فيطير عنك إلى حيث تبحث عنه ولا تجده ، ولا يبقى لك إلا الحك والحكة ، وما هذا كله ؟ هذا هو البق الذي ترعك حمرة ، وتقلقك عضته ،

بل حركته ، بل تطير نومك رؤيته ، فتطلب الخلاص ، وماذا تصنع ؟ مضت مدة من الليل نام فيها الصائمون ، فتعود إلى محلك الأول وقد نام الخادم ، فتعود إلى غير فراش أو تفرش لنفسك وهذا أفضل لك ، فإذا أصبحت حوسبت على شمعتين في مكانين لم تصرف منهما شيئاً وعلى شيئين آخرين ، وكدت تحاسب على أجرة مخدعين ،

أظرف ما وقع لي مع خادم هذا النزول : طلبت منه ماء بارداً فلم يفهم ، فأشرت إلى في ومثلت بيدي صورة انا الماء ، فإذا هو يفتح الباب وينظر إليّ كأنه فهم اني أشرت بيدي إلى أن الباب مغلق وبفمي إلى فتحه ، لأنه فتحة من فتحات بدني ، وبعد تعب أعضائي من الاشارة ، ولساني من التكلم بالفرنسية قمت وبمحتت عن كوب وأشرت به إليه ، ففهم اني أريد ماء لكن لم يفهم اني أريده بارداً ، وما أشد التعب في تصوير الجليد له ! فرغ ماء الغسل فطلبت منه تجديده ، فرفع في وجهي كرسيًا طويلًا اشتريته لأجلس عليه في المركب ، ففزعت لذلك وظننت انه يريد رمي به ظناً منه اني شتمته غير ان ذلك سرّي عني عند ما رأيته ينظر إليّ نظر الاحترام ويطلب مني بعينه أين يضع الكرسي ، فاستلقيت من الضحك وذهبت إلى موضع الغسل وأشرت إليه أن يبدد الماء ففعل ، أفلا يحملك ذلك على تعلم اللسان الايطالي اذا أردت السفر إلى سيسيليا وان لا تصدق ما يقال لك من أن معرفة الفرنسية تكفيك الحاجة في كل بلاد أوروبا ؟

مسينا ومقبرتها

نسيت أن أضع في جانب المقابر مقبرة مسينا ، وهي مقبرة في الجنوب الغربي من المدينة ، وانك اذا قلت لصقلي : اني ذاهب إلى مسينا : يقول لك في الحال : لا بد أن ترى المقبرة : وهي جزء من المدينة تحسب مدينة بنفسها فيها مدافن للامراء والأعيان ، مبنية على أجمل نظام ، وأقربه إلى السذاجة ، وفيها مكان شامخ رفيع يدفن فيه أرباب الشهرة من المهندسين والشعراء ونحوهم .

وطريقة الدفن في تلك الأماكن تختلف ، فبعضها على الطريقة اليهودية من وضع صندوق الجثة تحت الأرض ، وبعضها بوضعه في صندوق ضخم كبير لا يمكن سرقة على ظهر الأرض ، وبعضها في بيوت تفرض في عرض الجدر العريضة وهكذا . والمقبرة مزينة بأغراس من شجر الصنوبر ، وضرب من فصيلة الصنوبر يشبه الاثل وليس به ولا أعرف اسمه بالعربية سوى أنه شيء من كبار الطرفاء لكنها نظمت بيد أوروبية تعرف كيف تخضع النبات لآرادتها فتوجهه الى الوجهة التي تريد . والطرق فيها على غاية ما يرام من النظافة والانتظام ، وهي أنظف وأجمل من كثير من شوارع مدينة الاحياء (مسينا) ثم انها تأخذ من أسفل الطريق الى قمة جبل اذا صعدت عليه نظرت وأنت في المقبرة من البحر والساحل أجمل ما تنظر عينك من اللآلئ والنضرة في المواقع المختلفة ، ومن الاشكال الطبيعية ، وبدائع الاعمال الصناعية

يظهر ان المقبرة أعجبتني حتى انطلق قلبي في وصفها كأنه قلم صاحب جريدة ينطلق في السياسة المصرية ببيان مناحيها ووصف ضواحيها - أعوذ بالله - يوجد في هذه المقبرة مواضع مخصوصة للفقراء قد صفت فيها قبورهم على نظام محكم تراها كأنها خطوط مزارع القطن في أرض غير معتدلة تقصر وتطول ، وعلى رأس كل قبر صليب أسود بجمل للرائي من بعيد أنها أجنحة الغربان ، الجاثمة على بقايا الجثمان . لا أزال في وصف المقبرة كما لا يزال بعض الغافلين عن أنفسهم في بلادنا يشتغلون بالسياسة ، عن الأدب والكياسة

ماذا أقول في وصف هذه المقبرة ؟ مدينة جميلة المناظر . بدعة المداخل . بعيدة المحارج . الداخل فيها أكثر من الخارج منها . وقد اختير لها شجر الصنوبر زينة من بين الأشجار لأنه في خضرة دائمة وحية مستمرة كأن أرواح من يموت تنتقل اليه بعد مفارقة الأجساد . فهو لا يزال دائم الحياة في الصيف وفي الشتاء والحريف والربيع . مدينة زينها الأحياء في حياتهم . ليعودها لاقامتهم - فيما يزعمون - بعد مماتهم . وهكذا من كان على يقين من الرحيل الى دار هيا تلك الدار للسكنى وأعد لنفسه فيها أنواع النعيم ليطلب له المقام .

ولا يقلق به المكان ، لكن هل يكفي أن تزين لنفسك مقراً لجثتك وأنت لا تدري هل تشعر هناك بما زينت ، أو تؤخذ عنه إذا مت ؟ فهل زينت داراً لروحك بالطيبات ، كما زينت داراً لجثتك بالزهر والنبات . أخطبك وأنت مصري من سكان القاهرة لا ترى في مقبرتك ولا في الطريق الموصلة اليها الا ما يخيفك من الموت ، وينفصك فيه غمر من الغبار وتلؤل من التراب، تذكر بها انك من التراب والى التراب

إذا بنيت فيها مسكنا فاست تبنيه لنفسك يوم تموت ولكن تبنيه لتقيم فيه بجانب الأموات وتشاركهم في المسكن وأنت حي تقضي فيه الأيام من رجب ومن شعبان ومن شوال ومن ذي الحجة وبعض أيام من بقية الشهور تأكل وتشرب وتنام ولا تشبه جيرانك من أهل المقابر الا في النوم الثقيل ، ولا تستحي من معاشرتهم وأنت تأكل وهم لا يأكلون ، وتضحك وهم ربما يبكون ، وتلعب وهم لا يلعبون . تلهو بالقليل والقال ، وملاعبة النساء والأطفال ، وربما أقت في المقبرة ما تسميه بالموالد وجلبت بذلك اليها من المغنين والمطربين والعازين ، ونصبت فيها الخيام وصنعت من لذيذ الطعام ، ما تدعو الى تناوله العلماء الأعلام ، والأثقياء الكرام ، فليلبون دعوتك زرافات ووحداً ، مشاة وركبانا ، ويخوضون في غمار اللاهين الى أن يصلوا الى حيث نصبت خيامك ، وهيات طعامك ، على ظهور الأموات ، ويجوار تلك الرفات . وتبيت ليلتك تلهو وتلعب ، وتصيح وتصخب ، كأن الموت قد فارق ديارك وكره جوارك ، وفر من بين يديك ، مشمراً مما يرى لديك . وأما مقبرة مسينا فلا ترى فيها أكلا ولا شارباً . وإنما ترى الزائرين في سكينه ووقار لا يتكلمون إلا همساً ، تماشبهم ولا تكاد تسمع لهم جرساً (١)

١٥ الجرس يفتح الجيم وسكون السين هو الصوت الخفي

﴿ صخب الصقليين وتسولهم وكسلهم ﴾

أهل مسينا من أهالي سيسيليا ، وسيسيليا هي جزيرة صقلية التي ملك فيها العرب نحو أربعين سنة ، وكان منها كثير من العلماء والفقهاء والمؤرخين والفلاسفة والصوفية وبعض الزنادقة ، وكل صنف من صنوف أهل العلم والمنتسبين إليه ، كما كان في العراق والشام والأندلس . وقد ترك العرب آثاراً في البلاد ، منها ما تقدم ذكره وهو مما لا يذكر ، ومنها كلمات في لغتهم كثيرة كالشروق للريح الشرقية ، وكالقبعة والطلعة والشر ونحو ذلك من الكلمات التي ترشدك لأول وهلة إلى أصلها ، وإلى البلاد التي حلت منها . ولا أظن أن الصباح والصخب الذي اختص به أهالي سيسيليا يكون من ميراث العرب رحمهم الله . فإن أصوات السيليين أشد قرعاً ، وآلم في الأذن وقعاً . وإني لأشك في أن حناجرهم أشد تمرناً على الصراخ بغير داع من حناجر أهل كفر الجاموس (١) أو سكان عرب يسار . وأما العرب فكانوا يصيحون في الحرب والجلاد ، ويسكتون عند الرجوع إلى البلاد . ولعل هؤلاء استعملوا في السلم ما كان يستعمله أولئك في الحرب ، كما يفعل بحرية يافا وبيروت من نفور سورية . وأما الإهمال والكسل فلا أدري هل هو من طبيعة البلاد أو من ميراث تركه بعض السلف من الفاتحين ؟

ويل لك إذا عرفت بأنك غريب ، فإنه يتبعك السائلون الملحفون ، والبيكتدون المجدون ، ويلزمونك حتى تعطي شيئاً من النقد ، ولا فرق في حالك بين أن تجلس في قبوة أو تكون في زيارة معبد ، أو في تفقد مكتبة أو دار آثار ، تجد من ذلك ما لا تجده عند المتبولي ، ولا عند ضريح الأستاذ البيومي (رضي الله عنه) ثم تجد الناس في الساحات وقوفاً أو جوالين لا يدرون ماذا يعملون ، وأما يتقرب إلى الغرباء من يظن القدرة في نفسه على أن يقترس منهم فريسة ، لكن يمكنك إن

(١) كفر الجاموس مزرعة بالقرب من عين شمس في ضواحي مصر

كان عندك صبر أيوب وسماجة بعض السياسيين عندنا من المصريين أو السوريين
أن لاتعطي شيئاً أو تهرب اذا أردت

لعلك تفرست شيئاً من الكسل في حكاية ما وقع في فهرس الكتب العربية
في المكتبة العمومية ، ودقتر الاسماء في دار المحفوظات ، وازيدك انك اذا ذهبت
عند شركة الملاحة (بكسر الميم وتخفيف اللام ، لا الملاحة بفتح الميم وتشديد
اللام كما يقول بعض أكابرنا ^(١)) فان التشديد يجعل الكلمة موضعاً للملح الذي يوضع
على الطعام ويتناول أحياناً للاسهال . أما التخفيف فهو اللازم في اسم الشركة
لخفة صراكبها في السفر على البحر المالح ، وأظنّ اللفظ يرجع ايضاً الى رفيقه ، فان
في البحر ملحاً ايضاً لكنه ليس بكثير كالذي في تلك الكلمة المشددة) وجئت
مكتب الشركة لتطلب تذكرة سفر مثلاً تجد العامل يحرك يده ببطء كأن بعض
أجزائه ينازع بعضاً ، فاذا فرغ من الكتابة على هذا الوجه القتال أسرع بمدّ يده
اليك لطلب المبلغ ، فاذا دفعته اليه وكانت لك بقية من النقد يلزمه ردها اليك
كادت يده تشلّ بجانبه وأنت تنظر اليه ، وتنتظر أن تتناول مالك وتنصرف ،
وهو ينظر اليك كأنه يتمنى أن تنسى مالك عنده ، أو عمل الانتظار ويأخذك
الوقت فتتركه له ، وهذا ضرب من الكسل في أداء الحق ونوع من البطء في العمل
لا تجده حتى في مصر حرسها الله ، فان العمال عندنا حتى في زمن الصيف لا يسمحون
لأعضائهم أن تتعود هذه العادة الرديئة

(رثانة الصقليين ووساختهم ومقابلتهم بالمصريين)

أما رثانة الملبس عند الفقراء وذنس الثياب وعدم العناية بالنظافة في كثير
من الشؤون ، فذاك مما تجد له مثالا في كثير من الاحياء عندنا . واني أقص
عليك فكاكيتين وقعتاني النزل الكبير الذي نزلت فيه — رفع الله عماده — كنت
أطالع في جريدة خطابا ألقاه بعض أساتذة السوربون في باريس لمناسبة رفع تمثال

(١) هو أحد أعضاء مجاس شوري القوانين كان يتكلم في المجلس عن حرية
حرفة الملاحة في البحر ، ويضبطها هكذا بفتح الميم وتشديد اللام

للكتاب المؤرخ الرنسي رنان ، ألقاه في بلدة رنان التي ولد فيها ، وكنتم مستغرقا فيما بقول الخطيب عن القسيسين وتعاليمهم ، وعن الاحرار اطال الله في أسنتهم ، وما يروونه في فلسفتهم ، واذا بخادم النزول دخل عليّ وتحت ابطه ولد صغير في الخامسة من سنه تقريبا ، وقد علا الوسخ وجه الصبي ، وهجم القدر على عينيه يريد أكلهما ، وانفه وفمه يسيلان ذلك بما تعرف وهذا بما لا يخفى عليك ، ويده عنقود غنّب يتناول منه حبة بعد حبة وماء كل حبة يسيل من شذقيه ، اذ رأيت انه اممكنك ان تحلف بشي ، من الطلاق أو العتاق ان امكن ان هذا من ذرية (الشيخ الدعكي) رحمه الله ، أو ان روح الاستاذ ظهرت في مظهره اللطيف ، واذا كنت واحداً من بعض الأعيان أو بعض من يزوج بنفسه في العلماء الذين تعهدم أقسمت في الحال انه وليّ من الأولياء مجذوب من المجاذيب . فاذا ذكرك مذكر انه ايطالي قلت لا يبعد على الله أن يكون قد ملأ قلبه جذبا وولها ، ورزقه من ذلك في صغره ، مالم ينله الدعكيّ في كبره ، وإلا فكيف تسيل سعايبه إلى هذا الحد ويكون ليس بمجذوب ؟ هذا خلف . وربما حملك حسن الاعتقاد على أن تذهب إلى المحل الذي تعرفه ، وتستخرج من بحر الانساب ما يصل نسبه بمن لا يصح لأحد ان ينتسب اليه مادام على مثل هذا الاعتقاد . فانظر بعيشك الى هذا الطباق ، والتقابل بين ما كنت مستغرقا فيه ، وبين ما فاجأني من هذا المنظر الكريه . هل يمكنك أن تحدث نفسك بماذا دافعت عن نفسي في هذه الشدة ؟ دفعت فرذكا واحداً رميته على الأرض فالتقطه الصبي كما يلتقط العصفور حبة الأرز وكرّر راجعاً لابالي بتأخر أبيه عنه ليشكرني على ذلك الاحسان كأن الصبي كان يخاف ان اتبعه لأخذ الفرث منه . لا تظنّ أنّي أبالغ في كلمة مما قلت فما رأيك بهذه الوساخة ! :

أما الفكاهة الثانية فقد كنت على مائدة الطعام في محل نومي من ذلك النزول لقلة الرياح وسعة قاعة الطعام بحيث تكبر عن ان يجلس فيها شخص واحد فلما جاء صنف من الطعام يحتاج إلى الملح تنبّهت إلى الملاحظة (هذه المرة بتشديد اللام لأن فيها ملحاً) كما سترى . نظرت إلى الملح فاذا فيه النقط السوداء أكثر

من نزغات الشيطان ، في قلوب أهل الفسق والعصيان ، وأغزر من الخطيئات ، في بعض المزارات ، فنظرت الى الخادم وأخذت الملاحظة وانشأت انكت ما فيها من النقط السوداء نكتة نكتة ، وأصعد نظري في وجه الخادم واقطب وأظهر التقزز ، ولا زلت كذلك حتى فهم ان هذا شيء من الوسخ لأستطيع تناوله فعند ذلك تناول مني الملاحظة بغاية الكسل ، ثم ذهب وأطل الغيبة ، وبعد ما كدت أغضب مع سعة حلمي في السفر جاء بملاحظة أخرى اوسع من الأولى وأظهر منها ملحاً ، فكأنه يفهم أن الوساخة مما لا يليق ، لكن لا يتم له هذا الفهم الا اذا قال له شخص آخر إن النظافة خير منها ، وأن الوسخ شيء تتقزز منه النفس ، وينفر منه الحسن ،

أما مثال هذه الواقعة الثانية فما يكثر في خدمنا ، بل في بعض ساداتنا ربه الله حياتهم ، فانهم ينظرون بأعينهم الى الحبس والحبائث ، وربما حكوا فيه بوصفه لكنهم لا ينزهون المكان عنه ، بل ربما لا ينزهون انفسهم عن التلوث به الا اذا امرهم بذلك أمر ، فعند ذلك يمثلون الأمر بغيره المختار ، وعزيمة الجبار ، ثم يحدثك احدهم بحسن ما يصنع مما أمر به ، كأنه هو الذي اندفع اليه من نفسه كأن الأمر الصادر اليه هو الذي اكسب الشيء حسنه وحلاه بوصفه ، وأعوذ بالله أن يكون هذا هو مذهب الاشاعرة الذين يقولون ان حسن الفعل هو الامر به ، وقبحه هو النهي عنه ، وانه لاحسن ولا قبح للشيء في ذاته ، فاني على يقين انهم لا يعنون به ما يجده أولئك الآلات في انفسهم . وما عليك الا ان تبحث في رأي الفريقين حتى تقف بنفسك على تحقيق الشبهاؤ فيه ، فاني الآن لا اكتب كتاباً في علم الكلام ، ولا أكتب اسطري هذه للافاضل من أهل الفن فانهم أعلى من أن يستفيدوا من قراءة امثال هذه القصص ، أوسع الله من عقولهم حتى تسع أهالي بلرم ومسينا معاً ، وما ذلك على الله بعزيز

الذي يخطر ببالي من أسباب ذلك اذا أخذنا بالجد أن هذا شأن العامة من الأمم التي طال فيها زمن الاستبداد ، وتصرف الارادة الواحدة في جميع الارادات مع ما يطرأ على تلك الارادة الواحدة من الاختلال وفساد المزاج ،

فتأمر بالشيء اليوم لأنه من هواها ، وتتهى عنه غداً لأنه لم يبق من مشتهاها ، وأمرها واجب الاطاعة ، وفي مخالفتها إضاعة أي إضاعة ، فتعود الأنافس على تعاطي الأعمال لا لأنها مما يختاره ، بل لأنها مما تؤمر به ، ويحني عليها وجه الحسن والقبح ، لان تعود على العمل مهما كان قبيحاً يزينه للنفس أو يسهل عليها مقارفته ، وسهولة المقارفة إنما تنشأ عن عدم الاحساس برائحة القبح ، ولو بقي تنده في شامة النفس لعافته ، ولما أمكنها تعاطيه — وكذلك يحني وجه الحسن في الشيء متى خفي وجه القبح في ضده ، كما لا يحني عليك إن كنت من المدققين ، خصوصاً في علم أصول الفقه الحنفي ، وقرأت ما كتبه العلامة الغزالي والمحقق الحفيد وغيرهما على التلويح للعلامة الثاني سعد الدين التفتازاني حاشية توضيح على مختصر البرزوي .

إذا سألتني عن العلامة الأول في مقابلة العلامة الثاني فاني لا أتذكره الآن ، وإن صدق ظني يكون هو عبد القاهر الجرجاني ولكن . الأفضل لك أن تسأل شخصاً آخر من مدرسي حاشية التجريد للبناني ، فان من يقرأ هذه الحاشية يسهل عليه وزن العلهين ، وتحديد الفرق بين العلامتين - وربما قال لك : إن الأول هو القطب الشيرازي ، لأن سهولة كلام الامام عبد القاهر وسلالته تمنعهم من جعله العلامة الأول — وإن شئت أن لا تشتغل بهذه المسألة فهو أفضل من ذلك الأفضل . ويكون أفعال التفضيل الأول على غير بابها والسلام .

وإنما المهم فيما نحن بصدده أن الارادة السليمة ، والطبيعة المستقيمة يمكنها أن تميز الملح النظيف من الوسخ ، وتعني بتقديم النظيف المضيف من أول الأمر ، بدون احتياج الى اصدار أمر ، وقس على ملح الطعام بقية الاملاح ، كالتحو ملح العلم ، والعلماء ملح العالم . وهكذا كل ما يحتاج اليه في إصلاح الأغذية بدنية كانت أو روحية ، دنيوية كانت أو دينية . وأما اذ كنت لا تميز ولا تفهم الا بأمر فتربص حتى يأتي الله بأمره والله شديد العقاب

﴿ دور الآثار وبتاتن التبات ﴾

لا تبخس أهل سلسيا (صقلية) حقرم فانهم فهموا مسألة لابس بفهمها ، وأظنهم عرفوا ذلك من اخوانهم أهل شمالي ايطاليا وبقية الاوربيين ، وهي المحافظة على الآثار القديمة والجديدة . أما القديمة فتحفظ بذواتها ، وأما الجديدة فتحفظ ولو بنموذج منها . بنوا ملعباً في بلرم ، فصنعوا له مثالا من الخشب ، ووضعوه في دار الآثار . مدينة بلرم لها مثال مجسم ، رسمت فيه البساتين والجبال والكنائس مجسمة ، مصغرة بألوانها الطبيعية وألوان الأرض نفسها . وذلك المثال في دار الآثار ، حفظوا لباس امرأة مسلمة من مسلمي صقلية ، وهو زي يشبه الازياء الاوربية مع ساتر للوجه ، يدل على أن ستر الوجه كان عاماً حتى في صقلية أيضاً ، وان كان ذلك قد يفضب قاسم بك أمين ، فانه يجده له أصداداً في مسلمي أوروبا ، فضلاً عن مسلمي آسيا وأفريقيا

يحفظ القوم في متاحفهم هذه كل ما يوجد من آثار المتقدمين من مصنوعات وأشجار وأحجار ، ولا يدخرون جهماً . أ في حفظ ذلك حتى اذا وجدت اسم شيء في كتاب تاريخ مثلاً ، أو عرض لك اسم في علم من العلوم كان يدل على معنى في الزمن السابق ، أمكنك أن تعرف المدلول بالعيان والمشاهدة ، وتتحقق صحة الوصف والتعريف ، فما استعمله الأقدمون من آلات وأدوات وأنواع ثياب وضروب مراكب ونحو ذلك ، تجد شيئاً منه في متحف من المتاحف ، أو في قصر من القصور ، أو في كنيسة من الكنائس ، أو في داهية من الدواهي التي هناك . وهذا مما يفيد في تحقيق المعاني التاريخية واللغوية فائدة لا يعرف مقدارها الا من يسمع اسم الامة والدلاص والدرع والخوذة والعمامة (عمامة الحرب) ونحو ذلك من الألفاظ العربية الكثيرة الاستعمال ثم يراجعها في القاموس أو غيره من كتب المعجمات ، وبعد ذلك لاتستقر في خياله صورة لمدلول من مدلولات هذه الالفاظ ، وقد يتخيل صورة لامناسبة بينها وبين الحقيقة ، وهو جهل باللغة فاضح ، وكثير منا يأكلون اللوز والجوز ، وينطقون باسمه في البيت (٦٣ - تاريخ الاستاذ الامام - الجزء الثاني)

وعند البائع اذا طلبوا شراء شيء منه ، وهم اذا رأوا شجرة الجوز أو اللوز لا يميزون بينها وبين شجرة الجميز أو الفلفل . وأما الجماعة فعندهم في بساتين النبات جميع هذه الأنواع من الأشجار ، وما لاتناسبه درجة الحرارة في الهواء يحدون له جواء تناسبه بالتسخين أو التبريد حتى يعيش في جو مثل جوه ، ولكل من يريد معرفة شيء أن يذهب ويعرفه بعينه ، ذلك وقد رسموا صور هذا كله فيما كتبوا من كتب اللغة ومعجمات العلوم . ويتيسر للحاذق أن يعرف هذه الأشياء بصورها المرسومة في تلك الكتب . أما اذا قال لك صاحب القاموس : الجوز شجر (م) أي معروف ، فماذا تستفيد من هذا وأنت في مصر ، وليس في قرب الأزهر شيء من شجر الجوز (م) بل ولا في الازبكية نفسها ، فكيف يصير هذا عندك معروفاً ؟ وكيف يمكنك أن تحدث عن هذا الشجر اذا كنت كاتباً أو شاعراً أو طبيباً أو عالماً أو أديباً ؟

﴿ الصور والتماثيل وفوائدها وحكمها ﴾

لهؤلاء القوم حرص غريب على حفظ الصور المرسومة على الورق والنسيج ويوجد في دار الآثار عند الامم الكبرى مالا يوجد عند الامم الصغرى كالمصقلين مثلاً ، يحققون تاريخ رسمها واليد التي رسمتها ، ولهم تنافس في اقتناء ذلك غريب ، حتى إن القطعة الواحدة من رسم روفائيل مثلاً ربما تساوي مئتين من الآلاف في بعض المتاحف ، ولا يهتك معرفة القيمة بالتحقيق ، وإنما المهم هو التنافس في اقتناء الامم لهذه النقوش ، وعدت ما أتقن منها من أفضل ماترك المتقدم المتأخر ، وكذلك الحال في التماثيل ، وكما قدم المتروك من ذلك كان أعلى قيمة ، وكان القوم عليه أشد حرصاً ، هل تدري لماذا ؟

اذا كنت تدري السبب في حفظ سلفك للشعر وضبطه في دواوينه ، والمبالغة في تحريره ، خصوصاً شعر الجاهلية . وما غني الأوائل رحمهم الله بجمعه وترتيبه أمكنك أن تعرف السبب في محافظة القوم على هذه المصنوعات من الرسوم والتماثيل ، فإن الرسم ضرب من الشعر الذي يرمى ولا يسمع ، والشعر

ضرب من الرسم الذي يسمع ولا يرى . ان هذه الرسوم والتماثيل قد حفظت من أحوال الاشخاص في الشؤون المختلفة ، ومن أحوال الجماعات في المواقع المتنوعة ، ما تستحق به ان تسمى ديوان الهيئات والاحوال البشرية . بصورون الانسان أو الحيوان في حال الفرح والرضا ، والطمانينة والتسليم . وهذه المعاني المدرجة في هذه الالفاظ متقاربة لايسهل عليك تمييز بعضهما من بعض ، ولكنك تنظر في رسوم مختلفة فجد الفرق ظاهراً ، باهراً ، بصورونه مثلاً في حالة الجزع والفرح ، والخوف والحشية . والجزع والفرح مختلفان في المعنى ، ولم أجمعهما هنا طمعاً في جمع عينين في سطر واحد ، بل لأنهما مختلفان حقيقة ، ولكنك ربما تعصر ذهك لتحديد الفرق بينها وبين الخوف والحشية ، ولا يسهل عليك ان تعرف متى يكون الفرع ، ومتى يكون الجزع ، وما الهياة التي يكون عليها الشخص في هذه الحال أو تلك . وأما اذا نظرت إلى الرسم وهو ذلك الشعر الساكت ، فانك تجد الحقيقة بارزة لك تتمتع بها نفسك ، كما يتلذذ بالنظر فيها حسك . اذا نزعت نفسك الى تحقيق الاستعارة المصراحة في قولك : رأيت أسداً — تريد رجلاً شجاعاً — فانظر الى صورة ابي الهول بجانب الهرم الكبير ، تجد الأسد رجلاً ، أو الرجل اسداً ، فحفظ هذه الآثار حفظاً للعلم في الحقيقة ، وشكر لصاحب الصنعة على الابداع فيها . ان كنت فهمت من هذا شيئاً فذلك بغيتي ، وأما اذا لم تفهم فليس عندي وقت لتفسيماً بأطول من هذا ، وعليك بأحد اللغويين أو الرسامين ، أو الشعراء المفلتقين ، ليوضح لك ماغض عليك اذا كان ذلك من ذرعه .

ربما تعرض لك مسألة عند قراءة هذا الكلام ، وهي ما حكم هذه الصور في الشريعة الاسلامية اذا كان القصد منها ما ذكر من تصوير هيئات البشر في انفعالاتهم النفسية ، أو أوضاعهم الجثمانية ، هل هذا حرام أو جائز ، أو مكروه أو مندوب أو واجب ؟ فأقول لك ان الراسم قد رسم ، والفائدة محققة لانزاع فيها ، ومعنى العبادة وتعظيم التمثال أو الصورة قد محي من الازهان ، فاما أن تفهم الحكم من نفسك بعد ظهور الواقعة ، وإنما ان تضع سؤالاً الى المفتي وهو

بجيك مشافهة ، فاذا أوردت عليه حديث : « ان أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون » أو مافي معناه مما ورد في الصحيح . فالذي يغلب على ظني انه يقول لك ان الحديث جاء في أيام الوثنية وكانت الصور تتخذ في ذلك العهد لسببين : الاول اللهو ، والثاني التبرك بمثال من ترسم صورته من الصالحين ، والاول مما يفضه الدين ، والثاني مما جاء الاسلام لمحوه ، والمصور في الحالين شاغل عن الله أو مهمل للاشراك به ، فاذا زال هذان العارضان وقصدت الفائدة كان تصوير الاشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر في المصنوعات . وقد صنع ذلك في حواشي المصاحف ، وأوائل السور ، ولم يمنع أحد من العلماء ، مع أن الفائدة في نقش المصاحف موضع النزاع . وأما فائدة لصور فما لا نزاع فيه على الوجه الذي ذكر^(١) وأما اذا أردت أن ترتكب بعض السيئات في محل فيه صور طمعا في ان الملكين الكاثين أو كاتب السيئات على الأقل لا يدخل محلا فيه صور كما ورد فياك ان تظن ان ذلك ينجيك من احصاء مات فعل ، فان الله رقيب عليك . وناظر اليك . حتى في البيت الذي فيه صور . ولا أظن ان الملك يتأخر عن مرافقتك اذا تعدت دخول البيت لان فيه صوراً . ولا يمكنك أن تجيب المقتي بأن الصورة على كل حال مظنة العبادة فاني أظن انه يقول لك ان لسانك أيضاً مظنة الكذب فهل يجب ربطه مع انه يجوز أن يصدق كما يجوز أن يكذب

(١) ان الذين رسموا الصالحين والانبياء انما أرادوا التبرك بصورهم وتعظيمها إكراما لهم وهذا التعظيم يسمى في كل اللغات عبادة وجميع الصور والتماثيل التي كانت عند العرب كانت معظمة للدين ولذلك سمي في القرآن تعظيمها عبادة وكذلك النصراني كانوا يصرحون بأن تعظيم الأية ونحوها من الصور عبادة فلما عارض المصلحون في ذلك صار بعض المصريين عليه يسمي تعظيمها إكراما وأصر بعضهم على تسميته عبادة . هذا وان النهي عن التصوير في الاسلام لم يزد على النهي عن تعظيم القبور وتشریفها وبناء المساجد عليها وإيقاد السرج عليها والاحاديث الصحيحة في حظر هذا كله ولمن فاعله مشهورة وقد فعله المسلمون مع بقاء علته وهم يتركون النهي بروفاوند مع اتقاء علة النهي عنه أفنؤمن بظاهر بعض الدين ونكفر بحقيقة بعضه؟ (وكتبه محمد رشيد رضا)

وبالجملة انه يغلب على ظني أن الشريعة الاسلامية بعد من ان تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم بعد تحقيق انه لا خطر فيها على الدين لان جهة العقيدة ولا من وجهة العمل . على أن المسلمين لا يتساءلون الا فيما تظهر فائدته ليحرموا أنفسهم منها، وإلا فما بالهم لا يتساءلون عن زيارة قبور الأولياء أو مسامهم بعضهم بالأولياء، وهم ممن لا تعرف لهم سيرة . ولم يطلع لهم أحد على سريرة . ولا يستفتون فيما يفعلون عندها من ضروب التوسل والضراعة ، وما يعرضون عليها من الأموال والمتاع . وهم يخشونها كخشية الله أو أشد . ويطلبون منها ما يخشون ان لا يجيبهم الله فيه، ويظنون انها اسرع الى اجابتهم من عنايته سبحانه وتعالى . لا شك انه لا يمكنهم الجمع بين هذه العقائد وعقيدة التوحيد . ولكن يمكنهم الجمع بين التوحيد ورسم صور الانسان والحيوان لتحقيق المعاني العلمية وتمثيل الصور الذهنية .

هل سمعت اننا حفظنا شيئاً حتى غير الصور والرسوم، مع شدة حاجتنا الى حفظ كثير مما كان عند أسلافنا؟ لو حفظنا الدراهم والدنانير التي كان يقدر بها نصاب الزكاة ، ولا يزال يقدر بها الى اليوم أفما كان يسهل علينا تقدير النصاب بالجنهات والفرنكات ونحو ذلك مادام المثال الاول موجوداً بين أيدينا؟ ولو حفظ الصاع والمد وغيرها من المكاييل أفما كان ذلك مما ييسر لنا معرفة ما يصرف في زكاة الفطر وما يجب فيه الزكاة من غلات الزرع بعد تغيير المكاييل، وما كان علينا الا أن نقيس مكيالنا بتلك المكاييل المحفوظة فنصل الى حقيقة الأمر بدون خلاف . أظنك توافقني على انه لو حفظ درهم كل زمان ، وديناره ومده وصاعه لما وجد ذلك الخلاف الذي استمر بين الفقهاء، يتوارثونه سلفاً عن خلف، كل منهم يقدر المكيال والميزان بما لا يقدر به الآخر، حتى جاء في آخر الزمان احمد بيك الحسيني بخطي، بعضهم يوفق بين أقوال البعض الآخر، بدون أن يكون بين يديه صاع ولا مد من تلك الأصص والامداد، وما أصعب التخطيطة والتوفيق ، اذا لم يكن العيان هو المميز بين فريق وفريق ، لو نظرت إلى ما كان يوجب الدين علينا أن نحافظ عليه لوجدته كثيراً

لا يحصى عدده، ولم نحفظ منه شيئاً، فلنتركه كما تركه من كان قبلنا، ولكن ما تقول في الكتب وودائع العلم، هل حفظناها كما كان ينبغي أن نحفظها، أو أضعناها كما لا ينبغي أن نضيعها؟ ضاعت كتب العلم، وفارقت ديارنا نفائسه، فإذا أردت أن تبحث عن كتاب نادر، أو مؤلف فاخر، أو مصنف جليل، أو أثر مفيد، فاذهب الى خزائن بلاد أوربا تجد ذلك فيها. وأما بلادنا فقلما تجد فيها الا ماترك الاوريون ولم يحفظوا به من نفائس الكتب التاريخية والادبية والعلمية، وقد تجد بعض النسخة من الكتاب في دار الكتب المصرية مثلاً، وبعضها الآخر في دار الكتب بمدينة كبردرج من البلاد الانكليزية. ولو أردت أن أسرد لك ما حفظوا وضيعنا من دفاتر العلم لكتبت لك في ذلك كتاباً يضيع كإضاع غيره، وتجده بعد مدة في يد أوربي في فرنسا أو غيرها من بلاد أوربا نحن لانعنى بحفظ شيء نستبقي نفعه لمن يأتي بعدنا، ولو خطر ببال أحدنا أن يترك لمن بعده شيئاً جاء ذلك الذي بعده أشد الناس كفراً بتلك النعمة، وأخذ في ائساع ما عني السابق بحفظه له، فليست ملكة الحفظ ما يتوارث عندنا، وإنما الذي يتوارث هو ملكات الضغائن والاحقاد، تنتقل من الآباء إلى الاولاد، حتى تفسد العباد، وتخرّب البلاد، ويلتقي بها أربابها على شفير جهنم يوم المعاد.

﴿ أمير وأميرة من الاسرة الخديوية ﴾

البحر هادي، والهواء عليل، وقد قرب الغروب واليوم آخر أيام السفر، وأنا محبوس في هذا المكان الضيق، لتحرير هذه الاحرف، اجابة لطلب بعض الناس ووردي لو استنشقت الهواء، لكن بقيت علي قصة اقصها ولو تركتها اليوم لم يعد اليها القلم في يوم

صعدت الى المركب من مسينا وجلست انتظر مسيره، وبيننا انا كذلك واذا بأمر من أعضاء العائلة الخديوية يصعد من السلم الى السطح، قمضت السلام عليه، وتساءلنا عن مراحل اسفلنا، وفهمت منه أن معه حرمه، وهي من أعضاء

العائلة الخديوية كذلك . قلت : أمير جليل ربي على الطريقة الاروية ، وتعود السفر الى بلاد اروبا مع حرمه ، وهي كذلك قد ربيت على العظمة والحربة ، فلا ريب ان نرى الأميرة مع الأمير ، ولا يقدح ذلك في كرامة واحد منها ، فان الأميرات المصونات قد يرين الناس من حيث لا يراهن الناس ، لا لأنهن من عالم غير عالمهم ، ولكن لأن الناس يفضون الطرف احتراماً لهم ، ولا يحظر عليهن في رؤية من لا يراهن . لكنني مكثت مع الأمير الى وقت العصر ، ثم تركته وذهبت الى محل الأكل لاتناول شيئاً مما يتناول في هذا الوقت ، فكان جلوسي مع بعض أرباب البيوت من الفرنسيين المقيمين في الاسكندرية فبدوني بالكلام ، فتكلمت ، وامتد بي وبهم الحديث الى حالة المركب وازدحامه بالركاب وضيقة عنهم فقال قائل : أو قالت قائلة : مأسوا ما صنعت الشركة مع البرنيس ، فانها وضعتها في قرة ضيقة لاشباك لها ، وهي ملازمة لها ليلاً ونهارها ، ولو كانت ممن يخرجون ويستشقن الهواء لسهل الأمر ، ولكن الأميرة لا تخرج قط من يوم ركبت المركب ، ومن القمرات ما هو أفضل من قراتها ووسع : فسألت هل بها شيء تألم له لو خرجت؟ فقيل لي : لا ، الظاهر أنها في غاية الصحة وكامل العافية ، غير أنها لا تحب أن تخرج والقمرة مغلقة في جميع الاوقات :

امكنني بعد ذلك ان اسأل حتى يتم سروري بما فرحت لاوله ، فطلعت أن الأميرة كانت في أوروبا تسدل على وجهها نقاباً أزرق ، على نحو ما يسدل نساء الاستانة أو سورية بحيث لا يميز الناظر شيئاً من وجهها ، ومتى ركبت المركب لزمتم قمرتها ، وأغلقتها عليها ، إلى أن تصل إلى غاية سفرها . وكل ذلك تفعله حرصاً منها على كرامتها ، ومحافظه على المعروف من عوائدها ، من حيث هي أميرة مسلمة ، قلت مثل صالح لا بد من ذكره والثناء عليه ، حتى يتعلم أولئك المقلدون أن من أمرأهم وأميراتهم من هم أولى بتقليده . وأن خيراً لهم أن يقلدوا أميراً مصرياً من العائلة الخديوية الكريمة ، من أن يقلدوا جماعة من الاوربيين غير معروفين لهم ، ولا يحسون بتقليدهم ، ولا يستفيدون من حذوهم إلا تجردهم مما يميزهم من حيث هم مصريون أو مسلمون ، واختفاءهم في غمرة أولئك الاوربيين لا يتميزون

عن عانتهم في شيء ، وسريان ما يشكو منه القوم من الفساد إلى أنفسهم ، أو انفس نسائهم ، فبارك الله في الأمير وفي الأميرة ، وأرشد الله شباننا إلى التأسى بهما إن كان لابد لنسائهم أن يذهبن إلى أوروبا لمداواة علة ، أو ايناس في غربته ، لعلاك تسأل من هذا الأمير ومن هذه الأميرة ؟ فإني أقول لك الأمير هو الأمير عباس باشا حليم ، والأميرة هي الأميرة خديجة أخت أفندينا الخديو عباس باشا حليم . وما يسرك ان كنت مثلي تحب العفة ووضع الشيء موضعه ، أن الأمير لا ينفق في سفره ان كان وحده أكثر من ثلاث مئة وخمسين جنيهاً ، وإذا كان مع الأميرة فلا ينفق أكثر من ستمائة جنية في مدة شهرين ونصف ، وهو يعيش عيشة الامراء .

تقول : لعله يقتصد ليكتنز ، و يوفر ليستكثر ، فأقول لك اني علمت انه ينفق من ماله في تربية تلامذة في مصر وفي الآستانة وفي انكلترا يتعلمون العلوم العاليتي المدارس الحربية أو مدارس الطب أو الزراعة ، فما قولك في نفقة مثل هذه بدل النفقة في الشهوات ، وفوائت اللذات ؟ ألسنت تراقني على أنه من أفضل الامراء عملاء ، ومن أنبلهم قصداً فانه يربي أناساً يقومون بشؤون بيوتهم ، أعرف بعضهم وأجبل بعضا . ألا يكسب بهذا حسن الأحوال وتوخييد الذكر خصوصاً ؟ إذا استزاد من هذا الخير ، فانه بذلك يقوي عناصر العلم في البلاد وهو الأصل الذي يحتاج اليه لاسيما إذا انضم اليه حسن التربية ، كما هو مقصد الأمير ، ولو اقتدى به الامراء لأصبحنا في ثروة من العلم ، ولم تصب حضراتهم بالافلاس من المال ، بعد الافلاس من السكالك وفقه الله وأرشدكم والسلام .

﴿ يقول جامع الكتاب ﴾ كتب الاستاذ الامام هذا الفصل عن بلم عند زيارته إياها عائداً من الجزائر وتونس ، وفيه من شجون الحديث وفنون الاصلاح المفرغ في قالب الفكاهة ما رأيت ، وأهمها رأيه في التصوير والمجانب وأخبرني أنه كتب مذكرات بشأن تونس والجزائر يريد ايداعها في فصول اصلاحية بهذا النحو من الأسلوب ، وقضى قبل أن يجد فراغا لذلك ، ولم توجد تلك المذكرات في أوراقه الى هذا اليوم

الباب الرابع

لوائح الاصرح والتعليم الربني
(اللائحة الأولى)

كتبها في منفاه ببيروت ووقع عليها مع بعض وجهاء المسلمين وأرسلها الى سماحة شيخ الاسلام بالاستانة وذلك في ٢٦ جمادى الثانية سنة ١٣٠٤ ومنها يعلم أنه لم يأل جهداً في النصح للدولة وأنها لو عملت بإرشاده وصدقت أملة ورجاءه الحسن فيها لاحت الاسلام وجددت مجده وكانت بذلك ذات سيادة اسلامية حقيقية . وهذا نص ما كتبه رضي الله عنه وأتابه

(بسم الله الرحمن الرحيم)

لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وبه الحول والقوة ، وصلى الله وسلم على نبيه وآله وحبه * وبعد فقد رأينا وسررنا كما سر المسلمون كافة بما نشر في جريدة (طريق) من أنه صدرت الإرادة السنية الى حضرة صاحب السماحة مولانا شيخ الاسلام ، بأن تؤلف تحت رئاسته العلمية لجنة ، أعضاؤها حضرات حاجي السماحة نوري أفندي أمين الفتوى ، وحسني أفندي رئيس مجالس المعارف ، وصاحب العطاء فقعد الناظم أفندي وصاحب الفضيلة خوجه اسحاق أفندي وأن يناط بهذه اللجنة اصلاح جداول الدروس في المكاتب الاسلامية^(١) وتقومها ، حتى تكون كافة بجميع الوسائل الصحيحة لتعليم أولاد المسلمين ، وتلقينهم ضروريات الدين الاسلامي ، وتربيتهم بالأداب والاخلاق الاسلامية على وفق الحق المطلوب . وأن حضرة مولانا شيخ الاسلام ، وحضرات أعضاء اللجنة الكرام ، وإن كانوا في غنى بأرائهم

(١) لفظ المكتب يطلق في البلاد العثمانية على المدرسة النظامية وان كانت عالية كمكتب الحقوق ومكتب الطب

القويمة ،ومعارفهم الواسعة ،عن أن يتقدم اليهم أمثالنا بالمشورة ، ولكنها الحمية للدين تبعثنا على بسط ما يلوح بخواطرنا إلى أولياء أمورنا ،مع الاعتراف بالعجز ،والاقرار بالتصور ،عملا بقول سيدنا علي كرم الله وجهه : « من واجب حقوق الله على العباد النصيحة بمبلغ جديهم » وليس امرؤ وإن عظمت في الحق منزلته ،وتقدمت في الدين فضيلته ، يفوق أن يعان على ما حمله الله من حقه ، ولا امرؤ وإن صغرت النفوس ، واقتحمت العيون ، بدون أن يعين على ذلك أو يعان عليه .

إن من له قلب من أهل الدين الاسلامي ،يرى أن المحافظة على الدولة العلية العثمانية ثالثة العقائد بعد الايمان بالله ورسوله ،فانها وحدها المحافظة لسلطان الدين ،الكافة ببقاء حوزته ، وليس للدين سلطان في سواها ، وإنا والحمد لله على هذه العقيدة عليها نجيا وعليها نموت

إن للخلافة الاسلامية حصونا وأسواراً ، وان أحكم أسوارها ما استحکم في قلوب المؤمنين من الثقة بها ، والحمية للدفاع عنها ، ولا معقد للثقة ، ولا موقد للحمية في قلوب المسلمين ، إلا ما أتاهم من قبل الدين . ومن ظن أن اسم الوطن ومصصلحة البلاد وما شا كل ذلك من الألفاظ الطنانة يقوم مقام الدين في إنهاض الهمم ، وسوقها إلى الغايات المطلوبة منها ، فقد ضلَّ سوا السبيل

المسلمون قد تحيف الدهر نفوسهم ، وأتحت الأيام على معاهد ايمانهم ، ووهت عرى يقينهم ، بما غشيمهم من ظلمات الجهل بأصول دينهم ، وقد تبع الضعف فساد في الأخلاق ، وانتكاس في الطباع ، وانحطاط في الأنفس ، حتى أصبح الجمهور الأغلب منهم أشبه بالحيوانات الرتع ، غاية همهم أن يعيشوا إلى منقطع أجيالهم يأكلون ويشربون ويتناسلون ، ويتنافسون في اللذات البهيمية ، وسواء عليهم بعد ذلك أكانت العزة لله ورسوله وخليفته ، أو كانت العزة لسائد عليهم من غيرهم . وهؤلاء الهنديون ، وسكان ماوراء النهر ، وقبائل التركان وأشباههم ، يمثلون هذه الرزية أظهر تمثيل ، ولم تكن هذه المحنة خاصة بقوم من المسلمين دون قوم ، ولكن عمت بها البلية ، حتى خشي على قلوب كثير من العثمانيين أن يمسهذا المرض الخبيث ، لولا أن تدر كبا قوة مولانا أمير المؤمنين ^(١) خلد الله ظله

(١) انها لم تداركها وما كانت أعمال دولته كلها الا مظاهر صورية لاروح فيها

هذا الضعف الديني قد نهج لشياطين الأجنبي سبل الدخول إلى قلوب كثير من المسلمين ، واستمالة أهوائهم الى الأخذ بدسائسهم ، والاصاخة إلى وساوسهم فخلبوا عقول عدد غير قليل . ثم انبثت دعواتهم في أطراف البلاد الاسلامية ، حتى العثمانية لتضليل المسلمين ، فلا نرى بقعة من البقاع إلا فيها مدرسة للأمر بكتانيين أو اليسوعيين أو العزارية أو الفريير ، أو لجمعية أخرى من الجمعيات الدينية الاوربية ، والمسلمون لا يستنكفون من إرسال أولادهم الى تلك المدارس طمعاً في تعليمهم بعض العلوم المظنون نفعها في معيشتهم أو تحصيلهم بعض اللغات الأوربية التي يحسبونها ضرورية لسعادتهم في مستقبل حياتهم . ولم يختص هذا التساهل المحزن بالعامه والجهال ، بل تعدى إلى المعروفين بالتعصب في دينهم ، بل لبعض ذوي المناصب الدينية الاسلامية ، وأولئك الضعفاء أولاد المسلمين يدخلون الى تلك المدارس الأجنبية في سن السداجة ، وغرارة الصبا والحدائة ، ولا يسمعون إلا ما يناقض عقائد الدين الاسلامي ، ولا يرون إلا ما يخالف أحكام الشرع المحمدي ، بل لا يطرق أسماعهم إلا ما يزري على دينهم وعقائد آبائهم ، ويعيب عليهم التمسك بعري الطاعة لأوليائهم ويقع ذلك من نفوسهم موقع القبول ، لأنه من أسانذتهم ، القوام على تربيتهم باذن آبائهم ، ولا نطيل القول فيما يتلقونه من العقائد الفاسدة والآراء الباطلة ، فذلك أمر أعرف من أن يبين ، فلا تنقضي سنو تعليمهم الا وقد خوت قلوبهم من كل عقد اسلامي ، وأصبحوا كفاراً تحت حجاب اسم الاسلام ، ولا يقف الأمر عند ذلك ، بل تعقد قلوبهم على محبة الأجنبي ، وتجذب أهواؤهم الى مجاراتهم ، ويكونون طوعاً لهم فيما يريدونه منهم ، ثم ينفثون ما تدنست به نفوسهم بين العامة بالقول والعمل ، فيصبرون بذلك ويلا على الأمة ، ورزية على الدولة ، — نعوذ بالله — ولو فقه المسلمون لبذلوا من أموالهم ما يجيدون به تربية أبنائهم مع استبقائهم مسلمين في العقيدة ، عثمانيين في النزعة ، هذا ماجلبه الجهل على الأمة الاسلامية ، وأن غائلته لمن أشد الغوائل . وقد كنا نخاف أن محل بوائها لو

لم تدفعها عزيمه مولانا أمير المؤمنين^(١)

أما المكاتب والمدارس الإسلامية فقد كانت إما خالية من التعليم الديني جملة ، وإما مشتملة على شيء قليل منه ، لا يتجاوز أحكام العبادات على وجه مختصر ، وطريق صوري لا يعدو حفظ العبارات ، مع الجهل بالمدلولات ، ولهذا رأينا كثيراً ممن قرؤوا العلوم في المدارس العسكرية وغيرها^(٢) خلوا من الدين ، وجهلاً بعقائده ، منكمين على الشهوات وسفاسف المذات ، لا يخشون الله في سر ولا جهر ، ولا يراعون له حكماً في خير ولا شر ، وانحط بهم ذلك إلى الكاب في الكسب ، والانصباب على طلب التوسعة في العيش ، لا يلاحظون فيه حلالاً أو حراماً ، ولا طيباً أو خبيثاً ، فاذا دعوا إلى الدفاع عن الملة والدولة ركنوا إلى الراحة ، ومالوا إلى الحياة ، وطلبوا لأنفسهم الخلاص بأية وسيلة

وبالجملة فإن ضعف العقيدة والجهل بالدين قد شمل المسلمين على اختلاف طبقاتهم إلا من عصم الله ، وهم قليلون . ولهذا تراهم يفرون من الخدمة العسكرية ، ويطلبون للتخلص منها أية حيلة ، وهي من أهم الفروض الدينية المطلوبة منهم . نرى غيرهم من الأمم يتسابقون إلى الانتظام في سلك جنديتهم ، مع أنها غير معروفة في دينهم ، بل مضادة لصريح نصوصه ، ونرى المسلمين يبخلون بأموالهم إذا دعت الأحوال إلى مساعدة الدولة ، والانفاق على مصالح الأمة ، ولا يبخلون بذلك على شهواتهم ، بعكس ما نرى في سائر الأمم . هكذا انطلقاً من المسلمين مصباح العقل ، فلا يعرفون لهم رابطة يرتبطون بها ، ولا يهتدون إلى جامعة يلجؤون إليها ، وتقطع ما بينهم (محسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون) ولا حول ولا قوة إلا بالله

هذه أحوال نذكر منها التمايل ، والله يعلم أن الواقع منها أكثر من الكثير ،

(١) لقد حلت البوائق بالدولة ولم تدفعها عزيمته بل غلبه المتفرنجون حتى أضاعوا

الدولة وهم يدعون انقاذها (الطبعه الثانية)

(٢) ليتأمل القراء هذا الذي كتب منذ حيل كامل أي ٤٠ سنة وماذا كان من

أثره في الدولة والخلافة بأيدي هؤلاء العسكريين وأمثالهم ؟

نذكرها مقررة بأنفاس الأسف وصُعداء الحزن ، لما نعلم أن الجانب قد أرسلوا ذنابهم يتخطفون شاذتهم ، وأغلبهم شاذة ، ويفترسون نادتهم وجمهورهم نادة ، ومسارة الفساد فيهم مشهورة ، يحس بازديادها كل سنة عما قبلها ، وإن عواقب ذلك لتخشى ، ولا حول ولا قوة الا بالله

وإذا استقرينا أحوال المسلمين للبحث عن أسباب هذا الخذلان لانبجذ الا سبباً واحداً ، وهو القصور في التعليم الديني إما باهماله جملة كما هو في بعض البلاد وإما بالسلك اليه من غير طريقه القويمة كما في بعض آخر . أما الذين أهمل فيهم التعليم الديني . فجمهور العامة في كل ناحية ، لم يبق عندهم من الدين الا أسماء يذكرونها ، ولا يعتبرونها ، فان كانت لهم عقائد فهي بقايا من عقائد الجبرية والمرجئة من نحو أنه لا اختيار للعبد فيما يفعله ، وإنما هو مجبور فيما يصدر عنه جبراً محضاً . فلماذا لا يؤاخذ على ترك الفرائض ، ولا اجترام السيئات ، ومثل أن رحمة الله لا تدع ذنباً حتى تشمله بالغفران قطعاً ، لا احتمال معه للعقاب ، فليفعل الانسان ما يفعل من الموبات ، وليهمل ما يهمل من المفروضات ، فلا عقاب عليه ، وما شاكل ذلك مما أدى الى هدم أركان الدين من نفوسهم ، واستل الحمية من قلوبهم ، ولا منشأ له الا عدم تعليمهم عقائد دينهم ، وغفلتهم عما أودع في كتاب الله وسنة رسوله .

وأما الذين أصابوا شيئاً من العلم الديني فمنهم من كان همهم علم أحكام الطهارة والنجاسة ، وفرائض الصلاة والصيام ، وظنوا أن الدين منحصر في ذلك ، ومتى أدوا هاتين العبادتين على ما نص في كتب الفقه ، فقد أقاموا الدين ، وان هدا كل ركن سواهما ، ويشتركون مع الأولين في تلك العقائد الفاسدة ، ومنهم من زاد على ذلك علم الفروع في أبواب من المعاملات ، متخذاً ذلك آلة للكسب ، وصنعة من الصنائع العادية ، وأولئك الأغلب من طلاب الافتاء والقضاء ووظائف التدريس وما شاكل ذلك . لا ينظرون الى الدين الا من وجه ما يجلب اليهم المعيشة ، فان مال بهم طلب العيش الى مخالفته لم يبالوا بذلك ، معتقدين على مثل عقائد الجهلة مما قدمنا ، وهؤلاء لا تختص مفساد أعمالهم بذواتهم ، ولكنها تتعدى الى أخلاق العامة

وأطوارهم . فهذا القسم أعظم الأقسام خطراً ، وأشدّها ضرراً في العامة والخاصة ، وما أفراده بقليل

نعم لا ينكر أن الخير في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه يوجد في هذه الطبقة رجال وقفوا عند ما حدّ الكتاب ، واستمسكوا في الدين بالعرورة الوثقى وأضرم الدين في قلوبهم نار الحمية ، واستنفض اليقين همهم للنصرة الملية ، الا أنهم قليل ، والموجود منهم قد يكون خامل الذكر ، أو قاصر الاقتدار عما تطالبه به الشريعة في ارشاد الأمة . وبالجملة فوجود أمثالهم لم يكن كافياً في دفع الشرور الوافدة من غيرهم ، ولولا مالطف الله بهذه الأمة ، بسر توجه مولانا الخليفة الأعظم لعجل لها من الويال ما استحقته بسوء أعمالها ، ونبذها أحكام الله وراء ظهرها ، وانحرف قلوبها عن مقاصد ولاية أمورها الصادقين . وقد نظر مولانا أعزّه الله ونصره الى عظم هذا الأمر وهول عواقبه ، فأصدر ارادته السامية بالنظر في وجوه تداركه . فيالللنعمه العظمى ، وبالرحمة الكبرى ، هشت لها قلوب المؤمنين ، وبشت لورود بشرها وجوه الصادقين ، وارتفعت أصوات التضرع الى الله بتأييد شوكة مولانا أمير المؤمنين ، وتأييد دولته ، واعلاء كلمته وانه بعد التأمل في الأحوال المتقدمة وهي ظاهرة مشهورة والوقوف على سببها الذي أشرنا اليه وهو غير خفي على مدارك مولانا شيخ الاسلام وأعضاء اللجنة الكرام نعلم ان أمير المؤمنين لم يرد من اصلاح الجداول أن يدرج في فنون المدارس الاسلامية بعض الكتب القهية مع بقاء التعليم على طرقة المعبودة في المساجد وفي دروس بعض العلماء ، فان العلوم العملية اذا لم تبين على عقائد صحيحة وإيمان صادق لا تلبث أن تضمحل ، ولئن ثبتت فانما تسوق الى أعمال خالية عن النيات ، وخاوية من سر الاخلاص فتكون أشبه شيء بالباطلة في عدم ترتب الأثر المطلوب عليها كما قدمناه ، فلا بد أن يكون مولانا الخليفة أعز الله نصره قد أراد أن يوجه النظر الى فن تقوى به العقيدة ويستحكم سلطانها على العقول ، ثم إلى تربية تذكر بما تنال النفس من ذلك الفن فيكون التذكّر مستحفظاً لما يصل إليها منه ، ثم إلى فن الفقه الباطني وهو ما تعرف به أحوال النفس وأخلاقها والمبلك

منها كالكذب والحياة والقيمة والحسد والجبن وسائر الرذائل ، والمنجي كالصدق والأمانة والرضى والشجاعة وسائر الفضائل . ويضم الى ذلك باقي علم الحلال والحرام على ما هو مذكور في الكتاب والسنة ومتفق عليه بين أئمة الملة الاسلامية . ثم إلى تربية تحفظ ذلك وتروض النفس على العمل بما تعلم منه . ثم يكون التعليم في هذه الفنون المذكورة والتربية على وفق قواعد مستندين الى الشرع الشريف ، بحيث تذكر ما أخذها من القرآن والسنة الصحيحة ، وما صح أثره من أقوال الصحابة وعلما السلف الأول ومن هذا حذوهم كحجة الاسلام الغزالي وأمثاله ، فالمتقصد بالذات علمان وهما أصلان ومجموعهما ركن من الاصلاح ، والركن الآخر التربية بما يهيدان اليه حتى تصير العلوم ملكة راسخة تصدر عنها الأفعال بلا تعمل ، ثم يتبعها فن آخر يقوي على الغرض منها وهو فن التاريخ الديني ، خصوصاً سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة أصحابه والخلفاء الراشدين ومن تأثرهم من الخلفاء العثمانيين

هذا اجمال ماليه الحاجة من العلوم الدينية إلا أن كل واحد منها مقول على المبدأ والتوسط والنهاية ، وكل منها غذاء لطبقة من الناس لا قوام لحياتها الدينية والسياسية إلا به

فلهذا تقسم طبقات الناس الى ثلاث ونعين لكل واحدة منها حداً من هذه الفنون . فالطبقة الاولى العامة من أهل الصناعة والتجارة والزراعة ومن يتبعهم . والثانية طبقة الساسة ممن يتعاطى العمل للدولة في تدبير أمر الرعية ، وحمايتها من ضباط العسكرية ، وأعضاء المحاكم ورؤسائها ومن يتعلق بهم ، ومأموري الادارة على اختلاف مراتبهم . والطبقة الثالثة طبقة العلماء من أهل الارشاد والتربية ، ولا نريد بهذا القسم منع الآحاد من كل طبقة أن يطلبوا الكمال الذي خص به من فوقهم ، ولكن الغرض تحديد ما يلزم لكل واحدة ، ثم إن الله لا يضيع أجر العاملين

التعليم الديني الابتدائي لطبقة العامة المسلمين

﴿ الطبقة الأولى ﴾ هم أولاد المسلمين الذين يوقف بهم عند مبادئ الكتابة والقراءة ، وشيء من الحساب ، يعلمون ذلك إلى درجة محدودة ينتفعون بها في معاملاتهم ، ثم ينصرفون إلى أعمالهم الصناعية والتجارية والزراعية وما يشبهها ، وأولئك كتلامذة المكاتب الرشدية والعسكرية والملكية ، والمكاتب الخيرية الأهلية . فهؤلاء بهم الدولة منهم أن يكونوا في قيادة الطاعة ، إن جاذبتهم أرواحهم سلموها ، وإن استقرضتهم أموالهم بذلوها ، محتسبين ذلك في سبيل الله غير ساخطين ولا متكرهين . ثم لا يكون لوسوسة أجنبي منفذ إلى قلوبهم ، فيجب أن يودع في أفئدتهم بدايات تعليمهم موافق الحية ، ومعاصم الانفة الملية ، كما كان ذلك في نشأة الاسلام وبداءة الخلافة العمانية ، وكما هو معروف الآن عند الأمم الاورباوية مما تعلموه من أسلافنا ، ولا تدرك هذه الغاية من أبنائنا إلا بعقيدة صادقة ، واستقامة ثابتة ، ومحبة خالصة . ولهذا ينبغي أن توضع لهم كتب التعليم الديني على الوجه الآتي :

أولاً — كتاب مختصر في العقائد الاسلامية المتفق عليها عند أهل السنة بلا تعرض للخلاف بين الطوائف الاسلامية مطلقاً ، مع الاستدلال عليها بالأدلة الاقناعية القرآنية المنال ، والاستشهاد بالآيات القرآنية والاحاديث الصحيحة ، ومع الالمام بشيء من الخلاف بيننا وبين النصارى ، وبيان شبههم في معتقداتهم ، لتكون الخواطر في استعداد لدفع ما يرد عليها من وساوس دعاة الانجيل المبشرين في كل قطر

ثانياً — كتاب مختصر في الحلال والحرام من الأعمال ، وبيان الاخلاق الحثيثة ، والصفات الطيبة ، والتنبيه على البدع المستحدثة التي لم يرد في الكتاب فرضها ، ولا في السنة أثرها ، وظهر في العامة ضررها ، مستدلاً فيه بآيات الكتاب وأحاديث السنة ، مؤيداً بأعمال الصديقين من سلف الامة ، ولا بد أن يكون مدار الكتاب تقرير أن الانسان إنما خلق ليكون عبداً لله ، فكل شيء دون

الله ورسوله مبذول

ثالثاً — كتاب في التاريخ مختصر يحتوي على مجمل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة أصحابه من وجه ما يتعلق بالاخلاق الكريمة والاعمال العظيمة ، وفداء الدين بالارواح والاموال ، مع الامام بالسبب في تسلط الاسلام على لائمه في وقت قصير ، مع قلة أهله وكثرة معارضيه وقوتهم ، وإثبات ان ذلك بسر الصدق في المكافأة والاتحاد في المجاهدة . ثم يتبع ذلك بتاريخ الخلفاء العثمانيين ، كل ذلك على وجه مختصر سهل التناول

ثم هذه الكتب تكون للعثمانيين من العرب عريية ، ومن الترك تركية ، ومن غيرهم بلسانهم ان وجدوا ، وما يذكر فيها من آية وحديث يفسر باللغة الموضوعه فيها

التعليم الدينى الواسط للطبقة المرشحة للوظائف

﴿ الطبقة اثنائية ﴾ هم أبناء المسلمين الذين ينتظمون في المدارس السلطانية والشرعية والملكية والعسكرية والطبية وما يتلواها ، والذي يهم الدولة منهم أن يكونوا أمناء لها ، حفاظا لما استحضروا عليه من شؤونها — الجندي منهم حامل لنفسه على ذباب سيفه حتى ينتصر أو يموت ، والمحكم منهم بفصل الخصامات ، قابض على ميزان العدالة ، ناظر الى كنف النظام ، يرجح مارجح فيه ، ويسقط ماسقط منه . فهو يتحرى الحق ويحكم به أو يموت ، والمولى منهم أمراً في ادارة أمور الرعية ، آخذ لنظار الحذق والدراية ، ليستين ما يخفى من مصالح رعاياها ، وما يدق من مسالك أهوائها ، ليضبط الاعمال ، ويلزم الحدود ، ويوفر وسائل العمران . فهو يقيم للدولة ما قامت به مصالح رعاياها ، الا أن يحول دون ذلك الموت فيموت . فهذه الطبقة بعد أن تشارك الطبقة السابقة في مبدأ التعليم الديني يزداد لها بعد ما تقدم كتب أعلى من تلك الفنون نفسها فتوضع لهم في المدارس العالية والاعدادية على الوجه الآتي :

أولاً — كتاب يكون مقدمة للعلوم يحتوي على المهم في فن المنطق وأصول

النظر ، وشيء من آداب الجدل

(٦٥ — تاريخ الاستاذ الامام — الجزء الثاني)

ثانياً — كتاب في العقائد يوضع على قواعد البرهان العقلي والدليل القطعي مع التزام التوسط ، وإتيان الطريق الأقرب ، ومجانبة الخلاف بين المذاهب الاسلامية أيضاً ، إلا أن يتوسع فيما بيننا وبين النصارى لايضاح ما تستلزمه عقائدهم بوجه أجلى وأوضح ، وتفصيل شيء من فوائد العقائد الاسلامية في تقويم المعيشة المدنية ، فضلاً عن غاية السعادة الاخروية

ثالثاً — كتاب يفصل فيه الحلال والحرام ، وأبواب الفضائل والرذائل ببيان أكل مما في البداية ، وتوضيح لأسباب الاخلاق وعلاها وآثارها على وجه يقنع به العقل ، وتطمئن به النفس . ثم بيان الحكم لبعض الأحكام الدينية ، وفوائدها في الحياة البشرية ، مع الاستناد في هذا وفي سابقه الى نصوص الدين وسير السلف الصالح كما تقدم ، ويكون مدار الكلام في الكتابين على ما يضرم الحمية في القلوب ، ويرفع النفوس الى مقام لا تطلب فيه الامعالي الامور

رابعاً — كتاب تاريخ ديني يحتوي على تفصيل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم وسيرة أصحابه ، والفتوحات الاسلامية العظيمة في القرون المختلفة ، وما جاء به الخلفاء العثمانيون من ذلك ، والاتيان على كل هذا من وجه ديني محض . فان ذكرت فيه الوجوه السياسية كانت تابعة للغرض الديني ، ويبين في هذا الكتاب ما كانت تنبسط اليه سيادة الاسلام من أقطار الارض ، ويودع فيه من العبارات ما يهرك القلوب الى طلب المفقود ، فضلاً عن حفظ الموجود . ثم تبسط فيه أسباب التقدم الاسلامي بأدق مما كان في السابق

وأبناء هذه الطبقة كالسابقين من اخوانهم يكفهم أن يتعلموا هذه الكتب باللسنة آبائهم ، وما يذكر من النصوص العربية يفسر لغير العرب كما سبق ، ولا يلزم لتربيتهم الدينية أن يتعلموا من اللسان العربي الا ما يفرض عليهم في العبادات ، وما يتلونه من ذلك فلا بد من ايقافهم على حقيقة معناه بالتفسير ، حتى يكون كل قائل عارفاً بمدلول ما ينطق به لترك الذكر آثراً في الفكر كما هو مطلوب الشارع ، وقد يندرج في هذه الطبقة بعض من يناط بهم أمر التعليم في المدارس والمكاتب الابتدائية ، اذا وجدت فيهم الاوصاف التي تؤهلهم لذلك من الحمية

والعفة ، ومحبة الدولة ، والوقوف عند أحكام الشرع الشريف ، مع التبصر في المنوعات والمطلوبات ، وتمييز ماهو من الدين عما ليس منه وان خالف أو هاهم العامة

التعليم الربني العالي لطبقة المعلمين والمرشدين

﴿ الطبقة الثالثة ﴾ هم أبناء المسلمين الذين عقلوا ما تقدم من كتب الطبقتين السابقتين ، وكشف الامتحان امتيازهم في فهمها ، وتخلقهم بالصفات المقصودة بوضعها . فانتخبوا لذلك على أن يرقى بهم الدرجة العليا من العلم والعمل ، حتى يكونوا عرفاء الامة ، وهداة الملة ، فينيط بهم التعليم الديني في المدارس العالية والاعدادية ، بل والابتدائية اذا كثر عددهم ، وبهم ينيط التعليم لأهل طبقتهم فهؤلاء لا يكتفي لا بلاغهم الغاية المطلوبة للدولة فهم دراسة ثلاثة أو أربعة من الكتب الدينية ، بل يجب أن يزداد لهم على ما تقدم كتب كثيرة ، يزدادون بدراستها بصيرة في دينهم ، ويستوسعون بها القدرة في البيان لافادة غيرهم . فمن المعلوم أنه لا يكتفي المرشد ما يكتفي للمسترشد ، ولأجل هذا تقتصر في بيان ما يحتاجون اليه على ذكر الفنون دون التعرض لأعيان الكتب الا قليلا . فلتكن الفنون على الوجه الآتي ان شاء الله

أولا — فن تفسير القرآن ، وهو أهم ما يحتاج اليه ليقرأ القرآن تفهما وتطلبا لما أودع الله فيه من الاسرار والحكمة . فالقرآن سر نجاح المسلمين ، ولا حيلة في تلافى أمرهم الا ارجاعهم اليه ، ومالم تفرغ صيخته أعماق قلوبهم ، وتزلزل هزته رواصي طباعهم ، فالامل مقطوع من هبوبهم من نومهم . ولا بد أن يؤخذ القرآن من أقرب وجوهه على ما ترشد اليه أساليب اللغة العربية ، ليستجاب لدعوته كما استجاب لها رعاة الغنم وساقاة الابل ممن أنزل القرآن بلغتهم ، والقرآن قريب لطالبه متى كان عارفا باللغة العربية ، ومذاهب العرب في الكلام ، وتاريخهم وعوائدهم أيام الوحي ، فعلم ذلك من أجود الوسائل لفهمه ، فان احتيج الى وسيلة أخرى ، فأولاهها : مطالعة كتب التفسير الذاهبة مذهب

تطبيق مفاهيم الكتاب على المعروف عند العرب كتفسير الكشاف^(١) وتفسير القمي النيسابوري ، ومن أخذ طريقهما

ثانياً — فنون اللغة العربية من نحو وصرف ومعان وبيان وتاريخ جاهلي وما يتبع ذلك ليتمكن بها من فهم القرآن والحديث

ثالثاً — فن الحديث على شرط أن يؤخذ مفسراً للقرآن ، مبنياً له ، مع إطراح ما يخالف نضه من الأحاديث الضعيفة ، والاجتهاد لارجاع الأحاديث الصحيحة اليه إن كان ظاهرها بوم المخالفة

رابعاً — فن الأخلاق والآداب الدينية بتفصيل تام وإحاطة كاملة على نحو مسلك الامام الغزالي في الاحياء ، مع تطبيق تلك القواعد الأدبية الشرعية على الاصول المشهورة

خامساً — فن أصول الفقه من وجه ما يمكن من صحة الاستدلال بالنصوص الشرعية ، ويوقف على كليات الشريعة ، ليستأنس بها في فهم الأحكام . ونرى أفضل كتاب يفيد لهذا المقصد كتاب المواقفات للشيخ الشاطبي المطبوع في تونس

سادساً — فن التاريخ القديم والحديث ، ويدخل في ذلك سيرة النبي صلى الله عليه وسلم بالتفصيل ، وسير أصحابه ، وتاريخ الانقلابات التي عرضت في الممالك الاسلامية الاولى ، وتاريخ الدولة العثمانية ، وما كان منها في إنهاض الاسلام من كبوته التي كباها في القرون الوسطى بعد الحروب الصليبية ، مع التوفيق في أسباب ما وصلت اليه الملة في هذه الايام ، ليتبين أنه لاسبب لذلك الا الجهل بالدين ، والانحراف عن أحكامه ، وانشقاق عصا الامة بالخلاف الذي لا طائل له

سابعاً — فن الاقناع والخطابة وأصول الجدل، لغرض التمكن من تقرير

(١) كنت سألت الشيخ في أول مرة أيته فيها بطرابلس الشام أيام طامي للعلم فيها عما يختار لطالب العلم من التفاسير ليفهم القرآن فهما صحيحا - فقال الكشاف - قلت ان فيه كثيرا من نزغات الاعتزال فيخشى ان تعلق بذهن الطالب فيشذعن السنة . قال بل تلك مواضع قليلة معروفة يمكن الاحتراز منها

المعاني في الأذهان ، وثبتت العقائد في النفوس ، وإلزامها الأخذ بكلام الاخلاق وفضائل الاعمال ، والارتفاع بها عن دنايا الصفات وسفساف الامور ثامناً — فن الكلام ، والنظر في العقائد ، واختلاف المذاهب ، والبحث في أدلة كل ، لا لتحصيل العقيدة ، ولكن لزيادة البسطة في الفكر ، والسعة في الرأي ، ولا بأس بقراءة بعض الكتب الحكيمية الاسلامية لتكميل الاحاطة بوجوه المسائل العقلية

فهذا جملة ما يلزم لتحلية نفوس هذه الطبقة بفضيالي العلم والعمل ، ولم نتعرض لفن الفقه في العبادات والمعاملات ، لأنه في العبادات سهل التناول من أفواه الطلبة ، وفي المعاملات يشترك في طلبه المسلم والذمي والأجنبي ، إذ يضطر اليه كل ساكن في الممالك العثمانية ، ليعرف كيف يطالب بحقه أو يدافع عنه . وأما سائر العلوم من اللغات والرياضيات والطبيعات والنظومات ، وكل ما حدته نظارة المعارف العثمانية ، فهي على رسمها ، كل مدرسة تتبع قانونها ، لا يضرشيء منها بالدين ، بل الدين يقويها كما أنها تقويه

هذه الطبقة الأخيرة ينبغي أن تكون تحت نظر مولانا شيخ الاسلام خاصة وتكون إدارتها تحت عنايته في سلك مخصوص ، ويدعى لها بالمدرسين المتبصرين من أي أرض يوجدون بها ، وينتخب طلبة العلوم لها من أقوى الناس إدراكاً ، وأذكاهم أخلاقاً ، ويراعى في الانتخاب كمال الدقة في الامتحان . ثم لا يعطى الطالب منها شهادة ببلوغه الغاية من علومها ، وتأهله للتدريس الا بعد الامتحان الشديد في العلوم المتقدمة ، والبحث الكامل عن سيرته في أحواله وأعماله ، والتحقق من تقدمه في الفضيلتين العلم والعمل

التدريس في جميع تلك الدرجات انما يقصد منه اشراب القلوب حب الدين وتوقيره ، وجعله الغاية المطلوبة من كل عمل ، حتى تكون للملة وجهة واحدة يقصدونها بأعمالهم ، فتلتم قواها الروحية والمالية لخدمة الدين ، وتأيد حافظه الأعظم ، المدافع عن بيضته ، حضرة مولانا أمير المؤمنين ، فتكون الملة ملة مهيبة ، يخشى بأسها ، ويخاف برائث غضبها ، ويؤول بالدولة الي علو الكلمة

في سياستها الخارجية، بعد ما عادت بركانه على المسلمين في راحتهم الداخلية .
وبالجملة فالقصد من اصلاح الجداول انما هو احياء الملة ، وقد كانت كادت
تموت والعياذ بالله (١)

ولهذا يجب أن يكون التدريس في أغلب العلوم المتقدمة - خصوصاً في
الاخلاق والآداب - أشبه شيء بالخطابة ترسل في المعاني الى القلوب لتمهيزها
وتستفزه من مقارن الحول والغفلة، الى مقامات التنبيه والبصيرة . ثم يتبع الدرس
رعاية لأحوال المعلمين وأعمالهم ، ومؤاخذه لهم اذا خالفوا حكماً من أحكام
ماتعلموه ، أو قصروا في عمل من لوازم ما اعتقدوه ، وتذكيرهم في ذلك يؤثر في
قلوبهم ، ويحرك الساكن من خواطرهم . ومن ثمة يجب أن يكون القائمون بالتعليم
على أكل الصفات العقلية ، وأفضل الاعمال النفسية ، يراعي فيهم ذلك بقدر الامكان
وان ثقتنا بوعد الله في قوله (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)
وقوله (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) وقوله (ان الله مع الذين اتقوا...)
وقوله (ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون) واعتبارنا بقوله (ان الله
لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وخبرتنا بأحوال الأمم الاوربية ،
والاسباب التي وصلت بهم الى ما نراهم عليه في القوة والدراية ، كل ذلك
يجب لنا اليقين القطعي بأن إصلاح التعليم الديني على الوجه المتقدم يكون نشأة
حياة جديدة تسري في جميع أرواح المسلمين العمانيين ، بل هو الذي سيفضي
في أسرع وقت إلى توحيد كلمة الاسلام ، وجمع أطرافه تحت كنف الدولة العلية
العثمانية رغماً عن أنف كل مناصم ، ومنه رأي هؤلاء العاجزين أن لا حافظ
للدولة ولا وافي الملة سواه ، وأن جميع ما صرف في سبيله من المتاعب والنقبات
فهو أعود بالفائدة مما يصرف لأي عمل سياسي خارجي أو داخلي ، فانه لاسياسة
إلا بالقوة ، ولا قوة إلا بالنجدة ، ولا نجدة الا بالوحدة ، ولا وحدة الا بالطاعة ،
ولا حقيقة للطاعة الا بالعقيدة الحسنة ، ولا عقيدة إلا بحياة الدين ، ولا حياة
للدين الا بالتعليم ، حتى يجري على أحكام التجربة ، وليس ذلك الا معارضناه

(١) رحم الله الاستاذ فاذا كان يقول لو عاش الى زماننا هذا

وأن جمهور المسلمين ممن يعرف أفكارهم في الأقطار العثمانية ، بل وفي غيرها لا يرون دواء لدائهم الا رجوعهم لأصول دينهم في أخلاقهم وأعمالهم ، وأن يكونوا يجهلون الوسائل الى ذلك . فالحمد لله الذي وفق الدولة حرسها الله لتقريب مرغوبهم ، وتحقيق أمانهم

هذا ما نرفعه الى مقام شيخ الاسلام ، فان صادف قبولا فذلك ما نؤمل ويؤمل المسلمون ، وان كانت الاخرى فقد أدينا ما حضر لنا على حسب عجزنا ونسأل الله أن يوفق مولانا أمير المؤمنين وأركان دولته الى تقرير ما هو أعلى من أفكارنا ، وأصح منها في اصلاحنا . وانا في جميع الأحوال نوالي الدعوات الصالحات بنصر مولانا الخليفة الاعظم وتأيدته وبقائه ظللا لله ورحمة لعبيده آمين

كلام في الرعاية والمرشيه

وبقي في موضوع الاصلاح الديني كلام هو كالتمه له ، فنقدم لعرضه وهو أن المكاتب والمدارس المنشأة في الممالك العثمانية ، ان لم تكن قليلة بالنسبة للراعايا العثمانيين ، فالداخل اليها قليل بالنسبة الى عدد الاهالي ، فان الجمهور الاعظم من سكان القرى ، والأعراب المتقلبين في أكناف المملكة وأشباهم لا يرون ضرورة لتعليم أولادهم ، ولا يقصدون التربية الحسنة حق قدرها . فاصلاح جداول التعليم في المدارس لا تصيبهم فائدته ، بل يحرمون منها كما يحرم الكبار من العامة الذين جاوزوا سن التعليم ، وهؤلاء . وأولئك من جسم الدولة ولهم وظائف من الاعمال يطالبون بأدائها ، والحال فيهم من الجهل ما وصفنا . والمضرة اللاحقة بالدولة من جهلهم هي كما بينا . فمن الواجب الالتفات اليهم باصلاح أرواحهم لتستفيد الدولة منهم فائدتها من سوام

وذلك لا يكون الا بترتيب دعوة تنبهم الى الواجب عليهم من تعليم أبنائهم ، وتحميلهم على السعي في تربيتهم وتهذيبهم ، ثم تخدعهم عن أطباعهم ، وتلين من قساوة قلوبهم . ثم أنهم لو رغبوا في التعليم ، وكلفت الدولة بانشاء مكاتب لتربية أبنائهم ، والانفاق عليها لزادت عليها النفقات مع كثرة ما يلزمها

من المصاريف في إدارة شؤون المملكة ، فلا بد أن يكون من وظائف الدعاة تحريض الموسرين والأغنياء أن يبذلوا من فضلات أموالهم ما ينفق على إنشاء المكاتب وعمل التعليم فيها ، ويؤلفوا لذلك لجانا وجماعات في كل بلد وبقعة لتديره والقيام عليه تحت مراقبة من يقوم بالدعوة فيهم . ثم يكون من وظائف الدعاة إلقاء الوعظ العام في المساجد والجماعم ايدكروا الناس ما نسوا من دينهم ويعرفوهم ما جهلوا منه ، ويشربوا قلوبهم حب الدولة ، ويقررروا في نفوسهم بلطف البيان أن أمير المؤمنين ، وخليفة رسول رب العالمين أولى بهم من أنفسهم وعلى ذلك يجب أن يكون لأهل الدين دعاة مرشدون ينبشون بين العامة ليقفهم على أمور دينهم ، ويبادروهم بالدواء قبل استفحال الداء .

وهؤلاء المرشدون يجب أن يكونوا على الأوصاف التي شرطناها في أهل الطبقة الثالثة علماً وعملاً . وبالجملة فلا بد أن يكونوا من أطول الناس باعاً في الفنون الأدبية الشرعية ، وأوسعهم علماً بعالم الأخلاق وأمراض النفوس ، وأقدمهم على التماس منافذ القلوب للدخول اليها بما يصاحبها . ثم يكونوا أقوم الناس سيرة ، لا يخالف عملهم قولهم فيكونون مثالا للناس يحتذونهم ، وقدوة لهم يتبعونها . ثم لا بد أن يكون في كل قوم بلغتهم ، بل يجب أن يكونوا ممتازين بفصاحة اللسان وجودة المنطق بين القوم الذين يرشدونهم ليقبلوا عليهم بالاستماع . ومن هذا تلزم المبادرة إلى إصلاح الخطبة في مساجد الجمعة ، وتوليها قوماً يحسنونها ، ويدرجون فيها ما يمس أحوال العامة في تصرفاتهم المشهودة ، ويبشرون لهم مضار الفساد ، ويهدونهم الى سبل الرشاد ، كما هو مقصود الشارع من فرض الخطبة في الجمعة ، وهذا باب عظيم من الإصلاح اذا وجهت العناية اليه رجونا منه النفع الكثير والخير الغزير

فان سأل سائل : أين الكتب التي توضع للطبقة الاولى والثانية من المتعلمين؟ وأين الرجال الذين يصلحون للتعليم والتربية؟ وأين الذين يقومون بتربية الطبقة الثالثة وتهذيبها؟ وأين الذين يمكن للدولة أن تعتمد عليهم في إرشاد العامة وتبشيم دعاة؟ ثم من أين توجد مصاريف هذه الأعمال؟ ثم كيف شرطت في أهل

الطبقة الثالثة أن يحصلوا تلك العلوم مع الايفال فيها ، والوصول الى حقائقها ، وذلك يستدعى زمنا طويلا

(فالجواب) أما وضع الكتب للطبقتين فسهل جداً لو كلف أحدنا بوضعها لتيسر له ذلك بمعونة الله عز وجل في أقرب وقت يمكن متى صدر الأمر بذلك تحت نظر مولانا شيخ الاسلام . وأما الرجال الذين يعلمون في الطبقتين الاولين وفي الثالثة أيضاً والذين يليقون لوظيفة الارشاد فهم إن تعسر وجودهم في بلد واحد أو مدينة واحدة فالبحث عنهم في أطراف بلاد المسلمين يهدي الى الكفاية منهم لبداية المشروع متى صدقت النية وخلصت الوجهة لله وللحق في البحث والاختيار . وأمثال أولئك الرجال أهل الدين والاستقامة قلما يقفون بأبواب الامراء ، أو يتطلبون المناصب الا اذا رأوا في ذلك مصلحة لدينهم . فهؤلاء لا يعرفون إلا بعد التفتيش عليهم . ثم اذا حسنت البداية وتبعها الاجتهاد مع الاخلاص في العمل وصل الأمر بتوفيق الله الى الكمال المطلوب

وأما طول الزمان في التعليم على أهل الطبقة الثالثة فقد علمنا أن الرؤساء الروحانيين من الطائفة النصرانية ، يقيمون في تعلم لاهوتهم خاصة خمس عشرة سنة ، بل وعشرين زيادة على الزمن الذي صرفوه في سائر العلوم . ومن المقرر عندنا أن ما يشتغلون به هو الباطل ، فليس من المنكر ولا الغريب أن يطول على طلاب الحق زمن البحث للاحاطة بأطرافه ، حتى يتمكنوا من نصره وتأيينه

وأما المصاريف فانه متى وجد ولو قليل من الرجال العارفين الصادقين (وهم موجودون في زوايا الخفاء ، يظهرهم البحث الصحيح والطلب الدقيق) وقاموا في الناس بالنصيحة من قبل الدولة ، وظهر من حسن تصرفهم واستقامتهم ما أكد ثقة الناس بهم ، فلا تقصر أيديهم عن تخليص الأموال الوافرة من أيدي الترفين من أهالي المملكة العثمانية لتصرف في هذا السبيل ، وأقل تجربة تحقق هذا الذي نقوله متى فوض الأمر لأهله . فاننا لم نأت بشيء من الكلام في هذا الباب الا عن خبرة بأحوال إخواننا المسلمين ، وطول ممارسة لأخلاقهم .

والصادقون في خدمة الدين لا يدركهم اليأس من إصلاحه ، فانه لا يأس من روح الله الا القوم الكافرون

هذا مجمل ما حضر لخواطر العاجزين ، وفي التفاصيل ما يطول به القول
أضعافا مضاعفة ، فان دعينا اليه لم تتأخر عن بثه ، والله الهادي الى سواء السبيل
وهو حسبنا ونعم الوكيل ، وصلى الله على سيدنا محمد سيد المرسلين ، وعلى آله
وصحبه أجمعين

جمادى الآخرة سنة ١٣٠٤

﴿ يقول جامع الكتاب ﴾ هذه نصيحة الرجل الذي كان يشي به أهل
الفساد في مصر للسلطان بأنه يفيض الدولة فليأتنا أحد بمثل نصحه للدولة في هذه
اللائحة ، وفي اللائحة التالية لها

اللائحة الثانية

في اصلاح قطر السورى

قدمها الى دولة والى بيروت بعد تقديم اللائحة السابقة الى شيخ الاسلام وهي

أرفع الى مقام دولتكم السامي أن للدولة العلية أدام الله سلطانها ، وعزز
مكانها ، حقوقا ثابتة على ذم المسلمين تتقاضاها العقيدة بعد أن قضت بها طبيعة الحياة
الملية ، ولا هوادة بين الله وبين أحد من خلقه في إغفال حق من تلك الحقوق.
وأدناها صرف الفكر إلى النظر فيما يعزز جانب تلك الدولة ويقوي أركانها ،
وأقصدها بذل ما استطاع من السعي لدفع مالا يلتم مع مصلحتها ، وأعلاها الجود
بالنفس واستقبال هول الموت في ذلك السبيل الاقوم

وإني على ضعفي — والحمد لله — مسلم العقيدة عثمانى المشرب وإن كنت
هربي اللسان ، لأجد في فرائض الله بعد الايمان بشرعه والعمل على أصوله فرضاً
أعظم من احترام مقام الخلافة والاستمسك بعصمته ، والخضوع لجلالته ، وشحن
الهمة لنصرته بالفكر والقول والعمل ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، وعندى آني
إن لم أقم على هذه الطريق فلا اعتداد عند الله بإيماني فأبنا الخلافة حفاظ الاسلام

ودعامة الايمان ، فخاذلها محادّة لله ورسوله ، ومن حادّة الله ورسوله فأولئك هم الظالمون . فهذا الذي أزعج همي للفكر في أحوال هذه البلاد مدة إقامتي بها غريباً عن أهلها مفكراً في مجاري أعمالهم ، وما خدمشاربهم ، وضروب مذاهبهم ، من وجه مايتعلق بالدولة رعاها الله وهو الذي بعثني على أن أعرض ماألمت به من ذلك على مقام دولتكم بعد الثقة بأنكم من أغزر رجال الدولة علماء، وأرجحهم حلماً ، وأقومهم سيرة ، وأشدّهم حرصاً على تعزيز عرش الخلافة ، وأصدقهم إخلاصاً في خدمة أمير المؤمنين أعز الله نصره . وأرغم إلى عليّ نظركم ما لو ألقى بين يدي سواكم لخشيت إغفاله ، وتوجست إهماله ، ولو نال الحظ من جليل رأيكم فيه لكساه قبولكم حلة الفخار ، وأكسبته لحظات التفاتكم العالي مسحة الحق والنصفة ، فان كان مارجوت فذلك فضل الله وكال سجاياكم الطاهرة وعلو رأيكم . وإن كانت الأخرى فما هو إلا الفرض أقضيه مع الاعتراف بالعجز ، وقصور الفكر ، وكلال النظر

هذه البلاد من أجدر بلاد الدولة العلية بالرعاية وأولاها بالاهتمام ، وموقعها من سائر البلاد العثمانية لايجنفي على نظر دولتكم ، وقد توم بعض من تولاها من خدمة الدولة أن في نفوس أهلها ميلا للاستقلال، وطموحا للانفصاخ عن دوحه الخلافة نعوذ بالله ، فهذا وهم لأساس له ولايس جانب الحقيقة ، فنفوس السكان على اختلاف طبقاتهم لا ترى من أجل أحوالها ما يؤهلها لأقل شأن يليه هذه الغاية ، وهم أطوع للسلطة الحاكمة عليهم من ظلمهم ، ولا هم لهم إلا في استرضاء العاملين عليها بأية وسيلة كانت ، ولو فرض أن خيالاً بالياً مثل هذا لاح بذهن أحد مما له صلة بالاجانب منهم فليس بخارج عن حد الأمان المستحيلة ، وليس في البلاد ولا فيما يجاورها من يجتمع عليه الكامة ، أو تعقد على التسليم له العزام ، نعم نشأ هذا الوهم من ألفاظ صدرت من بعد الطغام السذج الذين لامقام لهم بين العامة ولا الخاصة على عهد بعض الولاة، لتسامحه فيها ، وعدم مبالاته بها ، وهي قذفات لا مكان للقصد منها ، وطائشات كلم لاشمة للرأي فيها ، وهي بما يصدر عن الاطفال ، أشبه منها بما يكون عن الرجال ، ولهذا لم يكن أثرها في

أنفس العامة فوق وصول الفاظها إلى أسماعهم ، ثم ترد على قائلها ، ويحتمل بها التراب في وجوههم ، ولكن مما يوجب الأسف أن بعض الظانين بالرعية هذا الظن من عمال الدولة قد عولوا عليه و جاؤا بما عاد على المسلمين بالضرر في تربيتهم وأخذ أفكارهم ، وأفاد غيرهم في الاستعلاء ، عليهم كما جرى من بعض أولئك العمال في إلغاء الجمعيات الخيرية الاسلامية على قيام أمثالها في سائر الطوائف

على أنه يوجد أمر آخر ان لم يكن أعظم ضرراً من هذا الوهم على فرض ثبوته فليس بأقل غائلة منه ، وذلك أن سكان هذه البلاد ينقسمون أولاً إلى قسمين الأول سكان جبل لبنان ، والثاني سكان ولايتي بيروت وسورية

مادة أهالي جبل لبنان

أما سكان جبل لبنان فهم طوائف مختلفة أكثرها عدداً وأقواها عدة طائفة الموارنة من النصارى ويلبها طائفة الدرّوز ، ويوجد نزر يسير من أهل السنة، وعدد قليل من الشيعة، وعائلات من سائر الطوائف المسيحية . فالموارنة يعتقدون أنفسهم فرنساويين وهوامم للدولة الفرنسية وصغارهم معها لاعتقادهم أنها الحامية لهم، والواقية لحقوقهم ، وقوي الاعتقاد فيهم من نحو ثلاثين سنة بعد حوادث لبنان والشام المشهورة وامتياز الجبل ، والحكومة الفرنسية لاتتي في تمكين هذه العقيدة بتأييد الجمعيات الفرنسية ومساعدتها على إنشاء المدارس والمكاتب في جميع أنحاء الجبل . وتلك الجمعيات انما وضعت مدارسها على أساس التربية الفرنسية واشراب المتعلمين فيها مذهب الميل إلى فرنسا واخراجهم بما أمكن من الوسائل عن عوائد بلادهم وابعادهم عن معرفة حقوق أوطانهم حتى لقد يخرج التلميذ من المدرسة وكأنه آتى من بلاد فرنسا لا يعلم من أحوال وطنه ودولته إلا ما يعلمه بعض السياحين وطرقاق البلاد من الأجانب ، ثم بعد استتمام دروسهم لا يرى النبيل منهم مطلباً أشرف من نيل وظيفة دانية أو عالية في إحدى دوائر الاجانب إما ترجاناً لقنصل ، أو كاتباً في شركة ، أو ماشاكل

ذلك . ورؤساء هذه الطائفة لامفرغ لهم يلجئون اليه إلا قنصل الدولة الفرنسية ، وفي كل عام تبذل حكومة فرنسا مبالغ وافرة من الدنانير لابلغ هذا الفساد حده .

والدروز كانوا قبل ١٨٦٠ من أقوى أنصار الدولة وأشد الطوائف تعلقاً بها ولهم صفات في الشجاعة والثبات تخولهم مقاماً يزيد في الرفعة على مقام الموارنة في الجبل ، ولكن بدأ فيهم الضعف بعد امتياز لبنان عند ماصار النظام قاضياً بأن متصرفه يكون كاثوليكياً ، وأغلب رجال حكومته من المسيحيين ، وأصبحت قوة البأس لا توصلهم إلى المناصب كما كانت في سابق العهد . واضطروا لموالاته أهل السلطة ليحفظوا بعض ما بقي لهم ، أو ينالوا شيئاً مما يخولهم النظام نيله ، فانحطت بذلك أحوالهم ، وقد كانوا ولا يزالون فتيين جنبلاطية ويزبكية . فالجنبلاطيون استمالتهم حكومة انكلترا ، وأخص علاقتهم مع قنصل الانكليز ، واليزبكيون وهم أقرب الفتيين إلى الدولة مالوا إلى المشرب الفرنسي وكرعوا منه حتى عموا ، غير أن الحكومة الانكليزية لم تأل جهداً في استمالتهم أيضاً بواسطة المدارس والمكاتب التي ينشئها المرسلون من البروتستانت لتربية أبناء الدروز أولاً وبالذات وتربية غيرهم ثانياً وبالتبع

والدروز قوم خلو من العلوم بالمرّة سدج كأنهم في بدايات البنداوة ، ولكنهم أذكاء بجودة الفطرة ، ولا يخشى على كبارهم أن يخلعوا مذهبهم إلى مذهب آخر وإنما يخاف على أبنائهم من ذلك ، وعلى كبارهم من الاتقياد السياسي إلى دولة الانكليز

وأما المسلمون السنيون والشيعة وغيرهم فلا نظر اليهم ، وإنما هواهم هوى جيرانهم ، فالمخالطون الموارنة طوع لهم ، والمخالطون للدروز تبع لهم ، وقما يعرفون شيئاً من شؤون دينهم ، فلبنان يتنازع النفوذ فيه دولتا فرنسا وانكلترا ، وليس يخاف ما تأتي به هذه المسابقة السياسية ، بعد ما ظهرت آثار مثلها في بلاد آخر ، والدولة أعزها الله مع أن البلاد بلادها ليس لها من يروج سياستها ، ويؤيد كلمتها ، وأمرها يتبع ميل المتصرف إن صدق في خدمتها كان لها والإلا

صار الى غيرها ، والمتصرف شخص يعزل ويولي ، وأهل البلادهم القوة الراسخة
وبهم تؤزر السلطة فيهم

ولكن كل هذه المساعي الاجنبية على ما يحفظها من عناية المتدرعين بها تخشى
عواقبها ، وترعد بوائقها ، اذا جاء المستقبل على أثر الماضي لا يمارض فيه السعي
بمثله ، ولا تقطع الطريق على الصالحين فيها ، وأما اذا توجهت من الدولة لمحمة
نظر الى استبقاء قلوب رعاياها اللبنانيين لها ، وتطهيرها من تلك الأغبيات
الطارئة عليها ، فما أيسر أن يتم لها قصدها ، وتذهب تلك المساعي هباء منثوراً .
ولا سبيل الى ذلك الا بالترية ومدافعة الأجانِب بمثل سلاحهم ، فلا بدّ من
النظر في وسيلة لترية اللبنانيين على المشرب العماني ، واثن دعيت الى تفصيلها
بذلت ما في الوسع للفكر فيها

مادة أهالي ولايتي بيروت وسورية

أما ولايتا بيروت وسورية ففيهما من سكان الأعراب المتبدون وفيها
القرويون وأهل الحضر ، أما القرويون وسكان المدن فمنهم المسلمون أهل السنة
وهم الجمهور الأغلب ، ومنهم الدرروز في حوران ، ومنهم الشيعة سكان الشقيف
وبلاد بشارة في نواحي صيدا وصور ، ومنهم النصيرية في لواء اللاذقية ، ومنهم
الطوائف المسيحية من موارنة وروم كأثوليك ملكيين ، وروم ارتوذكس وبروتستانت
الطوائف النصرانية على اختلافها تذهب مذهباً واحداً في تربية أبنائها
وتهيئتهم للأعمال وهو مذهب التقليد الأفرنجي ، غير أن منهم من يروقه المشرب
الفرنساوي وهؤلاء هم الموارنة والروم الملكيون يدفعون بأولادهم في المدارس
الأجنبية الفرنسية مثل مكاتب الجزويت وغيرهم لينشأوا كما ينشأ الموارنة في
جبل لبنان ، واذا أسسوا مكاتب لأنفسهم كما فعل الموارنة في تأسيس مدرسة
الحكمة ببيروت ، والملكيون في المدرسة البطركية بها ، ومنشآت أخر في أطراف
البلاد ، فلا يضعونها إلا على قواعد فرنسوية ، واللسان الأول فيها الفرنسية ،
واللهوى والميل فرنساوي ، ومنتهى أمرهم في التحصيل على ما بينا في الموارنة .

ودروس تلك المدارس التي يدعونها وطنية انما تقرر في كتب من التاريخ وغيره من مؤلفات الافرنج مما يتمتع دخوله في البلاد العثمانية لاحتوائه على الطعن في الدين والدولة ، وهكذا يعلمون أبناء البلاد إلى أن ينتسبوا الى غير أبيهم الحقيقي وأجل شيء يفتخر به الناشئون في تلك المدارس أن يكون لأحدهم ذوق فرنساي ومذهب من مذاهب الفرنسيين السياسية ، وما من مكتب من هذه المكاتب إلا وفرنسا مساعدة مادية وأدبية له

ومنهم البروتستانت ومشر بهم انكليزي ، ومنهم من لا مشرب له في التربية وهم الروم الارثوذكس ومدارسهم الخاصة بهم قلما تكون لها غاية سياسية ولكنهم تارة يبعثون بأبنائهم الى مدارس الجزويت وأمثالهم فينشئون فرنساويين وتارة الى مدارس آخر منهم ينشئون على المشرب الذي نموا عليه ، وهذه الطائفة أقرب الطوائف المسيحية الى الدولة غير أنها لم تشأ أن تكون محرومة من النسبة الى الاجانب حتى لا يكون ذلك عاراً عليها في أعين اخواتها من بقية الطوائف فاخترت ماوافقها في المذهب الديني فانتسبت الى دولة الروس غير أن الروس لم يوجد لهم الى الآن أعوان للتربية على مشربهم السياسي (١)

ولو نظم بين هذه المدارس وهذه الطوائف مكتب عماني على قواعد توافق حال أهل البلاد ، وقام بإدارته رجال متبصرون حذاق في إصابة الاغراض والرمي اليها لبرزت تربيته جميع تلك التداير ، واجتثت أصول تلك المفاسد ، وانما يلزم لذلك سبي خارج المكتب لجلب التلامذة اليه كما يفعل أرباب تلك المكاتب . واذا دعيت لبيان طريقة ذلك السبي استعنت بالله على بيانه

﴿النصيرية﴾ قوم أجلاف أشداء يعتقدون بأوهية علي بن أبي طالب . فمذهبهم الديني غير مذهب الدولة ، وصفار المأمورين منهم ربما كانت منهم معاملات تخالف الواجب عليهم في صداقة الدولة . ولهذا كثيراً ما انتقض أولئك القوم على الحكم ، وشقوا عصا الطاعة . وكان ذلك منهم بسبي وكلاء الأجانب

(١) بعد هذه الكتابة بسنين قليلة أنشأت روسيا تنشئة المدارس في

وبث الوساطوس من المرسلين البروتستانت بما أنشأوا بينهم من المكاتب ، حتى أنه من نحو ثلاثين سنة اشتد أمرهم في الشقاق ، وكان راشد باشا والياً على سورية فذهب بنفسه لاختضاعهم ، وبعد البحث رأى أن أسباب العصيان كانت إغراء أولئك الشياطين ، فالتمس من الباب العالي تقرير ستين ألف قرش لتصرف على إنشاء مكاتب عثمانية في قرى هذه الطائفة ، وصدر الأمر بذلك ، إلا أنه لم يجر العمل به حتى الآن . ويوجد أسماء مكاتب يأخذ مأموروها معاشاتهم من خزينة الدولة ، وهم في اللاذقية ولا مكاتب ولا تعليم . وما أقرب هؤلاء من الدولة لو التفت إلى تربيتهم في مكاتب عثمانية منتظمة ، بل لو اعتني باخراجهم من مذهبهم الى الاسلام الصحيح لم يصعب ذلك اذا أحكم أساس التربية فيهم ، وبني على قواعد الحكمة والدربة ، وقام بالعمل عليه أرباب المكنة والقدرة العقلية ، والاستقامة النفسية

﴿ الشيعة ﴾ لا يقرون بالخلافة إلا لل قائم المنتظر . ولهذا وجد الأجانب سبيلا للدخول على قلوبهم ، لكن بغير تلك الطرق التي دخلوا بها على غيرهم . فان لهذه الطائفة حمية على مذهبها الديني تفوق حمية جميع المذاهب ، يعتقدون بنجاسة اليهود والنصارى وغيرهم من مخالفي الاسلام ، ولهذا لا يلقون أولادهم في المكاتب المسيحية ، ولكن وكلاء الأجانب وشياطينهم يصورون لهم عمال الدولة في صورة مشوهة ، وربما كان من بعض المأمورين ما يصدق مزاعم أولئك المفسدين . وكثيراً ما يخيلون لهم الاحتماء بدولة أخرى ، وليس من البعيد أن تميل أفكارهم الى خلاف ما يرغبه الصادقون في محبة الدولة ، ولا تؤمن خائلة ذلك ، واستعمال الشدة في مراقبتهم لا يزيدهم الا نفوراً . ولكن ما أسهل سد تلك المنافذ على أولئك الأجانب بانشاء معهد للتربية العثمانية ، بل ما أسهل تذليل شدتهم المذهبية ، واستصفاءهم للدولة باقامة مهذبين من أهل الأفكار الصائبة الذين يسطون على النفوس بجمال أفكارهم وصالح أخلاقهم ، لا بشكاسة طباعهم وصعوبة شكائهم . لا ريب أنهم بعد ذلك يفضلون جانب الدولة على جانب غيرها ، فان أهملوا كانت العاقبة ضد المأمول

﴿ الدروز في حوران ﴾ لم يخف حالهم على رجال الدولة ، غير أنه زاد في سوئها عناية الانكاييز بارسال رجال من رؤساء البروتستانت لتعليمهم وبث الدسائس فيهم ، حتى إنهم عينوا أسقفاً في القدس بمعاش الف وخمسة مائة ليرأ في كل شهر لتدبير التربية في حوران خاصة . ولا طريق لاصلاحهم وراحة الدولة من ناحيتهم الا ما يسلكه غيرنا لمثل هذه الغاية ، وهو التربية والتعليم مع اختيار الصالحين للقيام بها .

﴿ المسلمون من أهل السنة ﴾ هم عماد الدولة وركنها الشديد ، وهم قومها الحقيقيون ، وفيهم عصبها الثابتة . ومن المين أن قوائم الدولة العلية ثبتها الله مستقرة على أديم الدين ، لأنها دولة خلافة ، فعاملها في القلوب سلطان الدين ، فكلمها قوي الدين في الأفتدة ظهرت آثاره في الأعمال . فاستمات أهله لحماية مسند الخلافة . وكلما ضعف الدين ضعف أثره بحكم الضرورة ، ولكل وسيلة خلف منها . أما الدين فلا عوض عنه للدولة العلية أيدها الله

المسلمون السنيون يتفقون مع الدولة في المذهب الديني تمام الاتفاق ، وهي علاقة من أمتن العلائق في طبيعتها . ولكن عرض عليها ما يوجب الالتفات ، ويستدعي دقة النظر ، وهو غشيان الجهل بمحائق الدين بعد ما أهل التعليم الاسلامي الصحيح ، ويبان ذلك مفصل بعض التفصيل في الاثمة المعروضة لدولة شيخ الاسلام . وقد كان للمسلمين من نحو ثلاثين سنة حال يحمد في نظر المسلم ، فقد تسابقوا ركباناً ورجالا متطوعين الى الجهاد المقدس في حرب سباستبول المشهورة . ثم كانت حالهم أيام الحرب الأخيرة من التقاعد مالايسر ، وفي هذه الأيام الأخيرة يذل الرجل منهم كل ماله للفرار من الخدمة العسكرية وإن جاءت لا قدر الله حرب ذهبوا اليها كارهين ، بعد أن كانوا يذهبون راغبين ، كل هذا والجهاد من فرائض دينهم ، يفيض به كتاب الله في أغلب سوره ، وما كان خمود الحماية في نفوسهم الا لضعف العقيدة بمخالطة الاوربيين ، وإهمال التعليم المذهبي . وقد قال المستر (جي دبليو ليتز) مفتش المكاتب الهندية فيما كتبه الى جريدة الدالي تلعراف الصادرة في فبراير سنة ١٨٨٨ أثناء كلامه

على لزوم تقوية العقائد الدينية في قلوب الرعايا الهنديين (لا بد أن نؤمن بما آمن به أكبر شاه الهندي من أن الدين والملك توأمان . فكما أن كل دولة تخمد الأفكار الدينية من نفوس رعاياها ، يسرع إليها الهدم ، ويقضي عليها الزوال بحكمه ، ويستحيل عليها أن تدوم . كذلك كل دولة لا تسند عقائد رعاياها ، ولا تعينهم على التمسك بها ، لا يتسنى لها إلى النجاح سبيل اه) فهذا إنكليزي يطلب من دولته أن تعين المسلمين على التمسك بعقائدهم لتثبت محبتهم . فما أجددنا بالعبارة بذلك ، والملة ملتنا ، والقوم قومنا

انتبه المسلمون في هذه (الآونة) لسوء حالهم من نيف وعشر سنين ، وضارعو سائر الطوائف فشكلت منهم جمعيات خيرية ، كجمعية المقاصد الخيرية لتربية أبناء المسلمين وحياء العقائد الدينية في قلوبهم ، ووقايتهم من سطوة الأجانب على أفكارهم . وجد أعضاء تلك الجمعيات في رعاية المكاتب الابتدائية التي أنشئت على نفقة أهل الخير ، فساء ذلك الطوائف المسيحية . فأخذ المفسدون منهم في الوسوسة لبعض العمال ، حتى أقنعوهم بأن لهذه الجمعية مقاصد سياسية ، وساعد أولئك السعاة جماعة ممن يدعون الإسلام ولا يعرفونه ، فكانت العاقبة إلغاء هذه الجمعيات ، وتحويلها إلى مجالس رسمية ، ثم محي أثرها بالارة ، والله يشهد ورسوله أن الساعين كاذبون ، ولم أر شيئاً كان أشد على نفوس المسلمين من إلغاء تلك الجمعيات ، فحصدت أفكارهم ، وتقطعت آمالهم ، ورجعوا إلى جاهلية ، إما لارغبة لهم في العلم أصلاً ، أو لهم رغبة فيما يتعلمه المسيحيون من اللغات الأجنبية ، وبعض مبادي علوم لا تفيدهم في إصلاح الأنفس شيئاً ، ولكن تؤثر في إفسادها

فالزاعمون أنهم من رغبة العلوم يبعثون بأبنائهم إلى تلك المكاتب المسيحية فرنسوية أو ألمانية أو إنكليزية ، أو وطنية بالاسم ، أجنبية بالحقيقة ، ولا فرق بين صالحهم وطالحهم في ذلك ، وكل هذه المكاتب دينية أنشئت لغرضين : تحويل العقائد إلى المسيحية ، وإمالة المشارب إلى الدول المنسوبة إليها ، فكان من آثار ذلك أن المتعلمين فيها إما أن يخرجوا مسيحيين في الاعتقاد ، مسلمين

بالاسم ،أو دهرين لاعقيدة لهم . ولو دعيت الى توضيح ما في تلك المدارس من الطرق لافساد قلوب المسلمين لا وضعتها كما هي عندهم

فالمسلمون السنيون هم أحوج رعايا الدولة الى عنايتها، حتى لا يذهب أعوان التربية الشيطانية بقلوبهم ، ولا ينحط بهم الفساد النفسي الى أسفل مما وصلوا اليه، وأول ما يلزم لذلك تنظيم مكتب داخلي يؤكل ويشرب فيه في مدينة بيروت ، من صف المكاتب العالية يوضع له قانون وبروجرام دروس يوافق حالة البلاد ، وأول شرط فيه أن يكون مديره عارفاً باللغة العربية يخاطب أهل البلاد بمثل كلامهم ، وثاني شرطه أن يكون التعليم باللغة العربية في جميع العلوم حتى يقوى التلامذة في التركية ثم التعليم بالتركية بعد ذلك ولا بد ان يجعل اللسان الفرنسي مما يقصد تعليمه في باديء الامر حتى يقبل الناس عليه، وان يكون في درجة لاتنقص عن مكاتب الاجانب في شيء، وثالث شرطه أن يكون أساسه على إحياء الدين وحب الدولة، ولا بد أن يكون بروجرام فنونه على وضع خاص، ورابع شرطه أن يكون مديره من عشاق الدين والدولة وليس ينحصر همه في أخذ راتبه الشهري ، وأن يكون حكيماً في تصرفه، وفي حال يجلب ثقة الناس به، والله بعد ذلك كفيلاً بان يدفع اليه جميع الطوائف المسيحية وضمن لنجاح الدولة في مقصدها منه

ثم تنشأ مكاتب ابتدائية في أطراف الولايتين على هذا الاساس، لافرق الا بالدنوة والعلو . والتربية في جميع الأحوال لابد أن تكون على بذل المال والنفس في سبيل الله ووقاية السلطنة، كما هو جار في ممالك أوروبا . ولا كان عليه أسلافنا . وأن تكون الغاية منها طبع هذا الخلق في النفس ، حتى لا يحوله محول من قعر أو غنى أو ايثار أو حرمان أو ظلم او عدالة . وليس هذا بالعمل الصعب اذا وجهت اليه النية الصالحة ، واصطفي له رجال من أهله وما هم بالمعدومين، ولكنهم ربما يكونون غير معروفين، والبحث يظهرهم

وأما أهل البداوة من الاعراب المتنتلة في اطراف البلاد فهم مادة غزيرة من مواد المنافع للدولة ، ولكن مما يؤسف عليه أنهم كلٌ عليهما ضررهم أكثر من

نفعهم، ولبعض رجال الاجانب علاقات خيثة معهم، حتى انى رأيت عند بعض رجال الانكليز أيام كنت في لندرة رسائل من بعض مشايخهم توددا وماذا لك الا من اهملم وعدم العناية بتربيتهم، واذا دعيت الى وضع لائحة في تهذيبهم وجعلهم في حالة لاتنقص عن التركان بالنسبة الى الروسيا بل تزيد عليها أضعافا مضاعفة لاستمددت من الله التوفيق في ذلك

وربما يقال ان هذا الامر وماقبله يحتاج الى نفقات لافضل لها في خزينة الدولة، فاجيب أن أهل العمل وذوي البصيرة فيه يمكنهم أن يفيضوا من الاغنياء على القراء بالسعي والجد خصوصا اذا أعيدت جمعية مثل جمعية المقاصد ولاحتياج خزينة الدولة بعد سنين الى ان تصرف شيئاً في هذا السبيل، وطريق الصواب واضح لاهله، متى ثبتت العزيمة، ولا أطيل القول في هذه العجالة، فانما الغرض سوق ماتنبه اليه الفكر اجمالا الى ساحة الفضل والكرم، والمرجو شمولي بالعموعن تقصيري والله يطيل عمر مولانا الخليفة الأعظم ويرفع الاسلام في خلافته الى أوج المجد والشرف آمين

اللائحة الثالثة

يظهر انه كتبها لأجل اقناع أولي الشأن في مصر بالعناية بالتربية الدينية بعد عودته من سورية وقد وجدت مسودتها بخطه بالعنوان الذي تراها مفتوحة به وجامع الكتاب وضع سائر العنوانات قال رحمه الله تعالى

﴿ هذا مجمل أفكار فيما يجب الالتفات اليه من نظام التربية بمصر
ويمكن تفصيله عند ارادة العمل به ﴾

إذا كان الناس في حاجة الى صلاح الحاكم، فما حاجة الحاكم الى صلاحهم باخف من حاجتهم الى صلاحه، فان السلطة سلطان جيدة وريثة، فالجيدة ما كانت على المحكومين للمحكومين، والريثة ما أخذها المحكومون لغاية الحاكم وقضاء غرضه الثابت

أما الأولى فان منزلتها من المحكومين منزلة الروح من الجسد لها، التدبير وعلى أعضاء الجسد وظائف العمل، وغاية التدبير والعمل حفظ حياة الكائن الحي، وهو مجموع الروح والبدن، فكل يستفيد من الآخر مابه بقاؤه ونماؤه. وكما تحتاج الآلات البدنية الى سلامة الروح من العلل النفسية كالجنون والحمود والجهل ونحو ذلك، تحتاج الروح الى سلامة الآلات البدنية من الآفات التي تعطلها عن الحركة كالشلل والخدر والتشنج وماشابه ذلك، وماذا يمكن للروح السليمة أن تأتيه في بدن تعطلت آلاته وفسدت أعضاؤه

وأما السلطة الثانية فمنزلتها منهم منزلة الصانع من آله، فصاحب السلطة صانع، والمحكوم آله في الصنع، فهو كاتب مثلاً، والمحكومون قلبه، أو هو حارث والمحكوم محراثه، وكما ان الآلة لا تعمل إلا بالعامل ولا يظهر أثرها إلا في يده كذلك العامل لا يمكن له العمل إلا بآله. وكما يجب ان تكون اليد العاملة قادرة على إدارة الآلة، يجب أن تكون الآلة وأجزاؤها صالحة للعمل، فان فقد أحد

الأمرين امتنع العمل أو قصت ثمرته — فكل من السلطينين في حاجة إلى صلاح المحكوم، فكما يطلب المحكوم في كل حال أن يكون حاكمه صالحا لأن يحكمه، كذلك يطلب صاحب السلطة في أي منزلة كان أن يكون المحكوم بحيث يتقاد إلى كل ما يحكم به وعلى الصفات التي تنساق به إلى الغاية التي يذهب إليها حاكمه

أما مارسخ في خيال بعض الشرقيين ومن اغتر بحالهم ممن خالطهم من الأوربيين من أن صاحب السلطة قوته علوية، والمحكوم طبيعته سفلية، ولا نسبة بينهما إلا أن الأول قاهر والثاني مقهور، وأن الثاني في حاجة إلى صلاح الأول ليكون به رؤفا رحما وأن الأول لا حاجة به إلى صلاح الثاني لأنه مقهور له على كل حال فذلك منشأ الغرور والجهل بطبيعة الجمعيات الانسانية ونظامها الفطري. ولذلك نرى أرباب هذا الاعتقاد من ذوي السلطة لا تدوم لهم دولة ولا يثبت لهم سلطان، لتخبطهم في سيرهم بجهلهم ونزولهم من محكومهم وتصرفهم فيهم على خلاف ما يجب أن يصرفهم فيه، وتغافلهم عن استطلاع طباعهم بما يؤهلهم للعمل على ما يريدون منهم

يقال ان الرعية في كثير من البلاد آلة للحاكم في بلوغ مقاصده في دولته. فقد يكون ذلك حقاً لكنها آلة ذات شعور وإرادة وماله شعور فجميع أعماله إنما تكون عن شعوره وإرادته فتصلح الأعمال بصلاح الشعور والإرادة وتفسد بفسادها، فلا يمكن أن تكون تلك الآلة صالحة للعمل إلا إذا كان الشعور والإرادة صالحين له، وصلاحهما بان يكون الشعور وجدانا للفرق بين النافع والضار، وبين النظام والاختلال، ليكون ما يقرره الحاكم من القوانين وأصول الإدارة معروفا عند أغلب الرعية، وأن تكون الإرادة صادرة عن ذلك الوجدان حتى يكون النظام منها في مكانة الاحترام. فإذا كان الشعور مختلا والإرادة فاسدة، كانت الاحلام طائشة، والاهواء متحكمة، ومداخل السوء كثيرة، فويل لذي السلطة من تلك الرعية، وبعيد عليه أن يستقر سلطانه فيها قرار، وكل ما يتخيله اصلاحاً لهم أوله فيودعه في أصول حكومته، فهو كالنقش على الماء أو الرسم في الهواء.

طبيعة مصر والمصريين

أرض مصر ضيقة عن حاجة أهلها فمساحة الصالح منها للسكنى لا تزيد عن حاجة الساكنين زيادة بينة وهي محاطة من أطرافها بالصحارى الجدبة والمياه المالحه وليس فيها من الغابات ما يعوذ به الوحشي من الحيوان فضلا عن الانسان ولذلك ترى كثيرا من أنواع الوحوش التي كنا نراها كثيرة في البلاد من نحو أربعين سنة كالضباع والذئاب والخنازير قد كادت تنقرض باصلاح الاراضي الزراعية وانتشار الانسان في أطرافها وتعهدها بالزرع والعمارة وأهل مصر لا يعرفون معنى المهاجرة من دار الى دار ولا يمكن أن يتصوروا ذلك مادام في أرضهم نبات ينبت ، فاذا أحملت أرضهم فضلوا الموت فيها على المهاجرة منها وتاريخ الماضي وشاهد الحال ينطقان بذلك . ولذلك كان أهل مصر سكان أرضهم من آلاف من السنين، كل قادم اليهم امتزج بهم، وغلبت عليه عوائدهم وأطوارهم، واتسب نسبتهم فصار مصريا ، واحرز جميع خواص المصريين ونسي أصله وغاب عن أعقابه منشأه . ثم إن طباعهم مرنت على الاحتمال وألفت مقاومة القهر بالصبر، فلو أن سيف التغلب كان أعدى من سيف الممالك وجوره أشد من جور اسماعيل باشا لما أمكنه أن ينتقص من عددهم مقدارا يذكر ، ولا أن يزيلهم عن مواضعهم مسافة تعتبر ، ولهذا كان المتغلبون يفنون فيهم وهم باقون

أهل مصر قوم سريعو التقليد أذكياء الاذهان أقوياء الاستعداد للمدنية بأصل الفطرة، فما أيسر أن تفعل الحوادث فيهم فتنبههم الى الأخذ بما يحفظ عليهم حياتهم في ديارهم من أي الوجوه، فلا يبيدون من حاجة، فأهل مصر على ذلك هم رعية حاكمهم ولا يمكن لحاكمهم أن يستبدل بهم رعية أخرى في بلادهم

فحاكمهم اذا كان رأسا فهم بدنه واذا كان عاملا فهم آله، فلا بد من استصلاحهم حتى يستقر سلطانه عليهم زماما مديدا ترمي اليه أنظار الدول السامية المقام في المدنية أهل مصر في موقع عرف كل الناس منزلته من الارض، وهو ممر اهل المشرق

الى المغرب، وأهل المغرب الى المشرق، وهو في حلق أوربا تتلاقى فيه سيارة الامم
 فقلا توجد بلاد يكثر فيها اختلاط الامم مثل هذه البلاد
 الامم العظيمة الأوربية يحسد بعضها بعضاً على التمكن في أرض مصر، أو الفوز
 باحراز المنافع السياسية أو المالية فيها فالوساوس والدسائس لاتقطع نفتاتها من
 أولئك الاحزاب يثونها بين المصريين ليوغروا صدورهم على من علت كلمته
 فيهم . وأعظم فاعل في نفوسهم (وأغلبهم مسلمان) ان يقال أن صاحب هذه المنفعة
 ليس من دينكم وانكم مأمورون ببغضه وانتهاز الفرص لكشف سلطانه متى أمكنت
 أهل مصر شديدو الانفعال بما يلقي اليهم ، كثيرو التذكار لما ينطبق
 على أهوائهم ، فلكل كلمة من هذا القبيل مكان من نفوسهم ، ولكن ربما
 لا يظهر أثر ذلك لاحتجابه بحجاب العجز أحياناً ، غير أن طباع المصريين
 كالكرة المرنة تتأثر بالضغط فينخفض بعض سطحها قليلا من الزمن ، ثم لا يلبث
 أن يعود إلى حاله ، والله يعلم متى يظهر أثر تلك الانفعالات اني يمكن أن تتأثر بها
 نفوسهم بما يلقي اليهم

يقال إن أهل مصر ضعفاء ولكن قد أظهر التاريخ أنه متى وجد القائد كانوا
 أشد على الخصم من أشجع الأئم، وأثبتهم قدما في المواطن ، ولا يعلم متى يوجد
 القائد ، ومن أي جنس يكون اذا تركت أهواؤهم بغير تهذيب تجري حيث تجد
 سبيلا الاندفاع ، ثم هم لا يقدرن النظام قدره . مها كان بالغامن الإصلاح، ولا يباليون
 به ، بل يعتقدون أن كل نظام حبر على ورق ، فلا يستطيع حاكمهم أن يثبت سلطته
 عليهم على أمر ممكن ، بل هم دائما في التواء عليه بالمخالفة متى أمكنت الفرصة ، إلا
 اذا أخذوا بتربية صحيحة ، فهناك تنضبط أحوالهم ، وينشئ النظام احترامه في
 قلوبهم ويهتدي صاحب السلطة إلى طريق تصريفهم

احتقار أمر النظام والتأثر بالوساوس اذا لم يكن مبعثها الحق ينشأن عند
 المصريين من أمرين ، الأول بعد جمهورهم عن المعرفة بوجود الصالح . والثاني
 حرمانهم من التربية التي تطبع في نفوس أغابهم الاستقامة ، والتؤدة ، والتبصر
 في العواقب ، ومرجع الأمرين إلى سوء العقيدة ، وظن مالميس بواجب واجبا

وظنّ الواجب غير واجب ، فما دامت هذه حالهم فهم رعية غير صالحة ، فلا يصلحون
بديناً لرأس ، ولا آلة لعامل ، لاختلال المدارك وفساد الارادات

أهل مصر لم يأتهم التاريخ القديم بذي سلطة يفهم هذا السر ، وتفقد بصيرته
الى هذه الحقيقة ، فلماذا لم تثبت فيهم دولة لقبيل زمنياً يعتد به ، وكل اصلاح نظامي
نشأ فيهم كان كالبناء على الهواء ، فالسلطة التي تسعى في أن تجعلهم رعية صالحة ،
تكون قد فتحت في نفوسهم فتحةً جديداً ، وظفرت بيغيتها منهم ظفراً مميئناً ،
وأمنت كل غائلة تخشى من دسائس الأعداء ووساوسهم

أهل مصر قوم أذكاء كما قلنا يغلب عليهم لين الطباع واشتداد القابلية
للتأثر ، لكنهم حفظوا القاعدة الطبيعية ، وهي أن البذرة لا تنبت في أرض إلا
إذا كان مزاج البذرة مما يتغذى من عناصر الأرض ، ويتنفس بهوائها ، وإلا
ماتت البذرة بدون عيب على طبقة الأرض وجودتها ، ولا على البذرة ومحتها ،
وأما أقيت على البادر

أنفس المصريين أشربت الاتقياد الى الدين حتى صار طبعاً فيها ، فكل من
طلب اصلاحها من غير طريق الدين فقد بذر بذراً غير صالح للتربة التي أودعها فيها
فلا ينبت ويضيع تعبها ، ويخفق سعيه ، وأكبر شاهد على ذلك ماشوهد من أثر
التربية التي يسمونها أدبية من عهد محمد علي إلى اليوم ، فان المأخوذين بهالميزدادوا
إلا فساداً — وإن قيل إن لهم شيئاً من المعلومات — فما لم تكن معارفهم العامة
وآدابهم مبنية على أصول دينهم فلا أثر لها في نفوسهم

لأأتكلم عن اصلاح لدين غير الاسلام في مصر ، فان غير المسلمين فيها
العدد القليل والجمهور الاغلب من المسلمين

الدين الاسلامي الحقيقي ليس عدو الالفة ، ولا حرب المحبة ، ولا يحرم
المسلمين من الانتفاع بعمل من يشاركهم في المصلحة ، وإن اختلف عنهم في
الدين ، وفي آدابه كفاية لتعريف الآخذ به بوجوه المصالح ، وارشاده إلى مظان
الفوائد ، والبصر بالعواقب ، وتقويمه بفضائل الاخلاق ، وبالجملة فهو أفضل كافل
لجعل الرعية صالحة لأن تكون بديناً لرأس ، أو آلة لعامل . وقد أوردنا التجربة

إلى أن كل عارف بحقيقة الدين الاسلامي كان أوسع نظراً في الأمور ، وأظهر قلباً من التعصب الجاهلي ، وأقرب الى الألفة مع أبناء الملل المختلفة ، وأسبق الناس إلى ترقية المعاملة بين البشر ، وإنما يبعد المسلم عن غيره جهله بحقيقة دينه ، وهذه آيات القرآن شاهدة على ما تقوله ، اللهم لمن يفهمها كما جاءت ويعرف معناها كما وردت

ان القرآن وهو منبع الدين يقارب بين المسلمين وأهل الكتاب حتى يظن المتأمل فيه أنهم منهم لا يختلفون عنهم إلا في بعض أحكام قليلة ، ولكن عرض على الدين زوائد أدخلها عليه أعداؤه اللابسون ثياب أجبانه فأسفدوا قلوب أهاليه ولا قلوب أقرب الى الاصلاح من قلوب أهل مصر

أهل مصر مضى عليهم الزمن الطويل والقرون العديدة، ولم يروا ميراً يأخذهم بدينهم فخرموا خيره ، ولم يبق عندهم إلا ما فيه المضرّة لهم ولغيرهم تحت اسم الدين ، وليس بدين . على أنه ليس فيهم من ينكر أن القرآن كلام الله ، وأنه ينبوع الدين ، ولكن ليس لهم من معاهد التربية الاجتهان ، المدارس الأميرية ومدارس الأزهر الدينية . وليس في الجهتين ما يهديهم لما يجعلهم رعية صالحة ، وهم الآن على غاية الاستعداد لقبول ما يصلحهم

من يتوجه من ذوي السلطان إلى ذلك لا يجد أقل مقاومة من العامة ، ولا أغلب الخاصة ، وفي مصر فرصة لا توجد في غيرها لمن أراد ذلك ، فان بلاداً غير مصر يوقف فيها مثل هذا الأمر على همة أهل الدين ، وسلامة أفكارهم ونشاطهم لفتح المدارس الدينية على الطرق المناسبة لحالة البلاد . أما مصر فلها مدارس أميرية يمكن أن يسلك فيها أي مسلك يختار للتربية ، وليس عليها رقيب سوى أهل السلطة السياسية لا غير ، فلمهم أن يأخذوا من الدين أصوله ويفرسوها في المدارس ، ويحملوا نفوس طلاب العلم عليها ، ولا يتعرضون لما زاد عنها لا بالنفي ولا بالاثبات ، ويندبون لتدريس ذلك ذوي قدرة على صرف الاذهان عما وقر فيها ، وتطهيرها مما علق بها من الزوائد الضارة ، ولا يجدون معارضاً لهم من أهل الدين ، لأنهم لا يهتمون بما لا يقع تحت نظرهم مباشرة ، ومادامت الأصول

محفوطة ، فأنظارهم عن غيرها منصرفة ، وأكبر دليل على ماقول سكوت أهل الدين عن نوع التربية المعروف في المدارس ، على مافيه من مباينة الدين والانتباه إلى خلعه بالمرّة

المدارس الاميرية

المدارس الاميرية ليس فيها شيء من المعارف الحقيقية، ولا التربية الصحيحة، هذه المدارس أنشأها محمد علي باشا بإشارة بعض الفرنسيين لتعليم بعض أولاد الأرئوطة والأتراك والمورلية ، ليكون منهم رجال عندهم إلمام ببعض الفنون المحتاج إليها في نظام الحكومة التي أسسها ، وأهم تلك الفنون الهندسة والطب والترجمة أما غيرها من العلوم فما كان إلا وسيلة إليها ، ثم لم يشترط في العلم بها أن يكون تاما . أما التربية على أخلاق سليمة فلم تحظر له ولا لمن تولى ادارة هذه المدارس على بال ، ثم لما لم يكن في أبناء تلك الأجناس وفاء لمطلبه في الوظائف ، ادخل في تلك المدارس بعض المصريين جبراً ، وما كان يدخل مجبوراً إلا الذين لاقوة لهم من الفقراء . وكان دخول المدارس أشبه بدخول العسكرية في ثقله على المصريين

ثم جاء خلف محمد علي من عباس وسعيد فأهملوا النظر في المدارس بالمرّة ، حتى جاء اسماعيل فوسع نطاقها ، وزاد فيها من المعارف ماله دخل في الادارة والقضاء ، وله تعلق بتثقيف العقول في ظاهر الامر . غير أن جميع ماأتاه من ذلك كان صورياً ، ليقال إن له في حكومته مثل مالاوربا في حكوماتها ، ولم يكن القصد منه تربية العقول ، ولا تهذيب النفوس ، ولا تحصيل رجال يصلحون لتولي أعمال الحكومة .

وفي زمن اسماعيل باشا كثرت رغبة الناس في المدارس ، ولكن من الاعيان الذين يطلبون لأولادهم مساند في الحكومة، يحتاج في الوصول إليها الى بعض الفنون ، ومن الفقراء الذين لا يجدون مايقنات به أبناؤهم فيرسلونهم الى المدارس

ليستريحوا من نفقتهم ، ولم يكن القصد من جميع تلك الأحوال ، إلا أن يتعلم التلميذ ما يؤهله للقيام بعمل ما من أعمال الحكومة ، أو بعبارة أخرى ليكون في يده شهادة تبيح له أن يشغل كرسيًا من كراسي أقلام الدواوين ، أما تكوينه بالتعليم والتربية رجلا صالحا في نفسه ، يحسن القيام بالعمل الذي يفوض اليه في الحكومة أو في غيره ، فذلك لم يخاطب عقول المسلمين ، ولا من ولاهم أمر التعليم ، فسرى ذلك من السابقين الى اللاحقين حتى اليوم

ولو كشفنا عن أذهان التلامذة لم نجد فيها غاية لتعلمهم سوى أن يعيشوا كما عاش غيرهم على أي صفات كانوا ، ولو استفرغنا أذهان المعلمين لم نجد فيها من المقاصد سوى أنهم يلقون ما يجدونه في الكتب المقررة للتلامذة ، ويطالبونهم بحفظه وفهم عبارته إن كان ليعيدوا يوم الامتحان تلاوة ما ألقى اليهم حتى تتم مدتهم في المدرسة ، فيخرجون ولا يسألونهم مرة واحدة عن مجال أفكارهم هل هو في صالح أو فاسد؟ ولا مطامح أنظارهم هل الى نافع أو ضار؟ وذلك رسم يؤديه المعلمون ليأخذوا مرتباتهم الشهرية لا غير . ولهذا لا يكون تلامذتها في آخر الأمر إلا صناعا أو ناطقين ببعض الألسنة ، ولا ثقة في الأغلب بشيء من عقولهم ولا أخلاقهم ، إلا من كانت له فطرة سليمة ، وله موهبة طبيعية ، فأولئك تؤدبهم الأيام ، وتهذبهم التجارب . وعلى مثل ذلك كانت مكاتب الأوقاف ولا تزال ، فان استمر السير على الطريقة المعروفة الآن كانت النتيجة دائما كما بيناه ، فلا يؤول ذلك بالمصريين الى أن يكونوا رعية صالحة لأن تكون بدنا لرأس أو آلة لصانع

المدارس الاجنبية

وأما المدارس الأجنبية على تنوعها ، فاختلف المذاهب بين المعلمين والمتعلمين في الأغلب يضعف أثر تلك المدارس من التربية العمومية . فقليل من المصريين من يرغب في تعليم أولاده فيها . ومن أرسل بولده اليها داوم نصيخته بعدم الالتفات الى ما يقوله المعلمون فيها حفظا لاعتقاده . ثم ذلك يحدث من

الاضطراب في طبيعة الفكر ، والتزلزل في الأخلاق ، ما يكون ضرره أكثر من نفعه . وقد غلط من زعم أن لتلك المدارس الأجنبية أثرًا سياسيًا أو أدبيًا في مصر ، بل قد أحدثت بعض النفرة في قلوب المسلمين من رؤساء تلك المدارس وأممهم . ولذلك تاريخ في البلاد معروف ، فهي ضارة بالألفة ، مبعدة للمحبة ، رغمًا مما يزعمه أربابها مما يخالف ذلك ، فلا يصح الاكتفاء بها في التربية عن المدارس الأهلية على اختلافها

الجامع الأزهر

الجامع الأزهر مدرسة دينية عامة يأتي إليها الناس إما رغبة في تعليم علوم الدين رجاء ثواب الآخرة ، وإما طمعاً في بعض الامتيازات لطلاب العلم فيه ، ولا يزال بعضها إلى اليوم . ولكن مما يؤسف عليه أنه لا نظام لها في دروسها ، ولا يستل فيها التلميذ أيام الطلب عن شيء من أعماله ، ولا يبالي أستاذه حضر عند في الدرس أم غاب ، فهم أم لم يفهم ، صلحت أخلاقه أم فسدت . ويمر عليه الزمان الطويل لا يسمع فيه نصيحة من أستاذه تعود عليه بالصلاح في دنياه أو دينه ، وإنما يسمع منه ما يملأ القلب بغضاً لكل من لم يكن على شاكلته في الاعتقاد حتى من بني ملته ، ويطلق على الذهن غفلته ، ويستفزه الطيش لتصديق كل ما يسمع ، إذا كان موافقاً لمبدأ التعصب الجاهلي ، فأغلب الأوقات تمر على أهل الجهد منهم في فهم مباحثات لبعض المتأخرين لا فائدة فيها . ولا يتعلمون من الدين إلا بعض المسائل الفقهية ، وطرفاً من العقائد على نهج يبعد عن حقيقة أكثر مما يقرب منها . وجل معلوماتهم تلك الزوائد التي عرضت على الدين ، ويخشى ضررها ولا يرجى نفعها

ثم إن المعروفين بالعلماء ، وهم الذين يتممون دروسهم في هذه المدرسة ، ويؤذن لهم بالتدريس فيها ، هم قدوة الناس وأئمتهم ، مع أنهم أقرب إلى التأثير بالأوهام والاعتقادات إلى الوسوس من العامة ، وأسرع إلى مشايقتها منهم ،

وذلك بما ينشأون عليه من التعليم الرديء، والترية المختلفة التي لا ترجع الى أصل صحيح، فبقاؤهم فيما هم عليه اليوم مما يؤخر الرعية عن تقدير السلطة الصالحة قدرها
 إصلاح مدرسة الازهر لا بد أن يكون بالتدريج في تغيير نظام الدروس وجعلها في الابتداء تحت قواعد ساذجة قريبة من الحالة الحاضرة فيها، بحيث يقرر فيها أن كل من أدرج اسمه في جدول الطلبة يلزم بالحضور في الدروس والا حرم الامتياز، وكل أستاذ يسأل عن طلبته، ثم يجعل ما ينالونه من المنافع الطفيفة منوطاً بالفهم لا بالكتب، وتغيير بروغرام الدروس، ويزاد عليه أصناف من الكتب بحيث يدخل فيه تدريس الآداب الدينية المفقود الآن بالسلكية، ويكلف الاستاذ بتعهد أخلاق تلميذه لتكون منطبقة على تلك الآداب بقدر الامكان، ويجعل شيخ الجامع رقيباً على الأساتذة والتلامذة في ذلك، ثم يعزل نظام الامتحان النهائي وشروطه، وكل ذلك يكون على طرق بسيطة لا توجه الأذهان الى شيء خلاف المصلحة، وتفصيلها يكون في لائحة مخصوصة. ولا بأس أن يجعل نظام هذه المدرسة مرتبطاً بالمعارف العمومية أو بإدارة الأوقاف على قواعد تفصل في اللائحة المختصة به.

وقديظن بعض من لم يتفكر في حالة البلاد وما تبتها الأذية والدينية أن إصلاح الأزهر لا يمكن، لأنه يترتب على مجرد الشروع فيه تشويش أذهان العلماء، والعامه على آثرهم، فهذا ظن فاسد لا يؤيده دليل ولم تقض به تجربة، إلا ما كان من بعض الرؤساء من مدة نحو عشرين سنة عند ما أراد إدخال بعض العلوم الصناعية فيه، فقاومه بعض من كان موجوداً من العلماء، فيئس من الإصلاح وترك الأمر الى اليوم، فقد كان ذلك قبل أن تنتقل الحوادث على مصر، ولم يكن بالتدريج اللائق. أما الآن فقد تغيرت الأحوال وأصبح الإصلاح فيه أهون منه في جميع المصالح، وكل رئيس للنظار يمكنه أن يأتي هذا الإصلاح بمجرد التوجه اليه، وما يعجز عنه من ذلك. فصاحب هذا الفكر هو الكفيل بتنفيذه اذا فوض ذلك اليه على أن العناء في ذلك لا يطول اذا صلحت المدارس الاميرية. فان الناس لا يختارون

الازهر الالساء ظنهم بالمدارس ، أو لاعتقادهم أن الازهر أحفظ للدين منها .
فإذا حصل الاصلاح فيها وجدوها أدنى الى المنفعة منه ، فعند ذلك تنفرد بكونها
معاهد التعليم ، ويصبح الناس كلهم في طريق واحدة

الكتابيات الالهية

المدارس الاميرية تتعلق النظر فيها بنظارة المعارف ، ولا يتم لها إحسان
النظر من وجه التربية الا بتوجيه العناية أولا الى الكتابيات الصغيرة المنتشرة في
القرى والمدن ، فانها هي المغذية للمكاتب المنتظمة التابعة للمعارف والمدارس
الاميرية وللأزهر ، فان كان الغذاء فاسداً كان المزاج المتغذي أشد فساداً .
وقد خطر ببال أحد نظار المعارف أن ينظر فيها ، ولكن من الوجه التعليمي
واصلاح الامكنة بحيث تكون أوفق للصحة لا من الوجه التهذيبي . والثاني هو
اهم مطلوب دون الاول فانما ينظر اليه من حيث هو وسيلة للثاني . فالعلمون
في تلك الكتابيات يسمون الفقهاء وهم لا يعرفون شيئاً سوى حفظ القرآن لفظاً
بغير معنى ، وإذا كان في أذهانهم شيء باسم الدين فما هو إلا الزائد الضار دون
الأصل النافع ، وقد عرفوا بأنهم أفسد حالا من العامة . على أن الكتابيات يرد
عليها أبناء الأهالي جميعاً إلا القليل ، ثم يرجع الغالب الى ما كان عليه آباؤهم ،
فهي منابت للعامة أيضاً ولكنها لاتنتبت الان إلا جهلاً

ولا يمكن إصلاح تلك الكتابيات إلا باصلاحهم (أي الفقهاء) وإصلاحهم
مرة واحدة أو ابدالهم بخير منهم متعسر ، ولكن اذا وجهت العناية اليهم
أمكن اصلاحهم واصلاح طرق تعليمهم بالتدرج في بضع سنين . ثم ان ذلك
الاصلاح يستدعي عملاً يتعلق بعضه بالمعارف وبعضه بالأوقاف من حيث إن
أولئك المعلمين خطباء المساجد في الأغلب ، فلا بد أن ينظر في انتخابهم من
المستعدين للفهم وقبول الاصلاح بقدر الامكان ، وهو يقتضي سعيًا حثيثاً ،
وتدقيقاً شديداً ، وسيراً في أرض مصر أجمعها ، ونظراً في كل قرية من قرأها ، وهو
ليس بهسير على الشخص الواحد فضلاً عن أشخاص كثيرين ، متى وجهت العناية لذلك

ثم يلزم لذلك تقرير بعض المعلومات التي لا يستغني عنها مصري مما يزداد على تعليمه القرآن في تلك الكتابيب ، حتى اذا خرج التلميذ من الكتاب كان شاعراً بأنه في أي جمعية محكومة بأي طريقة . فاذا دخل المدرسة أو الازهر كان نماً معلوماته على ذلك الأساس ، وذلك يستدعي تقرير بعض الكتب الصغيرة ، وتعيين ما يدرج فيها على نمط سهل يفهمه الصغير والكبير ، بأن تبين لهم فيه نسبتهم الى المأمور والمدير والناظر والمهندس والطبيب والعالم والى المقام الخديوي وغير ذلك . وتحدد الطريقة التي يتعلم بها الفقهاء هذه الامور القريبة من الأذهان والمكان الذي يتعلمون فيه ، والوقت الذي يخصص لذلك ، والمعلم الذي يعلمه ثم تقرير العلاقة بين أولئك الفقهاء وبين ادارة الأوقاف ونظارة المعارف

المكاتب الرسمية الابتدائية

تلاميذ هذه المكاتب لا يزالون الى الآن من الأطفال الذين يقصد كفلائهم بتعليمهم التوصل بهم الى خدمة الحكومة ، سواء نالوا ما قصدوا أم لا ، الا أنهم في الغالب لا يستطيعون أن يذهبوا بهم الى نهاية التعليم المعتاد لذلك ، فيرجع الولد الى أبيه أو من يقوم مقامه بعد نهاية المكتب ، عارفاً ببعض مبادئ العلوم التي لا يجد لها موضعاً تستعمل فيه ، فلا يلبث أن ينساها ، فيضيع الزمن الذي شغله بالتحصيل بلا فائدة ، ثم إنه يعود بأخلاق أشد فساداً من أخلاق الذين بقوا على الفطرة لم يمسهم التعليم ، ويجد في نفسه نفرة وعجزاً عن العمل فيما كان يعمل والده وأهله من قبله ، فيقضي عمره في البطالة ، أو ما يقرب منها ، فتزداد أخلاقه فساداً ، وأفكاره اختلالاً ، ويقف نفسه على عبادة الاوهام ، وخدمة الدسائس التي تنبئه الى طلب ما يغير المالة التي عليها الناس طمعا في تغيير حالة نفسه بلا تعقل ، فيكون زيادة في أمراض البلاد بدل أن يكون عضواً نافواً لها . فأول ما يجب لاصلاح هذه المكاتب ، ووضعها على أساس يفيد العامة أن يراعى في البروجرام ادخال مبادئ العلوم من وجهها العملي الذي ينطبق على

المعاملات الجارية في البلاد . فقواعد الحساب مثلا تؤخذ من وجهها العملي مطبقة على المروف في المعاملات التجارية ، وحساب الصيارفة الاميريين وغيرهم ، فيتعلمون طريقة وضع المدفوع من الأموال في الأوراق والدفاتر، وطرق التحصيل لأموال الحكومة ونحو ذلك . ويدخل فيها فن الاوزان والمكييل ، وان كانت مبادئ هندسية فيدخل فيها شيء من المساحة على الطريقة المعروفة في البلاد أو على أفضل منها ، وما يؤخذ من قواعد العربية يكون مصحوبا بالعمل في المكاتبات العادية ، والمشارطات المتداولة بين الاهالي ، حتى اذا انفصل التلميذ من المكتب يكون عنده ما يحتاج اليه شخصه أو عائلته وأقاربه وأهل بلده فلا ينقطع عن العمل به لكثرة ما يرد عليه منه

ثم يضم الى ذلك تعويده بعض الاعمال الزراعية أو الصناعية في أوقات الرياضة ، أو يخصص لذلك يوم في الاسبوع ليعلم كفاءة التلامذة أن للتعليم غاية سوى خدمة الحكومة ، وأنهم اذا لم ينالوا الخدمة فان لهم شأنًا سوى البطالة والتفرغ للاوهام الرديئة . ثم يضاف الى البروجرام مبادئ العقائد الدينية على الاصل الصالح ، وأصول الآداب الدينية على ما يجمع الألفة ويعرف وجه المصلحة في المعاملة والمخالطة ، وشيء من تاريخ البلاد ، وما كانت تعانسه في سابق زمنها ، وما صارت اليه من الراحة في هذه الأوقات ، وشيء من القواعد العامة للنظام الذي هم فيه ، ليعلم التلميذ أنه من أي جنس وفي أي شكل من أشكال الحكومة ، فيتعلم الخضوع والالتقياد لكل مسند فيما يصدر منه . ثم يكون أهم العناية بحمل التلامذة على العمل بما يعلمونه من الآداب ، وتشديد المراقبة عليهم في ذلك ، وتوضيح لهذا لأئحة مخصوصة يحدد فيها البروغرام اللازم للمكاتب الابتدائية وطريق التعليم ، ويبين فيها المسلك الذي يتخذه المربي المفوض اليه مراقبة أخلاق التلامذة ، وملاحظة أعمالهم . فاذا تم التلاميذ مدة المكتب الابتدائي ، ولم يتيسر له أن ينتهي الى غاية التعلم رجع اليه بشيء نافع ، ونمت فيه الأخلاق الصالحة والأفكار الحسنة ، وانطبع قلبه على الخير والسلامة ، وكانت له بصيرة في وجوه المعاملة مع من يشترك معهم في المصلحة ، ونبت في (٦٩ - تاريخ الاستاذ الامام - الجزء الثاني)

قلبه احترام النظام الذي يضبط مصلحته ومصلحة بني وطنه ، ونشأ على محبة العمل والرغبة فيه ، فلا يكون الى فؤاده سبيل للوساوس ، ولا منفذ للدسائس

المدراس التجهيزية والمدارس العالية

لا أتكلم في بروغرامات دروس الفنون التي تقرأ فيها لأن النظر في ذلك يتعلق بالغرض الذي جعلته الحكومة غاية لا غاية تلك المدارس ، وإنما كلامي فيها منحصر فيما يتعلق بالتربية وتهذيب الفكر ، وغرس مبدأ الإصلاح في نفوس التلامذة ليحسنوا في استعمال ما تعلموا

قلنا فيما سبق إن التربية مفقودة في تلك المدارس لا يخطر ببال أحد أن يعتني بها عناية حقيقية ، وإنما الموجود فيها صور ورسوم تفر الناظر فيها وهي بمعزل عن الحقيقة ، فالذي يجب لتأسيس التربية فيها تعليم العقائد الدينية على الأصل الصحيح — تعليم الآداب الدينية على الطريق الصالحة — إلزام التلامذة في تصرفهم بموافقة ما تعلموا — كل ذلك على نمط أرقى مما كان في المكاتب الابتدائية — تعليمهم الاجادة في الكتابة كل في فنه الذي يريد الوصول إلى غاية التعليم فيه — تعليمهم أصول النظام العام ، ثم زيادة التوسع فيما يتعلق بفنه من النظام فالقانونيون يتوسع لهم في أصول النظام المتعلق بالقضاء والادارة وهو شيء غير نفس القانون ، والمهندسون في أصول النظام المتعلق بالري وتدير النيل وهو شيء غير الهندسة — وعلى هذا القياس

والمربي في كل ذلك يودع في أفكارهم أن القيام بهذه الأعمال مما يطالب به الدين ، وأن فوائدها ليست قاصرة على خدمة الحكومة ، بل هي من لوازم الحياة الطيبة ويورد الأدلة على ذلك وهي كثيرة لاتعد، حتى اذا بلغ التلميذ نهاية التعليم أمكنت الثقة به ، واثمن على عمل يفوض اليه ، وكانت الأنفس مطمئنة من جهته لعله أن للنظام علاقة بجمياته الروحانية ، كعلاقة بجمياته الجسدانية ، فان لم يكن له نصيب في خدمة الحكومة وجد سبيلا آخر للعمل وهو في رضى عن النظام المحيط بأعمال وطنه، فيكون بذلك عضواً صالحاً ويقوم بينه وبين الدسائس

حجاب منبع من الاستقامة الفكرية والخلقية، حتى لو أن التليذ بعد ذلك حمل الشطط في الفكر على خلع العقيدة الدينية بقيت فيه ملكات الأخلاق الفاضلة طبيعة ثابتة لا تتبدل بتبدل العقيدة

المعلمون والمربون ومدرسة دار العلوم

وجود مثل هؤلاء المعلمين عسير كما يقوله كثير ممن له تعب في البلاد ولم يتفكر في حالتها، ولم يدقق البحث في صحتها، أما أنا فلا أرى في ذلك صعوبة بقدر ما يتصورونها كما أن كثيرا مثلي لا يرون ذلك

أما أولا فلأن بلاد واسعة مثل مصر لا تعدم أفرادا متفرقين في أنحاءها يعرفون من الدين حقيقته، وللزمان ما يلزم له، وإنما يجمعهم البحث والتقيب. وكما سألنا ناظر المدرسة الزراعية ليختبر الأرض ويعرف الطرق المسلوكة في البلاد لخدمتها واستنباتها، كذلك يجب أن يسبح مدير التربية في الأطراف يعرف الصالحين لتوليها، على أن المعروف منهم ليس دون الكفاية للابتداء في العمل، فإن لم يكن الموجود بالفعل الغاية في المقصود فلا أقل من أن يكون قريبا منها — وأما ثانياً فلأنه يمكن تكوين جماعة كثيرة ممن يحتاج اليهم في الغرض بطريقة هي مرسومة الآن ولكن لم يطبق العمل منها على الرسم الحقيقي، على أن في الرسم تقصاً يجب تسميته، وتلك الطريقة قد رسمت في المدرسة المسماة بدار العلوم

دار العلوم مدرسة ابتدعها سعادة علي باشا مبارك من نحو خمس عشرة سنة وشرط أن يكون تلامذتها من طلبة الأزهر وأن يكونوا حصلوا من العلوم المقررة فيه مبلغاً يكاد يؤهلهم للتدريس، ثم جعل في دروس تلك المدرسة دروساً لجميع ما كانوا يقرأونه في الأزهر من العلوم الدينية ليتعموه على وجه أجلى وأرفع وأضاف إلى ذلك أطرافاً من الفنون الصناعية كالطبيعة والكيمياء والحساب والهندسة وشيئاً من الجغرافية والتاريخ، وقد غاية الدراسة أن يكون التلميذ المتم لدروسه فيها صالحاً لأن يكون أستاذاً في العلوم العربية والدينية في المكاتب والمدارس الرسمية، ولكن جاءت على تلك المدرسة أدوار كثيرة أسقطتها عن مرتبتها التي

كانت تنبغى لها، ثم لم يوضع فيها أساس للتربية التي كان يجب أن تكون أهم شيء، يقصد من الانتظام فيها، ولهذا كان يخرج تلامذتها على ما يخرج عليه تلامذة غيرها من الأخلاق والافكار لا يمتازون عنهم الا قليلا، وان كانت مع ذلك أنشأت أفراداً من أهل العلم والأدب هم الآن معروفون تشهد لهم حالهم بأنهم أفضل من جميع الناشئين في غير تلك المدرسة، ولكنهم أقل عدداً مما كان ينتظر ثم من غريب التصرف أن هذه المدرسة مع أنه لم يكن الغرض منها إلا تكوين أساتذة قادرين على التربية عارفين بالعلوم الدينية والعربية حق المعرفة لا يقيمون عليها من النظائر إلا جاهلاً بالدين واللغة العربية، بل غير معتقد بالدين بالكلية، كما فعلوا سابقاً، ويريدون أن يفعلوا في هذه الأيام، ولا يعينون فيها من المعلمين للدروس الدينية إلا من يقصد تعيشتهم بمرتباتهم، وفيهم من لا تجوز معاشرته التلامذة له فضلاً عن أخذهم العلم عنه، وفيهم من لا يحسن أداء ما كلف به، وليس فيهم أهل بوظيفته الاشخصان فقط والسكل لا عناية له بأمر التربية ولا يهيمه فساد أخلاق التلامذة أو صلاحها، ولا استقامة عقولهم وأفهامهم أو اعوجاجها، وتعليمهم الدين على ما هو المعروف في الأزهر لا يغيرون منه فاسداً، ولا يزيدون عليه صالحاً، وسائر المعلمين للفنون يؤدونها تقلاً من الكتب، لا يبينون للتلامذة الغاية من تعلمها. وليس العيب في ذلك راجعاً إليهم، ولكن الى من لم يضع أصلاً لسيرهم في تعليمهم، ولم يؤسس قاعدة ترجع اليها جميع الأعمال صادرة من المعلمين أو المتعلمين، ولم يرقم على تلك القاعدة خبيراً بالبناء عليها، عارفاً بالغاية التي توجه المدرسة اليها، حكيماً في تصرفه بأذهان التلامذة والاساتذة حتى يقيم للتربية بناءً معنوياً حقيقياً يأوي اليه كل معلم ومتعلم يأتي من بعده.

هذه المدرسة تصلح أن تكون ينبوعاً للتهديب النفسي والفكري، والديني والخلقي، ويمكن أن ينتهي أمرها إلى أن تحل محل الأزهر، وعند ذلك يتم توحيد التربية في مصر، ولكن يلزم لذلك أمور (الأول) إصلاح البروجرام وحذف بعض العلوم التي اشتغل بها التلامذة

في الأزهر والاكتفاء بتمرينهم على العمل بها وتقدير ما يلزم من الفنون الباقية وزيادة بعض علوم ليست فيها الآن منها علوم الآداب الدينية وفن أصول النظام مع تعلقه بالدين

(الثاني) تغيير طريقة تدريس تفسير القرآن وتعلم الاحاديث النبوية

(الثالث) اختيار معلمين صالحين للقيام بالعمل الموصل إلى الغاية المطلوبة للمدرسة

(الرابع) تعيين ناظر للمدرسة قدماً قلبه وغرفه الميل إلى المقصد الذي

وصفت له المدرسة عالماً بالدين ولغته موثقاً به عند العامة

(الخامس) إعطاء تلامذتها بعد نهاية التعلم حق التدريس في الأزهر

(السادس) توسيعها إلى ما يسم مائة تلميذ

(السابع) أن يزداد في مدتها سنة بعد الدراسة للتمرين على التعليم

في نفس المدرسة

(الثامن) وهو أهم ما يجب - أن يكونوا تحت نظام شديد في التهذيب

وملازمة العمل بما يعلمون

(التاسع) أن تكون وظائف التدريس في المدارس والمكاتب منحصرة فيهم

(العاشر) أن تكون درجاتهم في الوظائف على حسب أدبهم

واقترانهم على التأديب

(الحادي عشر) أن يكون للموظف منها في مدرسة ماسطة تامة على تهذيب

التلامذة وتربية نفوسهم ، وتقويم أخلاقهم وطباعهم ، وأرقامهم وظيفتهم في تلك

المدرسة يكون رئيساً لمن دونه

(الثاني عشر) أن يبقوا بلباسهم الذي هو لباس أهل الدين معها

ترقوا في الوظائف

ثم إنه يلزم لهذا المشروع كتب تؤلف جديداً ولو أُنح تنظيم العمل على مقتضاها

وذلك كله يمكن بعد العزم على الاجراء

نفقات الاصلاح

يمكن أن يظن أنه يلزم للاصلاح زيادة نفقات ولكن اذا دبرت مصاريف المعارف على الوجه اللائق فلا أظن أنه يحتاج إلى زيادة على أنه لو احتيج إليها لا يتقل احتمالها بعد اليقين بأن هذا الاصلاح يؤول إلى تمكن السلطة وجعل الرعية صالحة لأن تكون بدنا لرأس ، او آلة لعامل ، وأظن أن بذل النفقات في هذا السبيل — وهو سبيل حياة السلطة وحياة الرعية — أفضل منه في جميع السبل ، فان كانوا يصرفون الآفاق من الجنهات على بعض المباني الخربة بدعوى أنه أحفظ للآثار القديمة فأولى أن يصرف بعض تلك المبالغ على حفظ الذين تبقى لأجلهم تلك الآثار . فان الترية هي الحصن الحقيقي للبلاد ، الذي يصونها من جيش الفساد ، وهي آلة صاحب السلطة في الانتفاع بالمحكومين له ، ولا وسيلة للمحكومين سواها في تعريفهم حدودهم التي يجب أن يقفوا عندها بالنسبة إلى مقام صاحب السلطة عليهم . وإني أجد هذا الاصلاح في مدارس الحكومة يأتي بفائدة أعم من الفوائد التي جاء بها مشروع السيد أحمد خان في الهند وهو أبعد من ذلك المشروع عن سوء الظن

شبهة من يعارض المشروع ومكائنه في نفسه

ربما يوجد أشخاص خصوصاً من الرؤساء يقولون إن هذه الطريق بعيدة النهاية لا توصل إلى الغاية — كما قالوا ذلك من قبل — فنقول لهم إن الطريق التي سلكوها وسلكها أسلافهم من محمد علي إلى الآن قد جربت فلم تعد بخير على البلاد ، فليسلكوا الآن هذه الطريق على سبيل التجربة بعض سنوات فليس هناك ضرر ينتظر ، فان لم تكن فائدة فلا خوف من المضرة

إن من يزعم العجز إنما ياجأ إليه لأنه لم يتصور ما يرد من الأمر عليه فان كانت له أدلة فليوردها ، ولا نهدم لها من الحقيقة دافعاً ، فان أبي إلا العجز فربما يوجد من لو وكل إليه الأمر قام به ، ولم يعجز عنه ، والتجربة مشرق الحقيقة

إن شاء الله تعالى . على أنه يمكنني أن أضمن كل ضرر يتصور في هذا المشروع ، وأكفل أن يكون له من النفع ما هو أوفر من الفائدة المطلوبة في السير المحاضر . واني لأزال أكرر أن غارس هذا الغرس يجني ثمرته الطيبة ، وأن فوائده بما نقلت الى أقطار أرفعادت بجزيل الخير على من نماء ، وفي الزمن القريب يبدو صلاحه لصاحب السلطة وللمحكومين له ، ويسهل له تقرير أمره فيمن صلحوا باصلاحه على قاعدة المحبة والالفة ، لا على طائشة الاخافة والرهبه ، ويكون بذلك قد كون لنفسه شعباً جديداً يعينه في الشدة ، وينصره في الفتنة ، ويعضده في ساعة المحنة ، ويمحو من نفسه خيال التعلق بغيره ، ونزول من طريقه عقبات تعصب الجاهلية ، وحمة الحماقة اللابسة ثوب الحمية الدينية ، وفي ظني أن من عارض هذا المشروع فقد عادى سلطته ، وعرض نفسه لغير الزمان ، وسياسته لنفوذ شياطين الفتن من مقاوميه والله ولي الأمر ويده كل شيء يهدي من يشاء الى صراط مستقيم اه

﴿ يقول جامع الكتاب ﴾ نقلت هذه اللائحة عن مسودة للامام غير منقحة ولا معروضة للنشر كما سبقت الاشارة ، بل كتبت لأجل أن تترجم وهي مع ذلك آية في البلاغة وسنن العبارة وان كنت اجزم بأنه لو يبضها ، لغير وبدل بعض كلمها . ومن كان حديد الفهم بعيد الغوص في أسرار الكلام يعلم أنها لامست سماء الاعجاز أو كادت ، على عدم العناية فيها بزينة اللفظ وزخرف القول . ذلك أنه لا يرى لعقله مذهباً آخر أرجى من مذهب الامام فيها باقناع السلطة في مثل هذه البلاد بالتربية الاسلامية التي كانت قصده في أمته ، مع الصدق في القول والاخلاص في النية . واذا قارن هذه اللائحة باللائحتين قبلها تجلي له معنى « لكل مقام مقال » فغرض إمامنا في الاصلاح الديني الذي يجي أمته حتى في دنياها واحد ولكنه كان يتوسل اليه في كل بلاد باقرب الوسائل التي يرجى أن ترضى بها السلطة وهو ما يجمله موافقاً لمصلحتها ولو في الجملة ، وتلك هي الحكمة البالغة ، والبلاغة السابغة ناهيك بما تومي اليه مقدمة هذه اللائحة من الرسوخ في علوم العمران كلبائع الامم وأخلاقها ونظام التربية والتعليم والسياسة . فياليت الامتاز

الامام فرغ للتأليف لم يشغله عنه الاصلاح العملي ومحاولة تربية الأزهر واصلاح الشورى والمحاكم ، اذاً لكان لنا منه مصنفات تفعل في النفوس بعد وفاته ، ما لم يتم له مما كان يريد أن يعمل في حياته، رحمه الله تعالى على نيته وحسناته على أنه لو فاز بما كان يريد من كتابة هذه اللائحة - وهو جعله ناظر المدرسة دار العلوم مستقلا في تربية تلاميذها - ، لربّئى لمصر فيها من الرجال من تصاح بهم جميع المدارس الاميرية وغيرها ، ومتى صلح هؤلاء. صلح الشعب المصري كله وصلح به الشرق الاسلامي كله، ولكن لم يكن في الحكومة المصرية من الوزراء من يسموه عقله لفق هذه اللائحة ، ويسمو عزمه لانفاذها ، واما أصحاب النفوذ الفعلي في هذه الحكومة من الأجانب فهم أجدر ببقائها ، وأجدر بمعارضة العمل بها لو طلبته وزارة المعارف وهي قد ترجمت للسر أفلن بارنج يؤمئذ (لورد كرومر) فبئذها وراء ظهره طبعاً . ولم تستمله تلك العبارات التي قصد به استمالة . وأما الخديو توفيق باشا فقد أتى صاحبها مديراً ومعلماً في مدرسة دار العلوم ، وعمل ذلك بأنه يربي الطلاب فيها التربية التي يخشى سموه عاقبتها على بلاده (??) وأمر وزير الحقانية بأن يجعل الأستاذ قاضياً في إحدى محاكم الأرياف ليكون بعيداً عن القاهرة مركز الحركة الفكرية والتعلم (??) فهو قد بقي على رأيه الذي وسوس به اليه فنصل انكلترة الجنرال عقب توليته من أن السيد جمال الدين وحزبه الوطني يريدون سلب سلطته الشخصية بحكومة نيابية . فنقى السيد من القطر المصري ، والشيخ محمد عبده من القاهرة كما بيناه في الترجمة . وقد سلب الاحتلال سلطته وسلطة الامة معاً ، وظل هو خانقاً من التربية المليدة الاسلامية التي كان يريد لها الشيخ رحمه الله تعالى (فاعتبروا يا أولي الأبصار)

الباب الخامس

كتبه ورسائه

الفصل الاول

في طائفة من كتبه الاصلاحية والدينية الى العلماء والفضلاء من
اعضاء العقد الرابع من جمعية (العروة الوثقى) وغيرهم

(١)

لله الحمد على هبته من الاخلاص ومنحته من الانابة اليه ، واشكر الله اليك
على ما وفر لك الحظ منهما ، ما بظاً بي عن مواصلك غفلة عن ذكرك ، أو اهمال
في الواجب عليّ لحقك ، فلي من همتك منبه لا يغفل ، ولدي من مروءتك جميل
لا يهمل ، لكن صرقتي القدر الالهي فيما أراد الله ، وصرفتي الى حيث سبقت
مشيئته ، تعاضمت حوادث الشرق ، خصوصاً مآله منها نحو الجنوب ، فشغل الاهتمام
بها مواضع الفكر ، وأخذت صور عقباها بمواقع النظر ، فتلقيت من الامر الجديد
أن أكون على مقربة من الضوضاء ، ومسمع من النداء ، ولعل الله يهض بالقول
هما أو يكشف بالبيان جهالات ، فتعرف أنفس ما ادّخر لها العمل ، وتلحظ
أبصار مادنا من الأمل ، وتنبعث عزائم تناول ما حضر لديها ، وابرز ما كن فيها ،
فعاية الله باسطة أكفها اليهم ، رافعة صوتها عليهم ، وهم في غشية من الجهل لا يصاحفونها ،
وغطيط من الغفلة لا يسمعونها . هذا ما اندفع بي الى بلاد استعين الله فيها على
تجديد عهوده ، والتوقيف على حدوده ، عسى أن يتواصل المتقاطعون ، ويتناصر
المتخاذلون ، وما توفيقي إلا بالله وما اعتمادي إلا عليه ، فكانت أوقاتي من فراقك
في أسفار ، واليوم سكن بي قرار ، وإني بعد طوافي ببلاد أكتب اليك اليوم من
بلادها عى الشباب تمامي وأول أرض مس جسمي ترابها

(١) المحفوظ من المصراع الاول * بلادها نيظت علي تمامي

(٧٠ - تاريخ الاستاذ الامام - الجزء الثاني)

غير انه لا يراني من أهلها الا المخلصون، ولا يعرفني فيها الا العارفون ، وان لك
بينهم ذكر أليق بهمتك ، ومكانة تجدد بها عزيمتك ، ولقد أبلغت السيد من خبر
صنيعك ما وفر لك شكره . وأخلص لك سعيه ، ورجائي ان يوافيني من لذك ما يطمئن
به القلب على صحتك ، وما يتروح به الفؤاد من أبناء مساعيك بين الاخير من
قومك ، أحيا الله بك موات الهمم ، وأقرّ بك نواظر الفضل ، وسلامي عليك
وعلى آجالك وآل ودك ، والله يديم رعايته عليك والسلام

٧ ج ١ سنة ١٣٠٢

٢

طال العهد على فراقك ، ولم يجر القلم بمراسلتك ، حتى خيل مكان للظنة
ومثار للريب . أستغفر الله ، لي من شماتك روح بروحي ، ومن همتك قلب
بقلمي ، فلست أنساك حتى أكون بمعزل عن نفسي ، ولكن حوّلتي مهمات
الشرق عن الغرب بما رآه المولى السيد من فرصة العمل في هذه الحوادث
المتتالية ، فخلّيته عوناً لنا حيث هو ، وتحوّلت الى مقربة من معاهد العروة ،
ومكلمن القوة . فكانت المدة من يوم فراقك متبدّدة في أسفار ، متلاشية في
هواجس أخطار ، واليوم أكتب اليك من وراء ستار ، فلا تهملوني من التذكّار ،
ورجائي أن يرد إليّ من قلبي ، ما يرجوه القلب من ودكم ، وسيدي السيد
يهديكم أتمّ التحية ، والوسيلة تصل اليكم ، وسلام الله عليكم ، وعلى كل مخلص ،
والله يحفظكم

٧ ج ١ سنة ١٣٠٢

٣

فارتك ولم يفارقني مثال من كالك ، وضياء من عرفانك ، وأي على البعد
عنك ، لم أنس ما أفادني القرب منك ، ولي في كل لحظة شوق اليك ، وفي كل
بقعة حلتها ثناء عليك ، ورجائي أن أنال حظاً من الاطمئنان على صحتك ،
وسلامي على حضرة السيد أخيك ، ومن سعد بمحببتكم ، والله يتولى رعايتكم والسلام

٧ جمادي الاولى سنة ١٣٠٢

٤

أشد ما أجد من فراقك، حرمانى من محاضرة آدابك ، والاقباس من أنوار فضلك ، وتعرف الصواب من صائب رأيك ، وإنما يخفف ألم البعد عنك أن أكون بمكان من فكرك ، وأصيب حظا من مراسلتك . وجدير بكرمك أن تصل واصلا ، وتجيّب سائلا . وسلامي عليك وعلى أئمتك الصالحين ، والله ينفع المسلمين بسعيك وخالص نيتك والسلام

٧ جمادى الاولى سنة ١٣٠٢

٥

أيد الله بك الحق ، وأعانك على العمل بما وهبك ، عرفان تنير به أفئدة السذج من قومك ، وترد به جماح الغاوين من عشائك ، ويقين في الدين ينهضك إذا قعد المرتابون ، ويشد عضدك إذا ضعف الواهون ، ومكانة في قلوب أشياعك تمكن الثقة بك ، والاستمسك برأيك ، وسعة في البيان، تقطع بها طريق الشيطان . فوجه عزمك للنصيحة ، وجادل بالتي هي أحسن ، وإذا أخذت من أحد بجبل فلا ترسله ، ومن وسوست له نفسه بالقطيعة فلا تقطعه ، وصل جبالك وجبال المهتدين بجبل الله ، وكن على ثقة من الفوز ، ويقين من النجاح ، ما دام هدي النبي هديك ، وسعي الأصحاب سعيك . وإن أشكل عليك أمر أو اشتبهت لك المنافذ ، فإخوانك كثيرون، وهم بمعونة الله في عونك، كما أنه لا غنى لهم عن الاستعانة برأيك . ومقامي اليوم في بلد ما كنت أحتسب الذهاب اليه ، وإن كان أوفر لهنى عليه . ولكن مكاتبتك تصل إليّ إن شاء الله بالطريقة التي تراها صعبة هذه الأسطر ، وسلامي على قلبك الطاهر ، وشوقى للاجابة وافر ، والوسيلة تصل اليك والسلام

٧ جمادى الاولى سنة ١٣٠٢

٦

أكتب اليك والله أعلم بما أثبت فضلك في قلمي من الود ، وما يهيج أدبك في فؤادي من الشوق ، وبودى لو أن عبارة تحمل ماني نفسي اليك ، ولكن حكمة الله في قصور العبارات أن يكون الفضل لثقة الكرم، وفراسة الحكيم

قد يكون لك ظن فيما أباطأ بي عن مراسلتك هذا الزمن الطويل من فراقك . وحاشا أن يكون تساهلا في الحق ، أو تغافلا عن فريضة الود ، وإنما هو أرقط الحوادث وثب على أوقاتي فمزقها ، وغول الكوارث انبسط فيها فضيقها . من يوم فارقتك ما استقر بي مكان حتى الآن . ذهبت إلى باريس فماعدت أن تلقيت من الرأي الجديد أن أنحو جهة الشرق ، حيث مسيل الحادثات ، ومخرق الداريات . فمررت على بلاد كثيرة منها مدينة (كذا) عملت في جميعها على احكام العروة وتمكين عقودها . ثم أصعدت بعد ذلك الى

﴿ بلد خلعت به عذار شيبيني وطرحت في كف الخطوب عنائي ﴾
 وأنا اليوم فيه أعرف الوجوه ، وأتذكر للعيون . وأسأل الله نجاح العمل ، وإقبال الأمل ان لي في حميتك رجاء عرفه المخلصون ، وهم لتحقيقه منتظرون . فادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة . فان فناء في الحق هو عين البقاء ، وإن زميا في الباطل هو الشقاء . فاستكثر من الاخوان ، وتقمم من الخوان ، واثبت بهم على أصول الشريعة ، وارجع بهم الى سيرة صاحبها عليه الصلاة وأتم التسليم ، وليكن القول من مولاي الصادق تأسيساً لا تدريساً ، ولا تكون كلمة الا وغايتها عقد يبرم ، ورباط يحكم . أستغفر الله أن أنبه يقظان ، أو أهدي البيان لمعدن العرفان ، ولكن ذلك حديث نفسي لنفسي ، وخطاب قلبي لقلبي ، ومن عليّ بأنبائك ، وما يكون من آثارك . ألهاني مشهدي منك عن طلبي لترجمة حياتك ، فلو تفضلت بارسالها من قلم أحد تلامذتك ، لتثبت في صحائفي ، ذخيرة لي والخلائقي واذا رأيت ... فنبته أن قوة الاتحاد في الجنوب ، أفزعت قوة النيران في الشمال ، وأن نيران القلوب أذابت مدافع الكروب . وما النصر الا من عند الله يؤتية الصادقين ، ويوليه المخلصين (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) أما والله ان غلب المسلمون عن تفرق وتحاذل ، فلن يغلبوا عن ضعف وقلة ، ولكن (من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وايا مرشداً)

السيد يهديكم السلام ، وقد أخذت في ترجمة رسالته في تقض مذهب الطبيعيين ، وعند تمامها أبعث اليك بها ، فان حسن لديك طبعها في حاضر تكم

فذلك لكم ، والوسيلة تصل ان شاء الله اليكم ، وسلامي على روحكم الزكية ، وعلى كل نفس صادقة ، ورجائي سرعة الاجابة والسلام

٧ جمادى الاولى سنة ١٣٠٢

٧

تهبني من جلالك ، يمنعني الدنو من كمالك ، وكل ماعددت من فضائلك ، فهو دون الحقيقة من حالك ، وغاية ماأعددت لك من نفسي مقامالم يحله سواك ، ومنزلة لم يسم اليها غيرك ، وما أنا بالمختار في ذلك ، وانما فضلك أتزلك حيث شئت ، وصرفتي فيما اخترت ، لا أذكرك بما اقترقنا عليه ، ووجئنا وجوهنا اليه . فذلك الدين وما اقترض ، والحق وما اقترض ، (ان تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم ، والله شكور حلیم * قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين * عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتهم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم) إن الزمن من يوم فراقك كان في سفر لم تسنح لي فيه فرصة لأداء حق المواصلة ، ورجائي في عفو هو أقرب اليك من الظنة ، وأجدر بك من التهمة ، وإن كتابي هذا يصلك من خلوة يستضاء فيها بهديك ، وتتل فيها آيات ذكرك . وإن هذا الداعي والمخاصين في السير على طريقك يؤملون ورود الخبر من جانبك . وأرجو أن يكون فيما تكتب إلي شيء من حال الشيخ . . . والشيخ . . . ومن وصل اليه سعيك ، وكتبي سرّ لديك ، وسيدي الاستاذ حيث تركته يهديك أزكى السلام ، والله يحفظكم برعايته

٧ ج ١ سنة ١٣٠٢

٨

ماقترحت آثاره صنائعك ، ولا خمد شوق هاجه ذكرى شمائلك ، ولكن تعس زمان شغل يدي ، وأخذ بأصغري وأكبري ، حتى أبطأ بي عن مواصلتك ، وقصر بي عن مراسلتك . هذه مدة من فراقك نهبتها الأسفار ، وغاليتها مقارفة الأخطار ، حوّلني صروف الحوادث عن الغرب الى الشرق ، حيث يقصد احكام العروة ، وتأييد القوة بالقوة ، ولي في ذكر حضرة الوالد

شان ، وفي تعديد أوصافه كما سمعت بيان ، وسيدي الاستاذ يهديكم أركى
السلام ، وأنا في انتظار لنبا منك عن محنتك وصحة السادات أشقائك ، والوسيلة
واصلة اليك إن شاء الله ، وسلامي عليك وعلى سيدي وسيدي
الشريف ومن تودون ، والله يتولى رعايتكم والسلام

٧ ج ١ سنة ١٣٠٢

٩

الله ما أودعت نفسي من الود لك ، وما ملاً قلبي من الاجلال لقدرك ،
ذلك أثر من كمال روحك ، وجمال صفاتك ، زادك الله قربا اليه ، وتعويلا عليه.
لم أكتبك من يوم فراقك ، لأن المدة تقضت في سفر وانتقال ، وهذه أول
فرصة سنحت لأداء حق المودّة ، وفريضة الاخوة . ورجائي أنه لا يزال فكرك
ماتفارقنا عليه ، وسبق الكلام فيه مناراً ، وأن يرد لي من سيادتكم ما يبشرني
بسلامة حالكم ، ومجمل الحاصل من سعيك ، قدم سلامي الى حضرات الاميرين
الجليلين ، وسأكتب اليهما واليك على وجه آخر عند ورود خبر من جانبك ان
شاء الله ، حوّلني الحوادث من الغرب الى الشرق ، لتكون المواجهة أشدّ أراً
من المكتابة ، وهذا ماعاقتي عن مباشرة ذلك العمل المعهود في هذه الأيام ،
ولكن الحمد لله على وحدة المقصد ، وسلامة الغاية ، والله يسمعي عنك أفضل
ما أحبلك ، والسلام

١٠

وكتب الى صاحب الكتاب رقم (٢) من الكتب السابقة جواباً
لاإله إلا الله وحده لا شريك له ، وبه الحول والقوة
السلام عليكم ، تحية أخ يهزه الشوق اليكم ، وبعد فقد تلقيت اليوم كتابك ،
فشممت منه ريح الحمية ، والنصرة الدينية . وأرجو أن تصل بك بدايتك إلى
ما يختار الله لك من حسن النهاية ، ولم يكن ظني في همتك ، دون ما تبينت من
عبارتك ، فليكن سرورك بنفسك ، على قدر شفقتك على دينك ، وحرارة ميلك
للاخذ بيده وتقوميم أوده . فانما هو الدين المتين الذي اطلق العقل من قيده ،

وأخذ على الوم في كيده ، وهزّ النفوس إلى نيل الفضائل ، ونكب بها عن مشايعة الرذائل ، حتى ساد به الضعفاء ، وذات لسلطانه الأقوياء ، وسبق وعد الله بأن يظهره على الدين كله ، والله منجز وعده لأهله ، وإنما خلقنا الله وكلفنا بصرف همونا إليه ، وتحويلنا في شؤوننا عليه ، وليس لنا من الحق في أنفسنا وأموالنا ، الا ما نبذله في تأييد ديننا ، ولا حاجة لله فيمن لم يكن له من نفسه وماله نصيب دائم قراءة القرآن وتفهم أوامره ونواهيه ومواعظه وعبره ، كما كان يتلى على المؤمنين والكافرين أيام الوحي ، وحاذر النظر إلى وجوه التفاسير إلا لفهم لفظ مفرد غاب عنك مراد العرب منه ، أو ارتباط مفرد بآخر خفي عليك متصله ، ثم اذهب إلى ما يشخصك القرآن إليه ، واحمل بنفسك على ما يحمل عليه ، وضم إلى ذلك مطالعة السيرة النبوية واقفاً عند الصحيح المعقول ، حاجزاً عينيك عن الضعيف والمبدول ، واعتبر بما قاسى النبي وأصحابه من الجهد والعناء لنصر دين الله ، وما ركبوا من المتاعب ، وما احتملوا من المصاعب ، على ما تعلم من درجة قربهم إلى الله ، وغفرانه لهم ما تقدم من ذنبهم وما تأخر . واجعل عيشك للأخرة ، واستعد لما وعد الله ، فان سعادة أبدية ، لا تنال إلا بسيرة محمدية ، ولن تنال بنوم موسد ، على فراش ممد ، واعلم انك محاسب على الدقيقة من أوقاتك ، واللحظة من لحظاتك ، إن صرفتها لاعزاز دينك كانت لك ، وإلا كانت عليك ، وأرجو أن يكون كل سعيك خيراً ، يجعله الله نوراً يسهى بين يديك ان شاء الله .

أما ما ذكرت من مسألة الشيخ الصغير فيودي لو توجه إلى الله كل مسلم واعتصم بحبله كل مؤمن ، فما بالك بشيخ من جمال الوصف على ما ذكرت ، ومن علو المنزلة على ما بينت ، فان تيسر لك السبيل فتقدم لدعوته ، وادخل اليه ابتداءً من طريق لا يعرفه ، وتلطف له في القول ، وإن شئت أطلعت على شيء من مقالات العروة الوثقى ، فاذا انتهيت به إلى ما يعرف ، وآنست منه الميل والرضاء ، فاما أن يكتب إليّ ، وإما أن يستعدّ لتلقي كتاب مني ، ثم سراع إليّ بالخبر ، ثم نبثي عن الشيخ ... واسأله أن يكتب إليّ بالعنوان الذي به تصل اليه كتي ، فاتي قد أذنت أن أبعث اليه ببعض المواد الأصولية ، التي يجب اعتبارها أساساً للبناء ، كما

اعتبرها المستمسكون بالعروة في كل قطر، ليتحد المسير، وإلى الله المصير، ثم أنتي الآن في بيروت وأقيم بها زمناً، فاذا كتبت فليكن العنوان ... ولا حاجة لما يزيد عن ذلك، فانه يصل إلي بمجرد هذا العنوان، وبادر للكتابة والسلام
١٥ ذي الحجة — سنة ١٣٠٢

١١

(وكتب الى صاحب الكتاب (٥) من الكتب السابقة جواباً)

لا إله الا الله وحده لا شريك له وبه الحول والقوة

السلام عليكم، وعين الله ناظرة اليكم، وبعد فقد وصلني اليوم كتابك يحمده منك اخلاصاً طويته، واختصاصاً بالله حويته، ويشكر منك استعداداً للمألة الله على أمره، ومظاهرة لأقامة الحق ونصره، ويثني على معرفتك ما آتاك الله من الحول، وما رزقك من الطول، ونزوعك لشرك إياه على ما آتاك بالعمل فيه لا خرتك ودينك، ولم يفتك الاعتبار بقوله تعالى « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » : الآية : ولا بقوله « ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله، ولا يطأون موطئاً يعيظ الكفار، ولا ينالون من عدو نيلاً، إلا كتب لهم به عمل صالح، ان الله لا يضيع أجر المحسنين * ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة، ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » ولن يعجز مؤمن وإن ضعف حاله وقل ماله أن يأتي واحدة ما ذكر الله، فكيف بك وقد آتاك الله بسطة جاء في قومك تستطيع بها تقوم طباعهم، وتهذيب عقولهم، ورددهم إلى ما انصرفوا عنه من طريق الشرع القويم، وتنبههم لما غفلوا عن رعايته من طلب الشهادة، وعددها أفضل ذخائر السعادة، وإن الله يدا عندك بما آتاك، ولست تأمن مكره في حفظ نعمته عليك لعقبك: ان أمنت ذلك لنفسك، إلا أن تؤدي حق الله فيها، ولا تؤدي حقه حتى يكون معظمها منصرفاً لاعزاز دينه وإعلاء كামته، والجهاد للحق حتى يظهر، وفي الباطل حتى يدحر، فأوصيك وما أنت بمحتاج للوصية أن تجعل كتاب الله أمامك وأن تأتمر له كما كان نبينا وأصحابه يأتمرون له، فلم يكافهم الله دوننا، ولم يسامحنا

الله دونهم ، وليس بين الله وبين أحد من خلقه هوادة في فريضة فرضها ، أو سنة سنها ، وإياك وتعلات النفوس وأهاويل الأوهام ، فانها من مضلات العقول ، ومداحض الهلكة ، وجند الشيطان ، وليس بينك وبين الحق إلا أن تهتم وتخلص لله همك ، فتكون يد الله على يدك ، يؤيدك ويأخذ لالحق بك ، والله لا يهين خاذله ، ولا يضيع عملا أخلص له .

ألا أيها الشيخ الجليل ! إن الله قد اشترى منا حياة دنيئة لو طلبت من عاقل لجاد بها بلا عوض ، لقيامها على قواعد الاتعاب ، وقوائم الأوصاب ، بدايتها ضعف ، ونهايتها عجز ، وما بينهما خروج من أحدهما دخول في الآخر ، مافات من لذاتها يولد الأسف على فواته ، وما حضر مشوب بالجزع على ذهابه ، والهدف الدائم على تحصيل ما يؤمل منها ، فليس فيها حال تخلو من آلام ، وقد وعدنا ديناً حقاً أن يعرضنا عنها سعادة أبدية في حياة أبدية لا يشوب لذتها ألم ، ولا يمازج صفوها كدر ، وذلك عند ما تسلّم له السلعة تامة في نهاية الأجل ، فإن لم تقبل بيعة الله في ذلك كنا المغبونين ، وإن لم ندفع له سلعته خالصة كنا الخاسرين ، حياتنا ذاهبة إلى الفناء رغماً عنا ، وليس لنا من امكان للخلود فيها ، فانظر إلى رحمة الله في شرائها منا ، وأجزال العوض وتعظيمه حتى كأنه يساومنا ملكاً لنا ، وفي سعتنا أن نستبد به عليه ، ونمنعه مراده منه ، جلت عظمته ، ووسعت رحمته ، ألا فلتتق الله ولا نبخل عليه بما هو له ، ولا نفر باملائه لنا ومطلولتنا عليه . فشمّر عن ساقك ، واحسر عن ذراعك ، واذهب إلى الله بخير الذخائر وهو تأليف عباده على الحق واستجاشة قلوبهم للدين ، وتأليبهم على تلبية داعي الايمان ، والله يتولى ارشادك في جميع الاحوال .

أما حادثة الشيخ فقد مسنا منها مامسه ، ولم يكن ما وجدنا منه أقل ما وجدته ولم يغيب عنا شيء من أطرافها ، وقد جهدنا فيها ما استطعنا ، وربما رأيتم أو سمعتم بما أطالت به جرائد باريزني المدافعة عن الشيخين وتعنيف الحكومة على ما فعلت وذلك بمحاورة من تعلمون هناك ، ولقد تنازعني في هذه الحادثة مسرة وحرزن أما المسرة فلأن الشيخ قام على طريق الصديقين يتلقى من الاختبار الالهي ماتلقوه

لينال من رضا الله اذا احتسب ما نالوه ، وأما الحزن فلما عسى أن يكون قد خالط قلبه من الخيبة والأسف على المصيبة ، والحمد لله على رجعة من غيبة ، وأسأله وقاتكم جميعاً من كيد الغادرين ، وعدوان الظالمين ، وأن ينزع بخواطركم اليه ، ويؤلف قلوبكم عليه . وبعد هذا فنبثني عن العنوان الذي به أكتب اليك ، وأخبر الشيخ أن يكتب لي بعنوانه ، فقد أذنت بأن أبعث اليه ببعض التمواعد التي ينبغي أن يرفع البناء عليها ، واذا كتبتم إليّ فليكن بعنوان ... وعجل بالاجابة ما استطعت والسلام ١٥ الحجة سنة ١٣٠٢

١٢

وكتب إلى ش. بي صاحب الكتاب (عدد ٢)

لا اله إلا الله وحده لا شريك له وبه الحول والقوة

حضرة الاخ العزيز

ورد إليّ كتابكم والحمد لله على صحتكم ، وكنت أود المبادرة باجابتكم من يوم وروده ، لولا أن رقيمكم صادقي على علة في عيني ، كانت تمنعني النظر في الكتابة والكتب ، والله الحمد على ماخف منها . اشتد أسفي على فقد الشيخ الصالح أوسع الله له من رحمة ، ونفعنا بطيب نيته . أسفاً على فقد حميّ لدينه ، مخلص في يقينه ، وإن كان للأسف على من يلاقي ربه بمثل ملاقي الشيخ ، انتهت ديناه بفضب الشيطان ، وافتتحت أخراه برضى الرحمن ، ولولا رجاؤنا في مثل ما أقبل عليه الصالحون ، لضائق بنا منازل الحياة ، وغصصنا باهناً لذاتها ، وشرقنا باعذب كؤوسها . أما ما ذكرت عن الشيخ الصغير فقد كان كتابك السابق يشير إلى رغبة منك في تعليق الأمر بك على أنه لو لم يكن فيه مثل ذلك لما اخطأت الظن فيما كلفتك ، ولم أستسمن ذاورم ، بل على الملي . به سقطت ، وإن ظني بك لفوق ما يروى عن نفسك ، ولكن دع عنك ما استصعبت من الأمر ، وأخبرني عن اسم الشيخ المشهور به ، واسم بلده ، والقطر الذي تغلب إقامته فيه ، واكتب ذلك بالحرف الفرنسي الواضح ، وأستمع الله في مخابرتي بنفسي بأسلة قلم نو لسان رسول ، ولا تبطنوا عليّ في الافادة ، والسلام عليكم وعلى اخوانك الابرار ، والله يتولى اعانتكم والسلام

وكتب إلى س . س صاحب الكتاب (رقم ٦)
لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وبه الحول والقوة

بسم الله الرحمن الرحيم

(وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون* وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون)

كتبتم إليّ بأنكم اجتمعتم جملة من الصادقين وأهل الحمية للنظر في تقويم ديننا ، والأخذ بما يرضي الهنا ، ويقر عين نبينا ، ثم حدثت بعد ذلك الأحداث ، وتلك سنة الله في الأولين والآخرين عند بداية كل عمل صالح مقبول لديه ، محفوظ بالعناية منه ، ولم يمضي حدث ما حدث عن مخابرة من أنوب عنهم بما كان من اجتماعكم ، ثقة مني بهمتكم ، وصدق عزيمتكم ، فورد لي الاذن بتسمية مجتمعكم وإرسال بعض القواعد التي ينتدأ بها العمل . واليوم أبعث بها اليكم ، وأملّي أن تكون في حرز الصيانة ، وأن تكون مرجع الأعمال ان شاء الله ، فاذا وصل اليكم ذلك فخذوا عهدكم على القسم المذكور ، وانتخبوا رئيسكم وعجلوا الخبر بما اتبهم اليه، وفضلوا أسماء من معكم وأقاربهم ومواضع اقامتهم وسموا لثرائسكم . وكان السر أول وصيتي اليك وهو نهايتها والسلام على أهل العقد الرابع من عقود العروة الوثقى والله يتولى اعانتكم - رسالة الرد على الدهريين أشرفت على نهايتها من الترجمة وستطبع في بيروت ان شاء الله ومتى تمت ارسلنا اليكم منها

وكتب الى (ش) صاحب الكتاب (عدد ٢)

أيها المؤمن حقا

لا أدري هل أخاطبك بالأخ الصالح أو بالابن البار ، ولكني أعلم أنك مؤمن بلائك ، هياك الله لرشادك ، تلقيت يميني يمينك ، وضمنت إلى أيقيني بيقينك ، بارك الله في عزيمتك ، وحاطك باليمن في نيتك ، ولقد آتيت في عملك

هذا سنة المؤمنين من قبلك ، سارعت إلى مغفرة من ربك . ممثلاً أمر كتابك المنزل على نبيك ، وسابقت إلى جنة من الله ورضوان .

رويت لي عن صاحبك دون ما أملت فيه ، ولكني أرى رأيتك في استبقائه ، والارضاء باليأس منه ، فلعل بارقة من العناية الالهية تنزع به الى ما هو خير له ان شاء الله (ومنه) والله انا لتصفح قلوب المؤمنين في هذا الامر تصفح الناشد مواضع الضلالة ، لعلنا نصيب من قلب حكمة ، أو نستفيد من عقل بصيرة ، وانا لتتبع في ذلك أثر النبي صلى الله عليه وسلم وأثر أصحابه والآخذين بسنته الحقنا الله بهم . فما باله يرحمه الله يرض بما يراه ان كان للحق طالباً ، ولكن لا تحزن ان الله معنا (ولا تيأسوا من روح الله ، انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون)

ان أخلد مغرور الى حضيض الجبن فانا مرضي لنفسه درك العدم ، وانحدر عن أدنى درجات الوجود ، ولم يزد في حاله أن يكون كأشبه جنبا ، يفوقون عدد الحصباء ، عاشوا في أغلفة من الحول لا يهتدي اليهم الذاك ، ولا ينصرف نحوهم شكر الشاكر ، هذا بعد أن يكون قد أصاب خطه من المقت الالهي الكامن في قوله (رضوا بأن يكونوا مع الخوالب وطبع الله على قلوبهم) واني لأشح بمنله عن هذه المنزلة هداه الله

ذكرت اسم الشيخ القاضي نجبه فلم تذكر ناسياً ، ولم تنبه لاهياً ، زاد بذلك أسفي ، واشتد على مثله لمفني ، وهمل دمعي ، وغشي على بصري وسمعي ، أمطره الله غيوث الرحمة ، وتوفانا على مثل نيتيه ، فذلك كان من الصابرين (الذين إذا أصابهم مصيبة قالوا إنا لله وانا اليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون) قم على مذهبك (وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) وذكر بآيات الله ، فلأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم .

وكتب اليه أيضا هذا الكتاب المطول وهو من أجل كتبه الدينية
 الاصلاحية ، بل من أبلغ ما قال أو كتب أئمة الدين ، وعرفاء الصديقين ،
 من المواعظ والنذر ، والآيات والعبر ، التي تنير البصائر ، وتطهر السرائر ،
 وتزيل بين المؤمن والكافر ، وتفرق بين البر والفاجر ، فهي ميزان
 الايمان ، ومسبار العرفان ،

لا اله الا الله وحده لا شريك له وبه الخول والقوة
 سرفني ما نقل الي كتابك أنك استجيت لربك فيما دعا اليه عموم خلقه
 بقوله (قل سيروا في الارض) وانما يستجيب اليه أهل الرغبة فيه ، ولقد حدث
 الله أنك لم تجعل سيرك سير الغافلين ، ولم تمر على ما لا فاك مرور الداهلين ، بل
 استعملت بصيرتك ونظرت فيما قام لك من أحوال الناس ، لتعلم ماذا أبتت
 ليوادث فيهم من الاستعداد لقبول الحق ، والميل للرجوع اليه ، وما أظنه ذهب
 عليك أيام كنت تقلب عين اعتبارك في أطوار أولئك المحجوبين ، ان مامم فيه
 لا تختلف عن عواقب المكذبين ، الذين يأمرنا الله بالنظر كيف كان عاقبة
 أمرهم ، وما أحل الله بدارهم من بوار ، وما ألحق بعمرانهم من دمار ، وما ألصق
 بذكرهم من عار وشنار ، وكيف يختلف الخال عن الحال ، وانما التكذيب أثر غين
 يغشي عين القلب ، فيواري عنها وجه الحقيقة ، فتعمه ظلمة أشبه بظلمة الخسوف
 تعلو وجه القمر ، فاذا أظلم القلب وهو مستودع السر الذي به كان الانسان إنسانا
 فقد أظلم الانسان كله ، وذابت قواه تحبط في أفاعيلها على غير هدي ، وتعرس
 عليها أن تلزم طريق الحق والصرراط المستقيم ، وهذه الحال كما تراها فيمن ينكر
 الحق بلسانه ، ويكذب الداعي اليه بانكار بيانه . تراها بعينها في هؤلاء الخدوعين
 الذين يزعمون انهم آمنوا بالله وبرسوله وبكتابه ، ثم هم في أعمالهم وآمالهم أبعد
 الناس عن سنته وسُنَّته ، وأشدهم التواء على أمره ونهيه ، وقد علمت أن الله لم

ينظر إلى قوم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، وإن اليهود لم يتفهم أن آمنوا بموسى وخلفائه من الانبياء ، وبما جاؤا به من الوحي الالهي إيماناً يحاكي ما يدعيه المسلمون في هذه الأوقات : كان اليهود يعرفون موسى نبياً لهم ، والتوراة وكتب الانبياء هدايات من الله لعقولهم ، كما يعرف المسلمون ذلك في كتاب الله تعالى ، ولكن الله نعى الينا أحوالهم في مزاعمهم فيقال (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً ، بنس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لا يهدي القوم الظالمين) فقد جعل تأويلهم التوراة وصرفهم لألفاظها إلى غير ما أراد الله بها وحيدانهم عن العمل بما دعت اليه تكذيباً بآيات الله ، وجعل تقصيرهم لما حاوروا من أحكامها مروفاً منها حيث قال (لم يحملوها) وجعل تصديقهم بها على هذا الوجه بمنزلة احتمال حمار لا سفار ، فهو في عناء من ثقلها ، على بعد من فائدة ما أودع فيها . أفليس هذا النبأ بعينه يحدث عن احوال المتحليلين اسم الاسلام في هذه الايام ، وأنهم حملوا القرآن ثم لم يحملوه ، إلى آخر الآية ؟ ألم يكن في ظلم أهل هذا العنوان وجودهم عن حدود الله ما يستحقون به تسجيل الضلالة عليهم كما سجلت على اليهود في قوله « والله لا يهدي القوم الظالمين » ؟ وأشد الظلم ظلم النفس ، بعد لها عن سنن الحق . ألا يصدق عاينهم أنهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ؟ الا ينسى حالهم (بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى) ؟ ألا يحكي جهلهم (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون) ؟ أي أنهم لا يعلمون منه الا أن يتلوه تلاوة بغير فهم ، فان طلبوا شيئاً من المعنى لم يكونوا فيه على بصيرة إن يظنون الا ظناً

اني استلفتك الى أولئك الذين يتناولون مصاحف القرآن الكريم بأيديهم خصوصاً في شهر رمضان ، ثم يطفقون يلوكونه بأسنتهم ، ويزعمون أنهم يتقربون الى الله بترنمهم ، ويصعدون إلى منازل القرب عنده بنغاتهم ورنين أصواتهم ، ويجعلون كل همهم في هز رءوسهم ، والتوفيق بين الهزات ، وتوج النغات وما شاكل ذلك من لواحق الصور والهيئات ، مما قد يعجب به عرفاء الدين ، ويستغرب حدوده في المسلمين أهل اليقين لبعده النسبة بينهم وبين دينهم ، والنافرة الثابتة بينهم وبين مقتضى

ايمانهم، حتى اذا انصرف أولئك القارئون، والتمسوا من قلوبهم عبرة مما قرأوا، أو عظة مما سمعوا، لم يجدوا من ذلك قليلا ولا كثيرا، بل رجع كل منهم الى هواه، وأوى الى قعيده نواه، وما كان قد انصرف عن وساوسه، ولا انقطع عما استحكم سلطانه في نفسه من شياطين أهوائه، الا في ظاهر ما يرى الناظر. واذا سئل أحدهم عن شيء من معنى ما قرأه التجأ الى الجبل، أو خبط في مضلة من الوهم، واذا قبس عمله الى أحكام ما يقرأه، وجدت تباينا كما بين الاسلام والكفر، فبالله الاما اجبتي هل تجد فرقا بينهم وبين اليهود فيما قص الله عنهم في قوله (ومنهم أميون) الخ؟ الا تجد الوصول الى الفرق نزر الوسائل، متعذر الذرائع؟ ولو سردت من أحوال اليهود والنصارى والمشركين التي قص الله علينا تحذيراً لنا من التدنس بمثلها ووضعها مع أحوال المسلمين في كفتي ميزان الا ترجح أحوال المسلمين سوءاً على أحوال أولئك الضالين؟

أصبح المسلم في هذه الأيام حجة للكافر على كفره، وفتنة له يضل بها عما أقام الحق من أعلامه، فاذا قيل ان الاسلام خير الأديان بل هو دين الله الذي أخذ به الأمم السابقة فضلوها فضر بهم بأنواع من عذابه في الدنيا، واستبقي لهم مالا نهاية له من الشقاء في الآخرة، ظهر فيهم بصور مختلفة، ثم جاء في أكل صورة بيعة خاتم الأنبياء، مستمناً لنوره، مكمللاً لأمره، لتقوم به الحجة، وتتضح به المحجة، وأصبح هذا القول بألف دليل كلها أوضح من الشمس، وأنقى للشك من ضوء البدر اظلام الليل - رأيت علة واحدة تهدم كل ما بنى من الأدلة وهي: لو كان الاسلام ديناً صحيحاً ما وجدنا أهله المستمسكين به (في زعمهم) على ما يرى من فساد الاخلاق وسقوط الهمم وضلال العقول وهكذا أيها الخبيث أصبحنا فتنة للذين كفروا والله يذبنا على ما صرنا اليه بتعليمه ايانا كيف ندعوه اذ يقول (ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا) وما كان تعليمه الدعاء الا لتوسل بالعمل الى ما نطلب منه؛ ثم ندعوه المعونة على ما نقتصد من موافقة رضاه؛ فلو فقه المسلم لا يتعد جهده عما يجعله فتنة للكافر، وجعل ورد له ونهاره (ربنا لا تجعلنا فتنة للذين

كفروا) ولكنهم في أن يكون بكاله قذى في عين أعدائه ، لا أن يكون حقيراً في أعينهم ، ضحكة لهم في محافلهم .

ولقد حدث في هذه الأيام الأخيرة أن قسيساً انكليزياً^(١) هداه البحث الى شيء من محاسن دين الاسلام فأخذ يث ما علم في الجرائد الانكليزية وفي المحافل الدينية في انكترا ، الا انه يصعب عليه أن يعلن اسلامه ، ويصرح بحقيقة إيمانه لأنه يخاف ان تطول اليه أيدي الاعتداء من قومه وهو يدعو الى الاسلام تحت حجاب انه لا يخالف المسيحية الحقيقية بل هو متمم لها ، وله فيما يدعو اليه شيعة تنمو في لندرا ، وبيننا وبينه مخاطبات لتشجيعه وتقريبه من حقيقة الايمان ، ولا نعلم اليوم ماذا يكون من نهاية أمره ، وله معارضون كثيرون من الانكليز وغيرهم ، واذا تقصيت البحث في جميع حججهم لا تجد في مقدماتها الا ما يكون راجعاً الى ما عليه المسلمون الآن من الاخلاق والعوائد والافكار ، وكما جاء الرجل لهم بشيء من أحكام كتاب الله أو بأثر من آثار المسلمين الاولين ، رأيت أو تلك الجاحدين يقابلونه بأحكام يعدها المسلمون من حدود دينهم ، ويعولون عليها في أعمالهم ، وهي مقصية لهم عن الكمال ، ساقطة بهم عن أدنى مراتب الرجال ، فكما ردم الى الله ورسوله رده الى أحوال المنتسبين الى هذا الدين القويم ، وهم عاره ، وبهم يهدم مناره ، وتخفي آثاره ، لو بقي في أيديهم أمره ، غير اني أرى الله سيحول أمر دينه عن هؤلاء الذين لبسوا على أنفسهم ، وانقلبوا فتنة لغيرهم ، ثم ينتقم منهم بأيدي الظالمين والصالحين (فان يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين - وان تولوا يستبدل قوماً غيركم * ثم لا يكونوا أمثالكم) فهبتنا لمن أعد نفسه ، وسبق تعسه ، فشجذ همته ، وطهر نيته وقوم ارادته واستجمع عزيمته ، لالقاء ركب الله الذي سيفد عليه ، فيكون اما راجلاً في مشائه ، أو فارساً من كمانه ، أو خادماً في حاجاته ، أو سيداً في رياساته ، ولا يكون شيئاً من ذلك حتى يكون الله ورسوله أحب اليه من نفسه ، وحتى يكون كتاب الله أصدق الشاهدين له لا عليه ، وحاشا كتاب الله أن يشهد الا لمن ابي دعوته ، وقبل شهادته ، ونصبه اماماً في محراب الوجود يتبعه بصره ، ويحذوه في سيره ، يقوم اذا قام ويقعد اذا قعد يعظم ما عظم ويحقر ما حقر ويطلق

(١) هو اسحق طيلر الذي سيأتي في هذا الفصل بعض مکتوبات الاستاذ له

ما أطلق ويقيده ما قيد ، ثم أقام له من زواجه خطيباً على قلبه ، وواعظاً يصدع بأمر ربه ، على منبر ليه ، يعلمه اذا جبل ، ويوقظه اذا غفل ، ويذكره اذا ذهل ، ويحثه اذا كسل ، ويسرع به اذا أبطأ ، وينهضه اذا تلاكأ ، ويستلطفه الى الصواب اذا أخطأ ، يهديه اذا تحير ، ولا يعدو به الخير اذا تحير ، يرد جماحه اذا جمح ، ويكف من غربه اذا طمع ، حتى يقيمه على الصراط السوي ويصعد به الى المقام العلي ، وكيف يستعمر القرآن قلباً تشغله الالهواء الباطلة ؟ وتستوكره الرغائب الزائلة . ان القرآن طاهر لا يجاور الاطهارا ، وقويم يأتي أن يساكن جاثراً ، زكي لا يأنس للأرجاس علي يأتي من مقارنة الادناس . فلا عجب اذا استوبل المقام في هذه القلوب المحتشية بالعيوب وتركها وشياطين الوسوس تخبط بها في مخازي الدنيا ومهالك الآخرة .

يا عجباً لمن يدعي الاسلام وهو يعرف من نفسه ان أمر آلوجاءه من أصغر الحكم عليه بلغة غير لغته لما قرت له راحة ، ولا اطمانت به نفس ، حتى يقف على ترجمته ولا يكتفي بترجم واحد حتى تكون ثقته به كثقته بنفسه والاراجع ثانياً وثالثاً طلباً لدقائق المعاني لا يفوته شيء ، مما حواه امر أمره فيمقع في مخالفته الى غير هواه وكلما عظم مكان الأمر اشتد الحرص على استجلاء مراده ، خشية الوقوع في حداده ، أو ما يبعث الظن الى التحرش بعناده ، وقد يكون الامر مما يضره ولا ينفعه ، ويخفضه ولا يرفعه ، كل ذلك للبعد عن مساخطة والارتياح الى مراضيه — هذا وهو يزعم الاعتقاد بان القابض على ناصية أمره هو الله سبحانه وتعالى وهو المقلب لقلبه والآخذ بعنان إردائه . ثم هذا أمر سام وردله من علي متعال ، رب الارباب ومخضع الرقاب ، قهار السموات والارض ، الذي لا ترد مشيئته ، ولا تخالف إرادته ، الكتاب المجيد يتجلى به في منازل الرحمة ، ويستفيض من ديم النعمة ، ويقيم به على السعادة أعلما ، ويضع لاجتناء ثمر الكرامة أحكاما ، ويعد المستجيبين لأمره هذا — وهو القادر على كل شيء — أن يمكن لهم في الأرض ، ويخدمهم أهلها ، ويجعلهم الأعلين فيها ، وأن تكون عزتهم مقرونة بعزة الله ورسوله ، وأن لا يبید سلطانهم ، ما ثبت إيمانهم ، ولم يشبهه كفرانهم ، كما قال (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ،

(٧٢ — تاريخ الاستاذ الامام — الجزء الثاني)

وليمكنهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدانهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون)

وايس في المواعيد السماوية أصرح مما وعد الله في كتابه المبين ، ولا أقطع للشبهة منه . ثم زادهم على ذلك نعيماً أبدياً ، وأوعدهم في المحالفة خزيًا دنيويًا ، وشقاءً سرمديًا ، والذين يكفرون ، وسجل عليهم أنهم الفاسقون ، هم الذين تبطروا النعم فتستزلمهم عن مقامات الشكر . ثم تتابهم الغفلة فيعدلون عن سبيل الذكر الحكيم ، ومن فسق عن أمره ، أحلَّ به غضبه ، وأنفذ فيه عامل انتقامه ، وسلبه ملابس إنعامه ، أما بشقي مثله ، أو وليٍّ من أهله . ثم ضاعف له العذاب يوم القيامة ، وأخلده فيها مهانًا ، إلا أن يتوب فيغفر له ما قد سلف . ويعلم المخدوع أن صاحب هذا الأمر العليّ مطلع على السرائر ، بادية لعله صفحات الضائر . ومع هذا وذاك لا يتفهم أحكامه ، ولا يتبع أعالاه ، وينبذه وراء ظهره ، كأن لا علمه بنبيه وأمره ، ويمني نفسه أن ينال ما ادَّخر الله لأوليائه إذ قصرت همته عن نيل سعادة الدنيا ليتنعم به في الآخرة ، شهوة تحول دونها أعماله ، وأحلامًا تنافي صدقها أحواله . وما أعجب حال من يزعم الإيمان بالله ولا تقني أهواؤه في إرادته ، ولا تضمحل نشرات طبعه لمباهته ، ولا تتضاءل عزائم نفسه لعظمتها ، ولا يجعل القسم الأعظم من حياته للسعي في مرضاته ، ولا يبدل من نفسه وماله ما لا يخسر في مآله

حدثني عن اليأسين من عليّة (ق) (١) - وأشباههم فهؤلاء لم يأسوا من الله ، حتى ساء به ظنهم ، وما ساء ظنهم حتى انتقض إيمانهم ، فخالهم حال القائلين (ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً) ورويت لي عن أهل النقرة سكنة (من) (١) فهؤلاء بقيت فيهم بقية لا بدَّ أن يؤيدوها بالعمل ، ولا مكمل لما بقي فيهم إلا رجوعهم إلى الله ورسوله ، ولن يرجعوا إليه حتى يكون مزاج وحدثهم وحبل اعتصامهم كتاب الله ، يهزون به همهم ، ويلهون به شعثهم ، ويشهدون الله أنهم نصروه في الأحوال والأعمال ، فينصرهم في مواطن الجلال ومواقع الجدل

(١) اقتطعت ألفا والسين من اسم بلدين من قطر الخاطب . (جامع الكتاب)

ان كنت وثقت بشيخ الاسلام الذي ذكرته فخذ العهد عليه ، وسق اليه
بعض كتابي هذا أو ب كله إن رأيت ذلك ملائماً لحاله ، والا فزدي فيه بصيرة
فاكتب اليه بما يلهمه الله

واقفي بكتبك بما أمكن من السرعة ، ولا تبطئ علي بعد الآن والسلام
(يقول جامع الكتاب) أجدر بهذا الكتاب أن يسمى ميزان الايمان .
وتجعل نصابه عنوان الاسلام وان يكون تدبره المراقبة إلى مقام الاحسان والله المستعان

١٦

وكتب اليه أيضاً

لا إله الا الله وحده لا شريك له وبه الحول والقوة

أيها الأخ الصادق أيده الله

طال عهدنا بك ، لم نر منك كتابا ، ولم تلتق عن لسان اخلاصك خطابا ،
وإبطاؤك عنا ، مما يقلق الخواطر منا ، لاخوفا على ايمانك ، ولا ريبية في درجة
إحسانك (نعوذ بالله) ولكن خشية أن يكون عرض لك من العوارض الجسدانية ،
أو خالطك في الأحوال المعاشية ، ما قبض من يدك ، أو فت في عضدك (حماك
الله) فرجاؤنا أن لاتفوت فرصة تمكنك من سوق خطابك الينا حتى تنتهزها ،
فان لسكون القلب بالاطمئنان على سلامتكم قيمة عليية في نفوسنا ، فقد لا يخفك
أنكم في مكان مخافة ، ومحل مضیعة ، تضطرب عليكم منه القلوب ، وتذهب
وراءكم فيه النفوس ، وأن صادقا مثلك لجدير أن يحرص عليه ، وأن تعنى
الأرواح بالتطواف حوالیه

كان لكتابك المفصل وقع جميل ، ولك على القيام بتحرير مثله الشكر
الجزيل ، فليكن العمل على ذلك المذهب ، حتى يصفو المشرب ، ويتضح المطلب ،
ان شاء الله . أما وصيتي اليك فأقتصر منها اليوم على ما وصى به رسول الله صلى
الله عليه وسلم معاذاً رضي الله عنه ، اذ قال له « أوصيك بتقوى الله ، وصدق
الحديث ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة ، وترك الخيانة ، وحفظ الجوار ، ورحمة

اليتم، ولين الكلام، وبذل السلام، وحسن العمل، وقصر الأمل (في الدنيا) وقصد العمل، ولزوم الايمان، والتفقه في القرآن، وحب الاخرة، والجزع من الحساب، وخفض الجناح. وإياك إن تسب حلما، أو تكذب صادقا، أو تطيع آمما، أو تعصي إماما عادلا، أو تفسد أرضا. أو صيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر. وأن تحدث لكل ذنب توبة، السر بالسر، والعلانية بالعلانية» اهـ

هذا جماع من مكارم الأخلاق يعم مانحن فيه وما وراءه، والخير في جمعه. فالدين بناء وهذه اعراقه، ولا يتم أعلاه حتى يتم أدناه. ثم لانتس قول عائشة الصديقة رضي الله عنها: كان خلقه صلى الله عليه وسلم القرآن. فقد أبقى الله سبحانه في نبيه صلى الله عليه وسلم مظاهر من صفات البشرية تبدو لها آثار، تلحظها البصائر والأبصار. ثم حددها في كتابه، وهدبها في محكم خطابه، تعليما لأئمة، وإرشادا لاتبعة ملته. فكان في ذلك أعظم فخره صلى الله عليه وسلم حيث قال «أدبني ربي فأحسن تأديبي» ولا بركة لنا في شيء من أعمالنا الا باتباع سنته، والسير على المأثور من سيرته، والتحقق بأخلاقه، والتماس خلاقه، واقتفاء أعلامه. هذا صلاحنا، وهو سلاحنا (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم * قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) وعلى هذا فليكن دأبك حتى يظهر الله أمره، ويعلن سره. وإياك والملل فالخطب جليل، وقضاء الله أجل. ومع هذا كتاب من الأمير أوصله الى صاحبه حسب رأيك. والسلام عليك وعلى كل صادق الايمان ثابت الجنان

٦ صفر سنة ١٣٠٥

١٧

وكتب الى أحد شيوخ التصوف المرشدين . م . ت

بسم الله الرحمن الرحيم

(ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا

للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم)

الحمد لله وبه الهداية في البداية، وهو الغاية في النهاية، والصلاة والسلام

على سر العناية ، وحقيقة كنه الولاية ، وآله حماة الدين ، وأصحاب الهداة الراشدين
أما بعد فإن من نعم الله عليّ ، ولطف احسانه اليّ ، ما أودعه في فطرتي ،
من الميل الى الخيرة من أهل ملتي ، فلا أزال لهم طالباً ، وفي الصلة بهم راغباً ،
خصوصاً من تجمعي بهم وحدة التربة ، وتضميني اليهم جامعة النسبة ، وقد بلغت
الي شهرة عرفانكم ، وما رفع الله في مقامات القرب من مكانكم ، فألهمت أن
أفتح اليكم باب التعارف ، وشئشة المؤمنين التواضع والتعاطف . قال صلى الله
عليه وسلم « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد اذا اشتكى
منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى » وأما الاخوة التي عقدها الله بين
المؤمنين ، وان أهملت عند كثير من العافلين ، الا أنها لم تنزل والحمد لله تلحظها
بصائر العارفين ، وتصيب للاعتصاب بها قلوب الصادقين . فانما الاخوة مظهر
سر المحبة ، والمحبة تجلي سر الجذب الالهي الذي يجمع الله به ارواح الصديقين
الى حضرته القدسية — هذا الى مانا ط الله بها من قوة التعاون . قال صلى الله
عليه وسلم « من أراد الله به خيراً رزقه خليلاً صالحاً ، ان نسي ذكره ، وان
ذكر أعانه » وكما يكون التعاون والأما كن دانية ، يكون والأقطار نائية ،
وخير المعونة ما عاد على الأرواح بتزكية وصلاح ، ولا أعود على الروح من علم
تستفيده أو نصيح تستجيده . أو صلة بين متحايين تأنس اليها ووحدة بين
متواصلين تعول عليها . وأرجو أن يجعل الله في مكاتبتنا بركة ذلك كله ان شاء
الله . فسر كم ظاهر ، وضياؤكم باهر ، وميلي اليكم غير معلول ، واهتمامكم بالاجابة
مأمول . واذا كتبتم الينا فليكن عنوان ظرف الكتاب والله ينفعنا
بالتواضع ، ويبلغنا به غايات المراد ، والسلام عليكم وعلى من يرتبط بهدك ورحمة الله

(وكتب الى أحد العلماء جوابا عن كتاب له يقول فيه أنه فهم من
تسم الجمعية (١) أنها تدعو الى مذهب الظاهرية)

لا إله الا الله وحده لا شريك له ويده الحول والقوة

ثم وصلني كتابكم وكتاب أخي الفاضل (م . ش . ف) وقد أسفتي والله يعلم
ما بلغ الأسف مني خبر وفاة سيدي الشيخ والدكم إلا أن ذلك مصير لا بدّ من
الانتهاء اليه ، وإن عظم الأسف عليه ، وفيما عند الله سلوة الأبرار . أما ما ذكرت
في كتابك من اسم الظاهرية ، فلم يكن ليخطر على بالي توجه فكركم اليه ، فإن
المذكور في القسم تحكيم كتاب الله في الاخلاق والاعمال بلا تأويل ولا تعليل (٢)
ومن الظاهر البين أن المراد من الاعمال عزائمها من الجهاد في الله حق جهاده ،
وبيع النفس في مرضاته ، والسعي لاعزاز دينه ، والقيام بحفظ أو امره ونواهيه ،
التي يكفر جاحدها ، ويفسق الحائذ عنها ، ويشهد بذلك اقتران الاعمال بالاخلاق ،
فكيف ذهب خاطر سيدي إلى العقائد أو أعمال الفروع ، ولعلم سيدي أننا
سنيون أشعريون أو ماتريديون (٣) واننا في أعمال العبادات دائرون بين المذاهب
الأربعة ، فمننا المالكي ، والشافعي ، والحنبلي ، والحنفي . وفي المعاملات على مذهب
حاكم البلاد إن وافق واحدا منها ، فإن كان على غيرها توقينا المرافعة اليه ما أمكننا ،
وانما ذلك القيد ليخرج الداخل معنا من حكم قوله تعالى (أفتمنون ببعض الكتاب
وتكفرون ببعض) ولتمتاز المؤمنون بالكتاب عن الذين يزعمون الايمان به ، ولا
يأخذون بشيء من أحكامه ، إلا صوراً من الاعمال لا ينظر الله اليها ، وأولئك

(١) يعني جمعية البروة الوثقى (٢) العبارة المرادة من القسم هنا هي
« أقسم بالله العالم بالكافي والجزئي والجلي والخطي ، القائم على كل نفس بما كسبت ،
الآخذ لكل جارحة بما اجتاحت ، لا حكن كتاب الله في اعماله واخلاقه
بلا تأويل ولا تعليل الخ (٣) كان أكثر أعضاء الجمعية من المالكية والشافعية
وهم من الأشعرية ومن الحنفية وهم ماتريديون ، والاستاذ نفسه كان اشعريا
صوفيا ، ثم صار بالتدرج سلفيا

قوم عرفناهم وعرفتموهم: يهونون على أنفسهم ضيم الدين لا يحزنون لذلك، ولا يعملون لحمايته ، ويتعللون باليأس ، يفرون من الله فيما ألزمهم عمله ، ويسألون المعونة على ما نهاهم عنه ، ويركون في ذلك إلى التأويل والتفسير ، ولو أن شيئاً من المكروه أصابهم لرأيتمهم يطيلون الأحران ، ويحشدون الأشجان ، ولو عن لهم حطام من الدنيا رأيتمهم يشدون المآزر ، ويشمرون عن السواعد ، كأنهم للدنيا خلقوا وكأنهم فيها يخلدون

لعل في بياني هذا كفاية ، ولو وسع الوقت أطول منه لأتيت بأمك تلاقونه، وأما ما ذكرته في أمر المواد من أنها لا توافق بلادكم فلم أعرف له سبباً ، فإنها مواد عمومية جرت العمل بها في أقطار مختلفة والحمد لله صادفت نجاحاً . فان كان ذلك كما ذكرتم فابشروا بها إليّ في أول بوسطة ، وأقسم عليك بالله ألا أخذ بناصيتي وناصيتكم إلا تنقلوا لها صورة ، ولا تنسخوا من موادها مادة ، لأردّها من حيث جاءت، ثم ابشروا إليّ بما تجدونه موافقاً لكم لنظلم عليه ، فان رأيته موافقاً لنا لكم اقراره . والسلام عليكم وعلى من يتصل بكم

١٩

(وكتب الى بعض اعضاء الجمعية في بعض الاقطار الاسلامية)

بسم الله الرحمن الرحيم

(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق) ذلك الذي وفد اليكم من القسم الذي سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم المنافق العليم اللسان ، وهو جاسوس للحكومة القائمة في دياركم فاحذروه ، ولكن ليكن حذركم حذر الحكماء لا يتبين منه علمكم بحاله ، وتحفظوا منه كل التحفظ وإياكم ومكاشفته بشيء مما أنتم عليه ، فلتقد وجدته يدنو من السيد أيام إقامته بباريس ويسعه من السيد لين جانبه ، وحاجته الى ترجمان في بعض شؤونه، فلما كثر اجتماعي به تبينت فساده ، فأقصيته من السيد ، وباعدته عنه ، وبعد أن كان يترجم لنا بعض الأخبار في بداية اشتغالنا بنشر آراء العروة طرده استعانة

من خبث سربرته فتعوذوا منه تعوذكم من الشيطان حتى يفرق الله بينكم وبينه
 أما قواكم في كتابكم اني كاتب الشيخ بتوييح فقدراجعت له نسخة الكتاب
 التي كتبت من صفحة كتابي فلم أجدني الا عزيت الشيخ أولاً ، ثم كشفت له
 عن وجه الشبهة فيما استفهم عنه ثم قلت — واني اصادق — انه ما كان يخطر ببالي
 توجه فكره الى الرأي الذي يسأل عنه ، وما قصدت بذلك والله توييحاً ولا لوماً
 ولكن نبهت على ما أعلم وليس وراء ذلك غاية ، وفي الحق آني لو كنت اعلم أن
 العبارة توهم ما استفهم عنه ، لكنني وضحت المراد في كتابي الاسبق ولم أحوجه
 الى الاستفهام، هذا ما أردت ، ولعلّ تطويلي في بيان المراد أوهم شيئاً مما قلم
 ولست منه في شيء . نعم انني طلبت منكم نسخة المبادي ان لم تريدوا اعتمادها
 وهذا ما يوجهه عليّ عهدي الذي أنا فيه

وأما عدم ثقة الشيخ بهمة من ذكرتم فما له الحق فيه ، وهكذا أمر هذه الامة
 في جميع أقطارها ، ولهذا احتجنا الى معاناة الاضمار، ومقاساة الاسرار، والاستخفاء
 بما أمر الله أن يعلن ويظهر ، غير أن القليل ممن يكون على الشرط كثير ، وقد
 صرحت تلك المبادي، بان الرشد والنصيحة العامة من الواجبات على القائمين
 بأمر الحق ، لتستعد النفوس ، وتتهيأ العقول . وليس في هذا حرج على المتعاطي ،
 ولكن أهل العمد وهم بمنزلة القوة العاقلة في البدن لا بدّ أن يكونوا على الشروط
 المعروفة عند أصحاب الرابطة . فسلوا على الشيخ سلاماً طيباً ، وأكدوا له انني لم
 أقصد في بياني السابق شيئاً مما أوهمته العبارة ، وأنني أعيد نفسي من توجيه
 اللائمة على من دون منزلة الشيخ من أهل الايمان الصحيح ، وأعود الى
 تحذيركم من الجاسوس الجديد ، فلا يتسقطكم بظاهره الى علم شيء من سرائركم
 والله يتولى رعايتكم والسلام

٢٠

(وكتب الى (ش) وهو من أجل كتبه وأحسن مواعظه)

لا إله الا الله وحده وبه الحول والقوة

تلقيت رقيمك على قلق من تباطؤ أخبارك ، فمر خاطري بالأطمئنان على مسحتك ، تأكد الثقة من خلوص ارادتك ، وما كنت لأرتاب في عهدك بعدما أعطيت ميثاقى يمينك وأنت مؤمن قد جعلت الله عليك وكيلًا . لو عرض لي الشك في وفائك لكان غمراً مني على إيمانك ، وأعوذ بالله أن أغمر على مؤمن وهو مخلص في إيمانه . أما حنوي عليك ، واحفائي السؤال عنك ، فهو مما توجه عليّ صلتى بك والارتباط بميثاقك ، بل ذلك أيسر الحقوق عندنا ، وأوجهها في ذمتنا ، وما أنا بالمتفضل في أدائه ، وما أنا بمنجاة من اللوم ان قصرت في إيفائه ، ستعلم الحقيقة من هذا اذا سنيّ الله لعصابته أن تظهر ، وأذن لها أن تسفر

بعد هذا هل أنت على ما أوصيتك سابقاً من مداومة النظر في كتاب الله ووعده ووعيده وقصصه وعبره ؟ هل ذهبت بنفسك الى ما قبل ألف وثلاث مئة سنة ووقفت بين يدي سيد النبيين ، وهو يتلو كتاب الله على خالص المؤمنين . فسمعت كما سمعوا . وفهمت على مثال ما فهموا ، وزججت بروحك في مجامع تلك الارواح الطاهرة التي آزرته وآوته ونصرته ؟ هل خرقت حجاب المحدثات ومزقت ستائر البدع ، وخالطت أهل النور ، وصاغت قوماً صدقوا ما عاهدوا الله عليه ؟ إن لم تكن فعلت فاليك أن تفعل والوسائل متوافرة لديك - عقل وحسن يقين ، وكتاب الله فيه تبيان كل شيء ، وفيه سيرة نبيه صلى الله عليه وسلم والذين معه (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم * انا المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم واذا تليت عليهم آياته زدادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون * الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون)

لا يميل بك عن طريق الحق قلة السالكين فيه ، فوالله اني لأرى المؤمن في جيش من يقينه ، وحصن من تقته بربه ، يثبت بهما في المزالق ، ويدرا بمنعتهما غائلات المهالك ، وانه لفرح به اذا حزن الناس ، ومبتهج فيه اذا اشتد البأس ، واستحكم

(٧٣ - تاريخ الاستاذ الامام - الجزء الثاني)

اليأس ، واني لأرى المنافق في مزيجات من وساوسه ، وموحشات من خسائسه
 كريشة في مهب الريح ساقطة لا يستقر لها حال من القلق
 وانه لسريع الهزيمة ، قليل الغنيمة ، وما كنت لآتي في وصفه شيئاً بعد ما قص
 الله عنه في كتابه ، وكتاب الله حي لا يموت ، شاهد على الأحياء ، كمشهد على الاموات ،
 وما كان المنافقون زمن نزول القرآن ليختلفوا في الحقائق والصفات ، عن أشباههم
 من أهل هذه الاوقات ، فتوخ من نفسك ما أتى الله عليه ، وتنج بها عما وجه
 اللأئمة اليه ، واياك والاعايل ، وفساد التأويل ، فانها جبال الشيطان ، ومذهبة
 الايمان . نعوذ بالله

كنت سألتني عن العمل في العقد المالي ، فأشرت اليك ان تبعث به الينا
 في بيروت ، ثم لم يكن له ذكر في كتبك من بعد ، واني أعيدك من الضن
 يبسير مثله في سبيل ربك ، ترجو ثوابه ، وتكتفي حسابه ، وأبعدك عن مراحمي
 النداء الالهي في خطاب قوم (ها أنتم أولاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله ،
 فنكم من يبخل ، ومن يبخل فانما يبخل عن نفسه ، والله الغني وأنتم الفقراء ،
 وان تمولوا يستبدل قوماً غيركم ، ثم لا يكونوا أمثالكم) ولكني أتمس
 لك من نفسي أعذاراً تخيلها الثقة ، وتمثلها المحبة ، فلو علمت الحق فيما أبطأ بك ،
 أفهمت القوم عذرك

أما ذلك الشيخ فان نكت فانما ينكت على نفسه ، غرته الحياة الدنيا ، وغرّه
 بالله الغرور ، فقطع ما أمر الله به أن يوصل ، وواد من حادّ الله ورسوله ، وباع
 نفساً شريفة بثمان بجنس ، وأضاع سعادة أبدية بمتاع قليل (ان الذين ارتدوا
 على أديبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى ، الشيطان سؤل لهم وأملى لهم * ذلك
 بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الامر ، والله يعلم اسرارهم *
 فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأديبارهم * ذلك بأنهم اتبعوا
 ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم) بشره بأن سيؤخذ من
 مأمته ، ويززل من مسكنه ، ومن أعان ظالماً سلط عليه ، ومن يخذله الله
 فلا ناصر له ، ولئن أهمل أياما فوالله ما أهمل ، ولقد كان خيراً له لو ابتعد ولم

بعد ، وبعده قبل أن يعاهد ، ولكنه أقبل ثم ولى ، وأمسك ثم خلى ، فلصق به عار النادرين ، وحقت عليه جريمة النساكثين (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون) وما ضره لو سالم القوم بظاهره ، وبقي مع الله بباطنه ، فأخذ حظا من دنياه ، وحظا من آخرته ؟ هل ظن أنهم أشد سلطانا عليه من قهار السموات والأرض ؟ أم أنهم أنفذ إلى باطنه علما من عالم الغيب والشهادة ، فأعطى للقوم قلبه ، وجعل الله سلبه

لمحت من آخر كتابك بروق الأمل من جمعية أهلك هيا الله لهم الخير فيما ولوا وجوههم شطره

ان لنا صلة تامة بآل البيت الذي أشرت اليه . وأحكم الصلة بيننا وبين أرشدهم رأيا . وأسأهم همة . وأقومهم هديا صاحب عهد أبيه ... وهو الذي تفرد بينهم بالثبات على عهود دينه بعد انتقال أبيه الى الدار الآخرة . وأبى الخضوع لشريعة المتغلبين عليه . الزاعمين القيام بمجايته . وقد قامت بينه وبينهم مخاصمات شديدة كانت نهايتها قطع العلاقة بهم . ووصل الحبل بينه وبين الدولة العثمانية أيدها الله . فأحنت الدولة عليه . وانعظفت اليه . وعدته في مقدمة الرجال الصادقين . ولم ينضم اليه إلا اثنان من اخوته . والتصق الباقون باعداء دينهم . رغبة في حطام يسوقونه اليهم من فضلات ملهم . فليس في أحدهم أمل . ولا يليق أن يناط بواحد منهم عمل . إلا ذلك الشهم الذي نظر ما أعده الله في غيبه فلم يبع يقينه بريه . وقد كان له فكر يسمو إلى ما أشرت اليه . وهو على مر قرب الحوادث يرصد الفرص للعمل فيها بما يرشد اليه الدين . وتبعث عليه الحمية له

وأما صلته مع مشايخ الطرق والزوايا فكانت قاصرة على آل بيت السنوسي ولم يتوجه خاطره إلى ابن التيجاني . وقد شكرنا لك التنبيه عليه . وتوجيه الفكر اليه الخ

(وكتب عن السيد المشار اليه في آخر الكتاب السابق الى الشيخ
(م.ت) يجذبه إلى الاصلاح الديني المؤسس على تحكيم الكتاب والسنة
وسيرة السلف الصالح في الاعمال والاخلاق - الكتاب التالي) ثم كتب
اليه باسم الكتاب رقم ٢١٧ الذي تقدم في ص)

مولانا مهبط أنوار العرفان . وحجة الله على أهل الزمان . السيد الشيخ ...
حماه الله . وأيد به أهل تقواه

أحمد الله على ما ألهمني في مخاطبتكم . ووقفني للمبادرة الى مكاتبتكم . وهي
أحق نعمة بحمد . وأولها بتقديم شكر . فلم يبق في الزمان لأهل هذا الدين إلا
عمل يتزودونه . أو عرفان بالله بالمعاونة يستزيدونه . وقد كنت بعثت إلى مقامكم
الطاهر بكتاب قبل هذا رجوت أن يكون وصول جوابه إليّ على إثر اطلاع
سيادتكم عليه . لعلمي أن الاخلاص كان يرجى من سطوره . وسرّ المحبة يجلب
أحرفه بنوره . وما بعث على خطبة مودتكم إلا طلب الفوائد من ارشادكم .
والرغبة في الاستعانة بمعارفكم، لتعود علينا بركة (وتعاونوا على البر والتقوى)
ويحفنا لطف (واعتصموا بحبل الله جميعاً) فيزداد الله شكرنا على الألفه، ويزداد
احسانه بنا في نعمة المحبة .

وما كنت لأذكر السيد الجليل بان هذه حال المؤمنين الموصوفة على لسان
سيد المرسلين يعلم عالمهم جاهلهم ويذكر عارفهم غافلهم ولا حد ينتهي اليه العلم،
ولا موقف يتف دونه الرشاد، فعباد الله في كل لحظة يتوسلون الى مرضاته بعلم
يستفيدونه، أو عرفان الى القلوب المفتقرة يسوقونه، أو عمل من أعمال الخير
يسترشدونه . وقوام كل ذلك المعاونة ، وحياته روح المعاونة والمساعدة ، والله
في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه .

وليس بخاف على السيد الكريم أننا في بلاد أقفرت من العلماء، وأنحلت من

الصلحاء ، فجنح على بعد الدار . وتناهى المزار . تتوجه اليكم بالخطاب لعلنا نشفي
بموافاة الحق صدراً . ونزكي بمجاذبة أحاديث العرفان سرأ . واني أعلم أن سيادتكم
أجل من أن تأتي إجابة طالب رشاد . أو تقصر عن امداد لميتي سداد .
فشانكم عندنا بما سمعنا أرفع من أن يتوهم فيه مثل ذلك . لهذا عولت في سبب
تأخير الاجابة على عدم وصول كتابي الى جنابكم . وان شاء الله أنال بهذه
الاسطر ماطلبت . وأحقق ماأملت . والسلام .

٢٢

وكتب إلى أحد أمراء المسلمين في بعض الأقطار ، عند تأسيس جمعية
العروة الوثقى

لوندرا في ٢٢ يوليو سنة ١٨٨٤ — ٢٨ رمضان سنة ١٣٠١

سيدي الامير الخطير سعادتلو أفندم حضر تلري

السلام على نفسك الزاكية ، وهمتك العالية ، وأفكارك السامية ، انني عهدت فيك
ملا أتوسمه في سواك ، ولهذا وجهت اليك روجي في هذه الأسطر تندب همتك ، لما هو
من أحكام ذمتك ، لا أنبتك بمافرض الدين ففي علمك به أصدق الأبناء ، ولا أنبهك
لما غفلت عنه عين سواك فاني أجلّ نظرك عن الإغفاء ، ولا أعرفك بما أوجب الوطن
في صراحة نسبك ، وعلو حسبك ، ما يلهمك الاحاطة بحقوقه ، ولا أذكرك بما نسي
غيرك ففي شهامتك أنفع الذكري

ساق اليقين جماعة من المسلمين إلى السعي في خير هذه الملة المغلوبة ، واعتصموا
بالله ، وليس على الله بعزير أن ينجح سعيهم ، يسعون في إرجاع الوحدة المليية ،
وتبنيه الحاسة الدينية ، ليتمكن للملة أن تتقي الضيم وتخلص من الذل ، ولهم في هذا
السعي طرق عديدة منها ما ندبونا اليه وقد علمت خبره والله الحمد على ظهور ثمرته
في أقطار كثيرة ، أفلا ترى من الواجب أن يكون لهمتك نفحة في مساعدتهم
وتعزيدهم في سعيهم ؟ أنت تعلم أن الأعمال العظيمة في هذا الزمان وفي كل
زمان تحتاج إلى التضافر في الافكار والتعاون في النفقات كل بما يقدره الله
عليه ، ولست أخشى أن أقول لك انك سيد القادرين على الامرين ، لا بخطر

على بالي أن يمنعك من الدخول فيما دخلوا فيه بأس ، كيف وأنت مؤمن ،
والمؤمن لا يأس ، وقد رأيت العالم وقرأت التاريخ وشهدت مساعي الاوربيين
ووقفت على حقيقة لا يكابر فيها أمتد .. ان الكثير من القليل والكبير من الصغير
وان النجاح مقرون بالأمل والثبات في العمل ، فان لم يكن يقيننا بالله كافيًا في حياة
آمالنا انه يكفيننا النظر في شؤون أعدائنا وهم لا يمتازون عنا في شيء ، من خواص
الخلقة وغاية ما عندهم انهم لا يحفرون عملا ولا يقطعون أملا ولا يأخذ أحدهم
رهبة في أداء ما يوجب عليه دينه أو وطنه

لا أتوهم خيبة في سعبي إلى همتك ، ولا تقصيراً منك في القيام بخدمة ملتك ،
بعد ما رأيت منازل بها ، واستطلعت ما سيطر أعاليها ، والله لا يضع أجر العاملين ، انني
اليوم في لندرا ، دعيت اليها مراراً فتمنعت ، وبعد الالمام أتيت والمأمول أن
يكون في الامر خير

الرجل الذي نالت مصر في عهده ما نالها ، يحاول الآن أن يعود اليها ،
ولا أظن ان هذا يوافق مصلحة مصر ، وأحب أن أقف على رأيكم فيه ، فان
جزءاً من عملي في لوندرا متعلق بالسؤال عنه والمخاطبة تكون بالعنوان الآتي : الى
باريس ومنها يصل الي . سيدي الاستاذ يهديكم أركى السلام ، وسلامي عليكم
وعلى من تحبون والله يحفظكم

٢٣

وكتب من بيروت الى القس الانكليزي الذي خطب في لوندرا مينا
محاسن الدين الاسلامي وكان الاستاذ الامام كلف مرزاً باقر ترجمة خطابه
وصححها هو ونشرت في جريدة ثمرات الفنون وقد نشر خطبته منها في مجلد
المنار اربع (ص ٩٤٦ منه)

كتابي الى الملهم بالحق الناطق بالصدق ، حضرة القس المحترم اسحاق طيلر
أيده الله في مقصده ، ووفاه المذخور من مواعده

وصل الينا من خطابتك ما أقيته في المحفل الديني بمدينة لوندرا متعلقا
بالدين الاسلامي فاذا للحق نور يلمع من خلال كلامك تعرفه البصائر الباصرة

وتشيمه أعين للعقول النيرة رفعتك هداية الله الى مقام الانصاف فرأيت الاسلام في طبيعته السليمة ووقفت عليه في مزاجه الصحيح فأدركت أثره في النفوس البشرية وعلت انه أفضل ما بعد الروح الانسانية الى بلوغ ذروة الكمال الأعلى من الايمان ودافعت عنه دفاع العارف به وجليته للغافلين في أجمل صورة يمكن ان يلمحوها بأبصارهم ويتصفحوا دقائقها بانظارهم ثم دعوت ابناء ملتك الى كلمة السواء بينهم وبين المسلمون وصدقهم النصيحة أن لا يخفوا المسلمين بتكذيب نبيهم ولا تكفيرهم في الاعتقاد بدينهم ووعدهم ان قبلوا نصحك باصاغة المسيحية في الاسلام ووجود محمد صلى الله عليه وسلم آخذاً بعضد المسيح باعلاء كلمة دينه الصحيح فهذه أشعة نور أفاضه الله على قلبك وآيات حق ساقه الله اليك وانا لنتنك على هذه البركة العظمى التي اختصك الله بها من بين قومك ونستبشر بقرب الوقت الذي يسطع فيه نور العرفان الكامل فتنهزم له ظلمات الغلاة فيصبح الملتان العظيمتان المسيحية والاسلام وقد تعرفت كل منهما الى الأخرى وتصافحتا مصافحة الوداد وتعانتتا معانقة الألفة فتتمد عند ذلك سيوف الحرب التي طالما انزعجت لها أرواح الملتين

أنت أول رئيس ديني صدع بالحق في أهل ملته وانك لتجد لك مؤيدين وان كثيرا من ذوي الالباب ليجدون في قولك مواقع للصواب وان هذا الامر الذي قت به لعظيم الفوائد جم العوائد نحس منه تحرك نفوس أهل الملتين الى الملاقة على صراط الوحدة الحقيقية وانك ان كنت واحداً فكل شيء مبسوده الواحد ثم يكثر حتى لا يحضر ، وان كان هذا الغرم الطيب قد أخرج اليوم شطاه فسيؤازره السعي حتى يغالظ ويستوي على سوقه فيعجب الزراع ، وانا نرى التوراة والانجيل والقرآن ستصبح كتباً متوافقة وصحفاً متصادقة يدرسها أبناء الملتين ويقرها أرباب الدينين فيتم نور الله في ارضه ويظهر دينه الحق على الدين كله واني لأشك في أن لك الرغبة التامة في نسر مذهبك هذا وتروجه بين الامم الشرقية والغربية وقد سعينا في ترجمة خطابك ونشره في الجرائد العربية فان كان عندك مقالات أخرى قترجو إرسالها لنعمل على ترجمتها ونسرها بين

أهل المشرق من العرب والترك وغيرهم ولكن تمام العمل انما يكون بارسال رجال ممن وافقوك في المشرب الصحيح لينشؤا مدارس في البلاد المشرقية خصوصاً بلاد سوريا وليطبعوا هذا الرسم الشريف في النفوس الصافية من أبناء الطوائف المختلفة فتتمو بركته وتجزل ثمرته وانني على عجزني مستعد لساعداك فيما قصد من تقريب ما بين الملتين بكل مايمكنني والسلام على من اتبع الهدى

٢٤

وكتب اليه ثانية جوابا عن كتاب أرسله اليه وفيه يدعوه إلى الاسلام والى الدعوة اليه في انكلترا

عزيزي حضرة خطيب السلام القس اسحق طيلر كنت في القدس الشريف لزيارة المواطن المقدسة التي أجمع على تعظيمها أهل الأديان الثلاثة وفيها يرى الزائر كأن دوحه واحده هي ندين الحق تفرعت عنها أغصان متعددة لا يضر بوحده نوعها وشخصها وفردانية منبعها ما يرى في اختلاف أوراقها وفرج انشعابها ، ثم يحكم بأن تشابه الثمرة ووحده لونها وطعمها قد انحصر في الدين الاسلامي الذي يستقي من جميع عروقها وجزورها فهو فذلكتها والغاية التي قد انتهى اليها سيرها لا أنه يصدق الكل ويعظم الجميع ويدعو إلى التوحيد المحض ، والفردانية الصرفة التي اليها مرجع الخلائق وإن بلغ اختلافها إلى مايفوت الحصر ، ويتجاوز حدود النهايات

وبعد رجوعي من بيروت رأيت من جنابكم مكتوباً بعث بواسطة صديقي جمال الدين بك ، ووجدتكم تذكرون أموراً كالطلاق ، وتعدد الزوجات والرق وتظنون أنها أهم ماعليه اختلاف أهل الدينين مع أن أمثال هذه المسائل لا يعدها المسلمون من أصول الدين ولو اطلعتم على مذاهب المسلمين لوجدتم خير ما تمحبون من ذلك بدون حاجة إلى فتوى شيخ الاسلام ، وللمسلمين فيما دون في كتبهم ما ليس لهم في فتوى شيخ الاسلام فهذا أمر لا مقام له في موضوع بحثنا وبحكم

أما أصول الدين الاسلامي فهي الايمان بالله وأن محمداً رسول الله وان القرآن كلام الله ، فأعظم شيء تتشوق اليه نفوس المسلمين الصادقين ان يسمعوا التصريح

من حضرتم بقبول ذلك ، والتصديق به كما أشرتم اليه في خطابكم المتعلق بمسلمي أفريقية ، وأن يروا علامات التصديق في الأقوال والافعال (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) وكل ما تظنه من المصاعب يذل ، وما تتصوره من الموانع يزول ، ولا أظن يوماً مر أو يمر على الانكايذ يكون أسعد من ذلك اليوم الذي يؤمنون فيه بدين محمد، إذ يصبح العالم خادماً لهم، وجند الله الاعظم ناصراً لأهله منهم ، ويتم لهم ما أرادوا من إقرار عين العبيد ، وإرضاء قلوب النساء ، وهما مما يدعو اليها الدين الاسلامي على أتم الوجوه وأكملها . فهلم بنا يا عزيزي الى الاتفاق على الاصول، ليتيسر لنا الوفاق على الفروع ، والاتحاد في الأب ، ليتسنى لنا الاتحاد في الابن ، فانما تؤتى النتائج من مقدماتها ، ولا تؤتى المقدمات من نتائجها . وقد سرني كل السرور ما بلغني من أنكم استحسنتم ما وصل اليكم من صديقنا ميرزا باقر ان شاء الله تجدون ما يسركم اذا داومتكم مكاتبته إن شاء الله ، والسلام على أهل السلام

٢٤

وكتب الى بعض العلماء جواباً عن كتاب سأله فيه عن انكاره على من قال إن لفظ الرحيم في البسملة توكيد للفظ الرحمن وانكاره ان يكون في القرآن الفاظ زائدة للتأكيد وفيه وصف علماء السوء

حضرة الاستاذ الفاضل

أثابك الله على صدق مودتك ، ونفني باخلاص الصادقين من أمثالك ، ووفقتي الله واياك للعمل فيما يفيد الأمة ، التي نهكتها البدع ، وقتلها الزيف عن الطريق المتبع ، واني أحمد الله على هذه البقية في المسلمين ، بقية صالحة في نفوس مستعدة ، تنشد الحق وتلمسه ، فاذا عثرت عليه ، حنت اليه ، أمدها الله بالسعي الدائب ، والغذاء الصالح ، حتى تنمو وتكون شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها
(٧٤ — تاريخ الاستاذ الامام — الجزء الثاني)

في السماء ، تؤتي أكلها كل حين باذن ربها ، لا أزيدك وصية بمزاولة البحث فيما ينقي العقائد من شبه الاشرار ، وغرور اليأس والأمل ، وجرائيم التواكل ، ثم نشر ذلك بكل وسيلة تمكن منه ثم بالصبر على ما يقول المقلدون ، ويهذي به المتكبرون ، ممن يلقبون بالعلماء وهم لا يعلمون ، ففي مثلهم يقول الله : (سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق ، وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ، وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل النقي يتخذوه سبيلا) ولا يكون كبر في الارض بغير الحق مثل هذا الكبر الذي ترتديه هذه النصب ، وتظهر في سراييله هذه التماثيل التي ينحلمها الناس ما ليس لها ، وبسمنها بأسماء لم ينزل الله بها من سلطان ، وما هؤلاء القوم الا أولئك السادات الذين سيقول المغترون بهم (ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) أسأل الله أن يعينك على من يليك ، وبوقفك لتأييد كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

وأما احتمال التوكيد والوجه الذي ذكرته فاني لا أراه ، لأنه لا علاقة بين التوحيد ومعنى الرحمة ، ولو ذكر جميع الالفاظ المترادفة في هذا المعنى لم يفد شيئاً في نفي التعدد ، ولم يسبق في التاريخ أن أحداً ذهب الى أن الرحمن معبود والرحيم معبود آخر ، حتى يرد عليه بأنهما شيء واحد . ولكن الذي عرف هو قول النصارى في ابتداء شؤونهم باسم الآب والابن والروح القدس ، وهو في زعمهم ثلاثة مختلفة الآحاد ، مع أنها واحد . فأراد الله أن يجعل للمسلمين فاتحة أعمال تحتوي على ثلاثة معان ، الاول ذات ، والآخران صفتان . فلنفظ الجملة هو الذات ، وهو يقابل الآب عندهم ، والرحمن وصف الفعل المتجدد الصادر من فيض الكرم ، وهو يقابل الابن لزعمهم أنه منبثق من الذات . والرحيم يدل على الصفة الثابتة للذات الاقدس ، وهي التي يرجع اليها الفعل المتجدد ، وباعتبارها يصدر ويتجدد ، وهو يقابل روح القدس ، فانه عندهم الصلة بين الآب والابن ، وإن حاولوا ستر ذلك بضرور من العبارات . فأراد الكتاب أن يعلمنا كيف

نضع التوحيد مكان التثليث ، ونستبدل بألفاظ التشبيه خيراً منها من ألفاظ التنزيه ، ولا يفوتنا المعنى الذي يحتاج بقصده من الآب والابن والروح القدس ، وهو معنى الرحمة ، وافاضة النعمة ، وهذا هو وجه تكرير هذه الفاتحة الكريمة في كل سورة ، والندب الى الافتتاح بها في كل عمل ذي بال ، ولكن غفل كثير من المسلمين عن مرامي اشارات الكتاب ، فأثروا من عند أنفسهم بما ليس من معناه في شيء.

لأجد وقتاً لاطالة البحث فيما ذكرت عن السعد وغيره . وأظن أن فيما كتبه كفاية لذكر منك وأرجو أن لاتقطع عن مراسلاتي والسلام (أما مسألة التأکید) فالامر فيها سهل ، وتعلم أنني ممن يكتب ، ويقال ان لي حظاً من معرفة دقائق البلاغة ، وان كنت لا أحسب نفسي في ذلك حساباً ، ولا أزال أستعمل التوكيد في كلامي وأذوق لذته ، وأعرف موقعه من كلام غيري ، وأنكر العبارة تخلو منه وهي محتاجة اليه ، وهو معنى من المعاني المقصودة التي وضعت لها في اللغة ألفاظ خاصة كالفظ إن واللام ونحوهما ثم من الالفاظ ما يكون فيه شيء من معنى الآخر ، فيؤتى باللفظين ليؤكد أحدهما الآخر بما فيه من المعنى المشترك ثم يزيد بما انفرد به كالسيف والصارم ، كل هذا لا أنكر شيئاً منه ، ولكني أنكر الذي ياجئون اليه بدون بيان صحيح ، فيقال كلمة كذا توكيد ، بدون بيان وجه التوكيد ، أو لفظ كذا زائد كما يقول الجلال في قوله تعالى (فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا) ان لفظ مثل زائد — تعالى الكتاب عن ذلك — فالجلال والصبان قالا : ان الرحيم توكيد ، لظنها أن لا معنى في الرحيم سوى ما في الرحمن ، واني أنزه القرآن عما ظنا ، حتى لو قصد التوكيد ، فانه يكون بمنزلة الرحمن الرحمن ، وانما غير اللفظ للتحلية ، وهذا ما أبرى. القرآن منه . والذي صرحت به في هذا المعنى سبقني اليه ابن جرير الطبري ، فقد صرح بأنه لا يوجد في القرآن كلمة زائدة لغير معنى مقصود ، وهو الذي عينته

وكتب الى من سأله عن القدر والاختيار واختلاف العقل والوجدان في ذلك

حضرة الفاضل الأديب

وصل إلي رقيبك ، ان كنت لم أعرفك فقد عرفك كتابك ، ودلت عليك آدابك ، والحمد لله على أن في المسلمين من يميل الى منهج الحق من دينه مثلك ، كثر الله من أمثالك ، ووقفك الى العمل بما تعلم ، والدعوة الى ما نفهم لم يتخالف العقل والوجدان في مسألة القدر ، فان كليهما يتفقان على صحة الاختيار ، ونفي الاضطرار ، فيما هو من الأعمال البشرية المعروفة ، ولا يتنازعان في حكم من أحكام هذا الاختيار . ثم هما يتفقان كذلك في الحكم بأن صانع هذا الكون محيط بدقائقه علماً ، وهاتان العقيدتان هما ركنا الايمان بالله ورسله وشرائعه ، ولم يبق الا نزعة من نزعات الوهم ، تستفز العقل الى اكتناه حقيقة العلم الالهي ، وليست مما يصل اليه من طريق الفكر ، فاذا كبح العقل جراح الوهم ، وقف عند حده ، وذاق حلاوة الايمان الصحيح ، والا وقع فيما لا يخلص منه من الريب والشكوك

أما اختلاف الامم بن الاشخاص في الآراء ووجوه العلم ، فذلك لازم لطبيعة البشر ، تلك الطبيعة التي بها الانسان انسان ، طبيعة العلم من طريق التعلم والفكر ، مع اختلاف الانفعال بما يرد من الكون على الحس والوجدان ، وما يستقر منه في العقل ، ولكن ذلك لا يرفع التبعية عن كان خلافه الى باطل ، لمكان الاختيار والهداية الى النجدين بمقتضى تلك الفطرة نفسها . وقد يعرض للطبيعة عوارض تخرجها عن أحكامها فتري الاختيار في عجز عن ترجيح جانب الخبر على جانب الشر . كتوارث الاخلاق السيئة . وليس الوارث مختاراً فيها يرث ، ولكنه ما دام شاعراً بفعاله ، وأنه يريد أن يفعله ، فاختياره هو صاحب السلطنة عليه ، وتبعته لازمة له ، ولو أنه طلب الأدب لتأدب . والكلام يطول في تفصيل ذلك ، ولكن يكفي أن العقل والوجدان لا يختلفان في الحكم بصحة الاختيار وشمول

العلم الالهي ، ونفوذ قدرة الله فيما لا اختيار لنا فيه ، وفي هبة قوة الاختيار نفسها
ولعل ذلك يكفيك ، ولو كان عندي سعة في الوقت لكتبت رسالة في هذه
المسئلة خاصة ، ولكن الاجمل فيها خير من التفصيل على كل حال والسلام
١٥ شعبان سنة ١٣٢٠ ١٨ نوفمبر سنة ١٩٠٢

٢٦

وكتب من بيروت الى مولوي محمد واصل أحد علماء حيد وأبادالدين
(الهند) الذي سأل السيد جمال الدين عن النيشيرية في الهند فأجاب برسالة
الرد على الدهريين

حضرة المهام الغاضل ، بقية الافاضل ، وتذكرة الاوائل ، العالم العامل ،
مولوي محمد واصل

لم يسبق لي شرف معرفتك ، ولا فضل مكاتبتك ، ولكن تجلت لي أوصافك
العلية ، وفضلك القدسية ، في قول أصدق الناس لساناً ، وأثبتهم بياناً ، حضرة
أستاذي السيد جمال الدين أيده الله بعنايته ، فكنت بذلك أشد الناس تعلقاً
بمزايك ، وأشوقهم لنيل الحظ من مرآك ، وقد كنت حفظك الله كتبت إلى
عارف افندي ابي تراب تسأله عن اختياري في زيارة البلاد الهندية ، وأظنه
كتب اليك بميلي الى ذلك وترقب الفرصة للسير اليه ، ورجائي أن يسعدني
التوفيق الالهي ببلوغ الغاية لما أرتقب ، ولو لم يكن لي في بلاد الهند سوي رؤية
مثلك ، والأخذ بالنصيب من معرفتك لكان ذلك أقوى باعث على السعي اليها
وأحث داع للاقبال عليها ، وقد يلوح بخاطري ان أمي ، نفسي لذلك في الحريف
الآتي من هذه السنة ، فتي عقدت العزيمة بعثت اليك بالخبر ان شاء الله
أن مادعوتني اليه في كتابك لعارف افندي من كتابة رسائل في تنبيه الأمة
الإسلامية الى تلافي امرها ، ومبادرتها الى جمع كالمها صوتاً لنفسها عن المهلكة
وحفظاً لما بقي لها من غول الغناء فذلك عملي إن شاء الله ، وقد رأيت ان أقدم

لك برسالة تبين حال العرب في الجاهلية على وجه الاجمال ، ثم مساق الله اليها
 زمن فيض الخير ببعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أتقدم بعد ذلك الى ذكر سيرة
 النبي وخلفائه الأربعة ثم أختم الكلام . وبعد هذا نأخذ في نشر رسائل ندعو
 بها الى الألفة ، ونزعج بها عن الحلقة ، ورجاؤنا في كل ذلك نبجاح أعمالنا ،
 وصلاح أحوالنا إن شاء الله

ورسالة النيشرية قد نقلناها الى اللغة العربية ، وبدأنا في طبعها ، وقد ترجمنا
 كتابكم الى السيد وكتاب السيد اليكم ، وقدمناها في صدر الرسالة ، ومتى تمت
 نبعث بها اليكم إن شاء الله

ونهج البلاغة قد تم والحمد لله طبعه وسيرسل اليكم مائة نسخة على حسب
 طلبكم . نبعث بها الى بومباي ، ثم ترسل من بومباي الى حيدر آباد ، ومنها
 يرسل الينا مائتان وخمسون روية ورق بنك نوط هندي ، حيث إنه لا يتيسر
 الارسال بطريقة أخرى ، ثم ليكن في علم حضرتكم ان ائمان هذا الكتاب مخصصة
 للانفاق في طريق خيري ، والاعانة على أمر عام اسلامي ، لانريد منها ربحاً ،
 ولا نطلب كسباً ، والله الموفق ، ونرجو من حضرتكم دوام المواصلة ، بتواتر
 المراسلة والله يتولى رعايتكم والسلام

٢٧

وكتب الى عالم من الهند كان يطالب منه أن يجيزه بمارواه وماتلقاه
 وفيه بيان رأيه في الاجازة بالكتب وتناقل الاسانيد

بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم
 حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ احمد ابي الخير حفظه الله
 السلام عليكم ورحمة الله . وبعد فقد سرتني ان أعرف لي أخا جديداً في
 بلاد الهند يقدر العلم قدره ، ويحب بشه بين الناس ونشره ، يسألني الأخ أن
 أجيزه بجميع ماتلقيت وما رويت ، ويطلب مني ان أرسل اليه سندي في رواياتي

واني أقول لحضرتكم اني أستحي أن أجزى شخصاً لم أره بشيء، لم يكن لي، فيه أثر بالنسبة اليه، كيف أجزىك بشيء تقول أنك ترويه عني ولم تروه في الحقيقة عني، ثم ماقيمة سند لأعرف بنفسى رجاله، ولا أحوالهم، ولا مكانهم من الثقة والضبط. وانما هي أسماء تتلقفها المشايخ بأوصاف تقدم فيها، ولا سبيل لنا الى البحث فيما يقولون

أحب ان أكتشف لك رأيي في هذه الشؤون: هذه كلها صور شغل بها المسلمون عن الحقائق، ولا قيمة لها في خلاصهم مما هم فيه من شقاء الدنيا، ولا فائدة لها فيما يوعدون به من شقاء الآخرة على ما فرطوا في جنب الله. وانما الشاي الذي كلفت به هو ان أعلم وأقول وأبين وأكتب ما استطعت، ومن تلقى عني شيئاً أو فهمه مما كتبت فله أن يرويه عني وأن يؤديه على ما فهمه بعد دقة البحث والتحري، والاخذ بالاحتياط في فهم القول وتحرير الرواية، فاذا وصل اليك شيء، مما أقول او أكتب وفهمته كما أحب ان يفهم قاليك الاخذ به وروايته عني بعد التحقق من صحة النسبة وأكون لك من الشاكرين، اسأل الله أن يوفقنا جميعاً الى خدمة دينه الحق انه وليّ العاملين والسلام عليكم ورحمة الله

١٩ ربيع الاول سنة ١٣٢٢ هـ مفتي الديار المصرية

محمد عبده

(يقول جامع الكتاب) ان الاستاذ الامام رحمه تعالى اقترض هذا الطلب ليين للمشتغلين بالعلوم الشرعية هذه الحقيقة: عنايتهم بالوسائل الصورية وتوكلهم لمقاصد الشريعة الموصلة لغايتها، أعني فهم الكتاب والسنة والعمل بهما الموصل لسعادة الدارين والنجاة من شقاها. كانت الآثار والكتب تتلقى بالرواية عن الثقات للاطمئنان على صحة نسبة ما فيها إلى أصحابها وذلك من وسائل حفظها، ولم يبق في الاجازة شيء من هذه الفائدة، وإتمامها من قبيل حفظ سلسلة النسب لمن يحرص على صحة انتسابه إلى أصل عظيم وان لم يكن له أدنى حفظ من عظمته في علم ولا هدى، ولا ملك ولا غنى

الفصل الثاني

طائفة من كتبه ورسائله الوردانية

كتب وهو في سجن القاهرة متهمًا بالاشتراك في الحوادث المرابية إلى احد أصحابه في تاسع المحرم سنة ١٣٢٠ (٢٠ نوفمبر سنة ١٨٨٢) وهو من أصدق الآيات على علو أخلاقه وعلامة صدره ، وسعة حلمه ، وحسن نيته ، وأسلوب هذا فلسفي تاريخي شعري ، وهو يشبه إنشاء بلغاء الافرنج ولا يتسم غير هذا الاسلوب لتصوير ذلك الكرب الذي أثاره في قلبه ظلم الحكام وخيانة الاصحاب اللئام ، ونجم الايام ، قال :

١

عزيزي

تقلدتني الليالي وهي مديرة كأنني صارم في كف منهزم
هذه حالتي !! اشتد ظلام الفتن حتى تجسم بل تحجر ، فأخذت صخوره
من مركز الارض الى المحيط الاعلى ، واعترضت ما بين المشرق والمغرب ،
وامتدت الى القطبين فاستحجرت في طبقاتها طباع الناس اذ تغلبت طبيعتها على
المواد الحيوانية أو الانسانية ، فأصبحت قلوب الثقلين كالججارة أو أشد قسوة ،
فتبارك الله أقدر الخالقين *

انتشرت نجوم الهدى ، وتدهورت الشمس والاقمار ، وتغيبت الثوابت النيرة ،
وفر كل مضي ، منهزمًا من عالم الظلام ، ودارت الافلاك دورة العكس ، ذاهبة
بنيرانها الى عوالم غير عالمنا هذا ، فولت معها آلهة الخير أجمعين * وتمحضت
السلطة لآلهة الشر فقلبوا الطباع ، وبدلوا الخلق ، وغيروا خلق الله ، وكانوا

على ذلك قادرين * (١)

رأيت نفسي اليوم في مهمه لا يأتي البصر على أطرافه ، في ايلة داجية ، غطى فيها وجه السماء ، بغمام سو ، فكثف ركما ركما ، لأرى انسانا ، ولا أسمع ناطقا ، ولا أروهم مجييا ، أسمع ذنابا تعوي ، وسباعا تزار ، وكلابا تابع كلها ، يطلب فريسة واحدة ، هي ذات الكتاب ، والتف على رجلي تيننان عظيمان ، وقد خويت بطون الكلي ، وتحكم فيها سلطان الجوع . ومن كانت هذه حاله ، فهو لا ريب من الهالكين *
تقطع جبل الأمل ، وانفصمت عروة الرجاء ، وانحلت الثقة بالأولياء ، وضل الاعتقاد بالاصفياء ، وبطل القول باجابة الدعاء ، وانفطر من صدمة الباطل كبد السماء ، وحققت على أهل الارض لعنة الله والملائكة والانبياء وجميع العالمين سقطت الهمم ، وخربت الذمم ، وغاض ماء الوفاء ، وطمست معالم الحق ، وحرقت اشرايع ، وبدلت القوانين ، ولم يبق الا هوى يتحكم ، وشهوات تقضي ، وغیظ يتحدث ، وخشونة تنفذ ، تلك سنة الغدر ، والله لا يهدي كيد الخائنين *
ذهب ذوو السلطنة في بحور الحوادث الماضية ، بغوصون لطلب أصداف من الشبه ، ومقدوفات من التهم ، وسواقط من اللمم ، ليموهوها بمياه السفسة ، ويقشوها بأغشية من معادن القوة ، ليبرزوها في معرض السطوة ، ويقشوا بها عين الناظرين *
لا يطلبون ذلك لغماض يبينونه ، أولمستور يكشفونه ، أولحق خفي فيظهورونه ، أو خرق بدا فيرقعونه ، أو نظام فسد فيصاحونه ، كلاب ليثبتوا أنهم في حبس من حبسوه غير محتئين *

وقد وجدوا لذلك أعوانا من حلفاء الدناءة وأعداء المروءة ، وفاسدي

(١) قوله آلهة الخير وآلهة الشر يراد بهما عوامل الخير والشر وأسبابهما وخرج على الحكاية لخرافات اليونانيين كما يقال اغتالهم الغيلان فيمن هلكوا باسباب مادية تجوزا مبينا على المعروف من خرافات العرب . ويعد بعض المفسرين من هذا القبيل قوله تعالى « يتخبطه الشيطان من المس » - راجع البيضاوي وغيره وتوهم بعض أدياء العلم باللغة وفنونها وبالشرعية ان ذكر الآلهة ولو بأسلوب الحكاية اثبات لها كأنه لم يقرأ في كتاب الله تعالى ذكرها حكاية واستقلالا ومن الثاني قوله تعالى (فأغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله)

الاخلاق ، وخبثاء الاعراق ، رضوا لأنفسهم قول الزور ، وافترء البهتان ، واختلاق الافك ، وقد تقدموا الى مجلس التحقيق ، بتقارير محشوة من الاباطيل ، ليكونوا بها علينا من الشاهدين *

كل ذلك لم تأخذني فيه دهشة ، ولم تحل قلبي منه وحشة ، بل أنا على آتم أوصاني التي فعلها ، غير مبال بما يصدر به الحكم أو ييرمه القضاء ، عالماً بأن كل ما يسوقه القدر وما سانه من البلاء ، فهو نتيجة ظلم لاشبهه للحق فيه ، لأن الله يعلم — كما أنت تعلم — أنني برى ، من كل مارموني به ، ولو اطلمت عليه لوليت منه رعباً أو كنت من الضاحكين

نعم خفتي النعم ، وأصغى فؤادي الهم ، وفارقتي النوم ليلة كاملة ، عند مارأيت اسمك الكريم ، واسم بقية الابناء والاخوان المساكين ، تنسب اليهم أعمال لم تكن ، وأقوال لم تصدر عنهم ، قصد زجهم في المسجونين * لكن اطمان قلبي ، وسكن جأشي عند مارأيت تواريح التقارير متقدمة ، ومع ذلك لم يصلكم شرر الشر ، فرجوت أن الحكومة لم ترد أن تنتج بابا لا يندر الاحياء ولا الميتين * قدم فلان وفلان ^(١) تقريرين جعل فيهما تبعات الحوادث الماضية على عنتي ، ولم يترك شيئاً من التخريف إلا قلاؤه ، وذكرنا أسماءكم في أمور أنتم جميعاً أهدا الناس عنها ، لكن لا حرج عليهما ، فاني أراهما من المجانين * ولم أعجب من هذين الشخصين ، إذ يعملان مثل هذا العمل القبيح ، ويرتكبان هذا الجرم الشنيع ، ولكن أخذني العجب كل العجب غاية العجب ، بالغ ماشئت في عجبني ، إذ أخبرني المدافع عني بتقرير قدمه سعيد البستاني الذي أرسلت اليه السلام ، وابلغته سروري عند ما سمعت باستخدامه وأنا في هذا الحبس رهين *

إلى هذا الوقت لم يصلني التقرير ، ولكن سيصل إلي ، انما فيما بلغني انه شهادة بأقبح شيء ، لا يشهد به إلا العدو مبين * هذا اللائم الذي كنت أظن انه يألم لألمي ، ويأخذ الأسف لحالي ، ويبدل وسعه ان أمكنه في المدافعة عني ، فكتم قدمته له نفعاً ، ورفعت له ذكراً ، وجعلت له منزلة في قلوب المساكين * كم

سمعني أقاوم هجاء الجرائد ، وأوسع محرريها لوما وتقريراً ، وأهزأ بتلك الحركات الجنونية ، وكان هو عليّ في بعض أفكاره هذه من اللامئين * كان ينسب فلانا لسوء القصد اتباعاً لرأي فلان ، وأعارضه أشد المعارضة ، ثم لم أتقض له عهداً ، ولم أنجس له ودأ ، وحقيقة كنت مسروراً لوجوده موظفاً ، فما باله أصبح من الناكثين ؟ أه ما أطيب هذا القلب الذي يعلي هذه الأحرف ! ما أشد حفظه للولاء ، ما أغرب على حقوق الأولياء ، ما أثبتته على الوفاء ، ما أرقه على الضعفاء ، ما أشد اهتمامه بشؤون الأصدقاء ، ما أعظم أسفه لمصائب من بينهم وبينه أذى مودة ، وإن كانوا فيها غير صادقين *

ما أبعد هذا القلب عن الأيذاء ، ولو للأعداء ، ما أشد درعاة للود ، ما أشد محافظة على العهد ، ما أعظم حذر من كل ما توجب عليه الذم الطاهرة ، ما أقواه إقدامه على العمل الحق والقول الحق لا يطلب عليه جزاء ، وكم اهتم بصالح قوم وكانوا غافلين * هذا القلب الذي يؤلمونه بأكاذيبهم ، هو الذي سرق قلوبهم بالترقية ، وملأها فرحاً بالتقدم ، ولطف خواطرم بحسن المعاملة ، وشرح صدورهم بلطيف المجاملة ، ودافع عنهم أزماناً خصوصاً هذا اللئيم - أفشرح الصدور وهم يخرجون !! ونشفي القلوب وهم يؤلمون !! وفرحنا وهم يحزنون !! تالله قد ضلوا وما كانوا مهتدين *

هذا القلب ذاب معظمه من الأسف على ما ألم بالهيئة العمومية من مصائب هذه التقلبات ، وما ينشأ عنها من فساد الطباع ، الذي يجعل العموم في قلق مستديم ، وما بقي من هذا القلب فهو في خوف على من يعرفهم على عهد مودته ، فإن تسلاوا جميعاً بمنزل هذه الأعمال وأصبحوا من مودته خالين ، واتخذوه وقاية لهم من المضرة ، وجعلوه ترساً يعرضونه لتلقي سهام النوائب التي يتوهمون تفويقها اليهم ، كما اتخذوه قبل ذلك سهماً يصيبون به أغراضهم ، فينالون منها حظوظهم ، فقد أراحوا تلك البقية من الفكر فيهم ، والله يتولى حسابهم ، وهو أسرع الحاسبين * أه ما أظن أن تلك البقية تستريح من شاغل الفكر في شؤون الأجرة ، وإن جاروا في تصرفهم ، إن طبيعة هذا القلب لطبيعة ناعم الخبز ، إذا اتصل بذئ الواد وإن كان خشناً فصعب أن يفصل ، ولو من رقتة خشوته ، وإن هذا

القلب في علاقته مع الأوداء، كالضياء مع الحرارة، أيما حادث يحدث، وأيما
كياوي يدقق، لا يجيد للتحليل بينها سبيلا، وأظنك في العلم بثبوت تلك الطبيعة
فيه كنت من المحققين *

أي عزيزي

الآن وصلني تقرير اللثيم، فقرأته بأول نظرة ووجدته كما بلغني، وسأرد
عليه في بضع دقائق بما يسود وجهه ويخجله إن كان إنسانا، ولكن تصادف
فراغ الخبر من الدواة، فسأنتظر بالرد عليه وتتميم رقيمي اليك بعض ساعات
فكن معي من المنتظرين *

رددت على التقرير، وكان كل ما فيه الغش والتفجير، وذكر فيه فلانا بأشنع
مياؤاخذه إنسان في هذه المسألة كما ذكره الخبيثان قبله ولكن دفعت مقالته في جانبه
ايضا، وأخذت على نفسي كل مسئولية تنسب إليه أو اليكم، فماعليكم إن سئلتم إلا
أن تكونوا منكرين *

ربما يسألكم (القومسيون) عن معلوماتكم في شؤوني أيام الحوادث، فلا
يدخل عليكم غش السؤال والارهاب، ولكن عبروا عما كنتم تشهدون
وتعلمون من أفكاره وأقواله التي كانت تهزأ بالحكومة الفلانية، ومن كانوا لها من
الطالبيين * إلى هذا الحد فقروا، فان سئلتهم فقولوا ما نحن بتأويل الأحلام بعالمين *
في هذا الوقت وصلني الرقيم مبشراً بيقائكم في مراكزكم، فقامت ورفعت
يدي ورجلي وناديت: الحمد لله رب العالمين * وأخذني الأسف على حبس فلان
لكن دل إطلاقه على حسن حالة الباقين * يا عزيزي أعود إلى ذكر ما لا أولئك
القوم، كأنما قذف بهم من شاهق جبل فسقطوا على رؤوسهم، فغشهم من شدة
الصدمة ماغشهم، فقاموا ينطقون بما لا يعون، ويتكلمون ولا يفهمون. ما بالهم
يقذفون من أفواههم أخلاطا أفقر من البلغم. وأمر من الصغراء، وكأنما
جرعوا جرعة من السم فقلبت أمعاءهم فاستفرغت من حلاقيهم أحيث ما يحملون *
مابال ننان قلوبهم تفيض من الأؤم أشد من فيضان بئر برهوت، تقذف بسيارات

بشمة الطعم خبيثة المنظر كريمة الراحة تضطره ما فيها للفرار منها، لكن اعضاء التحقيق من زكام الحوادث الأخيرة لا يشهون ولا يذوقون، ومن ظالماتها لا يبصرون * هل بطل يا عزيزي ماجاء على اسان النبوات: الانسان أسير الاحسان؟ هل تمض ماجاء من ذلك: المعروف بذر المحبة يفرسها في أعماق القلوب؟ هل هدمت قاعدة: ان الحيوان يقاد بالزام، والانسان يقاد بالصنعة؟ هل كان خرافا ما قرره الحكماء من الفصول الطويلة تقسيما للمحبة وبيانا لفضائلها ومنافعها في الاجتماع الانساني الخبيث؟ هل كان خرافا ما حوته الكتب متعلقا بموجبات روابط النوع البشري؟ أم صح كله لكن الناس به جاهلون؟*

هل أتأسف أن كنت سباقا الى الخيرات؟ هل أتأسف أن كنت مقداما في المكرمات؟ هل أتأسف ان كنت شجاعا في الدفاع عن ذوي مودتي؟ هل أتأسف ان كنت أيا أغار أن ينسب مكروه أو ذل لأولي صلتني؟ هل أستحق العقاب على حبي لبلادى والناس لها كارهون؟*

كلا والله لن يكون ذلك ولم أزد في سبيل الفضيلة الا بصيرة، ولم أزد في المحافظة عليها الا ثباتا، ولئن عشت لا صنعن المعروف، ولا أغشش الملهوف، ولا تقذن الهاوي في حفرة الغدر، ولا آخذن بيد المتضرع من ضغط الظلم، ولا تجاوزن عن السيئات، ولا تناسين جميع المضرات، ولا تبينن لقومي أنهم كانوا في ظلمات يعمهون* ولا تظهرن الصديق في أجمل صورته، ولا جلونه للناس أبهج حلاله، ولا تبينن لهم ببهان العمل أنه فكرك الثاني في روحك الواحدة، وأنه جسمك الآخر في حياتك المتحدة، وأنه صاحبك اذا طال ليل الكدر، ومصباحك اذا أغسق دجى المموم تستضيء به في حل ما انعقد، وتستعين بقوته في تيسير ما عسر، وتذهب به الى أوج المعالي، والناس من معجزات الصديق يتعجبون *

إنتي اليوم أعجز من المقعد عن طلوع النخل، ومن المفلس عن حرية التصرف، وقد صار سقوط الجاه كمرض يصيب الجميل الفاتن، فيتحف الجسم، ويغير اللون، ويقلص الشفاء، ويضعف القوى، ويقعد عن الحركة، ويبعد

عن نيل المطلوب ، ويثقل على الاهل والعشائر في التمريض ، ويستهمهم ان طال من
 معاناة العلاج فيصبح المر بضع منهم في أدنى المنازل ، وقد كان زبالهم وهم له ساجدون *
 يذهب عنه البهاء ، وينكشف من وجهه الضياء ، وتنكره عند الرؤية
 أعين العشاق ، وتمججه طباع ذوي الاذواق ، وتمحى من جبينه تلك الاسطر
 الجليلة العبارة ، الصادقة النسبة ، الناطقة بالحق ، القائلة : ههنا كنز الرغبات ،
 ههنا منار الحاجات ، ههنا ما يروح الروح ، ههنا ما يقضي وطراً في الانفس ،
 ههنا ما يخشى منه على الارواح والافئدة ، فينحرف عنه السالكون اليه ، وقد
 كانوا قبل على آثار غباره يتدافعون * وقيدوا على مرض الجليل مرض صاحب
 جاه ، ولا أظنكم بالقياس تجهلون *

لكن أقول لكم : ان الحوادث المريعة سوف تنسى ، وأن هذا الشرف
 سوف يُردّ ، ولئن أبت طبيعة هذه الارض بنحسها أن يكون لها من عوده نصيب
 فليعودن في بلاد خير منها . ولا جذبن الى المجد أحبتي ، ومن الى المجد ينجدون *
 كل ذلك إن عشت وساعدتني صحة الجسم ، ولا أطلب شيئاً فوق هذين
 سوى معونة الله الذي عرفه بعض الناس ، وبعضهم له منكرون *

أظلت عليك الكلام فلا تسأم ، وأظنه آخر كتاب مني اليك في السجن الا أن
 يحدث حادث يسمح بالكتابة مرة أخرى . فان تلاقينا بعد اليوم كانت المتسافهة أركى
 والا كانت المراسلة أجمل وأعلى ، ولا تجزع ، فليس في الامر ما يفزع ، رهو
 أهون مما يتوهون * وأسأل الله أن يفض عنكم أبصار الظالمين ، ويحفظكم
 من سكاية الخائنين ، ويسر قلبي بالطمأنينة عليكم وعلى سائر الاخوان والابناء أجمعين

ومن كتاب له الى السيد جمال الدين عقب النبي من مصر الى بيروت وهو أغرب كتبه بل هو الشاذ فيما يصف به استاذه السيد مما يشبه كلام صوفية الحقائق والمثاليين بوحدة الوجود التي كان ينكرها عليهم بالمعنى المشهور عنهم ، وفيه من الاغراق الغلو في السيد ما يستغرب صدوره عنه وان كان من قبيل الشعرىات ، وكذا ما يصف به نفسه بالتبعية لاستاذه من الدهرى التي لم تمهد منه البتة - قال :

ليتني كنت أعلم ماذا أكتب اليك - وأنت تعلم ما في نفسي كما أعلم ما في نفسك ، صنعتنا بيديك ، وأفضت على موادنا صورها الكالية ... فبك عرفنا أنفسنا وبك عرفناك ، وبك عرفنا العالم أجمعين ...

أوتيت من لديك حكمة ألقب بها القلوب ، وأعقل العقول ، وأذل بها شوامخ المصائب ، وأتصرف بها في خواطر النفوس ، ومنحت من لديك عزمة أتعمق بها الثوابت ، وأصدع بها شم المشاكل ، وأثبت بها في الحق حتى يرضى الحق . وكنت أظن أن قدرتي غير محدودة ، ومكتتي لا مبنوثة ولا مقفودة ، فاذا أنا من الايام كل يوم في شأن جديد ، تناولت العلم لأقدم اليك من روحي ما أنت به أعلم ، فلم أجد من نفسي سوى الأفكل ، والقلب الأشل ، واليد المرتعشة ، والفرائض المرتعة ، والفكر الذاهب ، والعقل الغالب ، كأنك بامولاي منحني وع القدرة الدلالة على قوة سلطانك حصرتني في الافراد (١) فاستثنت منه ما يتعلق بالخطاب معك والتقدم إلى مقامك الجليل ، هذا مع اني منك في ثلاث أرواح لو حلت إحداها في العالم بأسره وكان جاداً لأحال إنساناً كاملاً ، فصورتك الظاهرة التي تجلت في قوتي الخيالية ، وامتد سلطاناً باعلى حسي المشترك

(١) العبارة غير مستقيمة لبعفاء كان في الاصل صوره الذسخ بما تحمله

— وهي رسم الشهامة ، وشيخ الحكمة ، وهيكلك الكمال — ردت اليها جميع محسوساتي ، وفيت فيها مجامع مشهوداتي ، وروح حكمتك التي أحيت بها مواتنا ، وأثرت بها عقولنا ، وألطفت بها نفوسنا ، بل التي بطنت بها فينا فظهرت في أشخاصنا ، فكنا أعدادك وأنت الواحد ، وغيبك وأنت الشاهد ، ورسماك الفوتغرافي الذي أقيمه رقبيا على ما أقدم من أعمال ، ومسيطر أعلي في أحوالي (١) وما تحركت حركة ، ولا تكلمت كلمة ، ولا مضيت إلى غاية ، ولا اتزيت عن نهاية ، حتى تتطابق فيه أحكام أرواحك — وهي ثلاثة — فمضيت على حكمها سعياً في الخير ، واعلاء لكلمة الحق ، وتأيداً لشوكة الحكمة وسلطان الفضيلة ، ولست في ذلك إلا آلة لتنفيذ ذلك الرأي المثلث ، ومالي من ذاتي إرادة حتى ينقلب مردياً ، غير ان قواي العالية تمثلت عني في مكاتبتني اليك ، وخلت بيني وبين نفسي التزاماً لحكم ان العلول لا يعود على علته بالتأثير ، على ان ما يكون إلى المولى من رقائم عبده ليس إلا نوعاً من التضرع والابتهال ، ولا أحسب فيه ما يكشف خفاء ، أو يزيد جلاء ، ومع ذلك فاني لا آوسل اليك في العفو عما تجرد من قلق العبارة ، وما نرى مما يخالف سنن البلاغة ، بشفيق أقوى من عجز العقل عن احداق نظره اليك ، واطراق الفكر خشية منك بين يديك وأي شفيق أقوى من رحمتك بالضعفاء وحنوك لأرحام الحياء

اني يامولاي لا أحدنك عن شيء مما أصابنا بعد فراقك ، فقد تكفل ببيانه أخي العزيز ابراهيم أفندي اللقاني سوى ما تركه في كتابه من انقلاب بعض القلوب من خاصتك ، وتحول أحوالهم بعد نزول ما نزل بك ، فقد تغلب أعوان الشر وأنصار السوء بقوة جاههم ، وشدة بأسهم ، فأرغوا

(١) قد أخذ هذا الرسم شرطة الحكومة عند تفتيش بيت الكاتب في تهمة الثورة كما يأتني ثم اتنا كنا نرى رسماً آخر للسيد في خزانة كتبه من داره التي بحاس فيها على الأرض للسطاعة والكتابة كانت على منضدة يوضع عليها بعض الكتب في الجهة الشمالية فكانت تكون قبالة حيث بحاس فكان يذ كر تلك الروح العاليه التي ربه تلك التريه الجديدة الممتازة التي دفعته إلى الجهاد طول حياته في سبيل الله تعالى

العقول على الاعتقاد بالمحال ، وألجؤها بالتصديق بما لا يقال ، حتى إنهم غيروا قلب دولتلو رياض باشا عليك وعلى تلامذتك الصادقين أياماً معدودة ، ركن فيها للعمل بالشدّة ، والاخذ ببادرة الحدة ، لكن لم يلبث أن وصلنا اليه ، وجلوت الامر عليه ، وكشفت له ما أنغض من الحقيقة ، حتى زال ما لبس المبطلون ، وبطل كيدهم ، وما كانوا يعملون ، ونزلت عنده منزلة حسدني عليها الكافة من العلماء والامراء ورجال الحكومة ، وقعدت من كل أمير مصعد النفس ، فلا ينطق الا بما تريد حكمتك ، ولا يعمل الا ما نشاء إرادتك ، فكأنك وحقك كنت بين أظهر المصريين ، ساعياً فيهم الى مقاصدك العالية ، طالباً بهم أوج السعادة ، وذروة المجد والفتخار . وهكذا ضمنت اليّ كل من كان ينتسب اليك . صادقاً في الاتساق أو كاذباً ، حتى اني لم أتأخر عن مساعدة أولئك الاشقياء الاديباء^(١) وأمثالهم من اللثام ، تحسیناً للظن ، وايتاراً للجانب العفوف . فأصلحت لهم القلوب ، وفسحت لهم من الصدور ، وفتحت لهم أبواب التقدم الى المنافع الغزيرة ، لكنهم لم يرعوا ودّاً ، ولم يحفظوا عهداً ، ولا حاجة الاّن الى ايضاح ما صدر عنهم خيانة ولؤماً^(٢) وألفت لحبك ممن حرم التشرف بلقائك قبيلاً ليس باقليل ، يجلون قدرك ، ويعرفونك فضلک ، وكنا واخواننا كما شرح لك ابراهيم افندي (اللقاني)

ولكن هذا لم يلهني عن طلب الاتصارك ، وكدت أصل الى ذلك من طريق مألوف ، ومذهب معروف ، ولكن غلبنا على الامر قطاع طريق الخير ، اللابسين ثياب الانبياء ، السالكين مذاهب الجبارين : انتحلوا طريقنا في الدعوة الى الحرية ، وتمكنوا بقوة السيف وضعف الحكومة من اقناع العامة بكونهم دعاة الحق ، وحماة القانون ، وكانوا في بداية أمرهم أشد الناس تعصباً عليك وعلى تلامذتك ، واشتدّ معهم في التعصب أولئك الاشرار الذين قدمنا ذكرهم عند ما رأوا بعض رجال الحكومة يميل الى أهوائهم ، ويمدّم في بعض

(١) م : ا . ل - س ون - س . ب و - هـ

(٢) حذفنا سطرأ فيه كلمة شديدة في نصارى الشوام وفي المصريين مما

غيبهم ، ولم يدب ذلك الا قليلا ، حتى محصنا من قلوبهم ، وجلونا عن بصائرهم ، فكادوا يشيرون ضياء الحق لولا أن أدركنهم ظلمة النفي والغرور ، ومع هذا فكنا نستعملهم لما نريد ولغاية ما نحب بقدر الامكان والاستطاعة ، الى أن غلبت عناصر الفساد ، وعم الاختلال . فطلبنا بأولئك الثائرين أن تخلص البلاد من الشقاء ، وينتقد العباد من طول العناء ، ورجونا تأييدهم على ذلك من سكان الارض والسماء ، وكدنا ندرك به خلاصاً حسناً ، واتصراً شريفاً ، لكن لسوء البخت كان احمد عرابي على ما وصف الصابي أبا تغلب بن حمدان عند ما قاتله عز الدولة بن معز الدولة وهزموه حيث قال فيه « انه لم يلق لقاء الباضع بالطاعة ، المعتذر من سالف التفريط والاضاعة . ولا لقاء المصدق في دعواه في الاستقلال بالمقارعة . المحقق لزعمه في الثبات للمدافعة . ولا كان في هذين الامرين بالبر التقي . ولا الفاجر القوي . بل جمع بين تقيصة شقائه وغدره . وفضيحة جبينه وخوره . قد ذهب عنه الرشاد ، وضربت بينه وبينه الأسداد » اهـ

وأزيد على ذلك مع توفر الاسباب، وتفتح الابواب ، وظهور الامر للعيان ، وانجلائه لأذهان الصبيان ، واجتماع جميع القلوب عليه ، ونزوع الاهواء على اختلافها اليه ، فكان ما كان من العاقبة السوءى ، ولسيرنا في تلك الحوادث نبأ طويل اذا أردت يا مولاي أن أقدم اليك به تاريخاً ربما يكون مفيداً فأنا رهين الاشارة . ونحن الآن في مدينة بيروت تقضي بها مدة ثلاث سنوات لا لذنب جنيناه ، ولا جرم اقترفناه ، فقد قضت حكمتك اقامة منا مقام الالهام في قلوب الصادقين أن ننال الحق ولنا المحجة الباهرة ، ونصيب الغرض ولنا البراءة الظاهرة ، والذمة الطاهرة ، وانما ذلك آثر الحق القديم ، ونتيجة الرأي العقيم ، والله ياسيدي لو فصلنا من جلودنا ثيابا ، وصنعنا له من لحومنا كبابا ، وصيبناله من دمنا شرابا ، لما كان لنا مفرٌّ من غدرته عند قدرته ، قاتله الله . فما نحن سالكون في سننك وعلى سننك ، وكنا كذلك ولا نزال ، الى انقضاء الآجال ، ولولا أطفال لنا رضع ، ونساء لنا طوع ، أيدينا لهم الذل ، وأنفنا لهم الضميم ، فأتينا بهم هنا ، الى حيث أقنا ، لكنك أول من تلقاك في مدينة باريس ، لا سعد بالاقامة في خدمتك ، وأفخر بذلك على العالمين

ولما اعلم من نفسي ، وما أتيقن من يقينك ، وما أبدته أعمالي وأعمالك ، واقوالي وأقوالك ، لا أتكدر مما أشرت اليه في كتابك الى ابي تراب ، حيث طعنت في ثقك بالناس اجمعين ، وبالغت حتى سحبت الطعن إليّ والى ابراهيم افندي ، وزدت في الطعن ، فأفذت طعنك بالدهاية الزرقاء ، والبلية الحمراء ، أما اختلال ثقتك بالدواهي والبلايا فقد صادف محلا ، فقد تقضوا عهدك ، وحالفوا عدوك ، فاستبقوه الوجود وأنت موجود ، أرغم الله أنفها ، وجعلها طوع يدك ، ترمي بها من تشاء من أعدائك

وما حكم به سيدي على المنصرين من سلب الوفاء فذلك قد تتضافر عليه الأدلة ، وتشهد لك ولنا به الحوادث ، غير أنا لسنا أولئك ، فقد اخرجتنا عن طباعنا ، وحوّلتنا نباتاً غريباً لا يتغذى بفضاء تلك الأرض ولا ينمو بهوائها ، وانما ينضر حيث يتيح له القدر من مثل عناصره ما يقوي به قوامه ، ويزهر زهره ، ويحلو ثمرة . والا ذبل ومات ، أو استأصلت جذوره ونفي الى خارج البلاد واني اعلم أن كلامي لا يزيد في يقين مولاي شيئاً ، وعندما لا يتقصه ، فلنعد عن هذا ونستريح كرمه الواسع أن يمن علينا بنسخة من رسمه الفوتوغرافي جديدة ، فقد كان عندي نسختان احدهما كانت في بيتي على الوضع الذي قدمت ، والأخرى استجدانها سعد افندي زغلول ، فأما الاولى فقد اخذها أعوان الضبطية عند ما أودعت السجن ، وفتشوا بيتي وعد وجود صورتك عندي من سينائي التي ارادوا وضعها في مجلس التحقيق ، والأخرى تركتها عند محسوبكم سعد افندي زغلول

ثم يتفضل مولانا بأن يتابع اينا ارسال ما ينشره من الفصول السياسية والادبية في الجرائد أيا كانت ، فقد اعددنا دفاتر كثيرة لنقل ما يوجد منها في أي جريدة ، وكتبنا ما نشر في النحلة ، وأول ما نشر في البصير ، وانا نبحت بغاية الدقة عن مقالة « الشرق والشرقيون » ولم نجد لها الى الآن ، ثم نرجو أن تمن علينا بأسطر من قلبك الشريف نحفظها حيث نحفظ سرك ، ونودعها حيث أودعنا محبتك ، والله يحفظك ويتهم مقاصدك ، والسلام

وكتب بعد استقراره ببيروت الى بعض الشيوخ واعلمه الشيخ علي
الليثي ، وفيه من التكاف ما كدت أشك في انه له ، وقد وجد بين مسودات
اكثرها له

سيدي الاستاذ الأجل

لله حالي مع الشيخ !! وجد به مستحراً ، وشغف بحبه مستمر ، وعهد هوى
اليه مستقر ، وهو بي لا يستقر ، شغفت من الشيخ بأخلاق زهر ، ومكارم غر ،
ومروآت حدر ، وفضائل غزر ، ذلك الحسن الذي لا يكسف ، والجلال الذي
لا يكشف ، فاذا عشقته (بقلي) فليست بالغالط ، وإن لمحتة ^(١) بحبي فما أنا بالخابط ،
تعلقت بهاء الأنف ، وهو لدي الأعز الانفس ، ومشرني في ذاك أصفي المشارب ،
ولناس فيما يعشقون مذاهب ، أنا بي عنك تباين الديار ، وأدناي منك دوام
التذكار ، كلما خلوت بنفسي ، تمثلت لباطن حسي ، فروحني اليك انسة ، ومن
قرب اللقاء غير آيسة ، فان فاءت من غيبة الفكر ، وأفادت من سكرة الذكر ،
عاودتها وحشة الفراق ، واتابها قلق إلى التلاق ، فان تحمفتها عنايتك ، وثقفتها
رعايتك ، بكتاب تلحظه ، أو خطاب تحفظه ، كان ذلك أشقى لدائها ، وانجع
في دوائها . وبعد فانا اليوم ببيروت في فضل من الله أشكره ، وجميل احسان اذكره
ولا أنكره . . . لكن لا يسوي بقومي قوم ، ولا كيوم وطني يوم ، ذلك الوطن الذي
أنتك ، وغدت عناصره نبعتك ، لا ريب أنه منبت الكرم ، ونعيم لا يطهار الشيم ،
الموت فيه بقاء ، والحياة في غيره فناء ، ولكن كان حالي كما قال الأموي

أعز الممات وذل الحياة وكلا أراه طعاماً ويسلاً

فان لم يكن غير احداهما فسيرا الى الموت سير أجميلاً

هذا الى أن ينجح الله سعيكم ، ويؤيد في أمري رأيكم ، فيما ط الأذى ،
ويلقى القذى ، وتمحص الصدور ، ويبرأ بريقاكم المصدور ، هنالك يعرف النخيل
أهله ، ويصل الفرع أصله

٤

وكتب من بيروت أيضا الى بعض الكبراء جوابا عن كتاب منه
بذكره فيه بالصبر في تلك النكبة

ما أفضل الفضل من مبادئه ، وما أكرم الكرم من مناشئته ، وما أكبر التواضع
من الكبراء ، وما أعلى التنازل من الأعلياء ، جلت مكارم مولانا عن التقدير ،
وفاتت فواضله حيلة التحرير ، توجهت عنايته الى ضعيف في وجده ، عارف بقدره ،
واقف عند حده ، فأحسن اليه بأمر كريم من رفته ، يكسوه من الوصف حلة
بهاؤها بسديها ، ويوليه كرامة سناؤها بمهديها ، وما هي إلا كلالته تبدو مظاهرها ،
وكرام سجايه تظهر على المحصلين مفاخرها ، والا فليس لهذا الداعي ما يستلفت
نظر دولته ، ويستقبل وجه كرامته ، اللهم الا الاخلاص في ولائه ، والاحتساب
على آلائه ، وما استواء مولانا على منصة تشرف به على النظر فيما يؤكد نسبي
اليه ، ويقوي استنادي عليه ، فأرجو الله أن ترتقي بي الى أعلى ما يؤمل لمثله ،
يمثل فضله ، حتى يعم فضله المتعرفين الى جنبه ، والعاجزين عن التقرب من رحابه ،
وقد أرشدني كرم مولانا الى الاعتصام بالصبر ، وانني فيما أرشدني اليه على نحو
ما يقول سابقى الى مثل حالتي

تعودت من الصبر حتى ألفته فأسلمني حسن العزاء الى الصبر

فالحمد لله على توفيقى للأخذ بارشاده . ووقوفى عند حد مراده . فلا زال
يحبي القلوب بحكمته . كما يحبي نظام الأمة بعد الله ، والله يتولى مشوبته على احسانه ،
كما يكفل له في العالمين اعلاء شأنه ورفعته مكانه

٥

وكتب وهو في بيروت جوابا عن كتاب لصديق

لك في قلوبنا من الود ما يدكيه سناؤك . وفي مناطقنا من الحمد ما يرحيه كمالك ،
وفي صدورنا من الاجلال ما يرفعه بهائك . ما بيننا من المودة ، لا تحده مدة . ولا
تخلق له جدة . نعيذه من حاجة للتجديد . واستدعاء للزيد . فلا المواصلة تربيته ،
ولا الماهلة توهيه . نعم ان ما نحفظ لك في الانفس هو تجلي فضلك . ومثال علائك
ونبلك ، وذلك الخالد بخلود الأرواح ، الباقي في تفاني الاشباح
تلقيت منك كتابا ييوح بسر المحبة . وينشر طي الصداقة ، فيه تبيان
وجدانك مما وجدنا . وتأثرك على ما فقدنا . فكان نيا عما نعلم . وقضاء بما نحكم
ولكن شكرنا لك فضل المراسلة . وأريحية الجمالة . والله يتولى ايفاءك ،
مشوبة تكافى . وفاءك

٦

وكتب من بيروت الى صديق له من رجال الدولة العظام الذين كان

يرجو منهم الخير للدين والملة

وصل الله بالتقوى جبلكم ، وأعلى بصدق الايمان محلكم ، يعلم الله اني وان
فارقت عطفونكم ، لم يفصلني البعد الجفائي عنكم ، وان بانتي بي الاماكن ، ونبت بي
الأقطار لم أبن منكم . فلقد يسمو الايمان الصادق بأهله عن مضاجعة الطبيعة
فلن تصل اليهم آثارها . وينفر بهم عنها فلا تخالطهم أضرارها . فتأخذ
الارواح حكمها ، وهي اذا تعارفت جواهرها ، تواصلت سرائرها . ولم تبال
بالاجسام ومصايرها .

لم يزل يلمع لي بارق من سر ذاتكم الطاهر ، ويذر آنا بعد آن شارق من
مطلع يقينكم الزاهر ، ويتمثل لي كلما نزع في القلب اليكم مثال من مزايا سعادتكم ،

ويبدوا لي عند الوحشة مؤنس من خصائص عطوفتكم ، فأنا من معاني حقيقتكم في بقعة من عالم المثال ، ألهم بها عن هذا العالم عالم الخيال ، اراكم بين من رأيت من حكام الزمان ، كوكبا بين اجرام الكوان ، ان كان لها ضياء تضال اضيائه ، أو كان لها سناء تساقط دون سناءه ، فإله بحق نسبتكم اليه ، ويمتكم باخلاص الاقبال عليه . فإلك السعادة ، لا تفضلها زيادة . ولا أتقدم الى سعادتكم بالرجاء بشيء ، مثل ما أرجوكم في النظر لاصلاح قلوب الاهالي بالثريية الزكية ، على أصول المعارف الصافية . فلا بقاء للدين الا بها . ولا وقاية له الا بنفوس اربابها . ولا سعي عند الله أفضل منزلة من السعي الى مثل هذه الغاية . ولا أجل عاقبة لديه مثل الانتهاء الى مثل هذه النهاية

ثم أرجو العفو عن تقصيري في عرض عريضتي على أنظار عطوفتكم في المدة الماضية ، فقد كنت بعد مفارقة القدس في أمراض لم أزل الى اليوم في معالجتها ، وأنتم أكرم من قبل العذر ، واستقبل بالعفو جزيل الأجر ، والله يمدكم بامداد توفيقه ، ويحفظكم على المحجة من طريقه

٧

وكتب الى من أكرم وفادته ، وخطب مودته

لو كان في الثناء وملازمة الدعاء ، وحنظ الجميل ، والقيام بالخدمة جهدا مستطيع ، ما يفي بشكر من يفتح باب المحبة ، ويبدأ بصنائع المعروف ، لكننت والحمد لله من أقدر الناس عليه ، ولكن أنى يكون في ذلك وفاء ، والمحبة سرّ نظام الاكوان ، والاحسان قوام عالم الامكان ، والقائم على كنهه جميعه قيوم السموات والأرض ، والمفتتحون لأبواب العرف على هذه النسبة الجليلة منه ، فليس لي إلا أن ألتجأ الى الله في مكافأة فضيلتكم ، على ما كان منكم أيام الاقامة بينكم ، ثم أسلي نفسي عن عجزتي بما أخيل ان كركم سيروي

سيكفي الكرم اخاء الكرم ويقنع بالود منه نوالا

وبعد هذا أرجو عفوكم عن التقصير في المبادرة الى المكاتبه لأنني شغلت

بما شغلني عن نفسي ولكن زالت العوارض والحمد لله وفاتني لهذا العذر
تهنئتك بالعيد، وانما المؤمن كل يوم بربه عيد، فتهنئكم برضاء الله عنكم، وتقبل صالح
الاعمال منكم، وسلامي على نجالكم، ومن يتبعي اليكم، والله يحفظكم

٨

وكتب من بيروت الى بعض الكبراء في الاستانة جوابا عن كتاب منه

ان خدمت الامة في هذه فمأهي اول خدمة، وان وفقك الله للنجاح فيها
فليست بأول نعمة وان شحذت عزيمتك لاصابة الغرض منها فما هو بيدك منك،
وان طالت يدك ابلوغ الامول فيها فما هو ببعيد عنك، فالله آخذ بعضدك، ويمدك
الى مقصدك، خصوصا وانت مخلص البنية، مشرق الطيبة، صادق العزيمة، شهم
الغواصة، اليك السداد، ايد الله رايأ أفردك في علوه، وبارك لك في عزم ميرتك بسموه
وحمق الرجاء فيك، وبلغ الامول منك! احار قلبي، لا أدري بأي بيان يذكرك،
وعلى أي فضل يشكرك، على صدق في خدمتك، أو اخلاص لدوائك، أو حمية
لدينك، أو ثبات في يقينك أو بعد في همتك، أو علو في مروءتك، أو تنازل لاجابة
هذا الداعي فيم ارجاه، وتقريب أمله فيما تمناه، كيف يوافي شكر ذلك بيان، أو
تصيب الغرض منه أسئلة لسان

واقاني كتابك يفوق الغيث في بر كته، والربيع في نضرته كيف لا والحق
في طيه والفضل في ثديه. وأين مانر يوبه الاشباح مما تنعش به الارواح واين
نضرة الحقول، من بهاء العقول، هز مني بعد السكون وأظهر مني بعد الكون
وفتح لي الى الامل بابا، وكشف عني من الارتباب حجبا، فلا زلت يقوى
بك العزم ويؤسى بفضلك الكلام أما ما سبق اليه رأبك من تقديم رسالتي^(١) الى
حضرة علم العلماء وتاج الفضلاء صاحب الدولة ناظر العدلية الاقم فكما مرردت
غريباً الى وطنه وأرجعت نازحا الى عطنه ولئن وقع ما عرضت موقع القبول
عنده فانما ذلك تجلي فضله في مرآة علمه، والافعال القصور ظاهرة فيما كتبت

(١) هي لائحته اصلاح التعليم التي سبقت في فصل اللوائح

ولوائح الارتباك بادية مما حررت وانما هي نفضات رسمت في صفحات على استعمال خيفة الفوات ، وما دفعني اليها - والله أعلم - الا يقيني بأن نجاح هذه الامة انما يكون بحسن التربية ولا سبيل الى التربية فيها الا باصلاح معتقداتها ، وتصحيح ملسكاتها ، حتى تستقيم بذلك اعمالها ، وتصلح احوالها ، وان سعني في هذا من فرائض الذمة ، بل مندفع مني بباعث 'عميدة' آتية مجبوراً في صورة مختار ، أو مختاراً في صورة مجبور

واتي أحد الله على قوة لا أجدها مادة ، وهداية لأرى لتسير الناس فيها جادة ، فان وقتني الله الى مادة عمل وجادة خير بسعيك الناجح ، ورايك الراجح كانت أعمالها كلها شكراً لصنيعك ، وكان الله من وراء ذلك خير مكفي لك على جميل سعيك ، وأما استشهادك بفلان وفلان فاني أعده تفضلاً منك في التأيد والإفجرد قولك عندي هو الدليل على الواقع والله ما أقول شهيد ، وليكن مني لك الاحترام الدائم والشكر الذي لا ينقضي والله يتولى رعايتكم والسلام

٩

وكتب منها الى بعض الاصدقاء جواباً عن كتاب

سيدي العزيز

واقاني كتاب سيد الأحاب ، وصفوة الأنجاب ، مبتسماً عن الدرّ النظيم ، روايا عن الذوق السليم ، متهللاً بسناء منشيء ، معجباً بيها ، مملية ، جاء بعدما حل منازل الجلال ، ودار دورة الاقبال ، ولولا رسل من شوقي اليه ، تزاخت أقدامها لديه ، فساقته يد الافدار ، وقانه قود الاوطار ، لطال به التسيار « وبرح بي » الانتظار ، وصل الي بعد اثني عشر يوماً من تاريخ كتابته ، واني اقسم به لوزاد في غيبته ، وجاء زاهياً بحليته . تاها في جلالته ، متقلداً حسام حجته ، مستشهداً بعدول من حاشيته ، على ما نسبت من المظل الى مودته ، لما اتفني دليله ، ولا الزمني نهليه ، ولتابلته بحسابه ، وسكنت من ضيابه ، ولحاكنه محاكمة الود ، بين يدي حيي المستبد ، ولجازيته جزاء نافر اتعب في الطلب ، وشارد أوغل في الحرب ، ثمخفي (٧٧ - تاريخ الاستاذ الامام - الجزء الثاني)

بحكم الغلب ، . أو معشوق بديع الجمال ، بالغ في الدلال ، حتى أعيا المختال ، ثم
ابتلي بفرام العشاق ، فابتغى وهو البغية وعمل المشتاق ، واعلمت له من اشعة
البصر حبلا ، أو سمع بها احتبلا ، فيمن عليه الخالص ، وبتنع المناص ، فلا
يبرح عن نظري ، مادام نالربي ، ولا يرمت له من مبارم العقل عقلا أو ثقة به
اعتقلا ، وأزدي في قيود سلاسل من الفكر خناثا وثقلا ، حتى لا يغيب عن الذهن انتقلا ،
ولاعن الخيازلوالا ، وما أشده من جزاء يكون عبرة لما يليه ، فيخشي من توائمه ،
علمني كتابك كيف تناجي الأرواح اشباحها ، والجراثيم أدواحبها . أو
كيف تحدث العقول أفكارها ، والفلوب أسرارها ، تباينت اجسامنا في عالم
الكون والفساد ، وتباعد ما بيننا في كون التضارب والعناد ، وترفعت نفوسنا
عن معارك الاضداد ، فتعالينا في جوهر الوداد عن الانداد ، فاتحدنا وليس
بعد اختلاف ، وامتزجنا ولا عن اقتراق ، وكان واحدنا من صاحبه في مكان
الشرف من الفتوة ، والكرم من المروءة والقوة من العدل ، والكرامة من الفضل ،
والعلم من الرشاد ، والحكمة من السداد ، واستغفر الله ان أكون منك في مقام الاستاذ ،
فتفاوت النسب نوع من الجذاذ

لم يزدني كتابك يقينا بما أعلم من كرم طبعك ، وامتيازك بفضيلة الوفاء بين قومك
ولم يذكر ناسيا سابق ودك ، ولم ينبه غافلا عن ذكرك ولكن كان نوراً على نور ،
وفضلا من كتاب عملا ، المبرور ، وسعيك المشكور ، ونعمة تشهني النفس دوامها ،
ونعمة يلد للسمع تكرارها
سرفي ما دل عليه كتابك من كل صحة والدك الماجد ، وأخوتك الاماجد ،
وأعضاء عائلتك الكريمة والنجالات بضعة كمالك

١٠

وهن رسائله الفكاكية الهرلية . ما كتبه من بيروت الى حديقه العالم الاديب
 الشيخ عبد المجيد الخاني في دمشق . وكان رحمه الله محبباً اليه والى جميع
 المصر بين المنفيين في بيروت ، وان له ألقاظ وسجيات كثيراً ما تدور
 في كلامه وكتابته ، هجيره منها لفظ الدهشة ، ما يشتق منه ، فكان
 الاستاذ الامام وعبد الله باشا فكري و ابراهيم بك اللقاني يذكر ، ذلك
 في كتبهم اليه على سبيل الحكايات . وهذا الكتاب جواب من الاستاذ
 الامام عن كتاب من الشيخ عبد المجيد رحمه الله تعالى

لك الحمد والشكر

وفد علي كتاب السيد الاستاذ ، والموئل الملاذ ، ينبىء عن سعادة حاله ،
 وسعود إقبائه ، فحمدت الله أن خطرت بباله ، وان لم أكن من ذوي باله ،
 ودهشت من مفاجأة هذه النعمة ، لقصر الهمة عن شكر يستزيدها ، وحمد
 يستعيدها ، وان سروري من السيد بتوجيه عنايته ، الى أخلص الناس في محبته ،
 بل أثبتهم قدماً على أبواب خدمته ، لأرقى من لذة الوصال ، لمحبوب بعيد المنال ،
 بل من حظ النفس عند بلوغ الآمال ، والظفر بالاقبال

يشير الاستاذ في خطابه ، الى لطيف عتابه . وليس سروري بما أحسن به
 الاستاذ من مكاتبته . أوفر من سروري بما تحققت من كل محبته ، أدام الله
 سروري بتوارد أخباره ، وشهود آثاره في أنصاره . وشهد الله أن غيبته عن
 ناظري ، لم تحجب مثاله الشرف عن خاطري . وأن تسامياتي متواليه في خلواتي
 وجلواتي ، ونحواتي صلواتي . لا يحيط بها . ولا يحفظ الحافظ . ولا

يأتي على وصفها الشيخ حسين الحافظ^(١) وان بلغ في الفصاحة ما بلغ الجاحظ .
 أهدبها مع الراض والغادي ، واحاضر والبادي . وما علي أن أقول وعلى الله الوصول
 يعلم مولاي أي من تبعة القارئين ، وخدمة السكاتبين وأنظن — إن حسن
 الظن — أي من مواقع احسانه ، ومواقع امتنانه . وما كنت أجحد شيئاً من
 رعايته . ولا آلو جهداً في شكر منته . ومع هذا لم يتفضل عليّ بلاعة من درره
 ولا بارقة من غرره . واختص السادة الفضلاء بالمراسلة ، واكتفى لي بسلام
 المجاملة . فالتست من حضراتهم أن يحيوه أحسن تحية ، أو يردوها على أي كيفية .
 ولا أدري بعد ما كان منهم رضي الله عنهم . ورأيت من المخاطرة ، والجرأة
 الجائرة ، ان ابتدر الاستاذ بالكلام ، وهو الامام ابن الامام . فوقفت عند الحد ،
 وقت مقام العبد ، ان سئل أجاب ، أخطأ أو أصاب ، أليس للملي العذر ، ان يقصر
 به الفكر ، عن مكاتبة عبد الحميد هذا العصر ، وبديع الزمان في النظم والنثر ؟
 بلى . ولولا ثقتي بسعة كرمه ، ما تمكن قلبي من اجابة قلبه . فليعف جناب السيد
 عما يراه فيما حرر على عجل ، تحت سلطان الخوف والوجل

شكرنا مولانا سروره بما رأى في جريدة الثمرات . غير أن ما ذكر فيها
 انما هو كلمات قد قتها بمصر أغراض . فاقصت واستعقت بالأغراض . على
 أننا اذا حسن التفاتكم الينا في آل خير من آ لنا ، وأوطان أرحب من أوطاننا .
 فلا غربة مع وجود الاحبة . ونسأل الله تخليد بقاكم ودوام رضاكم
 فوهم بما حظي به الشيخ أسعد الا . . . من كتاب الصادق الاصدق
 الناطق بالحق ، فيما رقى ودق . ذكر السيد أن الشيخ لم يدر عافاه الله من أين
 أتى . وأرى له عذراً في هذه الفعلة التي . . . فقد أتى من وراء حجاب . واحتبل
 بغير احتطاب . ودمر عليه من غير باب . فلا غرو ان غاب عنه الصواب . وخرم
 وانخرم معه الحساب ، ابراهيم افندي جظه بعد الملاحظة ، ودلظه بلا معا كظلة .

(١) كان هذا الشيخ انما هو الاستاذ يحفظ عدة كتب من الحديث والادب
 وقد يحفظ المصيدة الطويلة من مرة وكان وصافاً لا يتلثم ولكنه لا يأنزم الصدق
 في الوصف ولا الحكاية

لكن الشيخ جواظ ، حجب بكالمه عن.... فضلا عن الحفاظ، وإن كان في طبعه لظلاظا ، وفي هداه جلمناظا . فتح سر الشيخ على القلم باب النظاظة . ولولا أن تداركه لطف الله لجذبه للباأة والفاأاة . فلا تؤاخذ مجزوبا ، ولا تعنت مغلوبا . ثم إن القصيدة حائية لاجيمية . وكأن غموض معناها أعجم ميناها . سبحان الله العظيم ، وفوق كل ذي علم عليم ، كر كر كر كر كر ، إنها لاحدى الكبير أرجو تقييل أيدي حضرة والدكم . ثم إن حسن لديكم فبلنوا سلامي الى حضرات أصحاب السعادة محمد باشا ومحبي الدين باشا نجلي سعادة المرحوم الأمير عبد القادر ، أكرم الله جواره ، وقدس أسراره . ويهدي حضرتكم التحيات المدهشات ، والتسليمات المرعشات ، حضرات الأساندة الأفاضل ، الشيخ محمد والشيخ احمد عبد الجواد . وحضرة الحاج محي الدين افندي حماده ، و ابراهيم افندي اللقاني ، والسيد محمود افندي الخوجه ، ومحمد علي افندي . ومن ظني أني سأحضر الى دمشق يوم الخميس ١٦ شعبان، لأرفع الى الاستاذ ما أستطيع من شكره على مبادأة (عبده) بالاحسان . رفع الله قدركم، وأعلى ذكركم، والسلام

١١

وكتب اليه أيضا

سبحانك اللهم وبمحمدك
يا مجيد ، علمني ما أخاطب به عبدك المجيد ، جليته مجدك . وأشعرتة ودك .
وأغزرت عليه في البيان نعمتك . وأنبت من جناته حكمتك . فبذ القائلين
بفصاحته . وملك مشاعرنا ببلاغته ، ثم يصفني وصف الأصفياء ، وبومي ، إلي
باشارة الاولياء ، واست مما قال في رطب ولا غناب ، ولا كهوب ولا ركب .
فاجزه اللهم عن حسن ظنه نور اواصل السمي بين يديه ، وأثبه عن صدق ولائه صفاء
يكشف من سبحات وجبت عليه
أخي : الحمد لله ، ماأظن ان اثنين توacula على ما توacula ، توacula على لحة
روحانية ، لمخالطها أهواء حيوانية ، وحكم الأرواح يتبعها في الدوام ، لا توأمر

(عليه) عوارض الأجسام ، اللهم إلا أن الحواس الظاهرة ، يوحشها البعد عن
 طلعتكم الزاهرة ، ويدهشها القرب من ذاتكم الطاهرة ، فرأى من روحك في
 نعيم مقيم ، وسرور بلذة الصفو مستديم ، وحسي من حسك ما بين وحشة تكدره
 ودهشة ان شاء الله تغمزه ، وكل يوم يمر علينا فيه خبر من ناحيتكم عيد ، وانا في كل
 سماع عن صحتكم سرور جديد

١٢

وكتب إلى الشيخ ابراهيم اليازجي جوابا عن اعتذار

وصل كتابك يحمل من العذر مقبوله ، ويرتاد من الرضا مبذوله ، ولقد كنت
 تعلم اني ما أردت لك إلا لنفسك فالحمد لله إذ أرجعك اليها وله الشكر على ما عطفك
 عليها ، وما أنا بالمقصر بك عما سألت ، ولا الذاهب بك إلى خلاف ما طلبت
 وغاية قولي لا تريب عليك . اليوم يغفر الله لك وهو أرحم الراحمين
 حياتنا شمع وروحها المحبة ، والمحبة شمع الاخلاص ، فما أسعد وقتاً نرى فيه
 حياك منتعشة بروحها زاهرة بسر الاخلاص فيها ، وليس بذائب عنك انك
 كما تكون يكون الناس لك ، واسأل الله ان يفي عنك خواطر السوء ، ويزيح عن
 روحك العلية وساوس الغرور ، ويمنّ عليّ برويتك عند الغاية التي أحب لك ،
 وسلامي عليك وحدك من بين أهالك ، ولتكن مواصلتك دأمة والسلام

١٣

وكتب اليه في ١٥ صفر سنة ١٣٠٦ بعد رجوعه من الشام الى مصر

عزيزي صفوة البلغاء ، ونخبة الادباء حفظه الله

تماديت في التصغير حتى عجز العذر عن التعبير ، وخجل القلم من التجربة ،
 ولكن في علمكم بحال منتقل الى بلاد قد انكره هوؤها ، وتعرفت اليها داؤها ،
 مالا احتاج معه الى بسط صدر يشفع اليكم ، ويقبل لديكم ، ليت يوماً بعدت فيه
 عنكم كان يوماً تريب فيك ، فلولا مثال من أدبك رؤسني اذا استوحشت ،
 ويشغني اذا انفردت ، لكن سهمي اقصد ما يصيب المحرومين

١٤

وكتب اليه في ٢٣ ربيع الآخر سنة ١٣٠٦

هامة الفضل وجهة الادب حفظه الله

اكرمني الشيخ بايفاء كتابه ، يثل لي مالم انس من آدابه ، وييسرني بتوفر
 النعمة على سلامته ، ويزيدني يقيناً بانصالتها في مودته ، وسرني استقرار الشيخ
 على رخاء البال ، وان كدرني ذكر ما عاب لديه من عاصمة البلبال ، لترك الله لها
 مهيا ، ولا ادام لها مربا ، وأبلغ الله حضرة الأخ (يعني الشيخ خليل اليازجي
 أخا شيخ ابراهيم وكان مريضاً) غاية الشفاء ، ووقاكم الله وآلكم من الاسواء
 لأبرى ، نفسي من استبطاء كتاب الشيخ قبل وروده ، واجالة الافداح فيما
 عسى أن يكون سبباً في تأخر وفوده ، واستكاثني في ذلك لسلطان الوحشة ،
 وانهزاجي لغارة جيش الدهشة ، حتى كان الكتاب فيعلا وناصر الحربنا ، بل منقذاً
 لحزبنا ولا يوفي حق شكره ، إلا شغل بذكره

عجبت لمصير ذلك العمد ، واحملانه قبل ان يشتد ، وتغيظ المفسدين عليه ،
 والتفاهم بالسوء اليه ، وهو في مهده ، وعلى قرب عهده ، كأنما حم على هذه البلاد
 أن تكون حطباً ليران الفساد ، وأن يذل فيها العلم ، ويضل في ابنائها الحلم ، ولا
 ينجح الفضل في مسعا ، ولا ينجب الجهل في مرتغاه ، ولا حول ولا قوة الا بالله .
 ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ، ويديل من هذا العسر يسراً

١٥

وكتب اليه من مصر

عزيزي الفاضل أيداه الله

لمثل أدب الشيخ الفاضل نغني الاشارة ، عن طويل العبارة . وصلت مصر
 ومثال الشيخ آخذ بجناني ، وذكره مالك لاساني ، ورجائي أن تدوم مواصلاه ،
 وتحيي النفس مراسلته ، والسلام على من يحب ، من ذوي اللب

في ١٦ صفر سنة ١٣١٠

١٦

وكتب وهو في بيروت الى من مدحه نثراً ونظماً

انت الذي ساء بك استعدادك ، وزها بك اهتمامك ، فأعدت للنثر سناءه ،
ورددت للشعر بهاءه ، فلنا المسرة بمكاتبتك ، ومنا الحمد لمبدأك . أتتني منك
فوائد مثورة ، تتبعها لآلىء منظومة ، أعلاها حسن اختراعك ، وأعلاها جودة
ابداعك ، وكنت جديراً بحمايتها ، مبهجاً بزيفها لو أدت للحق فرض خدمته ،
وظالت يدي في تأييد كلمته ، ولكنني على ميلي الى الحق لم تساعدني القدرة على
اسعاده ، ولم يسعفني الحول والقوة على انجاده ، فأين انامته ، وهذه حالي من جليل
ماوصفت ، بل من قليل ماأنزرت ، وأرجو الله أن يرشد العقول الصافية ، ويجمع
القلوب الحازمة ، ويصرفها الى فضل ماأعد لها ، فتجد أعمال ، وثبتت آمال وتبدو
آثار يحمدها الحامدون ، ويعرف قدرها العارفون ، فهناك تحقيق ماظننت ،
وتصديق ماحدثت ، إن شاء الله ، والسلام

١٧

وكتب وهو في مصر الى صديق جواباً على تنصل من هفوة بعد

كتاب شديد

لو عرضت علي نعم الله وفيها عزة الامراء ، وبزة الأغنياء ، ووفاء الاولياء ، لما
اخترت منها غير الوفاء ، واعدت نفسي به أسعد السعداء ، هذه خاتمي - تقبلها
الله - وفيها لمهجتي احياء . بهذا تعلم مادخلت من السرور علي ، فيما كتبت الي ، ولو
جمل الله الهبة شكراً أوفى بحقة منها لبذاته ، ولو قدر لها أجراً أجزل عائدة
منها نفسها لالتتمته وقدمته . نعم كنت وجهت كتابي الى شيطانك ، فلاقي
الكتاب أكرم نفس فيك ، فانصرف والحمد لله عنك الى حيث لأراه ، فاهنا
بكرم محبتك وزكا . مناك . والسلام

وكتب من يلزم الى أحد علماء الجزائر المصلحين

حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ عبد الحلیم سمايا حفظه الله

لا يزال يؤنسني مثال من علمك وفضلك ، ويعجبني رفيق رفيق من كلاك ونبلك . وما كان ذلك ليفارقي بعد أن صار بضعة مني ، ولو كشفت لك من نفسك ما كشف لي ، منها لعلمت مقدار ما آتاك الله من نعمة العقل والأدب ، ولعرفت أنك ستكون إمام قومك ، تهديهم إن شاء الله سبل الرشاد ، وتبصرهم بما يوفر عليهم الحظين : حظ المعاش وحظ المعاد . هذا هو أمني الذي أسأل الله تحقيقه . فخذ من الوسائل ما يبلغك بفضل الله غاية ما يرمي اليه استعدادك ، وأفضل ذلك فيما أرى استمرارك على مزاولة كلام البلغاء من أهل اللسان العربي . وإتمام ما سبقت لك البداءة فيه من اللسان الفرنسي ، ثم دراسة أخلاق البشر ، وما يكون له أثر في تحويلها بتدقيق يجدر به لقب التحقيق . ومن ذلك النظر في تاريخ الأمة الاسلامية ، وتنقل الدين في أطواره ، وعلل ذلك وأسبابه ، حتى يتيسر الحكم في أمراض النفوس ، وحسن اختيار الدواء الذي يناسبها . ثم التقدم إلى كل سريرة بما لا تشمئز منه ، ولا تبادر بالنفرة عنه ، وبذل الجهد في حمل المهم على طلب العلم لتستنير به البصائر في العمل ، وشحذ العزائم على الجهد في السعي والكد في كسب الرزق من وجوه الحل ، والاتفاق منه في سبل المنافع وطرق الخير ، وأن يكون ذلك كله ديدنا للداعي لا يقر عنه حتى يكثر في الناس من هو جدير بالنسبة الى رب الناس ، ولك في ذكاء ولدنا الفاضل الشيخ محمد بن مصطفى بن الخوجة ، وإخلاص حضرة صاحب الفضيلة الاستاذ مفتي الحنفية ما يساعدك على ما تقصد من نفع العامة ونصح الخاصة . وإني وإن كنت على ثقة من كمال عقلك ، ومعرفتك بما اليه حاجة المسلمين اليوم . فإني لا أجد مندوحة عن التصريح بالتحذير من النظر في سياسة الحكومة أو غيرها من الحكومات ومن الكلام في ذلك فإن هذا الموضوع كبير الخطر ، قريب الضرر ، وإنما

الناس محتاجون إلى نور العلم ، والصدق في العمل ، والجد في السعي ، حتى يعيشوا في سلام وراحة مع من يجاورهم من أهل الأئمة الأخرى ، ولا يتعاقوا من الوهم بمجال تتقطع في أيديهم متى جذبوا ، فيسقطوا والعياذ بالله فيما لا منجاة منه
 بلرم ٣٠ جمادى الآخرة سنة ١٣٢١
 محمد عبده

١٩

وكتب الى بعض علماء الشام (١) جوابا عن كتاب هناء فيه بمنصب الافتاء وهو من اللطف كتبه وفيه من الشكوى من سوء حال قومه ولا سيما الجاهدين الرسميين ومن التحدث بالنعمة ما ليس في غيره

انصفتي قومك اذ سروا يتناولي منصب الافتاء ، ولعل ذلك لشعورهم بأنني أغبر الناس على دين الله ، وأضرهم بالدفاع عن حماه ، وأدراهم بوجوه الفرص عند سئورها ، وأحذقهم في انتهازها ، لا بلاغ الحق أمله ، أو يبلغ الكتاب أجله ، على أنهم مني بحيث لا يفسد نفوسهم الحسد ، ولا يتقاذف بأهوائهم اللدد ، وكل ذي دين يشتهي أن يرى لدينه مثل ما أبحث اليه عزيزي ، واخلص في العمل لتحقيقه نيتي ، خصوصا أن كفي فيه القتال ، ولم يكاف بشد حال ، ولا بذل أموال أما قومي فابعدم عني ، أشدم قربا مني ، وما أبعدا لانصاف منهم ، يظنون بي الظنون ، بل يتربصون بي ريب المنون ، تسرع منهم في الأحكام ، وذهابا مع الاوهام : وولعا بكثرة الكلام ، وتلذذا ببلوك الملام ، أقول فلا يسمعون ، وأدعوا فلا يستجيبون واعمل فلا يهتدون وأريهم مصالحهم فلا يبصرون ، واضع أيديهم عليها فلا يحسون ، بل يفرون الى حيث يهلكون ، شأنهم الصياح والعيويل ، والصخب والتحويل حتى اذا جاء حين العمل صدق فيهم قول القائل في مثلهم لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد ليسوا من الشر في شيء ، وإن هاتا واقول : ولا من الخير

وانما مثلي فيهم مثل أخ جبهه اخوته ، او أب عمته ذريته ، أو ابن لم يمن عليه

(١) هو أرجح انه الشيخ جمال الدين القاسمي رحمهما الله تعالى

ابواه وعمومته مع حاجة الجميع اليه ، وقيام عمدم عليه ، يهدمون منافعهم بايذائه ولو شاؤا لاستبقوها باستبقائه وهو يسعى ويدأب ليطعم من يلهو ويلعب على أي أحد الله على الصبر وسعة الصدر اذا ضاق الأمر وقوة العزم وثبات الحلم وإن كنت في خوف من حلول الاجل ، قبل بلوغ الامل ، خصوصاً عند ما أرى أن العمل في أرض ميتة لو ذابت عليها السماء مطراً لما انبتت زرعاً ، ولا أطلعت شجراً أفزع لذكرى ذلك وأجزع ويكاد قلبي يتقطع ، ثم ارجع الى الله فاعلم انه مع الصابرين ، وأنه لا يضيع أجر العاملين ، فيثلج صدري ، وأمضي في جهادي الدائم ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً

ممن اشتكي ؟ لو أن ما ألقى كان من لفظ العامة ولقلقة الجاهلين لهان الامر وتيسر المخرج . ولكن البلاء كل البلاء أن اشد الناس عداوة لا أنفسهم هم أولئك المعلمون الذين يبعدون عن الدين مدعين انهم دعائه ، ويمزقون احشائه زاعمين انهم حماته ، وما منهم إلا أحد شخصين : شخص ركب هواه فاعمه ، فهو يرى الحق باطلاً ، والصواب خطأ ، وآخر غرته دنياه ، وأضله جشعه ، فران على قلبه ما يكسب ، وامتنع عليه معرفة الصدق من كثرة ما يكذب ، ولم يعد للحق الى قلبه سبيل

ليتني كنت أشكو الى الله جهل العالمين ، وحق المعلمين ، في مثل الجاهلية التي بعث النبي صلى الله عليه وسلم لمحو أحكامها ، وإزالة أيامها ، تلك جاهلية كان الضلال فيها بعيداً ، ولكن كان فهم القوم حديداً ، لذلك عند ملاح لهم ضوء الهدى ابصروه ، وعند ما قرع اسمعهم صوت الداعي اجابوه ، كان القرآن يصدع أفئدتهم ، فيلين من شدتهم ، ويفل من شرهم ، ويفجر من صخر القسوة ينايع الحنان والرحمة ، وما كان أهل المناد فيهم إلا قليلاً ، عرفوا الحق فانكروه ، وطائفة كانوا يفرون منه خوفاً أن يعرفوه ، ولو سمعوا ، لفهموا ثم لم يجدوا بداً من أن ينصروه ، وإن الجحود مع الفهم ، كاليقين في العلم ، كلاهما قليل في بني آدم .

أما اليوم فانما أشكو من قلة الفهم ، وضعف العقل ، واختلال نظام الادراك ، وفساد الشعور عند الخاصة فلا تجذبهم فصاحة ، ولا تبلغ منهم بلاغة ، وغاية ما يطلبون أن يحمدا بما لم يفعلوا ، وأن يوصفوا بالعلم وإن لم يعقلوا ، وأن تقضى حاجاتهم

إذا سألوا ، وان ترفع مكاناتهم وان تنزلوا ، وان استعداد السامع للفهم يستدر
المقال ، ويسدد الفكر للنضال في الجدال أما عيشك فيمن لا يفهم ، فانه ينضب
منك ينبوع الكلام ، ويطمس عين الفكر ، ويزهق روح العقل
جعلني الشيخ عبد الرزاق البيطار ثالث الرجلين (١) وما أنا في شيء من أمرهما ،
الا نزر من الهمة ، وكثير من معرفة قدرها

الحمد لله لا أحصي ثناء عليه ، وأشكره وأشكر نعمة مرجعها اليه ، وأذكر
من نعمه أكبر نعمة أمدني بها ، وأكرمني بأسبابها ، إحسانه إلي ، بعطف قلب
الاستاذ علي ، وتقريبي من فؤاده ، وإحلالي مكانا من وداده ، كرمت نفس
الاستاذ فكرم فيه مثالي ، وكلت سجاياه فتخيل منها كلي . نسب إلي الشيخ
الجليل شووناً كلها من سرائره ، وألبسني من الاوصاف ثوباً نسجته يد مظاهره .
جعل لي السيد من حسن ظنه معيناً . وأفادني بثقته ركناً ركيناً ، وسنداً أميناً .
فأسأل الله تحقيق ظنونيه ، وأن يمدني دائماً بدقائق فنونه ، وأن ينصرني بولائه ،
وأن يسلكني في عقد أوليائه ، والسلام

٢٠

وكتب من مصر الى مولاي عبدالعزيز سلطان المغرب الاقصى ما ياتي

وصل إلى أسماعنا ، ونحن في ديارنا ، أبناء ماوجه اليه هم ، وشحد لبوغه
عزمه ، من النهوض بيلاده الى الاصلاح ، والسير بها في منهج الفوز والفلاح ،
وتلونا ما نشر من أوامره الكريمة ، ووعينا ما تضمنته من القواعد القويمة .
فتجددت في سلامة تلك البلاد آمالنا . واشتغلت بأحاديثها أفكارنا وأقوالنا ،
ولما كان الاصلاح الذي يقصده المولى ، إنما يتم برعاية الدين والرجوع اليه في
كتابه المبين ، وسنة صاحبه الأمين . ثم النظر في أقوال وأعمال السلف الصالحين
لتعرض على ذلك كله أعمال الخلف المحدثين . تعلقنا الآمال بأن يكون لمولانا
لفتة الى العلوم الدينية وإحياء مامات منها ، ونشر ما طوي من كتبها لتأدب

(١) يريد شيخني الاسلام ابن تيمية وابن القيم

النفوس بأدبها ، وتحبي القلوب اذا اتصلت أسبابها بسببها . فتقة هذه المقاصد الجليلة ألهمني الله أن أعرض على حضر تكم الطلية . أنه قد تألفت في مصر جمعية لاحياء العلوم العربية وخاصة عملها أن تبحث عما كاد يفقد من كتب السلف فتصحح نسخه وتطبعه حتى يحيا بذلك ما ندرس من علوم الاواين واحتجب عنا بمحدثات المتأخرين ، وقد عنيت هذه الجمعية بطبع كتاب علي ابن سيده الاندلسي في اللغة المسمى بالمخصص ، وسيتم عن قريب ، وهي الآن تبحث عن نسخ مدونة الامام مالك ، حتى تحصل لها نسخة صحيحة ، ثم تطبع هذا الكتاب الجليل ، وقد وجدت من هذا الكتاب قطع في مصر ، وقطع أخرى في تونس ، وصارت هذه القطع في أيدي الجمعية ، ولكن لم توجد الى الآن نسخة كاملة يوثق بصحتها وقد تأكد للفقير ان نسخة كاملة لكتاب وجد في جامع القرويين . ويسهل على فضل مولانا السلطان أيده الله وأيد به الدين ، أن يدنا في عمانا ، ويعيننا على ما نبتغي من الخير ، باصدار أمره الكريم أن ترسل اليها هذه النسخة ، إما بتامها لتقابل عليها ما عندنا وتم منها ما ينقص نسخنا ، ونعيدها اليه ، ونهدي الجامع عشر نسخ من الكتاب عند نهاية طبعه إن شاء الله تعالى . وإما مفرقة جزءاً بعد جزء ، فكلما انتهى الغرض من جزء أرسل الى مقره . وفي كلا الحالين ستقوم لمقامكم السلطاني بما يجب من الشكر على هذا الالتفات السامي الذي سنراه كأن الله حققه . ونسأل الله أن يؤيد بكم ملته ، وينصر بعزمكم شريعته

﴿ يقول جامع الكتاب ﴾ ليتأمل الناظر كيف أن الامام لم ينسب الى نفسه عملا ما في الجمعية وهو رثيسها وأكبر مؤسسها ، وذلك دأبه في كل عمل للامة ، وخدمة لامة

وكتب بذلك أيضاً الى مولاي إدريس بن مولاي عبد الهادي
قاضي القضاة والمدرس بجامع القرويين بفاس

بسم الله والحمد لله وتعالى

حضرة الاستاذ الفاضل، العلامة العالم الكامل، مولاي إدريس ابن مولاي
عبد الهادي قاضي القضاة حفظه الله

بلغنا من كمالكم، وكرم أخلاقكم، وميلكم الى نفع العامة من المسلمين،
وإيصال الفوائد إلى خاصتهم، ما جرأنا على مراسلتكم على غير معرفة سابقة،
والتوسل بكم في الوصول الى ما يرجي ثواب السعي فيه إن شاء الله

نشركم أن في مصر من أهل الفضل من وقفهم الله لنشر ما أماته الاهمال
من آثار سلف الأمة، ودواوين علومهم. وقد كانت باكورة أعمالهم طبع كتاب
الخصص في اللغة للإمام الجليل علي ابن سيده النحوي، أشدة الحاجة اليه،
ولاشراف نسخه على العلم، والأمنحاه من الوجود. وبعد أن بلغ الطبع معظم
الكتاب، رأى أوائك الفضلاء أن يبحثوا عن كتاب آخر من أمهات العلوم.
فرأوا من أفضل الامهات، وأحقها بالعناية، وأشدّها تعرضاً للضياع، والاختفاء
من الديار الاسلامية (مدوّنة الامام مالك) فأخذوا يبحثون عن نسخها فتحقق
ظهم في تعرضها للضياع، لأنهم لم يجدوا نسخة كاملة في الديار المصرية، ولا في
الديار التونسية وحملهم ذلك على الجد في الطلب والبحث في زوايا المساجد
لعلمهم يعتبرون على ما يتم لهم نسخة صحيحة فهم كذلك إذ بلغهم أن في مسجد
القرويين بمدينة فاس نسخة من الكتاب كاملة. فحملني الحرص على الوصول الى
تلك النسخة على أن رفعت عريضة رجاء الى مولانا السلطان العظيم مولاي
عبد العزيز ليأمر بإرسال النسخة إما جملة وإما جزءاً جزءاً. وعلينا بعد طبع
الكتاب أن نرسل منه عشر نسخ الى جامع القرويين
بعد أن ارسلت العريضة حضر عندي من تفضل علي بذكر صفاتكم

الجميلة ، وسجايابكم الفاضلة . وأكدي أن حضر تكم تكون عوننا على ما أطلب ، لهذا بادرت بتحرير هذا الرقيم اليكم ، راجياً من همتكم أن تساعدوني في الوصول إلى تلك النسخة ، أو غيرها من نسخ المدونة ، ولك علينا أن نعيدها كما أخذناها ثم نرسل عشر نسخ مطبوعة ، إما للجامع القرويين ، أو لمن يتفضل بإرسال نسخة البناء مع الشكر الخالص والدعاء الدائم إن شاء الله

٢٢

وكتب من مصر الى الفيلسوف تولستوي الروسي عندما حرم من الكنيسة الروسية

أيها الحكيم الجليل مسيو تولستوي

لم يحظ بمعرفة شخصك ، ولكننا لم نحرم التعارف مع روحك ، سطع علينا نور من أفكارك ، وأشرقت في آفاقنا شمس من آرائك ، ألفت بين نفوس العقلاء ونفسك . هداك الله إلى معرفة سرّ الفطرة ، التي فطر الناس عليها ، ووقفك على الغاية التي هدى البشر إليها . فأدركت أن الانسان جاء إلى هذا الوجود لينبت بالعلم ، ويثمر بالعمل . ولأن تكون ثمرة تعباً ترتاح به نفسه ، وسعيّاً يبقى به ويربى جنسه ، وشعرت بالشفقة الذي نزل بالناس لما انحرفوا عن سنة الفطرة ، وبما استعمالوا قوام التي لم يمنحوها إلا ليسعدوا بها . فيما كدي راحتهم ، وزرع طمأنينتهم

ونظرت نظرة في الدين مرقت حجب التقاليد ، ووصلت بها الى حقيقة التوحيد ورفعت صوتك تدعو الناس الى ما هداك الله اليه وتقدمت أمامهم بالعمل لتحمل نفوسهم عليه فكما كنت بقولك هاديا للعقول كنت بملك حاثا للعزائم والهمم ، وكما كانت آراؤك ضياء يهتدي بها الضالون ، كان مثالك في العمل إماما يقتدي به المسترشدون وكما كان وجودك توييحاً من الله الأغنياء كان مدداً من عناية للضعفاء والفقراء وان أرفع مجد بلغته وأكبر جزاء نلته على متاعبك في النصيح والارشاد هو هذا الذي سماء الغافلون بالحرمان والابعاد فليس ما حصل

لك من رؤساء الدين سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس انك لست من القوم
الضالين فاحمد الله على ان فارقواك في أقوالهم كما كنت فارقتهم في عقائدهم وأعمالهم
هذا وإن نفوسنا لشيقة الى مايتجدد من آثار قلمك فيما تستقبل من أيام
عمرك وانا نسأل الله أن يمد في حياتك ويحفظ عليك قواك ويفتح أبواب القلوب
لهم قولك ويسوق النفوس الى التأسى بك في عمالك والسلام

٢٣

وكتب اليه أيضا

أيها الروح الزكي ، صدرت من المقام العلي ، إلى العالم الأرضي ، وتجدت
فيما سموه بتولستوي ، قوي فيك اتصال روحك بمبدئه ، فلم تشفلك حاجات
جسدك ، عما تسمو اليه نفسك ، ولم تصب بما أصيب به الجمهور الأعظم من الناس
من نسيان ما فصلوا عنه من عالم النور ، فكنت لانزال تنظر اليه النظرة بعد النظرة ،
وترجع اليه البصر الكرة بعد الكرة ، فوقفت بذلك على سر الفطرة ، وأدركت ان
الانسان خلق ليتعلم فيعلم فيعمل ولم يخلق ليجهل ويكسل ويهمل

٢٤

وكتب الى محمد بك صالح (١) لما رقي الى قاض من الدرجة الثالثة

ولدي النقيب

أنت تعلم ما مازج قلبي من السرور بترقيتك وليس عندي من عبارة تفني
بما تعلم من ذلك وهذا إن شاء الله أول سلم ترقى به الى غاية مايسري اليه
استعدادك والسلام

سنة ١٨٩٣

(١) هو المرحوم محمد باشا صالح المشهور الذي توفي من عهد قريب ، وقد
ارتقى في سلم القضاء الاهلي الى أعلى درجاته كما بشره فصار مستشارا في محكمة
الاستئناف وهو من تلاميذه في الرعييل الاول من طلبة دار السلام وقد سألته
مرارعا عن آتالي الاستاذ التي أملاها عليهم عند قراءته لهم مقدمه ابن خلدون في فلسفه
التاريخ وسنن الاجتماع والعمران فقال انه كان يحفظه سوداها ووعدي بالبحث عنها
في أوراقه في البلد عند المامه بها والظاهر انه كان ينسى

٢٥

وكتب من مصر إلى بعض الاصدقاء الفضلاء

تناولت كتابك ولم يذكر مني ناسياً، ولم ينبه لذكرك لاهياء، فأني من يوم عرفتك لم يرغب عني مثالك، ولا تزال تتمثل لي خلاك ولو كشف لك من نفسك ما كشف منها لغنت بها ولحق لك ان تنبه بها على الناس أجمعين، ولكن ستر الله عنك منها، خير ما أودعك فيها، لتزينها بالتواضع وتجميلها بالوداعة، ولتسعى الى ما لم يبلغه ساع، فتكون قدوة لخواصك في علو الهمة، وبذل ما يعز على النفس في نفع الامة، زادك الله من نعمه، وأوسع لك من فضله وكرمه، ومتعني بصدق ولائك، وجعلك لي عوناً على الحق الذي ادعوا اليه، ولا أحياء الابنه وله، والسلام

٢٦

وكتب أخيراً من مصر الى الشيخ عبد الرزاق البيطار، أوحده
صلاه سوريه الابراز، جواباً

مولانا الاستاذ العلامة نفعنا الله بحبه

وصل الي كتابك، تسطع فيه آدابك، ويفيض منه العقل، ويفضي منه الاخلاص والصدق، وما أعظم فضل الله علي في توجه عنايتك الي تعين (علي) إظهار الحق بعد خيفائه، وهدم الباطل بعد شموخ بنائه، ولقد أوسع مولانا في التفضل على العاجز عن شكره، المقيم على نشر فضله وإعلاء ذكره، وأسأل الله أن يتكفل بانابة مولانا الاستاذ علي ما يعمر نانه من نعمة الخطور بيناه، وجرمان ذكرنا فيما يحيط قلنه أو ينطق لسانه

(٧٩ - تاريخ الاستاذ الامام - الجزء الثاني)

٢٧

وكتب منها الى عالم الشام العامل المصلح الشيخ جمال الدين القاسمي

حضرة الاستاذ

كأن القدر يريد أن يكون ما بيني وبينك سراً مكتوماً، ومضمراً يأبى أن يكون مرقوماً، فقد حاولت مئين من المرات أن أكتب اليك، وكانت تأتي العوائق فتحول دون ذلك، كأنني كنت أحاول فتح قلعة، أو محو بدعة، وهما أنا اليوم (الجمعة) عقدت العزم على أن لا أقوم من مجلسي هذا حتى أكتب اليك أشكر لك صنيعك على ما تدخله علي من السرور بإيفاد كتبك علي بما تكتب الي من وقت الي آخر، واعتذر اليك في الابطاء عن الجواب بما تعلم من كثرة الشواغل، وأرجو أن لا تحرمني من ذلك الفضل الذي بدأت به، وان لا يجعل لفضلك في ذلك نهاية، والسلام

٢٨

وكتب منها الي الزايفة الشهير الاستاذ السيد عبد الحميد الزهراوي

بمحص جواباً

ولدنا الفاضل

تمنيت لو تمتعت بقربك، كما قدر لي المتاع بأدبك، ولكن أحمد الله الذي يرينا ما نختار، في غير ما يقع عليه الاختيار، فأنت حيث أنت أنفع ما تكون لقومك، تجعل لهم حظام من عمل يومك، ترحح عن أبصارهم حجب الغفلة، وتعظم بما أوتيت من الحكمة، ونهيء نفوسهم لقبول الحق إذا أقبل، وتعددها لمدافعة الباطل إذا أظل، واسأل الله أن يشد أزرك، ويخفف من ذلك وزرك، ويرفع بملك قدرك، وأما صلتنا بك فصلة آمال وأعمال، وهي خير صلة وأوقعها عند الرجال، بارك الله لك في أيامك، ورزقك الخير والسعادة في أعوامك، والسلام

٢٩

وكتب من مصر إلي فرح افندي أنطون صاحب مجلة الجامعة
جوابا عن كتاب منه يقول فيه انه احتقره *

لو احتقرتك ما كتبت اليك كلمة وانك سيء الظن بنفسك ، أكثر مما
يسينه بك غيرك ، وكنت أود لو كنت لنفسك أفضل مما أنت لها اليوم ولكن:
اللهم عرفنا بأقدار أنفسنا فذلك اللهم أنفس ما تعطي وأفضل ما تهب ، والسلام
١٧ أكتوبر سنة ١٩٠٣

٣٠

وكتب الى الشيخ مصطفى نجل صديقه حسن باشا عبدالرازق ماباتي
ومنه يعلم سببه

ولدا الاديب

خير الكلام ماوافق حالا ، وحوى من النفس مثالا ، تلك آياتك العشرة
رأيتني والحمد لله متربعا في سبعة منها كأنها الكواكب تسكنها الملائكة وما بقي
كانه الشهب ، نور للاحباء ، رجوم للاشقياء ، ماسرت بشيء سروري بانك شعرت
من علم حدائتك بما لم يشعر به الكبار من قومك ، فله أنت والله أبوك ، ولو أذن
لوالد أن يقابل وجه ولده بالمدح لسقت اليك من الثناء ما يملأ عليك الفضاء ،
ولكني اكتفى بالاخلاص في الدعاء ان يمتعني الله من نهايتك بما تفرسته في
بدايتك وأن يخلص للحق شرك ويقدرك على الهداية اليه ، وينشط بنفسك لجمع
قومك عايه ، والسلام

(* كان فرح افندي عصيبا سيء الظن يظن السوء فيخال ظنه واقعا واسوء
ظنه بالاستاذ وبني قصة غريبة تطلب من الجزء الاول من هذا التاريخ

٣١

وكتب من مصر الى محمد بك نجيب بكار جوابا

ولدنا الفاضل

أشكرك لما كتبت اليّ أولا ولما كتبت وأهديت ثانيا وأحمد الله على نعمته الجديدة في معرفتك، وفضله العظيم في إخلاص مودتك. وأسأله أن يجعل ذلك كله في سبيله وأن يجعل عمره خيرا للإسلام والمسلمين والسلام.

نورج مه كته لواقعي الكنب النافعة ومنر جهيها

٣٢

كتب الى من ألف كتابا نافعا لا أتذكر من هو ولا ماهو كتابه

حضرة الفاضل المحترم

أبأت في اجابتك، وقصرت في الاسراع بشركك، لما أتخفت به أهل لغتك من ذلك الكتاب الذي تجلي فيه ذكاؤك واعتدال رأيك في أحسن صورة، لم تفنك فيه فضيلة الابداع، ولم تحرم من حسن الاتباع، اقتفيت أثر سلفك من تجويد الرأي واحترام مقام العقل، فلم يهبط بك التقليد إلى ما يحبط بالعمل ويسقط من قيمة الكد في الجد، ثم أبدعت في ترتيب كتابك على ما هو أقرب للفهم، وأدنى إلى التقرب من حقيقة العلم، وكأني بك قد وقفت على ذلك السر الذي خفي عن الجمهور الأعظم ممن سبقك، وهو أن القرآن قد خط للعرب طرقا للتعبير، ومهد لهم سبلا جديدة لصوغ الأساليب، ليخرج بهم من ضيق ما كانوا التزاموه، ويبعدك منهم عن تكاف كانوا رتموه، ولهذا قوي عندك كل ما بني عليه، وضعف لديك كل ما لم يستند اليه، جزاك الله عن نفسك خيرا ما يجزي به عامل عن عمله، وجزاك عن أهل لغتك خيرا ما يجزي به محسن عن احسانه، والسلام.

وكتب الى سليمان أفندي البستاني مؤلف دائرة المعارف ومترجم
الايادة كتابا قريء في الحملة التي أقامها له فضلاء السوريين في القاهرة

عزيزي الفاضل سليمان افندي البستاني

دعاني أصدقاؤك وأصدقاؤي الى الانس بك ساعة تهنتك بالنجاح في ذلك
العمل الأدبي الذي كلفت بابداعه عدة من السنين ، دعوني الى الاشتراك معهم
في شركك لما دأبت في السعي، وأخذت نفسك بالصبر على مشقة البحث والعناء
في اختبار مسالك النظم ، تهدي الى أبناء لغتك العربية ، من أحاسن الصناعة
الأدبية ما يعد زينة للناظرين

و كنت أكون أسرع الناس الى إجابة الدعوة لولا مانع ذنبه إلي ذنب العاذل
الى عاشق الحسان ، منغني الانس بهم وبك ، ولكنه لم يمنعني أن أشار كم في شركك
تمت لك ترجمة الايادة لناطقة شعراء اليونان هيروس المشهور نسجت
قريحتك ديباجة ذلك الكتاب كتاب الترجمة ، فاذ هو ميدان غزت فيه لغتنا
العربية ضريعها اليونانية . فسبت خرائدها ، وغنمت فرائدها ، وعادت اليانفي
حلل من آدابها . تحمل الى الألباب قوتاً من لبابها ، وما أجل ذلك الغلب ، في
زمن ضعف فيه العرب ، حتى عن الزغب في نيل الأدب ، ما ينال منه عن كتب
فضلا عما يكسب بالتعب . فحق لك الشكر على كل من يعرف قيمة ما وقفت لأكاله
من العمل . فقد سددت به ثلثة كانت في بنية العلم العربي من عشرة قرون

أغار قومنا على دفاثن الفنون اليونانية في القرن الثالث من الهجرة وما بعده
فثروا منها ما كان مخزوناً ، ونشروا بين الناس ما كان مدفوناً . ولم يدعوا غامضاً إلا
جلوه ، ولا بعيداً إلا قربه ، ونالت اللغة العربية بصنيعهم ذلك ما لم يكن في حسابها
فقد صارت لسان العلم والصنعة ، كما كانت لسان الدين والحكمة

لكن كان أولئك الأساطين الأولين كانوا يرون أن ذلك ما يفرضه الحق
عابهم في جانب العلم الذي لا يختلف فيه مشرق عن مغرب ، ولا يتخالف علي

حقائقه الأعجم والمغرب . وظنوا أن ما وراء العلم من آداب القوم ليس مما يتناسب مع آدابهم ، لبعدهما بين أنساب أولئك وأنسابهم . فلم يمدوا نظرهم إلى ما كان في اليونانية من دواوين الشعراء ، وما صاغته قرائح البلاغاء ، فلم تنال اليونانية من عنايتهم ما نالت الفارسية والهندية . وكان مؤهل اللغة منهم أن لا يجرموها نفائس ما اخترع اليونانيون ، كما زينوها بزينة ما أبدع الهنديون والفارسيون . وبقي ذلك المؤمل في غيب الدهر ، حتى أتيت ترفع عنه الستر . وجئت تقول للناس إنني أعم في دولة عباس ، مانقص في ملك بني العباس . فما أقر عين العربية بنيل طلبتها ، وظهور ما كان منتظراً أشيبتها . أرجو أن ينال كتابك من الاقبال عليه ، والانتفاع به ، ما يكفي ، تعبك ، ويبعث هم العامرين على أن يتبعك ، والسلام

٣٤

لما ترجم محمد حافظك ابراهيم الجزء الاول من كتاب (البؤساء)
بالعربية أهدها اليه بهذا الكتاب

إلى الاستاذ الامام

إنك موئل البأس ، ومرجع اليأس ، وهذا الكتاب — أيديك الله — قد ألم بعيش البائسين ، وحياة اليائسين . وضعه صاحبه تذكراً لولاة الأمور ، وسماه كتاب (البؤساء) وجعله بيتاً لهذه الكلمة الجامعة ، وتلك الحكمة البالغة (الرحمة فوق العدل) وقد عنيت بتعريبه ، لما بين عيشي وعيش أولئك البؤساء من صلة النسب ، وتصرفت فيه بعض التصرف ، واختصرت بعض الاختصار . ورأيت أن أرفعه إلى مقامك الأسنى ، ورأيك الأعلى ، لأجمع في ذلك بين خلال ثلاث (أولها) التيمن باسمك والتشرف بالانتماء اليك (وثانيها) ارتياح النفس وسرور اليراع برفع ذلك الكتاب الى الرجل الذي يعرف مهر الكلام ، ومقدار كد الأفهام (وثالثها) امتداد الصلة بين الحكمة الغربية والحكمة الشرقية باهداء ما وضعه حكيم المغرب الى حكيم المشرق

فليتقدم سيدي إلى فتاه بقبوله والله المستول أن يحفظه للدنيا والدين . وأن يساعدي على إتمام تعريبه للقارئين . . . اه
 قدم محمد حافظ هذا الكتاب الى الاستاذ الامام ونحن جلوس معه في حديقة داره بعين شمس مساء يوم من الأيام فأخذه منه بعد أن قرأه علينا وءليه ودخل الدار فكث فيها قليلاً ثم عاد الينا وقال : اتني عصرت دماغي على ما به من جناف الكلال فخرج منه هذه الكلمات : - وأعطى حافظا ورقة قرأ فيها :

تفريظ كتاب البؤساء

لو كان بي أن أشكرك لظن بالفت في تحسينه ، أو أحمك لرأي لك فينا أبدعت في تزيينه لكان لقلبي مطمع أن يدنو من الوفاء بما بوجه حقاك ، ويجري في الشكر إلى الغاية مما يطلبه فضلك ، لكنك لم تقف بعرفك عندنا ، بل عمدت به من حولنا ، وبسطته على القريب والبعيد من أبناء لغتنا زفقت إلى أهل اللغة العربية ، عذراء من بنات الحكمة العربية ، سحرت قومها ، وملكيت فيهم يومها . ولا تزال تنبه منهم خامداً ، وتمز فيهم جامداً ، بل لا تنفك تحيي من قلوبهم ما أماتته القسوة ، وتقوّم من نفوسهم ما أعوزت فيه الأسوة . حكمة أفاضها الله على رجل منهم . فهدى إلى التقاطها رجلا منا . فجردها من ثوبها الغريب ، وكساها حلة من نسج الأديب ، وجلاها للناظر ، وحلاها للطالب ، بعد ما أصلح من خلقها وزان من معارفها ، ^(١) حتى ظهرت محببة إلى القلوب ، شيقة الى مؤانسة البصائر ، تهش للفهم ، وتبش للطف الذوق ، وتسابق الفكر إلى مواطن العلم . فلا يكاد يلحظها الوهم الأوهي في النفس مكان الالهام حاول قوم من قبلك أن يبلغوا من ترجمة الاعجم مبلغك . فوقف العجز بأغلبهم عند مبتدأ الطريق . ووصل منهم فريق إلى ما يجب من مقصده ولكنه لم يعن بأن يعيد إلى اللغة العربية ما فقدت من أساليبها ، ويرد اليها ما سلبه

(١) معارف من وجه الانسان ما يعرف به ويمتاز من غيره كالعينين والملاغم

المعتدون عليها من مائة التأليف وحسن الصياغة وارتفاع البيان فيها الى أعلى مراتبه ، أما أنت فقد وفيت من ذلك مالا غاية لمزيد بعده ، ولا مطمع لطالب أن يبلغ حده . ولو كنت ممن يقول بالتناسخ لذهبت إلى أن روح ابن المقفع كانت من طيبات الأرواح . فظهرت لك اليوم في صورة ابدع ، ومعنى أنفع ، ولعلك قد سنتت بطريقتك في التعريب سنة يعمل عليها من بمحاولة من ظهور كتابك ، ومحملها الزمان الى أبناء ما يستقبل منه ، فتكون قد أحسنت الى الأبناء ، كما أجملت الصنع مع الآباء ، وحكمت للغة العربية أن لا يدخلها بعد من معجزة سوى ما هو في الأسماء ، أسماء الأماكن والأشخاص ، لأسماء المعاني والاجناس ، ومثلي من يعرف قدر الاحسان إذا عم ، ويعلي مكان المعروف اذا شمل ، ويتمثل في رأيه بقول الحكيم العربي :

ولو آني حبيت الخلد فرداً لما أحببت بالخلد انفراداً

فلا هطلت علي ولا بأرضي سحائب ليس تنظم البلادا

فما أعجز قلبي عن الشكر لك ، وما أحقك بأن ترضى من الوفاء بالفاء (١)

تقول : إن الذي وصل سببك بسبب صاحب الكتاب ، ووقف بك على دقائق من معانيه اشتراكك معه في البؤس ، ونزولك منزلته من سوء الحال ، وربما كان فيما تقول شيء من الحقيقة ، فان كان البؤس قد هبط على صاحبه بتلك الحكمة ، ثم كان سبباً في امتيازك من بين المترفين بتلك النعمة ، سألت الله أن يزيد وفرك من هذا البؤس حتى يتم الكتاب على نحو ما ابتداء ، وأن يجعلك في بؤسك أغنى من أهل التراء في نعيمهم ، والسلام

(١) الفاء بالفتح التليل الذي هو دون الحق

تفريظ تشطير البردة وقصيرة تقرأ على وجه كبرية

رفع إلى الاستاذ الامام تشطير البردة من شاعر ضعيف وقصيدة تقرأ على وجه تعد بالملئات أو الالوف وقد قرظها له بعض كبار العلماء ومنهم الشيخ حسن الطويل وسأله أن يقرظها له فامتنع فاستشفع عليه بمن يعز عليه رد شفاعته فكتب له تقریظا عجیبا له كيف نشره وهو ليس عندي بنصه ولكني أحفظ منه قوله :
اما التشطير فيكاد غير العارف بمكانة الأصل بحسبه مع التشطير من ينبوع واحد! وأما القصيدة التي تفوق أمثالها بكثرة الوجوه التي تتجلى لقارئها فهي من مخترعات القرائح الذكية (أي ليس لهذا الاختراع بل هو مسبق اليه وهذا صحيح)
(ثم قال الاستاذ) واذا ساق الجد حضرة الاديب المشطر في الاشتغال رأينا من قلمه ما تتغذى به العقول وتستنير به الافئدة ! الخ

نموذج من كتب في التعازي

١

كتب وهو في سورية الى أحد أصدقائه الكبراء معزيا

ان كان للحادثات غالب من الهمة ودافع من العزيمة ، ففي همتكم ما يعرك
أذن الدهر ويضرب ناصية الزمان ، وانما انتم بمكان من منعة النفس ، تمر الملمات
دون ادناء ، تهيب النظر اليه ، فضلا عن الوثبة عليه ، فلا يفزعكم جائئها ، ولا
يستفزكم طائشها ، هذا الذي يعزيني بعض التعزية اذا طاف علي طائف الكدر
مما ألمَّ بكم من فقد صاحبة العصمة عقيلتكم . على أن يقينكم بالله وتسلمكم لقدره
هو أعلى واكمل من أن يخالطه جزع من الفراق ، وإن كان مرَّ المذاق ، فان من
سار عنكم اقبل على رحمة من الله ورضوان ، فهو في جوار ربه ، متمتع بلذة قربه ،
وإن له لفخرأ بين السابقين ، ورفعة بين المقربين ، بما أسستم من مجد شامخ ،
(٨٠ - تاريخ الاستاذ الامام - الجزء الثاني)

وشرف باذخ ، فضاعف له النعمة في حياته الأبدية : جنة بالصالحات ، وبهجة بالمباقيات . ولقد اختار واختار الله له داراً لو خیر بین ساعة فيها والتخليد في هذه الدار الفانية ، لفضل ذلك اليسير على هذا الكثير . نعم يأسف لما أسفتم . ويألم بما ألمتم . فعزوا أنفسكم تسروه ، وطيبوا بالقضاء نفساً تفرحوه . واذكروا منزلته في الصديقين تغبطوه

هذا ما أقدمه اليكم ، وهو نزر مما تطويه معارفكم ، غير انه مما اتاجي به نفسي تصبراً ، واحدها به تجلداً ، والله اعلم بما شعر به وجداني عندما بلغ إلي الخبر ، ولقد كان من الغرض ، ان أبادر بعرض إحساسي قبل هذا الوقت ، الا أن عقايل العلة كانت تمنعني النظر في الاخبار ، حتى انتشع غني حجابها من مدة قريبة ، وما أنا بالناسي ، وإن أنست الحوادث ذكرى ، وما أنا بالقاطع ، وإن زينت الأيام هجري ، فصبر جميل ، وما الغفو عن تقصيري عليكم بعزير ، وما مولى عرض بحياتي على مقام دولة الباشا ، والله يحفظكم المحبة ويقيمكم للشرف ما

٢

وكتب منها معزياً عن الامير عبد القادر الجزائري الشهير ، وكانت صلة المودة بينهما محكمة العري كما أشير اليه في بعض المكتوبات الاصلاحية
أعلام السيادة وأصحاب السعادة حضرة سعادتو الامير محمد باشا وحضرة سعادتو الامير محيي الدين باشا

هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون * ألا الى الله تصير الأمور * « انما الصبر عند الصدمة الأولى » اليوم غشيتني غاشية الغم ، ودهمتني داهية الهم ، اليوم بلغنا ما أصابنا وأصاب المسلمين ، ولم يخص الاقربين حتى عم جميع الموحدين ، ولم يمس ذوي الارحام ، حتى زرع مجد الإسلام ، اليوم شاع على الألسن ، وتحدث الكفاة أن جناب الامير الشهير ، صرف نظره العالي عن مظاهر الحياة الدنيا ، واستقبل بتمام وجهه ملكوت ربه الأعلى ، سار بروحه الشريفة عن عالم الفناء ، الى ما أعد له من منازل الكرامة في دار البقاء ، قد اختار لنفسه ما اختاره الله له من الاختصاص

بجواره الكريم ، والانصال بنور وجهه العظيم ، نظر الله الينا بعين الجبروت ، ليصعد
 بجناب الأمير إلى أعلى الملكوت ، سار الأمير الى ربه ، وترك المؤمنين بلا قيم عليهم ،
 ولا وصي يعيد مجددم اليهم ، ولولا اليتيم بأنكم اشباله ، ولم تفتكم مزاياه وخلاله ،
 لما تعزت الأنفس في البقاء بعده ، وللاحقنا به اختياراً لما عنده ، كل قول يقال فهو
 دون محيط الفكر والنظر ، ومقام الأمير أجل من أن تصل الى مرادقائه أشعة
 البصائر والفكر ، وليس من كلمة أجمع لكلماته ، ولا قول أوفى بفضائله ، سوى أنه
 ﴿ الأمير عبدالقادر الجزائري ﴾ فهي منتهى وصف الواصفين : وغاية مدح المادحين ،
 وكفى في مصيبة أهل الايمان ان يقال : أصبحوا بلا أمير ، وحسبهم تعزية عن
 مصابهم انكم بنوه ، وورثة فضله ومعزوه

٢

وكتب منها الى بعض أصدقائه الكرام معزيا عن كريمته

بسم الله المحمود في السراء والضراء

هذا ملوعد الرحمن وصدق المرسلون * كل شيء هالك الا وجهه له الحكم

واليه ترجعون *

لاحياة في القضا ، ولا انجح في تلطيفه من الرضا ، وإن في قوة ايمانك ،
 وسطوع يقينك ، وكال عقلك ، لكفاية في الانابة الى الله تعالى ، والرغبة فيما لديه
 من عظيم الأجر وجزيل الثواب ، والتطامن لأحكامه بقلب شاكرك ، ولسان ذاكرك ،
 وإن مصيبة القمذ وإن جل خطبها ، وعظم على النفس خطرها ، إلا أن الله تعالى
 أعد عنده للصابرين أكرم المنازل ، وأرقى مراتب القرب لديه ، وكفى بالصبر
 فضلا أن يخص صاحبه بما اختص به النبيون والملائكة المقربون ، يقول الله تعالى
 (وبشر الصابرين الذين إذا أصابهم مصيبة قالوا إنا لله وانا اليه راجعون * أولئك
 عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم البردون) والموت سبيل تراحم عليه
 السابقون واللاحقون ، ومورد ينهل منه الخلائق أجمعون

وما الدهر والأيام الا كما ترى رزية جر أو فراق حبيب

ولقد كان حضرتكم في غنى عن تعزية الأحياء ، وتسلية الأصدقاء ، بما آتاكم الله من عزم يصدع حوادث الأيام ، وثبات يهزم غوائل الزمان ، وكان يمنعنا الحياء ان نذكر سيادتكم بما أنتم به أعلم ، وان تقدم اليكم ما هو لديكم أعلى وارفع ، لكن هذه كلمات نسلي بها خواطرننا على ما ألم بهامن الاشرالثفي هذا القضاء الذي امتحن الله به صبرنا وصبركم ، وابتلئ به ايماننا وايمانكم (ليلوكم أيكم احسن عملا) ونسأل الله تعالى أن يجعل لكم من مثوبته عوضاً عما أخذ منكم ، وأن يفرغ عليكم الصبر ، وأن يدر غيث الرحمة والرضوان على فقيدتكم الكريمة ، وأن يرفع مقامها في اعلى عليين ، وان يطيل بقاءكم ، ويديم عزكم ومجدكم ، وعليكم مني مزيد السلام ، وإلى جنابكم الرفيع فائق الاحترام

٤

وكتب الى الشيخ ابراهيم اليازجي مغزياً عن أخيه الشيخ خليل

جناب الشيخ الاروع ، والبلغ الابرع ، أيده الله
لو كانت بالدهر فنة لكانت لا بنائه ، ولو حفظ له جوار لصيح لملفائه ،
من درجوا على سننه ، وأخذوا باحكام سننه ، وله فيهم كل يوم غدره ، وليشيه
عليهم كل آن كره ، فكيف يرجى لمن نابذته طباعهم ، وخالفت أوضاعه أوضاعهم ،
فهو يتقلب وأرواحهم في الفضل ثابتة ، ويتغشمر ونفوسهم للحق مخبئة ، فالفضلاء
- وأنت وسطهم - لا يزالون معه في حرب دائمة ، والعرفاء - وأنت هامتهم -
في مقارعات معه متفافة ، لكنهم يرون له انكى من نكاياته ، التدرع بالصبر في
ملاقاه ، ورد وثباته ، بسكون الجنان وثباته ، ولست أذكر الشيخ بمثل ما قال ارسطو
« ما أشد ظلم الناس ! يستقبلون القادم الدنيا بالفرح والسرور ، ويتبعون الراحل
عنها بدعاء الويل والثبور ، ولو انصفوا في أمرهم ، لعكسوا في حكمهم » وإن
مصيبة الراحل عنا عظيمة ، ورزيفة اليأس من لقائه جسيمة ، وحرماننا من آدابه
يذهب بالنفس حسرات ، وخلو وطنه من مثله يذيب القلوب الواجدات ،
ولكن سثم العناء وداره ، وكره البائل وجواره ، فاستقبل وجه البقاء ، وخلص الى

ماله النجاء ، فما الحياة ؟ التصبر ، أجل من التمسر ، والجأء ، أجدر بنا من الكمد .
 وإني وإن وجهت الخطاب اليك ، لم أقصر الوصية عليك . فلي نفس تشارك نفسك ،
 وحس يشاطر حسك . وهذا حديث نفسي أنشئه . وما بخالج صدري أبته . وإن
 العناية بالراحل عنا في تربية ولده خير لديه وأوفى بحقه من مطاوعة الاسف لفقده ،
 وأنتم موضع الرجاء لخلفه . كما كنتم منتهى المجد لسلفه . وأسأل الله لكم حسن
 العزاء ، وصرف البأساء ، واقبال النعماء

٥

وكتب منها أيضاً جواباً عن تعزية

لم يلاقنا الدهر إلا بما أفناه ، وما أنكرنا عليه شيئاً عرفناه ، وقد جبل الله
 هذه الحياة من الشوب ، وأقام حوباءها من الحوب ، فلا تخلص لها منفعة من
 مضرة ، ولا تخلوها مبرة من معرة ، سيطت فيها الحسنات بالسيئات ، ومزجت
 الطيبات بالخيئات ، وأني والزمان عر كني وعر كته ، وضر سني وضر سته ، فلئن
 ضعفت عن كسر شوكته ، فلا والله ما فلني بموته ، ولئن صدعني ، فما صدعني ،
 وماذا يصنع بمن ينزل ارزاءه ، حيث ينزل الناس نعماءه ، لا يلاقي الرضا عندي إلا ما
 يرضيه ، ولا ينال الجزع مني إلا ما يرديه ، أعطيت من اليقين مذبة أطردها ذباب
 الهموم ، ومن العزيمة جنة لا تخنقها الغموم ، هذا إذا لم أجد من المصيبة خلفاً ، ولم
 أملك لها من العوض طرفاً ، فكيف وقد وفر الله علي النعمة في بنوتك ، وأجزل لي
 الخلف في اخوتك ، وأسأل الله أن يطمس عين السوء ان تصل اليك

(يقول جامع الكتاب) ان الاستاذ الامام في عهده الأخير تعازي أبلغ
 من هذه وأحسن بياناً ، وأعلى منها عظة و عرفاناً ، ولكننا لم نظفر بشيء منها ، ورأينا
 أن لا يخلو الكتاب من شيء من هذا النوع من المنشآت فاكثفينا بما وجدنا ، وانا
 سمعنا منه أنه ثقيل عليه كتابة المکتوبات الشخصية ولا سيما التعازي منها

شذرات منه كتبه الى جامع الكتاب

ان لدي من شيخنا الاستاذ الامام كتباً كثيرة ، لكن اكثرها في الشؤون الخاصة ، كما يكون عادة في كتب الوالد الى ولده ولأمين سره ، ولكن قلما كان يكتب شيئاً بخلو من الحكم العامة ، أو الطرف الأدبية ، وانني أختم هذا الجزء بشذرات من كتبه إلي

١

كلمة له في الاستانة

من ذلك قوله في كتاب أرسله الي من أوروبا اذ كان عائداً من الاستانة بعد ذكر شيء من الاستانة منه انه صادف أحد تلاميذه السوريين هناك يطلب عملاً ولا يجده ، وانه أوصى به أحد أنجال عزة بك العابد « لا يمكن لشخص مستقيم السيرة أن يجد عملاً أو يعيب خيراً في الاستانة ، وعلى كل ذي دين أن يفر منها بدينه وبيقية نفسه . تعلمت في الاستانة ما لم يكن يعلم الا بالمشاهدة ، وستسمع منه ما يمكن التعبير عنه عند اللقاء ان شاء الله تعالى »

كلمة له من هذا الكتاب في أحباب الألقاب الرسمية

« ما ذكر عن الجوي (هو سليم باشا) ليس يبعيد عن أخلاف مثله ممن يفسون أنفسهم اذا حملوا وزر لقب من الألقاب ، اللقب يشغل عليهم فيزهق أرواحهم من أبدانهم ، ولا يبقى متعلق بأجسامهم الاخيال لا يعرف شيئاً من أنفسهم

٢

وكتب في رقيم أرسله الي من رمل الاسكندرية في شأن لإرجائه

الرد على مجلة الجامعة

« أخذت القلم الآن لأكتب وإذا بداخل يجي نحية الصباح ويشغلني بما لا فائدة فيه . ولا أدري كيف أصيب الوقت الذي أفرغ فيه لما أريد ، وهو يفرّ مني فرار الخير من أيدي المسلمين »

٣

وكتب في رقيم أرسله الي من السنبلاوين أيام كان متنقلا يوزع
الاعانات على المصايين بالحريق وكان وعدني بأن يتم مقالات الاسلام
والنصرانية في تنقله ذاك

« الى الآن لم أكتب شيئا في الموضوع لأنني في شغل شاغل من هؤلاء
المرزوثين في عقولهم أولا ، وفي بيوتهم ثانياً »

٤

وكتب في رقيم من رأس البر :

« مارأيت مكانا يشغل النفس عن كل شاغل مثل رأس البر لا يشتهي فيه
ان أمدّ يدي الى قلم ، وانما أطالع في أوراق متنوعة ، في أوقات متقطعة ،
ولذلك أراد أفضل مكان للراحة وتبديل الهواء ، بعد شدة التعب وطول العناء ،
« كنت انتظر أن يصل إليّ المنار هنا ليكون مما ألقى عليه نظري اذا أرجعته
عن أمواج البحر الأبيض ، ولم أطلقه الى بساط النيل الاحمر ، فأنا جالس طول
يومي بين البحرين »

٥

وكتب في رقيم آخر من رأس البر

« رأس البر لاعقل فيه ولاعمل ، وذلك لا يمنع من ارسال ملازم التفسير ، فكلام
الله يرد الفاراً من العقول ويعمر الحرب منها »

٦

ومن كتاب له من الاسكندرية يوصيني فيه بمساعدة صديقه
عبد القادر أفندي القباني صاحب جريدة (ثمرات الفنون البيروتية)
وكان قد جاء من بيروت الى مصر بأمر من واليها لامر من الامور
التي تهم السلطان عبد الحميد نفسه ، وراه الاستاذ في الاسكندرية - وانما
أشهر منه ما يدل على شدة عنايته باصحابه وهو :

« ثم اني احب ان تاعده في كل ما يلزمه فيه مساعدتك بقدر ما تستطيع
واعبر كل خدمة تقوم بها له كأنها منك الى شخصي عند اشد ما يكون من
حاجتي اليها ، وسلم عليه سلاما كثيراً ، ولعل القدر يأذن برؤيته مرة ثانية اذا
رجعت الى القاهرة يوم السبت والافاني استودعه الله »

٧

ومن هذا القبيل أن شاباً سورياً اسمه (كنعان شبلي) جاءه بكتاب
من تلميذه ومريده الامير شكيب أرسلان الشهير يوصيه فيه بمساعدته
على عمل يريد في مصر ، فأحاله علي ببطاقة مختومة كتب فيها :

« يحمل اليك هذا شاب متور يريد أن يطلب عملاً في التعليم بمصر ،
ومعرفة الطلب تتوقف على معرفة كثير من الناس ، ورأيت انك ممن يسهل له ذلك .
وقد جاءنا بكتاب من الامير شكيب أرسلان فأعنه على ما يريد بما تستطيع والسلام »
أي أعنه بما تستطيع لانه جاء بكتاب من الامير شكيب



كلمة له في المنار



رضى الله عنه

وكتب اليّ جوابا عن كتاب أرسلته اليه وكان في المنصورة جاء فيه كلمة تشعر بالشكوى من قلة الاقبال على المنار فقال في تعليل ذلك :

الناس في عماية عن النافع ، و في انكباب على الضار ، فلا تعجب اذا لم يسرعوا بالاشترار في المنار ، فان الرغبة في المنار تقوى بقوة الميل الى تغيير المحاضر ، بما هو اصلح للاجل ، وأعون على الخلاص من شر الغابر ، ولا يزال ذلك الميل في الاغنياء قليلا ، والفقراء لا يستطيعون الى البذل سبيلا ، ولكن ذلك لا يضعف الامل ، في نجاح العمل

فائمة للكتاب في بعض حكمه المنشورة ، وكلمه الأتورة

- (١) العلم ما يعرفك من أنت ممن معك
- (٢) العدل للاسعاد ، كلمة الله للايجاد
- (٣) العفة ثوب تمزقه الفاقة
- (٤) أشد أعوانك الحاجة اليك
- (٥) انما تم نكايه الاعداء ، بخيانة الاصدقاء
- (٦) هلاك العامة فيما ألفت
- (٧) جحود الحق مع العلم به كاليقين في العلم كلاهما قليل في الناس
- (٨) إنما بقاء الباطل في غفلة الخق عنه
- (٩) الرجوع عن الحق بعد العلم به محال
- (١٠) من عرف الحق عز عليه أن يراه مهضوما
- (١١) لا يكون أحد صادقا ومخلصا حتى يكون شجاعا
- (١٢) الشباب يحمل ما حُمِّل
- (١٣) ما وعظك مثل لانم ، ولا قومك مثل مقاوم
- (١٤) مادخلت السياسة في شيء إلا أفسدته
- (١٥) الذل يميته الارادة
- (١٦) من لاصديق له فهو عدو نفسه وعدو الناس
- (١٧) حسبك من الصديق أن ينصرك بقلبه
- (١٨) تغفل الموت في جسم الأمة حتى أصبحت لا تسمع النداء ولا تنتفع بالدواء
- (١٩) إنني لم أهني نفسي بوجود رجل في قومي يتجرأ أن يقول لي : أخطأت ، فهل أخاف أن يتجرأ أحد منهم على قتلي لا اعتقاده أنني أخطأت^(١)

(١) اخبرني أن رجلا كتب اليه كتابا هددته فيه بالقتل فقلت له وانتم تمشي كل ليلة منفردا من المحطة الى الدار - اريد أن ينقي ويحترس فقال : انني الخ

- (٢٠) من أم ما يجب التصريح به بيان ما انتشر بين العامة مما يحسبونه ديناً ، وهو عند الله ليس بدين
- (٢١) من شؤم بلادي أن لا أجد فيها من أستفيد منه ، وتمنيت لو كان كل الناس أعلم مني
- (٢٢) ما رأيت بلداً جعل فيه الدين دكنا مثل هذا البلد (يعني مصر)
- (٢٣) ينبني لأهل العلم أن يعملوا بما يتعلمون حتى لا يصدق عليهم قوله تعالى (بأيها الذين آمنوا اتقوا الله والرسول واتقوا أماناتكم وأنتم تعلمون)
- (٢٤) القرآن كلام أبدي رقم على صفحات الزمان الى قيام الساعة خطابا لجميع البشر
- (٢٥) في تفسير القرآن وفهم الدين لا يتبع إلا الدليل القاطع ، لأن هذا من باب العقائد ، وهو مبني على اليقين الذي لا يمكن الأخذ فيه بالظن والوهم
- (٢٦) إن المسلم من أخذ القرآن بجملته من أوله الى آخره ، ولا يكون كمن قال فيهم الله تعالى (أتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض)
- (٢٧) درجات العلم تتفاوت جداً ، والقرآن لم يعد منه شيئاً حقيقياً إلا العلم الذي يهدي الى العمل ، وهو المتمكن في النفس ، الذي تصدر عنه الآثار مطابقة له ، وكل من يعتقد شيئاً ولم يقف على سره ولم ينفذ الى باطنه فهو عبارة عن خيالات تزول بمجرد الشبهة
- (٢٨) إن خطاب القرآن لا يختص بواقعة بل يصح أن يكون خطبا بالكل الناس
- (٢٩) فهم القرآن متوقف على فهم العالم ، وقد نزل للناس وهو يعبر عنهم فلا يمكن فهمه إلا بفهمهم أيضا - أي فهم حقيقة احوالهم وسنن الله فيهم
- (٣٠) بقاء الاسلام الى اليوم كلف في الدلالة على أن الرسول عليه الصلاة والسلام كلن رسولا حقا ، وبقا القرآن كذلك محفوظا الى اليوم أقوى شاهد ودليل
- (٣١) لا بد أن يرفع القرآن فوق كل خلاف

- (٣٢) القرآن هو الدوحة والأصل الذي يرجع اليه ، وهو الذي يحمل في الدعوة ويجري على أحكامه
- (٣٣) القرآن لا بد أن يؤخذ من أقرب وجوهه ، وإياك والتعمق في التأويل الذي يجر الى البعد عن معانيه الصحيحة
- (٣٤) فهم كتاب الله يأتي بمعرفة ذوق اللغة ، وذلك بممارسة الكلام البليغ منها
- (٣٥) لا توجد مرآة يرى فيها عبدة الطاغوت أنفسهم أجلى من هذا القرآن ، فاذا لم يكن في قلب الانسان منفذ لدخول روح الله يخرج من كل نور إلى ظلمة
- (٣٦) إني عند ما أسمع القرآن أو أتلوه أحسب أنني في زمن الوحي ، وأن الرسول (ص) ينطق به كما أنزله عليه جبريل عليه السلام
- (٣٧) ليس وراء القرآن غاية
- (٣٨) إنما يصعب القرآن توهم أنه صعب ، وكلما أدخل الانسان على نفسه الصعوبة صعب عليه ، وكلما مكن نفسه من الفهم مكنه الله منه
- (٣٩) إن لكلام الله أسلوبا خاصا يعرفه أهله ومن امتزج بلحمه ودمه ، وأما الذين لا يعرفون منه إلا مفردات الالفاظ وصور الجمل فأولئك عنه مبعدون
- (٤٠) يجب على كل شخص له ايمان صحيح أن يعقل عقائده على الوجه الذي في كتاب الله وسنة رسوله
- (٤١) لو وقفنا عند حدود الله في كتابه لكننا أعز الناس وأحبهم اليه ، ولكن غلونا فوقعنا فيما وقعنا
- (٤٢) معنى عبادة الله بالقرآن عند الجاهلين به أن يقرأ الشخص ولا يخاطر المعاني بيباله ، ولا يحرك نفسه لا وامره أو نواهيه . وقراءة العتاقات والعديات من هذا القبيل
- (٤٣) لا يمكن لهذه الأمة أن تقوم مادامت هذه الكتب فيها^(١) ولن تقوم

الابالروح التي كانت في القرن الأول وهي القرآن ، وكل ما عداه
فهو حجاب قائم بينه وبين العمل والعلم

(٤٤) وقال في وصف الذين يصدون عن سبيل الله ويبلغونها عوجا :

(٤٥) هؤلاء قوم كلما رلوا أو سمعوا شيئا يرمون إلى قوة الدين وعظمته

يستكرون ، وقومون ويقعدون . وأما الخرافات فهم بها راضون

(٤٦) الاعتماد في تلقي العلم على مجرد الثقة دائما يكون معه لائح الشبهة الى ان

يقف الشخص على الدليل

(٤٧) كذب الانسان على نفسه وتغريه بها بحمل الانسان كثيرا على

الابتعاد عن الحق والأخذ به

(٤٨) البحث في كيفية الحلقة من شهوات العتول ولا يمكن الوصول اليه

قال تعالى ﴿ ما شهدتهم خلق السموات والارض الخ وكيف يمكن

لمن لا يعرف الرابطة بين فكره ولسانه أن يتكلم في كيفية الحلقة

(٤٩) اقل حلة تجمل المرء مهضوم الحق قهرا

(٥٠) وجود قليل من الأمة صالحين لا يدفع عنها نقمة الله التي يعاقب بها

الامم عند فسادها

(٥١) للعالم الشكية عرضة لايقاع الانسان في الخطر

(٥٢) كل شخص في العالم يفضل حالة على حالة فما دام على يقين من الوصول

اليها لا يبالى بما نال من الاخطار في طريقها

(٥٣) وقال في وصف بعض المغرورين : لم ينفذ اضعف شعاع من العلم

في قلبه فيجد له لذة

(٥٤) وقال في وصف أناس استحك فيهم الجهل والجهود :

هؤلاء قوم يحبون أن يقعدوا في صندوق من الجهل ويتفوهوا على

أنفسهم من حلقه حتى لا يأتي فأنح يفتحه ويفرج عنهم

(٥٥) اذا انحرف الانسان من الاستقامة لا يمكنه أن يصل الى حد مطلقا

(٥٦) إن الله لم يصم الراحة في غير العمل

- (٥٧) مجاهدة الانسان بطرد الخواطر عنه في الصلاة عبادة
- (٥٨) معرفة سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من أول الواجبات
وإن كان لا يجب على كل مسلم أن يعرفها بالتفصيل
- (٥٩) سنة الله في خلقه ان أتباع الحق يكونون فقراء في أول الامر ، ثم
سلاطين وأمراء في آخره ، لأن الحق حلیم ، والباطل سفیه ، والحق
لا يظهر الا اذا بلغ الباطل آخر حده فحينئذ ينهض الحق لمصارعة
- (٦٠) التوحيد كمال الانسان ، والوثنية هي الغالبة على الناس وذلك إما
بالجهل المحض ، أو بالأخذ والتشكل مع ادعاء التوحيد
- (٦١) الحياء أحسن فضيلة في الانسان تمنعه عما لا يليق به ونعم الخلق الحياء
- (٦٢) كل ما يصدر عن الانسان مخالفاً لما يعتقد حسناً فهو ذنب
- (٦٣) وقال في وصف كلام بلوغ سمعه أشخاص ولم يستعدوا له :
هذا شيء سهل على ارباب العقول الساذجة البسيطة ، ولكن صعب
على كل عقل تعلم البنائي على السعد
- (٦٤) الفكر في مخلوقات طاعة مستقلة
- (٦٥) كل ميل له سلطان على الانسان يقوده إلى العمل رغماً عنه فهو
معبود له ، وذلك الانسان ممن اتخذ آلهه هواه ، لان الحق لا يمجّد
من نفسه مكاناً إلا قليلاً
- (٦٦) وقال في مخاطبة بعض أهل الجود
اذا بقيتم على جهلكم بالتاريخ إلى هذا الحد فلا يمكنكم أن تعرفوا
دينكم ولا نجاح لكم في دنياكم .
- (٦٧) العلم القيني أن تعلم أن الشيء واقع وان تقيضه غير واقع فمن صدم
الدليل وقاومه يقال إنه عالم ولكن يقال إنه أضله الله على علم
- (٦٨) المؤمن من عرف الحق من وجهه وطريقه ورجوعه عن ذلك محال
- (٦٩) من فروض الكفاية على الامة ان يوجد فيها طائفة يحصلون أحكام الله
من كتابه وسنة رسوله ويردون الناس اليهما

- (٧٠) من يدعي أنه على حق ولا يعمل به فهو كاذب ويكون من قبيل الذين قال الله فيهم (يفترون على الله الكذب)
- (٧١) اذا لم توجه الأعمال لغايتها فالله كفيل بعدم نجاحها
- (٧٢) مهما بلغ الانسان في العلم لا يسلم من هاجس في نفسه يثبته ويقول له « استرح » ولكن العاقل لا يركن اليه
- (٧٣) اذا كان الانسان على علم حقيقي فهو حريص على تعليمه خصوصاً اذا كان هذا العلم من الدين ومن العجيب اننا نرى ازهد من المسلمين في التعليم
- (٧٤) من السنن الالهية التي لا تتغير ولا تبدل أن الاتفاق والاعتصام والاتحاد عماد ترقى الأمم وفوزها ، والتخاذل علة انحطاطها وذلتها ، سواء ذلك في الماضي والحاضر والمستقبل (ولن نجد لسنة الله تبديلاً)
- (٧٥) أكبر شيء يوجب التقوى أن يعلم الشخص أن الله قادر على الانتقام منه واعظم دليل على القدرة الالهية الاشياء التي تأتي على خلاف العادة
- (٧٦) ومما قاله في مخاطبة بعض الذين اتخذوا دينهم هزواً ولعباً استشعروا خشية الله في قلوبكم والا هلكتم
- (٧٧) ومما قاله في نصيحة بعض طلاب العلم على الطالب إذا خلا بنفسه أن يفكر كثيراً في المآني التي برومها ، وفي طريقة تعلمه وتعليمه ، وفي مقصده وغاياته
- (٧٨) وسئل رضي الله عنه في بعض دروس التفسير عن اختلاف المجتهدين فقال: لو اجتمعوا وتناصفوا لاتفقوا وما اختلفوا
- (٧٩) الدليل على صدق الانسان فيما يدعيه من الاخلاص أن يبذل من نفسه في سبيله ، فان لم يبذل فهو كاذب ، ومهما بلغ الانسان ولم يظهر هذا المحك إخلاصه فهو غير محاض
- (٨٠) لا يصدر فعل اختياري عن مختار الا اذا صدق بالغاية
- (٨١) إن الله حرم الرشوة لتقرير العدل في الأحكام ، لأن الحاكم اذا لم يكن له هوى في أحد الخصمين لا يبقى عنده سوى الحق

- (٨٢) من الناس من يطلب كماله بتنقيص الكامل ، وهذا نهاية الخسران
- (٨٣) لاصلاح مع الجهل
- (٨٤) الفقه الحقيقي أن تنظر الى شرع الله في جملة ومجموعه (أي لاني كل مسألة بانفرادها)
- (٨٥) ان الذي يعرف الحق يعز عليه أن يرى الحق مهاناً
- (٨٦) التعصب في المذاهب يعمي الشخص حتى عن لغته
- (٨٧) من كان مطلبه الحق ، ولم تدخل نفسه بينه وبين الحق ، أمكنه أن يتفق مع من كان مثله ، ولا يتأني الاختلاف بين طالبي الحق
- (٨٨) تعظيم الرسول عليه الصلاة والسلام إنما يكون باتباع أوامره واجتناب نواهيه
- (٨٩) نشغ بعض الناس بلفظ الاجماع حتى أصبحت لهم ديدناً ، وحتى زعموا أن كل ما عليه العامة فهو إجماع
- (٩٠) محاسبة النفس وخلجان القلب ركن كبير من أركان الايمان ، وقد جعلها الصوفية شرطاً مبرماً في نجاح الانسان
- (٩١) أخفى شيء على الانسان نفسه ، وليس من السهل عليه أن يعرف دخائلها
- (٩٢) لا يمكن لشخص أن يدعي أنه خلص من السخط على الله في قلبه الا اذا تقبل كل مصيبة بغاية الطمأنينة والركون الى الله والصبر بحيث يكون كالجبل لا يتزلزل
- (٩٣) الذي ينظر الى الحق ويحرص عليه لا يمكن أن ينخدع بقول من قائل مها بلغت ثقته به ما لم يعرضه على الحق الذي عنده ويمحصه
- (٩٤) أقوى شرط في النجاح قوة العزيمة فيه ، ويصر الانسان على الفرز بعرضه فاذا تضعفت العزيمة ضاع نجاحه ، وهذا شأن المسلمين الآن
- (٩٥) أمر القدوة في الدين أهم شيء في العقائد والأعمال ، فلا بد أن يبحث فيه الانسان بحثاً جيداً ، ويقف عليه وقوفاً تاماً (أي فلا يتخذ كل من ادعى العلم قدوة له)

- (٩٦) لا يمكن الانسان أن يعمل بمصلحة العامة ما لم يحس برابطه بينه وبينهم
- (٩٧) يجب على علماء الدين في كل زمن أن يعطوه حقه من شرح مسأله على حسب مقتضيات الأحوال
- (٩٨) إن الذي يحفظ العلم هو العمل به
- (٩٩) انما يأتي بالمباغة في قوله ، من كان مجازفا في رأيه ، والعقل السليم لا يتعدى الصدق
- (١٠٠) الحجاب المانع لكثير من معرفة ما يتعلق بالشؤون الالهية على ما يقرب من الحقيقة تحكم الشاهد في قلوبهم (أي قياس عالم الغيب على عالم الشهادة)
- (١٠١) لا يمكن للانسان أن يكون صادقا ومخلصا مع الله حتى يكون شجاعا
- (١٠٢) ان قراءة التاريخ واجب من الواجبات الدينية ، ووركن من أركان اليقين فلا بد من تحصيله
- (١٠٣) الايمان الذي يجتمع معه أدنى خوف من المخلوقات ليس بايمان ومن كان عنده من الثقة بالله مالا يخشى معه أحدا فهو المؤمن ، وهذا الايمان هو الذي يضع رجل صاحبه في عتبة الجنة
- (١٠٤) وقال في وصف مدينة القاهرة : ما رأيت بلدا جعل فيها الدين دكانا مثل هذه البلد
- (١٠٥) وقال في وصف بعض أهل الجود : هذه الرؤس ما خلقت إلا للتفكر لا لوضع العمام بنافس بعضهم بعضا في تضييع الزمن وفي هذا خسران الدنيا والآخرة
- (١٠٦) لا تشخذ البصيرة بشيء مثل الفكر
- (١٠٧) ما خلق الله في العالم من هو أشأم على نفسه من الحاسد
- (١٠٨) إن الانسان تضيق حياته وتتسع على مقدار ما يعرف اسمه ويشتهر
- (١٠٩) إن الله عالم بكل شيء ولا يتقرب إلى الله بشيء كالعالم
- (١١٠) تنقضي الاجيال والاعوام ولا يمكن أن ينقضي النظر في الحقائق الكونية ولا في الحقائق التي في نفس الانسان

- (١١١) اذا وجد الحب في قلب أسعده واذهب شقاه ، وأسعد الحيات
 محبة الصداقة ، فاذا وجدت المحبة الخالصة الصحيحة بين شخصين
 أسعدتهما أعظم سعادة ومن الأسف أن كثيراً منا لا يمكنهم
 أن يقدروا المحبة قدرها
- (١١٢) من أكبر التقوى علو الهمة ، ومن أكبرها السعي في مصالحة الأمة
 ونفع الناس
- (١١٣) أساس سعادة المسلم ثقته بالله وعمله لرضاه
- (١١٤) لا وحشة في النفس كوحشة الجهل وكما علم الانسان شيئاً أنس به وسراً
- (١١٥) لا يتأتى القمع بشيء إلا بعد إعمال الفكر
- (١١٦) وقال في وصف بعض اهل الفساد : هذا صنف مثل ديدان الفساد
 لا تعيش إلا في القذر
- (١١٧) الشعر اذا لم تكن الفاظه آخذة بجزء من روح الشاعر فليس بشعر
- (١١٨) لا يشتهر الانسان في شيء إلا اذا وصل فيه الى حد يعجز عنه الكثيرون
- (١١٩) وقال في حالة من الاحوال : نعوذ بالله من الجهل الذي تقفده
 القلوب حتى اذا بحث الانسان عن قلبه بين جنبه لا يجده
- (١٢٠) العبادة تحديد ما بين العباد وبين الله فلا يجوز فيها القياس
- (١٢١) لا يطلق على الله من الاسماء إلا ما جاء في كتابه أو في حديث
 متواتر لاننا لانعرف من الله إلا ما علمنا الله
- (١٢٢) ترك الاشتغال بدقائق الفصاحة والبلاغة والبراعة موت للحياة العقلية
- (١٢٣) من شر الهوى على الانسان أن يتعلق بما سمع ، وطالب الحق
 لا يتعلق بقول غيره إلا اذا عرف أنه يوصله الى الحق
- (١٢٤) وقال في وصف بعض اهل الجود
- (١٢٥) وضعوا لانفسهم لغة جديدة غير التي انزل الله بها شرعه ، ولذا
 نراهم في مثل وقفية الواقف يحارون في الفهم حيرة لا خلاص منها
- (١٢٦) أشد التعب أن ترى من حولك مرضى وانت لا تستطيع معالجتهم

- (١٢٧) كل ما سمع عن الرسول ينبغي الوقوف عنده بلا زيادة ولا نقصان
ومن لم يحق فقد تعدى على الشرع وخرج عن الحق
- (١٢٨) وجاءه رجل يشكره على مساعدته له فقال له كنا نشكر الله
- (١٢٩) من كان عنده مريض فهو المريض
- (١٣٠) ورأى رضي الله عنه كتابا من كتب الحكم فقال
- (١٣١) هذه الكتب تذكر الانسان بنفسه
- (١٣٢) الباطل لا يصير حقا بمرور الزمن (هذه السكامة قالها جوا اباب الخديوي
عند مسأله عن مسأله الترقية وقال له هذا شيء مضى عليه زمن)
- (١٣٣) انما ينهض بالشرق مستبد عادل

﴿ تم الجزء ﴾

هذا وإن له رضي الله عنه حكما أخرى كما أن له رسائل ومنشآت كثيرة
منها ما جعلناه في سيرته وهي الجزء الأول من هذا الكتاب وإذا اجتمع عندنا
شيء كثير منها بعد قاننا نودعه في جزء رابع نجعله ذيل لهذا التلخيص ونشر فيه
ما يضمن به ان يضع مما خوطب به من المشور والنظم موعظنا منه فحاشا كثيرة ،

نسأل الله تعالى أن ينفع بهذه الآثور

ويتفقد صاحبها بالرحمة

والرضوان